

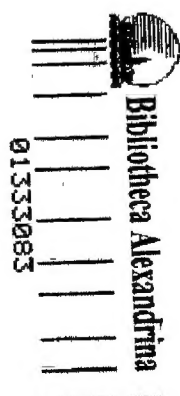
تأريخ المغرب العربي

٤

المرابطون : صنهاجة الصحراء الملتصقون
في المغرب والسودان والأندلس

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد

الناشر // **مستشار** بالاسكندرية
جلال عزى وشركاه



تاريخ المغرب العربي

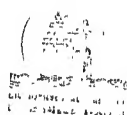
الجزء الرابع

المرابطون : صنهاجة الصحراء المثلثون

في المغرب والسودان والأندلس

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد

كلية الآداب - جامعة الكويت
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية (سابقاً)



General Documentation Centre

General Documentation Centre

General Documentation Centre

الطبعة الأولى ١٩٩٥

توزيع / منشأة النشر بالأمم المتحدة

جمال حزي وشركاه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ
'قرآن کریم ، سورة یوسف'
آیه ۱۱۱

تقديم

وبعد سنوات أخرى من الجهد والتعب يخرج الجزء الرابع من كتابنا
فى تاريخ المغرب العربى ، فى موضوع المرابطين ، من : بربر صنهاجة
الملثمين ، وحركة الاحياء التى قاموا بها فى الصحراء والسودان والأندلس -
فكان لهم دورهم فى توجيه الغرب الاسلامى بعامة الى ما آل اليه فى المصر
الحديث ، وحتى أيامنا هذه •

اننى أتذكر تعاميق أستاذنا الدكتور/محمد مصطفى زيادة على بحث
عرضته عليه ، اذ قال (يرحمه الله) : « اننا نحت فى الصخر » • كما
أتذكر رهبتى عندما كان يسألنى أستاذنا عزيز سوريال (له الرحمة) عن
باكورة أعمالى •

اننى لا أمل تكرار الشكر لكل من عاوننى فى انجاز هذا العمل
وأخص بالذكر :

- مكتبة كلية الآداب بجامعة الكويت وقاعة دورياتها الجديدة (وقتئذ) •
- مكتبة كل من قسمى التاريخ واللغة العربية ومكتبة الدراسات العليا
بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية •
- الزملاء الأساتذة والأبناء الطلبة الذين قدموا لى كل عون •
- رفاق الدرب على مسيرة اخراج كتابى فى تاريخ المغرب : د/نبيلة
حسن ، والأستاذ/يوسف شكرى •
- وأرحب بالرفاق الجدد : محمد الجمل ، ابراهيم سلامة ، أحمد
اسماعيل - طلبة الدراسات العليا ، علماء المستقبل •

- ٨ -

- أما عمن افتقدناهم : د/محمد عبد العال ، د/محمد عبد العزيز ،
د/مصطفى أبو ضيف - فإلهم الرحمة وخالد الذكرى .

ولا أنسى شكر الناشر السكندري الأستاذ جلال حزي ، والعاملين
بمؤسسته « منشأة المعارف بالاسكندرية » .

وأرجو أن يتيسر لنا عما قريب اخراج الجزء الخامس فى تاريخ
الموحدين .

وعلى الله التوفيق .

سعد زغلول عبد الحميد

الاسكندرية فى ١١/٩/١٩٩٤

الفهرست
المرابطون : صنهاجة الصحراء المثلثون
في المغرب والسودان والأندلس

- المقدمات : في أهمية الكتاب ومصادره ومحتوياته والتمهيد ص ٢٥
- الفصل الأول : في البلاد والسكان ص ٤٥
- الفصل الثاني : قبائل الجمالة المثلثين بالصحراء الكبرى قبل قيام دولة المرابطين ص ١٠١
- مقدمات الحركة المرابطية : خريطة الصحراء الثقافية مع مطلع القرن
الـ ٥ هـ / ١١ م ص ١٣٤
- الفصل الثالث : عملية النهضة المرابطية : أبو عمران الفاسي وحركة
التجديد الثقافية في صحراء المثلثين ص ١٥٧
- الفصل الرابع : قيام دولة المرابطين - القواعد التأسيسية والسياسة
المدنية ص ١٩٩
- الفصل الخامس : دولة يوسف بن تاشفين - استكمال فتوح المغرب
الشمالية ص ٢٣٣
- الفصل السادس : المرابطون وحرب الاسترداد في الأندلس - على عهد
يوسف بن تاشفين ص ٢٨٣
- الفصل السابع : على بن يوسف بن تاشفين - الذروة وبداية الانحلال
ص ٣٧٥

الخرائط والأشكال

الصفحة

- خريطة رقم ١ - الصحراء الانريقية الكبرى - المواضع التاريخية
في التقسيمات السياسية الحديثة ٤٧
- شكل رقم ٢ - موجات السكبان الرملية الصغيرة - جنوب
ورجلة (الجزائر) ٤٩
- شكل رقم ٣ - أشكال هلالية (رملية) قرب الخارجة - الوادي
الجديد (مصر) - مع صورة المؤلف ٥١
- شكل رقم ٤ - كروكي الصحراء الغربية ٥٣
- شكل رقم ٥ - كروكي الصحراء الشرقية ٥٥
- خريطة رقم ٦ - التقسيمات المناخية وموارد المياه الجوفية ٦٧
- خريطة رقم ٧ - توزيع الطوارق وغيرهم من الجماعات العرقية
في الصحراء والساحل والسودان ٧٢
- شكل رقم ٨ - طارقي ملثم (اللثام من النوع الصغير) ٧٩
- شكل رقم ٩ - قناع من غينيا الفرنسية - يوجد فيه السمات
الانسانية ورأس التمساح وجسم الثعبان ٨٢
- شكل رقم ١٠ - وادي سوف - المدينة في المقدمة وغابات
النخيل بين كثنان الرمل ٨٧
- شكل رقم ١١ - اللمط (الوعل) النموذج الأخير في صحراء
الجزائر - منطقة الراوى غرب سواره (حيث
تم القضاء عليه تماما) ٩٣

الصفحة

- شكل رقم ١٢ - امرأة بربرية (مغربية) وبصحبته خادمتهما
(أسيرتها)
١٢٧
- شكل رقم ١٣ - كف امرأة (عروس) مزوق بحنة الزرافة في
أشكال هندسية متنوعة مع حروف كتابية
واضحة
١٣٣
- خريطة رقم ١٤ - المغرب الأقصى مع بلاد السوس وواحات
الصحراء
٢٠٥
- خريطة رقم ١٥ - شبه جزيرة أيبيريا بطوائفها الإسلامية
والمسيحية - مع غزو ألفونسو المحارب في
الشرق (٥١٩ - ٥٢٠ هـ / ١١٢٥ - ١١٢٦ م)
٢٩٨
- شكل رقم ١٦ - نقود مرابطية ، مجموعة وليم قازان الخاصة ،
المسكوكات الإسلامية ، بيروت ١٩٨٤
٣٧٣
- خريطة رقم ١٧ - المواقع التاريخية ومحطات الطرق النجارية
عبر الصحراء الأفريقية
٤٢٠

محتويات الكتاب

الإلية الكريمة ص ٥

تقديم ، ص ٧ - الفهرست ، ص ٩ - الخرائط والأشكال ، ص ١٠ ،
١١ - المحتوى التفصيلي للكتاب : المرابطون : صنهاجة الصحراء المثلثون ،
ص ١٢ .

المقدمة في أهمية الموضوع ومصادره : الأهمية ، ص ٢٥ - المصادر
والمناهج ، ص ٢٦ - البكري ، ص ٢٧ ، الادريسي وصاحب الاستبصار وليون
الافريقي ، ص ٢٨ - ابن شداد الزيري - ابن الأثير - النويري - ابن
القطان ، ص ٢٩ - ابن عذارى ، ص ٣٠ - ابن أبي زرع ، ص ٣١ - ابن
خلدون ، ص ٣٢ - الحلل الموشية ، ص ٣٣ - الأوراق الرسمية والوثائق -
بروفنسال ، ص ٣٤ - مؤنس ومكي وعنان - مذكرات الأمير عبد الله ، ص
٣٥ - أعمال الاعلام لابن الخطيب ، ص ٣٦ - الذخيرة لابن بسام ، ص ٣٧ -
ابن بسام وابن حيان ، ص ٣٨ - عبد الواحد المراكشي ، ص ٤٠ - التراجم ،
ص ٤٢ .

التمهيد : ص ٤٣ .

الفصل الأول البلاد والسكان

البلاد : الصحراء الغربية ، ص ٤٥ - الاقليم الصحراوي : السمات
العامة ، ص ٤٦ - الطرق - بحار الرمل : مكوناتها النوعية - الكسوة
الرسوبية ، ص ٥٠ - الطقس ، ص ٥٤ - رياح الحرمتان والأمطار ، ص ٥٤
- التصحر ، ص ٥٧ - اقليم الساحل ، ص ٥٨ - بلاد النخل ، ص ٥٩ -
الأرض الرسوبية والأرض السوداء ، ص ٦٠ - توزيع المياه الجارية ، ص ٦١
- آبار الصحراء - الطرق الكبرى ، ص ٦٢ - مياه السودان الجارية ، ص
٦٣ - السنغال والنيجر ، ص ٦٤ .

السكان : صنهاجة الصحراء : المثلثون - القبائل وتوزيعها ، ص ٦٨

— ١٤ —

— لمتونة — لمطة ، ص ٦٩ — جدالة وجزولة ، ص ٧٠ — مبيوفة ، ص ٧١ — السمات انعامة لنباتات المتنمين ، ص ٧٣ — الجمالة رعاة الابل ، ص ٧٤ — الزى — اللنام ، ص ٧٧ — النعاب ، ص ٧٨ — وظيفة اللنام ، ص ٧٩ — ديانة السودان ، ص ٨١ — تطور اللنام ، ص ٨٣ .

الثروات الطبيعية : النبات ، ص ٨٤ — النخلة ، ص ٨٥ — اقاييم النخل ، ص ٨٦ — نباتات الساحل ، ص ٨٩ — الحيوان : الجمل ، ص ٩٠ — حيوانات البرية — اللط ، ص ٩٢ — صيد البحر — الجراد ، ص ٩٤ — ثدييات الساحل — البقر ، ص ٩٥ — ثروات السودان ، ص ٩٦ — الثروات المعدنية : الملح — الحديد والنحاس ، ص ٩٧ — الأحجار الكريمة ، ص ٩٧ — العنبر ، ص ٩٨ — الاسبيستوس ، ص ٩٨ .

الفصل الثاني

قبائل الجمالة الصحراوية قبيل قيام دولة المرابطين النظم السياسية والحياة الاجتماعية

التمهيد : مجتمعات البربر والجماعات السودانية ، ص ١٠١ — وسائل المواصلات في الصحراء ، ص ١٠٢ — ظهور البدو الجمالة ، ص ١٠٣ — أهمية ظهور الجمل ، ص ١٠٣ — توغل صنهاجة جنوبا الى حدود السودان ، ص ١٠٤ — الهجرة الى غانده ، ص ١٠٥ — العلاقات التجارية والحضارية مع السودان ، ص ١٠٦ .

القبائل والمواطن وطرق المواصلات : ص ١٠٧ — امبراطورية لمتونة القديمة ، ص ١٠٨ — مدينة ترغا الطوارقية ، ص ١٠٩ — بداية دولة الملثمين — الملك تلجاجون وتيلوتان ، ص ١١٠ — الملك يلنان ، ص ١١١ — بداية نشر الاسلام جنوب الصحراء ، ص ١١١ — ملوك الطوائف الصنهاجية ، ص ١١٢ — النهضة على عهد نارشت الى ظهور يحيى بن ابراهيم الجدالي ، ص ١١٢ — التجارة مع السودان وازدهار مدينة سجلماسة ، ص ١١٣ — مسالك التجارة وطرقها ، ص ١١٤ .

الخريطة السياسية الاجتماعية للصحراء الكبرى في القرن ٤ هـ / ١٠ م.
— صنهاجة الصحراء في القرن ٤ هـ / ١٠ م — الأسرة ، ص ١١٥ — المسكان الصحراوي والمسكن السوداني ، ص ١١٦ — أودغست ومملكة غانده ، ص ١١٦ — دويلات الطوائف ما بين صنهاجة والسودان ، ص ١١٧ .

ع. ١٥ -

الزدهار أودغست ، ص ١١٨ - انتشار الاسلام في التكرور ، ص ١١٩ -
النظم الاجتماعية عند الملثمين ، ص ١٢٠ - النظام الاموى ، ص ١٢٠ ، ١٢٥ -
أودغست تحت حكم تنبروتان ، ص ١٢٠ - ملكية انتخابية ، ص ١٢١ -
اتحادات القبائل ووحدة المقر ، ص ١٢١ - طبقات المجتمع ، ص ١٢١ -
السمات الطبيعية (الفيزيائية) ، ص ١٢٢ - بربر صنهاجة والسودان ،
ص ١٢٣ - الوحدة العرقية الصغرى : الأسرة أو البيت ، ص ١٢٤ - النظام
الاموى ، ص ١٢٥ - حرية المرأة ، ص ١٢٦ - كتابة التيفيناغ ، ص ١٣٠ -
الحفاظ على اللغة البربرية ، ص ١٣٢ - نقوش الحناء ، ص ١٣٢ .

الحركة المرابطية ، المقدمات : خريطة الصحراء الثقافية مع مطلع القرن
ال ٥ هـ / ١١ م : بقايا ثقافات قديمة وضغوط المذاهب المخالفة ، ص ١٣٤ -
التشيع الاسماعيلي والخارجية الصفرية ، ص ١٣٥ - التنظيمات الاجتماعية
والانساق العرقية ، ص ١٣٦ - النبذ ، ص ١٣٦ - الغارة على القوافل ،
- حياة الصيد والسرقة - المتعة عند السودان وعدم العفة عند البربر ، ص
١٣٧ - الجهل بتعاليم الاسلام ، ص ١٣٧ - أودغست وتادمكة من مراكز
التجارة لا الثقافة ، ص ١٣٨ - فاس والقيروان وحركة الاشعاع الاسلامي
في مطلع القرن ال ٥ هـ / ١١ م ، ص ١٣٩ - الرحلة الأندلسية الى المشرق ،
ص ١٣٩ - القيروان والفسطاط مركزان علميان في طريق الحجاز ، ص ١٤٠ -
المدرسة المكية - رحالة العلم الأندلسيون - مكة مركزا علميا - شيوخها ،
ص ١٤١ - المدرسة المصرية وأشهر علمائها ، ص ١٤٥ - مدرسة القيروان ،
وأشهر علمائها ، ص ١٤٩ .

الفصل الثالث

عملية النهضة المرابطية : أبو عمران الفاسي وحركة التجديد الثقافية في صحراء الملثمين

القيروان العاصمة الثقافية للمغرب والأندلس ، ص ١٥٧ - أبو عمران
الفاسي (منشأ) القيروان (وطن) ، ص ١٥٧ - رحلته العلمية ، ص ١٥٨ -
العودة الى المغرب ، ص ١٥٩ - أستاذه في الفقه المالكي ، ومعرفته
بالكلام والفلسفة ، ص ١٦٢ - مدرسة أبي عمران وأشهر أعلامها ، ص ١٦٣ -
صلاته الوثيقة بعامة القيروان ، ص ١٦٤ .

أبو عمران الفاسي والتنظيم الايديولوجي للدولة الصحراوية الدينية ،
ص ١٦٤ - تلميذه وخاج بن زلوا ، ص ١٦٥ - التنازع في وفاة أبي عمران

- ١٦ -

وشخصية الزعيم الصنهاجي ، ص ١٦٥ - مجاولة ترتيب الأجيال ، ص ١٦٦ - تصحيح وفاة أبي عمران وتأخيرها الى ٤٣٩ - ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ - ١٠٤٩ م ، ص ١٦٨ - وتوثيقها ، ص ١٦٨ - مشكلة الزعيم الجدالي ، ص ١٦٩ - اللقاء بين أبي عمران ويحيى الجدالي (١٠٤٨ / ٤٤٠) ، ص ١٧٠ - اختيار المعلم ، ص ١٧١ - دور محمد وجاج السوسي ، ص ١٧٢ - عبد الله ابن ياسين محتسبا ، ص ١٧٤ - رباط وجاج ، ص ١٧٥ - الطريق الى جدالة ، ص ١٧٦ - أصول الاحتساب عند عبد الله بن ياسين : في أرض جدالة ، ص ١٧٧ - في أرض لتونة ، ص ١٧٩ - حدود القطع والرجم ورفض لتونة ، ص ١٧٩ - معسكر أهل الحق : مدينة ابن ياسين الفاضلة ، ص ١٨١ - ثورة لتونة بقيادة الجوهر - وانتهاء مشروع المدينة الفاضلة ، ص ١٨٢ .

الرباط : رباط عبد الله بن ياسين - أهمية رواية البكري - الهدف من الرباط في المغرب ، ص ١٨٣ - أرتننى رباط ابن ياسين الأول ، ص ١٨٤ - مكان الرباط - تاريخ اقامته (١٠٤٨ / ٤٤٠) ، ص ١٨٥ - الموضع واحتمالاته المختلفة ، ص ١٨٦ - جزيرة ايوني - رباط ماسة - مصب السنغال الأوفق ، ص ١٨٧ - نظام المراقبة ، ص ١٨٩ .

الجماعة الأولى من المرابطين : أهل الحق - التوابون - المرابطون ، ص ١٨٩ - شروط الالتحاق بالرباط ، ص ١٩٠ - التوبة والتطهر ، ص ١٩١ - الحدود ، ص ١٩٢ - الخروج من الرباط والعمل الايجابي : بداية دولة الرباط : دولة أهل الحق ، ص ١٩٣ - الدعوة السلمية قبل الأعمال الحربية ، ص ١٩٤ - غزو جدالة ، ص ١٩٤ - غزو الصحراء ، ص ١٩٥ - خضوع لتونة ، ص ١٩٥ - خضوع مسوفة ، ص ١٩٦ .

دخول بقية قبائل صنهاجة الصحراء في دعوة الرباط - والتخلص من بقايا المعارضين ، ص ١٩٦ .

الفصل الرابع

قيام دولة المرابطين - القواعد التأسيسية والسياسة المدنية

القيادة المشتركة وتقسيم العمل ، ص ١٩٩ - الجيش ، ص ٢٠٠ - الخطط الحربية ، ص ٢٠١ - بيت المال ، ص ٢٠٢ - تزكية المال ، ص ٢٠٣ .

التوسع الاقليمي خارج الصحراء - فتح درعة وسجلماسة : الأسباب .
 - ما بين طلب الزكاة والشكوى من الحكم ، ص ٢٠٤ - النوازل الكونية
 والانفجار السكاني ، ص ٢٠٦ - فتح أودغست ، ص ٢٠٧ - غدر
 سجنماسة ، ص ٢٠٨ - الفقيه رئيسا ، ص ٢٠٩ - انشقاق المثلثين والحرب
 الأهلية - بدء ظهور أبي بكر بن عمر ، ص ٢٠٩ - هزيمة تبغريلى ومقتل
 يحيى بن عمر ، ص ٢١١ - اتحاد قبائل الرباط اللمنونية تحت قيادة
 عبد الله بن ياسين ص ٢١٢ - جدالة قبيلة حليفة ، ص ٢١٢ .

**قيادتان : شمال الصحراء وجنوبها - تدرج الفتوح الشمالية من
 اغمات الى برغواطة ، ص ٢١٣ - فتح اغمات ، ص ٢١٤ - أول ذكر ليوسف
 ابن تاشفين ، ص ٢١٥ - القضاء على امارة البجليين الشيعية ، ص ٢١٥ -
 فتح السوس الأقصى ، ص ٢١٦ - نفيس - ايجلى - نول لمطة (٤٥٠ /
 ١٠٥٨) ، ص ٢١٧ - الغاء المظالم ، ص ٢١٨ .**

**فتح تامسنا : بلاد برغواطة - السمات العامة للحركة البرغواطية ،
 ص ٢١٨ - هرطقة برغواطة ، ص ٢٢٠ - فيما بين التشدد الخارجي
 والتساهل الشيعي ، ص ٢٢١ - الصلاة - الزكاة - عيد الأضحى ، ص ٢٢٢ -
 الزواج والطلاق وغيرها من المعاملات ، ص ٢٢٢ - الجرائم والعقوبات ،
 ص ٢٢٣ - ترجمة القرآن ، ص ٢٢٤ - ملوك آل صالح ، ص ٢٢٥ - ضم
 تامسنا لدولة الرباط ، ص ٢٢٦ - معالم حرب تامسنا ، ص ٢٢٧ - سمات
 حرب المطالبة مع زناته ، ص ٢٢٧ - موقعة كريفلة ومقتل عبد الله بن
 ياسين ، ص ٢٢٨ - وصية ابن ياسين واتخاذ منظر بديل ، ص ٢٢٩ -
 المنز لمقتل الفقيه وكسر آخر معازل برغواطة ، ص ٢٣٠ .**

الفصل الخامس **دولة يوسف بن تاشفين**

**يوسف بن تاشفين واستكمال فتوح المغرب الشمالية وتصفية دوله
 زناته المغراوية ، ص ٢٣٣ - دور أبي بكر بن عمر فى فتح المغرب قبل
 الرحيل ، ص ٢٣٥ - من توقيت رحيل أبي بكر الى توقيت فتح المغرب ،
 من مناقب الرجال الثلاث ، ص ٢٣٦ - رحيل أبي بكر والعهد الى يوسف ،
 ص ٢٣٧ - اغمات قاعد مرابطية - زواج أبي بكر بن عمر من زينب
 النفزاوية ، ص ٢٣٨ - بناء مراکش : التوقيت ، ص ٢٣٩ - اختيار موضع
 مراکش ، ص ٢٤٠ - أهمية الموقع وبدء البناء ، ص ٢٤١ - أعمال أبي بكر**

فى البناء ، ص ٢٤٢ - أعمال يوسف بن تاشفين فى بناء مراكش ، ص ٢٤٣ - جامع الكتبية فى موضع جامع القصبة ، ص ٢٤٤ .

يوسف بن تاشفين أميرا لدولة العباد المرابطين : الرجل - نفسه وصفاته ، ص ٢٤٧ - معاشه ، ص ٢٤٨ - يوسف نائبا لولاية المغرب ، ص ٢٤٩ - العهد الى يوسف بالولاية ، ص ٢٤٩ - شروط الاتفاق على النيابة ، ص ٢٥١ - تركة الأمير الخاصة : نوع من توريث الزوجة ، ص ٢٥١ - تقسيم الجيش - تنصيب يوسف والعمليات العسكرية فى المغرب ، ص ٢٥٢ - التمهيد للأعمال العسكرية - مراكش ، ص ٢٥٣ - زينب النفزاوية ، ص ٢٥٤ .

أعمال يوسف بن تاشفين فى عهد النيابة ، ص ٢٥٥ - الحرب فى المغرب : تهدين الفبائل ، ص ٢٥٦ - فتح فاس ، ص ٢٥٧ - ما بين فتح غمارة ، وردة فاس وطاعة مكناسة ، ص ٢٥٧ - إقامة نظم الدولة وتراثيمها - الدواوين - ديوان المال والخراج ، ص ٢٥٩ - الحرس الأميرى من العيين السود والصدقاتية البيض - دار السكة ، ص ٢٦٠ - دولة ابن تاشفين فى مهب الريح : عودة أبى بكر بن عمر من الصحراء ، ص ٢٦٢ - اعتزال أبى بكر لصالح يوسف ، ص ٢٦٤ - ما بين الجهاد جنوب الصحراء والمطالبة بمملكة المغرب ، ص ٢٦٥ - محاولة إبراهيم بن أبى بكر المطالبة بمالك أبيه ، ص ٢٦٦ - وفاة أبى بكر بن عمر ، ص ٢٦٧ .

عهد يوسف بن تاشفين - الاستقلال والتقسيم ، ص ٢٦٨ - المرابطون والسودان الغربى - دولة أبى بكر بن عمر الصحراوية ، ص ٢٦٨ - استشهاد أبى بكر فى غانه ، ص ٢٦٩ - الثورة على لمتونة فى السودان - وتأسيس تومبوكتو محل غانه ، ص ٢٧١ - التوسع الاقليمى فى عهد يوسف بن تاشفين - استكمال فتوح المغرب ، ص ٢٧٢ - فتح الأقاليم البحرية فى شمال المغرب - خضوع منطقة سلا ، ص ٢٧٣ - التوسع فى

انسوس الأدنى : فتح مكناسة ، ص ٢٧٤ - فتح فاس ، ص ٢٧٥ - فتح
نلمسان ، ص ٢٧٧ - تهدين البلاد والتقسيم الإداري ، ص ٢٧٩ - غزو
الصدوة الأفريقية : سبتة وطنجة ، ص ٢٨٠ - فتح طنجة ، ص ٢٨١ .

الفصل السادس

المرابطون وحرب الاسترداد في الأندلس

على عهد يوسف بن تاشفين

فتح الأندلس حتمية تاريخية ، ص ٢٨٣ - الموقف العام في الأندلس
- تهديد فرناندو الأول ، ص ٢٨٤ - الصراع بين رؤساء الطوائف -
تهديدات ألفونسو السادس ، ص ٢٨٥ - سقوط طليطلة - وحتمية التدخل
المرابطي ، ص ٢٨٦ - (أمراء الطوائف) ما بين الوعي والغيبوبة ، ص ٢٨٨
- الصراع بين أصحاب طليطلة وبطليوس وأشبيلية ، ص ٢٨٩ - بلاد النغر
تحت حماية دويلات الاسترداد بشكل تبادلي ، ص ٢٩١ - الفتنة في طليطلة ،
ص ٢٩٢ - فرار ابن ذي النون ودخول ألفونس السادس طليطلة - التدخل
المرابطي في الأندلس - عملية الانقاذ المرابطية ما بين الأمانة والواقع ، ص
٢٩٣ - طاب النجدة من يوسف بن تاشفين ما بين القبول والرفض ، ص
٢٩٤ - التفكير في الاستعانة بالعرب ، ص ٢٩٥ - رعى الجمال أفضل من
رعى الخنازير ، ص ٢٩٦ - فتح سبتة وعبور يوسف إلى الأندلس - سبتة ،
ص ٢٩٧ - العبور ، ص ٢٩٩ - التحالف الأندلسي المرابطي ورد الفعل
الأسباني - النمهيذ لمركة فاصلة ، ص ٣٠٠ - ثقة ألفونس السادس في
النصر ، ص ٣٠١ - موقعة الزلاقة في بطليوس - ميدان المعركة ما بين
التلقائية والاختيار ، ص ٣٠٢ - وقعة الزلاقة ، ص ٣٠٤ - إدارة المعركة
في الجانب الإسلامي ليوسف ، ص ٣٠٦ - أخبار الجواسيس ، ص ٣٠٧ -
تباطؤ حركة المرابطين ، ص ٣٠٨ .

الكهين : الحرس الأميري يحسم المعركة ، ص ٣٠٩ - الربيع والخسارة

فى المعركة الفاصلة ، ص ٣١٠ - التقييم الحتامى للزلافة ، ص ٣١٢ - حرب الاحلال والتجديد المرابطية ، ص ٣١٣ - يوسف بن تاشفين أميرا المسلمين ، ص ٣١٤ - لقب شرفى بعد النصر ، ص ٣١٦ - امارة المسلمين تنهى نظام الطوائف ، ص ٣١٦ - مشكلة التوقيت ، ص ٣١٦ - الحامية المرابطية الأولى ، ص ٣١٧ .

العبور الثانى وحصار لبيط - استيلاء الاسبان على حصن لبيط ، الهيمنة المسيحية فى الشرق ، ص ٣١٩ - حصار حصن لبيط ، ص ٣٢١ - دور الفقهاء فى تقرير مصير أمراء الطوائف ، ص ٣٢٢ - وقوف أمير المسلمين الى جانب ابن عباد ضد صاحب مرسية ، ص ٣٢٣ - ألفونس السادس يحاول نجدة الحصن - حرب سجال دون نصر ، ص ٣٢٤ - توجيه قيادة الجبهة الأندلسية تحت رايات أمير المسلمين - انهاء نظام الطوائف ، ص ٣٢٥ - سمات التغيير ، ص ٣٢٦ - الأسباب العامة ، ص ٣٢٦ - الأسباب المباشرة ، ص ٣٢٨ - غرناطة أولا ، ص ٣٢٩ .

استسلام بقية الأمراء فى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م - سير بن أبى بكر نائبا ، ص ٣٣٢ - سبنة رباطا جديدا ، ص ٣٣٣ - مسار الأحداث - تمهيد منهجى ، ص ٣٣٣ - الوحدة بداية لعملية الانقاذ ، ص ٣٣٤ - خطة شاملة لغزو الطوائف ، ص ٣٣٥ - مملكة العباديين الهدف الأول - مسار الأحداث ، ص ٣٣٨ - قيادة الحامية المرابطية - مقر نيابة الأندلس ، ص ٣٣٩ - الشروع فى غزو أشبيلية ، ص ٣٤٠ - أخذ المرية ، ص ٣٤١ - سقوط جيان وقرطبة ، ص ٣٤٢ - تهدين أعمال قرطبة وموقف المعتمد من ألفونس ، ص ٣٤٣ - تحييد القشتاليين : هزيمة البرهانس - الثغر الأقصى : قلعة رباح - نهاية العباديين فى أشبيلية ، ص ٣٤٤ - ازدواجية الفتح : الصلح والعنوة ، ص ٣٦٦ - نهاية المعتمد فى اغمات ، ص ٣٦٧ .

غزو بطايوس : آخر ممالك الوسط والغرب ، ص ٣٤٩ - المرابطون

فى شرق الأندلس ، ص ٣٥١ - تمهيد منهجى ، ص ٣٥٢ - أخذ قبره
ومرسية (شعبان ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م) ، ص ٣٥٣ - دخول دانية وشاطبه ،
ص ٣٥٤ - غزو بلنسية - نهاية القادر بن ذى النون - بلنسية تحت حماية
السيد ، ص ٣٥٥ - ابن جحاف رئيسا تحت الحصار ، ص ٣٥٦ - عودة
السيد الى بلنسية ، ص ٣٥٧ - أمير المسلمين يشرف على العمليات الحربية
من بعيد ، ص ٣٥٩ - الجيش الاسلامى صيد سهل لرجلى الريكونستا
(ألفونس والسيد) ، ص ٣٥٩ - السيد أميرا لبلنسية ، ص ٣٦٠ -
استرجاع بلنسية (٤٩٥ هـ / ١١٠١ م) بعد تحريقها بالنار ، ص ٣٦١ .
اعلان ولاية العهد فى غرناطة : مقر النيابة (٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م) ،
ص ٣٦٣ .

العودة الى مراکش ونهاية يوسف بن تاشفين ، ص ٣٦٥ - الموقف
فى شرق الأندلس ، ص ٣٦٦ - مرض يوسف والتطاول على الغرب من قبل
ألفونس السادس ، ص ٣٦٨ - وفاة يوسف نهاية مرحلة القوة المرابطية ،
- صورة يوسف ، ص ٣٧٠ - الدينار اليوسفى ، ص ٣٧١ .

الفصل السابع

على بن يوسف بن تاشفين - ذروة العصر المرابطى
بداية الانحلال ، ص ٣٧٥

صورة على بن يوسف : أمير المسلمين وناصر الدين ، ص ٣٧٦ -
ما بين صورة كل من يوسف وولى عهده على ، ص ٣٧٧ - وصية يوسف
فى أصول الحكم ، ص ٣٧٨ - مبايعة رؤساء القبائل وتوزيع الحكم ، ص
٣٧٩ - الادارة المدنية ، ص ٣٨٠ - أحوال الأندلس تثير اهتمام على بن
يوسف منذ ولايته ، ص ٣٨٢ - العبور الأول لـ على بن يوسف ، ص ٣٨٣
- محاولة اكتساب رضا الجميع - فى حملة التفقد الرادعة ، ص ٣٨٤ -

فتح أقليمش ، ص ٣٨٥ - قيادة الأمير تميم (أخى أمير المسلمين) والى
 غرناطة ، ص ٣٨٦ - هزيمة الاسبان ومقتل ولى عهد ألفونس السادس .
 ص ٣٨٧ - العبور الثانى الى الأندلس (٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م) ، ص ٣٨٨ -
 فتح طليطلة واجتياح منطقة طليطلة ، ص ٣٨٩ - سرقسطة ما بين المرابطين
 والاسبان المسيحيين - الدخول تحت المظلة المرابطية ، ص ٣٩٠ - هزيمة
 مروعة لجيش سرقسطة واستشهاد المستعين بن هود ، ص ٣٩١ - استنجد
 عماد الدولة بن المستعين بالاسبان المسيحيين ، ص ٣٩٢ - زعماء سرقسطة
 يستدعون المرابطين ، ص ٣٩٢ - وعماد الدولة يستدعى ملك أراجون -
 هزيمة المرابطين ومقتل يحيى بن محمد بن الحاج (آخر ٥٠٣ هـ / صيف
 ١١١٠ م) ، ص ٣٩٣ - ذروة الصراع بين المرابطين والاسبان ، ص ٣٩٣ -
 سرقسطة وساحتها ميدان قتال ، ص ٣٩٤ - أمير المسلمين يغبر القيادة
 ويعين الأمير مزدلى قائدا أعلى ، ص ٣٩٥ - مزدلى يجتاح منطفة طليطلة
 (٥٠٧ هـ / ١١١٣ م) ، ص ٣٩٦ - وفاة مزدلى واستشهاد ابنه بعده : من
 علامات الهبوط ، ص ٣٩٧ - مظاهر الهبوط والتردى ، ص ٣٩٩ - مصائب
 الحرب الاسبانية - اضطراب الزناتية فى العدو - غارات ردعية للجنوبيين
 على ميورقة وبرقة ، ص ٤٠١ - وقعة قرطبة واستشهاد محمد بن مزدلى ،
 ص ٤٠٢ - الهياج الشعبى على المرابطين : ثورة قرطبة (١١٢١ / ٥١٤) ،
 بداية النهاية للمرابطين ، ص ٤٠٣ - حدث فردى يثير العمامة على القائد
 المرابطى ، ص ٤٠٤ .

الموقف الدينى والثقافى فى الأندلس والمغرب - فى أوائل عهد الأمير

على بن يوسف ، ص ٤٠٥ - المالكية المرابطية - تمهيد منهجى ، ص ٤٠٦ -
 ما بين الدراسة التقليدية ، والاتجاهات الصوفية المستجدة ، ص ٤٠٧ -
 غريب الحديث والتسامح الدينى ، ص ٤١٠ - اتجاهات أخلاقية فى دراسة
 الحديث ، ص ٤١١ - اتجاه نحو التسامح الدينى ، ص ٤١٣ - اتجاهات

- ٢٣ -

مالكية متشددة على المستوى الرسمي ، ص ٤١٤ - من مظاهر الفتور في
علاقة أمير المساجين بالشيخ الأندلسي - نبوة قرب وفاته ، ص ٤١٥ -
احراق كتب الغزالي بشارة قيام مذهب النوحيد لمحمد بن تومرت ، ص ٤١٥
- احياء علوم الدين وشموع التوحيد الاسلامي آثار الخلاف بين فقهاء
الأندلس والغزالي (حجة الاسلام) ، ص ٤١٦ - فتوى ابن راشد (الجلد)
بتغريب جماعات المعاهدين آثار خـواطـر أصحاب الاسترداد على الوجود
الاسلامي في الأندلس ، ص ٤٢٠ .

- فهرس المصادر والمراجع الواردة في الهوامش ص ٤٢٣
- أسماء الأشخاص والقبائل والجماعات ص ٤٣٥
- أسماء المدن والجبال والأنهار والأماكن والمواضع ص ٤٥١

المقدمة

في أهمية الموضوع ومصادره :

الأهمية :

يعتبر تاريخ المرابطين في المغرب من موضوعات التاريخ الاسلامي الهامة لأكثر من سبب ، ربما لا يكون أهمها تلك العمالية التي قام بها يوسف بن ناشفين لانقاذ المسلمين في الأندلس من السقوط تحت ضغط حرب الاسترداد المسيحية المعروفة باليكونكيستا . هذا ، وان كان لدخول الأندلس تحت حكم المرابطين في مراكش آثار عظيمة من حيث الربط بين طرفي الغرب الاسلامي شمال المضييق وجنوبه ، في وحدة سياسية - حضارية واحدة ، بقيت علاماتها المميزة ، في كل من غرب أوروبا وغرب أفريقيا الى اليوم .

ومثل هذا يقال عن أهمية دخول المرابطين مملكة غانة السودانية قبل ذلك ، ونشر الاسلام في المناطق التي لم يكن قد دخلها بعد ، جنوب الصحراء ، الأمر الذي كانت له آثاره الحاسمة فيما آلت اليه حديثا الأوضاع السياسية والمظاهر الحضارية في غرب أفريقيا حتى أيامنا هذه .

والمهم بشكل عام أن دولة الرباط التي قامت في صحراء المغرب في منتصف القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، تأسس قيامها على عملية احياء للاسلام ودولته مثل غيرها من عمليات التجديد التي كان يحاولها بعض الموهوبين من رجال الاصلاح المسلمين من أهل السياسة والدين بين حين وآخر ، بغرض تنقية الاسلام مما لحق به من الشوائب أو محاولة تقويم ما لحق بالمجتمعات الاسلامية ودولها من اعوجاج عن الطريق المستقيم أو انحراف . وذلك في ضوء مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو بدعوة العودة الى عصر النعما الأول : عصر النبوة والرشاد .

وهكذا بدأت الحركة المرابطية تقليدية هدفها نشر الاسلام السني في الصحراء ، ولكن تمددها جنوبا في السودان وشمالا في أسبانيا حولها مع مرور الوقت ، الى امبراطورية متعددة الثقافة والأعراق ، الأمر الذي عرضها

الى زلزلة أسقطتها بعد حوالى ٦٠ (ستين) سنة فقط من ضم الأندلس ،
لكى تحل محلها فى كل من المغرب والأندلس حركة اصلاح جديدة ، أكثر
تطورا ، قامت باسم دولة الموحدين - موضوع دراستنا القادمة - ونجحت
فى دمج بلاد المغرب بطابعها المميز الذى تعيشه الآن .

المصادر والمنهج :

التأريخ للدولة المرابطية هو التأريخ للجيل الثانى من قبائل صنهاجة
المغربية ، وهم الممنون من بربر الصحراء . فكأنه تسجيل لحياة بعض
الشعوب البدوية ، تماما مثل التأريخ للعرب فى رمال جزيرتهم وواحاتهم
أو تسجيل لحياة الترك والمغول فى سهوب بلادهم فى أواسط آسيا وفيافياها .
فهو اذن تاريخ لم يدون بشكل منتظم الا بعد وقت من بداية الحركة المرابطية
واستقرار فواعد دولتها . وبناء على ذلك فهو يعتمد فى بداياته على الرواية
الشفهية التى كثيرا ما نطور وتتجور ما بين الحفيفة الواقعة والاسطورة
المتخيلة . وهذا ما يعانى منه تاريخ المرابطين فى بداياته الاولى ، تماما كما
هو الحال بالنسبة لتاريخ العرب والاسلام فى بداياته الاولى ، وكذلك الأمر
بالنسبة لتاريخ الترك والمغول فى مراحلهم الاولى حيث تغلب القصص
الشعبية المعروف بالفلكلور على كثير من أطرافه .

وهنا يمكن أن نجد بديلا لذلك القصص الشعبى فى الساريخ المدون
لدى بعض الشعوب المدنية المجاورة . والمثال لذلك تاريخ العرب المسلمين
عند البيزنطيين ، وتاريخ الترك والمغول عند الصينيين . وهنل هذا يقال عن
تاريخ المرابطين حيث تتمثل بداياته الاولى فى روايتين ليسا محليتين من
بنات الصحراء . أولاهما أندلسية ، وهى رواية البكرى المعاصرة ، وثانيتهما
أفريقية تونسية للأمير الزيرى الصنهاجى : عبد العزيز بن شداد المتوفى
فى أواخر القرن السابع الهجرى/ ١٣ م . والمهم أن هذين الاتجاهين :
الأندلسى والأفريقى سيستمران كعلامتين مميزتين فى التأريخ للمرابطين ،
وخاصة بعد نزولهم فى الأندلس وضمها الى دولتهم باسم الاسلام والدفاع
عن دياره ، وذلك فى مقابل النزعة الأندلسية فى الساريخ المرابطى التى
تجبل من الضم اقتناتا على حقوق الأندلسيين فى حكم بلادهم والدفاع
عنها ، وان كان بمعونة من الأخوة المسلمين وأميرهم فيما وراء العدة (أو
المضيق) . فكأنها نزعة من الشعوبية بين العرب والعجم ، أو نزاعا طائفيا
اقليميا ، مما ساد فى ذلك الوقت على المستوى الاسلامى والطائفى الاقليمى

أيضا ، مما نلنى الإشارة اليه فى هذا التعريف بالمص. ادر أو فيما يطالبه.
التوثيق المنهجى فى العرض التاريخى .

والمهم فى التاريخ المربطى أنه يعانى كثيرا من نقص المصادر على مستوياتها المختلفة ، من الوثائق والأدب التاريخى والجغرافى والثقافى بعامة ، والأثرى بخاصة - حيث لم يبق لنا شىء من بقايا المربطين أو لقاياهم وآثارهم ، وهى الآفات التى يعانى منها التاريخ الإسلامى ، نتيجة طبيعية لآفات المجتمعات الإسلامية المتمثلة فى عدم الاستقرار السياسى وتوابعه من الاضطرابات الاجتماعية أو العكس من ذلك .

البكرى :

والبكرى هو أبو عبيد عبد الله (القرطبى ، ت ٤٨٧ هـ) ، وكتابته النسى يهنا هو الجزء من المسالك والممالك المعروف باسم « المغرب فى ذكر بلاد أفريقيا والمغرب » ، والنسى نشر بمعرفة البارون دسلان (Siane) بالجزائر سنة ١٨٥٧ م ، تحت عنوان « وصف أفريقيا الشمالية » ، بالفرنسية ، مع تعريف بالبكرى وبيان بأهمية الكتاب بالنسبة لتاريخ المغرب استنادا الى تشييم محتوياته .

ووصف أفريقيا للبكرى يعتبر وثيقة معاصرة (٤٦٠ هـ/ ٨ - ١٠٦٧ م) من الطراز الأول بالنسبة للعصر المربطى الأول فى بلاد المغرب ، من حيث التعريف بالبلاد الصحراوية وطرقها ومفاوزها ، وأهلها الجمالة المشمين وحياتهم القاسية فى الصحراء - التى كان لها سحرها أيضا - وخصوصية عاداتهم وتقاليدهم النابعة من طبيعة تفردهم فى القفار ، وكيف تهيأ لهم القيام بحركة الإصلاح الدينية المربطية التى غيرت الشمال الأفريقى (فى القرن الـ ٥ هـ/ ١١ م) من حال الى حال ، بفضل فريضة الحج التى ربطت بين المشرق الإسلامى والمغرب فى دائرة ثقافية واحدة - مما نعرض له فى الدراسة - متجدة مع توالى المواسم والأعوام .

ومع أهمية الرحلة ورحلة الحج بصفة خاصة كمصدر حى للأخبار ، فإن المعلومات الدقيقة التى يقدمها البكرى عن البلاد والطرق والناس والتراتيب والبادات والتقاليد ترقى الى المستوى الوثائقى بمعنى رجوع البكرى الى وثائق أرشيف قوطبة الاستعلامية التى كان يزخر بها الديوان هناك منذ أيام الناصر والمنصور ، والتى استفاد منها البكرى من غير شك ،

كما يرى دسلان فى تقديمه للكتاب بالفرنسية (ص ١٣ - ١٥) ، وهو الأمر المقبول حقا .

والمهم أن معلومات البكرى الفريدة عن أحوال المرابطين من بربر صنهاجة الصحراء المثلثين كانت موردا نهل منه القدامى ، من الادريسي (قرن ٦ هـ / ١٢ م) الى الحسن الوزان (ليون الأفريقى : قرن ١٥ هـ / ١٦ م) والمحدثون ، من كولى :

(W.D. Cooley, Early History and Geography of Central Africa, 1841 الى جوتييه : (E.F. Gautier, Le Sahara, 1940) الى حد اعتماد البعض بحق ، عليه فى عمل الدراسات المتعمقة ، كما فعل جان ميشيل ليسار (J.-M. Lessard) فى دراسته عن سجلماصة (هسبيريس ، ١٩٦٩ فصل ١ - ٢) ، وهو ما نقتدى به من غير تردد .

ومن المهم الاشارة هنا الى أننا استفدنا من توقيت البكرى الدقيق للأحداث فى تصحيح بعض التواريخ الخاطئة عند غيره من المتأخرين ، الأمر الذى ساعد على تحديد مسار التاريخ المرابطى فيما بعد عصره بشكل منطقى مقبول ، الأمر الذى يكرس مرجعية البكرى من غير شك .

الادريسي ، وصاحب الاستبصار ، وليون الأفريقى :

ومن الواضح أن الادريسي (القطعة الخاصة بالمغرب ، دراسة محمد حاج صادق) استفاد من تأليف البكرى فى أخبار قبائل المرابطين من صنهاجة لمتونه ولطة ، الرحالة الذين ليس لهم مدينة الا نول لطة وزقى ، حيث محطات خدمة قوافل الابل الصحراوية (ص ٧٤ - ٧٥) ، الى جانب ما يقدمه من معلومات عن بناء مراكش على عهد يوسف بن تاشفين ، واستكمال بنائها على عهد على بن يوسف ببناء قصر الحجر ، وجلب الماء من العيون خارجها (ص ٨٣ - ٨٤) .

أما صاحب الاستبصار (أواخر قرن ٦ هـ / ١٢ م) فجعل اعتماده فى أخباره على البكرى - فى هذا الموضوع . كما يظهر أثر البكرى أيضا عند الحسن الوزان (القرن ١٥ هـ / ١٦ م : ليون الأفريقى ، وصف أفريقيا ، الترجمة العربية عن الفرنسية - السعودية) الى جانب مشاهدات القرن الـ ١٦ م التى يمكن الاستفادة منها عن طريق القياس والمقارنة مما يظهر فى الدراسة .

ابن شداد الزيرى (ت حوالى منتصف القرن ٦ هـ / ١٢ م) :

ورسمل الرواية الأفريقية التونسية فى تاريخ المرابطين فى كتاب « الجمع والبيان فى أخبار المغرب والقيروان » لعبد العزيز (أبو محمد عز الدين) بن شداد بن (الأمير) تميم بن المعز بن باديس (الزيرى الصنهاجى) المتوفى حوالى منتصف القرن ال ٦ هـ / ١٢ م . فبسبب انتماء ابن شداد الى الزيريين فى أفريقية يمكن اعتبار كتابه هذا نوعا من التاريخ الوطنى او القومى الصنهاجى ، وان أصبح بحكم الاقتباس والنقل يمل وجهة نظر المشاركة لتاريخ المرابطين .

ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) :

فابن الأثير - بما له من رسوخ فى التاريخ الاسلامى - يعطى وزنا عظيما من غير شك ، لرواية ابن شداد عندما يعرضها فى تاريخ المرابطين بعد عرضه لرواية الرقيق فى الهلالية وسقوط خلافة قرطبة التى يتق فيها بصفتها رواية « رب البيت الذى هو أدرى بما فيه » - وان كانت رواية ابن شداد قد تعرضت مع مرور الوقت ، لأخطاء النساخ وربما للتحويل والزيف - خصوصا بعد قيام دولة الموحدين المعادية للمرابطين . والمنزل لذلك قصة الفيل الذى ركه الفونس ، وقصة اخفاق أمير المسلمين فى التخلص من شيخ جبل كزوله ، والكف عنه بعد ما انكشف سره ، الى جانب قصة الرجال الثلاث الذين انتهى أحدهم زينب النفزاوية زوجة يوسف بن تاشفين .

النويرى (ت ٧١٩ هـ / ١٣١٩ م) :

وهى من الآفات التى تعانى منها رواية ، النويرى (تاريخ الغرب الاسلامى : أفريقيا والمغرب والأندلس ، تحقيق كل من مصطفى أبو ضيف - الدار البيضاء - وحسين نصار - القاهرة) الذى رجع الى رواية ابن شداد فنقلها أو لحصها مع ما هو معروف عنه من النقل من ابن الأثير .

ابن القطان (ت ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م) :

ومما يؤسف له أنه لم تصلنا من الجزء الذى وصل الينا من كتاب « نظم الجمان » لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، لابن القطان ، الا قطعة صغيرة متناثرة عن أواخر عهد المرابطين (٥٠٨ هـ / ١١١٤ م - ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م : تحقيق محمود مكى ، الرباط) . وهذه القطعة من تاريخ المرابطين

فى الأندلس خاصة بفترة المطاولة (الصراع) بين المرابطين والموحدين .
ومن أهم ما تقدم تلك القطعة من تاريخ المرابطين فى الأندلس وقعة أليش
(سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م) ، وغزو اقليم طليبة (٥٠٣ هـ / ١١١٠ م) ،
وهى السنة التى يضع فيها احراق كتاب الأحياء للغزالي ، الى جانب أخبار
محمد بن تومرت الأولى .

ابن عذارى (يكتب حوالى ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م) :

ويرجع الفضل لابن عذارى الذى تعتبر حوليانه فى « البيان المغرب »
العمود الفخرى لتاريخ المغرب الاسلامى فى كل العصور ، الأمر الذى يتأكد
من عرض مصادره فى الجزء الأول الذى نشر بمعرفة بروفسال وكولان .
ومن حسن الحظ أن أسفرت جهود الباحثين عن استكمال اجزاء هامة من
الكتاب بعد الجزئين اللذين نشرهما دوزى ، مثل الجزء الثالث فى تاريخ
الطوائف الذى أخرجه بروفسال ثم الجزء الرابع فى تاريخ المرابطين ، قبل
القسم الخامس فى تاريخ الموحدين ، مما كان لوينى ميراندا جهده فى اخراجه
الأمر الذى ساعده على اخراج كتابه فى « تاريخ امبراطورية الموحدين » .

وتتأكد أهمية أخبار ابن عذارى فى تاريخ المرابطين بمقارنتها بغيرها
من روايات المتقدمين عنها والمتأخرين ، اذ تثبت المقارنة أن ابن عذارى مؤرخ
موهوب ، يعرف كيف يوازن بين مختلف الروايات ، ويميز الغث من
السمين ، الأمر الذى يؤكد التوقيت الصحيح للأحداث - عصب التاريخ
الرئيسى - الأمر الذى يساعد حقا فى تحديد المسار السليم للوقائع عندما
تضطرب فيما بينها وتختلف لسبب أو لآخر .

ورغم ما يعترى القطعة من البيان الخاصة بالمرابطين والتى تمتد على
طول مائة عام تقريبا وتمثل الجزء الرابع من الكتاب حسب نشرة احسان
عباس (بيروت ١٩٦٧) ، من النقص فى البداية والنهاية الى جانب بعض
الخروم مثلما يشير اليه المحقق فى ص ٣٠ (عن أحداث ما بين ٤٦٩ —
٤٩٥ هـ / ١٠٧٦ — ١١٠١ م) ، فانه زاهر بالموضوعات والمعلومات الوفيرة ،
من : حركة الأمير أبى بكر بن عمر الى الصحراء ، وتسمية يوسف بأمير
المسلمين ، وعبره الى الأندلس ، وثورة ابن جحاف ببليسية ، وأخبار
البلاد الشرقية ، وحرق الأحياء ، الى ولاية على بن يوسف ، وتاشفين بن على .
ومما يحمد للمحقق محاولته استكمال تلك القطعة بتزويدها ، بالملاحق

الخمسة في : ترجمة يوسف وبعض أعماله ، الى جانب المعلومات عن اسلاف ابن ذي النون ، والقاضي ابن جحاف في بلنسية .

ابن أبي زرع (ت حوالى ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م) :

وكتاب ابن أبي زرع الذى يعتبر من نوع كتب التاريخ المحلى ، من حيث انه يحمل عنوان « الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وناريخ مدينة فاس » (الرباط ١٩٧٣) فكأنه من كتب تاريخ المدن ، حتى شبهه جوتييه بكتب الارشاد السياحي ، من حيث عنايته العائنة بمعالم مدينة فاس القديمة ، التى ما زالت باقية الى اليوم ، لتجمل من فاس بحبيها « البالى » و « الجديد » تحفة فى متحف « المغرب » الحديث ، من تحف النصور الوسطى التى تعزز بها بحق مديرية الآثار هناك ، وقد يكون ذلك من مبررات ترجمة الكتاب الى عدد من اللغات الأوروبية الحديثة ، من الألمانية والبرنغالية والأسبانية ، بل والقديمة مثل ترجمة طورنبرج اللاتينية .

ورغم ذلك فروض القرطاس يعتبر بحق أيضا مصدرا لا غنى عنه بالنسبة لتاريخ « المغرب » (الحديث) من : الأدارسة وحتى العصر المريني فى أوائل القرن الثامن الهجرى / ١٤ م . والمؤلف يعرض بشكل عام لتاريخ دول المغرب دون توثيق أو اسناد . ودون انباع منهج الحوليات التاريخي . وإن كان قد عوضه بأسلوب شبيه آخر ، وهو انتهاء تاريخ الدولة بعرض لأهم الأحداث ، من اجتماعية واقتصادية وظواهر كونية مع وفيات الاعيان . وهو فى ثانيا عرضه يلجأ الى استكمال تواريخ آثار فاس وخاصة جلاء القرويين حيث يعالج أعمال الدول المختلفة حتى أيامه ، مثلما يتكلم عن أعمال يوسف بن تاشفين فى الجامع العمري بعد أعمال العامين (سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م) (ص ٥٩) ، ويتبع ذلك بأعمال الموحدين والمرينيين .

وفىما يندلق بتاريخ المرابطين فهو يشغل قسما معتبرا من الكتاب ، تحت عنوان الخبر عن ظهور الدولة المرابطية اللمتونية ، وقيامها بالمغرب والتبلة ، وبلاد الأندلس ، وذكر ملوكهم ومدة أيامهم الى انقضائها وذهابها . وهكذا تنوالى على دولة المرابطين بعد عبد الله بن ياسين ٤ (أربعة) عهود نسمى بالدول ، وهى دولة كل من : الأمير أبى بكر بن عمر (ص ٣٣) مع وفاة زينب النفزاوية سنة ٤٦٤ هـ (٩) ، والأمير يوسف بن تاشفين ثم ابنه على وحفيده تاشفين - دون اعتبار للمراهق : ابراهيم بن تاشفين - آخرهم .

رواية البكرى واضحة المعالم ، فى الفترة المرابطية الاولى ، وكذلك

رواية القاضي ابن جنون (قنون) (ص ١٦٦) الذي يعتبر من مصادر ابن شداد .

ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) :

يعالج ابن خلدون دولة المرابطين عرضاً في أكثر من موضع ، فهو يعرض لها في المقدمة ، كما يعالجها في تاريخ البربر على مستوى الدولة ، وعلى مستوى القبيلة من : لمنونة الى غيرها ، مثل : مسوفة . وهكذا يعرض للمرابطين تحت عنوان : الطبقة الثانية من صنهاجة ، وعم المندوم ، وما كان لهم بالمغرب من الملك (ج ٦ ص ١٨١ ، من ط . بولاق المصورة بيروت) . ويتناول هذا القسم العناصر الآتية : المشمون من صنهاجة (ص ١٨١) ، وتاريخهم الأول من بداية اسلامهم ، وفيه يظهر أثر البكرى ، كما تأتي الإشارة أكثر من مرة الى ابن أبي زرع ، (١٨١ - ١٨٢) ، والخبر عن دولة المرابطين من لمنونة وما كان لهم بالعدوتين من الملك (١٨٢) . وهو في عرضه لحرب يوسف بن تاشفين لغراوة وبني يفرن في فاس وتلمسان وغيرها من مدن المغرب الأوسط يذكر ما حدث به المؤرخون بشكل عام ، ويخصص عندما يذكر قول صاحب : نظم الجواهر (ص ١٨٤) الذي لا نعرف ان كان يقصد به صاحب نظم الجمان (ابن القطان) أم لا ، قبل أن يوجه أنظاره ، نحو الأندلس والعبور الى الفونس الـ ٦ (ص ١٨٦) ، وسوء العلاقة بملوك الطوائف والفتوى بخلعهم (ص ١٨٧) ، ومخاطبة الخلافة العباسية ، ومخاطبة الغزالي له (ص ١٨٨) ، وملك علي بن يوسف ، والصراع مع الفونس الـ ٦ الى ظهور المهدي محمد بن تومرت (ص ١٨٩) .

ونص ابن خلدون ما زال في حاجة الى تحقيق ، فكثير من الأسماء بل والتواريخ محرفة نتيجة لأخطاء النساخ وكذلك الأمر بالنسبة لعدد من التواريخ ، وهذا ما يظهر في ترجمة دسلان وتصحيحاته التي يمكن أن تساعد كثيراً في إعادة تحقيق النص . فـ « تاوكا » صحتها « تاركا » (طارقه ، تاريخه) على سبيل المثال ، وبنو « صولان » : بنو مولان ، وكاكرم : كاكدم (قاقدم) ، و « بتولوثان » : « يتلوثان » (ج ٦ ص ١٨١) ، « وتيزاو بن وانشق بن بيزاء » : تينزوا بن وانشق بن بيزار ، و « ناشرت » : نارشت ، و « الكندالي » : الكدالي (الجدالي) (ج ٦ ص ١٨٢ د والترجمة ج ١ ص ٦٥) . وتأتي (في ص ١٨٣) قراءة اسم « لقوط » (البرغواطي - صاحب سبتة وأغمات) ليعتمد صحتها دسلان في شكل « Laghout » بدلا من « سكوت » .

التي تأتي في ابن خلدون في مواقع أخرى ، والتي أصبحت دارجة عند غير ابن خلدون من القدامى والمحدثين بدلا من لقوط .

ومثل هذا يقال عن بعض التواريخ مثل : استيلاء الفونس الـ ٦ (الطاغية) على بلنسية سنة ٨٥ (١٠٩٢/٤ م بدلا من ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م) وجواز يوسف الثاني سنة ٨٦ (٤) هـ/١٠٩٣ م بدلا من ٤٨١ هـ/١٠٨٨ م (ج ٦ ص ١٨٧ ، والترجمة ، ج ١ ص ٧٩) .

والمهم في رواية ابن خلدون أنه استطاع أن يقابل بين الروايات المتضاربة ، وأن يختار الصحيح منها ، وأن يستبعد الروايات القصصية ، ويقدم رواية سليمة وإن كانت مختصرة . والمهم أن يتبها من ينقيها مما شابهها من تحريفات النسخ والنقل .

« الحلل الموشية » في الأخبار لمراكشية (لمجهول أنجزها في ربيع الأول سنة ٧٨٣ هـ/مايه ١٣٨١ م) :

ورواية الحلل رغم تأخرها النسبي وسرعتها تعتبر من المراجع الهامة بالنسبة لتاريخ الدولة المرابطية ، من حيث أنه يمكن عن طريقها سد بعض الفراغات في تاريخ المرابطين سواء في المغرب أو الأندلس ، أو اكمال ما تعاني منه بعض الروايات من الخروم أو القوط . هذا ، كما تميزت هذه الرواية المجهولة المؤلف بتوازنها من حيث العناية بكل من المغرب والأندلس بنفس القدر ، وكذلك الأمر بما فيها من توازن في تقييم العمل المرابطي بالأندلس دون تحيز لأي من موقفى الأندلسيين والصحراويين الملمثين ، بما يمثله كل طرف على المستويات الحضارية والانسانية .

وصاحب الحلل يذكر بعض الكتب التاريخية التي أخذ عنها ، مثل : البكرى ، وأبى يحيى بن اليسع ، صاحب كتاب المغرب في محاسن المغرب (ص ٦٢) ، وكذلك محمد بن الخلف (ص ٦٦) ، الى جانب روايات المعاصرين من شهود العيان ، ذوى المناصب المعتمدة ، مثل : محمد بن عبد العزيز بن الامام : أحد خواص المعتمد بن عباد (ص ٥٧) .

والمهم أن صاحب الحلل ينفرد ببعض المعلومات التفصيلية ذات الشكل الديوانى ، من حيث العناية بالعدد والوصف الدقيق ، مثل : قائمة الهدية الذى قدمت من قبل يوسف بن تاشفين الى ابن عمه الأمير الأكبر : أبى بكر ابن عمر ، عند عودته من السسودان ، والتي احتوت دنانير الذهب ،

والأفراس والسيوف المحلاة بالذهب وأنواع الملابس النيمية ، من العمامات المقصورة والأثواب السوسية ، والبرانس الملونة ، وقباطى الشاش الملونة ، والجوارى الأكار ، وأرطال العود الغالى والمسك الطيب والعنبر والند ٠٠ الخ والحقيقة أن النص على أن يوسف كتب الى أبى بكر كتابا يعتذر فيه عن قلة الهدية (ص ٢٨) ، ربما تعنى أن مصدر تلك المعلومات التفصيلية المدهشة هى تلك الرسالة ، على ما نظن .

هذا الى جانب ما يعرضه صاحب الحلل من خطابات رسمية بمناسبة اتخاذ لقب أمير المسلمين (ص ٢٩) ، أو بمناسبة استصراخ المتوكل بن الأنطس بأمير المسلمين (ص ٣٤) ، وكذلك المعتمد (ص ٤٥) وهو ما يعنى الثقة فى الأصول الديوانية (الوثائق) فى الحلل الموشية ، بصرف النظر عن سرعتها واضطراباتها أحيانا .

الأوراق الرسمية والوثائق :

والحقيقة أنه كان للأندلس بحضارتها الديوانية العريقة التى كانت قرطبة ما زالت تحتفظ ببعض بقاياها ، أثرها على الكتابة التاريخية للدولة المرابطية والموحدية ، وهما الدولتان العريقتان فى أصولهما الصحراوية « الجبلوية » ، من حيث طغيان المادة الوثائقية المتمثلة فى الرسائل الرسمية الصادرة من دواوين الطوائف . وانه لما يؤسف له أنه لم تصلنا - بسبب الاضطرابات السياسية والاجتماعية التى عمت كلا من الأندلس والمغرب فى القرون التالية - أية نماذج أصلية من تلك الرسائل . فالذى وصلنا منها هى نماذج مشوهة نقلها الهواة من : كتاب أدباء أو مؤرخين هواه بعضهم عن بعض ، حتى وصلت إلينا مشوهة الصورة والنسخ . ولما كان كتاب هذه الرسائل من الأدباء والشعراء أصلا ، كانت غلبة الطابع الأدبى على تلك النسخ من الرسائل الى جانب الاسراف فى استخدام المحسنات اللفظية ، والتشبيهات والاستعارات ، مما يحد ان لم يمنع الاستفادة منها الى حد كبير .

بروفنسال :

ويرجع الفضل للأستاذ بروفنسال فى الكشف عن مجموعة مخطوطة من الرسائل الرسمية المرابطية والموحدية ، اكتفى بنشر الأخيرة منها لأنها كانت أحدث وأوثق (نشر الرباط ، ١٩٣٤) . أما بقية الرسائل المرابطية

للأقل قيمة وغائبة فقد كان من حسن الحظ أن لقيت من عكف على دراساتها
من المختصين اقتداء ببروفنسال .

هؤنس ومكى وعنان :

فكان حسين هؤنس نشاطه فى هذا المجال حيث نشر بعض اؤرسائه
فى المجلة النصرية للدراسات التاريخية (١٩٤٩) ، وفى صحيفه المجهـ
المصرى بمديره (١٩٥٤) ، وخاصة تلك الرسائل التى نشرها فى دراسه
عن النغر الاعلى أى مملكة سرقسطه (مصر ١٩٩٢) ، ونجنوى على : (ربيع)
رسائل ، اولاهها عن موقعة أفليش (٥٠١ هـ / ١١٠٨ م) ، والسانية عن
سقوط سرقسطه (٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م) ، والثالثة والرابعة عن هزيمة اقلعه
(٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م) . هذا ، كما قام محمود مكى بنحنيق ونشر ماكان قد
بقى من رسائل بروفنسال (المرابطية) ، وهى : ٢٢ (اثنان وعشرون)
رسالة مرابطية فى موضوعات مختلفة ، منها : لقاء ابن رشد ببوسف بن
تاشفين ، بمناسبة مسألة المعاهدين ، وغزو منطقة طليطلة على عيد على بن
يوسف (٥٠٧ هـ / ١١١٣ م) ، ورسالة موجهة سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م
الى قاضى ريه عن زيادة اختصاصات القضاة ، ووصايا على بن يوسف
الى رعيته الأندلسيين (٥٠٠ - ٥٠٨ هـ / ١١٠٦ - ١١١٤ م) ، ورسالة من
مراكش سنة ٥٠٦ هـ / ١١٠٣ م عن مركز الفقهاء المميز لدى المرابطين ،
وعن أحوال بلنسية التى استنقذت من السيد (٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م) .
واستدعاء الكاتب ابن أزرى سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م لاستخدامه فى ديوان
إنشائه ، وتولية شخص على ميورقة ربيع ٥١٠ هـ / ١١١٦ م ، ورسالة فى
قتل الجراد (لابن القبطرنة) . هذا كما نشر محمد عبد الله عنان بعض
الرسائل المرابطية فى ملحق كتابه عن المرابطين والموحدين .

أما عن أهم الأدب التاريخى الخاص بالمرابطين فى الأندلس ، فهو ذلك
النوع الذى يأخذ شكل المذكرات الشخصية ، سواء كانت معاصرة أو
هتأخرة ، مثل : مذكرات الأمير عبد الله الصنهاجى ، وأعلام ابن الخطيب ،
ومعجب عبد الواحد المراكشى ، وأخيرا ذخيرة ابن بسام .

مذكرات الأمير عبد الله (٤٦٩ - ٤٨٣ هـ / ١٠٧٦ - ١٠٩٠ م) :

تعتبر مذكرات الأمير عبد الله المعروفة « بكتاب التبيان » من المصادر
الهامة بالنسبة للتدخل المرابطى فى الأندلس . ففى مقدمتها ينص الاسماء
بروفنسال (ذخائر العرب ، رقم ١٨ ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٨) على أن تلك

المذكرات التى دونت أثناء الإقامة الجبرية لمؤلفها فى أغمات ، تمثل أعظم مجموعة وثائق وصلت إلينا فى تاريخ ملوك الطوائف وأقلها تحويرا .

والحقيقة أن المؤلف يستهل مذكراته تلك بمقدمة يقرر فيها الطريقة التى اتبعها فى الكتابة ، وهى التى تمثل منهجا معتبرا فى أسلوب التأليف ، من : جودة الصياغة ، والأمانة فى النقل ، ومراعاة ترابط الأحداث ، واستخدام العقل فى القياس ، مع مقارنة الماضى بالحاضر من حيث أن الـ « أنا : آن الآن » ، بمعنى أن إدراك الوجود هو ذات الزمان ، كما نظن . وهو اذ يعرف أن التجربة مهمة فى التعليم ، فانه يدرك أيضا أن : ليس العلم بكنزة الرواية ، انما هو نور يضعه الله فى القلوب ، بمعنى أن العلم لا يعنى بالتكرار والاعادة ، بل بالكشف والتجديد ، وهو ما يشبه الاستنارة العقلية لدى الماوردى فى باب العقل من أدب الدنيا والدين .

وينص الأميرالفرناطى وطنا الصنهاجى أصلا ، على أهمية التمرس بالتجربة السياسية بالنسبة لأمثاله من الأمراء المستقلين بالحكم والادارة . وهو فى ذلك يأخذ بمقالة كل من الفارابى والماوردى فى أن صناعة الحكم والرئاسة هى أشرف الصناعات ، الأمر الذى يتطلب أن يكون صاحبها فيلسوفا عالما ، شبه معصوم من الخطأ (١) .

ولا ينسى الأمير عبد الله فى مذكراته التنبيه الى الاستفادة بتجارب الماضى التاريخية ، حيث الاشارة الى ذاتية الأحداث التاريخية ، وأهمية الصدفة فى المسار التاريخى ، كما فى قصة تسلم المنصور بن أبى عامر لقمة السلطة فى قرطبة ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لهم فى غرناطة (المذكرات ، ص ١٨) .

أعمال الاعلام لابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م) :

وهذا الكتاب هو الآخر من روائع الأدب التاريخى المتخصص فى عصر ملوك الطوائف رغم تأخره بشهادة مؤلفه لسان الدين ابن الخطيب ، أحد كبار رجال السياسة والأدب فى القرن الثامن الهجرى / ١٤ م ، مثل معاصره وصديقه ابن خلدون .

(١) انظر للمؤلف ، الماوردى بين التاريخ والسياسة ، جامعة الاسكندرية (الموسم الثقافى) ١٩٧١ ، ص ٦٢ .

فلقد جمع ابن الخطيب مادة تاريخية غنية عن تلك الفترة ، جعلت روايته ترقى الى مستوى المصدر الاصيل ، تماما كما هو الحال بالنسبة لروايته المتأخرة عن غرناطة القرن (الـ ٨ هـ / ١٤ م) الموسومة بالاحاطة حقا ، الى جانب كونها أساسية بالنسبة لأصول نظام الطوائف وجذوره التي عرف في رجل السياسة والأدب كيف يكشف عن مظانها المعتبرة ، كما كان لديه الذكاء والخبرة الميدانية التي تمكنه من بيان عللها ومعرفة خباياها .

فنشأة نظام الطوائف كان نتيجة طبيعية لسقوط خلافة قرطبة التي أعلنها شيخ الجماعة أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور عندما اتفق على خلع هشام المؤيد ، وإبطال رسم الخلافة جملة ، حيث تقسم بعدئذ رؤساء الطوائف البلاد والأقطار (أعمال اعلام، نشر بروفنسال ، ص ١٣٩) ، تماما كما كانت الدكتاتورية العامرية من الأسباب المباشرة لسقوط الخلافة ، من حيث أجهدت البلاد في اقامة آلة حربية ضخمة ، واستئثاف نظام الصوائف السنوية ، في وقت كانت الأوضاع قد استقرت فيه على طول الشغور الشمالية ، وكانها حدود نهائية .

والهم هنا هو أن قرطبة العاصمة المدنية العملاقة ، المكونة من ٢١ (واحد وعشرين) حيا والتي بلغ محيطها ٢٥ كم ، وعدد سكانها أكثر من نصف مليون نسمة كانت المدينة الوحيدة القادرة على ربط أطراف الأندلس بعضها الى بعض ، وفرض سلطانها تحت رايات حكومتها المركزية (ص ١٣ وما بعدها) . فبعد أن سقطت قرطبة في مستنقع الفتنة تحولت من عاصمة حامية الى ساحة قتال مفتوحة لا يغشاها المتنافسون على السلطة من العرب والبربر والصقالبة فقط ، بل والحلفاء المسيحيون من ممالك الشمال (ص ١١٣ - ١١٤) . هذا ، كما كان استيلاء العباديين على قرطبة يحقق لهم التفوق على غيرهم من رؤساء الطوائف (ص ١٥٤) .

كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) :

يعتبر ابن بسام من شهود عصر الطوائف ، وتتلخص أهمية كتابه « الذخيرة » في أنه كتاب أدب وتاريخ ، اذ يرجع ابن بسام فيه الى تاريخ ابن حيان المعروف بالمقتبس والذي يعتبر بدوره كتاب تاريخ وأدب ، الأمر الذي ينفث فيه شيئا من الحياة رغم الاختلافات المنهجية بين العلمين (١) .

(١) عن كتاب ابن حيان ، انظر أحمد مختار العبادي ، مجلة عالم الفكر (الكويت) ، المجلد ٨ ، العدد ١ ، سنة ١٩٧٧ ، ص ٤٧ - ٤٩ .

والكتاب الذى يأخذ بشكل السير أو تراجم الرجال مقسم جغرافيا الى ٤ (أربعة) أقسام ، ثلاثة منها حسب تقسيم بلاد الأندلس ، الى : الوسط وتمنله قرطبة والغرب حيث اشبيلية وما يتصل بها من بلاد سناحل البحر المحيط ، ثم الشرق وما يتصل به من الجزر والثغور ، حيث يعالج أهل كل اقليم على حدة بينما يخصص القسم الرابع والأخير للطائفتين على البلاد من الشعراء والكتاب الى جانب بعض المشاهير من المعاصرين من أهل أفريقية والشام والعراق .

ابن بسام وابن حيان :

والحقيقة أن ما يعطى الكتاب شكله التاريخى المميز بالنسبة لبلاد الأندلس فى عصر الطوائف بخاصة أنه يعالج فى كل من الأقسام الثلاثة الأولى عددا من رجال الدولة والكتاب الى جانب الأدباء (المقدمة ، ص ٥) ، كما أنه يعول فى معظم ذلك على تاريخ أبى مروان ابن حيان (المقدمة ، ص ١٨) .

واذا كان ابن بسام قد عدل فى نقوله من أبى مروان ابن حيان ، سواء من التاريخ الكبير المعروف بالمتين أو من تاريخ ملوك الطوائف الذى عدّه المعاصرون من « فرص العمر وغرره » حيث حسن التصرف فى المادة المقتبسة ، من الاختصار أو التخفيف حسب مقتضى الحال ، الى جانب التمسك الواضح بأصول منهج البحث التاريخى ، من : التثبت من صحة النص المكتوب بخط المؤلف الى سلامة طريقة البحث وهدفه ، والنقد لما يعرض له ابن حيان فى المقدمة . هذا ، وان قرر فى الختام « أن المؤرخ متهم على كل حال » (٢) .

وأغراض البحث كما يعرضها ابن حيان تتلخص فى الآتى :

- الاعتبار بدروس الماضى ، الأمر الذى يقضى باستقصاء الأخبار ، والعناية بتقديد شاردها وواردها .
- وإذا كان اضطراب الأحداث بسقوط الخلافة ، وفتنة الطوائف قد

(٢) الذخيرة ، ق ١ م ٢ ، ص ٥٧٣ - حيث التمثل ببنت الشيعر الذى يقول فيه
ابن الرومى :

مهما ثقل فسهام منك مرسله وفوك قوسك والاعراض أغراض

جعلت ابن حيان يتوقف عن جمع الأخبار أو يتعذر عليه متابعتها لبعض الوقت ، فإنه يعود الى استئناف تقييد الأحداث من لدن أهل العلم والأدب ، وإن كان بشكل لم يرض نهم الباحث المجتهد ، إذ يقول : « لزمه من قبلنا قديما وحديثا في هذا الفن ، ونفيهم له عن أنواع العلم » (ق ١ م ٢ ، ص ٥٧٦) .

والمهم أنه نجح في وصل ما كان قد انقطع من أخبار بداية فتنة الطوائف ، وأخبار أبطالها وشهود حروبها ، مما أسعفته به الذاكرة أو اخذه عن أهل الثقة ، أو ما سمحت بمشاهدة الأحداث التي ظل بعضها يأخذ بخناق بعض حتى اكتمل نظمها وانتشرت مطاويها ، وأعلنت خوافيها دون محاباة لها أو خوف عليها من سطوة الحق أو صرامة الصدق (ق ١ م ٢ ، ص ٥٧٧) .

والظاهر أن مؤرخ الأندلس ابن حيان انتابته أزمة نفسية منعتة من متابعة دورة تاريخ الطوائف أشبه بتلك التي انتابت ابن الأثير عندما توقف لفترة من الوقت عن التاريخ لغزو جنكيز خان لدولة خوارز مشاه ، على اعتبار أن اعلان مثل هذا النبأ الخطير كان في رأيه بمثابة نعي للإسلام في تلك الجهات الشرقية من أواسط آسيا . والحقيقة أن ابن حيان بعد أن توقف عن اعلان أخبار عصر الطوائف في الأندلس ، على اعتبار أنه نعي لخلافة قرطبة المروانية ، رأى أن التاريخ لدويلات المشرق الإيراني - التركي التي ظهرت بشكل قوى ، الى جانب خلافة بغداد الضعيفة ، اعتبارا من القرن الثالث الهجري / م ، هي النموذج الذي يمكن أن يقتدى به في التاريخ للأندلس اعتبارا من مطلع القرن الخامس الهجري (١١ م) (١) .

(١) انظر الذخيرة ، ق ١ ، م ٢ ص ٥٧٧ - ٥٧٨ حيث النص على أنه استمر في التاريخ لعصر الفتنة الطائفية ، أسوة بالتأخيرين من أصحاب التاريخ بالشرق كالحصني وابن القواس والفرغاني (ت ٣١٢ هـ / ٩٣٤ م ، الذي له صلة لتاريخ الطبري) ، ونظرانهم من أعلام الفقهاء الذين عاصروا الفتنة التي لحقت بالشرق اعتبارا من أول القرن ال ٤ هـ / ١٠ م ، حيث تصريحوهم بأخبار أمرانهم المتوثبين على الملكة عند ومن متقلدى الخلافة منهم . فالأمر ما اعتنوا بذكر أخبار الأعاجم هناك من الديلم والأتراك ، مع عدم الفائدة فيها ، ونفشي العار بوجوهها ، وبعدها مما كتبه من قبلهم من أخبار ملوك العرب في صدر الإسلام لفظا ومعنى ، وعقدوا ومبني ، حتى توسعوا في ذكرها وتناهاوا في التنقيب عنها - وإن ذلك لا محالة كان لاستغرابهم من شأنها . وأشار لهم الى أنها طرقت هادمة لما بنه الدنيا ، ومنيرة لحاسنها مهدة فيها ، مؤذنة بانقطاعها ، لكي يكون البقاء لمن تفرد بجبروته ، ويدام البقاء لمن لا تتسلط =

وبناء على ذلك استكمل ابن حيان تاريخه الكبير بتاريخ رؤساء الطوائف ، وكان له رأيه الخاص في أولئك الملوك الصغار الذين حملوا الألقاب الملوكية التي حملها الخلفاء ، الأمر الذي كان يثير استنكار البعض أو سخرية الآخرين . وهذا ما أخذ به الجمهور العريض من الناس ، وإن لم يمنع ذلك أصحاب المآرب الخاصة من قبول نظام الطوائف كنوع من نظام حكم المتغلبين الذي يعتبر ظاهرة سياسية تاريخية في حالة عجز الحكومة المركزية عن ضبط الأمور في الأصقاع البعيدة ، فكأنه نوع من الحكم المؤقت الذي ينتهي بنهاية أسباب وجوده . وفي هذا الشأن توجد مادة متنوعة في ذخيرة ابن بسام تعبر عن مختلف وجهات النظر من عامة شاملة أو خاصة محدودة .

عبد الواحد المراكشي (أنجز مؤلفه سنة ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م) :

يعرف عبد الواحد المراكشي بمؤلفه في تاريخ المغرب والأندلس الذي يحمل عنوان « المعجب في تلخيص أخبار الأندلس والمغرب » الذي ألفه في المشرق في أواخر شهر جمادى الثاني ٦٢١ هـ / يونيه ١٢٢٤ م . وتتلخص أهمية الكتاب في أهمية صاحبه عبد الواحد الذي يعتبر واحدا من كتاب الدولة الموحدية ، من حيث صلته بالأمير اسحق بن يعقوب المنصور الذي كان حاكما لاشبيلية على أيام أخيه الناصر .

ورغم أن عبد الواحد كتب المعجب في بغداد فالكتاب يعتبر ، بسبب مركز صاحبه الاجتماعي ، وثيقة هامة بالنسبة لتاريخ المرابطين رغم اهتماماته الأدبية الخاصة ، حيث التعريف بكثير من الشخصيات الأدبية السياسية من ملوك الطوائف وكتاب دواوينهم - وهو من هذا الوجه له رأى يميل فيه بشدة الى المعتمد بن عباد ولكنه لا يبتعد بنفس القدر عن يوسف ابن تاشفين .

هذا ولعبد الواحد الذي يعتمد كثيرا على الحميدى (ص ٦٩) رغم

= النير على ملكوته . فركبت سفن من تقدمنى فيما جمعت من ملوك هذه الفئنة البربرية ، وأنظمت وكشفت عنه ، وأوعيت فيه ذكر دولهم المضطربة ، وسياساتهم المنفرة وسبب انتفاض دولهم وكنت اعتقدت الاستئثار به لنفسى ، وخباه لولدى ، والظن بفوائده الجملة على من تنكب احمادى به الى ذمى ومنقصتى . . . الى ان رأيت زفافه الى ذى خطبة سنينة أتنى على بعد الدار الأمير المؤئل الامارة ذى المجدين ، الكريم الطرفين : يحى ذى النون .

تصريحه بنشئت الذاكرة واعتذاره بغياب كتبه ، نظرات عميقة في السياسة وشئون الحكم • فالأندلس كانت كرسى المملكة الى أن تغلب عليها يوسف بن تاشفين فصارت اذ ذاك تبعا لمراكش من بلاد العدو (ص ٥) ، وأهم سمات طليطلة التي زلزلت أخبار سقوطها أهل ذلك العصر ، هو القرب من وسط الأندلس (ص ٧) ، تماما كما يلح على ذلك الحميرى صاحب الروض المعطار • وهو بالنسبة لعصر الطوائف في الأندلس يقدم روايات وثائقية جيدة ، مثل : قرطبة التي تحولت على عهد ابن جهور الى جمهورية شعبية ، جنودها أهل الأسواق وان كان ابن جهور يدير أمورهما بأسلوب الملوك المتغلبين (ص ٥٩ - ٦٠) الذين حملوا ألقاب الخلافة (ص ٧٠) •

واذا كانت أطماع « الروم » (الأسبان) قد قويت في بلاد المسلمين فقد انقطع هذا الطمع بيمن نقيية أمير المسلمين وناصر الدين أبى يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتونى ، رحمه الله ، ثم استمر على ابنه على ذلك (ص ٩٢ - ٩٣) •

ورغم نقده لرؤساء الطوائف بعامة فهو يعرف للخبرين منهم قدرهم • فعلى بن مجاهد الذى خلف والده في دانية وميورقة : مصون النفس طاهرها لا يشرب الخمر ولا يقرب من يشربها ، مؤثر للعلوم الشرعية ، توفى قبل فتنة المرابطين بيسير « لا أتتحقق تاريخ وفاته » (ص ٧٤) • والمتوكل عمر بن الأفتس ناظم نائر مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة ، قتله المرابطون وولديه الفضل والعباس ، ضربوا أعناقهم فى غرة سنة ٤٨٥ هـ/فبراير ١٠٩٢ م • وفيهم قال ابن عبدون قصيدته الغراء ، ومطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالآثر فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر
(ص ٧٥ وما بعدها)

وهكذا كان عبد الواحد الأديب يرى فى المعتمد بن عباد صنوا لهارون الرشيد : ذكاء نفس وغزارة أدب الى فضائله الذاتية من الشجاعة والسخاء ، وهو على الجملة ، اذا عدت حسنات الأندلس فهو أحدها ، بل أكبرها (ص ١٠١) • وهذا لا يمنع من اعترافه ليوسف بن تاشفين بقدره ويمن نقييته التى قطع الله بها طمع العدو فى بلاد المسلمين •

التراجم :

وبذلك نكون قد انتهينا من عرض أهم مصادر تاريخ المرابطين في المغرب والأندلس فلا يبقى إلا الإشارة إلى كتب التراجم التي استفدنا منها في الدراسة ، مثل صلة ابن بشكوال وصلتها لابن الأبار ، وهي التي خصصنا لها صفحات داخل الدراسة ، وحاولنا الاستفادة منها في حل بعض المشاكل المتعلقة بضبط التواريخ ، مما يظهر في صميم العمل . وكذلك الأمر بالنسبة للدراسات الحديثة التي أشرنا إليها في كثير من المواضع ، مع اعتذارنا لمن سقط ذكره - عن غير قصد .

المرابطون : صنهاجة الصحراء اللثمون في المغرب والسودان والأندلس

التمهيد :

إذا كان قيام دولة بني زيري خلفاء الفاطميين في أفريقية والمغرب ، اعتباراً من النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (١٠ م) ، قد حقق غلبة قبائل صنهاجة أفريقية أنصار الفاطميين المتأخرين على الكتاميين أنصارهم الأولين السابقين الذين انتقلت بقاياهم مع قوات الخلافة الى القاهرة ، فان الهيمنة الزيرية لم تلبث أن تزعت من أصولها عندما رنت أبصارهم الى الاستئثار بالسيادة دون الخلفاء المصريين ، اعتباراً من منتصف القرن الخامس الهجري (١١ م) .

ومن المهم الإشارة الى أن القرن الخامس الهجري (١١ م) له أهمية خاصة في تاريخ عالم الاسلام من حيث كان قرن سيادة البدو الرحالة ، سواء في المشرق حيث ظهر الأتراك السلاجقة رعاة الخيل في بلاد التركستان بأواسط آسيا ، ونجاحهم في الغلبة على الخلافة في بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، أو في المغرب حيث كان العرب الهلالية يندفعون من صحراوات مصر نحو بلاد القيروان ، الأمر الذي كانت له ردود فعل عنيفة ليس في أرض الاسلام فقط ، بل وفي العالم المسيحي المعاصر ، سواء في بيزنطة التي كانت هزيمتها في ملازكرد ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ايذاناً بتحويل أرض الروم (الأناضول) الى تركستان جديد ، أو في شبه جزيرة ايبيريا حيث انتهت هزيمة قشتالة ، أقوى الممالك المسيحية على أيدي المغاربة الصحراويين في الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م الى دخول أسبانيا الاسلامية تحت الهيمنة المغربية في عصر المرابطين وخلفائهم من الموحدين ثم المرينيين .

فلقد تسببت الهجرة الهلالية التي تمت تحت رعاية الخلافة الفاطمية - وان كان ذلك في ظروف اقتصادية صعبة بالنسبة لكل من مصر والخلافة وعرب الهلالية مع من كان يصاحبهم من بني سليم - في قلب الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية (العرقية) في أفريقية التونسية رأساً على عقب ، مما كانت له آثاره الهامة على مستقبل البلاد الى قرون عديدة ، بل وبشكل نهائي حتى أيامنا هذه ، وخاصة فيما يتعلق

بالتركيبة السكانية لكل الشمال الافريقى بدءا من برقة على تخوم مصر ، وانتهاه بالصحراء الغربية وموريتانيا حتى سواحل الأطلس ، وربما على بعض مجتمعات السودان الغربى أيضا . فمن الآثار السلبية للهجرة الهلالية ضعف الزيريين فى المهديّة وبنى عمومتهم الحمادين فى القلعة وبجاية ، الأمر الذى كانت له أصدائه فى ضعف أوضاع المسلمين فى صقلية فى مقابل ازدياد التهديد النورمندى . كذلك خرج الصغار من أبناء زيرى بن مناد على أبناء عمومتهم ، ملوك المهديّة وبجاية ، وانضموا الى خصوم العائلة من زعماء زناتة ، حلفاء الأمويين فى الأندلس . وإذا كان بعضهم قد مد نشاطه الجهادى فى ثغور الأندلس ، كما نجح البعض فى اقتطاع مملكة هناك فى غرناطة ، فالمهم انهم شاركوا فى زيادة تفتيت الأندلس فى نظام ملوك الطوائف ، الذى أصبح وكأنه حتمية تاريخية مقدرة ، ليس على الأندلس فقط ، بل وعلى أفريقية والمغرب أيضا .

وهكذا انتهى الأمر بانحسار النشاط الفردى للزعماء الزيريين ، مصحوبا بعجز الدولة عن مدافعة الهلالية أو مواجهة الخطر النورمندى . وتوالى النذر تبشر بزوال النظام الصنهاجى فى أفريقية ، وإذا ببوارق الأمل تظهر فى الأفق البعيد بالمغرب ، فى شكل عملية انقاذ على أيدي جماعات صنهاجية أخرى ، لم يكن أفسدها الملك والتترف بعد ، وهم صنهاجة صحراوات المغرب الأقصى من « الجمالة الكبار » ، طوارق العصور الوسيطة ، جواة الصحراء الكبرى .

الفصل الأول

في البلاد والسكان

البلاد :

وطن المرابطين الأصلي اذن ، هو الصحراء الغربية من الشمال الافريقي وامتداداتها : جنوبا ، حتى أوليل ومصب نهر السنغال على ساحل المحيط ، وشمالا في موريتانيا حيث بلدة اطار ، على طريق نواكشوط - مراكش ، حتى مدينة نول وتخوم السوس الأقصى . وشمالا بشرق في صحراوات الجزائر الجنوبية حيث مرتفعات الحجار (الاحجار) على سمت وارجلان (ورفلة) وغدامس (شرقا) - وحيث مدينة توات (عين صالح حاليا) ، موطن الطوارق الحاليين ، أسلاف الملثمين من المرابطين ، وصحراوات ليبيا الجنوبية ، حيث مدينة « زويلة » القديمة جنوب فزان على الطريق الى هضبة تيبستي ، التي كانت بابا مفتوحا بين كل من السودان (الأوسط) وطرابلس ومصر . وشرقا ، من موريتانيا حتى بحيرة تشاد ، مرورا بصحراء مالي حيث بلدة تساليت في منطقة أدرار افوراس ، من حيث يؤدي الطريق الجنوبي الى تومبوكتو غربا ، والى نيامي في جمهورية النيجر ، جنوبا بشرق . وفي صحراء النيجر الشمالية الشرقية المتاخمة لتشاد ، تقع هضبة آيبر التي تمتد بحيرة تشاد ببعض المياه الموسمية - وحيث تقع مدينة (أجاديس) ، غير بعيد من تادمكة القديمة ، شرق أوغست . وبحيرة تشاد تعتبر همزة الوصل بين النيجر ونيجيريا والكاميرون وتشاد التي تقع عاصمتها «نجامينا» على نهر شارى (Char) الذي يمد البحيرة بالقدر الأكبر من المياه(١) .

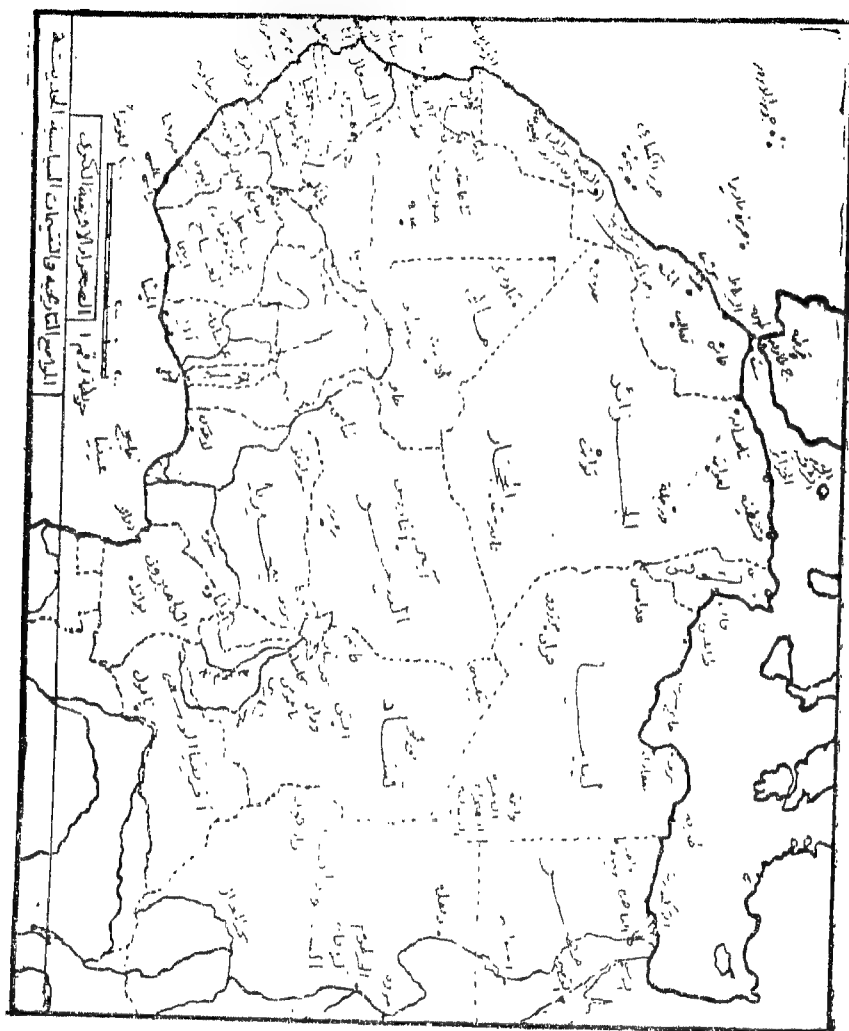
(١) انظر أطلس مصر والعالم ، جوبيروجكنس ، ١٩٨٧ ، ص ١٢٢ ، ١٢٥ ، وقارن ، كولن ماكغيدى ترجمة مختار السويقي ، ص ٧٩ وخريطة سنة ١٩٠٠م ، ص ٨٥ وخريطة سنة ١٩٥٥ م . وقارن تحديد ابن أبي زرع ، الفرطاس ، الرباط ١٩٧٣ ، ص ١٢٠ (عن بلاد قنائل صنهاجة) حيث النص على أنها صحراوية كلها : مسيرة ٧ (سبعة) أشهر في القبلة (الجنوب) طولا ، ٤ (أربعة) أشهر عرضا ، من نول لمطة - على تخوم السوس الأقصى (البحرية) الى قبلة القيروان ، ما بين بلاد البربر وبلاد السودان . ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨١ - حيث تعداد قبائلهم ، ثم النص على انهم كلهم ما بين البحر المحيط (الاطلنطي) بالمغرب (الغرب) الى غدامس من قبلة (جنوب) طرابلس وبرقة . وقارن ليون الافريقي ، الترجمة =

الاقليم الصحراوى : السمات العامة :

بلاد المرابطين تعادل اذن ، فى وقتنا الحالى ، صحراوات موريتانيا والسنگال ومالى وأكثر النيجر ، ويحدها جنوبا الخط الفاصل بين الأجناس الصراوية البيضاء والأثيوبية السوداء ، امتدادا من مصب السنغال الى منحنى النيجر ، وحتى بلاد تشاد . أما الحد الشمالى فيتمثل فى سفوح جبال أطلس (الصحراوية) الجنوبية التى تنتهى غربا على ساحل المحيط ، وهو الحد الغربى للصحراء الكبرى ما بين مصب وادى السوس شمالا الى مصب السنغال جنوبا .

وتظهر أهم خصائص الصحراء فى بنيتها الرملية الجدية ، التى قد تضطرب سطوحها بفعل الرياح كموج البحر ، فتنتقل من موضع الى آخر ، وتجلب معها التصحر والبوار . وهى عديمة الأمطار ، قليلة الرطوبة ،

=ص ٥١٧ وما بعدها ، حيث أقسام صحارى ليبيا الخمسة وهى : ١ - صحراء زناقة (صنهاجة) الجافة القاحلة ، من المحيط غربا حتى ملاحات تغازة شرقا . وشمالا تخوم نوميديا وجنوبا حتى بلاد السودان ومملكتي ولاته وتومبوكتو ، ٢ - صحراء قنزيفة (ونزيفة) عند ابن خلدون (ص ٥١٩) وتمتد شرقا من تخوم تغازة حتى تخوم آيبر ، وشمالا حتى سجلماسة (تافللست) ، ٣ - صحراء الطارقة (ص ٥٢٦) من تخوم آيبر شرقا حتى صحراء يبدى غربا وشمالا حتى الزاب ، ٤ - صحراء لمه (لمطة - لمتونه - ص ٥٢٢) حتى صحراء برداوة (شرقا) ، وشمالا حتى ورقلة (ورجله) وغدامس ، وجنوبا حتى كانو (مملكة الزنج) ، ٥ - صحراء برداوة (ص ٥٢٤) ، وتمتد شرقا حتى أوجله وشمالا حتى فزان وبرقة ، وجنوبا حتى بلاد البرنو ، وقارن اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى (ص ١٩٢) حيث الإشارة الى تقسيم الحسن الوزان ، وحيث زفانة ؟ بدلا من زناقة (زناجة : صنهاجة) ، وأنظر حسن أحمد محمود ، المرابطون ، ص ٤٤ - ٤٦ - حيث الإشارة الى الاعتماد على البكرى (ق ١١/٥) والاديسى (ق ١٢/٦) ، وفيه تعريف بالوطن العام : ويمتد من غدامس (جنوب طرابلس) الى المحيط ، ومن درن (جبال أطلس - شمالا) حتى مصب السنغال وإلى منحنى النيجر وإلى تاد مكة والوطن الخاص الذى يمتد بين ترغه فى وادى درعه . وتلى بلاد لمتونه منطقة لمطه وجزوله ، من وادى نول حتى رأس موجدور الحالية . وشرقا الى مدينة ازكى (على ٧ أيام من نول) وهى حصن لمتونه ، وجنوبا يمتد وطن لمتونه الى صحراء نيسر الممتدة الى المحيط ، وقارن لنفس المؤلف ، المرحلة الافريقية من تاريخ المرابطين المجلة التاريخية المصرية مجلد ١١ ، ج ٦ ، ١٩٦٥ ، ص ١١٢ - حيث تحديده مناطق الطوارق ، وتوزيع قبائل المششن عن ابن خلدون . وقارن شعيرة ، المرابطون ، ص ١٥ - حيث يقابل مهد المرابطين : موريتانيا ومالى ، وغانا ، وأكثر النيجر . وأنه يحده من الجنوب الخط الفاصل بين الأجناس اللبية والإجناس السودانية ، من مصب السنغال وحوضه الأدنى ، الى منحنى النيجر وحتى بحيرة تشاد . أما الحد الشمالى فيتمثل فى المرتفعات (السفوح) الجنوبية من جبال أطلس - وأنظر الخريطة رقم ١) .



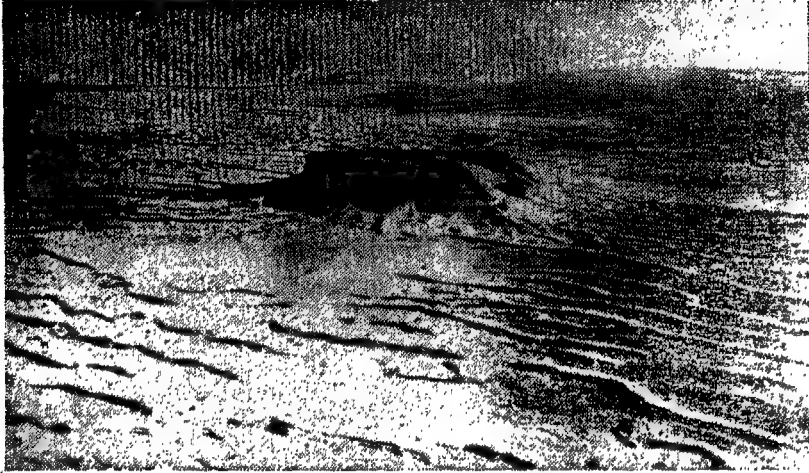
خريطة رقم ١ الصحراء الإفريقية الكبرى - المواقع التاريخية في
التقسيمات السياسية الحديثة

شديدة الحرارة التي قد تتعدى الـ ٥٠ درجة مئوية نهارا . وتتميز الصحراء بالمسافات الشاسعة التي كانت تقاس قديما ، ليس بمسيرة الأيام ، بل بالمشهور طولا وعرضا ، بمعنى آلاف الكيلو مترات في جميع الاتجاهات . ويترتب على كل ذلك ندرة في السكان وقلة في التجمعات العمرانية ، وبالتالي ضعف المستوى الحضارى بسبب الانغلاق القارى ، والبعد عن البحار رغم واجهة المحيط ، الذي كان يعرف أيضا ببحر الظلمات بمعنى المجهول .

وبطبيعة الحال لم يستطع بدو الصحراء الا اقامة جسور ضعيفة بين حضارات البحر المتوسط والحضارات السودانية المدنية ، الامر الذي ترتب عليه بقاء طريق الشرق التاريخي مفتوحا للانسان والحيوان والنبات ، من حيث لا يتغير التواتر فيه الا عند تغير الارتفاع (٢) .

(٢) انظر جاك ريشار - مولارد ، افريقية الغربية الفرنسية ، بالفرنسية ، المقدمة ، ص ١١ - ١٤ . لارنود ، الجزائر ، باريس ، ١٩٥٠ (بالفرنسية) ، ص ٩٨ - ٩٩ ، وفارن جوبيه ، ماضى شمال افريقية ، ص ٥٤ - ٥٥ ، حيث التركيز على امبراطورية قرطاجنة التجارية قديما ، في الربط بين حضارتها وبلاد السودان الغربى حتى ذلج خليج غبنا الذي اكتشفته عن طريق البحر عبر مضيق أعمدة هرقل (جبل طارق) ، وانه بعد سقوط قرطاجنة حلت محلها لبدية (لبتيس ماجنا : طرابلس) التي أصبحت مركزا لتجارة ما وراء الصحراء برا عن طريق فزان ، وبعد ذلك استخدم تجار العرب نفس طريق القوافل القديمة . وهكذا ظهرت التأثيرات ، القديمة لحوض البحر المتوسط فى افريقيا الغربية السوداء ، الامر الذى يشرح توزيع السكان . وقارن اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ١٣ - حيث المعنى اللغوى للصحراء الذى يشهد على صفة الاستواء والقضاء دونما أشجار أو جبال . اما الصحراء الكبرى فيحدها من الشمال الشرقى البحر فى برقة ، ومن الجنوب امداد هضاب النيجر الذى يفتق مع انشار النبتة التى تسمى « كرام - كرام » (cram - cram) ، ص ١٤ - حيث الانسلاسة الى زحف الرمال نحو الشمال ، والمثل لذلك منطقة الأغوار فى جنوب الجزائر ، والتي كانت صحراء فى أواخر القرن الماضى ، ص ١٧ حيث الرياح العاتية فى توات (بلاد الطوارق) . وقارن ابراهيم بن محمد الساسى العوامر ، الصرف فى تاريخ الصحراء وسوف . تونس ١٩٧٧ ، ص ٣٩ - ٤٠ - حيث النص على أن اسم منطقة سوف (جنوب شرق الجزائر) نسبة الى « السيوف » التى تعنى كثبان الرمل ذات القمة الحادة ، والمندة كالتصل ، ص ٤٦ - حيث النص على أن الرمل يأنى من الصحراء الكبرى من جهة الجنوب . وانظر اسماعيل العربى ص ١٧ - حيث النص على أنه بسبب الرياح وتحرك كثبان الرمل عرف أهل الواحات نظام النسقف بالنبة المخروطية فى عمارة ماينهم ، اذ هو يمنع تراكم الرمال عليها ، وتهديد المبنى بالسقوط .

وعن أشكال الكثبان الرملية شديدة الانحدار ، ذات الحمة الحادة كمنصل السكبن ، والمعروفة فى الجزائر باسم السف ، والتي يمكن ، عن طريق المقاطع أن تشكل هضات هرمية =



شكل رقم ٢ - موجات الكثبان الرملية الصغيرة - جنوب ورجلة (الجزائر)

هكذا ظهر منذ القرن الـ ٣ هـ / ٩ م ، الى جانب الطريق الغربى المؤدى من المغرب الأقصى - عبر مسنقعات ايجلى (مولار ، المقدمة ص ١٤) - الى غانة ومالى ، طريقان آخران ، هما : الطريق المؤدى من غرب الجزائر الى انيجر الأوسط (بلاد السونغاى) والطريق المؤدى من طرابلس الى بحيرة

= ونحمة ، انظر والطون ، الاراضى الجافة ، ترجمة على شاهين ، ص ١٢٠ - ١٢١ ، وعن الكثبان الهائلة الشكل (انغورد) ، حث بعض الماذح فى موريتانيا والى الشمال من ثبة النيجر ، انظر ص ١٢٣ ، وفارن جودة حسنين ، حسن أبو العنين ، سطح هذا الكوكب ، ١٩٦٨ ، ص ٣٢٠ ، ص ٣٢٩ . كما نوجد نماذج منها فى واحات مصر ، كما فى الخارجة - انظر شكل ٤ عن أشكال هلالية قرب الخارجة - صورة للمؤلف بتاريخ يناير ١٩٦٣ .

تشاد (بلاد كانم شرقى البحيرة) (٣) •

بحار الرمل : مكوناتها النوعية :

تتكون رمال الصحراء المنتشرة على السطح نتيجة لفتت صخور الكنلة القارية المكونة من الجرانيت والدولوريت (dolorite) مع صخور بلورية ، وأنواع من الصوان والعروق الصخرية التى تنشطر وتفتت نتيجة للتغيرات الجوية ، من الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف ، بين الصيف وشتاء ، والليل والنهار ، وما الى ذلك من هبوب الرياح وهطول الأمطار ، وجريان الأودية والسيول • هذا الى جانب طبقات رسوبية تكونت على طول الأزمنة من أصول بحرية ، من : الأصداق والأعشاب والطحالب والقواقع ، كما فى السنغال والنيجر والصحراء الوسطى ، وغيرها من النقاط

(٣) ن • ماكيفيدى ، أطلس التاريخ الافريقى ، الترجمة ، ص ٧٩ ، وقارن لبون الافريقى ، الترجمة ص ٨٦ - حيث الاشارة الى صعوبة الرحلة فى الصحراء التى لا ماء فيها من حيث هى رملية برمتها ، ووجوب النزود فيها بالماء ، وخاصة على طريق فاس - تومبوكتو . وطريق تلمسان - أعادس ، الى جانب الحديث بعد ذلك عن صعوبة الرحلة المفتحة مؤخرا بين فاس والقاهرة ، عبر صحارى ليبيا ، مع المرور بجوار بحيرة تشاد • وقارن شعيرة ، المرابطون ص ١٦ ، ٢٠ ، ٢٣ - حيث الاشارة الى ٣ (ثلاثة) طرق أولها : الطريق القديم الذى يعادل طريق المناجم الحديث عبر موريتانيا ، من : تارودانت (شرقى أغادير) الى نول (تدوف حديا) الى أولل (سانت ايتين - ص ١٦) • والطريق الثانى الى مالى وغانة وهو الأوسط ، من : سجلماسة (تافيللت) ، الى النيجر ، عبر درعه أو عبر أودغشت - وهو يقابل اليوم طريق كولبشار - ادرار - منحى النيجر من الشرق (ص ٢٠) ، أما الطريق الثالث ، فمن . نفوسه وطرابلس الى السودان الأوسط (تشاد) ثم الغربى (ص ٢٣) • وأنظر حسن محمود ، المرحلة الادريقية من تاريخ المرابطين ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ١١ - ١٩٦٥ ص ١١٦ - حيث الاشارة الى ان انتشار الاسلام كان يتم شرقا عبر منحى النيجر وتشاد وبلاد الكانم ودارفور •

- ٥١ -

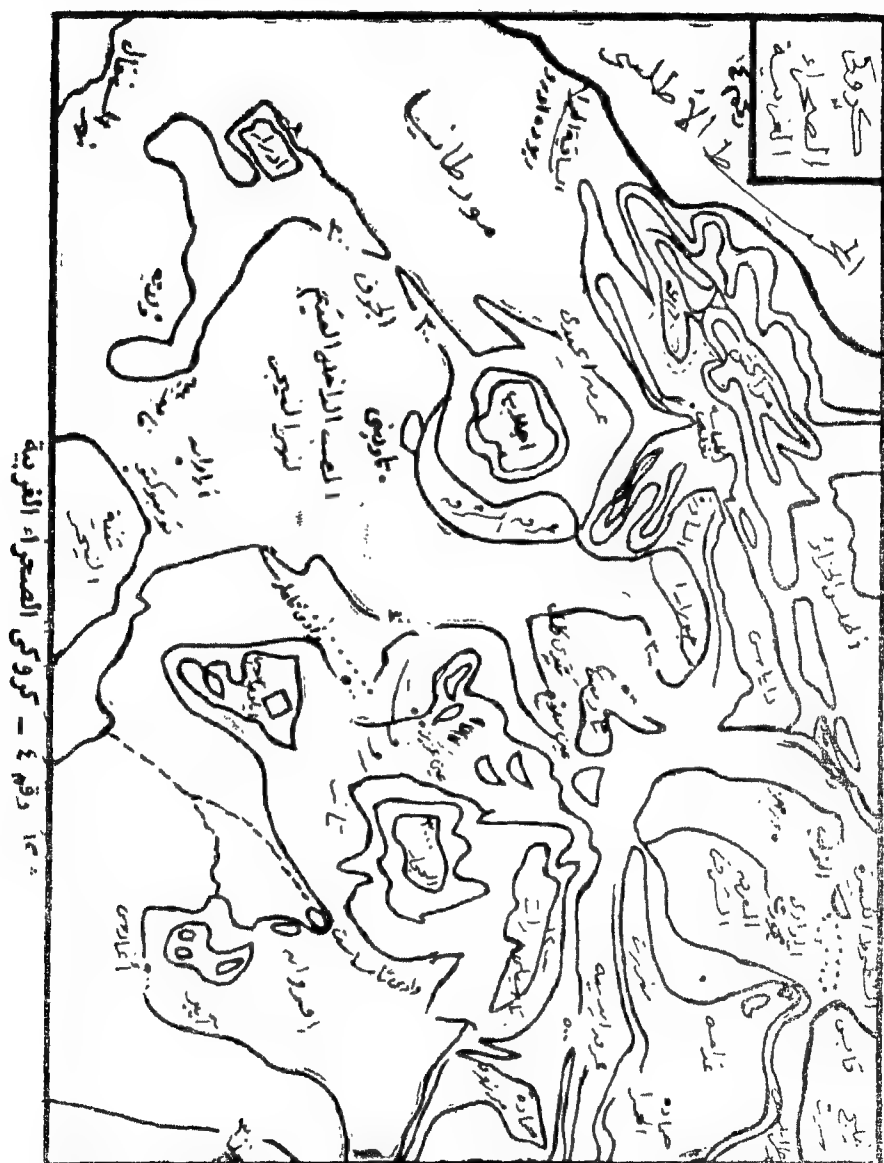


شكل رقم ٣ - أشكال هلالية (رملية) قرب الخارجة - الوادى الجديد (مصر)

١٠ (٤) لساحلية

(٤) مولارد ، ص ١ ، ٢٧ ، وأنظر جودة حسنين ، وحسن أبو العينين ، سطح هذا الكوكب ص ٧١ - ٧٢ - حيث يتكون الغلاف الصخري للأرض من أوكسجين ٤٧٪ وسيليكون ٢٨٪ والومنيوم ٧٥٪ وحديد ٤٢٪ وكالسيوم ٣٣٪ وصوديوم ٠٠٠ الخ . وحيث يكون غطاء الأرض من صخور نارية منها البازلت والجرانيت والسيانيت والدولوريت ، وصخور رسوبية ، منها الجيرية والرملية والطينية والغرينية ، حيث يتحول منها تحت الضغط الجرانيت « عن النيتيس (Gneiss) و (Schist) الشيسست (عن الطينية) والرخام (عن الجيرية) » وأنظر لارنود ، الجزائر ، ص ٥٢ - حيث مصطلحات : العرق : كل شبكة من الحصى المكور بسبب هبوب الرياح ، بعد تسوية السطح وحمل الطبقات الخفيفة من الرمل ، تاركة طبقات الحصى المدور . الأخدود (ص ٥٣) وتعنى : سلاسل تلال الرمل الممتدة والتي قد تصل الى ٢٠٠ - ٣٠٠ م . البطن (ص ٥٤) : وتعنى الضلوع التي نشأت عن مجارى المياه القديمة والتي تمتد من مئات الامتار الى الكيلو مترات ، الحمادة (ص ٥٤) : وتعنى الهضاب القائمة على طبقات جيرية كثيفة تحيط بالسهول . وقارن جوتييه ، الصحراء (بالفرنسية) ، ص ٤٦ - حيث تعريف الحمادة بأنها شكل من الترسيب الفيضى يظهر فى صورة الحصى المدور ، والاعمده المنعزلة والمحيطان الصخرية ، فكانها طاولة من الصخر العمارى الملمع بالرمل - كما فى الجزائر وطرابلس ، حيث يكون السير على الحمادة لعدة ايام متواصلة (وعن تعريف الحمادة عند الصاشى ، أنظر ج ١ ص ٧٤) . وأنظر جوتييه ، ماضى شمال افريقية ، ص ٤٦ - عن التجمعات الاخدودية البحرية الحديثة ، التي توجد فى موريتانيا الجنوبية ، وعنها يقول الجولوجون انه كان موضعها خليج اختفى من ٤ آلاف سنة ، ص ٤٧ حيث يرى مونو (Monod) ان هذا الخلس لا يؤثر على استغامة الساحل وان الاقليم مغطى بكتبان قديمة (من الرمل) تبينها النباتات الحضرية ، الامر الذى يعنى عدم تغير الطقس من رطب الى جاف فى العصور التاريخية ، لا فى موريتانيا ولا فى غيرها منذ ألف سنة على الأقل .

وعن تدرج صخور الرمال ، أنظر ابراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٤٠ - ٤٢ حيث ترجيح مقالة الانطاكي (داود العشاب) التي ننص على ان الرمل أصله من جبال واحجار فتتنا الماء لطول الأزمنة ، ومن ثم تكثر قرب البحار والأراضي التي قلبت برا ، وص ٤١ - حيث القول ان رمل سوف ناعم كالدقيق المنخل ، وأنه ملح المذاق ، وفيه الحلو والمر والحريف (تبعا لاختلاف معادن الاحجار) - اما عن أسماء حجر الرمل الأحمر ، فالصلب : الوسن ، المركب ذو الرؤوس الحادة : كبشمة ، والقطع الصغيرة : ورد ، والبابس عسر الكسر : عفة (صفا) ، اما الصوان فهو أشدها صلابة . والأرض الرسوبية السوداء تسمى البربرية : تنفرت أى غمرة أو الشهباء (ص ٤٣ وه ٩) . ومن الطبقات الرسوبية فى الاماليم لصحراوية وشبه الصحراوية : « العرق الذى يعنى نوعا من المتخففى الممتد لعدة أميال فى شكل أرض مسطحة صلبة ، مكسوة بالحصى والمخلفات المترسبة ، دون أحجار كبيرة أو صخور أو نباتات ، أنظر جان درش ، أصول تاريخ التسميات فى جبال أطلس العليا ، مجلة الدراسات لاسلامية (بالفرنسية) كراسة ٣ - ٤ ، ١٩٣٩ ، ص ٢٣٩ - حيث النموذج : وادى نون فى منطقة جولمبني ، حيث يسمى ورن (تعرف) المنون (Warg ennun) .



وتظهر الكسوة الرسوبية بما فيها من مطمورات طبقات الحجر الرملي العظيمة ، متجمعة مع طفح بركاني في موريتانيا في مرتفعات ادرار ، وفي حوض تاوديني وفي غينيا الفرنسية (في فوطه : فوتا) وفي السودان : وبسبب اتجاه جبال درن (أطلس) من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ، ابتداء من منطقة السوس ، تكون الحوض الرسوبي الواسع في صحراء جنوب مراكش ، والذي يعرف بشندوف ، حيث الطبقة المتفحمة في اقليم درعه بالجنوب المراكشي ، وفي مرتفعات تيبستي تتداخل الصخور البركانية في الطبقات الرسوبية (الكسائية) ، وكلما قل الارتفاع كلما ازداد التحلل الكيماوي للصخور .

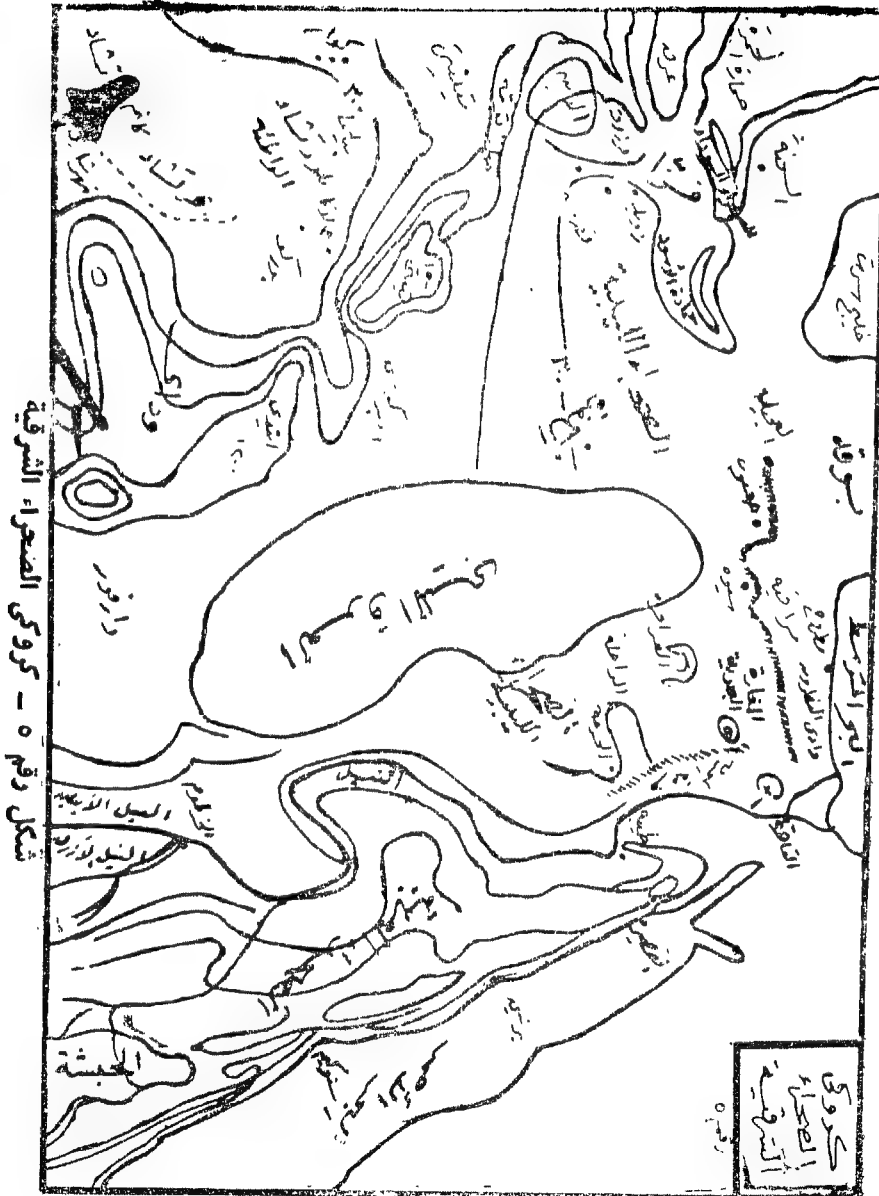
واذا كان السطح الصحراوي الرملي بما يتداخل فيه من القمم الصخرية والطفوح البركانية له شكل متواتر حزين ، فان مجارى المياه والقمم الجبلية في الجنوب الصحراوي تقدم تغيرا ملفتا للنظر في منطقة الشريط على تخوم السودان المعروفة « بالساحل » (٥) .

الطقس :

والحقيقة ان ما تتسم به الصحراء من جفاف يفسر ارتفاع الحرارة يرجع الى طبيعة الرياح السائدة وأهمها الرياح الشرقية الحارة المعروفة بالحرمتان (Harmattan) والتي لها آثار حاسمة من حيث توزيع الأقاليم النباتية ، وبالتالي الظواهر الانسانية والاقتصادية .

ففي الشتاء تأتي رياح الاليزيه (Alizé) اللطيفة الرطبة من المحيط الأطلنطي ، ولكنها لا تؤثر الا في الأقاليم الساحلية حتى الرأس الأخضر يدانكار ، وذلك انها تتجه غربا تحت تأثير اندفاع الحرمتان الشرقية . وفي سيف تتحول رياح الاليزيه الجنوبية الى رياح موسمية جنوب خط

(٥) مولد ، ص ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٦٤ . وقارن اسماعيل العري ، الصحراء الكبرى ، ١٤ - حيث ارتفاعات تبسي والهفار (الهجار) تصل الى ٤٤٠٠ م و ٣٠٠٠ م ، وان المناطق رفية منخفضة بالنسبة للمرتفعات الغربية ، وان الصحراء الوسطى بخرقها سلسة من اكين من المشرق الى المغرب ، بين تيبستي وعين زير عبر الهجار (الحجار) ، مكونة ٣ (ثلاث) لاسل جبال صخرية وهي : أغلب الى تكون امتدادا لجبال موريتانيا في الغرب ، والهجار الوسط ، ومنها ادرار وايفورا (غربا) وآير (شرقا) ثم نيبستي (على حدود ليبيا تشاد) .



الاستواء ، عندما تصطدم برياح الحرمتان ، وكذلك الأمر في الربيع عندما تنزلق تحت الحرمتان ، مما يؤدي إلى اعصارات وأمطار رعدية ، وفي وسط الصيف تتغير الظروف الجوية تبعاً للارتفاع ، ففي الأقاليم السودانية الشمالية تصطدم الرياح الموسمية مع الحرمتان وتكون العواصف والأمطار التي تقل كلما صعدنا شمالاً . وفي الحريف تنعكس الأوضاع فلا تصيب الرياح الموسمية أفريقيا الغربية إلا نادراً (٦) .

وهكذا يكون لرياح الحرمتان السودانية أو الاستوائية الغارية أهميتها بالنسبة لأفريقيا الغربية ، من حيث الأمطار ونزول درجة الحرارة والرطوبة ، وخصوصاً في المناطق الساحلية في دكاو وحتى كاييس (Kayes) في الداخل . وبذلك تكون الحرمتان أكثر أهمية من رياح السيروكو (Siropoco) المحملة بالرمال والغبار ، والتي تهب لأيام قليلة في شمال أفريقيا ، مقابل هبوب الحرمتان لعدة شهور جنوباً ، في الأقاليم السودانية ، وجنوب الصحراء (٧) .

(٦) أنظر مولار ، ص ١٥ - ١٧ ، وفارن لاربود ، الجزائر ، ص ٤٩ - حيث يفسر أن جفاف الصحراء بسبب قوة الأمطار يتعلق بمسألة فلكية خاصة بدوران الرياح حول الكرة الأرضية ، إذ إن الصحراء تسع النظام الذي يجمع فيه في الطبقات العليا كتل من الهواء تعزل من غط الاستواء عن طريق الرياح المضادة للأليزيه ، والتي تتجمع قرب خط العرض ٣٠ درجة لكي تكون مراكز ضغط عال ، مضاد للمواصف . وبذلك لا تفلت الأليزيه إلا على طبقات السطح السفلية ولا تسقط مطراً إلا حيث المرتفعات . وفارن أيضاً جوتييه ، الصحراء (بالفرنسية) ، ص ١٢ - حيث مناطق الضغط المنخفض الخاصة بالرياح الغربية ورياح الأليزيه (Alizés) ، وحيث المنخفضات العاصفة التي تأتي من أمريكا وأوروبا ولا يصل إلا القليل منها إلى أفريقيا شتاءً ، بينما تكون معظم رياح الأروسي (Acores) في أقصى جنوب الأطلسي بينما تستمر الأمطار الاستوائية منتبجة الشمس في شكل عواصف شديدة ، وهي لا تصعد شمالاً أبعد من السنغال .

(٧) مولار ص ١٧ - ١٨ ، وفارن ليون الإفريقي ، ص ٨٧ - ٨٩ - حيث الإشارة إلى ٣ (ثلاثة) أنواء : الشرقية (الحرمتان) و (السيروكو) والغربية ، وهي صارة بالمحاصيل ، وأنظر جوتييه ، الصحراء ص ٢١ - حيث يختلف اسم هواء الصحراء المنهب عادة ، والمعروف بالحرمتان ، أو السموم ، من مكان إلى آخر . فهو السيروكو في الجزائر ، والشهيلي بمعنى الجنوبي في الصحراء ، وهو الخماسين (أي ربيع الخمسين يوماً) في مصر ، تسمى أحاديثات محدة نفس الريح تقريباً ، وص ٢٢ - حيث ارتباط رياح الخماسين بنفس الظواهر المناخية أو الكهربائية التي تؤثر على الإنسان والحيوان ، من حيث الهبات المحاط بالسموم ، أو الإصابة بضربة الشمس الماتلة ، بسبب هبوب عاصف الشمس في شكل عواصف شديدة ، وهي لا تصعد حرارة الهواء - مع الإشارة إلى أن هذا الأمر قد عرفت في الأدب القديم ، ص ٥٠ -

وبذلك لا يتأتى الانتقال من الطقس السواحي الى الطقس الصحراوي الا عندما ينعدم سقوط المطر لسنة أو أكثر في موضع معين ، ويكون ذلك عادة جنوب الصحراء . أما عن سقوط المطر فيكون في فصل الصيف ، فهو مطر موسمي . وبالنسبة لمطر اقليم البحر المتوسط فهو أكثر ندرة ، ودرجة الحرارة تتعدى في شهر يونيه الى ٥٠ درجة ، أحيانا ، أما عن برد يناير فهو قاس يصل الى درجة التجمد (٨) . وبفضل رياح الاليزيه (Alizé) القارية الباردة ، ورياح الحرمان الشرقية الحارة ، التي تظل تعصف طوال ٦ (ستة) أشهر ، فان بقاء المزروعات الجافة يصبح غير أكيد بسبب عدم انتظام المطر الذي تتراوح نسبته من سنة لأخرى من ١ الى ٥ أمثال ، الأمر الذي يتسبب في التصحر ، اذ تتحول الأرض شيئا فشيئا الى أرض رملية بسبب الحريف من ناحية ، وبسبب الرمال التي تلقىها رياح الاليزيه القارية على الأرض الصالحة للزراعة ، وهو ما يدفع الفلاحين السود من الولوف الى الهجرة نحو الجنوب ، الى حياة البداوة في فصل الشتاء ، والتجمع صيفا على الحواشي والأطراف حيث الماء ، وهجر منطقة

= حيث الإشارة الى ان عناصر الحساسين مأخوذة من طمس النيل الناعم (الذي قد يكون سبب الذهاب للجهاز النفسي وليس المغناطيسية الكهربائية ؟) .
وقارن اسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى ، ص ١٦ - ١٧ حيث : تؤدي شدة الحرارة عند خط الاستواء الى ضغط جوى منخفض يجذب تيارات الهواء من الجانبين ، في مقابل ضغط مرتفع على مستوى القطب نتيجة للهواء المتجمع العائد من خط الاستواء ، والمتوقف بسبب دوران الأرض ، في طريقه الى القطب . ومن هذه الحركة تتكون منطقتان رئيسيتان لاعصار ممالك على المحيط في منطقة الأمور (الأزورس) وفي الصحراء الوسطى ، وهذا الاعصار الماكس هو السبب ، الى حد كبير في عدم نزول الأمطار في الصحراء . وعن الرياح فالجنوبية في الصحراء تسمى « الشهي » ، « والسيروكو » جنوبية شرقية حارة ، مثقلة بالرمال والغبار ، أما ربيع الخمسين (الحساسين) المصرية ، فهي رياح عاتية جنوبية غربية . وقارن ابراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٥٠ - حيث الرياح السوم ، ومنها : الشهي وهي حافة حارقة ، وضد السوم : ربيع الصبا البحري ، وهي معتدلة يثلث الانسان بها .
(٨) مولا ص ٢٥ ، ٢٦ ، وقارن لارنود ، ص ٥٠ - حيث النص على ان الصحراء أكثر بلاد العالم حرارة ، وهي في النصف أبون ملتهب مع الإشارة الى ان الحرارة قد تصل في تندوف بـ ٥١ درجة . وقارن اسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى ، ص ١٥ - حيث المثل قليل لا يتجاوز على ساحل المحيط ، ٢٠ ملليم . أما فرق درجة الحرارة فيصل ما بين ٥٠ نهارا و ٢٠ لئلا . وقارن ابراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٥٠ - حيث الجو منتهى الحار حرا (صيفا : أكثر من ٥٠ درجة) ، ومنتهى البرودة بردا (شتاء : أقل من الصفر) .

الوسط (٩) .

الأرض الطيبة - منطقة « الساحل » :

والحقيقة أن هذه المناطق الجنوبية من صحراء شمال أفريقيا الكبرى ، ذات طبيعة جغرافية خاصة اذ تمثل منطقة انتقال من الصحراء العطشى الى بلاد السودان الجنوبية ، المغمورة بالأمطار الموسمية الأمر الذى اعطاها اسم « الساحل » ، من حيث تبدأ فيها الحضرة العشبية التى يراها القادم من بلاد الشمال الصحراوية ، وكأنها ساحل البحر تماما ، كما كان الحال بالنسبة لغابات الزيتون فى منطقة صفاقس التى اشتهرت « بالساحل » حسبما كان يراها القادم إليها من الصحراء (١٠) .

وافليم الساحل هذا ، يمثل نطاقا يمتد من ساحل المحيط الموريتانى غربا حتى تشاد شرقا ، عبر منحنى نهر النيجر ، الأمر الذى يحدث نوعا من التداخل بين شريط « الساحل » والاقليم السودانى ذى الفصل المطير الواحد الذى يطول ما بين ٧ أشهر جنوبا وه أشهر شمالا ، والذى يجمع بين الأمطار الشتوية العسادية والأمطار الموسمية التى تقل كلما صعدنا شمالا نحو « الساحل » والصحراء . هذا ، كما يطول فصل الجفاف لمدة ٥ أشهر ، ويكون تأثيره السلبى أشد فى اقليم الساحل الذى قد يعانى أحيانا من التصحر (١١) .

(٩) مولاد ص ٤٧ . أما فى سان لوى وداكار ، وعلى طول كل الشاطئ السفلى حنى الرأس الأخضر فيسود طقس خاص جدا ، يسمى شبه الكانارى (Sub-canarien) حيث يكون لرياح الأليزية هناك تأثير يجعل الجو هناك أشبه بطقس الكانارى ، بل وشواطئ الأطلنطى المراكشية ، وهو ما يناسب البئض من سكان البحر المتوسط (كالسوريين الذين لهم نشاطهم الاقتصادى) . ولكن هذه الظروف الجوية المناسبة لا توجد فى الجنوب أبعد من ذلك ، اذ الرأس الأخضر هو الحد الأقصى وبعد ذلك يتحول الطقس مباشرة الى استوائى ينقلب الاحياء (جوتيه ، ماضى شمال افريقية ص ٥٠ - ٥٢) .

(١٠) أوظف البكرى ، ص ١٩ (حيث ساحل الزيتون ، ص ٨٥ (حيث «أهل الساحل») ، وقارن فدح (Fage) تاريخ غرب افريقية (بالانجليزية) ص ٢ - حيث ملاحظة انه مع الاسفل من الشمال جنوبا تنحى الصحراء وتظهر النباتات الشوكية الى نحول بلطب الى أرض العشب الذى تزداد كثافته مع ظهور الأشجار شتيا فشتيا حتى أرض الغابات الحقيقية . وإن هذا النمط لا يتغير من الشرق الى الغرب بسبب الارتفاع غير المحسوس .

(١١) أنظر مولاد . ص ٩ . ٢٥ - حيث الطقس السواحل الشمالى الذى يتميز ، عن الصحراوى بالمطر صفا . وفى ولاية تلم نسة المطر الى ١٠٨ ملم ، بينما هو فى تيدال ١٣٠ ملم . مع احتمالات هبوب شائعة من سة الى أخرى ، وقارن ص ٤٧ - حيث من الصعب تحديد اقليم «الساحل» الشمالى بمعنى الخط الفاصل بين الصحراء والسودان (افريقيا =

وهنا تجدر الإشارة الى أن حزام بلاد النخل الذى يحف بشمالا ببلاد المغرب الحصبية كما يحف نطاق الساحل جنوبا ببلاد السودان ، اذ يمتد من تارودانت فى أقصى السوس حتى واحات مصر الشرقية ، عبر واحات وارجلان ، وبلاد الجريد وفزان (١٢) . والفرق بين الاقليمين انه بينما يعتمد اقليم الساحل فى حياته على المطر ، يكون اعتماد بلاد النخل على مياه الواحات الجوفية التى تأتى عادة من سفوح أطلس (درن) الجنوبية مثل نهر الساورة (ج ١ ص ٧٤) أو من بعيد ، من هضاب الصحراء الوسطى أو تخوم بلاد السودان (انظر فيما بعد ، ص ٥١ ، هـ ١٥) .

والهم أن منطقة الساحل بصفتها منطقة انتقال بين الصحراء العطشى والسودان الجنوبي المغمور بالمطر مهددة بالتصحّر ، ليس بسبب الجفاف ، بل عن طريق تيبس الأرض الرملية التى تنبت الأعشاب فى فصل الشتاء ، ولكنها عندما تعود رملية متحركة فى فصل الصيف ويصيبها المطر تتعرض للنبيس « الأسمنتى الحديدي » أى « للبوار » الذى ربما كان أصلا لكلمة البوال (bowal) ، ومعنى الكلمة السواحلية التى عرف بها ، على ما نظن ، وذلك بشكل لا رجعة فيه . ومن الواضح أن عملية التصحر هذه تتم كيميائيا فى جو « الساحل » حيث المطر والحرارة ، بينما تقل شمالا فى الصحراء بسبب الجفاف ، وكذلك جنوبا فى السودان المطير (الجنوبي) بسبب رياح الحرمتان التى تحمى الأقاليم الاستوائية الغينية عندما تهب باردة فى فصل الشتاء فلا تكون لها خاصية التيبس ، فيندر البوار

= (المدارية) بسبب وجود عامل طرد من المنطقة الصحراوية ، عن غير قصد ، وهو الأمر الذى جعل الساحل بلدا يقطنه البدو البض من المعاربة (Maures) فى الغرب ، والطوارق فى الوسط (حتى مصب النجر) . فمع ان هؤلاء هم سادة الصحراء حقيقة ، الا انهم كانوا عبد مطالب حيواناتهم ، وقارن محمد سعيد القشاط ، التوارق ، ص ١٧ - حيث الإشارة الى منطقة السهول والمراعى الفسحة التى تسمى (أزواغ) والممتدة من أعالي نهر السنغال غربا الى بحيرة بشاد شرقا ، ومن أطراف المناطق الرملية الى غابات السفانا جنوبا . وتضم هذه المنطقة : الواحات والوديان التى نشق جبال ناسلى (فات - جانت) والهار (تمنفست) وآيير (أفدر) واضغاغ (كدال) .

(١٢) أنظر ج ١ ص ٧٣ وهـ ٦٤ ، وقارن لبون الافريتى ، الترجمة ، ص ٨٢ - حيث تقسيم الأقاليم الطبيعية فى افريقيا من الشمال الى الجنوب كالآتى : ساحل المتوسط ، السهول الجبلية ، والتلول ، وسهول النخل فى نوميديا ، صحارى ليبيا الرملية حتى بلاد السودان ثم السودان .

(البوال) (١٣) •

الأرض الرسوبية والأرض السوفه :

أما الأرض الجيدة فتتجمع على ضفاف الأودية ، وفي الوهاد ، وعلى طول مجارى المياه ، من بركانية ورسوبية رملية وطفلية ، وهى محمية من حرارة الشمس ورياح الحرمتان الحارة بكسوة من الحضرة النباتية ، وطبقة رقيقة من التربة ، الأمر الذى قد يؤدى وقتيا وبسرعة الى التيبس أو التصحر (bowlisation) •

والأرض الخصبة السوداء ، وهى التى تترسب على الشواطىء اللواتنة عند مصبات أنهار الجنوب ، حيث يلتقى المد بمجرى الماء العذب ، وتتكون عادة من بقايا عضوية ، من الوحل والطين مع الرمل والحصى ، كما فى أسافل السنغال والسين (Sine) • وهى تتيبس فى وقت الجفاف وتصبح صلاحيتها محدودة للزراعة ، وهى تسمى عندئذ التان (tann) •

وفيما وراء جامبى (Gambé) حيث الأمطار الغزيرة تغمر الأرض ، يمكن إقامة زراعات الأرز التى تفيدها أيضا الفيضانات الشتوية • وكذلك الأمر بالنسبة لبعض الأراضى التى تغمرها مياه السنغال والنيجر الأعلى

(١٣) أنظر مولار ، ص ٢٨ - ٣٠ - حيث الإشارة الى انه ربما كانت أرض الساحل من رمال العرق ، وهو من شواهد عصور الجفاف ، وتصل فى انتشارها غربا الى جامبيا وشرقا الى اقليم نيورو (Niuro) وشمال سيجو (Ségou) وواجادو (Ouagadou) فى الحوض (Hodh) ، وشمالا الى نيجيريا • وهناك طبقات من الدروع الحديدية الأخدودية - وهى شواهد على فترات أكثر رطوبة - وتمتد من الغرلو (Ferlo) الشرقى وجيد مكة (Guidmeka) الى شمال شرق جاو (Gao) ، بينما الكهوف واودية الأنهار الكبيرة مكسوة بالصلصال والتربة العظمية الرملية وغيرها ، وذلك فى أرض ولو (Walo) ونهر السنغال وحوض سيجو - موبتى (Ségou - Mipti) • وسائر تشاد (ص ٢٨) • وبعد منطقة انتقال ذات امكانات متنوعة هى منطقة الامبراطوريات السودانية من : غابة الى مالى ونيجيريا (ص ٢٩) ، ينشر البوال - وهى الأرض القبيحة بالنسبة للفلاح - فى أعالي حامما وعسا الفرنسية وحوض السدا ، (ص ٣٠) ، وأنظر دائرة معارف لكسكون يونفرسسال (Lexicon Universal) نيويورك ، ١٩٧٥ ، ج ٧ ص ١٤٩ (أفريقيا (Africa) ، - حيث الإشارة الى صف الخصوبة فى الأراضى الحارة وهى أراضى الأعشاب (الساحل (Steppes)) التى ينقصها البوتاس والمغنسيوم ، والفسفور والمياه المظوبة ، والأراضى الركيزة قليلة هى لا توجد فى غرب أفريقيا الا فى السنغال • أما أراضى المتوسط فى الشمال فهى حمضية سمجة الخصوبة •

والاوسط والأدنى (١٤) .

توزيع المياه الجارية في الصحراء والساحل :

يعتمد تسييم المياه الجارية على طبيعة الطقس وأحوال السطح والتربة . وهكذا يكون الاعتماد على الأودية النهرية ، من : دائمة ومؤقتة في شمال الصحراء حيث جبال أطلس ، من غربية عليا أو شرقية صحراوية ، ومطر البحر المتوسط اشتوى ، أو في جنوب الصحراء حيث المطر الموسمي النصفى الذى يميز أنهار غرب أفريقيا التى تخترق الصحراء ومنطقة الساحل ، أو أنهار هضاب أفريقيا الوسطى الجارية من مرتفعات الجبال (الهقار) وادار وآير (بلاد الطوارق) وتيبستى (بلاد التبو) - من حيث تهبط أودية تافاساسيت وتامنرست ، ووادي اغرغار ، والنى فد تلتفى مع بعضها البعض فى الصحراء . فبفضل أمطار أطلس الصحراوية ، وبعض مياه أفريقيا الوسطى الموسمية تتجمع المياه تحت سطح التربة ، وتنفجر فى شكل مياه جارية من العيون والآبار الارتوازية ، فى الواحات انشمالية ، فى وادي رينج وبلاد الجريد وورجلان (ورقلة) وصحراء وهران ، وفى توات ، حيث يكون الرى حسب نظام دقيق متعارف عليه بين أهل البلاد ، يقنن حصص الماء بينهم حسب الوقت أو الحجم ، بوسائل تقنية محلية (١٥) .

(١٤) مولار ، ص ٣٠ ، ٣١ - حيث الاشارة الى أن بيس (البران) و (البان) لم يكن وحده آلة الأرض فى أناليم الساحل والسودان الغربى ، بل يضاف اليه بضال عناصر الحصى فيها ، من : الاروت والبوناس والفسفور على مر الزمن ، ولة الصخور الجيرية ، وكثرة صخور الكوارتز الحديدية من الحجر الرمل والحرايب والجمس (gneiss) والصوان حتى كاد الأمر ينهى ناهمالها على أنها أرض جديدة . ومن جهة أخرى فان هطول الأمطار الشديدة والمساخنة كان ينسب فى تدوير الأزوت ، وبالنسبة لتهديد الأراضي ، حتى الحصىبة (بالببس - والصحراء) .

(١٥) أنظر جنوبه ، الصحراء ، ص ٧٤ - حيث نهر شارى الذى يعادل السجر وبحيرة تشاد ، ص ٤٣ - حيث وادي ساورة ، ص ٩٤ - وادي ايفار غاره الذى ينبع من الجبال فى جنوب شرق الجزائر ، ص ١١٥ وما بعدها - حيث الواحات الحصىبة وحنا الاستقرار فى الصحراء الصعبة والعرى ، بلا دالطوارى ، ما بين الجبال وبلاد السودان . ص ٣٨ - حيث الرى الشرقى فى واحات النخيل عن طريق الفجارات التى برجع الى القرن ٣ هـ / ٩ م وهى القنوات التى توجه فيها مياه العيون الحفرة الارتوازية . وفان اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ١٩ - ٢٣ - حيث الاشارة الى العيون والآبار والفجارات ، ص ٢٢ - التى تمنى قنوات بحفر فى الأرض ولنلظ الماء الحفرة التى تجرى الى منحدر الواحة ، ص ٢٥ - حيث نهر شارى (Chari) الذى ينبع من الجبال الاستوائية ، وينصب فى بحيره تشاد المذبة والى سلغ =

آبار الصحراء :

أما في قلب الصحراء حيث لا يتجاوز متوسط المطر ١٢٥ ملميمتر في السنة إلا في حالات استثنائية ، فيكون الاعتماد على ماء الآبار ، من : أحساء سطحية أو حفائر عميقة ، من عذبة حلوة أو ملح أجاج (١٦) .

وهكذا يعدد البكري ١٠ (عشرة) موارد للماء على طول الطريق سجلماسة الى فاس ، بعدد مراحل الطريق العشرة ، فكان طول هذا الطريق حوالي ٤٠٠ كم . وأول هذه الموارد : حمة أي ماء حار كبريتي ، وثانيها أحساء يصل عمق الماء فيها حوالي ذراع ، بينما المواقف التالية على جداول وأنهار ومياه سائحة (نازلة من سفوح أطلس) (١٧) . والطريق من درعه إلى سجلماسة يمتد ٦ (ست) مراحل ، محطات مائها ما بين ملح (تيسن) ، ومنسوب إلى بعض حيوان المنطقة ، مثل بئر الأيائل ، وماء النعام ، فكانه ملح أيضا (ص ١٥٦) .

أما الطريق الكبير من تامدلت إلى أودغست ، وطوله ٤٠ (أربعون) مرحلة ، فيعدد محطات مياهه ، من : بئر الجمالين وعمفا ٤ (أربع) قامت في أرض محجرة ، ينبعها (شعب) طريق جبل ضيق ، ينتهي بعد ٣ مراحل (١٢٠ كم) بأرض رملية رخوة ، فيها آبار ماء (تندفس) تنهار وتندف من مجرد حفرها . أما الماء الوافر الذي لا يستنزف في بئر ويظوفان ، فهو زعاف يصيب من يشربه من الإنسان والحيوان بالاسهال . وماء الأرض الرزقاء في أوكازيت - أصعب مراحل الطريق (٣ أيام) - وانزمين ، القريبة من السطح (٤ أيام) يصنف ما بين العذب والزعاف . وهذا الموضع يمثل نقاط الطرق إلى بلاد السودان - فهو مجمع القوافل ، وهو مستهدف من قطاع الطريق . ومنزل هذا يقال عن بئر بني عبد الوارث (على ٥ مراحل) .

.. ماحتها ٢٥٠٠٠ كم.م ، والتي ربما كانت لها موارد أخرى تحت الأرض ، كما قد تتسرب مياهها من جهة الجنوب الشرقي في اتجاه بحر الزغال ، ص ٢٧ - حيث التعريف بوادي الساوره الذي سحبه مياهه جنوبا حتى أعالي واحة بوات ، ص ٢٨ - ٢٩ - حيث وادي اغرغار الذي ينبع من مرتعات بسبتي وتجه شمالا لمسافة ١٠٠٠ كم.م ، لكي يعوض في شط (بلال رملية) بئر بوات من يستقره أي عند أقدام جبال الأوراس التي تأتيها مياه سدوح الأطلس التي تسبح في وادي زعاف والخرد والواري .

١٦٦ - انظر ادعاء الموارث ، الصحراء وسوف ، ص ٤٥ - حيث تصنيف مياه الآبار في : عذب ، ومالح ، ومبرج ، وملح ، وأجاج ، ومر .
١٦٧ - البكري ، ص ١٤٧ .

وآبار أغرف التالية الملحة لا تصلح الا لشرب الابل • واذا كانت المياه في آبار اقرتندى على ٥ أيام من سجلماسة جيدة الماء الوفير حيث أصناف الشجر ، فان بئر وازن في منتصف المسافة ، مالح الماء (١٨) •

وعلى عكس هذا يقال عن مياه الطريق المحاذى لساحل المحيط من نول لمطة الى أوليل ، حيث يستنبط الماء العذب من الآبار القريبة من الشاطئ المالح ، بسبب رياح الاليزيه (Alizé) الرطبة ، والأرض الصخرية (الصفاء) التي تكون مصايد حسنة لمياه المطر العذبة (١٩) •

أما عن الآبار على الطريق الصحراوي من درعه الى السودان ، ففي المراحل الخمسة الأولى يوجد الماء العذب حتى الوصول الى بئر تزامت في بداية الصحراء حقيقة ، وماؤها معين أقرب الى الملوحة ، رغم انه محفوظ في طبقات الحجر الصلد (البكرى ص ١٦٣) ، وهي في شرق بئر الجمالين ، على أول طريق تامدلت - أودغست ، التي تقع في مثل تلك الأرض الحجرية (ص ١٥٦) ، فيكون ماء الجمالين معيناً هو الآخر ، ربما بسبب معدن الحديد (ص ١٦٤) وغيره • والظاهر أن آبار تلك الصحراء التي تعتبر موطناً لقبائل صنهجة كلها معينة تصلح لسقيا الابل وحيوانات الصحراء فقط ، الأمر الذي يفسر كيف كانت أموالهم الأنعام ، وعيشهم من اللحم واللبن ومنلها (٢٠) •

مياه السودان الجارية :

وهكذا فرغم طول المجابات القاحلة والمفاوز الجرداء التي قد تطول الى ست مراحل وثمانية ، فلا ذكر بعد ذلك للماء المعين والمالح أو الزعاف حتى بلاد السودان القريبة من موطن جداله ، على ٦ (ست) مراحل ، وهي بلاد صنغانة (٢١) •

وواضح من وصف صنغانة أنها مدينتان على ضفتي النيل ، وأن

(١٨) البكرى ، ص ١٥٦ - ١٥٧ •

(١٦) البكرى ، ص ١٧٢ ، وانظر فيما سبق ص ١٠ ، ه ٩ وهامش جوبيه عد الجوشيه الكاناري والشاطيء المراكشي على طول ساحل السنغال •

(٢٠) البكرى ، ص ١٦٤ •

(٢١) البكرى ، ص ١٧٢ - حيث أرض جدالة آخر بلاد الاسلام في الصحراء ، وأقربها الى بلاد السودان •

عمارتها متصلة الى البحر المحيط وان المقصود النيل هنا هو نهر السنغال ، وليس النيجر ، وان المقصود منغانة هو غانة المسبوقه بكلمة صن التي هي صفة لغانة فكأنها بلاد ملوك السونينك (Soninke) . وبذلك تكون غانة منتصف النهر الخامس النيجرى/ ١١ م عند البكرى ، هي مدينة السنغال والدراسة التي تحدد اطلالها بموضع كومبى صالح (كومبى بيشار) ، فى الركن الجنوبى الشرقى من جمهورية السنغال ، حاليا (٢٢) .

وهكذا بوصف كل من نهر السنغال ونهر النيجر بأنه « نيل » ، بمعنى النهر الصحراوى الموسمى الأصل ، والذي يفيض حتى الطوفان ، ويحجف بعد ذلك حتى القاع - والذي قد يتواتر طوفانه أو جفافه لعدة سنوات متتالية ، وهي سمات الأودية والأنهار الصحراوية (٢٣) .

ففى الصحراء كما فى اقليم الساحل ، تكون الوديان جافة عادة الا لفترات قليلة عقب هطول زخات المطر . ومثل هذا يحدث لبعض روافد السنغال أو النيجر حيث الأودية التى تسمى دلول (dellol) والتي يمكن أن تجرى كالأنهار بشكل مؤقت ، وهي قوية عنيفة تحمل المواد المختلفة لى تنتهى ناشرة الأوحال والرمال والحصى (٢٤) .

السنغال والنيجر :

هذا ويحتفظ كل من نهري السنغال (١٧٠٠ ك م) والنيجر (٤٢٠٠ ك م) ببعض مياهه فى فصل الجفاف . وفى اقليم الساحل الجنوبى تجرى مياه الأودية لمدة شهرين أو ثلاثة وتجرى أنهار المناطق السودانية

(٢٢) أنظر فيدج (Fage) تاريخ غرب افريقيا (بالانجليزية) ، ص ٢٠ - حيث النص على انها على بعد ٢٠٠ ميلا شمال باماكو (Bamako) عاصمة مالى الحالية . وأنظر اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ - حيث النص على أن دولافوس كان أول من حدد خرائط كومبى صالح موضعا لغانة القديمة .

(٢٣) أنظر جوبييه ، الصحراء ص ٧٢ - ٧٤ - حيث الإشارة الى أن نهر النيجر ينتمى الى الصحراء من عند ثنيته قرب تومبوكتو . فهو بعد أن ينزل من مرتفعات فوتا - جالون على شاطئ خليج غينيا يدير ظهره الى الخليج ثم يدب مباشرة شمالا ، حتى الاقليم الصحراوى . وبذلك يخلف النيجر الأعلى منذ الثنية عن النيجر الأسفل .

(٢٤) مولار ، ص ٣٣ ، وقارن ليون الافريقى ، الترجمة ص ٤٩٠ - ٤٩١ - حيث يكون الأمر كذلك بالنسبة للوادى الذى يرفد واحات درعه فى الشمال المراكشى ، والذي قد يفيض كانه البحر ، فنشر الطين والأوحال بشكل مزعج خلال فصل الشتاء .

- خلال فصل الشتاء ، ولكن الضعيفة منها لا يتجاوز جريانها شهر مارس ، بينما أصبحت بعض أنهار السنغال مثل الفرلو (Ferlo) والسين (Sine) والسالون (Saloun) خنادق ومطامير . مثلما تغير مجرى أنهار أخرى مما ينحدر سريعا على الهضاب ، كما في النيجر وفولتا ، لأسباب مختلفة من تغير الطقس ، والتحول التركيبي الصحراوي ، كما في تشكيل الحمادة أو العرق ، الذى يؤدى الى تحول بعض الأنهار الداخلية نحو شاطئ البحر . هذا ، كما يشهد نهر السنغال من منطقة الحوض فى تشاد أنهارها ، مثلما تحولت أنهار الفولتا ، مثل : السورو (Sourou) نحو المحيط (٢٥) .

- ويستثنى كل من نهري السنغال والنيجر من هذه الظواهر . فنهر السنغال الذى يقع فى منطقة الجفاف الطويل ، وينطبق عليه نظام المناطق الحارة ، ينبع من مستنقعات الشمال الشرقى ، وهو ضعيف التسدفق فى شهر مايو بينما يعظم فيضانه ، وخاصة عند المصب فى أغسطس وسبتمبر . وهذا يفسر انفيضان السنوى لكل سهل الوالو (Walo) فى الحوض الذى يصل عرضه الى حوالى ٢٠ كم . فيصبح بلدا خصبا (٢٦) .

(٢٥) مولار ، ص ٣٣ - ٣٤ ، ومارن والطون ، الاراضى الجافة ، ص ١١٤ (الترجمة) حيث النص مشكل عام على ان الأنهار الصحراوية صالحة للملاحة والنقل وفت الفيضان ولكنها كثيرا ما تمل ماء ، بل وبعف عن الجريان كلية ، وهى فى المناطق المستوية تضطر الى ارساب حملوها بدءا بالمواد الخشنة ثم الناعمة بعدا من حضيض التل ، الأمر الذى يؤدى الى نشأة السبخات والعروى والمعادن .

(٢٦) مولار ، ص ٣٣ - ٣٤ - حيث الإشارة أيضا الى ان النهر يجرى امام داجاتا بين التلال ويملا بحيرى ركز (Rkiz) وجير (Guier) على ضفتيه اليمنى واليسرى . اما عن دلتا السنغال فهى محاطة بحزام ساحلى لا يستطیع النهر اختراقه الا بصعوبة ، الأمر الذى أدى الى تغير المجرى كثيرا على مر العصور التاريخية . وهو مفتوح جنوب سنان لوى (Saint Louis) بعد جريانه بخذاء الساحل خلف لسان البربرى ، وهو كتلة من الرمل المتحرك الذى تغطيه سمول الطين المتدفقة فوقه . وقارن أيضا ص ٣٦ - حيث وصف الساحل شمال داکار بأنه منخفض كثيرا مع وجود نطاق من الصبار (صبار المور Sbar des Maures) الذى يشير كالأنداء الصغيرة مقابل أمواج المحيط التى تتدفق موجاته فى سلاسل متوالة ، وحسب يوجد منخفض طبيعى بموازة الساحل ، كان فى السابق بحيرة ، فهو حاليا مغطى بالقواقع ، وفيه يتدفق فيضان نهر السنغال بعدا لمسافة ٣٥ كم . حتى المصب . وعلى طول الساحل جنوب لocha الى داکار ، ونسب الرطوبة ، تنتشر الزراعة شبه القشبية التى يسميها الديلى (Oulouf) ناسسى (Niayes) . وقارن جوتبيه ماضى شمال إفريقيا (بالف نسمه) ، ص ٤٧ - حيث يصلح نهر السنغال للملاحة من المحيط حتى كابسى (Kays) عند انهاء النهر برأذنه القالدة (Falémé) حيث يكبران مثلثا من الأرض أحسن =

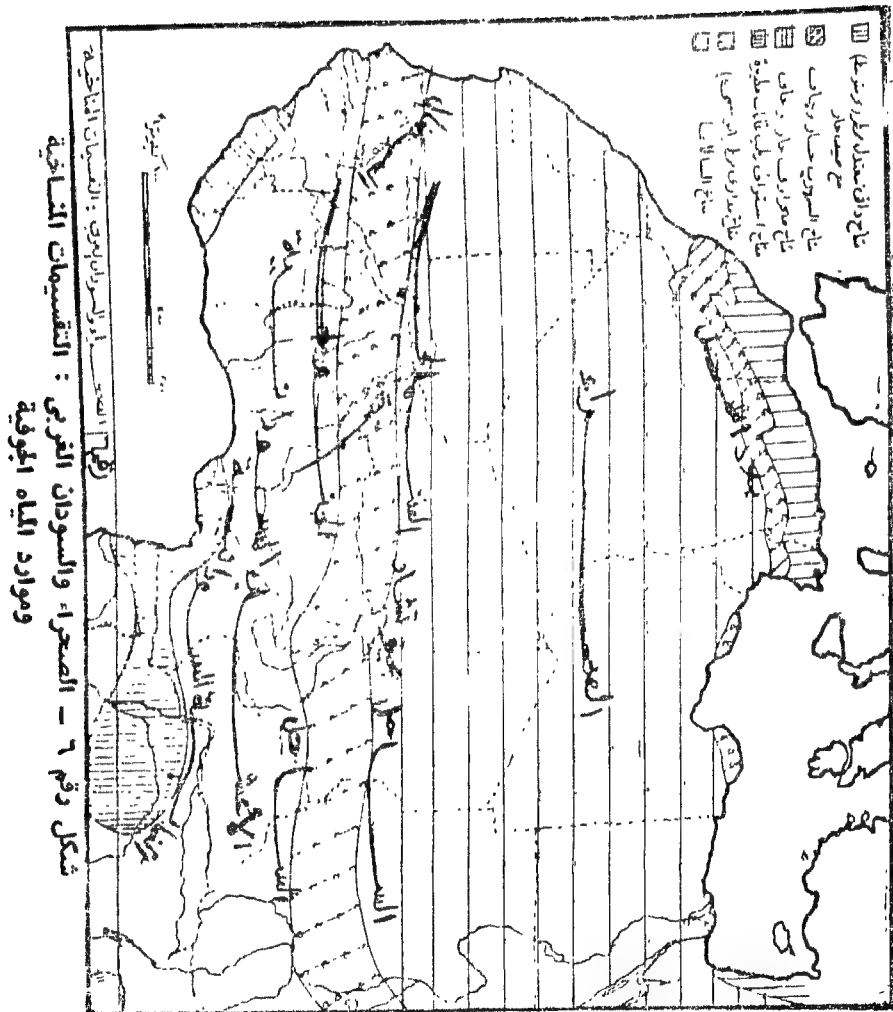
أما نهر النيجر فله نظام معتد ينمثل في مجريين ، الأعلى منهما (١٦٠٠ م) له روافد قوية ذات فيضانات مهمة ما بين يولييه وديسمبر ، وروافدها في أكتوبر وديسمبر (٢٧) .

والى الجزء الأخير ينظم جريان النهر فى حوض يتسع ما بين ١ - ٢ كم. وأجزاء يحد الحصب شكل شبكة من المياه الفسيحة ، حيث يتسع مجرى النهر ، وينفذ نسبة من الماء بالبخر والرشح ، وتنتهى الدلتا فى شكل مردوح ، شبه حرف (W) ، وعدد من الأذرع الفرعية . أما المجرى الخارجى من النهر ، وهو الكوارا (Kouara) ، وخاصة فى نيجيريا فيظهر فى شكل نهر معنى ، اذ يجرى قليل المياه حسب نظام البلاد اشارة فى نيجيريا اشمالية ، بينما تكون له طبيعة استوائية فى الجنوب ، حيث زمن الجفاف الى نهاية الصيف وفى بداية الخريف ، وبعد عدة أشهر فى الفترة من ديسمبر الى أبريل يضعف المجرى ، فلا يبلغ عمق الماء أكثر من نصف قدم (٥٥ سم) (مولار ، ص ٣٥) . وهكذا فبسبب الطبيعة الموسمية لكل من المجرى الداخلى والمجرى وكذلك نهر جامبيا ، والعقبات التى تعترض مصباتها الى البحر ، كان الوصول الى غرب أفريقيا عن طريق البحر من المستعوبة .

البحر الأبيض المتوسط ، وهو ولاية هامبورغ (Bem bouk). أما عن الشمال الأسفل
فإنه ولاية مرسية هي المستعمرات ، فيصبح نهرًا مفتوحًا في مجرى غير محدود ، وبذلك
البحر الأبيض المتوسط ، حتى أنه وجد مجرى من النهر شمال سان لوي (Saint Louis)
البحر الأبيض المتوسط ، ثم شاطئ الجزيرة أو العنبر غير الثابتة ، ومجرى النهر ينحدر فيها
من الشمال إلى الجنوب .

في الجزء ٣٥ - حيث روي القسم الأول ، وهي : ميلو (Milo) ، ونياندا (Nyanada) ، في الجزء ٣٦ (Sankaran) من نسخة نو نيسكو (Tin kisso) والتي (Bani) من النسخة الأخرى ، وإفرايم حنينة ، الصخره ، من ٧٢ - حيث النص عن أن الذبح يقتضيه الصلوة عند تربية ذب تصكم ، إذ يزل من مرغفات فولتا - جالون على شاطئه خليج صخره البحر صخره إلى الخندق نو بب هاشرة شماء ، حتى الإقليم الصحراوي .

في ١٩٦٥ ميلادي ، حيث صعد النهر الطيني ، ومجره ضيق في
البحر المتوسط ، في ١٩٦٥ ميلادي ، وذلك الخلل بالمساحة التي يصلح
في ١٩٦٥ ميلادي ، ومثل هذا يقال عن
Barracunda (٥٣٠ ميل) .



السكان :

صنهاجة الصحراء : المنتمون ، القبائل وتوزيعها :

قبائل الصحراء التي أقامت دولة المرابطين ، والتي تقيم في الصحراء الغربية ما بين ساحل المحيط الأطلنطي ، جنوب جبال درن (أطلس الغربية) (٢٩) ، عند خط التماس مع بلاد السوس الأقصى بالمغرب وحتى غدامس جنوب طرابلس ، تنتسب الى قبائل صنهاجة التي تعد من مجموعة قبائل البرانس الحضرية ، كما هو الحال بالنسبة لصنهاجة أفريقية الذين أقاموا دولة بني زيري في تونس ، ودولة بني حماد في شرق الجزائر (٣٠) .

ولكنه اذا كان صنهاجة الصحراء هنا يمثلون واحدا من الاستثناءات البارزة لقاعدة تقسيم البربر الى قبائل بدوية مثل زناته ، وقبائل حضرية مثل صنهاجة ، فانه استثناء يؤكد القاعدة ، كما يقال أحيانا . فالحقيقة أنه اذا كانت صنهاجة الصحراء تحتل البداوة في أجل مظاهرها ، من حيث انهم جمالة ، رعاة ابل ، يسكنون القفر وراء الرمال ، ويبعدون في مجالات النجدة التي لا يعرف لها حدود ثابتة حتى صاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجازا كما ينص ابن خلدون (٣١) . فان انشاءهم لدولة المرابطين الكبرى التي ضمت البلاد من السودان جنوبا الى الأندلس شمالا ، تعني أنهم مدوا جسورا متينة بين حضارات الأندلس والمغرب والسودان ، وتجعل

(٢٩) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨١ وعن تسمية جبل درن انظر درش (J. Dresch) مجلة الدراسات الاسلامية ، كراسة ٣ - ٤ ، ١٩٣٩ (بالفرنسية) ، ص ٢٢ - حيث « ادراين درن » (Adraen Dren) تعني «جبل الجبال » ، فأدراين تعني جبل والجمع ادراين (جبال) - وان كانت كلمة (درن) تعني أيضا جبل الزنير من الفعل ندر أي زار الذي يتغير مصدره الى درن .

(٣٠) عن البرانس والبتر ، انظر ج ١ ص ٨٦ وما بعدها ، وعن صنهاجة افريقية ، انظر أيضا ج ٣ ص ٢٨٩ وما بعدها .

(٣١) العبر ج ٦ ص ١٨١ ، وانظر لنون الأفريقي ، ص ١٨٨ وما ١٢٣ - حيث يمتد البربر جنوبا وراء السودان في شكل حزام يسير من العرب الى الشرق تبعا للمواطن : حداله ، ولتونه ولطه (لته) ، وتارغه . ويقال له حزام العرب على امتداد السوس الأقصى ، والمغرب الأوسط والزاب مع براري بحاية وقسطنطين ، ثم افريقية ، وحيث توجد على التوالي مواطن العرب ، من : ذوو حسن ، وذوو منصور مع « ذوو » عبد الله ، ونوريان ثم بنو صليمان وانظر الخريطة أو الشكل رقم ٢ .

من بداوتهم استثناء يصحح من وضعهم في جماعات البربر أهل الحضرة ،
مثل اخوانهم صنهاجة أفريقية (٣٢) .

واذا كان الشائع أن قبائل لتونة هي أشهر قبائل المرابطين حتى
عرفت « الامبراطورية » المرابطية بأنها دولة لتونة المالية (٣٣) ، فمن المقبول
ضم قبائل لمطه الى لتونة على اعتبار انهما تحملان اسما واحدا ، بسرف النظر
عن كتابته أو نطقه بالطاء أو التاء ، حيث تكون لتونة تفخيما للمنة على
الطريقة المغربية الأندلسية كما في خلدون وعبدون (٣٤) .

(٣٢) وهنا لا بأس من الإشارة الى ما ينص عليه أوليفر وفيح من ان اثر مدينة البحر
البحر المتوسط ظهرت في نفوية الفروق بين البربر في الشمال وبين البربر الرعاة في نطاق
السافانا والصحراء ، وان هذه الفروق زادت بدخول الجمل ثم الاسلام - موجز تاريخ افريقيا ،
الترجمة ص ١٩ .

(٣٣) وفي رثاء دولة لتونة المرابطية يقول الشاعر المعاصر محمد امبارك اللتوني ، وهو
ينفذ اوساخ الساء على أيامه :

ولم تبين من بعد لمسون دولة ولم يبك في نسيانه بعدهم ظل
أولئك لمسون الأمل قد سلبهم أساس الهدى اذ حسبت الضعف والحدل
أنظر ، محمد سعيد العشاش ، السوارق ، ليبيا ، ١٩٨٩ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٣٤) أنظر ليون الإدريسي ، ص ١٨ ، ص ١٢٣ - حيث لمطه في شكل منه ، وقارن
الإدريسي ، المغرب بحقيق صادق ، ص ٧٣ - ٧٤ حيث يحمل لمطه صورا از أحلصهاح اللذين
كثر نسلهما ، وتسلبوا على الأمم حتى احصت عليهم قبائل البربر فأخرجهم الى الصحراء
المجاورة للبحر المظلم فنزلوها الى الآن - كما يصفهم بأصناف ابل وحب غنى ، وأبهم رحالة
(لا يستقرون) . ص ٧٢ - حيث النص على ان نازد الصحراء يسمون بل لمطه ، وارا
كاعت ، وأعرنوا كما يصف اليها (ص ٧٥) نذرة أرفى على أنها للمطه أيضا ، ويعتد من
قبائل لمطه : مسوغة ، وشان ، وثماله ، ويجعل من قبائل صنهاجة : حدالة ولسونه مع بنى
منصور وحميه ، وبنى إبراهيم ، وبنى ناشفين . ويجعل نهر مدينة نول ، على طول امتداده
من الشرق الى الغرب ، من مواطن لتونه ولمطه . ص ٧٦ - حيث أرفى - من بلاد مسوغة ،
ولمطه ، واسم المدينة البربرية أزقى ، والجنابية أى السودانية قوقدم (جوقدم) وقارن
ان خلدون ، ج ٦ ص ١٨١ حيث النص على كثرة الملثمين وتعدد قبائلهم ، ثم البدء بتقديم
كدالة « جدالة » على لتونه ومسوغة ، ثم ذكر ونزيلة (وتريكة) وناركا (تاوكا) وزغاوة
ثم لمطه ، وحيث النص على ان بطون لتونة ، هم : بنو ورتنطق (أشرافهم) وبنو زمال ،
و بنو صولان ، و بنو ناسحة ، وان لتونة كان موطنهم من بلاد الصحراء يعرف - « كاكدم »
١ قوقدم) وانهم لم يرالوا مستقرين بتلك المجالات حتى كان اسلامهم بعد فتح الأندلس .
وقارن ترجمة دسلان ، ح ١ ص ٦٥ - حيث تصحیح وتزيلة وتالكا (وأنظر هـ ٥ - حيث
تاركا = تارحا وحمها طوارق - وحيث ذكر بنى ورتنطق (Ourtentae) وهو الاسم الذى
ما زال باقيا في موضع بورتنتيك (Portentic) على ٤٠ مرحلة شمال السنغال - وبنو نبال =

ولا بأس من الإشارة الى انه لما كان اللفظ اسم لنوع من الأيائل الصحراوية ذات القرون الحادة (انظر فيما بعد ، ص ٩٣) فالمفترض أن قبائل بدو الصحراء هؤلاء عرفوا العبادة الطوطمية ، قديما وأنهم اتخذوا « لملط أو ملت » جداء أسطوريا لهم ، كما هو الحال في قبائل أسد ونمر وعجل العربية . وبذلك يكون « ملت » هو الأصل ، « ولتون » - الذى يؤنث في العربية الى لمتونة - هو الاسم المستحدث فى شكل التفخيم (انظر شكل ١١ ص ٩٣) .

وبعد ذلك تاتى قبائل جداله (كداله) وجزوله (كزوله) العديدة ، التى يجعل البكرى مساكنها (عمارتها) مجاورة لمساكن لمطة على طول مسيرة ٣ (ثلاثة) أيام (مراحل) من عاصمة السوس : ايجلى الى مدينة تول لمطة (٣٥) ، الأمر الذى يسمح بأن تكون جزوله تحريفا لاسم جداله أو العكس . وهذا ما يؤيده الحسن الوزان الذى يضم جداله الى لمتونة تحت اسم « زناقة » (زناجة) الذى يعتبر تحريفا لصنهاجة أو النطق الأصيل للاسم قبل تعريبه (٣٦) .

« زمال (بنو صولان (مولان) وبنو ناشجه ، وموطنهم يعرف بـ « كاكدم » (Kakdem) وقارن حسن أحمد محمود ، ص ٣٩ - ٤٠ ، حيث تجمع قبائل اللثمين دون نقد ، بحيث تاتى لمتونه فى رقم ٥ بين جزولة وجدالة ، وحيث تاتى مسوفة فى رقم ١١ ، وقبلها رقم ٩ قبيلة كاكدم (Kakdem) ، والاسم فى الحقيقة موضع لبس قبائلهم (كما فى ترجمة دسلان هنا) . وفى النهاية ياتى تقرير ان الزعامة لمتونة وتنازعها باستمرار جدالة (ص ٤٠ استنادا الى الحلل الموشية) . وقارن الاستبصار ، ص ٢١٣ - حيث النص على ان تول لمطة آخر بلاد السوس . وأنظر القرطاس ، ص ١٢٠ - حيث النص على ان صنهاجة ٧٠ (سبعون) قبيلة ، من أصيلة ، مثل لمتونة وكدالة ومسوفة ولمطة ، وفرعية ، مثل مسراة ، وتكلاته ، ومنداسة وبنى وارت - وفى كل قبيلة بطون وانفاذ لا تحصى .

(٣٥) البكرى ، ص ١٦١ (وقارن الاستبصار ، ٢١٢) ، وأنظر أيضا البكرى ، ص ١٦٤ - حيث جدالة تجاور البحر المحيط ، وص ١٧١ - حيث يقع منجم الملح فى أوليل على بلادهم ، ص ١٧٢ - حيث يصاقيون بلاد السودان ، على بعد أيام من صنفانة . وأنظر حسن محمود ، المرابطون ، حيث جدالة جنوب صحراء نيسر حتى مصب السنغال ، وان مركزها أوليل : مركز نجم الملح المشهور . وانها قريبة من غانة وشعب صنفانة على الضفر السرى للنيجر (متحنى النيجر) .

(٣٦) ج ٣ ص ٢٩١ ، وأنظر لبون الإفريقى ، ص ١٥٥ - حيث تحديد منطقة حزة بأنها متاخمة لجبل هلاله من السوس ، ومن الشمال أطلس (درن) ، والشرق درعة ، مع النص على أنها منطقة جدالة أيضا ، وأنظر ص ١٨ هـ ١٢٣ . وهو ما أخذ به شميرة ، المرابطون ص ٢٩ - ٣٠ من وحدة القبيلتين - عندما وحد بين نسب يحيى بن ابراهيم الجدالى ، وعبد الله بن ياسين الجزولى .

أما قبائل مسوفة فتأتى مواطنها فى المنطقة ما بين سجلماسة وغانة ، وتوصف بأنها مسيرة شهرين (حوالى ٦٠ مرحلة : ٢٤٠٠ ك. م) فى رمال وجبال غير عامرة ، قليلة الماء ، ولذلك فهم بدو رحل ليس لهم مدن ولا عمارة ، باستثناء وادى درعه على مسيرة ٥ (خمس) أيام (٢٠٠ ك.م) (٣٧) ، وفيما بين درعه وسجلماسة تقع مواطن قبيلة سرطة (أو شرطة) ، المعدودة وقتئذ من قبائل صنهاجة الصحراء (٣٨) .

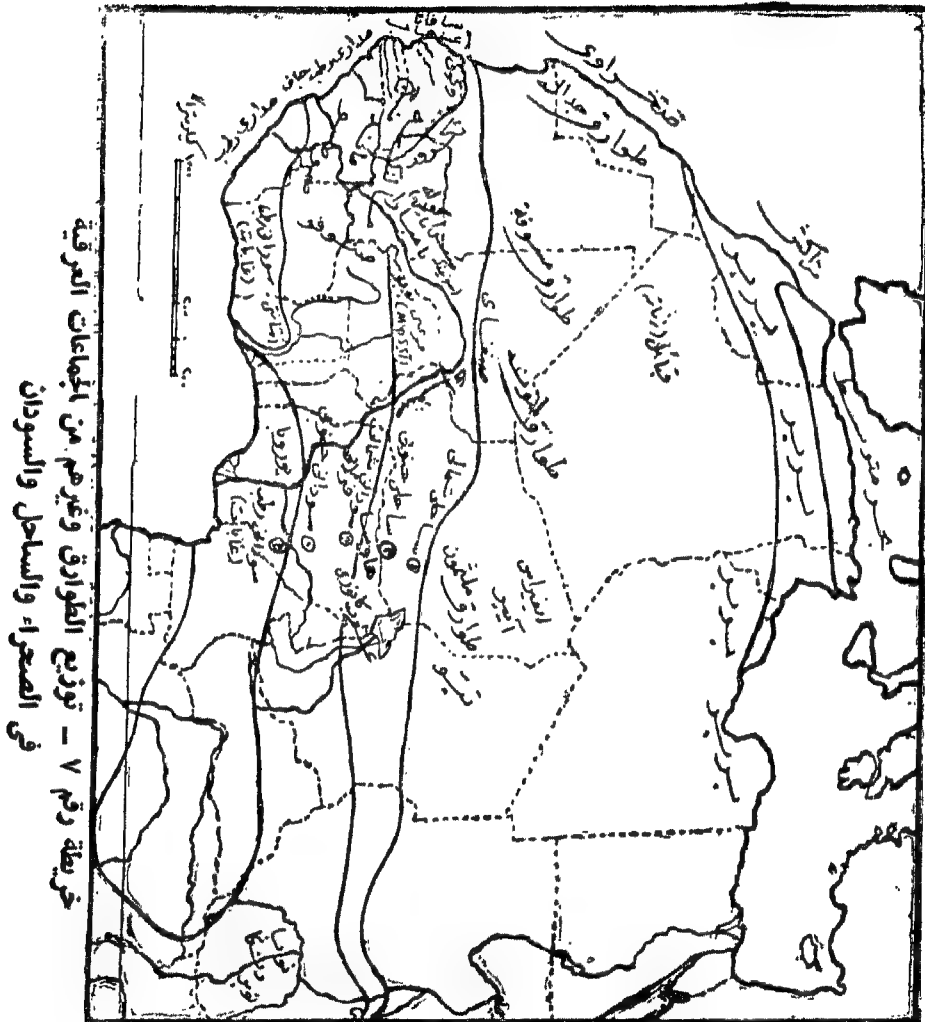
وعن قبائل ترغه (كما فى البكرى) أو تارجا (كما فى الاستبصار) التى يمكن أن تتحرف الى طارغة وطارجة وطارقة بمعنى قبائل الطوارق (Touareg) وهم المثلثون حقيقة ، فكانت مواطنهم على مسافة يومين (٨٠ ك. م) من سجلماسة (٣٩) . ومن المهم أن ليون الافريقى (قرن ١٦ م) يقدم قبائل الطوارق على لمتونة ، ويجعلهم فى صحراء آيبر (مرتفعات وسط النيجر حاليا) ، ويفسر الاسم (طوارق) بمعنى الساقية أو القناة ، كناية عن خبرتهم فى رى بساتينهم بتقنية اقتصادية عالية فى الماء ، كما يوصف بذلك أهل الجريد ، وخاصة فى واحات قفصة (٤٠) .

(٣٧) البكرى ، ص ١٤٨ ، ١٥٥ ، وانظر الأدريسى ، تحقيق صادق ، ص ٧٥ - حيث يجعل مسوفة من قبائل لمطة الأمر الذى يؤيد فكرة الطوطمية فى لمطة وأنها الأصل للتمتونة . وقارن الاستبصار ، ص ٢٠١ - حيث النص على ان قاعدة درعة (مدينتها المركزية) تسمى بتومتين .

(٣٨) البكرى ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٣٩) البكرى ، ص ١٤٨ ، الاستبصار ، ص ٢١٣ - حيث المسافة ٥ (خمسة) مراحل : ٢٠٠ ك.م ، من وادى درعه - حيث ينص البكرى على ان مدينة ترعة خربت بعد بناء سجلماسة وعمرانها وذلك فى سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م ، وهو ما لا نجده فى الاستبصار . والظاهر ان الترغيين انتقلوا الى سجلماسة ، اذ يوصف أهل سجلماسة الذين بقوا على ما كانوا عليه وقتئذ حتى أيام البكرى ، بأنهم « يلتزمون النقاب ، فاذا حسر أحدهم عن وجهه لم يميزه أحد من أهله » .

(٤٠) ليون الافريقى ، ص ٥٢١ وهـ ١٢٥ - حيث الطارقة اسم بربرى يعنى الساقية والقناة وذكر صحراوات آيبر (المتدلة الهواء الكثيرة الماء الكلا) وايغيدى وتوات وأغادس ، وانظر هـ ١٢٦ - حيث تصحيح المواضع وتعريف ايغيدى بأنها عرق رمل من كتابان عالية ، الأمر الذى ينطبق على صحراء لمطة جنوب اقليم الزاب - وعن تقنية السقيا فى واحات جنوب الجزائر ، انظر فيما سبق ، ص ٦١ ، وقارن محمد سعيد القشاش ، التوارق ، ص ٢٧ - حيث تعرض كثيرا من احتمالات أصل تسمية الطوارق ، منها ما هو منقضى كالنسبة الى طريق الهداية وطارق ابن زياد ، أو مهنى لطروق الصحراء ، ومنها ما هو جغرافى مثل النسبة الى الاسم اللاتنى لمدينة سجلماسة ، أو ظهور لاسم حديث فى منطقة أزواغ بجرار ممالك السونغاى =



السمات العامة لقبائل المثلثين الصحراوية :

لما كانت قبائل صنهاجة الصحراء تحيط ببلاد السودان الجنوبي ، كان طبيعيا أن يتم الامتزاج بينهم وبين الأجناس الحبشية السودانية في منطقة التماس هذه ، حيث غلبت البشرة السوداء على أهلها ، وان ظنوا منتجين الى الجنس الأبيض^(٤١) ، ولا بأس أن تكون قاعدة التقسيم لغوية حيث تكون كل من اللغة العربية والبربرية ، وخاصة لهجة التيفيناغ اطارقية ، سمة للبيض^(٤٢) ، وتكون اللهجات السودانية للهوسا وانسونغاي والفولان سمة للسود ، فكان الجغرافية السياسية مبنية على التقسيم العرقى^(٤٣) .

= وألهوساء ، والنسبة الى وادي درعه أو الى قبائل تارغه (تارجا) وهو ما نأخذ به ، ولكن على أساس ان قبائل ترغه هي التي أعطت اسمها لوادي درعه (أنظر فيما بعد ص ٨٨) . هذا ولو ان المؤلف ينهى كل ذلك بترجيح ان يكون الاسم قد جاء من اسم « الوادي » أي وادي الآجال (الأمل والحياة) بليبيا ؟

(٤١) عن اجناس شعوب شمال افريقيا البيضاء أنظر ماكيفدي ، أطلس الناريخ الافريقي ، ترجمة السويدي ، ص ٣٥ ، حيث التقسيم الأول الى (أربعة) اجناس ينتمي الى : الساميين في شبه جزيرة العرب ، والحاميين في شمال افريقية (البربر) والمصريين في وادي النيل ، والكوشيين في الصحراء الشرقية « البجاه » . وهنا توصف الشعوب النيلية الصحراوية بضخامة الأجسام وسواد البشرة ، وان كانت أجسامهم ووجوههم أنحف من الزنوج .

(٤٢) عن اللغة البربرية أنظر ج ١ ص ١١٠ وما بعدها ، وقارن ليون الافريقي ، الترجمة ص ٤٧ - حيث الإشارة الى ان اللغة الافريقية (البربرية) تسمى عادة (أول أمازيغ) أي اللغة النيلية ، مع النص على أنها تحوى بعض الكلمات العربية ، وان هذا سبب انتساب البربر الى العرب الحميرين ، والصحيح ان الفارقة مع اللغة العربية أنت عن طريق عملية العريب . وأنظر ص ٧٩ - حيث الإشارة الى ان كتابة الأفارقة (البربر) ضاعت في أعقاب الحكم الروماني لبلاد البربر ، ص ٨٠ وهـ ١٨٨ - حيث النص على أنها الكتابة المستعملة حديثا لبربر الطوارق واسمها التيفيناغ ، ص ٨١ و١٩١ - حيث حلت الحروف العربية محل الكتابة الافريقية وان كتابة التيفيناغ كانت منتشرة حتى جزر كناري (الخالدات) ، وفي أواسط الصحراء الكبرى وغربها ، وان كتابة الطوارق مشتقة منها ، وأنظر جوتييه ، الصحراء ص ٢١٠ - حيث النص على ان الطوارق هم الوحيدون الذين يكتبون الأبجدية اللبية (البربرية) .

(٤٣) أنظر ماكيفدي ، أطلس التاريخ الافريقي ، الترجمة ، ص ٥٥ - ٥٦ - حيث النص على انه منذ قضاء الرومان على قرطاجنة والاستيلاء على الشمال الافريقي من بداية التاريخ الميلادي وقع حدث هام تمثل في تدفق هجرات قبائل الزنوج من غرب القارة الى وسطها في تبارين متوازيين من قبائل الزاندي (Zande) والبانتيو (Bantu) ، وان الطريق : من جبال =

وأهم سمات أهل الصحراء أنهم جمالة ، زعاة ابل يجوبون الصحارى الشاسعة لآلاف الكيلومترات وراء الكلاً والماء لابلهم ، والتماساً للدفء اللابنم شتاء لتتاجها ، وسعياً وراء الرزق ، بدلالة القوافل ، أو حمل المتاجر ، وحتى الغارة على الجيران . وبذلك يصبح الجمل هو السيد الحقيقي للصحراء . فعلى الابل بخاصة معاشهم ، اذ يأكلون لحومها طازجة مطهية ، وقديداً مجففة ودقيقاً مطحوناً - كما كان يفعل العرب قديماً ، أيام التشريق فى موسم الحج - ويشربون من ألبانها ويأتممون ، وينسجون من وبرها الملابس كما يتخذون النعال والأدوات المنزلية من جلودها كالسفر للطعام والسطول لرفع الماء من الآبار ، الى غير ذلك من أدوات الركوب كالسروج واللجم والاقتاب - وان كان الجيد منها من اختصاص أهل المهن فى المراكز الحضرية(٤٤) . فكانهم اكتفوا اقتصادياً فى معاشهم بفضل ابلهم ، وان كان اقتصاداً بدوياً يكتفى بالضرورى من أسباب المعاش ، ولا يتعدى درجة الحاجى منها الى الكمال . وهكذا فهم قلما عرفوا الخبز عن طريق قوافل التجار بباديتهم ، حيث كانوا يتحفون به رؤساء العشائر والقبائل منهم(٤٥) .

الكامرون الى حوض زائير الى منابع النيل الأبيض والأخضر الغربى المحيط ببحيرة فكتوريا . وقارن دائرة معارف ليكسيكون يونيفرسال (Africa) Lexicon Universal ، ج ١ ص ١٤٢ - ١٤٣ - حيث النص على ان سكان اقليم الساحل (السافانا) العشبي ، الممتد جنوب الصحراء من الغرب حتى أعلى النيل يحوى عدداً من الجماعات العرقية ، معظمهم من الزراع المستقرين ، منهم : الولوف (Wolof) والسريير (Serer) السنغاليون ، والفولاني (Fulanic) الغينيون (فى غينيا وشمال نيجيريا) ، السونينكي (Soninki) والمالينكي (Malinka) والبابمار (Bambara) والدوجون (Dogon) فى مالى ، والسنوفو (Senufo) فى ساحل العاج ، والموسى (Mossi) فى فولتا العليا ، واليوربا (Yoruba) والهوسا (Hausa) فى نيجيريا ثم السارا (Sara) فى جنوب تشاد .

(٤٤) انظر الأدريسى ، صادق ، ص ٧٥ ، اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ٢١٠ .

(٤٥) ابن حوقل ، ص ٩١ - حيث الإشارة الى ان قبائل البربر فى برادى سجدلماسة وأودغست ونواحي لمطة وتادمكة الى الجنوب ، ونواحي فزان ، فهم مهملون لا يعرفون الطعام ولا راوا الحنطة ولا الشعير ولا شيئاً من الحبوب ، وقوام حياتهم اللبن واللحم ، وقارن ، البكرى ص ١٦٤ ، والأدريسى ، تحقيق صادق ص ٧٤ - حيث النص على ان عيشهم من البان ابل وطومها مبددة ومطحونة ، مع الإشارة الى انه ربما جلبت اليهم الحنطة والزبيب وان أحفل طعامهم تلك الوجبة التى تسمى « اسلوا » ، والتى تعد من الحنطة المنلوة المجروشة ، مزوجة بالعسل والسن ، مطبوخة على النار . وقارن القرطاس ، ص ١٢١ ، الاستبصار ، ص ٢١٣ - ٢١٥ - حيث الإشارة الى انه رغم طعامهم القليل من اللحم واللبن والسن ، فانهم فى صحة جيدة ، بل وفى منتهى القوة ، وان أمكن تفسير ذلك بأنه تمبر عن حالة نفسية تتمثل فى نظرة =

وهؤلاء الجمالة فرسان بحكم النشأة ، فهم الرعاة الكبار ، الستين
يعتنون بحيواناتهم الضخمة فى المرعى والسقى ، وهم الذين يسوسونها
وقت النتائج (٤٦) . وعلى الطرق الصعبة ، فى الرمال المتحركة ، والمستنقعات
السبخة ، والصخور التى تحفى لها اخفاق الابل (٤٧) . وهم الغزاة بفضل
ابلهم الكريمة المعروفة بالنجب ، ومفردها نجيب ، التى كانت تسابق الخيل
التي عرفوها فى الواحات حيث يتوفر الشعير والماء . وقطعان الابل التى
كانت ترعى بالآلاف قرب ديارهم كانت تستخدم كدروع رادعة للأعداء

= الحرف من قبل أهل الحضر بالنسبة لأهل البادية الذين ربما ظهروا فى أعينهم مظهر الوحوش
الكاسرة حسبما ينص ابن خلدون فى المقدمة ، فى الباب الثانى فى العمران البدوى ،
الفصل الثانى فى أن جيل العرب فى الخلقة طيبى (ط - التجارية ، القاهرة ، ص ١٢١) -
حيث النص : وأما من كان معاشهم فى الابل فهم أكثر طمنا ، وأبعد فى الفقر مجالا . فرارا
من أذى البرد الى دفء هوائه طلبا لما خفى النتاج فى رماله . . . وأيضا . . . نفرة عن الضمة
منهم ، فكانوا بذلك أشد الناس توحشا ، وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور
عليه . . . وهؤلاء هم العرب ، وفى متناهم طعون البربر وزناة المغرب والأكراد والتركمان والترك
بششرق . . . ومن صنهاجة الملتصين . وأنظر ، العبر ، ج ٦ ص ١٨١ - حيث النص على أنهم
الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب . . . منذ دهور لا يعرف أولها . اصبحوا عن
الأرياف ومجروا النول وجفوها ، واعتاضوا عنها ألبان الأعمام والحومها ، انتبازا عن العمران
وتوحشا بالمر عن الغلبة والقهر ، فنزلوا من ريف الجبشة (السودان) جوارا ، وصاروا
ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجازا . وقارن ليون الافريقى ، ص ٦٧ - حيث النص على
أنهم يصبرون على الجوع ، وأنهم يأكلون الحيز أو الوجبة المجهزة ، بل يفتدون بحليب النوق
واللحم المقدد المقل فى الحليب . وفى الربيع حيث يتوفر الحليب لا يهتمون بشرب الماء
أو استخدامه لعلته فى مناطق العشب وقثذ ، وكذلك ص ٦٩ - حيث يصف مادة أمير زناقة
(صنهاجة) فى مضاربه ، حيث ذبحت الجمال والحراف وطير النعام ، وقدمت اللحوم مشوية
ومسلوقة فى شرائح متبلة بالأعشاب وبهارات بلاد السودان مع خبز الذرة الناعم والنسر مع
الحليب - هذا ، مع النص على أن الداعين أكلوا وحدهم وندون خبز .

(٤٦) أنظر جوتييه ، ماضى شمال افريقية ، ص ٢١٧ وما بعدها - حيث تقسيم البربر
الى رعاة صغار هم رعاة الشاة والماعز ورعاة كبار ، هم رعاة الابل ، وهى نظرية ابن خلدون
الذى يقسم البربر تبعا لأحوال معاشهم الى قسمين هما ، المستضعفون ومعاشهم فى الفلح
ودواجن السائمة ، والمتزون ، وهم : « أهل الانتجاع والاطمان » فى نتاج الابل وظلال الرماح
- العبر ج ٦ ص ٨٩ .

(٤٧) البكرى ، ص ١٥٦ ، الاستبصار ، ص ٢١٣ ، وقارن ليون الافريقى ، الترجمة ،
ص ٦٧ - حيث النص على أنهم لا يركبون سوى الابل ، ويستخدمون لهذا سرجا يضعونه بين
السنام وبين عنق الجمل ، يسمى الرحلة (هـ ١٣٤) وأنهم قد يضعون ساقا فوق ساق على
عنق الجمل الذى يثقب منخاره ويوضع فيه سبر يمكن بواسطته تدوير الجمل وتوجيهه ، كما يقاد
الحصان بالجام .

عندما نطلق تليهم دفعة واحدة فتدهسهم دهسا (٤٨) .

ومن قوة الجمال التي كانوا يتمتعون بها ، استمد الرجال قواهم وعزمهم ، ورغم خفة وزنهم فهم كالرماح السهيرية في قوامهم ، ونى شدة بأسهم ، والرمح فضلا سلاحهم المفضل قبل القوس والنبل ، وهذا ما ينهل في خطط معاركهم (بعد تأسيس دولتهم) وما يؤيده انتشار حمل الرماح بين أهل البلاد المتاخمة لصحرائهم ، كما في السوس (٤٩) . وهم فوق ذلك يعرفون أوضاع البر واقتفاء الأثر ، واكتشاف مواضع الماء - ولهم في ذلك الحس الذي لا يدانيهم فيه غيرهم (٥٠) .

واذا كانت روايات القرن (٣ وال ٤ هـ / ٩ - ١٠) عندما تتكلم عن خشونة حياتهم ، تنص على أنهم يتشحون بشياهم ولا يلبسون القميص (٥١)

(٤٨) أنظر ابن حوقل ، ص ٩٧ - حيث النص على ان ملك صنهاجة كان يملك من الابل ما يسمح له بالقضاء على أعدائه بمجرد الاعتماد على هيج بعضها ونفارها على الخصوم بغته . وقارن البكري ، ص ١٥٩ - حيث يقول ان ملك أودغست ، في منتصف القرن الرابع الهجري / ١٠ ميلادي ، كان يستطيع ان يجيش مئة ألف نجيب ، وان يمد حليفه ملك ماسين (من ملوك السودان) بـ ٥٠ (خمسين) ألف نجيب . وعن دخول الجمل الى المغرب وغزو الصحراء (ج ١ ص ١٠٥) ، وقارن ماكيفيدي ، أطلس التاريخ الافريقي ، الترجمة ، ص ٧٥ - ٧٦ - حيث النص على ان صنهاجة اخترقت الصحراء بفضل الجمال التي دخلت شمال افريقيا منذ غزا الفرس البلاد في القرن ال ٦ ق م ، وانها وصلت الى المغرب في القرن الأول ق م ، وشاع استعمالها في القرن ال ٤ م ، ويفضل استخدام الجمل كسفينة لاجتياز الصحراء ، عرفت صنهاجة الدولة الزنكية التي أسستها قبائل السونينكي (Soninke) وهي مملكة غانة في شمال حقول الذهب في بامبوك (Bambuk) .

(٤٩) أنظر الادريسي ، صادق ، ص ٧٨ - حيث النص على ان أهل تارودانت ، لا يمشي الرجل منهم ، الا وفي يده رمحان قصار العصي ، طوال الأسنان رفاقها ، الأمر الذي يعنى مهارة بالغة في استخدام الرماح ، والذي يذكر بمهارة الترك في الضرب بالنبال حتى كان الفارس منهم يحمل قوسين ، ويضرب من أمام ومن خلف ، فكان له عينان في قفاه أيضا كما ينص الجاحظ في رسالة مناقب الترك ، وأنظر جوتييه ، الصحراء ، ص ١٣٤ - حيث النص على أن سكان فزان الجرمنيتين ، على عهد اليونان ، واللاتين ، كانوا لا يستخدمون السهام والقوس في الرمي ، بل كان سلاحهم الوحيد هو الحربة . وان الطوارق في تومبوكتو عند ثنية النيجر ما زالوا يرمون بالرماح ، وهم يرمحون بالخنبل بدقة مذهشة . وأنظر ص ٢١٠ حيث النساء الطوارق يحملن الخنجر في الذراع ، وقارن شعيرة ، المربطون ، ص ٢٨ - حيث لا يمشي الرجل من أهلها الا وفي يده رمح أو رماح طوال الأسنان من أطيب الحديد .

(٥٠) ابن حوقل ، ص ٩٧ .

(٥١) اليعقوبي ، ص ٣٥٩ ، وقارن ابن حوقل ، ص ٨٣ - حيث النص على أنهم يتشحون =

عالم رأى ان الزي المناسب لهم ، بصفتهم جمانة (فرسان) هو السراويل المناسبة للركوب ، مثلهم مثل « الأحديين » المتصلين بالمغرب من جهة الشرق ، وهم أصحاب زي كزي المغاربة ، وفيهم جنود يلبسون السراويلات المفتحة الطوال (٥٢) ، ولا بأس أن تكون ثيابهم قد تطورت مع مرور الوقت ، وتعلم بعضهم ركوب الخيل (٥٣) .

اللتام :

أما أهم ما يميزهم من الكساء فهو اللتام ، المتخذ من فضل العمامة لتغطية الفم والأنف معا ، فلا يظهر من الوجه الا العينان ، فكانه من الفعل لثم بلثهم ، وهو الذي أعطاهم اسم المثلثين (٥٤) ، الأمر الذي يذكر بطبقة

= بالكساء ، وقارن الادريسي ، المغرب العربي ، تحقيق صادق ، ص ٧٤ - حيث النص على ان لباس الرجال والنساء لدى لمونة الصحراء (لمط وصنهاج) « الأكسية الصوف » ، فكان الأوضاع ظلت مسمرة - في مجال الثياب - دون تغيير يذكر حوالى ٤ (أربعة) قرون وأكثر . (٥٢) ابن حوقل ، ص ٥٥ .

(٥٣) أنظر ليون الافريقى (قرن ١٦ م) - حيث يقرر ان لباس جزولة عبارة عن صدرية قصيرة من الصوف دون أكمام ، ملتصقة بأجسامهم (الترجمة ، ص ١١٥) وهذا يعنى انهم يلبسون ذلك فوق السراويل ، على ما نظن . وعن ثياب الطوارق قارن أيضا ، ص ٦٦ - ٦٧ حيث ثياب العمامة : كساء كقوطة ضيقة من الصوف الخشن ، وعلى الرأس قطعة فحاش سوداء ملفوفة حول الوجه كالعمامة . أما الوجهاء فيلبسون قميصا كبيرا له أكمام عريضة ، من قماش القطن الأزرق الذى يشترونه من التجار القادمين من بلاد السودان . وعن ثياب الطوارق حاليا ، أنظر محمد سعيد القشاش ، التوارق ، ليبيا ١٩٨٩ ، ص ١٧ - حيث الزى عبارة عن القميص الفضفاض والسراويل الواسع ، والخذاء العريض من جلد البعير .

(٥٤) أنظر لسان العرب : ط . بيروت ، ج ١٢ ، ص ٥٣٣ ، لثم - حيث اللتام من الفعل لثم يلثم بكسر الاء ، وربما بفتحها يعنى رداء المرأة وهو قناعها على « أنفها » وهو اللتام عندما يكون على الفم (بحيث تظهر العينان والأنف) وهو « اللقام » اذا كان على الأنف (فلا تظهر الا العينان) ، وأنظر اليعقوبى ، ص ٣٥٩ - حيث النص على ان صنهاجة السودان الغربى ينتلمون بعمائمهم ، سنة فبهم ، وقارن ابن حوقل ، ص ٩٧ حيث النص على انه لا يرى لاحد من صنهاجة منذ عرفت ، من وجوههم غير عيونهم ، وذلك انهم يتلثمون وهم أطفال ، وينتشئون على ذلك ، وقارن الادريسي ، المغرب العربي تحقيق صادق ، ص ٧٤ - حيث النص على لمونة (لمط وصنهاجة) يرتطون على رؤوسهم عمام الصوف المسماة بالكرازين . وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨١ - حيث النص على انهم اتخذوا اللتام خطاما تميزوا بشعاره بين الأمم ، وقارن ترجمة دسلان (DeSlane) ج ١ ص ٦٤ - حيث النص على ان اللتام هو نوع من شريط أو رباط القماش ، وقارن ج . مارسيه ، المغرب الاسلامى والمشرق فى العصور الوسطى ترجمة هيكل ، ص ٢٦٥ - حيث اللتام عند الطوارق الحاليين ، قطعة من القماش =

« الاستاذين المحنكين » فى الدولة الفاطمية بمصر والشام (٥٥) .

هذا كما عرفت صنهاجة مثل بربر الصحراء بوضع النقاب على وجوههم فلا يرى منها غير العينين - وبذلك فهم « المنقبون » (٥٦) .

والنقاب أشبه بالقناع الصغير يوضع فوق اللثام فلا يظهر من الوجه الا محاجر العينين وكذلك الأمر بالنسبة للبرقع، وهى مما عرفه العرب أيضا قديما وحتى الآن . وأغلب الظن أن اللثام (على الفم وحده) تطلب ظهور النقاب (أو القناع) الذى يوضع على العينين فوق اللثام - زيادة فى التحفظ - فلا يظهر من الوجه الا محاجر العينين (٥٧) .

ورغم ما يقال من أن سبب وضع اللثام أو النقاب هو باعتبار الفم ، بصفته مدخل الطعام عورة يجب سترها مثل المخرج (٥٨) ، أو أنه من أجل

= يغطون بها وجوههم من أسفل الى أعلى ، وقارن حسن أحمد محمود ، المرابطون ، ص ٥١ - ٥٣ - حيث اللثام المعاصر . قطعة من القماش تصنع فى السودان ، وتحمل الى الطوارق . وهو على لونين : أسود للنبلاء (ولهم القيادة) وأبيض للعبيد (أصحاب الأعمال اليومية الدارجة) وقارن ليون الإفريقى ، الترجمة ص ٦٨ - حيث النص على أو أشرفهم يلبسون فوق رؤوسهم لثاما أسود يغطون وجوههم كلها بقسم منه ، فلا تظهر سوى عيونهم ، ويكونون هكذا عندما يأكلون . فكتشف الفم عند تناول اللقمة فقط ثم ستره فى الحال ، وانظر ه ١٤١ - حيث يدعى اللثام بالبربرية : « تاغلموست » .

(٥٥) أنظر صبح الأعشى للقلقشندي ، ج ٣ ص ٤٧٧ - حيث النص أنهم أجل طبقات « الاستاذون » ، وهم الذين يدورون عمائمهم على أحنالكهم كما تفعل العرب والمغاربة (وهو ما يمثل أربا مغربيا وفد الى مصر مع الفاطميين . وقارن جمال الشيبان ، أعلام الاسكندرية ، ص ١١٠ ، ه .

(٥٦) الاستبصار ، ص ٢٢٣ - حيث النص على أن أهل تادمكة على تخوم السودان . مسلمون وهم ينتقبون كما ينتقب بربر الصحراء .

(٥٧) أنظر لسان العرب ، ج ١ - أ ب ، ص ٧٦٥ - نقاب (وقناع) - حيث النقاب فى أى شيء كان والنقاب = القناع على مارن الأنف ، ويقال تنقب وأنتقب . والأصل فى النقاب انه من رداء المرأة ، وهو مستحدث من الحمار ، لسان العرب ، ج ١ - أ ب ، ص ٧٦٨ (نقب) . اما البرقع فهو لباس الدواب ونساء الأعراب (ج ٨ - ع ، غ ، ص ٩) . وأنظر أوليفر وفيج ، موحز تاريخ افريقية ، الترجمة ، ص ٧٠ - حيث النص على ان اللثام كان رداء الطبقات النبيلة من الأحرار ، دون العبيد من الزراع والصناع .

(٥٨) ابن حوقل ، ص ٩٧ - حيث أنهم يزعمون ان الفم سوء تستحق الستر كالعورة لما يخرج منه ، اذ ما يخرج منه عندهم أنثن مما يخرج من العورة ، وقارن البكرى ص ١٦٨ ، الذى يفهم من روايته أنهم يفعلون ذلك حرصا على أفواههم أن يصيبها الذباب ، ذلك أنهم =

- ٧٩ -



شكل رقم ٨ - طارق ملثم (اللثام من النوع الصغير)

- ٨٠ -

التخفى عند القيام بأعمال اللصوصية - التى كثيرا ما يضطرون إليها بسبب القحط والجفاف - أو للدفاع عن الوطن (٥٩) ، كما يفعل المشمون من شباب المناضلين الفلسطينيين ضد الاحتلال الاسرائيلى ، حاليا .

ولا بأس أيضا فى أن يكون ارتداء اللثام لأغراض دينية سحرية محضة ، كأن تكون هناك علاقة بين الأقنعة ذات الأشكال العجيبة والألوان الصاخبة التى يرتديها أهل السودان الغربى فى احتفالاتهم الآن ، وبين استخدام اللثام قديما عند بربر الصحراء (٦٠) .

= يسمون من لا يضع اللثام من غيرهم « أفواه الذبان » بلغتهم . وقارن حسن أحمد محمود ص ٤٩ - حيث يعتبر ان اللثام لستر الوجه كله ، لأن الوجه كالعورة ، وهو ما لا يندم له سندا .

(٥٩) أنظر ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٢ - حيث قصة ارتداء النساء السافرات عادة . للثام تشبها بالرجال من أجل تخويف القراصنة المهاجمين عندما يرون كثرة عدد المدافعين عن مساكنهم ، ولو أن المعركة انتهت بأن كان من قتل من النساء أكثر . فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سعة يلازمونه ، فلا يعرف الشيخ من الشاب ، إذ لا يزيلونه ليلا ولا نهارا . أما بداية النص فيفهم منها أن لمتونة كانوا مثل العرب يتلثمون من الحر والبرد ، ولكنهم بعد أن ملكوا ضيقوا اللثام ، فكانه أصبح رمزا لحالة ثقافية معينة ، عبر عنها الشاعر العربى بأنها الحياء .

قوم لهم درك العسل فى حمير
لما حذوا أحرار كل فضيلة
وإن أنتموا صنهاجة فبهم هم
غلب الحياء عليهم فتلثموا

وقول الآخر :

إذا التثما بالربط خلت وجوههم
أو التثما بالسايرية أبرزوا
أزاهر تبدو من فتوق الكمائير
عيون الأفاعى من جلود الأراقم

وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٣ - ٣٨٥ ، نصار ج ٢٤ ص ٢٦٣ - ٢٦٤ - مع إضافة بعض الطرائف عن تمسك لمتونة بالثام الى الحد الذى يسمح للرجل منهم بأن يقدم ستر وجهه على ستر عورته - وذلك فى دمشق بعد انقضاء دولة الملتحمين .

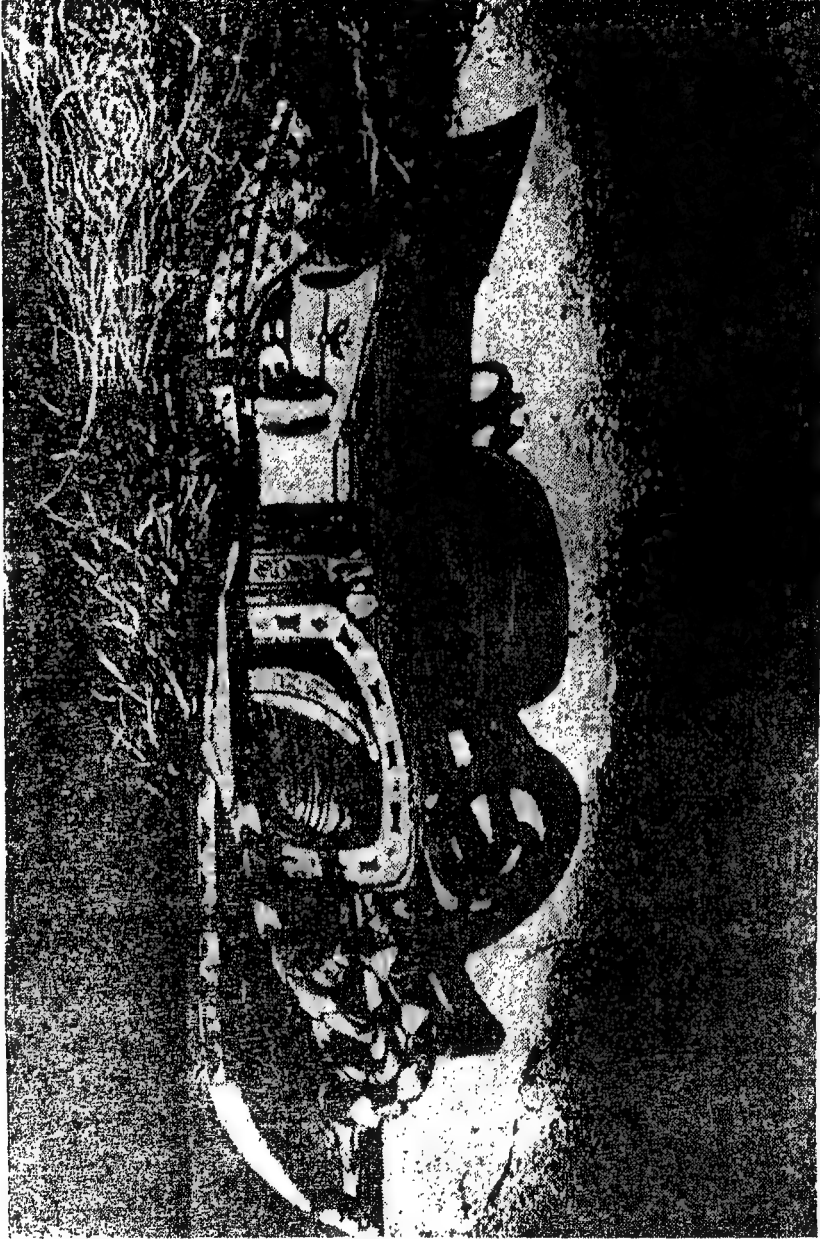
(٦٠) أنظر جوليان (ش ١٠) ، تاريخ افريقيا الشمالية ، الترجمة العربية ، ج ٢ ص ١٠٤ - حيث النص على أن لمتونة كانوا يجوبون واحات جنوب المغرب الأقصى الى بلاد الزنوج ، ولعلمهم كانوا يضعون اتقاء من العين لثاما يحجب أسفل وجوههم فسموا بالملتحمين ، وقارن أحمد مختار العبادى ، الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ، مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، ٦٧/٢١ - ٦٨ ص ٤٩ - حيث النص على أن ارتداء اللثام عادة أخذت من زنوج افريقيا المحاورين الذين استخدموا الأقنعة لدفع العين الشريرة عنهم ، مع الإشارة الى جولان (تاريخ شمال افريقيا ، ١٩٥٢ ، ص ٧٧) ، وهو مختلف عنه إذ يمكن أو يكون العكس هو الصحيح - والأمور احتمال على كل حال . وأنظر لون الافريقى ، ص ١٤١ ص ٦٨ - حيث الإشارة الى كثير من الأساطير غير المتقنة مما يتعلق بالثام ، منها : انه لدفع أمر محرم (Taboo) حرقى ، وهو الفم أمام المرأة والأشخاص المحترمين ، وهو ما لا يشير اليه المؤرخون =

والحقيقة أن ما يأخذ به البعض من رفض فكرة ارتداء اللثام من أجل انقضاء عوارض الجو المختلفة من الغبار والبرد والحر ، وترويج فكرة الخشية من تسرب الأرواح الخبيثة الى الجسد عن طريق الغم والأنف له علاقة بالمعتقدات السودانية التقليدية في جنوب الصحراء ، والتي تتمثل في أساطير وقصص عن الله والبشر والطبيعة . ويظهر ذلك في الفن التقليدي في وسط أفريقيا وغربها في الأقنعة بشكل أساسي ، وفي الرؤوس ذات المعنى الديني السحري والتي تستعمل في القيام بالندسات الدينية واضرب على الطبل وقص الحكايات . وبدون ذلك لا يمكن للفن المرئي القيام بوظيفته في المجتمع الأفريقي التقليدي ، والتي تتمثل في الصراع من أجل السيطرة على القوى المختلفة ، من : طبيعية وعلوية لكي تنتهي الأمور على ما يرام . ويشتهى ، فكان الفن هو وسيلة العلاج (٦١) .

هذا وتعرف ديانة السودان عند الباحثين بـ « الاحيائية » (animisme) ، من حيث أنها تركز على تقديس الأرواح أيا كانت ، لاجتذاب الحيرة منها وتقريبها ، ودفع الشريرة منها وطردها - فكانها من الديانات الثنوية ، مثل : السمنية (Chamanisme) : ديانة المغول والتتر . وهي تعتنى بأرواح الموتى الباقية مع الاحياء وهي الأكثر عددا ، الى جانب أرواح مظاهر الطبيعة المختلفة ، من : الماء والأرض والشجر والحيوان وغيرها من الكائنات ، الأمر الذي يعبر عن وحدة المجتمع والبيئة حيث يغنى الفرد في سبيل الجماعة (٦١ م) .

=القديم . وان كان من الممكن أن يكون القناع لاختفاء قبح الوجه أحيانا ، أو أن يكون ارتداء اللثام الذي يتم في حفل عائلي صغير بالنسبة للغلام (المراهق) دلالة على أنه بلغ مبلغ الرجال ، وأنه يستطيع المشاركة في الغزو وكذلك التردد على النساء . (٦١) دائرة المسافر ليكسيكون يونيفرسال ، ط ١٩٧٥ ، ج ١ ص ٤٦ (عن الدين) وص ١٦٠ (عن الفن) ، وص ٦٤٦ (عن قناع للتأمل مصنوع من الخشب والليف (من زائير الكونغو) وهو في الحقبة لباس للرأس دقيق النحت والتلوين ، ويقوم بارتدائه شاب أثناء احتفال الختان أو الرقص ، وانظر شكل ٧ - حيث قناع من غينيا الفرنسية يجمع بين القسمات الانسانية ورأس التمساح وجسد الأسد .

(٦١م) عن السمنية أنظر للمؤلف ، الاسلام والترك ، مجلة عالم الفكر الكويتية ، عدد ٢ سنة ١٩٧٩ ، ص ١٦٦ . وعن ديانات السودان ، أنظر مولارد ، إفريقيا الغربية الفرنسية ، ص ٧٧ (عن الديانات) - حيث يتطلب فناء الفرد في مصلحة الجماعة أعدادا شاقا لشخص منذ نعومة أظفاره ، مما يشبه الأعداد في الجمعيات السرية ، كما يتطلب احتفالات سرية تستخدم فيها الأقنعة الرمزية الخاصة بتلك الديانة ، ص ٨٠ والصنعة المقابلة حيث صورة =



شكل رقم ٩ - قناع من غينيا الفرنسية - يجمع بين القسمات الانسانية
ورأس التمساح وجسم الشعبان

والمهم انه رغم كل ما يقال عن انغلاق بين اللثام والديانات السودانية المشار اليها ، فان المتعارف عليه ابتداء أن استخدام اللثام بالصحراء ، بل وفي كل مكان مفتوح كالريف والبحر والفضاء أيا كان ، أمر مطلوب لحماية الوجه وجهاز التنفس ، بل والعينين أيضا ، مما قد يتهدهما من أذى الرياح المحملة بالرمال والأتربة ، والى تسفو عاصفة على طول الطريق - وخصوصا في مواسم التفتبات الجوية (٦٢) .

ومن المهم الإشارة هنا الى أن اللثام الصحراوي تطور في مملكة جنبي التي خنفت تومبوكتو كالعاصمة التجارية ، والتي عرفت عند المغاربة باسم جنيوه ، وهو الاسم الذي أصبح عند تجار المغرب كناية عن بلاد السودان. حيث جادت صناعة نسيج القطن فأصبح اللثام (في القرن ١٦ م) كبير الحجم ، أسود اللون أو أزرقه ، ويتغطون به حتى الرأس ، بينما تميز لثام العلماء والفقهاء باللون الأبيض (٦٣) .

وهكذا يصبح اللثام نوعا من عوامل الربط بين بربر الصحراء وقبائل

= قناع خاص بجماعات النالو والباجا من غينيا الفرنسية ، وتظهر فيه مسحة الوجه الانساني ، وشكل رأس التمساح مع جسم الافعى (شكل ٩ ص ٨٢) . وقارن كولن ماكيفيدى ، أطلس التاريخ الافريقي ، الترجمة ، ص ٢٣ - حيث تحفة فنية تمثل مقعدا من النحاس للأغراض السحرية ، قائمه حية ضخمة ملتفة ، وقاعدته مزينة بالضفادع والاقنعة البارزة ، بينما المقعد (ص ٧١) مزخرف برموز بارزة ، من الصليب البيزنطي الى القناع والسيوف وبعض الأدوات الحرفية . وانظر أيضا ص ٨١ - حيث قناع من العاج يمثل رأس ملكة افريقية مزين بافريز كالمقرنص (كورنيش) من رؤوس البرتغاليين الأوائل الذين وصلوا الى افريقيا (من محفوظات المتحف البريطاني بلندن) . وقارن فديج (Fage) ، مقدمة لارييه غرب افريقية (بالانجليزية) ، ص ٧ - حيث تتلخص عقائد الزنوج في ان لكل جماعة رئيس كهنوتي ، وانهم يعتقدون في اله أعلى هو خالق الكون وأعداد من الآلهة لهم علاقة بالأشياء الأرضية ، مثل : الصخور والأنهار والبحيرات وهم أقرب الى الانسان منهم الى اله الخالق ، وهناك اعتقاد في الحياة بعد الموت ، وهناك عالم الأرواح ، ومنها أرواح الموتى ولهم تأثير قوى على الناس والأشياء .

(٦٢) أنظر ابراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٤١ وهـ ٦ - حيث النص على انه اذا ثارت الرياح أطارت رمل « سوف » الناعم كالذيق ، في الجو أعمدة قد تنفث القوافل فتدفعها (فكأنها عواصف الثلج في ممرات أطلس وجبال الريف على تخوم الصحراء . كما ينص ليون الافريقي ، الترجمة ، ص ٨٥) . ولذلك فانه في زمن الرياح لا يستطيع الانسان السير في «أرض سوف» من غير ستر عبيه بزجاج هو في الحقيقة منظار يستخدمه أهل الصحراء - الأمر الذي يعنى ان المناظر (النظارات) الزجاجية تعتبر نوعا من النقاب ، وان الأقنعة المعقمة التي يتخذها الأطباء على الأنف والقم أثناء الكشف على المرضى نوع من اللثام أيضا .

(٦٣) ليون الافريقي ، الترجمة ، ص ٥٣٧ .

السودان الشمالى الذين امتزجوا بهم بحكم الهجرة والجوار منذ القديم ، حتى أصبح الجميع ملثمين ، فكان السمة المميزة لدولة المراتبين هى انها دولة السمر أصلا ، أى أهل الوسط المهجنين بين الجنسيتين الأبيض والأسود ، وهى طبيعة الوطن فى اقليم الساحل ، حيث التماس بين الجنسيتين الذى ربط امتزاج الدم بينهما عرقيا ، كما ربط اللثام بينهما حضاريا وثقافيا .

وتظهر تلك التفرقة فى تقسيم الزواج فى أفريقيا الى عرقين ، هما : السود فى غرب أفريقيا ، وهم « السودان » وحدهم ، نسبة الى مجموعة اللغات التى يتحدثونها ، وهى اللغات السودانية ، هؤلاء يختلفون عن العرق الآخر الذى يمثل السودان فى شرق ووسط وجنوب أفريقيا ، ولهم لغاتهم الخاصة بهم ، فهم البانتو (Bantu) أهل الغابات ، نسبة الى اللغة ، وهم الزواج الحقيقيون (٦٤) .

وثمة سمة ثالثة زادت فى تميز ذلك المجتمع الصحراوى السودانى الملثم ، تتمثل فى مركز السيادة الذى تمتعت به المرأة ، فالأسرة فيه من النوع الأموى (الماترياركي matriarcale) . وفى الامبراطوريات السودانية كانت الوراثة لابن الأخت ، وفى دولة المراتبين كان الانتساب الى الأم اذا كانت من الأسرة المالكة ، كما يأتى .

(٦٤) أنظر فيديج ، مقدمة لتاريخ غرب أفريقيا ، ص ٤ - حيث كلمة بانتو معنى الرجال (men) ، وص ٥ - حيث الهجرات والاختلاط بين السود والببيض خلال الـ ٢٠٠٠ سنة الماضية ، الأمر الذى يوضح ان دولة غانة كانت أكثر شمالا مما يظن وكذلك الأمر بالنسبة لجماعات الهوسا فى الغرب . وأنظر ص ٩ - حيث الإشارة الى ذوبان الغزاة من البربر فى المجتمع الزنجى الذى تعلم تقنياتهم وأقام الامبراطوريات .

الثروات الطبيعية

النبات :

الصحرا بطبيعة الحال ، قليلة الخيرات تبعا لقلّة الماء ، وبالتالي قلّة النباتات التي عليها معاش الحيوان والانسان . ولما كانت صحراء المثلثين هي الصحراء بالامتياز أى قلبها المقفر ، كانت النباتات فيها من النوع الابرى أو الشوكى ، الذى يدافع عن وجوده ضد الحيوان من أجل البقاء ، ربما باستثناء الجمل، المهيا خلقيا للتعامل مع هذا اللون الصعب من الطعام(٦٥) .

النخلة :

واذا كان الجمل هو الرمز الأول للصحراء حسبما هو معروف ، فان النخلة هي الشعار الثانى للصحراء . والحقيقة أنه اذا كان الجمل مبروفا يتحملة للعطش سمة الصحراء الأولى ، فان النخلة ليست كذلك ، اذ لا تصبر طويلا عن الماء مثل نباتات الصبار وهى لذلك لا توجد فى الصحراء الا فى الواحات حيث تتوفر المياه الجوفية ، كما فى أحساء الرمل والبطائح والسبخا والشطوط ، أو غير بعيد من موارد الماء على طول الأودية والأنهار أو حول العيون والآبار(٦٦) .

(٦٥) الى جانب النباتات الشوكية عرفت الصحراء النباتات التي تقاوم الحرارة والجفاف عن طريق الأوراق الصغيرة المضادة للنسج ، والجذر الكبير للحفاظ على الرطوبة ، ومنها الفصير العمر (مثل : *Baerhavia repens* على الحواف الجنوبية للصحراء ، والى زهر وتموت فى ٨ (ثمانية) أيام فقط . وهى عادة تستهلك كميات قليلة من الماء ، وتهى بدورها للانتشار الواسع وساعدها فى ذلك حيوانات الرعى ، من الجمل والفرال والماعز حث ساعد أشواك البذور على التعلق بأرجل الحيوانات وشعرها ووبرها والرحلة معها - أنظر والطون الاراضى الجافة ، الترجمة ، ص ١٤٧ - ١٥١ .

(٦٦) وفى غرس النخيل تشير دراسة أحمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية فى مصر ،

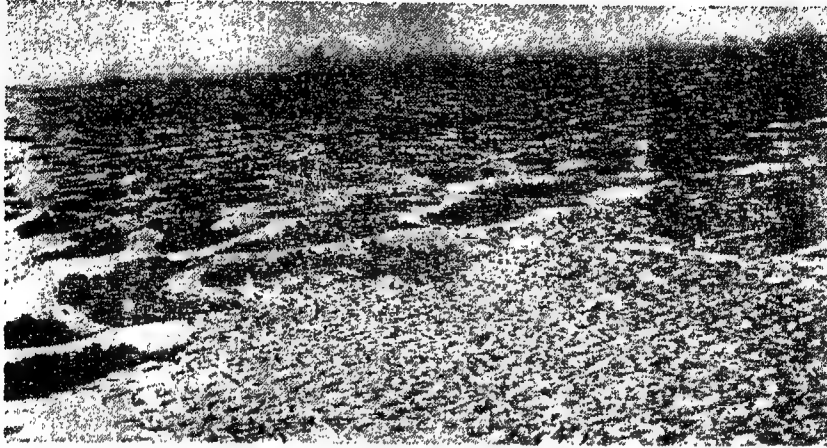
وهكذا تكون النخلة رمزا للصحراء شراكة مع عائلة الصبار والنباتات الشوكية الأخرى ، حيث أن أوراق سعفها الأبرية وتحملها للحرارة الشديدة . الى جانب ارتفاعها المستمر مع مرور الوقت ، تجعل منها شارة حقيقية في قلب الصحراء : تهدي الى مواضع الماء ، وتدل على الطريق . هذا ، الى جانب أهميتها الاقتصادية الكبيرة ، من حيث أن ثمرها مصدر الطعام الطبيعي في الصحراء والواحات . ولما تقدمه أيضا من خدمات عامة للإنسان والحيوان ، كالفى عند لفح أشعة الشمس وحرارة الجو ، والطراوة عند اجفاف الجفاف ، الى جانب المنظر الجميل الذي أوحى للبنائين اقامة السواري السامقة ، والأساكيب (المعمارية) الرائقة (٦٦ م) .

ولتوطن النخلة في صحراء أفريقيا الشمالية قصة أشبه ما تكون بقصة توطن الجمل فيها وان كانت أحدث منها ، كما تدل الشواهد . فالنخلة وافدة من المشرق ، بواية عمران المغرب . ولا بأس أن تكون قد دخلت البلاد في العصر الروماني رغم افتقاد الأدلة على وجودها وقتئذ - على الأقل بالكثافة المعروفة الآن في غابات النخيل . وهذا الأمر يدعو الى قبول فكرة أن غرس الواحات بالنخيل ، مثل سكنها بالجنس الأبيض ، وتطور أساليب الري فيها بتقنية متقدمة انما كانت تتم شيئا فشيئا في العصور الوسيطة والحديثة ، منذ انتشار الجمل الذي جعل الوصول الى الصحراء أمرا ميسرا ، كما جعل استقلالها الاقتصادي شيئا ممكنا (٦٧) .

شمال سيناء ١٩٩١ ص ١٥٦ ، الى أنه يتم غرس الفسائل في حفر يصل عمقها الى الماء السطحي ، أو الرمال المشبعة بالماء ٠٠٠ وان النخل يشمر عادة بعد ٦ (ست) سنوات بعد التسميد والتذكير . مع النص على ان النخلة تحتاج الى رعاية واکرام من صاحبها حتى تكرمه بالمحصول الوفير .

(٦٦م) عن الأسكوب (في المفرد) وهو المنصر المعماري في الجامع الذي يعادل البلاطة المعرضة ، عند أحمد فكري (المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها) ، أنظر للمؤلف ، العمارة والفنون في دولة الإسلام ، ص ٢٩٤ وه ١ .

(٦٧) أنظر جوتيه ، ماضي شمال افريقيا ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ - حيث النص على ان غابات



شكل رقم ١٠ - وادى سوف (الجزائر) - المدينة فى المقدمة وغابات النخيل بين كتبان الرمل

اقليم النخل :

والمنطقة المقابلة « للساحل » شمالا ، هى حزام النخل الذى يحد الصحراء ابتداء من السوس الأقصى غربا ، مما يتاخم مواطن قبائل جزوله ، ويمتد شرقا عبر سفوح درن (أطلس) الجنوبية وبلاد درعة وسجلماسة الى وارجلان والجريد حتى غدامس (جنوب طرابلس) ، وهى مناطق شبه صحراوية ، يتوفر فيها الماء والحصب • فايحلى عاصمة السوس ، على نهر

النخل الجملة فى وادى ريخ - جنوب بسكرة (بالجزائر) لم يكن لها ذكر فى النصوص الرومانية ، ولا يوجد له أثر فى البقايا الرومانية (الأثرية) ، وانظر ابراهيم العوام ، الصحراء وسوف ، ص ٦٤ - ٦٥ ، حيث التركيز على ما للنخلة - شجرة سوف بالامتياز فى العصر العربى الاسلامى - من أدب خاص بها • فهى الشجرة المباركة التى خلقت من فضلة طينة آدم ، وهى تشبه الانسان من عدة وجوه ، من : الاستقامة ، وتمييز جنسها ، والاثمار بلفاح الذكر ذى الرائحة الانسانية ، والهلاك اذا قطع رأسها أو أصيب جمارها (مخها) ، وعدم رجوع غصنها اذا قطع (كالعضو الآدمى) ، وكسوة الالياف (أشبه بشعر الجسد) ، ثم انها تمى عندما تهدد بالقطع اذا لم تثمر فتعود الى الاثمار • اما عن أسمائها فبهذه أكثر من ١٠٠ (مائة) نوع • والمهم بعد ذلك أن النخلة ليست شجرة صحراوية عتيقة ، فهى وان تحملت الحر الشديد لا تصبر كثيرا على العطش ، نهى لذلك شجرة الواحات التى تحتاج الى الرعاية ، مما سبقت الإشارة اليه •

ماسست ، شهيرة بكثرة النخيل ورخص التمر (٦٨) . والمهم أن ايجلى على ٣ (ثلاث) مراحل فقط من مدينة نول لمطة ، من حيث يبدأ الدخول في الصحراء (٦٩) .

وبلاد درعه التي يمكن أن تكون قد أخذت اسمها من قبائل ترغه (أو الطوارق) التي سكنتها قديما (٧٠) ، اشتهرت بكثرة بساتين الفاكة والنخيل (٧١) .

وتعتبر سجلماسة (تافاللت) القرية من درعه من بلاد النخل هي الأخرى الى جانب بساتين الفاكة ، وان تميزت على غيرها من الواحات بزراعة القمح (٧٢) .

وفى الطريق الى المشرق كانت ورجلان التي امتدت فى شكل ٧ (سبعة) واحات أو حصون من بلاد النخل ، تمثل محطات رئيسية على طريق القوافل

(٦٨) البكرى ، ص ١٦٢ (والاستبصار ، ص ٢١٢) - حيث وفرة قصب السكر ايضا ، وشجر الهرجان الذي يستخرج منه زيت الطعام الشائع الاستعمال ، والمستخدم ايضا فى علاج الكلى وادرار البول .

(٦٩) الاستبصار ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٧٠) عن ترغه أنظر ، ما سبق ص ١٤ وه - اما عن وادى درعه فهو عدة قرى متصلة على طول النهر الذى ينبع من جبال اطلس (درن) ويجرى بقلبيها من الشرق الى الغرب . وعاصمة تلك القرى التي كانت تسكنها قبيلة سرطة أيام البكرى (منتصف القرن الـ ٥ هـ / ١١ م) هي « يتوميتين » (البكرى ص ١٥٥ - ١٥٦) .

(٧١) هذا كما اشتهرت درعه بالزيتون والأعشاب شبه الطيبة التي تنمو فى ظل النخيل كالحناء خاصة ، والكراوية أو الصناعية مثل النيلج (المستخدم فى صبغة اللون الأزرق) - أنظر الادريسي المغرب ، تحقيق صادق ، ١٩٨٣ ، ص ٧٧ ، وفازن الاستبصار ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ - حيث الانفراد بالمعلومات التي ربما سقطت من نسخة البكرى ، والتي تنص بخاصة على حودة الحناء التي عظم انتاجها حتى كانت تؤخذ منها بغور الحناء الى سائر البلاد ، وقارن شعيرة ، المرابطون ، ص ٢١ . هذا كما يوجد بدرعه شجر التاكوت الذى يستخدم ورقه فى دباغة الجلد الغدامسى ، كما كان ورق شجر النامجلث يستخدم كصحاف الطعام ، لعظمته وقوته ، كما كان الحال فى سجلماسة - البكرى ، ص ١٥٦ ، الاستبصار ، ص ٢٠٧ .

(٧٢) البكرى ، ص ١٤٨ ، والاستبصار ، ص ٢٠١ - حيث سقا القمح من النهر الذى ينبع من احدى العيون الارتوازية ، وكذلك الشعير . بينما يضيف الادريسي الى الحناء والكراوية والكمون زراعة القطن (المغرب العربى ، تحقيق صادق ، ص ٧٦) .

الى واحات مصر (٧٣) . أما قسطنطينية (القلاع) وقاعدتها توزر الشهيرة
بهندسة الرى الدقيقة ، فكانت مع بلاد الجريد القريبة ، بلاد التمر
بالامتياز (٧٤) . وفى جنوب شرق الجريد عرفت غدامس بكثرة تمرها ،
وشهرة جلودها - وهى آخر مواطن الطوارق فى ليبيا حاليا (٧٥) .

وهكذا امتدت بلاد النخل من تارودانت بالسوس غربا الى واحات مصر
شرقا . والى جانب النخلة وفى ظلالها حيث تتوفر الرطوبة وجدت النباتات
والاعشاب الطيبة والعطرية ، من الحناء والحبق وأصناف الأشجار من الاهليلج
وشجر الصمغ وغيرها مما كان يستخدم فى الغذاء والدواء وفى الصناعات
من الصباغة والدباغة وغيرها (٧٦) :

نباتات الساحل :

أما عن منطقة الساحل (حزام أعشاب السافانا الجنوبية) ، شبه
الصحراوية ، فتوجد بها الى جانب الاعشاب الابرية ، شجيرات الدوم ، كما
تنتشر فيها شجيرات الطلح (الأكاسيا : Acacia) ، والكرام كرام
(Cram - cram) الى نخلة الرونييه الشمينية : (Roniez Barassus)
(Flabe lifer) (٧٧) .

(٧٣) الاستبصار ، ص ٢٢٤ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ١ ص ١٠٠ - ١٠١ - حيث بلاد
النخل تمثل اقليما طبيعيا فى شمال الصحراء يمتد من السوس الى مصر ، وأنظر ج ١
ص ٧٥ - ٧٧ . والشكل ٨ - عن غابات النخيل فى وادى سوف بالجزائر .
(٧٤) البكرى ، ص ٤٧ - ٤٨ ، والاستبصار ، ص ١٥٥ ، ١٥٠ .
(٧٥) البكرى ، ص ١٨٢ ، الاستبصار ، ص ١٤٥ - ١٤٦ - وعن طوارق غدامس الآن ،
أنظر محمد سعيد القشاط ، التوارق ، عرب الصحراء الكبرى ، ص ١٧ - حيث تمتد مواطنهم
من غدامس الى تمنغست بالجزائر وتيمياوين على الحدود مع مالى ، الى تينيكو بمالى وطاوه
باليجير ، وابشة شرق تشاد .

(٧٦) البكرى ، ص ١٥٧ - حيث موضع اقترندى على طريق تامدلت - اودغست ، وهو
بئر عطبة فى حد بنى وارث ، من صنهجة وأنظر ابراهيم الموامر ، الصحراء وسوف ، ص ٥٢
وما بعدها ، حيث نباتات منطقة سوف ، مع النص فى ص ٥٣ - على ان شجر الصحراء الحطبى
فقط ، هو : الازال والأرضى والعلندة والبلبال والباقل والمرخ ، مع الاهتمام بذكر أشجار
الدواء ، من : الدعار (للسعال والبواسير) والطرفاء (وجع السنان) والأثل (شد
الشعر) .

(٧٧) مولاد ، ص ٤٦ - ٤٧ ، وأنظر دائرة معارف ليسيكون ينيغرسال ، افريقيا ، ج ١
ص ١٤١ - حيث الإشارة الى ان منطقة الاعشاب (سافانا) تمثل ١/٣ (ثلث) مساحة افريقيا
ما بين الغابات والصحراوات ، وأنها تتدنى كلما اقتربت من الصحراء حيث بعض الشجيرات
التي تتحدى الجفاف ، وبعض الحفرة المتباعدة التي تتحمل بعض الرعى .

وتعتبر مدينة أودغست أول مناطق هذا الحزام جنوب الصحراء ، حيث تتوفر الحياة الحضرية بتوفر الماء ، من : البساتين والنخيل ، بل وزراعة القمح عن طريق الحرث (بالفؤوس) والسقيا الصناعية بالدلاء ، فكانها نظيرة سجلماسة ودرعه (شمال الصحراء) ، ويؤكد شهرتها في إنتاج الحناء أيضا (٧٨) .

وبعد أودغست تكون النقلة الى البيئة السودانية الموسمية ، حيث يزرع القمح وكذلك الأرز الذي يسمى « الرشيد » ، وهو يحتاج الى الغمر في الماء ، الأمر الذي توفره مياه نهري السنغال والنيجر (٧٩) . أما الغابات الجنوبية فأكثرها شجر الأبنوس من اسود (غالبا) ومجزع ، والذي يكون منه الوقيد (٨٠) .

الحيوان :

الجمال :

الجمال الذي دخل الى صحراوات المغرب في القرون الميلادية الأولى ، هو بحق سفينة الصحراء ، ففضله أمكن التوغل في قلب بحار الرمل ، وارتداد أطرافها جنوبا حتى بلاد السودان حيث أصبحت الصحراء همزة الوصل ، وطريق المواصلات الذي يربط شمال أفريقية بوسطها ، وشرقها بغربها بشبكة من الطرق أحدثت في المنطقة ثورة اجتماعية سياسية ، كما يقول جوتييه ، أشبه بما أحدثته خطوط السكك الحديدية ، وظهرت السيارة ثم الطيارة (٨١) . ويرجع ذلك لضخامته وقدرته على حمل الأثقال ، وتحمله الجوع والعطش ، وتأقلمه مع البيئة بفضل الأخفاف المضادة للغوص في الرمال ، واعتياده على أكل شجيرات الصحراء الشوكية ، وشرب ماء العيون

(٧٨) البكري ، ص ١٥٨ - حيث النص على انه لا يأكل دقيق القمح الا الميسور ، اما العامة تأكلهم الذرة وغيرها ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٥ (حيث سقطت الحناء ، وعن درعه ص ٢٠٦ - ٢٠٧) .

(٧٩) مولار ، ص ٣٠ .

(٨٠) البكري ، ص ٧٣ ، وانظر دائرة معارف لكسيكون يونيفرسال ، افريقية ، ج ١ ص ١٤١ - حيث النص على ان الغابات الاستوائية تنتج حاليا نخلة الحمر الثمينة ، ونخلة الزيت ، والأبنوس وخشب الماهوجنى .

(٨١) أنظر ماضى شمال افريقية لجوتييه ، ص ٢٠٩ ، وقارن شعيرة ، المرابطون ، المقدمة ص ٥ .

الملاحه (٨٢) .

والجمل الكريم يسمى نجيب (والجمع نجب) ، وهو سريع العدو يسابق الخيل ، فراكه فارس محارب مثل راكب الفرس وأشد (٨٣) .

والخيل التي دخلت المغرب عن طريق المشرق عبر مصر ، ربما منذ عصر الهكسوس أو الفرس (٨٤) ، لا توجد في الصحراء الا في الواحات حيث الماء

(٨٢) ما سبق ، ص ٦٢ ، وانظر والتون ، الأراضي الجافة ، الترجمة ، ص ١٦٢ - ١٦٨ .
- حيث الإشارة الى ان الجمل هو الحيوان الأساسي من بيئة آكلات العشب في البيئة الصحراوية
والجمل الآسيوي ذو السنمين أشد من الأفريقي ذي السنم الواحد ، وأقدر على تحمل الجوع والعطش والحر والبرد ، وعن خصائصه الفسيولوجية ، فالحف الكبير يساعد على توزيع الوزن فوق مساحة كبيرة من الرمل ، ويمكنه يحصن ضد الإشعاع الحراري من السطح الصخري الحار .
أما عن تحمله للحرارة والبرودة فلأنه لا يفرق قبل درجة حرارة ٤١° ، بينما يبرد جسمه ليلا الى درجة حرارة ٣٤° ، وهو يعوض ما يفقده من الماء مما هو مخزون في سنانه ، وذلك عن طريق أكسدة الشحم فيه . والحقيقة انه ليس للجمل خزان مياه في جسده ، وأقصى ما يحده المرتحل عند ذبح بعيره وقت الظلما ، هو المصارة الهضمية الحضراء في تلافيف معدته .
وعن دورة حياة الجمل ، انظر أحمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية في مصر وشمال سينا ، ص ٨٠ - ٨١ ، حيث الإشارة الى الثقافة الكبيرة عن دورة حياة الجمل حيث المولود (حوار) والمططوم (لبنى) ، والطلق (مغروط) ، والمنظم الاستخدام (مربوط) ، وذلك قبل مرحلة التطبيع . والجمل « صائم » عندما يطلب الأنثى في الشتاء ، والحمل ١٢ شهرا ، وفترة الرضاعة فرصة طيبة لأصحاب الناقة لأخذ شيء من لبنها .

(٨٣) وانظر جوتييه ، ماضي شمال افريقية ، ص ٢٠٩ - حيث تراه شارحا لنظريات ابن خلدون ، اذ يقول ان الجمل لا ينفصل عن الرجل الذي يستخدمه ، وهو البدوي الكبير ، راعى الابل الذي يتجمع في قبائل مخبئة ، كل واحدة منها أشبه بكتيبة مقاتلة منذ مولدها ، فهي سريعة الاتصال ، ويمكن أن تظهر ككائرة طبيعية ، غير متوقعة . . . وهو بسبب الفقر واقتصاد الشبع والمتع والنقود يصبح وحشا آدميا ، ينزع الى النهب والسيطرة . وقارن اسماعيل العربي ، الذي يأخذ بمتولة دخول الجمل الى صحراء المغرب عن طريق مصر ، منذ عصر الهكسوس ، وعلى طول عدة قرون ، فكان الهكسوس الحيالة جلبوا معهم الجمل أيضا من آسيا - بصرف النظر عما هو معروف من أن الجمل الآسيوي ذو سنمين - وهو يشير أيضا الى ان حيوان الانتقال في الصحراء المغربية ، قبل الجمل كان الثور ذا القتب (السنمة) .
وقارن أوليفر ، ونج ، مقدمة تاريخ افريقية الغربية ، الترجمة ، ص ٦٧ ، - حيث النصر على أنه قبل مجيء الجمل الى شمال افريقيا كان هناك نوع من العربات التي تجر الواحدة منها ٤ (أربعة) خيول تجوب الصحراء في طريقين ، من فزان وجنوب مراكش الى ثنية النحر العظيم ، حيث كان يوجد الذهب - وهو الأمر المستغرب - وأن ذلك بناء على الرسوم الموجودة على الصخور الأثرية في الصحراء .

(٨٤) انظر جوتييه ، ماضي ، شمال افريقية ، ص ١٨٨ - ١٨٩ (عن الحصان المغربي) .

والعلف ، من الشعير أو من ردىء التمر - بينما يكون النوى أحيانا غذاء الماعز^(٨٥) .

حيوانات البرية :

أما عن حيوانات البرية فمنها اللمط (اللمت) وهو نوع من الأيائل الشبيهة بالبقرة الوحشى ، مثل الرنة^(٨٦) ، والذي كان يصنع من جلده دروع الدرق اللمطية ، آلة الحرب الشهيرة لحفاتها ومتانتها ، ليس بين أنصحراويين فقط ، بل وفى كل بلاد المغرب ، وكذلك بالأندلس^(٨٧) .

ومع اللمط عاشت فى الصحراء أنواع من الكباش التى تسمى (الدمانية) وهى شبيهة بتلك الأيائل أيضا ، وإن كانت أكبر حجما ، وشعرها مستترسل كشعر الماعز^(٨٨) . ووجد بنفس الصحراء الثعلب وخاصة النوع الأبيض الصغير الحجم ، كبير الأذنين ، المعروف بالفنك والمطلوب لقرائه الجميل ، الثمين^(٨٩) ، كما « الفيزون » (انفسدس) فى أيامنا هذه .

(٨٥) أنظر ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٤٩٢ - عن درعه حيث التمر علف الخيل والنوى المجروش غذاء الماعز .

(٨٦) أنظر فيما سبق ، ص ٧٠ - حيث اعتبار اللمط المبط الاسطورى الذى تتسمي به بعض القبائل الصحراوية ، من لته (لمطة) أو لمتونة ، وأنظر ليون الافريقى ، ص ٤٨٩ وه ٤ ، ه ٦ - حيث اللمت نوع من الوعل (Addas أو Oryx) ، وحيث النص على أن كلمة « ودان » فى ليبيا (غير ودان موريتانيا) تعنى نوعا من المها البرى بحجم المعجل ، وقارن ابراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٦٧ - حيث تقرير أن البقر الوحشى (اليعفور بالعربية والكوزن بالفارسية) كان بصحراء سوف الجنوبية الى عهد قريب ، وأنظر ص ٦٨ - حيث النص على أن الغزال يأكل الحنظل والحديج فيستحيله ، ويشرب ماء البحر الملح فيستعذبه .

(٨٧) أنظر البكرى ، ص ١٧١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٤ . وأنظر شكل ١١ - النموذج الأخير للتمط فى الجزائر .

(٨٨) البكرى ، ص ١٧١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٤ ، وأنظر دائرة معارف لكسيكون، يونيفرسال ، افريقية ، ج ١ ص ١٤١ - حيث تحوى اراضى العشب الافريقية حاليا معظم ما بقى فى العالم من قطعان الحيوانات البرية من : الأيائل والزراف والحمار الوحشى فى شرق افريقيا والحيوانات الوحشية التى ترعى عليها .

(٨٩) البكرى ، ص ١٧١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٤ ، وأنظر جوتييه ، ماضى شمال افريقيا ، ص ١٩١ - ١٩٢ حيث الإشارة الى أن هيرودوت الذى ذكر مثل هذه الحيوانات وبضمنها الخيل لا يذكر الجمل الذى سيكون دخوله المغرب فى القرون الميلادية الأولى .

- ٩٣ -



شكل رقم ١١ - اللمط (الوعل) - النموذج الأخير في صحراء الجزائر -
منطقة الراوى غرب سواره (حيث تم القضاء عليه تماما)

وغير ذلك لا تعرف الصحراء الا بمض الزواحف ، من الحيات والأفاعى
غير السامة ، من صغيرة وضخمة ، ومن ذات القرون • كما عرف الجرذون
الذى يعرف فى اللغة البربرية باسم « افزيم » ، وكان يؤكل فى
سجلماسة (١٠) ، هذا ، وكان الجراد الذى كانت تجعله رياح الحرمتان من
أقليم الساحل بشرق أفريقيا ، رغم هجماته انخريرية (١٠ م) طعاما محببا
لاهل الصحراء فى السوس ، حيث يأكلونه بكثرة مقلوا ومملوحا (١١) •
وأغلب الظن أنهم كانوا ينتظرونه ، كما كانت تنتظر طيور السمان المهاجرة
فى تينيس ودمياط بشمال الدلتا (١٢) •

وفى منطقة صحراء جدالة على شاطئ الأطلسى ، ما بين السوس
والسنغال ، عرف صيد البحر • وهناك ذكر للسلاحف البحرية الضخمة
التي تكثر فى منطقة جزيرة أيونى ، قرب الساحل ، حيث كان معاش أهلها
على لحومها (١٣) •

(٩٠) الادريسي ، المغرب العربى ، تحقيق صادق ، ص ٧٧ - وهنا لا بأس من الإشارة
إلى أنه جرت العادة على أكل الكلاب فى بعض الواحات ، حتى كان يعتنى بتسميتها فى
سجلماسة وبلاد الجريد ، فى قصص وقصصيلية •
(٩١ م) وأنظر مولر ، ص ٥٠ ، ووالتون الأراضى الجافة ، الترجمة ، ص ١٥٥ - حيث
الجراد أعظم خطر يهدد البيئة لأنه مستهلك للنباتات الخضراء ، وص ٣٥٦ - حيث تركيب الجراد
الفسيولوجى غير ملائم لظروف الجفاف نظرا لحاجته إلى قدر من الرطوبة لدورة حيرته القصيرة ،
ولكن الذى يساعده على البقاء هو قدرته على الترحال •
(٩١) الادريسي ، ص ٧٨ ، وأنظر شعيرة ، المرابطون ، ص ١٨ •

(٩٢) الاستبصار ، ص ٨٨ - حيث كانت تلصّب الشباك لصيدها ، كما هو الحال فى
الصحراء غرب الاسكندرية الآن ، وكما كان ينتظر موسم الجراد فى بعض المواضع بالخليج
(العربى) الى عهد قريب •

(٩٣) البكرى ، ص ١٧١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٥ - ولما كان النص يهمل طريقة
صيدها مكثفيا بالإشارة إلى أن درقتها الكبيرة قد يستخدمها صياد السمك كزورق ، فربما كان
اصطياد السلاحف البحرية بكثرة ، موسميا عند خروجها إلى البر فى موعد وضع البيض (٩) •
وهنا لا بأس من الإشارة إلى أن لم « الترس » وهى السلحفاة البحرية فى الاسكندرية ، كان
يباع ك لحم البتر (عبد اللطيف البغدادي ، وكتاب الافادة والاعتبار ، ص ٨٤) • وأنظر
عن السلاحف البرية التى تتألف الروايات فى ضخامتها على طريق ترقى بالسودان ، والتى
ينبغى التفرقة بينها وبين سلاحف جزيرة أيونى البحرية ، وإن كانت رواية الاستبصار تشير
إلى أنها كانت تؤكل أيضا - البكرى ، ص ١٨٠ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٢٢ - حيث الإشارة
إلى أكلها وهو ما لا يذكره البكرى ، ولا تعرف أن كان الخطأ قد وقع استنادا إلى أكل لحوم
السلاحف البحرية فى أيونى وساحلها أم لا (٩) •

ثدييات اقليم الساحل :

واقليم الساحل العشبي (السافانا) هو اقليم الحيوانات الثديية بالامتياز ، ومنه يمكن أن يتسرب بعضها شمالا الى الصحراء أو جنوبا الى السودان ، بل وحتى الغابة الاستوائية . ومن تلك الثدييات : السنور وانذنب ، والفهد والتطط الوحشية ، والأسود والنمور ، الى الفأر والخنزير الوحشي والوعل ، والقرودة والغيل (الافريقي) ، وفرس النهر ، والبقر .

ونموذج البقر هو النور الذي يوجد منه في المنطقة ٣ (ثلاثة) أنماط ، أولها : الثور ذو القتب ، من حيث انه تعود على الجفاف وأصبح ساحلي الموطن ، بل وأمكنه الاستقرار خارج النطاق العشبي (المستقر) وذلك في جنوب الصحراء (٩٤) .

وهكذا يمكن أن نفهم كيف كانت الماشية من الغنم والبقر كثيرة في أودغست ، رخيصة الثمن كما كانت أيائل اللط كثيرة بالمنطقة (٩٥) .

والنوع الثاني من البقر ، هو الثور الحامي ذو القرنين الكبيرين ، وهو أصلا من وادي النيل من سلالة الأوروك (Aurocks) الذي اندفع جنوبا الى السودان وأعلى النيل وغربا الى شمال افريقية حتى مراکش - انه العجل أبيس (Aps) الذي انقرضت سلالته من أوروبا بعد أن كان يعيش هناك في السصور الوسطى .

أما النوع الثالث فهو الذي يعرف بـ « الأزواق » كما يعرف أيضا بـ « العربي » في شرق جوره وفي النيجر ، وهو أصغر حجما من ذي القتب ، ويعطى اللبن ، ويستخدمه الطوارق بالصحراء والهوسا بالسودان في

(٩٤) مولار ، ص ٥٣ . هذا ، ولا بأس من الإشارة الى ان هذه القائمة من الحيوانات ، من متوحشة ومستأنسة توجد في تقارير القدماء من القرطاجنيين (هينون) الى اليونان (هيرودوت) والرومان (أميان مارسلان) ، وأنظر جوتييه ، ماضي شمال افريقية ، ص ٤٨ - ٤٩ (عن التمساح وفرس النهر) ، وص ١٩١ - ١٩٢ - حيث التماسيح البرية (الورل : Lezards) ، والفندك واللمط . والبقر والحيل ، ص ١٩٤ - حيث أول ذكر للجمل عند بلينيوس (Pline) ، وص ١٩٤ - ١٩٥ - حيث انتشار الجمل في طرابلس ، الذي استعمله الرومان في حمل المؤن حسب رواية مارسلان .

(٩٥) البكري ، ص ١٥٨ - ١٥٩ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٥ .

الركوب (٩٦) ، كما كان يستخدم في السودان الشرقى في القتال أيضا كالحيل والجمال (٩٧) .

وفى عالم الطير لا يلفت نظر البكرى الا نوع من الحمام واليمام صغير الرأس ، غليظ المناقير قرب أودغست (ص ١٥٧) . أما عن النعام ، أكبر الطيور وأسرع الدواب ، والذي كان يصاد فى الصحراء ، بل ويربى فى الواحات فى القرن الـ ١٠هـ / ١٦ م حسبما ينص الحسن الوزان (٩٨) ، فلا ذكر عند البكرى لشيء من ذلك ، ولا يأتى اسمه الا عابرا . والمعروف حاليا أن بأفريقيا حوالى ٢٣٠٠ نوع من الطيور (٩٨ م) .

أما عن السودان فعالم مختلف تماما ، حيث الخيول القصيرة جدا فى غانة (٩٩) ، الى جانب فرس النهر الذى يشبه الفيل فى ضخامته وأنيابه ، وفى خروجه من النهر للرعى ثم العودة الى الماء . وكان يتم اصطياده بالمزاريق والحبال لأكل لحمه واستخدام جلده فى عمل السياط المبرومة ، المعروفة بذنب الفار ، والتي كانت مطلوبة فى جميع البلدان (٩٩ م) .

واشتهرت بلاد السودان بالأفاعى الضخمة ذات الجلود المبرقشة ، التي كانت تتخذ منها بعض الملابس ، كما كان بعضها موضع التبجيل ، بل والتقدیس ، مثل الكبش حسب عقيدة الطوطمية ، كما قد يظن ، وان رأى البعض أن الكبش رمز لعبادة آمون (١٠٠) .

ومن الطيور عرف فى السودان ذلك الطائر الذى يشبه الخطاف ، والذي كان يطير فى مدينة بوغرات وهو يصوت بـ : « قتل الحسين ، قتل

(٩٦) مولار ، ص ٥٣ .

(٩٧) أنظر المسعودى ، ج ٤ ، ص ٤ - ٥ .

(٩٨) ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٤٨٩ وهـ ٤ - حيث صيد اللمت والنعام بالاشراك فى موريتانيا ، وص ٤٩٢ حيث تربية طيور النعام فى درعه ، ووصف لحمه بأنه قاس له رائحة منفرة لا سيما الفخذ اللزج .

(٩٨ م) دائرة معارف ليكسيكون يونيفرسال ، افريقيا (Africa) ، ج ٢ ص ١٤٢ .

(٩٩) البكرى ، ص ١٧٧ .

(٩٩ م) البكرى ، ص ١٧٣ .

(١٠٠) البكرى ، ص ١٧٣ ، وقارن الاستنبصار ، ص ٢١٨ ، (عن تبجيل الحية بالسودان) ، وعن عبادة الكبش . أنظر جوتييه ، الصحراء ، ص ١٩٥ - حيث النص على أن عبادة الكبش التي عرفت قديما فى توات تعنى عبادة صنم له رأس كبش يمثل الاله المصرى آمون .

الحسين « عدة مرات ثم يقول « بكر بلاء » مرة واحدة ، الأمر الذى قد يعنى وجود جالية عربية شيعية لاجئة فى ذلك الموضع (١٠١) .

الثروة المعدنية :

وأول معادن الصحراء الشهيرة فى القرون الوسطى ، هو الملح الصخرى الذى كان يستخرج من المناجم ، كما تستخرج سائر المعادن ، فى كتل شبيهة بالحجارة . وأشهر مناجم الملح اثنان : أحدهما فى قلب الصحراء فى تانتال ، بأول ايجابة (المفازة) فى أول الطريق الى سجلماسة ، على بعد ٢٠ (عشرين) مرحلة (٨٠٠ كم) منها . والمنجم الثانى الذى يقع على شاطئ الأطلس فى موضع أوليل من بلاد جدالة ، غير بعيد عن جزيرة أبونى (جزيرة السلاحف البحرية) (١٠٢) .

وكان معدن الحديد فى جبل أزور ، على طريق تامدلت - أودغست (١٠٣) وربما كان أيضا فى جبل الحديد المعروف بـ « أدرار » ان وزال (١٠٤) .

أما النحاس فمنجمه غير بعيد من ايجلى التى كان يسبك فيها على سفوح جبال أطلس (درن) (١٠٥) ، وكانت الفضة فى أرض تامدلت ، حيث اشتهر منجمها بوفرة الانتاج (١٠٦) .

هذا ، كما وجدت فى جبل هزرجه ، فى أول طريق أغمات - أودغست ، أنواع من الياقوت الجيد ، الحسن اللون ، الشديد الصلابة حتى يكمل حجر السنداج عن ثقبه (١٠٧) . وفى طريق تادمكه - غدامس كان يوجد حجارة

(١٠١) البكرى ، ص ١٨١ ، وانظر أيضا ص ١٨٣ - حيث النص على ان اهل مملكة لولوا سموا بهذا الاسم لان ذلك ما يفهم من نعمة طيلهم .

(١٠٢) البكرى ، ص ٧١ - ٧٢ - حيث الاشارة الى أن المسافة من نول لمطة على ساحل السوس الجنوبى الى أوليل تقدر بـ ٦٠ (ستين) يوما (٢٤٠٠ كم) ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٤ ، وانظر فيدج (Fage) مقدمة لتاريخ غرب افريقيا ، بالانجليزية ، ص ٩ - حيث الاشارة الى موجودات الملح الصخرى فى الصحراء ، فى مواضع تغازى (Taghaza) وتاودينى (Taodeni) ، وياونكى (Taotk) - وذلك بعد العصر المرابطى .

(١٠٣) البكرى ، ص ١٥٦ - حيث يوجد فى شكل قضبان لا تذيبها النار . (١٠٤) البكرى ، ص ١٦٤ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٣ - حيث النص على « جبل الحديد » ، وان لم يجد ان كان به حديد أم لا .

(١٠٥) البكرى ، ص ١٦٢ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٢ .

(١٠٦) البكرى ، ص ١٦٣ .

(١٠٧) البكرى ، ص ١٥٣ ، وانظر جودة حسنين وحسن أبو العينين ، مطبع هذا =

شبيهة بالعقيق تسمى « تاس النسمت » ، ربما كان في الحجر الواحد عدة ألوان ، من : الحمرة والصفرة والبياض . وهى الى جانب جمالها تتميز بالصلابة الشديدة لا تتأثر بالحديد ، اذ لا تجلى ولا تنقب الا بحجر « تننواس » (١٠٨) . وفى هذه الصحراء يوجد الشب الأبيض الطيب ، الذى يصدر الى كثير من البلاد (١٠٩) .

والى تلك الحيرات الطبيعية يضاف عنبر جزيرة أيونى ، على ساحل المحيط فى بلاد جداله (١١٠) ، كما وجدت بوادى درعه حجارة التامضيت (الاسبستوس) التى تغزل خيوطا كالكتان ، وتصنع منها الأمرسنة والقيود للدواب ، مثلما تنسج منها الثياب والمناديل التى لا تؤثر فيها النار (١١١) .

هذا عن معادن الصحراء ، أما السودان فعالم وحده ، فهو بلاد الذهب بالامتياز حيث التبر جزافا فى متناول الجميع بلا حساب ، بينما الحديد وأنواع من الصدف والحرز هى حلل النساء التى ترتفع أثمانها الى ما يوازى وزنها من الذهب ، ومثل هذا يقال عن الملح الذى كان عزيزا الى حد التعامل بقطعه أحيانا ، بدل النقود .

أما عن نسيج الاسبستوس المتخذ من حجارة وادى درعه ، والذى

= الكوكب ، ص ٩٩ - حيث مقياس صلابة الصخور الذى يتدرج الى ١٠ (عشر) درجات أولاها : ١ وهى صلابة التلك (Talk) ، وآخرها ١٠ (عشرة) وهى صلابة الماس . (١٠٨) البكرى ، ص ١٨٢ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٢٥ - حيث اسم الحجر « تننواس » وانظر جودة حسنين وحسن أبو العينين ، سطح هذا الكوكب ، ص ٨٤ - عن الألوان حيث النضر على أن ألوان الصخور تنوقف على التركيب الكيماوى الأصيل ، وعلى نظام الأيونات والذرات فى البلورة .

(١٠٩) البكرى ، ص ١٨٣ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٢٥ .

(١١٠) البكرى ، ص ١٧١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٥ .

(١١١) البكرى ، ص ١٧٩ - ١٨٠ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٠٧ - ولا بأس من الإشارة الى أن مثل هذا النسيج المضاد للحريق كان يستخدم فى صنع بقايا مقدسة تنسب للسيد المسيح ويقترب بها الى بعض ملوك القسطنطينية أو غاليسيا (الجلالة) بالأندلس - حيث الضريح المبجل لسان جان دى كومبوستل . وعن معدن الاسبستوس . انظر جودة حسنين وحسن أبو العينين ، سطح هذا الكوكب ، ص ١٢٢ - ١٢٣ - حيث يصنف معدن الاسبستوس الصخرى ، ضمن أنواع صخور السيلكات التى تمثل ١/٢ المعادن فى الطبيعة (ص ١١٦) ، وهى من النوع المعروف باسم (الشعبانة : Serpentine) من حيث تأخذ شكل كتل حبيبية أو صفائحية فى هيئة ليفة ، والنوع الأخضر منه هو المسمى اسبيستوس (Asbestos)

لا تؤثر فيه النار ، فكان بديله فى السودان يستخلص من نبتة فى بلاد
الدمدم ، توصف بأنها شجرة ذات ساق طويل تسمى تويريرى ، لها ثمرة
كبيرة منتفخة ، داخلها صوف أبيض يغزل وتصنع منه الثياب والأكسية
التي لا تؤثر فيها النار ، فكانه قطن معدنى - وهى من العجائب (١١٢) .

من هذا العرض لثروات الصحراء الافريقية الكبرى من بشرية
وطبيعية ، تصح مقولة شعيرة (محمد عبد الهادى) التي يرددها بقوة
عن جوتييه (Gautier) الذي كان يستوحى ابن خلدون (فى العمران) ،
والتي تتلخص فى أن الصحراء الافريقية فى العصور العربية الاسلامية
الوسطى كانت تنبض بالحياة والثراء ، على غير ما عليه الصحراء البائسة
التي نعرفها اليوم .

فقوافل الجمال العظمى التي كانت تجوب الصحراء واردة وصادرة من
أقصاها الى أقصاها ، كانت تقوم بنفس الدور الحضارى الذي قامت به
السكك الحديدية الحديثة والتي تقوم به خطوط الطيران الحالية بين أطراف
العالم لتضخ فيها الحركة والحياة . كذلك كان الامر بالنسبة لقوافل الجمال :
سفن الصحراء المهددة - بشىء من المبالغة - لسفن الفضاء .

(١١٢) الاستبصار ، ص ٢٣٥ ، وانظر دائرة معارف ليكسبون يونيفرسال ، ١٩٧٥ ،
١ ، افريقيا : (Africa) ، ص ١٤٢ - حيث تعتبر افريقيا الجنوبية الشهيرة بمعادنها من الماس
والذهب ، ثانى أكبر منتج لاسبستوس فى العالم .

الفصل الثانى

قبائل الجمالة الملتصين بالنصحراء الكبرى قبيل قيام دولة المرابطين

النظم السياسية والحياة الاجتماعية :

تمهيد :

المعروف أن اقاليم شمال أفريقيا العامرة كانت تقطنها مجتمعات البربر - الآسيوية الأصل - منذ العصور القديمة ، بينما كان يسكن الصحراء جماعات السود ، الأفريقيون حقيقّة ، الذين عرّموا عند قدامى انكتاب من اليونان والرومان باسم الاثيوبيين أى الأحباش ذوى البشرة السوداء ، والذين كانوا يقعون تحت ضغط اهل الشمال البيض (١) .

والحقيقة أنه منذ بدأت هجرات شعوب البحر المتوسط ، من فينيقيين (قرن ٨ ق م) ، ويونان (قرن ٥ ق م) ، ورومان (قرن ٣ - ١ ق م) ثم واندال (قرن ٥ - ٦ م) وبيزنطيين قبل العرب ، سواء للاستيطان أو التجارة أو الغزو فى شمال أفريقيا ، ازدادت حركة زحزحة السودان من الشمال الى الجنوب ، فحل البربر المغاربة مكان السود الأفارقة فى الصحراء بشكل مضطرد ، تبعا لضغط المستعمرين الجدد فى الشمال أو من دخل فى خدمتهم من البربر الذين كانوا يطلبون العبيد السود ، عماد الطبقة العاملة

(١) هاينز (Haynes) طرابلس فى العصور القديمة ، بالانجليزية ، ص ١٥ - حيث ينص هيروdot على ان الجرمنطين فى فزان كانوا يستخدمون عربات تجرها الخيل فى صيد الاثيوبيين من التبو (Tibbou) - اهل تبيستى . وانظر ماكيفيدى ، اطلس التاريخ الافريقى ترجمة السويفى ، ١٩٨٧ ، ص ٣٥ - حيث الاشارة الى وجود ٥ (خمسة) أجناس متميزة فى افريقيا ، منها ٤ (اربعة) لا مثيل لها فى القارات الأخرى ، وهم : الزنوج ، والشعوب النيلية الصحراوية ، والأقزام ، ثم البوشمن : وانظر فبدج ، تاريخ غرب افريقية بالانجليزية ، ص ١٤ - حيث الاشارة الى رأى ديفلوس الذى يقول ان الهجرة البربرية الى بلاد السودان بدأت بعد ثورات اليهود ضد الامبراطورية الرومانية فى برقة (Cyrenaica) فى القرنين ١ ، ٢ م ، وفى الجنوب والغرب كان الاستقرار بين جماعات السنونك (Soninké) بين موقع تيمبوكتو ومسينا .

فى تلك العصور (٢) .

ولكن حلول البربر البيض مكان الأحباش السود ومزاحمتهم لهم فى الصحراء ، ظل محدودا فى نطاق الشمال حيث حزام الواحات (فى بلاد النخل) ، عند أقدام جبال أطلس الصحراوية بشكل عام . وهكذا كانت قبائل الصحراء متناثرة فى جماعات صغيرة ، تبعا لتناثر الواحات وموارد الماء ، وصعوبة وسائل الاتصال التى كانت تعتمد على العربات التى تجرها الثيران (٣) .

والمهم أن وسائل المواصلات فى الصحراء ظلت محدودة المدى ، وباعطية التكاليف الى ما بعد دخول الحصان الوافد من المشرق فى الألف الأول ق م تقريبا ، والذي لا يستطيع العيش الا فى الواحات حيث العلف والماء (٤) . أما عن دخول الجمل الى بلاد المغرب والصحراء اعتبارا من أوائل التقويم المسيحى ، فقد كان بمثابة انقلاب ، ليس فى وسائل المواصلات بالصحراء فقط ، بل وفى تكوين جماعات عرقية كبيرة العدد ، أشبه باتحادات قبلية ضخمة من أصحاب الجمال الذين استطاعوا اخضاع غيرهم من ضعفاء الفلاحين ، ورعاة الشاة والماعز ، واقامة الامبراطوريات الكبرى ، اعتمادا على قطعان جمالهم التى صارت وقتئذ بمثابة فرق العربات المدرعة والسريعة

(٢) أنظر ، هاينز ، طرابلس فى العصور القديمة ، بالانجليزية ، ص ٢٥ - ٢٦ (عن الفينيقيين واليونان) ، ص ٣١ - ٣٤ (عن روما وقرطاجنة) ، ص ٣٦ (عن الحدود الرومانية) ، ص ٦١ - ٦٣ (عن الوندال والبيزنطيين والانتصار على الليبيين ، وقرار الأمور حتى الفتح العربى) ، وقارن ماكيفيدى أطلس التاريخ الانريقى ، الترجمة ، ص ٥٥ ، وقارن ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٠٠ - حيث النص على أن صنهاجة الصحراء (فى منتصف القرن ٤ هـ / ١٠ م) فى كثير منهم ألوان حسنة ومحاسن فائقة حتى يأخذوا فى جهة الجنوب فتستحيل ألوانهم وأبشارهم (الى السواد) ، وأنظر ص ١٠١ - حيث الإشارة الى ما يقال من أن بنى تانماك ، ملوك تادمكة (شرق أودغست) والقبائل المنسوبة اليهم ، أصلهم سودان أبيضت أبشارهم - كناية عن تأثير البيئة فى لون البشرة .

(٣) أنظر فيما سبق ، ص ٩١ هـ ٨٣ ، والهامش على ص ١٦ وشكل ١ عن هاينز - حيث العربات التى تجرها الخيل .

(٤) أنظر فيما سبق ، ص ٩١ وهـ ٨٤ ، هاينز ، طرابلس فى العصور القديمة ، بالانجليزية ، ص ١٥ - حيث الإشارة الى صور عربات الخيل المرسومة على الصحراء قديما ، مع المقارنة مع تقرير الكابتن ليون - رحالة القرن الـ ١٩ - الذى يشير الى متاعب الخيل فى الصحراء حيث كان كل حصان فى حاجة الى جبل ليحمل له الماء فقط ، دون العلف من الشجر والتمر .

الحركة ، حديثا ، فحققت لهم تفوقا ساحقا على غيرهم من أهل الواحات وصغار البدو .

وهكذا كان الجمالة من صنهاجة قد حققوا النصر على السودان فى الصحراء ، ووصلوا فى القرن الرابع الميلادى جنوبا حتى ثنية النيجر ، وغربا حتى نهر السنغال حيث أقاموا مدينة غانة التى ستتحوّل الى مركز مزدهر لتجارة السودان ، وذلك غير بعيد من الموضع الذى ستحل فيه كل من جنه (Jenne) وتيمبوكتو ، فيما بعد(٥) .

أما عن أول ظهور لهؤلاء المحاربين من بربر البدو الجمالة فى شمال أفريقيا ، فكان أثناء الصراع ضد البرابرة (الآخر) من الوندال . فلقد تحصن المغاربة (الموريتانيون) داخل دائرة من الجبال مكونة من ١٢ (اثني عشرة) صفا من الابل ، فى وسطها النساء والأطفال والأموال ، بينما وقف المقاتلة منهم بين أرجل الجبال العالية ، وانتهت المعركة بخسارة الوندال الذين فزعت خيولهم خوفا من الجبال الغريبة المنظر . ومثل هذا حدث فيما بعد عندما التقى المغاربة مع جيوش بيزنطة بقيادة سولومون . فلقد فزعت خيول الروم ، وشبت على قوائمها ليقع الفرسان من على ظهورها ، وللا ينقذهم من الهزيمة الا ما لجأ اليه القائد البيزنطى من الأمر بنزول الفرسان عن ظهور الخيل لكى يحاربوا رجالة ، حيث نجحوا فى اختراق صفوف الجبال . وعن هذا الطريق تحقق لهم النصر على الموريتانيين(٦) .

وهكذا كان دخول الجمل الى صحراوات المغرب بمثابة ثورة اقتصادية واجتماعية وفى النهاية سياسية . فلقد قصر الجمل المسافات ما بين الواحات فى أطراف الصحراء وأدى الى سهولة التبادل التجارى ما بين الشمال والجنوب ، والشرق والغرب ، كما أدت سهولة المواصلات الى نشأة قبائل بدوية كبيرة ، مثل : البتر والبرانس وصنهاجة وزناتة وهى فى الحقيقة اتحادات قبلية تنتشر فى كل البلاد ، وتصل الى مستوى الشعوب ، كما يقول ابن خلدون ، وتؤسس العصبية قاعدة قيام الدولة كما يرى(٧) .

(٥) مولار ، غرب افريقيا ، بالفرنسية ، ص ٦٠ .

(٦) أنظر ج ١ ، ص ٨٦ ، وقارن جوتييه ، ماضى شمال افريقية بالفرنسية ، ص ١٩٥ .

(٧) المقدمة ، نصل ٨ فى أن العصبية انما تكون من النحام النسب ، ط التجارية ،

ص ١٢٨ وما بعدها .

هذا ولو انه منذ دخل العرب بلاد المغرب وصحراواتها فى مطلع القرن السابع الميلادى لم يعرفوا لهم خصوما من البدو الجمالة ، وان طالت المقاومة على غير ما حدث فى الفتوح الأخرى ، الأمر الذى يفسره ان لقاءات الفتح فى المغرب وقعت على طول الطريق التاريخى ، فى مواطن العمران ما بين برقة وفاس فى المغرب الأقصى . وهذا يعنى أن الجمالة من رعاة الابل المغاربة كانوا قد انسحبوا جنوبا الى الصحراء أمام قوات الامبراطورية البيزنطية منذ حملة بليزاريوس واسترداد البلاد من أيدي الوندال . ومن الواضح أنهم كانوا قد رضوا بحياة العزلة جنوبا وراء رمال الصحراء ، مجاورين لبلاد السودان ، شبه الصحراوية ، مكتفين بأعمالهم السلمية فى خفارة الطريق ونقل المتاجر على جمالهم . واذا كان ابن خلدون ينص على أن جمالة صنهاجة الملتصين تركوا الأقاليم الحصبة الشمالية الى ما وراء الرمال ، وأبعدوا فى القفر جنوبا مجاورين لريف الحبشة (السودان) ، منذ دهور لا يعرف أولها ، فان ذلك لا يعنى أكثر من عدم معرفة : كيف ومتى حدثت تلك الهجرة (٨) . والحقيقة أن هناك رواية أخرى فى الادريسي ، تقول ان قبائل « لمط وصنهاج » ، كثر نسلهم (فى المغرب) وتسلطوا على الأمم ، فاجتمع عليهم قبائل البربر فازعجهم الى الصحراء المجاورة للبحر المظلم (المحيط الاطلنطى) فنزلوها الى الآن . وتفسر هذه الرواية امكانية هذه الهجرة على أساس أن قبائل صنهاجة : « أصحاب ابل ونجب عتاق ، رحالة » (٩) . والحقيقة أن الجمالة الملتصين فى صحراوات شمال أفريقيا ينقسمون الى جماعتين كبيرتين أولاهما : غربية تتكون من صنهاجة اللثام على شواطئ المحيط ، والثانية شرقية ، تتمثل فى جمالة اقليم الحجار (الهقار : الأحجار) وتيبستى وادرار وتشاد (١٠) . وهؤلاء الآخرون يتميزون عن الصنهاجيين بطول القامة وسواد البشرة ، بمعنى أن نسبة أكبر من الدم الأسود تجرى فى عروقهم ، ولهذا فهم ينسبون الى جماعات التبو (Tebbou) السودانية ، حيث يعتبر وجودهم فى تلك المناطق المنعزلة من الصحراء الكبرى ، دليلا على سكنى الصحراء بجماعات السودان ، قبل سيادة الجمال

(٨) انظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٩ .

(٩) المغرب العربى ، نشر محمد صادق ، ص ٧٤ .

(١٠) جوتييه ، ماضى شمال افريقية ، بالفرنسية ، ص ٢٤٠ (عن الملتصين من شرقيين وغربيين) ، وقارن مولار ، ص ٦٠ - عن أجداد صنهاجة البيض المختلطين بالسود من القديم ، «وسلاطتهم من المغاربة (المور : Maures) ومن الطوارق فى الوسط .

على الصحراء الكبرى اعتبارا من القرن الثالث الميلادي (١١) .

والهم أن سيادة الجمل في أول الأمر كانت على طرق التجارة التي ترفد بلاد المغرب بخيرات بلاد السودان ، وخاصة العبيد السود والذهب ، مما كان ينعش دويلات المغرب المستقلة ، اعتبارا من بداية العصر العباسي . فلا شك أن خيرات السودان هي التي دفعت القوات الأموية من أهل الشام الموجودين على حدود بلاد المغرب ، إلى الهجرة نحو غانة ، عندما تأكدوا من سقوط دولتهم في المشرق . فهناك رواية للدريسي تقول أن ذرية هذا الجيش الأموي كونت جالية عربية في غانة ، عرف أهلها باسم « الهنبيين » الذين اشتهروا ببياض البشرة وبأنهم يحافظون على نقائهم العرقي فلا يتزاجون مع أهل البلاد السودان إلا بحساب (١٢) . ولا شك أن دخول عرب الشام الأمويين إلى غانة في ذلك الوقت المبكر ، يعتبر من الأحداث الهامة في طريق نشر الاسلام في تلك البلاد . وتبع ذلك اهتمام دول المغرب المستقلة منذ العصر العباسي بالمعاملات التجارية مع السودان الغربي . فبنو حبيب (الفهريون) اهتموا برعاية الطرق التجارية وتمهيد الوعر منها ، وحفر الآبار - وهي محطات المياه التي يمكن أن تشبه بمحطات البنزين حاليا ، على طول تلك الطرق (١٣) . أما الأغالبة (التميميون) ، خلفاء بني حبيب في تونس (المالكية) فلقد اعتمدوا على فرق المماليك السودان ، منذ بداية أمرهم (ج ٢ ص ٣٣) بينما أخذت امامة بني رستم (الأباضية) في الجزائر شكل جمهورية تجارية كان الأئمة يشاركون في نشاطهم مع بلاد السودان من حيث كان يتدفق الذهب حتى صارت عاصمتها تاهزت مدينة عالمية يؤمها التجار من كل البلاد (ج ٢ ص ٣١٠ ، ٣١١) . هذا ، كما كان لدولة الأدارسة (الزيدية) في فاس اهتمامات خاصة بذهب السودان (فيما بعد ، ص ١١٣) وكذلك الأمر بالنسبة لدولة بني مدرار (الصفرية) في سجلماسة (ج ٢ ص ٤٠٩) التي بلغ الأمر بأمرائها إلى حد اتخاذ اللقب

(١١) اسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى ، ص ١٨ (عن التيومن أزمة غارة في جبال تيبستي) ، ص ٣٤ (عن الرجل البدوي ، ضامر الجسم ، مرتفع الغامة ، ذي القدرة على تحمل العطش والجوع والتعب) .

(١٢) الكبرى ، ص ١٧٩ ، الاستبصار ، ص ٢٢٢ .

(١٣) أنظر فيما سبق ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٣ - حيث الإشارة إلى أن الطريق الوعر الذي يسير في الصخر من درعه إلى وادي ترجا ، على طول ٥ (خمسة) مراحل (حوالى ١٧٥ كم) إنما هو أعجوبة من عمل القدماء (الأوائل) ، ولو أن البعض يزعم أنه من عمل ملوك بني أمية (أي الأندلسيين على ما نظن) .

الخلافي وكانهم منافسون جدد للخلافة الفاطمية ، حتى أصبحت دنائيرهم « الشاكرية » مضرب المثل بين النقود المغربية من حيث : دقة السك وعيار الذهب (ج ٣ ص ٢٣٣) .

والى جانب التنافس فى جلب ذهب السودان ومماليكه كان لتجار دول المغرب هذه ، جهودهم فى نشر الاسلام على مذاهبهم المختلفة فى بلاد السودان ، فكان طرق التجارة الصحراوية كانت فى نفس الوقت طرق الحضارة والثقافة ، وكان التاجر المسلم ، بصرف النظر عن مذهبه ، كان الداعى الى نشر مبادئ الاسلام دون تفريعات مذهبية . وهكذا يسجل ابن حوقل (حوالى منتصف القرن ٤ هـ / ١٠ م) أنه كان من قبائل صنهاجة الصحراء من يعتنق التشيع كأهل السوس ، ومنهم من كان يأخذ بأراء المعتزلة وينهج نهجهم فى العلم مثلما كان يفعل الحوارج (الشراة) أيضا ، الذين تميزوا بقوة التدين والتمسك بأهداب العقيدة (١٤) . والذي يلفت النظر هنا ، أنه اذا كان الأدب التاريخي والجغرافى يمكن أن يكون مفيدا فى تتبع أخبار انتشار الاسلام فى بلاد السودان منذ وقت مبكر ، فان الأمر ليس كذلك بالنسبة لانتشار الاسلام فى الصحراء المغربية ، وهو ما يفهم بسبب قلة المراكز العمرانية فى الصحراء ، الى جانب طبيعة الحياة البدوية الصعبة ، وهموم مشاكلها اليومية التى لا تفسح الوقت لكثير من التأمل فيما وراء الطبيعة . وهكذا تنص رواية لابن خلدون على أن موطن قبائل لمتونة كان يعرف باسم كاكدم (قاقدم - جاجدم) فكانه فى الصحراء السودانية ، حيث عرفوا الاسلام بعد فتح العرب الأندلس ، أى اعتبارا من القرن الثانى الهجرى (١٥) . هذا ، ولو أنه توجد رواية أخرى لابن خلدون تنص على أن دخول المثلثين فى الاسلام كان فى القرن الثالث الهجرى (٩ م) ، حيث بدأوا يجاهدون جيرانهم ممن لم يسلموا ، الأمر الذى تؤيده تفصيلات تاريخ ملوك المثلثين حتى القرن الرابع الهجرى (١٠ م) (١٦) .

(١٤) صورة الأرض ، ص ٩٩ - ويظهر أثر الفكر الشيعى المنتشر فى بعض أقاليم السودان فيما يقال عن احدى مدن السودان ، وهى بوغرات التى كانت تسكنها قبيلة مراسمة الصنهاجية ، من ان بعض الطير فيها كان يفهم من صوته « قتل الحسين » بايقاع متكرر بينما كانت تأتى « بكربلاء » بعدها فى نقرة (مرة) واحدة (أنظر الاستبصار ، ص ٢٢٤ - حيث تنسب تلك الرواية الى « الفقيه عبد الملك » الذى ربما كان يتشيع) .
 (١٥) العبر ، ج ٦ ص ١٨١ ، الأمر الذى تؤيده أعمال ابن حبيب فى اصلاح طرق التجارة الصحراوية ، وأنظر ما يأتى ، ص ١٠٩ .
 (١٦) العبر ، ج ٦ ص ١٨٢ ، وقارن ترجمة دسلان ، ج ١ ص ٩٦ .

ومنذ ذلك الوقت وحتى القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، كانت جماعات من البربر المسلمين تستقر في اقليم ادرار وتاجنت (Tagent) والحوضى (Hodh) وتستخدم الزنوج في استغلال مناجم الملح (١٧) ، فكان أحداث الصحراء الجنوبية لم تعد تنفصل عن وقائع السودان منذ استقرار الفتوح في الشمال الأفريقي .

النظم الاجتماعية - السياسية :

القبائل والمواطن وطرق المواصلات :

فيما يتعلق بالتراتب الاجتماعي والسياسي لا تسعفنا المصادر الا بالقليل من المادة الأولية اللازمة لرسم صورة تقريبية لما كانت عليه قبائل الصحراء من حيث : التقسيمات الاجتماعية ، ابتداء من الوحدة الصغرى الممثلة في البيت أو الأسرة أو العائلة ، وما يتلوها من تراكيب اجتماعية أخرى مما يعرف عند العرب بالعشائر والأفخاذ والبطون ، وانتهاء بالتجمع الأكبر وهو القبيلة ، وما قد يتلوها من اتحادات بين القبائل المختلفة ، التي تحمل عادة اسم القبيلة صاحب القيادة والهيمنة . وفي ضوء هذا الترتيب المنهجي الذي عرفته قبائل العرب ، والذي يظهر بوضوح في ذلك النسق من التاريخ العربي المعروف باسم علم الأنساب ، الذي اقتدى به نسبة البربر ، بلغت عدة قبائل صنهاجة من المثلثين ، حسب احصاء ابن أبي زرع (قرن ٧ هـ / ١٣ م) الذي أخذ به ابن خلدون (قرن ٨ هـ / ١٤ م) ، ٧٠ (سبعين) قبيلة (١٨) ، بينما كان المشهور منها عند قيام دولة المرابطين في منتصف القرن الـ ٥ هـ / ١١ م خمسة : هي لمتونة ولمطة ، ومسوفة ، وجداله وجزولة ، يمكن أن تختصر الى ٣ (ثلاثة) فقط ،

(١٧) انظر فيديج ، غرب افريقيا ، بالانجليزية ، ص ١٤ .

(١٨) القرطاس ، ص ١١٩ - ١٢٠ ، العبر ، ج ٦ ص ، وقارن ابن حوقل (منتصف القرن ٤ هـ / ١٠ هـ) الذي يعدد منهم ٤٥ قبيلة ، منها ١٩ (تسعة عشر) من القبائل الخلفى ٢٦ (ست وعشرين) قبيلة يشتهر في صحة نسبها الصنهاجي ، وانظر حسن أحمد محمود ، المرابطون ، ص ٣٩ - ٤٠ - حيث تجميع أسماء قبائل المثلثين ، من قدامى الكتاب والمحدثين - دون التزام بالترتيب الزمني (التاريخي) أو القيمة الوثائقية - من كل من : ابن حوقل ، والدمشقي (نخبه الدهر في عجائب البر والبحر) ، وباسية (Basset) ، والنويري ، والبكري ، وابن خلدون ، والادريسي ، والبيدق ، وكولان ، وجوليان ، وديمومين ، والحلل .

اذ اندمجت كل من الأولى والثانية تحت اسم لتونة ، والرابعة والخامسة تحت اسم جدالة (ما سبق ، ص ٦٩) هذا ، كما يمكن أن تندرج القبائل الخمسة تحت اسم لتونة ، دون غيرها (ما سبق ، ص ٧٠) وان كان الدارج في تأسيس دولة المرابطين الحاق مسوفة بلمتونة ، تماما كما يلحق - في التفرقة الهلالية - عرب بنى سليم بعرب بنى هلال ، وان كان الذكر في « التفرقة » للهلالية دون غيرهم .

وهنا لا بأس من الإشارة الى أن من بين غزوات العرب للمغرب كانت الهجرة الهلالية أشدها تأثيرا في قلقلة القبائل المغربية ، وتوجيه الجمالة منها نحو الجنوب حيث ضربوا نطاقا حول سهوب السودان ، جنوب الصحراء ، في مقابل النطاق الذي صار للعرب الهلالية الخيالة حول بلاد النخل في شمال الصحراء ، وان تطلب هذا الأمر عدة قرون لكي تؤول خريطة المغرب العرقية الى ذلك الشكل في القرن الثامن الهجرى / ١٤ م على عهد ابن خلدون (١٩) :

وهكذا فعن طريق اتحاد قبائل الجمالة المثلثين تحت هيمنة احداها : لتونة كانت أو مسوفة ، كان يمكن لرئيسها اقامة امبراطورية كبرى على طول البلاد وعرضها ، ما بين المغرب والسودان ، أشبه ما تكون بامبراطوريات السهوب الآسيوية ما بين الصين شرقا ويران غربا (٢٠) . وكان من الطبيعي أن تكون امبراطورية المثلثين الافريقية ، دولة تجارية تنقل المتاجر وأسباب الحضارة ، وتجنو الأموال ما بين الجنوب السودانى والشمال الأفريقى ، تماما مثل امبراطوريات فرسان آسيا الوسطى ، حيث طريق الحرير الذى كان عامرا بفضل الجمل الآسيوى ذى السنامين .

واذا صحت رواية ابن خلدون عن أن لتونة كانت تقطن منطقة كاكدم (السودانية) عندما دخلت فى الاسلام فى مطلع القرن الـ ٢ هـ / ٨ م ، بعد

(١٩) العبر ، ج ٦ ص ٧٠

(٢٠) أنظر ابن خلدون ، ص ٩٧ - حيث ينص على انه كان لقبائل المثلثين في قلب البر في أواخر القرن الـ ٣ هـ / ٩ م ، « ملك يملكهم تكبره صنهاجة » وسائر تلك الديار ، لانهم يملكون تلك الطرق (ما بين أودغست وسجلماسة) وحيث انهم أهل « البسالة والجرأة والفروسية على الأبل ، والخفة فى الجرى والشدة والمعرفة بأوضاع البر وأشكاله ، والدلالة على مياهه ، وقارن عن الترك والمغول فرسان السهوب ، دينيه جروسية ، امبراطورية السهوب (R. Grousset, L'Empire des Steppes) ، بالفرنسية ، المقدمة ، ص ٧ وما بعدها .

- ١٠٩ -

فتح الأندلس (ما سبق ، ص ١٠٦) ، فلا بأس أن يكون ذلك قد تم عن طريق حملات عبد الرحمن بن حبيب ، أمير أفريقيا التونسية ، الوافد من الأندلس (١٢٦ - ١٣٧ هـ / ٧٤٤ - ٧٥٥ م) ، الذي يذكر له الاهتمام بطريق التجارة الى السودان ، من تمهيد وامداد بمحطات المياه (٢١) . وعلى العكس من أعمال عبد الرحمن بن حبيب التي نشطت تجارة السودان ، وأفادت قبائل المثلثين ، كان لبناء مدينة سجلماسة (الصفرية) قريب ذلك الوقت (١٤٠ هـ / ٧٥٨ م) آثار سلبية على مدينة ترغا (طرقا) الطوارقية من حيث تحول طريق القوافل الى سجلماسة ، مما أدى الى خراب ترغا التي هجرها أهلها وأقاموا في المدينة الجديدة (٢٢) ، التي أصبحت أهم محطة في الطريق الى بلاد السودان خلال القرن الثالث الهجري (٩ م) ، قرن سيادة القيروان ، عاصمة أفريقية التي غلب ملوكها من الأغالبة على عقد المواصلات إليها (٢٣) .

(٢١) أنظر فيما سبق ، ص ٦٢ - حيث يذكر لعبد الرحمن بن حبيب حفر ٣ (ثلاثة) آبار في الطريق الصخري الى أودغست ، أشهرها بئر الجمالين (ما سبق ، ص ٦٣ وعن ولاية عبد الرحمن بن حبيب ، أنظر ج ١ ، ص ٣١٣ ، وقارن ماكيفيدي ، أطلس التاريخ الإفريقي ، الترجمة ، ص ٧٥ - حيث خريطة المغرب سنة ٧٥٠ م (١٣٢ هـ) على عهد ابن حبيب ، والنص على أهمية فتح العرب لمناطق الجنوب المغربي حيث قبائل مسنهاجة الحيرة بخيانا الصحراء ، الأمر الذي أدى الى اكتشاف طريق بلاد السودان ، وقارن الحبيب الجناحني ، المغرب الإسلامي : الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ص ٦٢ - حيث النص على ان علاقة القيروان بتجارة السودان ترجع الى القرن ٢ هـ / ٨ م ، وفي سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤ م على وجه التحديد ، عندما وجه الى المغرب : عبد الله بن المحباب قائم حبيب بن أبي عبيدة (والد عبد الرحمن) الى المغرب الأقصى فغزا السنوس الأقصى ، وبلغ أرض السودان (؟) - مع الاشارة الى ابن عذاري .

(٢٢) البكري ، ص ١٥٨ .

(٢٣) أنظر الاصطخرى ، ص ٣٤ - حيث النص على انه بين المغرب والسودان مفاوز منقطعة لا تسلك الا من مواضع معروفة كان يغلب عليها ملوك افريقية من اولاد الاغلب - اما عن القيروان فهي أول المحطات وأكبرها على الطريق ، ليس الى السودان الغربي فقط ، بل عن طريق السودان الأوسط (تشاد وكانم) أيضا ، وكانت المسافة بينها وبين سجلماسة تعادل ٨٠ مرحلة في الطريق الصحراوي (حوالى ٢٨٠٠ كم) ، وهي ثلث المسافة في طريق العمارة التي تبلغ ١٢٠ مرحلة (حوالى ٤٢٠٠ كم ، بينما المسافة ما بين تاهرت وسجلماسة ٥٠ مرحلة (حوالى ١٧٥٠ كم) فقط . اما المسافة بين القيروان وزويلة (على طريق تشاد ، فهي ٣٠ مرحلة (حوالى ١٠٥٠ كم) .

بداية دولة الملمثين :

وفى هذا الوقت من مطلع القرن الثالث الهجرى يبدأ التاريخ الحقيقى لدولة الملمثين وأسرتها الحاكمة جنوب الصحراء ، حسبما يقدمه ابن أبى زرع ، ويأخذ به ابن خلدون مع ما أضافه إليه من مواد أخرى * وهكذا يكون أول البارزين من ملوك صنهاجة هو الثانى منهم واسمه تيلوتان (Tiloutan) المتوفى سنة ٢٢٢ هـ / ٨٣٧ م . ولما كان ابن خلدون يربط ما بين نشأة دولة الملمثين المسلمة وبين قيام دولة عبد الرحمن الداخل فى الأندلس (سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م) فإنه يجعل تلكاكون (تلجاجون) : (Telgagoun) والتيلوتان أول ملوك صنهاجة الصحراويين (٢٤) . فكان الفارق الزمنى بين ولاية تلجاجون الأول وبين وفاة ابنه تيلوتان ، وهو الثانى ، تبلغ حوالى ٨٥ سنة . ولما كان روض القرطاس يقول ان حكم تيلوتان بلغ ٦٥ (خمسة وستين) سنة ، يكون حكم تلجاجون ٢٠ (عشرين) سنة .

بداية نشر الاسلام جنوب الصحراء :

وبناء على هذه الرواية تكون بداية نشر الاسلام فى الصحراء الجنوبية وفى بلاد السودان قد تمت حوالى سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م ، وراء جيوش الملمثين ، وذلك قريب الوقت الذى كان خوارج الصفرية يعتزلون مواطنهم فى بلاد الريف الخصبة لكى يبنوا سبلماسة (سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م) على مشارف الصحراء ، ويستخدمونها موطناً (ج ٢ ص ٤٠٩) . وإذا كانت الرواية لا تخصص دوراً محدداً لتلجاجون فى هذا المجال ، فيمكن أن يكون المفهوم من سياق النص انه أول من ترك دين المجوسية ليدخل بكل حماسة المسلم الجديد ، المنبهر بدينه ، فى ميدان نشر الاسلام . أما عن تيلوتان ولحقه عهده وثانى الملوك (ت ٢٢٢ هـ / ٨٣٧ م) ، فهو فارس الاسلام الذى يجزبه

(٢٤) انظر روض القرطاس ، ص ١٢٠ - حيث أول ملك بالصحراء تيلوتان بن تلاكاكين. الصنهاجى اللمتونى ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨١ - حيث النص على انه الرياسة كانت فى لمتونة ، وانه استوثق لهم ملك ضخم منذ دولة عبد الرحمن بن مابة الداخل (١٣٨ هـ / ٧٥٥ م) وانه توارثه ملوك منهم تلاكاكين وورثكا (أوراكن) بن ورتنطق ، جد أبى بكر بن عمر أمير لمتونة ، وانظر ترجمة دسلان (De Slane) ، ج ١ ص ٦٥ - حيث التصحيح الى تلاكاكين (تلجاجون) بن أوركوت أو أراكن بن ورتنطق (Ourtentac) جد أبى بكر بن عمر ، أمر لمتونة المعروف - وحسب الإشارة الى ان اسم ورتنطق ما زال باقياً فى موضع (Portendic) على مسافة ٤٠ مرحلة شمال السنغال .

البلاد على رأس جيشه الذى بلغت عدته ١٠٠.٠٠٠ (مائة ألف) نجيب
(فارس هجان) ليفرض الهيمنة على كل الصحراء ، كما يفرض الجزية التى
كانت تميز خزائنه بالأموال على ٢٠ (عشرين) ملكا من ملوك السودان ،
حتى امتدت مساحة إمبراطوريته التى تكوّنت على طول ٦٥ سنة ، حوالى ٣
(ثلاثة) أشهر طولا فى مثلها عرضا ، أى على امتداد أكثر من ٣٠٠٠
(ثلاثة آلاف) كم (٢٥) .

أما ثالث الملوك فهو يلتان (Ilettan) الذى توفى سنة ٢٨٧ هـ /
٩٠٠ م فكانه حكم ٦٥ (خمسة وستين) عاما هو الآخر . ويخلفه فى الملك
ابنه تميم (ابن يلتان) ، فكانه أول من حمل اسما عربيا من ملوك الملثمين ،
ولا يمنع ذلك من أن يكون له اسما بربريا آخر ، كما كانت العادة فى حمل
اسم قومى الى جانب الاسم العربى أو اللقب عند بربر المغرب ، وعند الترك
فى المشرق . وخكم تميم ٢٠ (عشرين) سنة (مثل تكلكاكون) ، اذ كانت
وفاته غدرا على أيدي مشايخ لتونة ، سنة (٣٠٦ هـ / ٩١٨ م) (٢٦) .

(٢٥) القرطاس ، ص ١٢٠ - ١٢١ ، العبر ج ٦ ص ١٨٢ - حيث الاسم يتيلوتان
فكانه ايت (بنو) يلوتان والتصحيح من ترجمة دسلان ، ج ١ ص ٦٦ - حيث النص على ان
الخطأ فى الأسماء فى النص العربى ، نرجع الى جهالة النسخ ، وخاصة فى روض القرطاس ،
ونظر الفلقشندي ، ج ٥ ص ١٨٩ - حيث النص على أسماء الملوك نقلا عن ابن أبى ذرع -
والإشارة الى أولهم بملوتان الذى كان يركب فى ١٠٠٠ (ألف) نجيب بدلا من ١٠٠.٠٠٠ ،
وتوفى فى سنة ٢٢٢ هـ / ٨٣٧ م .

(٢٦) أنظر القرطاس ، ص ١٢١ - حيث الثالث هو حفيد تيلوتان واسمه الأثير بن قطر
ابن تيلوتان بدلا من يلتان ، اما عن تميم فهو ابن الأثير . هذا ، ولقد أخذنا برواية ابن خلدون
على أساس ان نسخة القرطاس التى كانت بين يديه أصبح من التى بين أيدينا اليوم ، وهو
الأمر المقبول بناء على البعد الزمنى ، الى جانب انه حصل على معلومات اضافية أخرى استفاد
منها فى نظراته الى القرطاس . وقارن العبر : ج ٦ ص ١٨١ - حيث توجد رواية أخرى تقول
أن من أشهر ملوك صنهاجة هؤلاء : تينزوا (Tinezwa) بن واشنق (Quechenic) ، وهو فى
الأصل واشنق بن بيزار (Bezar) وقيل بيرويان (Berowian) وهو فى الأصل : يرويان
ابن استولى بدلا من واشنق بن يزار : (Izar) . فكان الأول : (تيزوا ابن واشنق بن
بيزا كما فى نص بولاق المصور) يقوم مقام تلجاجون ، وكان الثانى (يرويان بن واستولى بن
يزار ، كما فى نص بولاق) بديلا لتيلوتان ونجبه الى ١٠٠.٠٠٠ ، على أن يقابل ملكه عهد
عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر فى القرن الرابع الهجرى (١٠ م)
فى الأندلس بدلا من عهد عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م قبل أن يفترق أمرهم
طوائف . وقارن الفلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٩ - حيث يلتان (ت ٢٨٧ هـ /
٩٠٠ م) و تميم بن يلتان الذى قتلته صنهاجة ، ثم افتراق الى ١٢٠ سنة الى ملك أبى عبد الله
تيفاغوت ثم قيام عصره يخبى بن إبراهيم الجدالى الذى حج سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م .

ملوك الطوائف الصنهاجية :

وبعد تميم يفترق أمر امبراطورية المثلثين الصنهاجية الى عدد من ملوك الطوائف يستمر ملكهم لمدة ١٢٠ (مائة وعشرين) سنة ، جاول ابن خلدون أن يملأها بروايات أخرى ولكنه لم يوفق بسبب تصويره أن تلك الروايات الجديدة تتعلق بملوك آخرين لنفس الفترة السابقة (كما أشرنا في الهامش السابق) . وربما كان له الحق في ذلك بسبب تكرار بعض المعلومات الاحصائية التي تتعلق بأعداد عسكر الملك أو أعداد التابعين له من أمراء الأقاليم السودانية .

والحقيقة أن الروايات التكميلية التي يقدمها ابن خلدون دون الإشارة الى مصدرها ترجع الى البكري الذي يوثقها بتواريخ أكيدة تنهى فترة الطوائف هذه - وان ظلت اختلافات قراءة أسماء الملوك بسبب أخطاء النساخ . والرأى ان دسلان (De Slane) استخدم روايات البكري في محاولته تصحيح أسماء ملوك السودان المثلثين ، في ترجمته لابن خلدون .

والمهم انه بفضل رواية البكري نعرف أن دولة صنهاجة نهضت من كبوتها بعد أقل من ٥٠ (خمسين) سنة ، ولكن لفترة وجيزة ، بفضل تين بروتان (الملك) الذي هيمن على أودغست وفرض سلطانه على غانة خلال حكمه الذي امتد من ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م الى ٣٥٩ هـ / ٩٧١ م ، وكأنه كانت النهضة الثالثة لدولة صنهاجة الصحراء (٢٧) .

النهضة على عهد نارشت الى ظهور يحيى بن ابراهيم :

والمهم أن تلك النهضة الثانية لصنهاجة انتهت بعد فترة غامضة ثانية على عهد أبي عبيد الله بن تيفاوت (Tifaout) المعروف بنارشت (Naresht) الذي تم اختياره ملكا سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م ، لما عرف به من صفات الرئاسة ، من : التدين والورع وأداء فريضة الحج والجهاد . ولم تطل ولاية المجاهد المنتخب (أبي عبد الله نارشت) الا ٣ (ثلاث) سنوات فقط ، اذ:

(٢٧) انظر فيما بعد ، ص ١١٧ ، ١٢٠ - والمهم هنا هو ان معلومات البكري عن يرواندر في منتصف القرن الرابع الهجرى (١٠٠م) هي نفس المعلومات الخاصة بتيلونات المنوفير في أوائل القرن الـ ٣ هـ / ٩م ، الامر الذي قد يشكك في نهضة صنهاجة الصحراء في تلك الفترة المبكرة .

سقط شهيدا في ميدان الجهاد في السودان (سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م) في موضع غربى مدينة بانكلاين حيث بنو عبد الوارث الصنهاجيين ، اسمه قنقارة (جنجارة) ، نسبة الى سكانه من السودان الذين كانوا من اليهود « الفلاشة » (٢٨) .

وبعد نارشت (أبى عبد الله محمد) ظهر يحيى بن ابراهيم الجمدالى (الكدالى) (٢٩) ثم ابنه ابراهيم بن يحيى ولى عهده ، وهو الذى مر بالقروان (٣٠) .

النشاط التجارى لدول المغرب عبر الصحراء :

أما عن أعمال الإدارة فى سبيل تنشيط التجارة مع السودان فيرجع الفضل الى الامام عبد الله بن ادريس (العلوى : ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م) (٣١) ، فى بناء مدينة تمادلت (أو تامدلت) ، التى اشتهرت بمنجم فضتها الغزير الانتاج ، غربى مدينة درعة ، وعلى الطريق الى سجلماسة ، طريق القوافل التجارية الى غانة والسودان (٣٢) .

ومع ازدهار تجارة السودان ونشاط دول المغرب المستقلة الاولى ، ظهر

(٢٨) أنظر القرطاس ، ص ١٢١ - حيث النص على ان المدينة (تاتاكلاين) كانت لبنى وات (هكذا) من أوائل مسلمى المغرب الذين أسلموا على يدى عقبة بن نافع ، والدين عرفوا بالصلاح وبأنهم يجاهدون السودان غير المسلمين ، وحيث موضع استشهاد نارشت هو بفاره بدلا من ونفارة ، وقارن العبر ، ج ٦ ص ١٨٢ ، والبكرى ، ص ١٦٢ (حيث نارسنى بدلا من نارشت) وقنقارة (بدلا من بفارة) وبانكلاين (الذى أخذنا به بدلا من بانكلاين) ، وقارن الاسنبصار ، ص ٢١٦ - حيث ملك أوغست فيما بين (٣٥٠ - ٣٦٠ / ٩٦١ - ٩٧١) صنهاجى يعتقد فى ١٠٠٠ رجب ، ومسيره بلاده شهرين فى مثلها فى عمارة مصلة .

(٢٩) القرطاس ، ص ١٢٢ - حيث النص على انه بقى فى الولاية الى سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م - الأمر الذى يعتبر متقدما بعض الشيء عما وصلنا اليه فى الدراسة ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٢ .

(٣٠) أنظر القرطاس ، ص ١٢٢ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٢ ، الذى يضع مكان ابراهيم بن يحيى ، بحى بن عمر بن تلاكابن (Telagaguin) ولا ندرى ان كان قد وقع فى الخطأ بسبب اسم مدينة تاتاكلاتين التى استشهد بقرها أبو عبد الله نارشت .

(٣١) وكانت مملكته تشمل أغمات وبلاد المصامدة وبلاد السوس الأقصى مع بلاد لمطة - ج ٢ ص ٤٥٩ ، وقارن زامباور ، الترجمة ص ١٠٣ .

(٣٢) البكرى ، ص ١٦٣ ، وهى فى اليعقوبى ، ص ٣٥٩ ، تامدلت - حيث تعتبر مهدا لجباعات الطوارق (بنى ترها) حيث مناجم الذهب والفضة .

فى مطلع القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م ، مع قيام الدولة الفاطمية ، طريقان جديدان الى السودان الغربى ، أحدهما غربى وهران وتلمسان الى النيجر الأوسط وبلاد غانة ، والثانى الى بلاد السودان الأوسط من طرابلس الى بلاد كانم وتشاد(٣٣) .

والحقيقة أن ازدهار تجارة السودان ، فى القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م ، يظهر فى ازدهار مدينة سجلماسة ، أهم محطة فى طريق السودان ، وهم أسواق الصحراء وقتئذ حسبما يروى ابن حوقل الذى زارها فى سنة ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م ، وسجل رواج تجارتها وكثرة أرباح أهلها الذين ظهرت عليهم النعمة فى الأفعال والكمال فى الأخلاق ، كما كانت سجلماسة مركزا علميا مرموقا ، حيث تفوقت على غيرها من مدن المغرب بكثرة المشايخ والعلماء . وفى تلك الزيارة تكلم ابن حوقل عن ذلك الصك الشهير الذى حرره لأحد تجار سجلماسة بعض عملائه من تجار أودغست السجلماسيين بمبلغ ٤٢ ألف دينار(٣٣ م) ، الأمر الذى لم يعرف الرحالة العراقى له نظيرا فى المشرق ، أى فى مرافئ تجارة الهند والصين وطريق الحرير ، فى الخليج ، من : البصرة الى سيراف وهرمز(٣٤) .

مسالك التجارة وطرقها :

هكذا تمثلت خريطة التجارة فى أفريقيا الشمالية فى ٤ (أربعة) خطوط طولية وخطين عرضين . والخطوط الطولية هى :

١ - طريق الساحل الغربى ، الممتد على طول شاطئ المحيط الأطلنطى ، وعقدة مواصلاته الشمالية ، هى نول لمطة (أونون) .

٢ - الطريق الغربى الأوسط الذى يعبر الجزائر ، وعقد مواصلاته : توات شمالا ثم سجلماسة وأودغست .

٣ - طريق المغرب الأدنى وبدايته القيروان (فهو طريق القيروان) ، وعقدتا مواصلاته : سجلماسة وأودغست .

(٣٣) ماكفيدى ، اطلس التاريخ الافريقى ، الترجمة ، ص ٧٩ .

(٣٣ م) صورة الأرض ، ص ٩٦ .

(٣٤) صورة الأرض ، ص ٣٤ ، وانظر لـ (J.-M. Lessard) ، سجلماسة ، المدينة

وعلاقتها التجارية فى القرن الحادى عشر ، عن البكرى

La ville et ses relations commerciales au XIe siècle)

، مجلة مسيريس ، ١٩٦٩ ، ص ٥ - ٣٦ .

٤ - الطريق الشرقى وبدايته طرابلس ، وعقد مواسلاته الى السودان الغربى (غانة) : سجلماسة وأودغست ، والى السودان الأوسط : فزان الى تشاد وكانم ، وتادمكه الى السودان الشرقى والواحات الشرقية الى مصر .

أما الخطان العرضيان : فالشمالى منهما هو الطريق التاريخى الشمالى الآتى من مصر والمنتهى عند تازا وفاس ، ومدنه ، من برقة الى طرابلس ، فالقيروان ، وتونس ، وتاهرت ، وتلمسان ، وفاس ، واغامت ، هى نهايات لخطوط الطولية . وأما الجنوبى فهو طريق التجارة الأعظم عبر واحات بلاد النخل وهو طريق الحج أيضا ، الذى يستوعب القوافل العظمى التى تحوى آلاف الجمال مثلما تستوعب طرق الملاحة عبر المحيطات حاليا ، سفن النقل العظمى التى لا تعرفها موانئ البحار الداخلية والقنوات بين القارات - كما أنه الطريق الأقصر (ما سبق ، ص ٦٢ ، ٨٩ ، ٩٩) .

الخريطة السياسية الاجتماعية للصحراء الكبرى فى القرن ٤ هـ / ١٠ م :

والمهم انه فى هذا الوقت من منتصف القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م ، كانت سجلماسة تابعة اسميا للدولة الفاطمية ، خاضعة فعليا لأسرة آل مدرار (الصفرية) وهم من البتر ، بدو زفانة الجمالة الذين يصعب التفرقة بينهم وبين صنهاجة الصحراء الذين يتميزون باللثام والنقاب على الوجه والعينين .

أما الصحراء حيث قبائل صنهاجة المثلثون ، فكان لها ملكها ، معاصر ابن حوقل ، الذى كان يحكم منذ سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م وذلك فى عصر الفرقة (الطوائف) قبل يروتان (ما سبق ، ص ١١٢) (٣٥) وينص ابن حوقل على أن رعية الملك الصنهاجى وقتئذ بلغوا نحو ٣٠٠.٠٠٠ (ثلثمائة ألف) بيت أى أسرة ، بمعنى حوالى ١.٥٠٠.٠٠٠ (مليون وخمسمائة ألف) نسمة وأكثر ، على أساس أن متوسط ٥ (خمسة) أفراد للأسرة ، بمعنى زوجين وثلاثة أبناء ، يعتبر معدلا قليلا بالنسبة لأفراد الأسرة فى المجتمعات البدوية والريفية - حيث الزواج الداخلى وتعدد الزوجات . والمهم أن المليون ونصف المليون وأكثر من قبائل صنهاجة - يعنى بلفة العصر نوعا من أزمة التضخم السكانى التى تبشر بالانفجار . والمهم أن تلك الكثرة

(٣٥) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٩٧ .

السكانية يفسرها نوع البيوت المستخدمة للسكنى والتي كانت حسب ابن حوقل ما بين نواله (خيمة من الجلد) أو خص (كوخ من الأعشاب والعصى) ، الأمر الذى يعنى أن مساكن صنهاجة فى منتصف القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م . كانت فى منطقة الساحل (أعشاب السافانا) الفاصلة بين جنوب الصحراء وشمال السودان الغربى . والظاهر أن المساكن السودانية الحديثة المبنية بالأعشاب وعروق الشجر فى شكل أكواخ مستديرة ويغطيها سقف مخروطى من الأعشاب أيضا ، أو تلك التى تأخذ شكل حظيرة مربعة يغطيها سقف سنمى (جمالون) من فروع الشجر وأوراقه (٣٥ م) ، لها أصول عريقة فى القدم . فقبايل الجرمنتين القديمة فى فزان كانت لها بيوت من الأعشاب التى تكسو أعواد الخشب فى شكل القارب المقلوب ، أو خيام الجلد مثل خيام البدو الحاليين (وهى المادة الخام المتخذة من البيئة المحلية من أعشاب السافانا أو من جلود حيواناتها) (٣٦) . وهذا ما يفسر أيضا كيف كان من أساليب حربهم الدفاعية الاعتماد على أعداد ابلهم الغفيرة فى سحق الأعداء ، هدمها ودهسها ، بمجرد اثارها ونفارها على العدو بغتة (٣٦ م) .

ومن الواضح أن أودغست ، بصفتها باب السودان الجنوبي ، كان لها حكومتها المستقلة ، تماما كما كان الحال بالنسبة لسجلماسة ، باب الصحراء الشمالى ، كما كان هناك نوع من أوجه الشبه بين الحكومتين ، فذلك ما يفرضه طبيعة المكان وتكوينه البشرى على مر الزمان . ويتلخص وجه الشبه فى أن موقع كل من البلدين فى منطقة التماس بين بربر الصحراء من البدو الجمالة مع كل من حضارة بربر الشمال « المتوسطية » وحضارة السودان الجنوب « الافريقية » ، بمعنى أن صنهاجة فى ذلك الزمان كانت همزة الوصل عرقيا وحضاريا بين الشمال الافريقى الأبيض وبين الوسط الافريقى الأسود ، وكان من الطبيعى أن يكون التأثير الأبيض طرديا نحو الشمال والتأثير الأسود عكسيا نحو الجنوب ، فتكون حكومة سجلماسة ومجتمعها أقرب الى حضارة البحر المتوسط ، ومجتمع أودغست وحكومتها أقرب الى الحضارة الافريقية « النيلية » أصلا .

(٣٥ م) أنظر دلافوس ، الزنج ، بالفرنسية ، ص ١٧ .

(٣٦ م) أنظر هاينز ، طرابلس فى العصور القديمة ، ص ٢١ ، وقارن عن مساكن الطوارق

الحاليين سعيد القشاش ، الطوارق ، ص ٨١ - حيث مساكن الطوارق من : جلد ، أو حصير أو قش الى جانب سكنى الكهوف .

(٣٦ م) أنظر ابن حوقل ، ص ٩٧ .

مملكة غانة والعلاقة بأودغست :

والمهم أن كلا من حكومتى سجلماسية وأودغست لم تكن حكومة عسكرية ، بل أشبه بجمهورية تجارية ، مثل امبراطورية غانة التى تمتعت لهذا السبب ، بالاستقرار منذ نشأتها فيما بين القرنين الثالث والرابع للميلاد ، وذلك فى منطقة أوكار (Aukar) شمال أودغست حيث كان موطن زنوج « الماندنج » المهاجرين من شمال أفريقيا ، والذين كانوا متأثرين بالثقافة اليهودية . ومن منطقة أوكار توسعت دولة غانة جنوبا الى منطقة الحوض ، واستمرت أسرتها الحاكمة حتى القرن الثامن الميلادى حيث سقطت فى سنة ٧٧٠ ميلادية على أيدي أسرة أخرى من زنوج « السونينكه » التى استمرت فى الحكم حتى قيام دولة المرابطين (٣٧) ، ومن الواضح أنه رغم اتساع مملكة غانة المعاصرة لابن حوقل شمال وجنوب غرب أودغست ، فإن هذه الأخيرة كانت تتمتع بالاستقلال تحت حكم الصنهاجيين الملتئمين ، وأنها كانت على علاقات طيبة بمملكة غانة .

وفى ذلك ينص ابن حوقل على أن ملك أودغست كان يحرص على مداراة (التقرب من) ملك غانة ، أغنى ملوك الدنيا بما لديه من أموال الجباية ومخزون التبر ، وإن هذا الأخير كان يسترضى تابعه ملك كوغه بالهدايا ، بينما كان ملوك غانة وكوغه حريصين على استرضاء ملك أودغست المسلم لحاجتهم الماسة الى الملح الذى كان يأتيهم من بلاد المسلمين (٣٨) .

والحقيقة أنه قبل قرن تقريبا من ظهور دولة المرابطين كانت امبراطورية الملتئمين قد تفتتت الى نوع من دويلات الطوائف منذ اغتيال مشايخ صنهاجة ملوكهم تميم سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م ، الحالة التى استمرت حوالى ٢٠ سنة (الى سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م) ، وهى الفترة التى ملأها ابن خلدون برواية أخرى للبكرى الى جانب رواية القرطاس (ما سبق ، ص ١١١ وهـ ٢٦) . وفى منتصف فترة التردى السياسى هذه كانت خريطة الصحراء تتمحور حول مملكة أودغست التى كانت قد بلغت الذروة من القوة والهيمنة ، بفضل جيشها الكبير الذى كان يحوى ١٠٠.٠٠٠ (مائة ألف) نجيب (من الجمال الحربية

(٣٧) انظر ج . دفيدج ، تاريخ افريقيا الغربية ، ص ١٨ - حيث النص على ان ملوك تلك الاسرة بلغوا ٤٤ ملكا .

(٣٨) ابن حوقل ، ص ١٩٧ - حيث الاشارة الى ارتفاع سعر الملح فى بلاد السودان ، اذ كان ثمن الحمل منه ما بين ٢٠٠ دينار فى المناطق القريبة من العاصمة (غانه) و ٣٠٠ دينار فى الافالم النائية .

السريعة الحركة) ، ومساحة أراضيها التي كانت تقدر بمسيرة شهرين طولاً وعرضاً (حوالى ٢١٠٠ كم) فى بلاد عامرة ، والتي كان يحكمها أمير صنهاجى ، هو : تين يروتان بن ويسنو بن نزار ، الذى كان يخضع له عشرون أميراً من حكام الأقاليم ، يؤدون له الجزية السنوية ، خلال حكمه الذى استمر عشر سنوات (٣٥٠ - ٣٥٩ هـ / ٩٦١ - ٩٧٠ م) (٣٩) .

ومن الواضح أن امبراطورية أودغست التي كانت قد بلغت الذروة. أخذت تعاني من أعراض التصدع والاضمحلال ، فهذا ما يتبين فى النزاعات الداخلية التي دبت بين الحكام المحليين من أمراء الاقطاع السودانيين الذين يلقبهم البكرى بالملوك . ولقد تطلب الأمر تدخل ملك أودغست فى سبيل الحفاظ على وحدة دولته الصنهاجية . فعندما قام النزاع بين يعرين أمير مقاطعة ماسين وبين أمير مقاطعة أوغام ، وقف تين يروتان ، الملك ، الى جانب الأول عندما طلب منه النجدة . وعندما استشعر خطورة ملك أوغام ، سير ضده جيشاً كبيراً ، من ٥٠.٠٠٠ (خمسين ألف) نجيب (جمل سريع) ، تمكنت من اقتحام عاصمة أوغام واستباحتها نهباً واحراقاً ، الأمر الذى انتهى بمقتل أميرها على أيدي المحاربين الصنهاجيين وانتحار زوجاته ، كما كانت تقضى بذلك التقاليد السودانية (٤٠) . وهكذا بلغت أودغست أوج عزها فى ظل صنهاجة قبل دولة المرابطين ، وسيطرت على أجزاء هامة من بلاد السودان ، وصارت منافساً تجارياً لغانة . ولكنه لم تمض عشرون سنة على انقضاء عهد يروتان حتى استعادت مملكة غانة السونينكية قوتها ، ونجحت فى سنة ٩٩٠ م (٣٨٠ هـ) فى الاستيلاء على أودغست من الصنهاجيين (٤١) . وبذلك أصبحت أودغست قاعدة لمملكة أوكار (غانة) .

(٣٩) البكرى ، ص ١٥٩ .

(٤٠) البكرى ، ص ١٥٩ - حيث النص على أن ملك أوغام القى سلاحه وصحى بنفسه فى ميدان القتال ، وأن نسونه قتلن أنفسهن أسفاً عليه ، وانفذه من أن يملكن البيضان ، وقارن الاستيصار ، ص ٢١٦ - حيث رواية البكرى ذاتها مع تغيير طفيف يتلخص فى أن ملك أودغست الصنهاجى غزا ملكاً من السودان اسمه « أوغام » ، فكان أوغام هو اسم الملك ، كما يقال ان غانة هو الملك وان المملكة اسمها أوكار . وهنا لا بأس من الإشارة الى انه فى مقابل نجب الصنهاجيين وجمالهم التي كانت تعد بعشرات الألوف ، كان المنصور بن أبى عامر وقتندج يعتنى باستنتاج الحبل ، حيث خصص لذلك فى اصطبلات اشبيلة ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) من الرماك و (١٠٠) مائة من الفحول ، وأنه فى بعض غزواته كان معه ٤٦ (ستة وأربعون) ألف فارس بينما كان الرجالة ٢٦ (ستة وعشرين) ألفاً فقط - أنظر ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، نشر بروفنسال ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٤١) أنظر فيديج ، غرب افريقيا ، ص ٢١ ، وقارن مولار ، غرب افريقيا الفرنسية ، =

حيث انتقل إليها غانة (أى الملك) ، وعاش فى كنفه البربر من الزناتية الى جانب العرب ، بينما أدت الصدمة النفسية التى ألت بصنهاجة الى التحالف فيما بينهم ، والعمل على التقوى برباط الدين . وبذلك كانت الهجمة السودانية على أودغست فى ذلك الوقت المبكر من أواخر القرن الرابع الهجرى (١٠ م) ، وراء حركة الاستنارة السياسية التى أشعل لهيبها المرابطون(٤٢) .

ففى سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م دخل أهل تكرور - فيما وراء غانة - وكانوا من عباد الكواكب والأصنام ، فى الاسلام كرها ، على يدى وزجاي ابن ياسين ، بطل نشر الاسلام حربا وسلم(٤٣) ، وذلك قريبا من الوقت الذى كان فيه زعيم جدالة يفاوض أبا عمران الفاسى ، عالم القيروان من أجل ارسال من يراه أهلا لتعريف سكان الصحراء بقواعد دينهم الصحيحة - من تلاميذه (ما يأتى ، ص ١٧٠) . وبعد حوالى ٥ (خمس) سنوات ، كان رئيس صنهاجة وهو محمد المعروف بنارشت بالبربرية ، يجاهد بعد سنة

= ص ٦٠ - حيث الإشارة الى الأمير تونكا (Tounka) الذى يظن انه فاتح أودغست وكان يتخذ من نيمما (Néma) فى الجنوب الغربى عاصمة له ، ورغم هذه الحال فقد كان متساهلا مع المسلمين فى بداية امره (نهاية القرن ١٠ م) حيث انه أقام ١٢ (اثنى عشر) مسجدا .

(٤٢) أنظر فيديج ، ت . غرب افريقيا ، بالانجليزية ، ص ٢١ ، وقارن ماكيفيدى ، أطلس التاريخ الافريقى ، ص ٧٦ - حيث تعرفت صنهاجة بفضل الجمل ، على الدولة الزنجية التى أسستها قبائل السونينكى (Soninké) شمال حقوق الذهب فى بامبوك (Bambouk) وأنظر الاستبصار ، ص ٢١٩ - حيث النص على ان كلمة غانة هى سمة الملوك تلك الدولة السودانية ، بينما اسم البلد أوكار بناء على كتاب الملك الفانى الى يوسف بن تاشفين ، ونصه : « الى أمير أغمات ، قال غانة » ، وهذا دليل على ما قيل - كما يقال للدول التى تنسب الى ملوكها من : فرعونية وساسانية وأموية . الخ .

(٤٣) الاستبصار ، ص ٢١٧ ، حيث النص على دخول أهل مدينة سلى بالترغيب على يديه ، على عكس أهل التكرور ، (فى بلاد السنغال - أول من دخل فى الاسلام من السودان) - وغيرهم ممن دخلوا فى الاسلام جبرا بالسيف والحرب ، وأنظر اسماعيل العرسى ، الصحراء الكبرى ، ص ١٧٠ - حيث الإشارة الى سكنى التكرور على ضفاف نهر السنغال ، وخاصة فى منطقة كايس (Kayes) فى أعاليه . وأنظر أمين طيبي ، أثر الاسلام فى غانة العصر الوسيط ومالى ، مجلة الدراسات الانسانية بجامعة الكويت ، المجلد ٤ ، صيف ١٩٨٤ (بالانجليزية) ، ص ٢٥٤ - حيث التكرور ، غرب غانة على المجرى الأسفل لنهر السنغال ، ص ٢٥٠ - حيث النص على ان شعب التكرور ظل وثنا الى أن دخل مملكه وارجابى بن رابيس (بدلا من وزجاي بن ياسين) فى الاسلام وذلك فى سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤١ م (بدلا من ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م) .

٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م فى بلاد السودان ، حيث استشهد بأرض قبيلة قنقارة (جنجارة) ، غربى مدينة بانكلايين النى كان يسكنها بنو عبد واث ، من بطون صنهاجة (٤٤) .

النظم الاجتماعية عند قبائل الملمثين المرابطية :

يضع ابن خلدون قبائل الملمثين فى صحراوات المغرب ، فى الطبقة الثانية من قبائل صنهاجة ، حسب أقدميتها فى التاريخ السياسى بالنسبة لصنهاجة أفريقية ، أصحاب الدولة الزيرية ممثلو الطبقة الأولى ، وما تفرع عنهم من الدول بالمغرب والأندلس (٤٥) . فكان صنهاجة هنا هى الجذم أو الأصل لذلك الجنس من البربة الذى يوضع بين قبائل البرانس أى الحضرة . هذا ، ولو أن ابن خلدون عند الكلام عن نسب صنهاجة ولمطة ينسبهما ، كما هى العادة الى أبوين أسطوريين ، هما صنهاجة ولمط ، ويجعلهما أخوين ، وينسبهما الى أمهما - وليس الى أبيهما - وهى تيزكى العرجاء التى تزوجت بأكثر من رجل من البتر والبرانس ، وأنجبت أكثر من ولد صار أبا تاريخيا لقبيلة من القبائل (٤٦) ، الأمر الذى يعنى استقرار مبدأ النظام الأموى ، الذى يعنى تفوق الأم فى العائلة البربرية حيث يمكن الانتساب اليها ، وبالتالي تقنين كل ما يترتب على ذلك من امتيازات قانون الوراثة ، وحقوق النبالة والشرف (٤٧) .

والمهم انه فى منتصف القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م ، عندما كان ابن حوقل يجمع معلوماته عن قبائل الملمثين ، أثناء ذروة الدولة الصنهاجية الزيرية ، على عهد يوسف بلكين بن زيرى ، كانت القيادة للموغلين من الملمثين فى صحارى المغرب الأقصى وبراريه ، وهم صنهاجة أودغست تحت راية ملكهم « تنبروتان بن اسفيشر » الذى كانت تخضع له كل القبائل ويدين له زعماءها بالولاء والطاعة ، بأعدادهم التى لا تحد حتى انه كان لا يعرف الكثير ممن يترددون عليه بل ولا سمع بأسمائهم ، الأمر الذى يعنى أن اسم

(٤٤) البكرى ، ص ١٦٢ - حيث الاسم البربرى بارشى الذى صحح الى نارشت كما سبق ، ص ١١٩ .

(٤٥) العبر ، ج ٦ ص ١٥٣ - حيث استخدام كلمة « لمطة » بالنسبة للدول اشبه ما تكون بكلمة « جبل » بالنسبة للأفراد .

(٤٦) العبر ، ج ٦ ص ٩٠ ، جوتييه ، ماضى شمال افريقيا ، بالفرنسية ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٤٧) أنظر ج ١ ص ١١٦ ، وما ياتى ، ص ١٢٥ .

« صنهاجة » كان يعنى الاسم السياسى لاتحاد قبائل المثلثين تحت قيادة آل تنبروتان ، أصحاب السيادة .

ومن الواضح أن الملك الصنهاجى كان منتخبا بصفته من آل تنبروتان ، بمعرفة رؤساء القبائل ومقدميها الذين كان لهم ، بطبيعة الحال ، حق عزله إذا ما عن لهم ذلك . وكانت أهم القبائل فى المنطقة ما بين سجلماسة وأودغست ثلاثة ، هى : سرطة (أو شرطة) وسمسطة ثم بنو مسوفا : أكبرها (٤٨) ، بينما يعدد ابن حوقل ٤٤ اسما لتجمعات صنهاجية من قبائل وبطون وأفخاذ ، من أصيلة أو قريبة من العروق الصنهاجية . والمهم انه من بين ١٩ (تسع عشرة) قبيلة صنهاجية أصيلة عند ابن حوقل لا نجد ذكرا منها ، عند البكرى بعد حوالى مائة عام ، فى مطلع النصف الثانى من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، الا لست فقط ، هى : بنى مسوفا ، وبنى وارث ، وسرطة ، وترجه ، وبنى لموتونا ثم لمطة (٤٩) ، الأمر الذى يعنى اندماج تلك القبائل فى بعضها البعض ، وقيام تجمعات قبلية كبيرة العدد ، تربط بينها قرابة الدم بفضل تعدد الزوجات ، ووحدة المقر (الوطن) ، بعد أن سهل الحمل طرق المواصلات فميا بينها . ومن المقبول أيضا أن تكون المسميات الباقية تعنى فى هذه التجمعات القبلية ، طبقة النبلاء أو الأشراف الحاكمة ومنها طبقة الأحرار المحاربة ، وفيهم - الى جانب أهل السياسة - رجال العلم والفقه والمعرفة والآثار والتواريخ (٥٠) ، بينما يهبط أفراد القبائل المنسية الى الطبقة المحمية « من المقهورين » ، ثم طبقة الموالى والعبيد السود ، ومنهم الخدم والرعا والحرفيون الصغار (فى البادية) (٥١) . أما طبقة الحرفيين

(٤٨) ابن حوقل ، ص ٩٧ - ٩٨ ، وقارن ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٦٨ - حيث النص على حياة المثلثين الصعبة ، على أيامه (قرن ١٦ م / ١٠ هـ) ، والتي تلخصت فى عدم النظام وسرقة ابل الأعداء ، ومع ذلك فقد كانوا يدينون بالطاعة المطلقة لأميرهم - الذى كان يدعى « أمينة كال » (من الأمانة على ما نظن) - ويكون له الاحترام .

(٤٩) ابن حوقل ، ص ١٠٠ - حيث القبائل الـ ١٣ التى نسبت أسماؤها ، هى : انكيفو ، وبنى ماكمن ، وبنى كاردميت ، وبنى سيفيت ، وبنى صالح ، وبنى توتك ، وسسطة ، ومداسة ، ومغرسه ، ومومنه ، وفرية ، وملوانه ثم نيكارت ، وقارن الادريسى ، المغرب العربى ، ص ٧٥ - الذى يجعل مسوفا من لمطة (مع قبيلتي وشان وغالة) بينما يجعل جداله من صنهاجة (مع قبائل : بنى منصور ، وتميمية ، وبنى إبراهيم ، وبنى تاشفين) .

(٥٠) ابن حوقل ، ص ١٠ - حيث التعريف بسيد ملوك تادمكة : فهر بن الفاراه ، وايناو بن سبنزك .

(٥١) ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٤٩٢ - حيث الإشارة الى ان درعه (مهد الطوارق) =

حقيقة ، من : الحدادين والنجارين والصاغة والحاكّة ، وغيرهم من الأتباع والغرباء فلا توجد الا فى المدن والمراكز العمرانية الكبيرة ، مما سبقت الاشارة اليه(٥٢) .

السمات الطبيعية (الفيزيكية) :

ولما كان المثلثون من صنّهاجة ، مثلهم كمثّل آبائهم الليبيين ، مرتبطين بعائلة شعوب البحر المتوسط . فهم من أصحاب الجسم الضامر والقامة المرتفعة ، والرؤوس الطويلة ، والوجه الاهليلجى ، والانف الأفتى ، والعيون السود ، والجلد البنى (البرونزى) ، والشعر الأسود(٥٣) . وهذا لم يمنع من وجود نماذج ذات جلد أبيض وشعر أصفر أو أحمر ، مما يشم

= التى كانت عاصمها صبيح فى القرن الـ ١٦ م كان لاهلها عبيد زنوج من الجسين يتوالدون ، ويحتفظ الناس (أسيادهم) بالأولاد لخدمتهم ، وقارن اليعقوبى ، البلدان ، ص ٣١٤ - حيث استخراج التبر فى العلاقى عن طريث العبيد السودان الذين يحفرون ويستخرجونه كالزرنينج الأصفر قبل أن يسبك .

(٥٢) أنظر ص ٧٤ ، هـ ٤٤ ، وقارن العمرى ، مسالك الأبصار ، نشر أبو ضيف ، ص ٧٨ - حيث سلاطين ممالك السودان الصحراوية البيض ، من البربر ، وهى (ثلاثة) فى بلاد آهير ، ودقوسية ، وتادمكة (شرق أوغست) ، وقارن مع تنظيمات قبائل الصحراء حاليا من الطوارق ، محمد سعيد القشاط ، التوارق ، ص ٦٥ وما بعدها ، عن الطبقات الاجتماعية ، حيث النبلاء (أما جفن) والطبقة المقهورة (أو اللجئة : عناد) ، وطبة الفناء (انسلمن) ثم الحدادون (الصناع النقليديون) ثم العبيد والموالى ، وص ٤٩ - ٤٦ - حيث تنقسم بلادهم الى ٧ (سبع) مناطق تسمى سلطنات ، على رأس كل منها سلطان كما فى : غات بليبيّا ، وتمنقيست فى الجزائر (الهقار) ، وأزواغ (سلطة اللبدين غرب) واللبدين - شرق (تقريريت) ، وسلطنة آيبر ، وسلطنة تمزقدا (جنوب آيبر) ثم سلطنة كل أقرس (جنوب) أزواغ) ، قرب الهوسا . وأنظر ص ٦٣ - ٦٤ - حيث تتكون السلطنة من عدد من القبائل ، وتنقسم القبيلة الى عدد من المحلات أو الأحياء ، والى الى عدد من العشائر التى تتكون من عدد من الأسر والأسرة هى الخلية الاجتماعية الصغرى ، وقارن اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ١٧٦ - وحيث ينقسم طوارق الرحل اجتماعيا الى : أسياد نبلاء وأتباع وعبيد من الزنوج ، والنبل صفة للعشيرة كلها التى تكون على رأس القبيلة ، ومنها رئيسها . وعن طوارق الهقار (جنوب الجزائر) فينقسمون الى ٣ قبائل ، هى : كل دولة ، وتيفغة ملت ، وطيطوق ، وأنظر ص ٣٥ - ٣٧ - عن طبقة العبيد التى عليها حراة الأرض ، فهم الحرافون ، الى غير ذلك من امتهان : الحدادة والنجارة والاشارة الى انهم يتحولون فى فترات معينة الى تجار يبيعون منتجاتهم لأهل الواحات نظير ما يحتاجونه من التمر والملابس والأسلحة والأدوات المنزلية حتى أنهم يسيطرون اقتصاديا على الواحات .

(٥٣) هاينز ، طرانلس ، فى المصور القديمة ، ص ١٨ - وأنظر اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ٣٤ - ٣٥ .

- ١٢٣ -

عن تأثيرات وافدة من أوروبا عبر التاريخ ، عن طريق الوندال والقوط وغيرهم من جماعات أهل الشمال (النورمان) (٥٤) . هذا ، ولو أن الدم الأسود كان يقد إلى الشمال بشكل طبيعي ، عن طريق اباضية زويلة - جنوب ودان - الذين كانوا يجلبون أنواعا من السودان ، من : البريين ، والزغاويين ، والمرويين ، كما كان أهل كوار جنوب زويلة ، يأتون بأنواع أخرى ، إلى جانب أن ملوك السودان كانوا يبيعون أبناء بلادهم من غير شيء ولا حرب (٥٥) .

أما عن صفات السودان بعامة فهي التي عرفها اليونان قديما بشكل علمي عن طريق جالينوس ، الذي يعدد لهم ١٠ (عشر) خصال ، هي : الشعر المفلفل ، وقلة اللحية واتساع المنخار ، وسماكة الشفتين ، وقوة الأسنان ، ورائحة الجسد (الزفرة) ، وسواد البشرة ، وخروج الأذنين ، وطول عضو الذكورة ، وأخيرا الميل إلى الفرغ والضجيج (٥٦) .

وهكذا امتزج البيض والسود في الصحراء ، ما بين الجنوب والشمال ، وأصبح اللون البرونزي (البني) هو المميز لأهل الصحراء المغربية ، تماما كما هو الحال عند العرب في صحرائهم التي يحف بها السودان الشرقي عبر البحر الأحمر ومضيق باب المندب ، حيث البجاء ، الأشد سوادا من الحبشة الذين يتميزون بلون بشرتهم الوسط ، ما بين البياض والسود ، مثل العرب (الاصطخري ، ص ٣١) . وخير مثال لهذا النموذج الصحراوي الوسط ، بين الرجل الأبيض والرجل الأسود ، هم سكان المرتفعات الوسطى في أقاليم الهقار (الحجار) وآير وتشاد حيث الطوارق المثلثون من المغاربة البيض أصلا ، أو في تيبستي حيث التبو (Tebou) ممثلو أهل الصحراء القدماء من الجنس الحبشي أصلا .

(٥٤) نفس المصدر .

(٥٥) اليعقوبي ، ص ٢٤٥ .

(٥٦) م. ديلافوس ، الزنوج ، (بالفرنسية) ، ص ٦

(Maurice Delafosse, Les Nègres, Ed. Reider, Paris)

وقارن ابن رسته ، ص ٩٩ - ١٠٠ - حيث النص على أن ساكني منطقة خط الاستواء مسود الألوان بسبب الحرارة والجفاف ، وأن شعورهم قططة ، وأبدانهم نحيفة ، وطباعهم حارة ، وفي أخلاقهم الجفاف والذكاء .

الوحدة العرقية الصغرى : الأسرة أو البيت :

الدارج عند قدامى الكتاب : استعمال المسكن للتعبير عن الأسرة أو الوحدة الاجتماعية النواة لدى شعوب البدو ، سواء الافريقيين البربر ، أو الآسيويين الترك . والبيت البدوى اما أن يكون خيمة أو خباء من الشعر أو الصوف أو الوبر ، وهو الدارج ، أو من جلد الحيوان أو من الأعشاب وفروع الأشجار وهو ما يسمى « بالخص » ، وبخاصة فى منطقة الساحل وأعشاب السفانا ، أو من الألياف الحشنة النامية بين براعم النخيل العليا ، كما فى الجنوب المراكشى (٥٧) .

وفى تفضيل الرجل الصحراوى للخيمة على البيت المبنى ، ينسب الى الطوارق انهم يسمون البيوت والمنازل المبنية « قبور الأحياء » (٥٨) . ومن الواضح أن الطوارق جنوب الصحراء شاركوا السودان فى طراز مساكنهم التى عرفت حديثا بأنها أكواخ مستديرة الشكل تنتهى بسقف مخروطى ، أو حظائر مربعة (أو سقائف) ذات أسقف جمالونية (هرمية) مقطوعة بأفرع الشجر وورقه العريض أو الأعشاب الطويلة (٥٩) . أما عن الأثاث والرياش فى خيام الملثمين وأخصاصهم ، فليس لدينا من مرجع عن طبيعتها الا معلومات القدامى من أصحاب رسوم ما قبل التساريخ ، ومن مؤرخى اليونان والرومان أو من الكتاب المتأخرين من العصور الحديثة المبكرة ، قبل مشاهدات المعاصرين . فالقراش نوع من مواد بناء الخيمة أو الخص ، فالنوم على بسط وبر الجمل أو على حصر الخيزران الناعمة (٦٠) ، والأوانى المنزلية مما لا يستخدم فى الطبخ ، من : الخشب أو الجلد أو بيض النعام (٦١) .

والمهم أن البناء القبلى يقوم - بعامة - على أساس الروابط العاصبة

-
- (٥٧) انظر فيما سبق ، ص ٦١ ، وقارن ابراهيم العوام ، الصحراء ، وسوف ، ص ٨٢ ، ٨٤ - حيث مساكن زناتة من زرائب الحلفاء القائمة على أعمدة خشب الأزل والرمخ أو من جريد النخل التى تسمى طرود ، كما عرفوا البيوت المبنية من طين الشطوط ، ذات الأبواب المعمولة من عصى مشدودة بأسعار من جلود الابل أو غيرها . وأنظر ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٦٧ وه ١٣٧ ، والبيت بالبربرية الطارقية « تازقى » ، انظر الكبرى ، ص ١٥٧ .
- (٥٨) اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ٢٠٨ ، وهو قريب من تسمية بعض أهل الخلبج حاليا ، شقق الوافدين بأنها صناديق (صغيرة) .
- (٥٩) ديلافوس : الزنج ، بالفرنسية ، ص ١٧ .
- (٦٠) ليون الافريقى ، ص ٦٧ .
- (٦١) هاينز ، طرابلس فى العصور القديمة ، ص ٢٠ .

فى خط الذكور ، بينما تحل المرأة وأهلها فى مكانة تالية • أما عن تكوين الأسرة فانه يقوم على قاعدة الزواج - الداخلى - فى العائلة أو العشيرة - وتبعاً لعرف تعدد الزوجات الذى يؤدى الى الاندماج التام بعد مدة • وبطبيعة الحال فان الأسرة رغم كونها الوحدة النوواة ، فانه لا يعتد بقيمتها الاجتماعية وان تحولت الى عائلة كبيرة تحوى ثلاثة أجيال أو أربعة ، وذلك أن الحى بصنى مجموع العشائر هو الذى يكون « الحى » أو الوطن الأصغر ، الذى يمكن أن يكون مستقلاً ، بل ويفرض سلطانه على بقية الأحياء والعشائر ، أى على القبيلة كلها (٦٢) •

النظام الأموى (الماتريارقى) :

والظاهر أن طبيعة الحياة البدوية فى الصحراء ، هى التى أملت النظام الأموى الذى يعنى سيادة الأم فى الأسرة ، عكس النظام الأبوى (البطريارقى) الدارج فى مجتمعات الريف والحضر • فالرحلة بعيداً ، سواء للرعى والسقى ، وخاصة بالنسبة للجمال أو السفر مع قوافل التجارة يضع المرأة الباقية فى الدار أمام مسئولياتها ، ليس فى إدارة البيت وشئون الصغار والمسنين فقط ، بل وفى الدفاع عن الحى إذا ما اضطرتها الظروف الى ذلك (٦٣) • ولما كانت التفرقة الأولية بين قيمة الرجل والمرأة قائمة على القوة الاقتصادية ، فان تقسيم العمل فى المجتمعات البدوية يظهر الأهمية النسبية الكبيرة للمرأة • فإذا كان الرجل هو راعى الجمل بالامتياز فان المرأة هى راعية الضم والماعز بالتخصص ، كما أنها تشارك الرجل فى مراعاة الإبل وسياستها ، وخاصة وقت النتاج ، فى فصل الشتاء (٦٤) •

(٦٢) وهذا ما يقول به الأنثروبولوجيون ، من : أن كل جماعة قرابية تؤلف فى الوقت ذاته وحدة مكانية متميزة ، وانه رغم انتشار أفراد الجماعة القرابية الواحدة الا ان اسم الجماعة يظل مرتبطاً بالأقليم الذى يعتبر بمثابة الوطن الاساسى لهم • بمعنى ان الجماعات المجاورة فى المكان داخل أرض القبيلة ، تكون مرتبطة بروابط قرابة من درجة معينة • انظر أحمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية ، شمال سيناء ، ١٩٩١ ، ص ١٦٨ - مع الأخذ فى الاعتبار ما قد يكون من الاختلافات بين سكان شمال شرق افريقيا (سيناء) وشمال غرب القارة (الصحراء الغربية) •

(٦٣) انظر فيما سبق ، عن قصة اللثام ، ص ٨٠ ، ه ٥٩ •

(٦٤) انظر (مع الفارق) أحمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية فى شمال سيناء ، ص ١٧٩ - حيث ما للمرأة من قيمة اقتصادية كبيرة ، وذلك فى توزيع العمل بين النساء والرجال ، ورغم ذلك فالمجتمع يسوده النظام الأبوى بمعنى سيادة الرجل - وهو الأمر =

وعلى الرغم مما عرفته المرأة من المركز المتميز في المجتمع الطارقي قديما وحديثا ، من حيث العمل ، والسفور ، والتمتع بقدر واضح من الحرية في معاملاتها العاطفية ، فمن الواضح أيضا أن تلك الحرية كانت شكلية ، وأن السيطرة كانت للرجل . حقيقة أن بعض النساء قد وصلن الى مركز الزعامة كالكاهنة قديما (انظر ج ١ ص ٢١٧) أو أن بعض عظماء الرجال من أهل الحرب والسياسة انتسبوا الى أمهاتهم ، كما هو معروف عند المرابطين ، من ابن فاطمة وغانية أوفانو مما يأتي ذكره أيام بنى تاشفين (ص ٣٠٦ ، ٣٩٢) ، إلا أنه لم ينبغ من نساء الملتزمين نابغة ، كما كان الحال عند الترك ، من : شجر الدر (عند الماليك) وتركان خاتون (عند السلاجقة) أو خواتين السلطان (عند ترك القرم) . أما عن نموذج زينب النفري ، زوجة صاحب أغمات ثم زوجة زعيم المرابطين « أبوبكر بن عمر » وبعده يوسف بن تاشفين ، فإنها لم تكن صنهاجية بل زناية (ما بعد ص ٢٥١ ، ٢٥٤) .

والمهم أن ذلك المجتمع « الأموى » الإفريقى ، أى الذى يقدر المرأة كعضو عامل في المجتمع ويحترم مشاعرها كأنسان عاقل له حقوقه المساوية لحقوق الرجل بالرضا والاختيار ، استوحى مبادئ حقوق الحرية والمساواة بين الرجل والمرأة من مصر القديمة ووادي النيل (٦٥) . ومن هناك انتشرت الى السودان النيل بين البجاء والزنج والحبشة ، وإلى شمال أفريقيا من حيث انتشرت الى الصحراوات الوسطى ، وصارت من ثوابت العادات والتقاليد فى الصحراء جنوبا ، وفى السودان الغربى الذى كان يزهو بنسائه (٦٦) . فرغم أن بلدة تسابيت ، على ٢٥٠ ميلا شرق سجلماسة كانت بمثابة منطقة انعزال صحراوية ، حيث يوصف أهلها بأنهم زنوج ، فإن نسائهم يوصفهن بالجمال وإن كن سمرراوات (٦٧) . أما سجلماسة ، على خط التقسيم الحدى بين عالمى البيض والسود ، فقد كانت سوقا رائجة ، ومدرسة متخصصة

= المستغرب . وانظر ص ١٨٧ - حيث الرعى والعناية بالقطيع ، يعلم الفتاة الدقة والحرص ، وحسن استغلال الوقت ، والتعرف على طبائع الحيوان والتعامل معه برموز الأصوات والإشارات التى يدركها ، كما كان للنساء خبرة فى عمليات تولد النوق ، دون الرجال . (٦٥) انظر جوتييه ، ماضى شمال إفريقيا ، ص ٣٤ وما بعدها - حيث الأثر المصرى بشكل عام ، وانظر الصحراء ، ص ١٤٥ وما بعدها . (٦٦) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٢ ص ٧٧٧ ، وانظر شكل ٩ - حيث امرأة بربرية سافرة تماما وبصحبته خادماتها (أسيرتها) السودانية . (٦٧) ليون الإفريقى ، ص ٥٠٥ هـ ٧١ .



شكل رقم ١٢ - امرأة بربرية (مغربية) وبصحبته خادمتها (أسيرتها)

لتدريب الجوارى من البيض والسود ، على مختلف أنواع الخدمات المنزلية من الأظعمة أو الترفيه (٦٧ م) .

أما فى السودان فكانت النساء فى بعض مواطن العراة يترددون على الأسواق (الدولية) لا تستر الواحدة منهن الا عورتها بسيور من الجلد المصفور (٦٨) .

حرية المرأة فى النظام الأموى :

والظاهر أن النظام الأموى الذى كانت تعرفه كثير من قبائل الطوارق والذى يسمح بنوع من الحرية للمرأة البربرية ، كان سببا فى ظهور أدب قصصى موضوعه العاطفة بين الرجل والمرأة من انسانية رفيعة ، وشهوانية وضيفة . وهنا لا بأس أن يكون للنزاعات التاريخية بين العرب والبربر ، وما نتج عنها من اتجاهات شعوبية مناهضة لأحد الفريقين أو الآخر ، أثر فيما يظهر من تحريف لبعض هذا القصص الذى يقتضى أن يكون ذا أهداف نبيلة فى أصوله الأولى وإن كانت النبالة والوضاعة نسبية - كما هو الحال بالنسبة للحقيقة .

وهنا يمكن الإشارة الى ما يقال من جريان عادة اكرام الضيفان بتقديم بعض نساء الأسرة لهم . وفى هذا الشأن يقدم لنا الادريسي رواية عن مدينة

(٦٧م) أنظر البكري ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ - حيث كان يجلب من أودغست جوار حسان الوجوه بيض الألوان ، مائسات القدود لا يتكسر لهن نهود . لطف ضخام الأرداف . . . ، المستمتع بأحداهم كأنه يستمتع ببكر أبدا . هذا كما كان العدول من مشايخ فاس ، وجبل نفوسة ، ويروون الطرف عن مشاهداتهم فى جمال نساء أودغست ذوات الخصور اللطيفة والأرداف العظيمة ، الأمر الذى كان يسمح لولد الواحدة منهن الطفل بالدخول تحت خصرها والنفوذ من الجهة الأخرى ، وأنظر الاستبصار ، ص ٢١٥ - حيث كانت تجلب سودانيات طبائخات محسنات فى عمل أصناف الحلوات من الجوزينقات واللوزنجات والقاهريات ، من الكنفات والقطائف ، يزيد ثمن الواحدة منهن على ١٠٠ (مئة) دينار وأكثر . وقارن الادريسي ص ٧٨ - عن السوس - حيث : نساء حاذقات فى الصناعات . أما عن نساء تادمكة ، شرق أودغست (الاستبصار ، ص ٢٢٤) فقد اشتهرن بأنهن فائقات الجمال حتى قيل انهن أجمل نساء العالم .

(٦٨) الاستبصار ، ص ٢٢١ - حيث الإشارة أيضا الى ان النساء كن يحلقن شعر الرأس ويطلقن شعر العانة . ومن النكت الطريقة فى هذا الشأن ما يروى من أن واحدة منهن عبرت لأحد التجار عن إعجابها بلحيته الكثيرة الطويلة حتى أنها تمننت لو كانت ملثها فى عانتها ، الأمر الذى أثار حق الرجل وغضبه - عندما ترجمت له مقالتها - حتى شلع فى سبها .

«أزكى ، وهى جوجدم باللغة الجناوية (السودانية) ، والتى تعتبر سره وطن قبائل مسوفة ولطة ، وعقدة المواصلات الى مدن سلى وتكرور وغانة ، تقول على لسان من دخلها - دون التعريف به - « ان النساء اللاتى لا أزواج لهن عند (سن) الأربعين ، يتصدقن بأنفسهن على من أرادها » (٦٩) . وإذا كان مثل هذا اللقاء يمكن أن يعتبر نوعا من زواج المتعة الذى عرفه الشيعة فى المغرب ، فان تلك الرواية عندما تتحول بحيث تعنى : أن المرأة هى التى كانت تختار الرجل الجميل أو الشجاع وتستضيفه لكى تأخذ منه نسلا متميزا يمنع من ذلك (٧٠) ، وان كان من المقبول أن يكون الأمر متعلقا أصلا باستضافة بعض التجار العابرين من أجل البيع والشراء ، وهم فى الطريق إلى السودان أو العودة منه .

والحقيقة ان ما يقوله الحسن الوزان عن نساء الملثمين يمكن أن يكون قرينة على اتجاهات شعوبية عند أصحاب تلك الروايات ، مناهضة للبربر . فوصف النساء المغرى من حيث أنهن بدينات ، ذوات أرداف (ثقيلة) وأثداء ناهدة ، وقوام دقيق (٧١) ، يتبعه القول أنهن لطيفات عند الحديث ، يمدن اليك أيديهن ، ويندفعون فى الملاطفة الى حد السماح بتقبيلهن دون التماذى فى ذلك ، فالرجال يقتلون لأسباب مثل هذه (٧٢) .

(٦٩) المغرب العربى ، تحقيق محمد صادق ، ص ٧٥ - ٧٦ .

(٧٠) أنظر الاستبصار ، ص ٢٢٣ - حيث الإشارة الى أن نساء تادمكة فائقات الجمال ، واتباع ذلك بالقول ان الزنا عندهم مباح ، وان النسوة هناك يتصارعن على الرجل الجميل أينهن تحمله الى منزلها . وقارن هاينز ، طرابلس فى المصور القديمة ، ص ٢١ ، الهامش - عن عادة تعدد الزوجات بين بعض قبائل الصحراء قديما ، حيث الإشارة الى أن هيرودوت يقول أن قبائل النزامون كانت تمارسها بشكل دارج ، مع الإشارة الى ان المبالغة فى حرية المرأة قبل الزواج لدى هذه القبائل ربما كانت بسبب عدم معرفة اليونان والرومان لعادة تعدد الزوجات .

(٧١) ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٦٩ ، ه ١٤٢ - حيث الإشارة الى أن هذا الوصف خاص بالنساء عند القبائل الارستقراطية .

(٧٢) نفس المصدر والصفحة ، وه ١٤٣ - حيث النص على السماح للرجال بزيارة النساء والملاطفة الخفيفة ، اما الاتصال الجنسى فعقوبته تصل الى الاعدام . ومثل هذا معروف عند جماعات البدو الأخرى سواء فى صحاروات افريقيا أو آسيا . وعن عادة اللقاء بين الشبان والشابات عند الطوارق المعاصرين ، أنظر محمد سعيد القشاط ، التوارق ص ٨٩ - حيث اللقاء فى الأفران والمرأة سافرة والرجل ملثم ، وص ٩٠ - حيث السمر فى الصحراء : من : إيقاد النار ، والاستماع الى الموسيقى والغناء ، وجلوس كل شاب الى جانب محبوبته (عشيقته) فى عفة دونما شيء يعرج الطهر والحياء حتى الفجر ، ص ٩١ - حيث يتم الاتفاق على الزواج عندما =

هذا ، ولقد انتشرت عادة تحرر المرأة هذه ، من الشمال الى الجنوب السودانى حيث لاحظها ابن بطوطة فى رحلته الى مالى فى ايولاتى (ولاتة) التى حلت محل أودغست ، حيث سمح لنفسه باستنكارها ، ولكنه قبل برد مضيفه بأن المهم فى استقبال المرأة لصديق من الرجال هو العفة والسلوك القويم - عكس سلوك التستر الفاسد (٧٣) .

كتابة التيفيناغ (٧٣ م) :

وفى اطار النظام الأموى يمكن وضع لغة البدو المثلثين فى العصر الوسيط وخلفائهم الطوارق المعاصرين ، وخاصة خط تلك اللغة التى لم تعد مستعملة كتابة منذ الفتح الاسلامى الا بشكل عرضى ، وسط الخط العربى واللغة العربية ، وسيلتا التفاهم على المستوى الرسمى بشكل خاص . ومن الواضح أنه على عكس ما قد يظنه البعض من أن اللغة العربية - بصفتها لغة القرآن والاسلام - هى التى وضعت حدا لاستخدام اللغة والكتابة البربرية ، فالصحيح أن البربرية كانت قد اضمحلت تماما فى أعقاب الحكم الرومانى لبلاد البربر ، كما كانت الكتابة قد ضاعت تماما (٧٤) ، على امتداد ألف سنة تقريبا .

فعند وصول العرب الى المغرب الأقصى (فى النصف الثانى من القرن الـ ٧ م) كانت الرطانة اللاتينية متغلغلة بين البربر حتى قلب الصحراء فى بلاد الجريد وامتداداتها بالجزائر ، وفى واحات المغرب الأقصى . أما اللغة البربرية فكانت لاجئة فى مناطق الانعزال الجبلية والصحراوية ، كما فى جبل نفوسة وجزيرة جربة والقبائل (بالجزائر) ، وفى جبال مراكش (السوس الأقصى) (٧٥) ، حيث أن جبل « درن » يعنى « جبل الجبال »

= يتأكد الشاب من حب صاحبه له ، وكيف يتم ذلك ٠٠٠ ، وانظر أمجد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية ، شمال سيناء ، ص ١٨٨ - حيث النص على ان المجتمع يسمح للمرأة (قبل الزواج) بالخروج للرعى (السرح) فى الجبال والأودية ، وأن القانون العرفى ونسق القيم السائدة تعمل على الحفاظ على كرامة المرأة ، حيث اعترض طريق الفتاة الراعية يعادل الاعتداء على العرض ، وص ٣٠١ - حيث النص على العقوبات المشددة بالنسبة للاعتداء على المرأة ، وإن كانت لا تتجاوز الغرامات الشديدة على كل حال .

(٧٣) الرحلة ، تحقيق على الكتانى ، ج ٢ ص ٧٧٧ .

(٧٣م) أنظر ج ١ ص ١١٠ .

(٧٤) ليون الافريقى ، ص ٧٩ .

(٧٥) أنظر ليون الافريقى ، ص ٨١ - حيث النص (فى القرن الـ ١٦ هـ) على أن =

(ما سبق ، ص ٦٩ ، هـ ٣٤) وحيث « نول » أو « نون » على حافة الصحراء
تعنى الابرة بالبربرية القديمة (٧٦) .

واللغة البربرية (الافريقية عند حسن الوزان) تسمى عادة « اوان
أمازيغ » أى اللغة النيلية ، من حيث هى لغة الفرسان ، وهى واحدة من
مجموعة اللغات الحامية والافريقية . وإذا كان بينها وبين اللغة العربية شئ
من التشابه ، فالرأى أن ذلك نتيجة الاحتكاك الحضارى ، وليس بسبب
القراية العائلية (اللغوية) (٧٧) .

والمهم من كل ذلك أن الفضل يرجع الى النساء فى الحفاظ على اللغة
البربرية فى مناطق الانعزال ، سواء فى الجبال منها أو الصحراوات أو الجزر ،
حيث بقيت المرأة بعيدا عن مراكز العمران العربية ، وتأثيراتها الحضرية على
المستويات الرسمية والشعبية ، لا تعرف الا لغتها الأم التى كان يتلقنها
الأطفال حتى سن الشباب (ج ١ ص ١١١) ، وهو الأمر المقبول بالنسبة
لانتشار العروبة ، ليس فى المغرب البربرى فقط ، بل وفى المشرق الايرانى ،
حسبما نرى أيضا . والأهم من ذلك هو أن المرأة البربرية احتفظت ببقايا
الكتابة الافريقية ، ممثلة فى الرموز المستخدمة فى الوشم الذى كان
يستخدم لأسباب طبية علاجية أو لأسباب أخرى مثل تلك النقوش المستخدمة
فى ذلك النوع من الحناء السائلة (كالحبر الشينى البنى) ، التى عرفها

= ضياع الكتابة الافريقية منذ ٩٠٠ سنة ، واستعمال الحروف العربية بدلا منها ، وهـ ١٩١ - حيث
كان انتشار اللغة البربرية حتى جزر الكنارى (الحالات) ، وفى اواسط الصحراء الكبرى ،
وغربها .

(٧٦) ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٥٢٥ ، وهنا يمكن القول أن آخر مجموعة موحدة
لفويا تتكلم البربرية هى الموجودة فى الصحراء ، وأن لهجة أهل الصحراء هذه تنتسب من حيث
التركيب اللغوى الى لهجة قرى جبال الأطلس الغربية . أنظر لارنود ، الجزائر ، بالفرنسية ،
ص ٦٦ .

(٧٧) أنظر ليون الافريقى ، ص ٤٧ - حيث الإشارة الى أن وجود بعض الكلمات العربية
فى اللغة البربرية يعنى وجود قرابة بين اللغتين ، فكانهما من عائلة لغوية واحدة ، الأمر الذى
نفسر على أساسه القرابة بين البربر والعرب الحميرين من اليمن . وقارن محمد سميد القشاط
التوارق ، ص ٢٩ - حيث تسمى لغة الطوارق حاليا (تمشاك) وهى « النغيناغ » ، ص ٣١ -
حيث النص على أنها لغة الفينيقيين فهى سامية عربية أصلا ، مع الإشارة الى بعض النماذج .
مثل : « أودم » = الوجه ، « أيسلان » = أسالك عن حالك ، وص ٣٤ - حرف «
(= ت) ، وهو يوسم على رقاب الابل ، لأنه أول حرف فى اسم « توارق » أو (تماشق)
، وأنظر ج ١ ص ٩١٠ (عن البربرية) ، ص ٨٧ والهوامش عن القرابة بين البربر وعرب
اليمن .

المصريون باسم « حنة الزرافة » ، والتي كانت تزين أيدي النساء وأرجلهن في المناسبات الفرحية وخاصة زواق العروس « ليلة الحناء » .

والمعروف أن هذا اللون من زينة الحناء الذي كان منتشرا لدى عامة أهل الاسكندرية (باب المغرب) وربما لدى غيرهم ، كان مركبا من وحدات زخرفية صغيرة الحجم مما يشبه حروف الكتابات القديمة ، من : نبطية وثمودية وصفوية (أو ديموطيقية) (٧٧ م) . ولهذا يرى البعض أن ذلك الطراز من حروف زخرفة الحناء النسائية لدى الطوارق بصفة خاصة ، والذي يسمى « تيفيناغ » هو آخر تطور لأشكال الكتابة البربرية (٧٨) .

وهكذا يمكن القول أن الصحراء ، على مشارف القرن الخامس الهجري

(٧٧ م) انظر الاستبصار ، ص ٥٨ - ٥٩ وهـ ١ - حيث تخطيط للدم المصري القديم مع مقارنة بالحروف العربية ، حسبما تصورها مؤلف القرن ١٢ م المغربي . وعن الأثر المصري القديم في الصحراء الافريقية الكبرى . انظر جوتييه ، الصحراء ، ص ١٤٥ وما بعدها . وعن ليلة الحنة في مصر الحديثة ، انظر ا . و . لين (Lane) ، عادات وتقاليد المصريين المحدثين (من مكتبة د . عبد المزن) (Manners and customs of the Modern Egyptians) ص ١٧٢ . وان . عرف المؤلف بالحنة العادية في شكل عجيبة يابسة دون اشارة الى حنة الزرافة السائلة . انظر شكل ١٣ - حيث كف امرأة (عروس) مزوقة بحنة الزرافة في أشكال هندسية متنوعة مع حروف كتابية واضحة - من كتاب : فاطمة برنيس Bernisse بعنوان : جنس ، فكر ، اسلام - مجموعة : المرأة والمجتمع ، ترجمة فرنسية عن الأمريكية - صورة الغلاف - من مكتبة أحمد أبو زيد .

(٧٨) انظر ج ١ ، ص ١١٠ وما بعدها ، وقارن ليون الافريقي ، ص ٨٠ وهـ ٨٨ ، وص ٨١ ، وهـ ١٩١ - حيث النص على ان التيفيناغ لدى الطوارق هي الكتابة اللسية البربرية في شكلها الحديث أو أنها مشتقة منها على كل حال ، وقارن لارتود ، الجزائر ، بالفرنسية ، ص ٦٧ - حيث احتمال أن تكون كتابة التيفيناغ من أبجدية اللبيين ، وهي كتابة الطوارق ، وخاصة النساء ، اللاتي يمارسها بتخطيط التلامذ الصغار المبتدئين ، وهي ما زالت باقية ، على كل حال . وانظر شكل (١٣) نقش الحناء في يد العروس في المغرب ، صورة الغلاف لكتاب « فاطمة برنيس » (Fatma Bernisse) ، الجنس والفكر والاسلام (Sexe Ideologie Islam) باريس ١٩٨٣ . هذا ، كما يمكن أن ترى بعض حروف تلك الكتابة ، من : الدائرة والمثلثات (دلتا) والخطوط المتوجة في أشكال دائرية أو مدببة أو متقاطعة ، في التطريز الزخرفي « للشال » أو « الطرحة » النسائية ، من عمل راحة سيوة ، كما يروى بعض أبنائها (أحمد السنوسي معرف) .

(١١ م) ، كانت مركز جذب للتقاليد المغربية القديمة وحفظ لها ، فى مقابل بلاد العمران الشمالية التى صارت مركز قلقلة وطرد ، نتيجة للصراع بين القبائل الصنهاجية والزناتية ، تحت رايات القوى المتنافسة من الفاطميين فى أفريقية والأمويين فى الأندلس ، الأمر الذى ازداد اشتعالا بقدم الهلالية الى المغرب تحت تهديد الفاطميين وترغيبهم ، وذلك ما يقتضى التعريف بأحوال أهل الصحراء الملتزمين الثقافية والدينية من حيث كونها المدخل الطبيعى لنهم أصول حركة الاحياء المرابطية .



شكل رقم ١٣ - كف امرأة (عروس) مزوق بحنة الزرافة فى أشكال هندسية متنوعة مع حروف كتابية واضحة

مقدمات الحركة المرابطية :

خريطة الصحراء الثقافية مع مطلع القرن الخامس الهجرى (١١ م) :

يتطلب رسم خريطة ثقافية لصحراء المغرب الكبرى قبيل ظهور المرابطين ، قبيل منتصف القرن الخامس الهجرى (١١ م) أن نتعرف على المراكز العلمية المحيطة بالصحراء ، والتي كانت على صلة بها عن طريق خطوط القوافل ما بين الشمال حيث حضارة المتوسط الاسلامية ، والجنوب حيث حضارة السودان الافريقية والمتطورة تحت التأثيرات الاسلامية الوافدة .

وأول ما يلاحظ هو أن قبائل الصحراء فى ذلك الوقت ، ورغم دخولها فى الاسلام منذ فترة مبكرة ، فانها لم تكن تعرف من الاسلام الا واجهته السطحية من حيث كونه دين التوحيد الالهى فى مقابل التعددية فى عبادة الأصنام أو الكواكب والنجوم مما كان يمره الصابئة أو عبادة النار المجوسية ، أو السحر والشعوذة مما يدخل فى عبادة الأرواح من خيرة وشريعة ، أو الطوطمية حيث عبادة الحيوان من داجن ووحشى ، مما يرجى خيره ويتقى شره . وليس من المستغرب أن كانت مثل هذه الممارسات موجودة ، وخاصة فى المناطق المنعزلة حيث كان لها أثر فى تحوير الفكر الاسلامى وتحريفه ، فى كثير من المناطق المنقطعة ، والتي كانت أرضا صالحة لانتشار المذاهب المعارضة لدولة الخلافة - ان لم نقل للسنة والجماعة .

ونظرة خاطفة على خريطة المغرب الدينية توضح أن الصحراء الكبرى كانت واقعة تحت ضغط المذاهب الشيعية والخارجية بفرقها المختلفة ، منذ وقت مبكر . فمذهب الزيدية (الشيعى المعتدل) بدأ ينتشر على حدود الصحراء بفضل جهود الأدارسة الذين بنوا مدينة تامدلت على مسافة ٢٠٠ كم شرقى درعه ، فى قلب وطن المثلثين من بنى ترجا (الطوارق) (١) .

(١) انظر يعقوبى ، ص ٣٥٩ - حيث أسسها عبد الله بن ادريس العلوى ، فى موضع تحيط به مناجم الذهب والفضة ، وان أهل المنطقة هم بنو ترجا . وتضيف الرواية ان الطريق الى بلد غشت (أودغست) فيه المنازل ، وفيه ملك لا دين له ، يغزو بلاد السودان وممالكهم . وقارن البكرى ، ص ١٦٣ - حيث مناجم الفضة دون ذهب .

والظاهر أنه منذ هذا الوقت بدأ التشيع الفاطمي الاسماعيلي في الانتشار في سفوح جبال أطلس الصحراوية ، في منطقة تازرار ، حيث منجم الفضة القديم الذي كان يستغله الصنهاجيون من بني ماغوس ، وبني المناس ، والذين كانوا قد اعتنقوا جميعا مذهب الاسماعيلية (الروافض) الفاطمي على أيدي بعض دعاة المذهب القادمين من نفطة (من بلاد الزاب) قبل دخول أبي عبد الله الشيعي أفريقية . هذا ولو أنه يفهم من الرواية أن الأدارسة كانوا قد نجحوا في اكتساب هؤلاء الاسماعيلية الذين عرفوا باسم البجليين عندما نشروا بينهم فكرة أن الامامة تكون في ولد الحسن ، وليس الحسين (٢) . هذا ولو أن التشيع الفاطمي لم يلبث أن كانت له الغلبة في قلب صحراء المغرب الأقصى حيث تمت الهيمنة على مدينة سجلماسة التي صارت جزءا من المملكة العبيدية (٣) . وبفضل دعاة التشيع الاسماعيلي الفاطمي ، المبني على امامة الحسين ، الامام المستقر ، عرف ذلك المذهب في قبيلة مراسة الصنهاجية ، القاطنة في مدينة بوغرات ، جنوبا بالسودان (٤) . كما كان سكان مدينة تيويوين في بلاد السوس شيعة جعفرية (اثنا عشرين) ، مقابل أهل تارودانت المالكية الحشوية (٥) .

والى جانب الشيعة كان الخوارج الصفرية قد سيطروا على حدود الصحراء في سجلماسة وتمكنت الأسرة المدراوية من التثبيت بها رغم الفتح الفاطمي (٦) . وإذا كان التأثير الخارجي غير واضح بين قبائل صنهاجية الصحراء ، فان تجار تاهرت الاباضية كان لهم نجاحهم في نشر الاسلام في السودان (ج ٢ ، ص ٤٠٦ وهـ ٣٩٢) . ومن بين الاباضية من تجار أودغست ، أهم مركز تجاري جنوب الصحراء في القرن الرابع الهجري (١٠ م) ، أبو رستم النفوسي الذي تروي له بعض مشاهداته الطريفة في بلاد السودان (٧) .

والى جانب خصوصيات مذاهب المعارضة الشيعية والخارجية ، كان

-
- (٢) البكري ، ص ١٦١ .
 (٣) انظر ج ٣ ص ٩١ ، ٢١٧ ، ٣٤٣ .
 (٤) الاستبصار ، ص ٢٢٤ - حيث كان تفسير الدعاة لصوت طائر هناك ، بأنه يعبر عن النداء بمقتل الحسين في كربلاء .
 (٥) الادريسي ، ص ٧٨ - ٧٩ .
 (٦) ج ٣ ، ص ٢٢٧ - حيث تحولت الامارة في سجلماسة الى خلافة .
 (٧) البكري ، ص ١٥٨ - ١٥٩ - عن محاسن نساء أودغست .

للصحراء خصائصها المميزة مما يتمثل في التنظيمات الاجتماعية والانساق العرفية والعادات والتقاليد ، إضافة الى ما سبقت الإشارة اليه من نظام الأسرة الأموى ، وما كان للمرأة من الحرية عند بربر الصحراء (ما سبق ، ص ١٢٥) ، وما كان دارجا من اجراءات التحقيق مع المتهمين فى جرائم السرقة وغيرها ، مما يشبه نظام المباهلة أى الحكم الالهى (الأوردالى : Ordalie) ، مما نراه من عادات الصحراويين عند البكرى (٧ م) .

فالادريسي (منتصف القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م) ، يصف أهل السوس - دون تفرقة بين السنة والشيعة - بأنهم أرق الناس عيشا ، وانهم يشربون نوعا من النبيذ الحلو المذاق ، المعد من عصير العنب المطبوخ ، والذي يعرف بالأنزاز ، ويسكر سكرًا عظيما . وفى أواخر ذلك القرن كان أهل السوس متخصصين فى عمل أنواع من النبيذ المستخلص من عسل بلدهم الفساخر الذى كان يتطلب شراؤه التخفيف بالماء بنسبة ١٦ (ستة عشر) مثلاً ، ليخرج بديع اللون الأخضر الذى يشبه الزمرد (٨) . ومن الواضح أن شرب هذا النبيذ كان مباحا على أساس ما كان معروفا من تحليل شراب بعض أنواع النبيذ (٩) ، على مذهب أهل العراق ، على ما نظن . والذي يلفت النظر أن مثل هذا النبيذ لم يكن منتشرا فى القرن الـ ١٦ م / ١٠ هـ فقط ، حسب رواية الحسن الوزان ، فى بلاد السوس الأقصى ، بلاد السكر وحدها ، بل وفى غيرها من قرى جبال درن (١٠) . والمهم هنا الإشارة الى أن ما كان يمارس على تخوم الصحراء من اختراقات للشريعة فى مجالات الطعام والشراب ، لم يعرف مثله فى الصحراء الفقيرة ، التى ربما كانت فى حاجة الى الملح أكثر من احتياجها الى المواد السكرية ، وما يستخرج منها من الأغذية الكمالية .

أما آفة الصحراء والبدو عامة وفى كل مكان ، فهو الفقر الذى كان يؤدي الى اختراق شرائع الأحوال المدنية ، وخاصة عند القيام بأعمال السلب والنهب والقتل ، واختطاف الذراري والنساء ، وخاصة على حدود السودان

(٧) أنظر البكرى ، ص ١٧٠ - حيث النص على أنه من سير أهل الصحراء لمتهم أن يعمدوا الى عود فيشقى بأثنتين ويشد على صدغيه فى مقدم رأسه ومؤخره فلا يتمالك أن يقر ولا يصير على ذلك الضغط لحظة لشدة .

(٨) الاستبصار ، ص ٢١٢ .

(٩) الادريسي ، ص ٧٩ .

(١٠) ليون الافريقى ، ص ٣٢٦ فى فاس ومملكته ، ص ٣٣٢ فى جبال القبائل المختلفة « حيث الكرم والعسل » .

- مورد العبيد - : الذهب الأسود في تلك العصور . وهكذا كانت قبائل لمطة وجزولة ، أشهر قبائل المثلثين (الطوارق) في مطلع القرن الخامس الهجرى (١١ م) ، تغير على قوافل التجار الوافدة على السودان والخارجة منه ، وذلك في منطقة عقدة المواصلات ، ومحطة المياه ، على مسافة ٥ (خمسة) أيام (حوالى ٢٠٠ كم) شمال أودغست (١١) . ولا ندرى ان كان نتاج مثل أعمال السلب هذه هي التي كانت تميز سوق منطقة جزولة في القرن الـ ١٦ م والتي كانت تستمر حسب رواية الحسن الوزان لمدة شهرين ، وان كانت المنطقة غنية وقتئذ بمناجم النحاس التي كانت تصنع منه أوعية بديعة تصدر الى مختلف الأنحاء لمقايستها بالأقمشة والتوابل والخيول ، رغم وصفه السكان بأنهم أجلاف لا يعرفون العملة (١٢) . وهكذا يلخص الحسن الوزان أحوال المثلثين المعيشية على أيامه (القرن ١٦ م) بأنها حياة صيد وسرقة ابل أعدائهم ، وأنهم قوم لا يخضعون للنظام - رغم طاعتهم لأمرهم واحترامه ، كما يأخذ عليهم الجهل في الآداب والفنون والمعارف (١٣) . وبينما ينصرف الزنوج الى حب المتعة والمرح والرقص ، يستنكر الوزان عيوب الأفارقة (البربر) ، من : الفقر وسرعة الغضب والتعارك ، الى عدم العفة والديوثية ، حتى ينتهى قائلا : « أشعر بالحياء لأن أفريقيا كانت موطنى » (١٤) - ولا ندرى ان كانت مثل هذه المشاعر تراود زوار أوروبا والعالم الغربى من الأفارقة بعامة ، بيضا كانوا أم سودا .

حقيقة أن بعض رواد الإصلاح الأوائل من زعماء المثلثين ، مثل يحيى ابن ابراهيم الجدالى قد نص على أن قومه كانوا يعانون من الجهل ، ولا يعرفون قراءة القرآن ولا تعاليم الاسلام الأولية التى يدعو اليها القرآن والسنة (١٥) ، ولكنه من الواضح أيضا أن الصحراء لم تكن خلوا من الحياة الروحية والثقافية ، بفضل مراكز التجارة والحضارة التى كانت بطبيعة الأحوال مراكز العلم والدين ، وخاصة سجلماسة وأودغست بالنسبة للسودان الغربى ، وتادمكة بالنسبة للسودان الأوسط ، فى مقابل مركزى الاشعاع الرئيسيين فى فاس والقيروان .

-
- (١١) البكرى ، ص ١٥٧ - حيث النص : وبهذا الماء يجتمع جميع طرق بلاد السودان ، وهو موضع مخوف تغر فيه لمطة وجزولة على الرفاق ، ويتخذونه رسدا لهم .
- (١٢) ليون الافريقى ، ص ١٥٥ .
- (١٣) ليون الافريقى ، ترجمة : حميدة ، ص ٦٧ .
- (١٤) ليون الافريقى ، ص ٩٧ - ٩٩ .
- (١٥) القرطاس ، ص ١٢٢ - ١٢٣ وما يأتى من ١٧١ .

فسجللماسة التي زارها ابن حوقل في سنة ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م ، كانت أكثر بلاد المغرب مشايخ في حسن سمت وممازجة للعلم (١٦) . وأودغست التي يعرفها اليعقوبي (في أواخر القرن ٣ هـ / ٩ م) باسم « غشط » ، كانت في حوزة ملك ملحد (لا دين له) يحارب ملوك السودان (١٧) ، الأمر الذي أنهى بغلبة ملك غانة عليها . والمعروف أن الزناتية والعرب كانوا يكونون الكتلة الكبيرة من سكان أودغست في مطلع القرن الخامس الهجري (١١ م) ، وأنهم كانوا مياسير يعملون في مرافق التجارة ، ولهم من العاملين في تلك النشاطات الألف رجل أو أكثر ، من الخدم المتمرسين والعيبد المحالين (١٨) . ولا بأس أن يكون ما يشير إليه البكري من التباغض والتدابير بين الفريقين يعني التنافس بينهما في الأعمال التجارية ، ومحاولة استئثار كل جماعة منهما بالنصيب الأعظم منها .

وهكذا لا نجد لأودغست نشاطا في ميدان العلوم والفنون ، حتى بعد أن دخلت في طاعة المرابطين . فصاحب الاستبصار (في أواخر القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م) يصف أهل أودغست بأنهم أخلاط من الناس من جميع الأمصار ، يسكنون المنازل الرفيعة (١٩) ، دون إشارة إلى أى نشاط ثقافي أو علمي بينهم ، مما يعنى انشغالهم بأمور التجارة وخدماتها . ومثل هذا يقال عن تادمكة ، شرقي الصحراء على سمت غدامس ، رغم ما يقال من أن اسمها يعنى « شبيهة مكة » ، وأن أهلها مسلمون ، إلا أنهم مشغولون أبدا بأمور التجارة وخدمات التجار (٢٠) .

وهكذا لم تكن تسمح طبيعة الحياة الصحراوية البسيطة ، حيث الاشتغال بالرعى أو التنقل على طول طرق التجارة أو حتى الإقامة في مراكزها الكبيرة في حركتها الدائبة ، من الاشتغال بالعلم والثقافة . وهم لذلك لم يعرفوا النشاط الفكري وحياة التأمل الديني إلا في مراكز المغرب الكبرى ، وخاصة في فاس والقيروان ، عاصمتي المغرب وأفريقية .

(١٦) ابن حوقل ط بيروت (الحياة) ، ص ٩٦ ، وأنظر الحبيب الجيجاني ، المغرب : الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ص ٧٥ ، وقارن ليون الإفريقي ، ص ٥٠٤ - حيث كان إميل فيليب (على بعد ٢٥٠ كم شرق سجلماسة) يتصرف بعضهم بالتجارة في السودان ، وغيرهم يذهب إلى فاس للدراسة ليكون اماما أو خطيبا .

(١٧) اليعقوبي ، ص ٣٥٩ .

(١٨) البكري ، ص ١٦٨ .

(١٩) الاستبصار ، ص ٢١٥ .

(٢٠) البكري ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .

فاس والقيروان وحركة الاشعاع الاسلامى فى مطلع القرن الـ ٥ هـ / ١١ م :

تمهيد :

والحقيقة أن النظرة الفاحصة فى سير علماء الدين والثقافة فى الفترة ما بين أواخر القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م ومنتصف القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، تبين أن كلا من فاس والقيروان ، كانت وقتئذ مركزا علميا مرموقا ، رغم الاضطرابات السياسية التى عمت بلاد المغرب كنتيجة حتمية لسقوط كل من دولتى الأمويين والفاطميين فى الأندلس والمغرب ، وقيام نظام حكومات المدن المتفرقة والعشائر ، المعروف بنظام الطوائف . ويرجع الفضل فى ذلك الى كل من جامع عقبة العتيق بالقيروان ، وجامع القرويين العريق بفاس ، اذ كان كل منهما بمثابة جامعة أو معهد علمى عال فى أيامنا هذه . وذلك بفضل نظام القراءة والسماع والكتابة ، والأخذ عن المشايخ . وبفضل نظام الاجازة (العلمية) التى تشبه الشهادات الجامعية الحالية ، مما كان يعطى شفاهة بشكل مباشر فى أول الأمر ، ثم صار يعطى كتابة عن طريق المراسلة ، لبعض من لم تيسر لهم الرحلة لطلب العلم أيضا . ولا بأس أن يكون لنظام الاجازة صلة بنظام المدارس الذى كان قد ظهر حينئذ فى المشرق الايرانى ، مركز العلوم والثقافة الذى كان يرفد مراكز العلم فى الشام ومصر والمغرب والأندلس - فضلا عن الحجاز ، وخاصة فى موسم الحج .

وبناء على الموقع الجغرافى يكون الوضع العلمى فى تلك البلاد متناسبا طرديا أو عكسيا حسب القرب أو البعد من مركز المدارس الذى انتقل الى بغداد السلجوقية مع بناء النظامية فى أواخر هذا القرن (الـ ٥ هـ / ١١ م) . وبذلك تصبح بغداد بحر العلم الذى يفيض على ما حوله ، من أهل الشام والحجاز ، ومصر ثم المغرب والأندلس . والمهم فى حالة الأندلس أن علماءها لم يكونوا ينتظرون وصول التأثيرات العلمية المشرقية الى بلادهم ، بل كانوا يبادرون بالمسير الى مراكزها المشرقية على طريق الحج ، مروراً بالقيروان ، ومصر (الفسطاط والقاهرة) التى كثيرا ما كانوا يحطون الرحال فيها للأخذ والعطاء ، سواء فى طريق الذهاب أو طريق العودة . وهنا تقدم سير رجال الأندلس - الى جانب رجال القيروان - معلومات ثمينة عن الأحوال العلمية او الثقافية الدينية ، مما سيكون له أثره الحاسم على قيام حركة التجديد فى

صحراوات أفريقيا الشمالية ، وتوابعها ، على أيدي أهل الصحراء أنفسهم من المرابطين الملتزمين .

والمهم هنا أن انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر سمح للقيروان وعلماؤها من أهل السنة وخاصة المالكية ، بتنفس الصعداء على عهد الامارة الزيرية التي كان يهجمها التقرب الى أهل البلاد ، ولو بشيء من الستر أو الخفاء عن أعين عملاء الخلافة في البلاد . وهكذا كانت القيروان أول محطة رئيسية ينزلها علماء الأندلس الرحالة في سبيل تحصيل العلم وأداء فريضة الحج ، فكانوا يأخذون من مشايخها في طريق الزهد ، ويقدمون لهم ما يحصلون عليه من العلم ، سواء في مصر (القسطنطينية) التي ظلت منارة لعلم أهل السنة ، ومقصدا لطلاب المغرب والأندلس طوال العصر الفاطمي ، نتيجة للسياسة المعتدلة التي سار عليها الأئمة الخلفاء ووزرائهم في القاهرة ، والتي جعلت من التشجيع الاسماعيلي مطلبا خاصا لأهل الدولة ، ومن يدور في فلكهم ، دون غيرهم . أما عن مكة ، نهاية المطاف بالنسبة لحجاج المشرق والمغرب ، فكانت مجمع علماء الاسلام جميعا ، من أهل السنة والظاهرين ، أو من أصحاب المذاهب المعارضة المستترين ممن كانوا ينتهزون فرصة الموسم لنشر أفكارهم ، والتعرف على أحوال اخوانهم - خاصة وأن بغداد كانت وقتئذ ، تحت سيطرة البويهيين الشيعة الزيدية . وبطبيعة الحال كان الغالب على مكة هم علماء المشرق الوافدين من العراق وطبرستان وفارس وخراسان ، ممن كانوا يحملون ألقاب مدنهم أو أقاليمهم ، أو مذاهبهم السنية في بعض الأحيان .

ولا شك أن تعرض المشرق الإيراني لقلقلة هجرات القبائل التركية المتواعدة ، من : الأوجور والخطا والفراخانية والغز ، مع ما صاحب ذلك من عملية احياء اللغة الفارسية - اعتبارا من القرن الهـ ٤ م / ١٠ م - كانت من الأسباب التي أدت الى توجيه هجرة كثير من علماء خراسان وفارس الى العراق والشام والحجاز ومصر ، الأمر الذي انتهى بتميز المدرسة المصرية من حيث اشتغال مناهجها على مقررات من العلوم العقلية الى جانب الدروس النقلية التقليدية ، مقارنة بعلوم المدرسة المغربية الأندلسية ، المحافظة أصلا . ولما كانت رحلة العلم المغربية تنتهي عادة في مكة ، وفي موسم الحج خاصة ، كانت المدرسة الحجازية في الحرمين الشريفين هي الرافد الأول لعلماء المغرب والأندلس ، قبل المدرسة المصرية ، في تلك الفترة السابقة على قيام المرابطين في المغرب ، اعتبارا من أواخر القرن الرابع الهجري (١٠ م) حتى قبيل منتصف القرن الخامس الهجري (١١ م) .

المدرسة المكية :

وتتمثل المدرسة المكية كما نرى ، فى جمهرة علمائها وفيما يقدمونه من مقررات دراسية ومناهج أو أساليب فى طرق التعليم . فمن قدامى الأساتذة بالنسبة لطبقة الأندلس والمغرب وعلمائها ، فى الفترة مجال البحث ، الآجرى (أبو بكر) الذى يرد ذكره فى الرحلة العلمية التى قام بها (سنة ٢٥٨ هـ / ٩٦٨ م) الأيادى (القرطبي) حيث قرأ عليه المدونة والمستخرجة (من الموطأ) وغيرها (٢١) . كما لقيه الدجاج (القرطبي) الذى كان معتنيا بعلم الحديث - وان كان فى نفس الوقت متهما باتجاهاته الكلامية وميوله العقلانية نحو مذهب محمد بن مسره (٢٢) . واثر ذلك أثنى الدينورى (أبو اسحق) وابيلخى (أبو عبد الله) والصيدلانى (أبو يعقوب يوسف بن أحمد) ، الذين لقيهم ابن الحذاء (القرطبي) فى رحلة حججه سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م ، وكان محدثا يغلب عليه علم الأثر ، وله كتاب التعريف فى ذكر ما فى موطأ مالك بن أنس من الرجال والنساء (٢٣) . ولقد سمع من الصيدلانى بعد ذلك ، ابن ميمون الطليطلى سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م (٢٤) . ويضاف الى هذه الطبقة : النيسابورى (أبو أحمد الحسن بن على) والجرجاني (أبو يعقوب بن يوسف بن ابراهيم) ، ولهما ذكر فى رحلة سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م التى لقيهما فيها القناعزى (القرطبي) الذى جمع الى تعمقه فى علم الحديث والخبرة بالمذهب المالكي حتى أنه جمع تفسيراً للموطأ حشد فيه ما نقله من موطأ يحيى بن يحيى وموطأ يحيى بن بكير ، الاجتهاد بالقرآن والمعرفة بالمستنبط من الراى ، وفى هذا المجال اختصر تفسير القرآن لابن سلام (٢٥) .

(٢١) الأبادى هو أبو محمد مسلمة بن محمد ابن مسلمة - توفى فى ذى الحجة ٣٩١ هـ / ديسمبر ١٠٠٠ م ، أنظر ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ص ٧ ، ترجمة رقم ١٤٢٢ .
(٢٢) الدجاج هو أبو القاسم رشيد بن محمد - ت فى آخر رجب ٣٧٦ هـ / ٥ نوفمبر ٩٨٦ ، أنظر ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ج ١ ص ١٢٦ ، ترجمة رقم ٤٣٧ .
(٢٣) والحذاء هو : أبو عبد الله محمد بن على بن أحمد التميمى - ت ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م ، أنظر ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ص ٨٧ ، ترجمة رقم ١٦٧٨ .
(٢٤) ابن بشكوال ، الصلة ، رقم الترجمة ٣٥ ، ص ٢١ ، وأنظر فيما يأتى ، ص ١٤٥ .

(٢٥) والقناعزى هو : أبو المطرف عبد الرحمن بن مروان ابن عبد الرحمن الأنصارى - موله فى ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م ووفاته فى رجب ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م . أنظر ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٦٩١ ، ص ٣١٦ .

أما عن طبقة الجيل التالى - بالنسبة لفترتنا - من المكين فيتمثل فى العجيفى (أبو الطاهر محمد بن جبريل) الذى يرد ذكره فى أكثر من رحلة من رحلات الأندلسيين العلمية ، كما فى سنوات ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، ٣٨١ هـ / ٩٩١ م ، ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م حيث سمع منه ابن ميمون الطليطلى (٢٦) ، وابن قرلمان الطلمنكى الذى انصرف الى قرطبة بعلم كثير ، جمع فيه ما بين علوم القرآن والحديث ومذاهب السنة ، وأصول الديانات (٢٧) . كما سمع منه ابن ذنين الصدفى (الطليطلى) ، وكانت له رحلة سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م . وكان الغالب عليه رواية الحديث وكتابه ، وقراءة الآثار والعمل بها ، كما التزم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، يقوم بذلك بنفسه ولا تأخذه فى الله لومة لائم - وله كتاب الأمر بالمعروف (٢٨) ، وأبو المطرف الصدفى (الطليطلى) الذى كانت له عناية كاملة بالحديث (٢٩) .

وابن جهضم (أبو الحسن) واحد من أعلام هذا الجيل من المكين ، فله ذكر فى العديد من رحلات العلم ، فى سنوات ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م ، ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م ، ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م ، ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م ، و ٤٠٧ هـ / ١٠١٧ م ، حيث سمع منه ابن ميمون (ما سبق) ، ص ١٤١ . وابن جهور (سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م) أبو عمرو أحمد بن محمد (المرشائى

(٢٦) وابن ميمون ، هو : أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبيدة الأموى - ولد ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م وتوفى فى ٢٢ شعبان ٤٠٠ هـ / ١٨ ابريل ١٠١٠ م ، تعلم بقرطبة ورحل الى المشرق سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م بصحبة ابن شنظير ، وسمع بمكة والمدينة ومدين وأيلة والقلم ومصر وطرابلس والقروان والمسيلة وتنس ، واستوطن طليطلة - والتزم الرباط بالفهمين . وكان فاضلا وربما يأخذ نفسه مأخذ الأبدال ، وتنسب اليه كرامة عدم احتراق مكتبته عندما احترقت داره وهو فى الرباط - ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٣٥ ، ص ٢١ - ٢٣ . (٢٧) ابن بشكوال ، ترجمة رقم ٩٠ ، ص ٨ - ٢٤٧ - حيث ابن قرلمان ، هو : أحمد بن محمد المافرى مولده بطلمنكة ٣٤٠ هـ / ٩٥٠ م وسكنه بقرطبة ، ووفاته بطلمنكة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م - أحد الأئمة فى علم القرآن : قراآته وأعرابه وأحكامه وناسخة ومنسوخة ومعانيه ، كما شملت عنايته بالحديث : نقله وروايته وضبطه ومعرفة رجاله وحملته . وكان سفا مجردا على أهل الأهواء والبدع ، غورا على الشريعة ، شديدا فى ذات الله تعالى . أقرأ الناس محتسبا وأسعهم الحديث ثم خرج الى الثغر فتجول وأنفع الناس بعلمه .

(٢٨) وابن ذنين هو : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد - وتوفى فى ٤٢٤ هـ / ١٠٣٣ م ، ابن بشكوال ، الصلة ترجمة رقم ٥٨١ ، ص ٢٥٩ . (٢٩) وهو عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد - ولد ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م - وتوفى فى ذى القعدة ٤٠٣ هـ / مايو ١٠١٣ م ، أنظر ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٦٨٠ ، ص ٣٠٧ .

- القرطبي - ت ٣٠٠ هـ / ١٠٣٩ م (٣٠) الذي رحل الى المشرق وحج سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م ، وجاور أعواما . وروى عنه أبو القاسم بن الفرج ابن فارس (القرطبي - ت ٣٩٧ هـ / ١٠٠٧ م أو ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م) . كما أخذ عنه (٣١) .

ومن أشهر من أخذ عن ابن جهضم : القضاعي (أبو محمد عبد الله ابن بكر بن فاسم : الطليطلي ، ت ٤٣١ / ١٠٣٨ م) وذلك في رحلته سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٧ م (٣٢) ، وابن الغرضي (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الآزدي : القرطبي - ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م) ، صاحب ابن بشكوال ونظيره في الاخذ معه عن أكثر الشيوخ ، مؤلف تأريخ علماء الأندلس ، الذي توجه الى المشرق في طلب علم الحديث (٣٣) ، والشنتجالي (أبو محمد عبد الله ابن سعيد بن لهاج الأموي - ت ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م) الذي جاور طويلا بمكة ابتداء من سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م ، ولمدة ٤٠ سنة ، سمع فيها من المشايخ واهتم بكتابة الحديث (٣٤) .

وثالث المعاصرين من هذا الجيل من كبار علماء مكة ، هو السقطي ، وله ذكر في رحلات ٣٨٠ / ١٩٩١ م ، ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م ، ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م حيث سمع منه ابن ميمون الطليطلي (ص ١٤١ ، ١٤٢) ، وهو بصحبة نظيره في الجمع والآثار : ابن شنظير (ص ١٤٢ هـ ٢٦) ، ولقيه ابن الميراثي البلوي ت ٤٣٨ هـ / ١٠٣٦ م (٣٥) ، وابن أفرانك (ت ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م) (٣٦) ،

-
- (٣٠) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٩٥ ، ص ٥٠ ، حيث أخذ أيضا عن السقطي ، كما أخذ عن أبي سعد الواعظ كتاب « شرف المصطفى » من تأليفه .
- (٣١) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٢٤٩ / ص ١١٢ - حيث النص (عن ابن بشكوال) على ان أبا الناسم أصبح كان حافظا للفقه ورأى مالك ، وانه روى العلم (الحديث) عن ابن جهضم ، وأخذ عنه ، كما كان مناضلا ضد قطاع الطرق على قوافل الحج .
- (٣٢) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٥٨٦ / ص ٢٦٣ .
- (٣٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٥٦٧ / ص ٢٤٨ .
- (٣٤) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٥٩٣ / ص ٢٦٧ .
- (٣٥) وهو أبو بكر أحمد بن محمد بن عيسى (القرطبي - ولد ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م وتوفي في ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م ، انظر ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة رقم ٨٧ / ص ٤٦ .
- (٣٦) وهو أبو العاصي حكم بن محمد بن حكم الجذامي (القرطبي) ، انظر ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٣٣٤ / ص ١٥١ - حيث النص على انه روى عن جماعة من كبار المحدثين ، كما كان صليبا في السنة ، متشددا على أهل البدع ، ورعا ، منقبضا عن السلطان ، يتعيش من بضعة حل بيده ، يضارب له بها بعض ثقات اخوانه .

وابن جهور المرشاني ت ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م (ص ١٤٢) ، وابن ذنين الصدفى (ت ٤٢٤ هـ / ١٠٣٣ م) فى رحلته سنة ٣٨١ هـ / ٩٩٠ م (ص ١٤٢) ، كما سمع منه الشننجيالى فى رحلته سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م (ص أدناه) ، ويأتى بعد ذلك العقبى (أبو الحسن أحمد بن فراس) الذى سمع منه كل من الشننجيالى أيضا ، فى رحلته ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م ، وابن الصيرفى (المقرئ) ، المحدث فى رحلته (فى مطلع القرن الـ ٥ هـ / ١١ م) (٣٧) ، ثم ابن الدخيل (أبو يعقوب يوسف) ، وله ذكر فى رحلات سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م ، ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م ، حيث لقيه ابن افرانك (ص أدناه) وابن الفرضى (ص ١٤٧) .

ثم أبو الفضل الهروى (أحمد بن أبى عمران) الذى لقيه فى سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م كل من ابن افرانك ، وابن بنوش (القرطبي) المعروف بأنه عدل من أهل العلم والحديث (٣٨) .

وأبو ذر الهروى (عبد بن أحمد بن محمد ت ٣٥٥ هـ / ١٠٤٣ م) الذى لقيه سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م ، ابن بكر الأنصارى (٣٨ م) سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م ، والشننجيالى ، وفى رحلة سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٧ م القضاء أيضا (ص ١٤٩) ، كما أخذ عنه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن طاهر المرسى (ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م) (٣٩) . أما أهم تلاميذ أبى ذى الهروى من الأندلسيين فهو أبو عمرو الصدفى (٤٠) .

(٣٧) وابن الصيرفى ، هو أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الأموى (القرطبي) ، مولده ٣٧١ هـ / ٩٨١ م - توفى فى ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م ، ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٨٧٣ / ص ٣٩٨ .

(٣٨) وابن بنوش ، هو : أبو محمد عبد الله بن ربيع التميمى ، مولده ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م ، وتوفى فى ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٥٧٦ / ص ٧ - ٢٥٦ . (٣٨ م) هو أبو محمد عبد الله بن الوليد ابن سعيد ، الذى استوطن مصر ، وتوفى بالشام سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م - ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٦٠٩ / ٢٧١ .

(٣٩) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٧٢١ / ص ٣٣٢ - حيث النص على أن مولده كان فى ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، فكان رحلته التى أخذ فيها أيضا عن كريمة المروزية بمكة تمت فى العقد الرابع من القرن الخامس الهجرى (٩١ م) .

(٤٠) عثمان بن أبى بكر من حمود - توفى فى ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، أنظر ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة رقم ٨٧٦ ص ٤٠٠ - وحيث النص على أنه مات وهو فى طريقته إلى القسطنطينية سفيرا عن الصنهاجى صاحب القيروان . أما عن أهم أعمال أبى عمرو الصدفى =

وبعد عالمى هرات يأتى الجبلى (أبو القاسم سليمان المالكى : نسبة الى مقاطعة جيلان) ، وله ذكر فى رحلة سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م ، حيث لقبه ابن سعيد (ت ٢٤ ربيع الأول ٤٢٨ هـ / ١٧ يناير ١٠٣٧ م) (٤١) .
والرازى (أبو العباس أحمد بن بندار) الذى لقيه ابن عبد المولى الأنصارى (الطليطلى) فى رحلته المشرقية (٤٢) .

المدينة :

أما عن علماء المدينة المنورة فيذكر منهم جعفر بن الحسن (قاضى المدينة) الذى روى عنه ابن الحداد (الطليطلى سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م - ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م) ، وأبو الحسين يحيى بن محمد الحسينى الحنفى ، وأبو على الحسن المقرئ ثم أبو محمد الزبيدى ، ولهم ذكر فى رحلة ابن ميمون الذى سمع منهم سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م (ما سبق ، ص ١٤١) .

المدرسة المصرية :

وأهم سمات المدرسة المصرية انها كانت تمثل حلقة الوصل بين مراكز الثقافة الاسلامية فى ايران والعراق والحجاز وبين المراكز العربية فى المغرب والأندلس ، الأمر الذى يعنى رفادة الفكر التقليدى الذى نشأ فى دار الهجرة النبوية ممثلا فى علوم الحديث والذى انتقل عبر مصر الى المغرب والأندلس ، بالفكر العقلانى المتجدد ، والمتمثل فى الاجتهادات الفقهية وأصول استنباط الأحكام ، الأمر الذى جعل من مصر محطة تشدد علماء المغرب والأندلس الذين كثيرا ما استقروا بها ليس للدراسة فقط ، بل وللتدريس أيضا - الأمر الذى يعنى نوعا من الربط بين الثقافة المصرية ونظيراتها المغربية والأندلسية .

وأشهر علماء مصر فى تلك الفترة هو ابن رشيق (أبو الحسن) الذى.

= العلمية فهو ما قام به بأصبهان من كتابة ١٠٠٠٠٠ (مائة ألف) حديث ، أخذها عن أبى نعيم الحافظ ، الى جانب ما أخذه عن غيره من علماء المشرق كالفسوى والصاوىنى والكاظمى وكريمة بنت أحمد السرخسية .

(٤١) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٤٩٣ / ص ٢١٨ .

(٤٢) أبو عبد الله محمد بن المبرج الذى استقر بمصر ، يدرس صحيح مسلم ، وكتاب الشريعة للأجورى ، وله شعر فى اعتزازه بكتبه التى كان يعز عليه حبسها عند مستعيرها - توفى بالقسطنطينية بالمستغان ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، اثر خيل ألم به فى آخر عمره ، أنظر ابن القزوينى ، تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ص ١١٥ ، ترجمة رقم ١٧٥٧ .

أخذ عن ٧٠٠ (سبعةائة) محدث ، والذي حمل لقب العدل الى جانب
المصرى وتعلم عليه عدد كبير من طلاب الأندلس ، خلال ما يقرب من نصف
قرن ، ما بين ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م ، ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م ،
٣٩٥ هـ / ١٠٥٥ م . وأول هؤلاء هو ابن فرتون (أحمد بن خلف المديوني -
ت ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م) الذي روى عنه (٤٣) ثم أبو القاسم بن الأُموي
(القرطبي - ت ٣٩٦ هـ / ١٠٠٦) في رحلته سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م حيث
أخذ عنه (٤٤) . ومن أشهرهم القنازعي الذي حصل على إجازته له ، في
رحلته سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨١ م (٤٥) . ومن كتب عن ابن رشيق في سنة
٣٧٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ابن سعيد الخير (الوشقي - ت في رمضان ٤٢١ هـ /
سبتمبر ١٠٣٠ م) (٤٦) ، وابن الخراز (الهمداني - ولد ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م -
ت ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م) في رحلته التي روى فيها عنه (٤٧) أبو القاسم
الأصاري (ت في ذي الحجة ٤٠٦ هـ / نوفمبر ١٠٦٤ م) الذي سمع منه
وحصل على إجازته له (٤٨) ، وابن خيرون (أبو محمد عبد الله بن سعيد -
القرطبي ، ت ربيع الثاني ٤٠٣ هـ / أكتوبر ١٠١٢ م) الذي حصل على
إجازة ابن رشيق ، وكان يحدث بالمدونة (٤٩) .

ويدخل في زمرة الحسن بن رشيق من كبار العلماء المصريين : الأدفوي ،
وابنا غلبون الأب (أبو الطيب) والابن (أبو طاهر) ، وأبو بكر المهندس ،
وابن ماهان ، والجوهري وابن سعيد ، والكناني ، وابن النحاس ، والحسن
ابن شعبان ، وابن التمار ، وغيرهم .

(٤٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ١ / ص ٤ - حيث يذكر الى جانبه أبو علي
الاسيوطي .

(٤٤) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ١٤ / ص ١٢ .

(٤٥) أنظر ما سبق بين ص ١٤١ هـ ٢٥ ، وابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٦٩١
ص ٣١٦ - حيث الإشارة الى جماعة من علماء مصر ، من : الحسن بن شعبان ، الى أبي علي
الطوز ، وأبي القاسم عمر بن المؤمل الطرسوسي وأبي الطيب أحمد الحريري .

(٤٦) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٣٧٢ / ص ٦٧ .

(٤٧) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٦٨٧ / ص ٣١١ .

(٤٨) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٥٠٨ / ص ٢٢٣ - حيث الإشارة الى انه جمع
في مصر ١٨ حملا من الكتب عاد بها الى الأندلس .

(٤٩) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة رقم ٥٦٩ / ص ٢٥٣ - حيث الإشارة الى مولد
ابن خيرون في سنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م (عن ابن حيان) ، ووفاته منكوبا بسجن المطبق
بقرطبة ، وتسليمه الى أهله في قيوده .

والأدقوى (أبو بكر محمد بن أحمد المصرى ت ربيع ٣٨٧ هـ / مارس ٩٩٧ م) له ذكر فى رحلات سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م ، حيث روى عنه ابن الحداد (أحمد بن سهل بن محسن الأنصارى - ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م - ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م) (٥٠) ، وسمع منه ابن الجعفرى المقرئ (خلف مولى جعفر الفتى - ت ٤٢٥ هـ / ١٠٣٣ م بطرطوشة) (٥١) ، وأبو القاسم الدقاق (خلف بن مروان بن أحمد التميمى الوراق - القرطبي - ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) ، وصديقه : ابن الفرضي (٥٢) ، وأبو القاسم العجيبى (سلمة ابن أمية بن وديع) الاشسبيلي - الامام - ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م - ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م) (٥٣) .

أما ابننا غلبون فهما : أبو الطيب عبد المنعم بن عبد الله المقرئ (الأب) الذى روى عنه ابن الحداد سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م (٥٤) ، وسمع منه ابن ميمون : أبو جعفر أحمد (٥٥) ، وأخذ عنه : ابن حيون القرشي : أبو بكر أحمد بن محمد (٥٦) ، وقرأ عليه القرآن أبو القاسم خلف (الطليبرى) : مولى جعفر الفتى ، فى رحلته التى انتهت بعد اقامة دامت فى المشرق لمدة ١٧ عاما (٥٧) ، كما لقيه فى رحلة سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م ابن ذنين (ما سبق ص ١٤٢ ، هـ ٢٨) وأما ابن غلبون (الابن) فهو أبو الطاهر ، وقد لقيه (مع والده) أبو العباس الأقلشئى : أحمد بن قاسم بن عيسى اللخمي ، المقرئ (٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م - ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م) الذى كان ملتزما بتدوين الحديث متمسكا بمقولة : « كل من كتبت عنه حديثا فأنا عبد له » (٥٨) . ولقد أخذ

-
- (٥٠) الصلة ، ترجمة رقم ٦ / ص ٨ ، وانظر محمد كامل حسين ، فى أدب مصر الفاطمية ، ١٩٦٣ ، ص ١٢١ - حيث النص على أنه أخذ العلم عن أبى جعفر النحاس النحوى ، وإن له كتاب التفسير وكتاب الاستقصا فى علوم القرآن .
- (٥١) الصلة ، ترجمة ، رقم ٣٧٣ هـ / ص ١٦٨ .
- (٥٢) الصلة ، ترجمة رقم ٣٨٣ / ص ١٧١ .
- (٥٣) الصلة ، ترجمة رقم ٥١٠ / ص ٢٢٤ - حيث النص على أنه عند منصرفه من المشرق الى الأندلس ، وقع أسيرا بين أيدي الروم ، فلم يستنقذ الا بعد سنتين .
- (٥٤) الصلة ، ترجمة رقم ٦ / ص ٨ .
- (٥٥) الصلة ، رقم ٣٥ / ص ٢٢ .
- (٥٦) الصلة ، ترجمة رقم ٣٣٤ / ص ١٥٠ .
- (٥٧) الصلة ، ترجمة رقم ٣٦٩ / ص ١٦٦ - حيث زار كلا من بغداد والبصرة والكوفة ، وأنه عند عودته الى الأندلس أخذ عنه أبو بكر المصطفى قبل سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م .
- (٥٨) الصلة ، ترجمة رقم ٥٨ / ص ٣٣ .

عنه أبو اسحق ابراهيم بن جعفر الزهرى (الأشيرى ، السرقسطى ،
٣٧١ هـ / ٩٨١ م - ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م) الذى جمع بين دراسة المدونة ،
وحفظ الرأى (٥٩) ، كما لقيه ووالده أبا الطيب ، فى رحلته المشرقية سنة
٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م ، أبو القاسم وديع العجيبى وسلمة بن أمية ، المعروف
بالامام - ت ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م (ص ١٤٧ ، هـ ٥٣) .

وأبو بكر المهندي (أحمد بن محمد بنى اسماعيل) ، له ذكر فى
رحلات الأندلسيين سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، ٣٨١ هـ / ٩٩١ م ، حيث سمع منه
ابن ميمون (ص ١٤١ ، ١٤٢) ، ولقيه صالح بن عمر بن محمد (القرطبى
- ت ربيع الأول ٣٩٧ هـ / نوفمبر ١٠٠٦ م) (٥٩) م ، وكتب عنه ابن بنوش
(ما سبق ، ص ١٤٤ ، هـ ٣٥) ، ولقيه ابن ذنين (ص ١٤٢ ، ١٤٤) ،
وأبو المطرف الصدفى : عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد (الطليطلى ،
٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م - ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م) (٦٠) .

وعن الجوهري (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله - ت رمضان
٣٨٠ هـ / نوفمبر ٩٩٠ م) ، فقد سمع منه ابن ميمون ، وابن قزمان
الطلمنكى ، وابن الجعفرى ، ممن سبق ذكرهم .

وابن ماهان (أبو العلاء) الذى يعتبر من الأعلام حيث يميز بلقب
الامام . وممن لقيه أبو عمرو بن العارض : أحمد بن عبد الله بن شريعة
اللمخى (الاشبيلي : ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م - ١٠ محرم ٣٩٦ هـ / أكتوبر ١٠٠٥ م)
الذى عرف كواحد من فقهاء المذهب المالكى الأجلاء (٦١) ، وابن قزمان
الطلمنكى ، كما روى عنه ابن الرسان (٣١٩ هـ / ٩٣١ م - ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م)
صحيح متسلم (٦٢) .

ولقد درس على : ابن الحافظ (أبو محمد عبد الغنى) ، فى رحلته
سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م ، ابن الميراثى (ص ١٤٣ هـ ٣٥) ، وابن الجعفرى
(ص ١٤٧ ، هـ ٥١) ، وابن سعيد (سعيد بن محمد بن يحيى) (ص ١٤٦)

-
- (٥٩) الصلاة ، ترجمة رقم ٢٠١ / ص ٩٥
 - (٥٩) الصلاة ، ترجمة ٥٣٣ / ص ٢٣٣
 - (٦٠) الصلاة ، ترجمة رقم ٦٨٠ / ص ٣٠٧
 - (٦١) الصلاة ، ترجمة رقم ١٣ / ص ١٠
 - (٦٢) الصلاة ، ترجمة رقم ٤١ / ص ٢٧

وروى عنه ابن المأموني : قاسم بن حجاج بن هشام الرعيني - ت ٤٤٨ هـ /
١٠٥٦ م (٦٣) .

أما الذين درسوا على الكنانى : حمزة بن اسحاق بن محمد (الحافظ) ،
فى مصر فمنهم ابن الأموى (ص ١٤٣ ، هـ ٣٤) وابن الرسان (أعلاه)
الذى حصل منه على الاجازة (٦٤) ، وأبو القاسم بن سلمة الأنصارى
(ص ١٤٦ ، هـ ٤٨) . هذا وإذا كان يفهم من ترجمة ابن زاهر : عمر بن
عبد الله - البونى (ت بعد ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) - ان الكنانى (الحافظ ،
المصرى) كان يحدث فى حضرموت حيث لقيه جماعة من طلاب العلم المغاربة ،
فان اسم الجامع الذى كان يخطب فيه وهو جامع ابن لهيعة - أحد أقطاب
المدرسة المصرية الأولى فى الحديث والتاريخ - يعنى أن اللقاء كان فى
مصر (٦٥) .

وهكذا يتوالى بقية علماء مصر - على طول الصلة - من ابن البنا ،
وابن التمار ، وابن النحاس ، وابن الدباغ ، والحسن بن شعبان ، وابنى
المنير : أحمد بن الحسن (الأب) ، وولده : عبد الوهاب (٦٦) ، وبضمنهم
مشاهير علماء الاسكندرية كأبى القاسم العلاف ، والقاضى أبى على بن سكره ،
ويتوالى عليهم طلاب الأندلس ، من : ابن افرانك القرطبى ، وابن الفرضى ،
وابن ذنين ، والقضاعى ، وابن الصيرفى ، وابن سلمة الأنصارى ، وأبو القاسم
الأنصارى ، والقنازعى ، وابن سعيد العبدري (الطرطوشى) (٦٧) ، وأبى
العلاء القشبرى - ت ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م (٦٧) .

مدرسة القيروان وعلمائها :

تعتبر مدرسة القيروان القاعدة الثقافية الحقيقية لبلاد المغرب
والصحراء ، حيث علوم الدين من القرآن والسنة النبوية ، ومذاهب الفقهاء

-
- (٦٣) الصلة ، ترجمة رقم ١٠١٣ / ص ٤٦١ .
 - (٦٤) الصلة ، ترجمة رقم ٤١ / ص ٢٧ .
 - (٦٥) أنظر الصلة ، ترجمة رقم ٨٥٤ / ص ٣٩٠ - حيث طلبه العلم المغاربة ، هم :
أبو الحسن القابسى ، وأبو موسى عيسى بن سعادة ، وأبو محمد الأصبلى . أما موضوع الحديث
فهو : الحذر من فراسة المؤمن (عن سفيان الثورى) .
 - (٦٦) الصلة ، ترجمة رقم ٧٨٣ / ص ٣٩٨ .
 - (٦٧) الصلة ، ترجمة رقم ٥٢٨ / ص ٣٢ - حيث القاضى ابن سكره بالاسكندرية .
 - (٦٧) الصلة ، ترجمة رقم ١٠٢٩ / ص ٤٦٨ - حيث أبو القاسم العلاف بالاسكندرية .

على اختلاف مشاربهم ، من سنة وشيعة وخوارج ، وحيث الدعوة الى التمسك بأهداب الاسلام الأصولية ، من الأمر بالمعروف ، والدعوة الى الجهاد والرباط فى الثغور - وهى الأمور التى كانت لها تأثيراتها جنوبا حتى الصحراء والسودان ، وشمالا حتى الأندلس وحدود الممالك المسيحية .

وعلماء القيروان الذين لهم وقتئذ ذكر ، هم : زياد بن يونس ، وابن السرور ، وابن أبى عقبة التميمي ، وأبو بكر هبة الله بن محمد ، وابن عزرة ، وابن الصقل (أبو القاسم عبد الرحمن البكرى) ، وابن دحمون (أبو جعفر أحمد) ، وابن أبى زيد (أبو محمد) ، والقابسى (أبو الحسن) ، وآخر من يهمننا منهم : أبو عمران الفاسي .

ومن قدماء هذه المدرسة ، فى فترتنا السابقة على قيام المرابطين ، يذكر زياد بن يونس الذى روى عنه فى رحلته العلمية ، الذهبي الأموي : أبو بكر أحمد بن عبد الله بن محمد (القرطبي) ، صاحب اختصار تفسير الطبرى (٦٨) ، ومعاصره محمد بن مسرور العسال ، الذى لقيه فى رحلته الى المشرق سنة ٣٣٨ هـ / ٩٥٠ م ، ابن حجاج : أبو الوليد هاشم بن يحيى (البطلينوسى - ت ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) (٦٩) ، وابن أبى عقبة التميمي : أبو بكر هبة الله بن محمد ، الذى لقيه القنازعى فى رحلته سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، وسمع عليه المدونة (٧٠) . وبعد هؤلاء يأتى ابن عزرة : أبو بكر ، الذى سمع عليه ابن ميمون الأموي فى رحلته سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م (٧١) ، كما أخذ عنه ابن الطرابلسي : أبو القاسم حاتم بن محمد التميمي (ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م) فى رحلته المشرقية سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ، التى لقي فيها ابن سعيد السجزي ، وحمل عنه صحيح مسلم (٧٢) ، ومعاصره ابن الصقل : أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد البكرى الذى سمع منه ابن ميمون : أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبيدة الأموي (الطليطلى : ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م -

(٦٨) الصلة ، ترجمة رقم ٢٩ / ص ١٩ - حيث « المدهبي » .

(٦٩) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ص ٣٩ ، ترجمة رقم ٥٣٩ ، وقارن ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٥٠٨ / ص ٢٢٣ - ترجمة سلمة بن سعيد بن سلمة (الأنصاري) - توفي فى ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، الذى سمع منه وأجاز له فى « المشرق » مع اختلاف اللاب : ابن مسرور « الدباع » .

(٧٠) الصلة ، ترجمة رقم ٦٩١ / ص ٣١٦ .

(٧١) الصلة ، ترجمة رقم ٣٥ / ص ٢١ .

(٧٢) الصلة ، ترجمة رقم ٣٥١ / ص ١٥٨ .

ت ٤٠٠ (شعبان) مارس ١٠١٠ م) فى رحلته سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م
(رقم ٣٥ / ص ٢١) • كما لقيه بنفس السنة (٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) ، ابن
سعيد الخزرجى : أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسن (ت ٤٤٦ هـ /
١٠٥٤) (٧٣) •

أما كبار الأساتذة من الشيوخ فيبدأون بابن دحمون : أبو جعفر أحمد
ابن ثابت الذى أخذ عنه ابن محمد الأموى : أبو عبد الله محمد بن قاسم فى
رحلته سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م (رقم ١٠٣٧ / ص ٤٧٢) ، وسمع منه ابن
غلبون الخولانى : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن (القرطبي) سنة
٣٧١ هـ / ٩٨١ م التالية (٧٤) ، كما لقيه كل من ابن قزمان الطلمنكى ،
وابن افرانك فى رحلتهما سنة ٣٨١ هـ / ٩٩٠ م ، وكذلك ابن ذنين الصدفى
وفى نفس السنة (٣٨١ هـ / ٩٩١ م) (٧٥) ، وأخذ عنه ابن الفرضى فى
السنة التالية (٣٨٢ هـ / ٩٩١ م) ، وابن بكر الأنصارى الذى كان حجة
فى علوم الحديث ، فى رحلة سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٥ م (٧٦) • وأخيرا التقى به
ابن سعيد الصدفى : أبو المطرف عبد الرحمن (ت فى ذى القعدة ٤٠٣ هـ /
مايو ١٠١٢ م) (ص ١٤٨ هـ ٦٠) •

ويأتى الدواودى : أحمد بن نصر نظيرا فى الأستاذية لابن دحمون ،
حيث سمع منه ابن أبى الربيع (الالبيرى) : أبو العباس أحمد بن أيوب
(ت جمادى الثانى ٤٣٢ هـ / فبراير ١٠٤١) الذى عرف بأنه أديب شاعر
وسنى ورع (رقم ٩٨ / ص ٥٢) ، والسبتى : أحمد بن محمد بن سعيد
القيسى (الاشبيللى : ت ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م) ، فى رحلته المشرقية سنة
٣٧٠ هـ / ٩٨١ م (٧٧) • وأخذ عنه ابن الفرضى : أبو الوليد عبد الله
(ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م) ، فى رحلته سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م ، حيث طلب
الحديث وعنى بعلومه (ص ١٤٣ هـ ٣٣) ، كما أخذ عنه ابن جرج : أبوالمطرف
عبد الرحمن بن سعيد (ت ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م) فى رحلته الى المشرق سنة
٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م (٧٨) • وعنه روى ابن فطيس: أبو الحسن كامل بن أحمد بن

-
- (٧٣) الصلة ، ترجمة رقم ٧٠٧ / ص ٣٢٦ •
 - (٧٤) الصلة ، ترجمة رقم ٥٦٨ / ص ٢٥٣ •
 - (٧٥) الصلة ، ترجمة رقم ٥٨١ / ص ٢٥٩ •
 - (٧٦) الصلة ، ترجمة رقم ٦٠١ / ص ٢٧١ •
 - (٧٧) الصلة ، ترجمة رقم ٩١ / ص ٤٩ •
 - (٧٨) الصلة ، الترجمة رقم ٧٠٣ / ص ٣٢٥ •

يوسف القادسي (ت ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م) ، كما أخذ عنه أيضا البوني :
أبو عبد الملك مروان بن علي الأسدي القطان (القرطبي - ت قبل سنة ٤٤٠ هـ /
١٠٤٨ م) وصحبه لمدة ٥ (خمسة) أعوام ، حتى صار مرجعا في الفقه
والحديث ، فكان تأليفه للمختصر في تفسير الموطأ من الكتب الكثيرة التداول.
بين أيدي الناس (٧٩) .

أما أشهر علماء القيروان في تلك الحقبة ، فهما ابن أبي زيد.
(أبو محمد : عبد الله) (٧٩ م) ، والقابسي : أبو الحسن علي بن أبي بكر
محمد بن خلف - الكفيف (ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م) ، وهما نظيران ، كأنهما
فرسا رهان . وإذا كنا عددنا من تلاميذ ابن أبي زيد ، في صلة ابن بشكوال
حوالي ٥٠ (خمسين) رجلا من الأندلسيين فان تلاميذ القابسي الكفيف ،
منهم بلغوا حوالي ٣٥ (خمسة وثلاثين) رجلا . أما عن الفترة التي قضياها
في التعليم ، فبينما تستغرق أخبار ابن أبي زيد الفترة من ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م
الى ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ، أي حوالي ٣٥ (خمس وثلاثين) سنة ، تستغرق
أخبار القابسي الفترة من سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م الى ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م أي
حوالي ٣٣ (ثلاث وثلاثين) سنة ، وهي نفس الفترة ، فكان طول العمر
الذي وهبها الله إياه كان من أسباب بلوغهما الأمل في تحصيل العلم
والمعرفة - كما يرى الماوردي (٨٠) .

فمن أوائل تلاميذ ابن أبي زيد الذين سمعوا منه في سنة ٣٦٧ هـ /
٩٧٧ م : القنازعي (ت ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م) الذي حصل على إجازته له
أيضا ، وابن سعيد الحير : خلف بن عيسى (٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م - ٤٢١ هـ /
١٠٣٠ م) ، وذلك في رحلته العلمية الى المشرق قبل سنة ٣٧٠ هـ /
٩٨٠ م (٨١) ، وابن غلبون الحولاني : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن
(٣٣٠ هـ / ٩٤١ م - شوال ٤٠٣ هـ / ١٠١٢) الذي سمع منه في رحلة

(٧٩) الصلة ، ترجمة رقم ١٢٣٥ / ص ٥٥٧ .

(٧٩ م) أنظر مدارك الفاضل عياض ، ط الرباط ، ج ١ ص ١١ وهـ ٥ - حيث النص
على وفاة ابن أبي زيد في سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م (٩) . وهو الأمر الذي قد لا يتفق مع
ما يأتي عنه من معلومات صاحب الصلة ، مما يشكك في معلومات الديباج الذي يرجع إليه
المحقق ، حيث الشك في الاسم (« عبد الرحمن » النفزي بدلا من عبد الله) .

(٨٠) أدب الدنيا والدين ، فصل العلم ، ص ٤٥ .

(٨١) الصلة ، ترجمة رقم ٣٧٢ / ص ١٦٧ .

٣٧١ هـ / ٩٧٢ م (٨٢) ، وابن محمد الأموى : أبو عبد الله محمد بن قاسم (الجالطى - القرطبى - ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م) الذى أخذ عنه فى رحلة سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨١ م ، كما أن ابن أبى زيد - نفسه - أخذ عنه (أى الجالطى) بدوره كتاب رد الزبيدى على ابن مسرة (المتكلم ، صاحب القول بالاستطاعة أى حرية الإرادة (٨٣) ، ثم السبتي : أحمد بن محمد بن سعيد القيسى (الاشبيلي) ، فى رحلته سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨١ م (٨٤) .

أما عن تلاميذ ابن أبى زيد فى العقد التاسع ، فمنهم ، ابن سعيد (الاشبيلي) : أبو عمر أحمد بن سعدى بن محمد (ت بعد ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م) فى رحلته التى قام بها فى حدود سنة ٣٨٠ هـ / ١٠٣٣ (٨٥) ، وابن سعيد الخزرجى (ت ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م) ، وابن افرانك (الجذامى) الذى أخذ عنه فى رحلة سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م ، وابن ذنين الصدفى : أبو محمد عبد الله (الطليطلى - ت ٤٢٤ هـ / ١٠٣٣ م) الذى سمع منه فى نفس العام (٣٨١ هـ / ٩٩١ م) وحصل على إجازته له (ص ١٤٢ ، هـ ٢٨) ، وكذلك صالح بن عمر بن محمد (القرطبى - ت فى نهاية ربيع الأول ٣٩٧ هـ / ٢٤ يناير ١٠٠٦ م) الذى لقيه فى تلك السنة (رقم ٥٣٣ / ص ٢٣٣) ، وكذلك ابن بنوش (ص ١٤٤ ، هـ ٣٨) ، وابن الفرضى الذى أخذ عنه (ص ١٤٤ ، ١٤٧ هـ ، ٥٢) ، وابن وديع العجيبى (ت ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م) الذى لقيه سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٣ م (ص ١٤٧ ، هـ ٥٣) ، وابن بكر الأنصارى : أبو محمد عبد الله (القرمونى - ت ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م) الذى أخذ عنه فى رحلة سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م (ترجمة رقم ٦٠٢ / ص ٢٧١) .

ومن أسف فان بقية تلاميذ أبى محمد بن أبى زيد ، وهم كثر ، لم تكن لهم الحاسة التاريخية فلم يسجلوا تاريخ رحلاتهم العلمية المشرقية ، ولذلك نكتفى بتواريخ وفياتهم التى نتخذها قاعدة للترتيب ، عندما تيسر . فأبو المطرف عبد الرحمن الصدفى (ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م) لا يحدد تاريخ رحلته (ص ١٤٨ ، هـ ٦٠) ، وابن سلمة الأنصارى (ت أول ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م) الذى أقام بالمشرق حوالى ٢٣ (ثلاث وعشرين) سنة ، لقى ابن أبى زيد ،

(٨٢) الصلة ، ترجمة رقم ٥٦٨ / ص ٢٥٣ .

(٨٣) الصلة ، ترجمة رقم ١٠٣٧ / ص ٤٧٢ .

(٨٤) الصلة ، ترجمة رقم ٩١ / ص ٤٩ .

(٨٥) الصلة ، ترجمة رقم ٦٥ / ص ٣٦ .

دون أن يحدد تاريخ ذلك (رقم ٥٠٨/ص ٢٢٣) وكذلك الأمر بالنسبة لأبي القاسم خلف (المقرئ) الذي سمع منه ، والذي طالت اقامته بالمشرق لمدة ١٧ (سبعة عشر عاما) لا تعرف عنها الا أنه كان يجلس للتدريس سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م (رقم ٣٦٩/ص ١٦٦) . ويقال مثل ذلك عن الكنانى : أبو الحكم منذر بن منذر (ت ٤٢٣ هـ / ١٠٣٢ م) الذي لقيه وأخذ عنه (رقم ١٢٥٩/ص ٥٦٥) ، وابن الجعفرى : خلف مولى جعفر الفتي ، الذي سمع منه (ص ١٤٧ ، هـ ٥١) ، وابن قزمان (٣٤٠ هـ / ٩٥١ م - ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م) الذي لقيه (ص ١٤٢ ، ١٤٨) ، وابن دنيل ادموى (القزوينى - ت جمادى الأولى ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م) الذي لقيه (رقم ٩٩/ص ٥٣) والزهرى الأشيرى (السرقسطى ، ٣٧١ هـ / ٩٨١ م - ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م) الذي اخضر مدونة ابن أبي زيد (رقم ٢٠١/ص ٩٥) ، والوراق القزوينى (القرطبي ، ت فى حدود ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، وعمره ٨٦ سنة) الذى روى قديما ، وسمع عليه (رقم ١٧٨٣/ص ١٧١) ، وابن المأمون : أبو محمد قاسم بن حجاج (ت ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م) الذي روى عنه (رقم ١٠١٣/ص ٤٦١) .

أما عن أقدم تلاميذ القابسى (أبو الحسن : ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م) فهو ابن محمد الأموى : أبو عبد الله محمد بن قاسم (الجالطى - ت فى شوال ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م) الذي أخذ عنه فى رحلة سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م (رقم ١٠٣٧/ص ٤٧٢) . ويأتى بعده فى رحلة سنة ٣٧٣ هـ ، ابن مؤمن الحضرمى : أبو القاسم اسماعيل بن محمد (الاشبيلى ، ت فى صفر ٤٢٦ هـ / ٥ - ١٠٣٤ م) الذي أخذ عنه (٨٦) . وفى رحلة سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩١ م لقيه ابن سعيد الحزرجى : أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسن (المقرئ ، القرطبي ، ت ٢٦ محرم ٤٤٦ هـ / ١٤ مايو ١٠٥٤ م) (رقم ٧٠٧/ص ٣٢٦) . وفى سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٥ م) ، أخذ عنه ابن بكر الأنصارى : أبو محمد عبد الله (ت ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م) (رقم ٦٠١/ص ٢٧١) . وتنقطع تواريخ الرحلات فلا نجد لها ذكرا الا فى سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م ، حينما رحل ابن سعيد : سعيد بن أحمد بن يحيى (ت ٢٤ ربيع الأول ٤٢٨ هـ / ١٧ يناير ١٠٣٧ م) الى المشرق فحج ، وسمع القابسى فى طريق العودة بالقيروان (٨٧) . وكانت رحلة ابن جرج : عبد الرحمن بن سعيد (٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م - ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م) التى لقيه فيها سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م (رقم ٧٠٣/ص ٣٢٥) .

(٨٦) الصلة ، ترجمة رقم ٢٣٤ / ص ١٠٨ .

(٨٧) الصلة ، ترجمة رقم ٤٩٣ / ٢١٨ .

أما آخر تلاميذ أبي الحسن القابسي ، فهو ابن الطرابلسي : أبو القاسم حاتم بن محمد بن عبد الرحمن بن حاتم التميمي (ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م) الذي قام برحلته العلمية المشرقية سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ، ولقي القابسي ، وبقي عنده ، ولازمه في السماع والرأى ، الى وفاته في السنة التالية (٨٨) .

وبذلك لا يتبقى من زيارات طلاب الأندلس العلمية للقابسي الا تلك التي لا تحمل تاريخا محددا ، والتي نرتبها حسبما تتييسر سنوات الوفاة .
فالقيرى : أبو بكر محمد بن وهب الأزدي ، (القرطبي - ت ١٣ جمادى الأولى سنة ٤٠٦ هـ / ٣٠ أكتوبر ١٠١٥ م) أخذ من القابسي في رحلته المشرقية ، وتلقاه عنده (وعند أبي زيد) ، وطالع عندهما علوما من المعاني والكلام . وعندما رجع الى الأندلس أظهر شيئا من ذلك الكلام ، في : نبوءة النساء ، ونحو هذه المسائل التي لا يعرفها العموم ، الأمر الذي أدى الى التشنيع عليه (٨٨ م) . والكناني (ت ٤٢٣ هـ / ١٠٣٢ م) لقيه هو وابن أبي زيد أيضا (أعلاه ص ١٥٤) ، واللخمي المليلشي : حجاج بن محمد (ت ٤٢٩ هـ / ٨ - ١٠٣٧ م) الذي روى عنه (رقم ٣٣٩ / ص ١٥٣) ، وكذلك ابن فطيس : أبو الحسن كامل (ت ٤٣٠ هـ / ٩ - ١٠٣٨ م) (رقم ١٠٢٠ / ص ٤٦٥) كما لقيه ابن أبي الربيع الألبيري : أبو العباس أحمد (ت ٢٦ جمادى الثاني ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م) (ص ١٥١ هـ ٧٧) ، وابن جرج : عبد الرحمن بن سعيد (ت ربيع الأول ٤٣٩ هـ / أغسطس ١٠٤٧ م) الذي أخذ عنه ، وحفظ ملخصه للمدونة عن ظهر قلب (أعلاه ص ١٥٤) ، والبونى : أبو عبد الملك مروان (ت قبل ٤٤٠ هـ / ١٠٣٨ م) الذي عرف بالعفة والصلاح ، والذي ألف كتابا في شرح الموطأ ، أخذ عن القابسي ، وان كان قد لازم الداودي طوال ٥ (خمس) سنوات (رقم ١٢٣٥ / ص ٥٥٧) ، وابن الصيرفي : أبو عمرو عثمان (ت ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م) ، الذي عرف بتعمقه في علم الحديث سمع هو الآخر منه (رقم ٨٧٣ / ص ٣٩٨) .

هذا ، كما كان لشاعر أفريقية والقيروان الشهير : ابن شرف ، رواية عن الحسن القابسي ، بعد خروجه الى الأندلس عندما اشتدت فتنة العرب الهلالية سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، كما روى عن أبي عمران الفاسي ،

(٨٨) في جمادى الأولى سنة ٤٠٣ هـ / نوفمبر ١٠١٢ م . انظر الصلة ، ترجمة رقم

٣٥١ / ص ١٥٨ .

(٨٨ م) الصلة ، ترجمة رقم ١٠٥٧ / ص ٤٧٩ .

وصحبهما (٨٩) •

وبذلك نكون قد وصلنا الى الهدف من تلك المقدمات الخاصة بالخريطة الثقافية لبلاد المغرب والأندلس ، وتوابعها من مراكز العلم في مصر والمشرق ، مما يعنى : وحدة الفكر الاسلامى ، الأمر الذى يؤدى - بحكم الضرورة - الى أوضاع سياسية وحضارية متناظرة في الجوهر ، وان بدت أحيانا متنافرة شكلا • فلا شك أن روافد الثقافة المشرقية هى التى أدت الى اكتمال الشخصية المغربية في مجالات الثقافة والسياسة والاقتصاد ، الأمر الذى سمح للمغرب باستكمال استقلاله السياسى ، وهو المقدمة الطبيعية للعمل الحضارى المتميز في خصوصيته ، وهو ما سيقع على عاتق المثلثين من أهل الصحراء المرابطين - الواعدين - قدوة أهل جبال مراكش من مصمودة الموحدين ، فيما بعد •

الفصل الثالث

عملية النهضة المرابطية أبو عمران الفاسي وحركة التجديد الثقافية في صحراء الملثمين

يظهر لنا مما سبق أن القيروان كانت في مطلع القرن الـ ٥ هـ / ١١ م، العاصمة الثقافية للمغرب والأندلس، استنادا إلى تاريخها العلمي كمدرسة للمالكية بالامتياز، وإلى موقف بلادها السياسي كجزء من الدولة الفاطمية التي بلغت ذروة قوتها وقتئذ في المشرق، بينما ظهرت فاس التي كانت قد فقدت سندها السياسي في المغرب مع انهيار الأسرة الأموية في قرطبة، يظهر التابع للقيروان على المستوى الثقافي بخاصة.

ويذكر من علماء فاس قبل ذلك الوقت، أبو ميمونة: دراس بن اسماعيل (ت ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م)، والصدني، وهما معاصران لأبي العباس تميم بن محمد القيرواني، وأبي الحسن زياد بن عبد الرحمن النولوي القيرواني^(١). وعلاقة ابن ميمونة (الفاسي) الذي عرف بأنه فقيه على مذهب مالك، كانت وثيقة بالأندلس في تلك الفترة من أوائل القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م، على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، حيث كان طالبا للعلم هناك، ومجاهدا بالشعر. وذلك قبل أن يقوم برحلته للحج والدراسة، وهي التي سمع فيها بالاسكندرية كتاب ابن المواز، على الفقيه: علي بن عبد الله بن مطر، وهو الكتاب الذي حدث به في القيروان فيما بعد، وسمعه منه أبو الحسن القابسي^(٢).

أما عن أشهر علماء العصر من القيروانيين الفاسيين أصلا، فهو شيخ المالكية أبو عمران موسى الفاسي (٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م - حوالي ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م). وينتسب أبو عمران إلى قبيلة غفجومة الزناتية، ولذلك كان يحمل إلى جانب اسمه العربي «موسى» اسما بربريا هو «يحيى»، أما

(١) ابن شكوال، الصلة، ترجمة رقم ٥٦٠ / ص ٢٤٦.

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٢٥، ترجمة رقم ٤٣٢.

اسم أبيه فهو : عيسى بن حاج الغفجومي (الزناتي) (٣) .

الرحلة في طلب العلم :

والهم في سيرة أبي عمران الفاسي انه بدأ في طلب العلم بالاندلس -
التي كانت فاس تقع وقتئذ في دائرة نفوذها السياسي - حيث زامل واحدا
من اطلاب اللامعين ، وهو ابو عمر بن عبد البر ، الذي عرفه بمجالس كبار
مشايخ قرطبة ، فدرسوا سويا على : أبي محمد الأصبلي ، وأبي عثمان
سعيد بن نصر ، وعبد الوارث بن سفيان ، وأبي الفضل أحمد بن قاسم
اليزاز . واقتداء بطلبة العلم الأندلسيين ، سار أبو عمران الفاسي على
نفس النهج وقام بالرحلة الى المشرق بدأ بالمرور بالقيروان ومصر ، قبل أداء
فريضة الحج وشهود الموسم ، والأخذ عن المشايخ هناك ، بعد موسم سنة
٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م ، أي وأبو عمران في الثانية والثلاثين من عمره . وفي
مكة أخذ قراءة القرآن عرضا (٤) على الشيخ : أبي الحسين علي بن عمر

(٣) أنظر الصلة ، ترجمة أبي عمران الفاسي ، رقم ١٢٢٣ / ص ٥٥٢ - حيث الجد الثاني
أبو حاج الغفجومي - التي صححت الى الغفجومي . ونحن نميل الى ترجيح الاسم القديم للقبيلة
البربرية البترية التي كان لها شأن في مقاومة الفتح الاسلامي ، وهي « ورفجومة » (ج ١
ص ٣٣٧ وما بعدها) . وقارن ترجمة رقم ٨٥٤ / ص ٣٩٠ - حيث أبو حفص عمر بن عبد الله
ابن زاهر (البوني : الأندلسي أصلا) ، وحيث يرد الاسم على لسان أبي عمران نفسه :
« أنا أبو عمران موسى بن عيسى بن حاج » التي رجحناها على « أبو حاج » ، الفاسي (بدلا من
الغفجومي : الغفجومي) . وأنظر ترتيب المدارك للقاضي عياض (الذي كدنا نفتقد ذكره هنا) ،
ط ٠ بيروت ، ج ٤ ص ٧٠٢ - حيث يتضح ان مدارك القاضي عياض هي الأصل الذي نهل منه
الأندلسيون الذين تميزوا على كل حال بحسن العروض وسلامة المنهج والحرص على الاستقصاء ،
الى جانب العناية بالتوقيت .

(٤) والحقيقة أن قراءة القرآن ، بل وحفظه ودراسته كانت المقدمة الطبيعية لدراسة الفقه،
وخاصة فقه المالكية المبني على الحديث ، وتراث أبناء الصحابة من التابعين ، أنظر الصلة ،
ترجمة رقم ٦٧٨ / ص ٣١١ - عن ابن الجزار : أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الملك بن خالد
(الهمداني) الوهراني - ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م - ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م ، الذي وصل في رحلته
المشرقية الى مرو حيث وجد الشيخ الترابي يقرأ المصحف فيعلق على ذلك بقوله : وعند
أصحاب الحديث أن من لا يستظهر القرآن عن ظهر قلب فهو ناقص . اما عن صاحب الترجمة
فهو عند ابن بشكوال امام في الحديث . وقارن ترجمة رقم ٩٠ / ص ٤٧ - عن ابن قارلمان ،
حيث النص على انه عاد من رحلته المشرقية بعلم كثير ، وأنه كان أحد الأئمة في علم القرآن
العظيم : قراءاته واعرابه وأحكامه وأنه جمع كتب كثيرة النفع على مذاهب أهل السنة
وأنه كان حافظا للسنة على هدي واستقامة ، وأنظر عبد الله كنون ، أبو عمران الفاسي ، مجلة
الثقافة المغربية ، يناير - فبراير ١٩٧٠ ، ص ٥٠ - حيث القول ان أبا عمران ، بدأ بالتعليم =

الحمامي المقرئ وغيره ، قبل أن يتوجه الى بغداد في نفس السنة (٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م) حيث جلس للاقراء الى جانب حضوره دروس القاضي أبي بكر بن الطيب (٥) .

ومن بغداد عاد أبو عمران الفاسي الى مكة حيث درس الحديث في مجلس أبي ذر الهروي ، ولو أن الأمر انتهى بخصوصة شديدة بين الطالب والأستاذ ، بسبب حرص أبي عمران على معرفة خبايا مكتبة أبي ذر العلمية ، ولو في غيبة الأستاذ ودون اذنه ، الأمر الذي أثار غضب هذا الأخير وسخطه ، وأوقع أبا عمران في الحرج فيما بعد عندما كان يروي عن أبي ذر فلا يشير اليه الا كناية (٦) .

العودة الى المغرب :

والهم أن أبا عمران انصرف من المشرق بعد اقامة استغرقت عدة سنوات ، حضر فيها أكثر من موسم وحج عدة حجج ، وعندما وصل القيروان أقام فيها للتدريس (الاقراء) مدة لم تحدد هي الأخرى في ترجمة صلة

= في القيروان (بدلا من فاس) ، وأنه تفتته هناك على « القابسي » وسمع من أبي بكر الزويل . وعلى بن أحمد اللواتي ، قبل ذهابه الى قرطبة ، اعتمادا على كتاب بيوتات فاس المجهول المؤلف - وهو ما لا تسمح به المصادر المتمددة .

(٥) الصلة ، رقم ٢٢٣ / ص ٥٥٢ ، وأنظر ابن القاضي ، جذوة الاذنباس ، القسم الأول ١ - ص ترجمة رقم ٣٦٤ / ص ٣٤٤ ، وقارن عبد الله كنون ، أبو عمران الفاسي ، عدد يناير - فبراير ١٩٧٠ ، ص ٥٠ - حيث انه دخل العراق فسمع من أبي الفتح بن أبي الفوارس ، وأبي الحسن بن إبراهيم المستمل ، وأبي أحمد الفرضي ، كما انه درس الأصول على القاضي أبي بكر الباقلاني ، والقاضي عبد الوهاب : اعلام مذهب مالك من البغدادية ، وذلك نقلا عن كتاب بيوتات فاس المجهول المؤلف - الذي لا تعرف أصلا له .

(٦) أنظر ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ١٢٢٣ / ص ٣ - ٥٥٢ - حيث يروي من حرص أبي عمران الفاسي على الدراسة ونسخ الكتب ما أوقعه في غضب أبي ذر ، وذلك عندما سمح لنفسه بأخذ مفاتيح خزانة كتب أبي ذر من حارسه المحرج ، أثناء وجود الشيخ في وقت راحة له في موطنه بجبل السراة ، لكي ينسخ ما شاء له من كتبه . الأمر الذي انزعج له الشيخ ، عندما بلغه الخبر مراسلة من حارس الخزانة نفسه فلقد اضطر الشيخ الى العودة مسرعا ، ليستعيد مفاتيح خزانته ، وهو يقسم أنه لن يعلم أبا عمران الحديث بعدها ، أبدا . وهكذا كان أبو عمران ، وهو في مجالسه ، بالقيروان اذا حدث عن أبي ذر يروي ويقول : « أخبرني أبو عسي » (حسيما كان يناديه العرب) .

وقارن مدارك القاضي عباس ، ط . بروت ، ج ٤ ، ص ٧٠٣ - حيث النص على انه طلب الكتب من جارة أبي ذر بل وأنه أجبرها على ذلك فقامت قيامة أبي ذر .

ابن بشكوال . والواضح أن الإقامة في المشرق لم تزيد على خمس سنوات ، وذلك أن أبا عمران كان يقوم بالتدريس في القيروان سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م ، حيث أخذ عنه وقتئذ أبو القاسم حاتم بن محمد الذي كان ملازماً لأبي الحسن القابسي حتى وفاته في جمادى الأولى سنة ٤٠٣ هـ / نوفمبر ١٠١٢ م ، والذي عاد بعد ذلك من مصر مسرعاً إلى القيروان في سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م ، لمناظرة كتبه وانتساخ سماعاته من أصول أبي الحسن القابسي (٧) .

وبعد إقامته تلك بالقيروان ، سار أبو عمران إلى مسقط رأسه فاس ، وموطن عشيرته من آل أبي حاج (الغفجوميين الزناتية) ، ليؤدي حقوقهم عليه في التعليم والتضلع في أمور الدين ، وإن كنا لا نعرف تاريخاً لتلك النقلة ، ولا لمدة بقائه في فاس ، قبل الهجرة النهائية إلى القيروان . والواضح أنه وطد مركزه في فاس ، ليس كفقيه راسخ في المذهب المالكي فقط ، بل وكأمر بالمعروف ناه عن المنكر ، وهو الشعار الذي بدأ ينتشر بشكل واسع في المشرق الإسلامي اعتباراً من مطلع القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، مع انتشار جماعات اخوان الطرق الصوفية ، الأمر الذي بلغ الذروة في أواخر ذلك القرن ، الأمر الذي كان له أثره في فكر الغزالي (في الاحياء ، وفي دعوة محمد بن تومرت الموحدية (في العقيدة والمرشدة) . وهكذا يكون سبب خروج أبي عمران من مسقط رأسه ليستوطن القيروان ، أنه كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، الأمر الذي أزعج حكومة المدينة المخراوية (الزناتية) ، فكان خروجه من فاس على أيدي « الطغاة » من العلماء العاملين عليها لحساب تلك الحكومة (٨) .

(٧) انظر الصلة ، ترجمة أبي عمران ، رقم ١٢٢٣ / ص ٥٥٢ ، وترجمة أبي القاسم حاتم ، رقم ٣٥١ / ص ١٥٨ ، حيث رحلته سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ، ومجالسته لأبي عمران سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م .

(٨) انظر عبد الله كنون ، أبو عمران الفاسي ، مجلة الثقافة المغربية ، يناير - فبراير ١٩٧٠ ، ص ٥٢ ، ٥٣ - حيث النص على أن مفهوم النهي عن المنكر الذي كان يأخذ به أبو عمران عن أبي الحسن القابسي ، يعني النهي عن اجتماع أهل الزهد والعبادة الذين كانوا يجمعون ما بين قراءة القرآن ، وحكاية قصص الصالحين ، وإنشاد الشعر ، وذلك حسب مقالة صاحب كتاب بيوتات فاس المجهولة المؤلف ، الأمر الذي يعني موقف دولة زناته المغربية المعادي وقتئذ ، لحركة تجمعات الاخوان لغير العبادة والجهاد . وعن كتاب ذكر بعض مشاهير أعيان فاس في القديم ، المؤلف مجهول ، انظر أحمد مختار العبادي ، الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ، مجلة آداب الإسكندرية ٦٧/٢١ - ١٩٦٨ - حيث النص على أنه نشر عبد القادر زمامه في مجلة البحث العلمي ، الرباط ، عدد ٣ - ١٩٦٤ ، وعدد ٤ ، ٥ - ١٩٦٥ ، وفيه أن أبا عمران هو الذي وضع المخطوط الأولى مع الزعيم البربري يحيى بن ابراهيم لقيام دولة صحراوية تقضي على الغرض .

إمامته في الفقه المالكي ومعرفته بعلم الكلام :

وفي القيروان ، عاصمة العلوم والثقافة في بلاد أفريقية والمغرب أكد «أبو عمران الفاسي» إمامته في فقه المالكية ، وأستاذيته كواحد من كبار «العلماء» ، الأمر الذي حول داره إلى مدرسة لاستقبال طلبة العلم ، وكانت «المدارس التي ظهرت في نيسابور وقتئذ لم تعرف بعد في بغداد والمشرق العربي» ، فضلا عن المغرب . وهكذا عرف عن أبي عمران الفاسي (أصلا) القيرواني (مسكنا) انه كان من أحفظ الناس وأعلمهم ، إذ جمع حفظ «المذهب المالكي» ، وحفظ حديث النبي وكذلك المعرفة بمعانيه ، إلى جانب «المعرفة بالرجال» : الثعلب منيهم والمجرحين . ولما كان حفظ القرآن هو الأساس في علم الحديث ، فلم يعرف عن أبي عمران حفظ القرآن فقط ، بل «وخبرته به وبقراءته السبعة أيضا» (٩) .

وعلى عكس ما هو معروف من أن علماء السنة المالكية هم أصحاب - حديث لا يعرفون الرأي أو الاستحسان (كالحنفية) أو الاستنباط أو «الاستصلاح» (كالشافعية)، فإن رحلات علماء الأندلس والمغرب إلى علماء المشرق «والأخذ عنهم» ، وهم الذين عرفوا الكلام بل والفلسفة ، فتحت أمامهم نوافذ العلوم العقلية على مصاريحها . وهكذا قيل إن أبا عمران عندما سار إلى بغداد (٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م) التقى بالقاضي أبي بكر الباقلاني (٩ م) والقاضي عبد الوهاب ، من أعلام فقهاء المالكية ببغداد ، وحضر مجالس المناظرة التي كان يقيمها أهل الكلام من المالكية والشافعية ، وكانت أشهرها مجالس أبي بكر الباقلاني . وفيها ظهر عدم خبرة أبي عمران بذلك النوع من الجدل العقلاني الذي يحسنه المتكلمون . فهو عندما سئل من قبل بعض الشافعية عن مسألة في الاستحسان ، أجاب بجواب صحيح - كما تقول الرواية - ولكنه مجرد من الدليل ، الأمر الذي دعا أحد شباب المشايخ البغداديين إلى الدفاع عنه بالتماس العذر بعدم الخبرة وتطبيب خاطره بالتعبير له عن الاحترام ، على كل حال (١٠) .

(٩) الصلة ، ترجمة ٧٢٢٣ / ص ٥٥٢ - ٥٥٣ .

(٩ م) أنظر مدارك القاضي عياض ، ط . بيروت ، ج ٤ ، ص ٧٠٣ - حيث النص على أنه

درس الأصول على أبي بكر الباقلاني ، إلى جانب سماعه من أبي ذر بمكة .

(١٠) أنظر عبد الله كنون ، أبو عمران الفاسي ، مجلة الثقافة المغربية ، يناير - فبراير ١٩٧٠ ، ص ٥٣ - ٥٤ - حيث النص - نقلا عن مدارك القاضي عياض - على أن أبا عمران ، كان إماما في كل علم ، نافذا في علم الأصول (موضوع المتكلمين بالامتياز) . وأنه لما دخل بغداد توقع الناس حضوره مجلس القاضي أبي بكر الباقلاني حيث المناظرات الحارة ، وهناك تمت المواجهة بين أبي عمران وبين بعض مشايخ الشافعية من المتكلمين ، الأمر الذي دعا =

وهكذا كانت تجربة بغداد العلمية مفيدة لأبي عمران الفاسي على المستويين السني النقل والاجتهاد العقلي ، الأمر الذي دعا القاضي عياض ينص على إمامته في الحديث وفي علم الأصول (الاعتقادات) جميعاً . وعن هذا الطريق كان من الطبيعي أن يثبت أبو عمران الفاسي أستاذيته العلمية في القيروان ، وأن يوطد مركزه كرجل دين معتدل له شعبيته التي تمكنه من تهدئة فتن العامة في العاصمة الأفريقية ، بفضل تمكنه من حفظ القرآن وتبحره في علوم الحديث ، الأمر الذي هيا له التفوق في فنون علم الفتوى ودروبه ، مما سيعرف بعلم الحيل - بمعنى إيجاد المخارج الشرعية لبعض المشتبه فيه من الأحداث والنوازل . والمثل لذلك تلك الحيلة القانونية التي خرج بفضلها من مأزق فتنة عامة ، بسبب نداء رجل من العامة ، في أسواق القيروان : « أنا خير البرية » فكانه أفضل من أولياء الله وأنبيائه ، الأمر الذي كان يشكك في خروجه عن الإسلام (١١) .

وبذلك يكون أبو عمران الفاسي قد جمع بين الاتجاه السني المحافظ (المالكي) والعقلاني المجتهد (المعتزلي) ، وهو الاتجاه الذي بدأ يسود في المشرق الإسلامي وبغداد في ذلك الوقت المبكر من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، والذي يعتبر قاضي بغداد الماوردي (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) من مشاهير من عرف به إلى جانب زهده وورعه ، والذي انتهى بالتبلور في فكر الإمام الغزالي (المتمثل في أحياء علوم الدين) (١٢) . وعلى هذا النمط في الجمع

= أحد الشباب إلى المبادرة بالدفاع عن أبي عمران ، وهو يقول : هذا شيخ من كبار شيوخنا ، من الجلاء أن نكلفه المناظرة من أول وهلة . . . كما أعلن أنه ينوب عنه في الإجابة ، الأمر الذي دعا إلى اعتذار السائل الشافعي .

(١١) أنظر الصلة ، ترجمة رقم ١٤ / ص ٧٢ - حيث أبو العباس أحمد بن العجفي العبيدي (الياضي) الذي روى عن أبي عمران الفاسي حادثة المثل بالقيروان بسبب رجل من (المريدين) كان يقول : « أنا خير البرية » ، فهمت به العامة وحملت على أبي عمران الذي قرر الرجل نعره أنه مسلم (لم يرتد) : يؤدي الفرائض . وبناء على ذلك استطاع أن يهدي من روع الناس ، وأن يطيب خاطرهم بجودة حفظه وحضور بديهته عندما قرأ لهم الآية التي تقول : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أولئك هم خير البرية » - (سورة البينة ، آية ٩٨) .

(١٢) أنظر للمؤلف ، الماوردي بين التاريخ والسياسة ، محاضرات كلية الآداب ، الإسكندرية ١٩٧٠ - ص ٤٢ ، ٦٧ - حيث عرف الماوردي بأنه شافعي في الفروع معتزلي في الأصول ، وعن تأليف أبي عمران ، أنظر عبد الله كنون ، مجلة الثقافة ، ١٩٧٠ ، ص ٥٥ - حيث النص على أن تأليفه ليست كثيرة ، إذ لا يذكر له إلا كتاب التعليل على المدرسة (الذي لم يكمله) كما تذكر له فهرسة (برنامج الأساتذة - عن عبد السلام بن سودة في مؤرخي المغرب) . وعن أحياء الغزالي أنظر ص ٤٩٥ وما بعدها .

بين العلم (الحديث النبوى) التقليدى وبين الاجتهاد العقلى فى استنباط الأحكام ، عرف عدد من تلاميذ أبى عمران من كبار المشايخ مثل : ابن زاهر (أبو حفص عمر - ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) الذى كان يعتقد فى ذكاء المؤمن ، ويحذر من محاولة التفرير به ، بناء على بعض الأحاديث النبوية التى كان يسندھا الأساتذة ، من أبى الحسن القابسى ، وحزمة الكنانى (١٣) وابن صالح القيروانى (أبو حفص عمر - ت ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م) الذى اعتنى بالأصول (الالهيّات) والفروع (العبادات والمعاملات) جميعا (١٤) . ومن بينهم تميز ابن الرىولى (أبو محمد القاسم بن الفتح بن يوسف - ولد ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م - ت ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م) الذى روى عن أبى عمران الفاسى ، والذى اشتهر بالعلم بالحديث والمعرفة باختلاف الأئمة ، كما اشتهر بأنه صاحب اجتهاد ورأى ، اذ كان يقول بـ « العلة المنصوص عليها والمعقولة ، ولا يقول المستنبطة » ، ثم انه أعمل فكره وغير رأيه ، فبعد أن كان « يقول بدليل الخطاب » ظهر له « فساد القول فيه فنبذه وأطرحه » (١٥) .

وفى مثل هذه الاجتهادات من عقلية أو خطابية تذكر مقالة أبى عمران فى شرح « معرفة الله » عند غير المسلمين ، وهل تشبه معرفته عند المسلمين ؟ فلقد أجاب أبو عمران وهو يستخدم التشبيه فى الخطاب بنفسه (أى بأبى عمران) قائلا عن الفرق بين المعرفتين بأنه أشبه بالفرق بين من يصفه هو نفسه (أبا عمران) بأنه يقال يبيع البقل وغيره من الطعام فى دكانه فى السوق (وهى معرفة غير المسلمين الخاطئة) ، وبين من يقول عنه « أبى عمران) : انه فقيه يعلم الناس ويفتيهم فى داره أو فى المسجد (وهو الأمر الصحيح المخالف للأول) ، والذى يجعل البون شاسعا بين معرفة الله عند المسلمين وعند غيرهم مما آنس العامة من أهل القيروان وأرضاهم (١٦) .

(١٣) الصلة ، ترجمة رقم ٨٥٤ / ص ٣٩٠ .

(١٤) أنظر الصلة ، ترجمة رقم ٨٦٧ / ص ٣٩٩ .

(١٥) الصلة ، ترجمة رقم ١٠١٤ / ص ٤٦٢ .

(١٦) جذوة الاقنباس لأبى القاضى ، القسم ١ (١ - ص) ، ترجمة رقم ٣٦٤ / ص ٣٤٤ .
- بحث مسألة الكفار التى جرت بالقيروان ، نقلا عن عبد الجليل بن أبى بكر الديباجى ، وهل يعرفون الله تعالى أم لا ؟ وهى المسألة التى تنازع بشأنها العلماء والعامة فى الأسواق ، وكان قد تزعمهم مؤذن يركب حمارا ويدور وينظر المتكلمين والفقهاء ، الأمر الذى انتهى بطلب العامة الفتوى من أبى عمران الفاسى . وبعد أن طلب الشيخ من زعيم العامة أن يحسن الاستماع ، قال له : أرايت لو أنك لقيت رجلا فقلت له أتعرف أبا عمران الفاسى فقال لك =

وبمثل هذا الخطاب البسيط في شكله والمقنع في مضمونه ، وغيره مما سبق ، كان أبو عمران الفاسي يقترب من أفهام العامة ، يحسن سياسته لهم وبالتالي بالنجاح في تأديبهم ، والاستحواذ على حبه لهم وتقديرهم . ونرى الى جانب ذلك ان تلاميذ أبي عمران من أدباء القيروان ، وبخاصة شعرائها ، مثل : ابن شرف ، أبو عبد الله محمد بن سعيد (الجذامي القيرواني) الذي كان له حظوة في قلوب العامة ولا بأس ، والذي تغنى شجيباً بمأساة القيروان على أيدي العرب الهلالية (ج ٣ ص ٤٢٧) ، كان من الأسباب المساعدة في الرفع من شأن أبي عمران الى مرتبة الزعيم الشعبي - قبل هجرة ابن شرف الى الأندلس سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م (١٧) . وإلى جانب ابن شرف هناك ذكر لعدد من كبار الشعراء من معاصريه القيروانيين ، مثل : ابن رشيق (القيرواني) ، وابن حجاج ، وعبد الله الطار ، ممن لهم ذكر في ترجمة الصديقي السفاقي ، الذي غادر القيروان الى قرطبة سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م ، لكي يتوفى بها بعد سنتين (٤٤٠ هـ / ١٠٠٩ م) . وان لم نعرف ان كان لهؤلاء الشعراء علاقة بأبي عمران الفاسي ، الذي لا نعرف تاريخ وفاته على وجه الدقة (انظر ، ص ١٦٥ وما بعدها) .

أبو عمران الفاسي والتنظير (الايديولوجي) للدولة الصحراوية الدينية :

رغم ما قيل من أن صحراء المثلثين كانت قليلة السكان شحيحة الخيرات ، مفتقدة لأهم ضرورات الحياة من مادية وروحية ، فلم يعرفوا الحبز ، كما لم يعرفوا من أمور دينهم سوى أقل القليل كالشهادتين فقط ، فالحقيقة أن مثل هذه المقالة لا تنطبق الا على سواد الناس من طبقات الكادحين . أما الطبقة المتيسرة فكانت على دراية بما يجري في العواصم الحضرية ، كما كانت تعرف شعائر الدين ، بل وتحرص على أداء فريضة الحج في بلاد الحجاز البعيدة ، تحت تأثير الدعاة من التجار ، أو من رجال الدين من العلماء والفقهاء ، من مغاربة وأندلسيين . ففيما يتعلق بأبي عمران الفاسي كان من بين تلاميذه من هم من أهل السوس الأقصى ، على حدود بلاد المثلثين من

= أنه رجل يبيع البقل والزيت في سوق هشام ويسكن البصرة أكان يعرفني ؟ فقال لا . ثم قال له فلو لقيت آخر فقال هو رجل يدرس العلم ويفتي الناس ويسكن بقرب السماط ، أكان يعرفني فقال (الرجل) نعم . وهكذا نجح في واد الفتنة . (١٧) الصلة لأبي بشكوال ، ترجمة رقم ١٢٠٨ / ص ٥٤٥ - حيث كانت لابن شرف الذي هو من فحول الشعراء ، رواية عن القيسي الفقيه ، وعن أبي عمران الفاسي ، اللذين صحبهما في القيروان قبل خروجه منها ، الى الأندلس ، حيث استقر .

جدالة ولطة ، مثل : وجاج بن زلوا مكتشف عبد الله بن ياسين ، المنظر المباشر للدعوة المرابطية ، فكانه التلميذ الروحي لأبي عمران : أستاذ معلمه . أما المكتشف الحقيقي لمعلم الصحراء ، وبالتالي المنظر الفعلي للدعوة المرابطية ، فهو الزعيم الصنهاجي الذي كان يقود وقتئذ طائفة من إخوانه الملتزمين على طريق وادي درعه - سجلماسة ، مرورا بالقيروان ، حيث اجتذبت دروس أبي عمران وتعاليمه . فكان الأمر تكرر لبداية الدعوة الفاطمية في منطقة القبائل ببلاد الجزائر الشرقية ، وكان أبا عمران الفاسي صنو ابن حوشب ، كبير الدعاة ، وكان يحيى بن إبراهيم صنو الزعيم القبلي الكتامي . وبذلك يكون عبد الله بن ياسين نظير الداعي الفاطمي أبي عبد الله الشيعي (١٨) .

والأمر الذي يستوعى الانتباه هو أنه رغم ضخامة العمل التاريخي الذي قام به كل من الزعيم القبلي (الملتزم) والفقيه الديني (المالكي) ، وأثره العميق في الشمال الأفريقي والسودان الغربي ، فإن الغموض مازال يحيط بكل من الرجلين اللذين ينبغي أن ينسب إليهما ذلك الانجاز الكبير . فأبو عمران الفاسي الذي يظهر في القيروان كزعيم شعبي له دور محوري في تهدئة الفتن بالأسواق ، واستتباب قواعد الأمن في المدينة ، ينتهي نهاية غامضة ، وسط العاصمة الأفريقية التي كانت تعج بالعلماء والشعراء وطلبة العلم ، من كل فج عميق ، إلى ما بعد اضطرابها بوصول العرب الهلالية حوالي منتصف القرن الـ ٥ هـ / ١١ م - وذلك في فترة تمتد ما بين سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م ، وسنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م . وكذلك الأمر بالنسبة لزعيم جماعة حجاج صنهاجة الملتزمين ، الذي تعدى الاختلاف بشأنه الحدود الزمنية التاريخية إلى التنازع في اسمه ، بل وفي حقيقة شخصه . ولا بأس أن يكون الاختلاف في تحديد وفاة أبي عمران الفاسي هو الذي أدى إلى الاختلاف في شخصية الزعيم الجدالي .

وهنا نرى أن المنهج يقتضى أن نرجع إلى مصادرنا المعتبرة متسلسلة من الأقدم فالأحدث ، في محاولة لكشف تتابع الأحداث في مساراتها المنطقية في متواليات في شكل مقدمات ونتائج تترابط فيما بينها بشكل عضوي ، هو أصل العلية في عملية التكوين التاريخية .

وفي هذا السياق يكون المصدر المعتمد هو البكري الأندلسي ، المعاصر

لتلك الأحداث • وهو يحدد بداية حركة الإصلاح المرابطية التي قامت بها قبائل صنهاجية في موطنها المتاخمة لسواحل المحيط الأطلنطي ، بشكل عام فيما بعد سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، حينما قامت « بدعوة الحق » تحت قيادة عبد الله بن ياسين (١٩) ، دونما تحديد لوقت لقاء أبي عمران بالزعيم الجدالي ، رئيس بعثة الحج الصنهاجية : يحيى بن ابراهيم الجدالي في عودته من الحج ، والذي كان حريصا على التعلم في مجلسه (٢٠) • أما ابن الأثير فيجعل بداية أمر المثلثين في سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م ويحدد في تلك السنة رحلة الحج التاريخية التي قامت بها بعثة الحج الصنهاجية حيث التقى رئيسها الجدالي الذي يحمل اسم « الجوهر » بفتية القيروان ، الذي يقال انه « أبو عمران الفاسي » في أغلب الظن (٢١) •

أما ابن أبي زرع ، صاحب روض القرطاس ، الذي يكتب في مطلع القرن الـ ٨ هـ / ١٤ م (٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م على عهد المرينيين) فيجعل سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م هي سنة خروج المرابطين لغزو المغرب ، الأمر الذي يتفق مع رواية ابن الأثير ولكنه وهو لا يحدد سنة لقاء الزعيم الجدالي بالفتية أبي عمران الفاسي ، يقرر التاريخ لذلك الحدث ضمنا قبل سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م ، وهي السنة التي توفي فيها أبو عمران بالقيروان ، كما يرى (٢٢) • هذا ، وهو يجعل بعد ذلك اللقاء فيما بين سنة ٤٢٧ هـ /

(١٩) البكري ، ص ١٦٤ •

(٢٠) البكري ، ص ١٦٤ - حيث النص على أن رئيسهم كان يحيى بن ابراهيم من بني جدالة وحج في بعض السنين ، ولقى في صدره (عودته) عن حجة الفتية أبا عمران الفاسي ص ١٦٥ •

(٢١) الكامل في التاريخ ، ج ٩ ص ٦١٨ ، وقارن النويري ، نشر أبو ضيف ، ص ٣٧٥ وهـ ٢ - حيث بيان المصدر الذي يشترك في الأخذ عنه مع أبي الأثير ، ويتمثل في رواية عز الدين بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس (الزيري الصنهاجي) في كتابه « الجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان » بسند القاضي يعلى بن قنون (جنون) : قاضي مراكش - حيث محاولة للتوفيق بين رواية البكري (بعد ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) ، ورواية ابن الأثير (٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م) ، بالنص على ان رحلة الحج الصنهاجية كانت في العقد الخامس من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م (عشر الخمسين وأربعمئة) - وحيث رصد الاختلافات ، بين سنة ٤٤٠ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ - وأخيرا سنتي ٤٢٧ ، ٤٢٩ لخروج الجدالي الى الحج ووفاء أبي عمران لأتلى نشر إليها فيما بعد • وقارن نشر دار الكتب (هيئة الكتاب) ، تحقيق حسين نصار ، ج ٢٤ ص ٢٥٣ ، هـ ١ - حيث ترجيح أن يكون « يحيى بن ابراهيم » هو « الجوهر » على أساس ان الجوهر لثبه - وذلك عكس ما رأى حسن أحمد محمود من أنهما رجلا مختلفان • أما عن الفتية القيرواني الذي التقى به الزعيم الصنهاجي ، فالغالب انه أبو عمران الفاسي • (٢٢) القرطاس ، ص ١١٨ ، ص ١١٢ بعدها - حيث يجعل وفاة أبي عمران في ١٣ من رمضان (من تلك السنة : ٤٣٠ هـ / ١١ يونيو ١٠٣٩ م) •

٦ - ١٠٣٥ م (حيث خروج يحيى بن ابراهيم الى الحج) وبين سنة ٤٣٠ هـ /
١٠٣٩ م ، حيث وفاة أبى عمران ، على أساس أن اللقاء كان فى رحلة العودة
(الصدور) (٢٣) .

أما ابن خلدون فيفسر وصول يحيى بن ابراهيم الجدالى الى منصب
الرياسة بسبب صهره فى جماعة بنى ورتنطق التى تعتبر من طبقة النبلاء
بين قبائل المثلثين . وعن خروجه لفضاء فريضة الحج على راس جماعة
جدالة ، فيجعله فى أول الأربعمينيات من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م (٤٤٠ هـ /
٩ - ١٠٤٨ م) ، أى فى بداية العقد الخامس ، حسب رواية عز الدين بن
شداد (الزيرى) التى يأخذ بها ابن الأثير ، والننى يلخصها النويرى .
وهكذا يكون لقاء حجاج كداله بأبى عمران فى طريق العودة فى السنة التالية
(٤٤١ هـ / ١٠٥٠) (٢٤) .

وهكذا يكون ابن أبى زرع أول من يحدد وفاة أبى عمران بسنة
٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م ، وهو فى الحقيقة يأخذ هذا التاريخ من ابن بشكوال
فى ترجمته لأبى عمران ، نقلا عن أبى عمرو المقرئ الذى يغزر ان عمره كان
يناهز وقتئذ ، ٦٥ (خمسة وستين) عاما . هذا ، ولو أن ابن بشكوال
نفسه ، يقرر أن وفاته كانت فى سنة ٤٢٩ هـ / ٨ - ١٠٣٧ م ، السابقة (٢٥) .

والذى يؤخذ على تحديد وفاة أبى عمران فى آخر العقد الثالث أو أول
العقد الرابع ، حسب رؤية ابن بشكوال ، وبالتالي يجعل لقاءه بحجاج جداله
فى نفس هذا الوقت ، هو ما يترتب على ذلك من طول الفترة اللازمة للاعداد
لقيام الدولة المرابطية الوليدة ، فراغا دون احداث ما ، وهى الفترة التمهيدية
التي يسميها ابن خلدون « بالمطاولة » ، الى ما يقرب من ٢٠ (عشرين)
سنة ، الأمر الذى يدعو الى الشك فى صحة أمدتها هذا ، ليس بسبب بساطة
التجهيزات المطلوبة للمطاولة فقط ، بل وبالمقارنة مع التواريخ التى يقدمها

(٢٣) القرطاسى ، ص ١٢٢ .

(٢٤) أنظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٢ ، وقارن بما سبق وشعيرة ، المرابطون ، ص ٢٨ .
(٢٥) الصلة ، ترجمة رقم ١٢٢٣ / ص ٥٥٢ - حيث ينص ابن بشكوال على انه كان
يأخذ عن أبى عمران بالتقريرون ، وأنه تركه حيا ، وعاش بعده الى أن توفى سنة ٤٢٩ هـ / ٨ -
١٠٣٧ . أما عن ميلاد أبى عمران فهو فى سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م ، حسب رواية عمر بن عبد البر
الذى يقول انه وأبا عمران الفاسى ولدا فى تلك السنة . وقارن جذوة الاقتباس لابن القاضى .
قسم ١ (ص ٣٤٤ ، ترجمة رقم ٣١٤) .

ثقافت المؤرخين الذين اضطروا الى التشكيك فى أن يكون لأبى عمران الفاسى دور فى ذلك التمهيد ، مما يتعلق ببقاء يحيى الجدالى . فإذا أخذنا بتواريخ البكرى وابن الأثير والنويرى ، وكذلك ابن أبى زرع وابن خلدون نستخلص منها أن حركة « المطاولة » المبنية على عملية التجديد الدينى والاصلاح الاجتماعى ، بناء على مشورة أبى عمران تبدأ باللقاء مع حجاج جدالة سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٩ م ، وتؤتى ثمارها سنة ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م بغزو بلاد المغرب ، فكان فترة المطاولة لم تزيد على ٦ (ست) سنوات أو ٧ (سبع) .

أبو عمران وليس بعض تلاميذه :

وهنا تبقى مسألة أبى عمران ، هل هو الذى لقيه حجاج جدالة أم أنه أحد تلاميذه ، اذا كان قد توفى حقاً فى سنة ٤٢٩ هـ/ ٨ - ١٠٣٧ م أو سنة ٤٣٠ هـ/ ٩ - ١٠٣٨ م التالية . والذى نراه أنه لما كان الواقع التاريخى يؤكد صحة أحداث ظهور الحركة المرابطية فى أربعينيات القرن الـ ٥ هـ/ ١١ م بالمغرب الأقصى أى الغاء الدور البارز الذى قام به فقيه القيروان أبو عمران الفاسى فى تحريك تلك الأحداث . فهنا نقترح ببساطة تعديل تاريخ وفاته الى ما بعد ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٩ م ، كما تنص على ذلك روايات المؤرخين الأصيلة بدأ من البكرى وانتهاء بابن خلدون ، على أن تكون سنة ٤٢٩ هـ/ ٨ - ١٠٣٧ م وسنة ٤٣٠ هـ/ ٩ - ١٠٣٨ م تصحيحاً لسنتى ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٧ م ، ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م ، فى رواية ابن بشكوال . ويكون سندنا فى ذلك التواريخ المتعلقة بميلاد تلاميذ أبى عمران الفاسى ووفاتهم ، وخاصة المتأخرين منهم ، ممن توفوا فى أواخر القرن الـ ٥ هـ/ ١١ م أو أوائل القرن الـ ٦ هـ/ ١٢ م . فالذى يستشف من مناهج التعليم الدينى فى ذلك العصر ، أن من كان يقرأ أو يسمع أو يأخذ عن الشيخ أبى عمران أو يطلب الاجازة منه كان بمثابة طالب الدراسات العليا فى أيامنا هذه ، بمعنى أن عمره كان لا يقل عن منتصف العقد الثالث ان لم يتجاوز هذا العقد - والمثل لذلك أبو عمران نفسه ، اذ كان فى الثانية والثلاثين عندما بدأ رحلته العلمية فى سنة ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩ م .

وهكذا نرى أن واحداً من مشاهير طلبة الأندلس الذين جالسوا أبا عمران الفاسى ، وهو ابن الطرابلسى : أبو حاتم بن محمد بن عبد الرحمن ابن حاتم التميمى (القرطبى أصلاً والطليطلى سكناً - ٣٧٨ هـ/ ٩٨٨ م - ٤٦٩ هـ (ذو القعدة) / ماية ١٠٧٧) يبدأ رحلته العلمية الى المشرق سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١١ م ، وعمره ٢٥ (خمسة وعشرون) سنة ، ويجالس أبا عمران فى طريق العودة وعمره ٢٧ (سبع وعشرون) سنة ، وانصرف

الى بلاده بعد أن قضى فترة لا نعرف مقدارها ، ولكنها طالت الى سنوات على ما نظن ، حيث جمع فيها ، وهو المجتهد المعروف بأنه كان يكتب بخط متأنق ، وأنه كان مثابرا على حمل العلم حتى فى أواخر أيامه - علما كثيرا (٢٦) . وإذا كنا نفتقد تاريخ مولد المتأخرين من طلبة أبى عمران الفاسى ، مثل : أبى الحسن طاهر بن هشام الأزدي ، المتوفى سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م (رقم ٥٤٠ / ص ٢٢٧) ، وأبى بكر محمد بن نعمة (الأسدي العابر القيروانى المتوفى سنة ٢ - ٤٨١ هـ / ٩ - ١٠٨٨) (رقم ١٢٠٧ / ص ٥٤٥) ، فمن حسن الحظ أننا نعرف تاريخ ميلاد آخرهم وتاريخ وفاته ، وهو ابن غلبون الخولانى : أبو عبد الله بن محمد بن عبد الاشبيل (٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م - ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م) .

والمهم هنا هو أن أبا عمران الفاسى أجاز للخولانى بمعنى انه لم يحضر دروس ابن عمران فى القيروان ، ربما لتقدم سن الشيخ أو لرواج الاجازة وقتئذ ، وهو الأمر الذى كان يتنبأ بخطورته بعض العلماء ، على أساس أن الاجازة التى تشبه الدراسة بالمراسلة ، أو عن طريق الجامعة المفتوحة حاليا ، تهدد ببطلان الرحلة ، التى تشبه ايفاد البعثات الطلابية الى الخارج للدراسة . وهنا اذا افترضنا أن سن ابن غلبون الخولانى ، عندما حصل على الاجازة (الشهادة) العلمية كان يبلغ الـ ٢٥ (خمس وعشرين) سنة ، فان ذلك يعنى أنه حصل على تلك الاجازة سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ، وان لم يكن بعدها ، فكان أبا عمران الفاسى كان حيا قريب هذا الوقت ، الأمر الذى يتفق مع تقارير مؤرخينا ، المعتمدين ، من البكرى الى ابن الأثير وابن خلدون ، ومن سار على دربهم هذا .

وبذلك تنحل عقدة وفاة المنظر الأول للفكر المرباطى : أبى عمران الفاسى ، على أساس أنها تمت فى مطلع العقد الخامس (الأربعينيات) من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، فلا يغط حق الرجل فيما أنجزه من عمل كبير كان له أثره العميق فى تاريخ المغرب الاسلامى حتى مطلع العصور الحديثة ، ولا ينسب ذلك الى مجهول آخر من تلاميذه ، كما نرى فى ابن الأثير ، ومن أخذ من نفس المصدر (ما سبق ، ص ١٦٤ وما بعدها) ، الأمر الذى يعاكس تماما مقاصد التاريخ وأغراضه .

وتبقى مشكلة الزعيم الجدالى : وهل هو : يحيى بن ابراهيم ، كما هو

متعارف عليه لدى معظم الكتاب والمؤرخين أم هو نفس الشخص الملقب بـ « الجوهري » ، وهو ما أخذ به ابن الأثير في كامله ، نقلا عن ابن شداد (الزيرى - ما سبق ، ص ٣٩ وما يأتى ص ١٨١ وهـ ٥٢) - وله ولكتابه ما لهما من الرسوخ فى التاريخ الاسلامى . والحقيقة أن مسألة الجوهري محسومة فى مصدرنا الرئيسى عن قيام الدولة المرابطية ، وهو البكرى ، الذى يفرق بين رئيس بعثة الحج الجدالية فى مطلع العقد الخامس من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، وهو يحيى بن ابراهيم الجدالى ، وهو الشخصية التاريخية الراسخة ، مثل أبى عمران الفاسى ، وبين الشائر (اللمتوني) المسمى بالجوهري بن سكم ، الذى كان يسانده فى ثورته رجلان من كبارهم ، أحدهما يحمل اسم « أيار » والآخر اسم « اينتكوا » (٢٧) .

اللقاء بين أبى عمران الفاسى ويحيى بن ابراهيم الجدالى (٤٤٠ هـ / ٩ - ١٠٤٨ م) :

بناء على ما تقدم يكون لقاء يحيى بن ابراهيم الجدالى قائد بعثة حج الملتمين الصنهاجية ، بفضيه القيروان أبى عمران الفاسى قد حدث مرتين ، أولاها : أثناء رحلة الذهاب (الورود) سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م ، والثانية فى طريق العودة (الصدور) سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) . ومن الواضح أن الزعيم الجدالى كان محبا للعلم . فهو اذا كان قد مر سريعا بمجالس أبى عمران ، سواء فى داره قرب السماط ، أو فى المسجد الجامع ، فانه أحسن الجلوس فى رحلة العودة . ولا بأس أن يكون قد شاهد بعض مجالس علماء الحجاز فى مكة أو المدينة ، ممن سبقت الإشارة اليهم (ص ١٤١) ، وأن ذلك كان أدعى الى ارتباطه الى فقيه القيروان الفاسى ، على أساس أنه الأقرب اليه لهجة وتقليدا . والمهم أنه حدث تجاوب بين الزعيم الدينى والشيخ القبلى اللذين تقاسما شرف التفكير فى عملية الإصلاح الاجتماعى فى صحراء المغرب الكبرى . فالروايات الأولى التى تبدأ بالبكرى تنسب الفضل الى أبى عمران الذى سأل رئيس جماعة الملتمين عن بلده وأحواله ، ومذاهب أهله الدينية . وعندما اتضح له أن الرجل الصحراوى ليست لديه

(٢٧) البكرى ، ص ١٦٤ - ١٦٥ ، وهذا ما أخذ به حسن أحمد محمود ، فى رسالته عن قيام دولة المرابطين ، وهو ما لم يقتنع به حسين نصار فى تحقيقه للجزء الـ ٢٤ من النويرى ، دون سند اعتمادا على أن يكون الجوهري لقباً ليحيى - مما سبقت الإشارة اليه ، ص ١٦٦ وهـ ٢١ .

معرفة بالمذاهب الاسلامية ، بل وانه لا يعرف الا القليل عن فرائض الاسلام ، ورغم ذلك فلديه رغبة شديدة فى التعلم ومعرفة واجباته الدينية ، ناقشه فى امكانية سد هذا النقص الخطير ، المتمثل دينيا فى تعلم شريعة الاسلام ، ومدنيا (فى الحياة اليومية) فى تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وهنا اعتذر يحيى بأن من يأتى الى بلادهم من المعلمين مجردين من الورع والتقوى ، جهلة لا علم لهم بمذاهب أهل السنة ، وسأله أن يختار له من طلبته من يقوم بتلك المهمة الشاقة بين الجفاه من أهل الصحراء (٢٨) . أما الروايات التالية التى تظهر عند ابن الأثير والنويرى وابن أبى زرع ، فتجمل الفضل فى ذلك الى الزعيم الجدالى ، الذى بادر أبا عمران بقوله انه ليس عندهم فى الصحراء شئ من هذا (علوم الدين) غير الشهادتين فى العامة ، الى جانب الصلاة فى بعض الخاصة فقط ، مع سؤاله أن يبعث معه من يثق فيه ليعلمهم شرائع الاسلام (٢٩) .

اختيار المعلم :

عرض الأمر على طلبة القيروان :

ولم تكن مهمة القيروان فى اختيار المعلم المناسب لسكان الصحراء من

(٢٨) البكرى ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢٩) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٨ - ٦١٩ ، وقارن النويرى ، تحقيق « أبو ضيف » ، ص ٣٧٦ - حيث ينسب الجزء الأخير من الجدل الخاص بحمل العلم الى أبى عمران ، وأنظر تحقيق حسين نصار ، ج ٢٤ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ - حيث النص « فاحمل معك من يعلمهم عقائدهم ملتهم ، وكما دينهم » ، وأنظر القرطاس ، ص ٢٢ - حيث يدور حوار بين الرجلين يعرف فيه الجدالى بسعة بلاده وما فيها من الخلق الذين غلب عليهم الجهل . وعندما يظهر لأبى عمران أن جهل يحيى بواجبات دينه لا ينقص من رغبته فى التعلم ، وعرف منه أن أهل بلاده يحيون الخير ويسارعون اليه اذا ما وجدوا من يدرس لهم العلم ، ويدعوه الى العمل بالكتاب والسنة ، وانه يدعو الى المساعدة فى تحقيق ذلك ، ليكون له الأجر العظيم ، حيث يكون سببا لهدايتهم ، عمل أبو عمران على تحقيق رغبته تلك . وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٢ - والترجمة ج ١ ص ٦٧ - حيث الارتفاع بالحبر الفردى الى حالة النانوى الاجتماعى ، اذ يكون الفضل الى جماعة حجاج جداله الذين انبهروا بعلم أبى عمران وفتاويه فسألوه أن يبعث منهم من يرجعون اليه فى قضايا دينهم . وقارن حسن أحمد محمود ، المرابطون ، ص ١٠٧ - حيث القول - كما هو الحال بالنسبة لـ « كتاب ذكر بعض مشاهير فاس لمجهول » (ص ٦٣) ، بأن يحيى الجدالى خرج لطلب الحقيقة وليس للحج فقط ، وانه خرج لارتياح مدارس المغرب ؟

المثلثين من الأمور السهلة فلقد اجتهد أبو عمران في البحث عن الرجل المناسب بين المقربين اليه من طلبة حلقاته ، بل ومن بين أفراد أسرته . وهناك تفصيلات - شبه قصصية - اجتهد المتأخرون من الكتاب في رصدها يستدل منها على أن مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الصحراء البعيدة عن العمران لم تكن من الأمور المحببة لرجال الدعوة الناشئين (٣٠) ، وإن التمسنا لهم العذر على أساس أنهم لم يكونوا قد تدربوا على الأصول الفنية المعروفة لدى المحترفين من الدعاة ، وخاصة من أبتاء تنظيمات الحركات السرية ، كالدعوة الفاطمية (ج ٣ ص ٢٠) .

وهكذا لجأ أبو عمران في البحث عن الرجل المنشود - بعد أن تعهد له يحيى بن إبراهيم بـ « حفظه وبره وإكرامه » - إلى واحد من أبناء أخوته اسمه عمر ، وعرفه بما سيكون له من الذكر الجميل لدى الناس ، والثواب العظيم من الله عز وجل ، حتى أقنعه بالقبول . ولكن طالب القيروان المرفه لم يلبث أن استعفى من الغد ، من تلك المهمة التي قد لا تحمد مغبتها (٣١) .

دور محمد : وجاج بن زلوى (السوسى) :

وإزاء رفض طلبة القيروان دخول الصحراء الموحشة والذي ربما كان مقدمة مضطعة تهدف أصلاً إلى تقرير صنعوبة مهمة المعلم الداعي ، رأى أبو عمران أن خير من يقوم بتلك المهمة واحد من شباب العلماء من أهل البلاد ، من صنهجة الصحراء ، المثلثين . وهذا ما أخبر به يحيى بن إبراهيم الجدالي إذ طلب منه أن يعرج ، وهو في الطريق إلى بلاده المتاخمة لساحل المحيط الأطلنطي على بلاد السوس ، حيث يوجد واحد من علماء طلبته المجتهدين ، هو : محمد وجاج (وكاك) بن زلوا اللمطي ، الذي كان يقيم

(٣٠) انظر البكري ، ص ١٦٥ - حيث مجرد الإشارة إلى أن أبا عمران لم يجد فيمن رضيه (من تلاميذه) من يجيبه إلى السير معه (يحيى بن إبراهيم) ، فقال له : قد عدت بالقيروان بفيتكم .

(٣١) النويري ، نصار ، ج ٢٤ ، ص ٢٥٤ - حيث النص على أنه طلب الاستعفاء لأن أهل الصحراء جاهلية لهم عاداتهم التي إذا طلبوا بخلافها لجأوا إلى قتل من طالبهم بذلك ، وقارن الغرطاس ، ص ١٢٣ - حيث يندب أبو عمران بناء على طلب الزعيم الجدالي - تلاميذه إلى ذلك « فامتنوا ، وأشفقوا من دخول الصحراء ٠٠٠ » ، وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٢ - حيث عرض المسألة كفضية عامة يرفضها طلبة القيروان الذين ندبهم إليها أبو عمران ، حرصاً على إيصال الخير إليهم ، ولكنهم استوعروا مسغبة بلادهم .

مبيلة (ملكوس) ، والذي اشتهر بعلمه وورعه (٣٢) .

ورود أبو عمران يحيى بن ابراهيم بخطاب الى وجاج - يبدأ بالتسليم والبيعة ، ثم التعريف بالزعيم الجدالي . أما موضوعه فتوصية فقيه القيروان تلميذه القديم فقيه السوس ، بأن يبعث مع يحيى الى بلاده واحدا من طلبته ، ممن يثق في دينه وورعه وعلمه ، ليعلمهم ويفقههم في دينهم ، وله الثواب والأجر العظيم . وينتهي الخطاب بالتسليم .

وإذا كنا نشك في صحة الكتاب - الذي لا نعرف من أين أتى الى صاحب روض القرطاس ، ولا كيف - فإن مضمونه لا يختلف عما كان يدور بين أبي عمران وبين يحيى بن ابراهيم بشأن العلم الأمر بالمعروف - وهو ما بين الكيفية التي تم بها وضعه (٣٣) . والمهم أن الزعيم الجدالي : يحيى بن ابراهيم سار الى وجاج ، الذي كان يعتكف في رباط له بنفيس ، حيث كان منقطعاً لأعمال الورع والتقوى وتدريس العلم ، والدعوة الى الخير (دعوة الأمر بالمعروف) ، وعرفه بمقصده ، من : طلب معلم محتسب يعلمهم شرائع دينهم ، ويهديهم الى الخير ، وذلك في أواخر سنة ٤٤٠ هـ / مايو ١٠٤٩ م (٣٤) .

(٣٢) البكري . ص ١٦٥ - حيث النص على أنه ربما ظهر عند وجاج بن زلوى ببغيتة ، « فجعل ذلك يحيى بن ابراهيم أوكد همه » . وقارن روض القرطاس ، ص ١٢٣ - حيث النص على أنه « لما ينس (أبو عمران) منهم ، قال : اني أعرف ببلاد نفيس من أرض المصامدة فقيها حاذقا تقيا ورعا لقيني هنا ، وأخذ عنى علما كثيرا ، واسمه وجاج بن زلوا اللمطي ، من أهل السوس الأقصى » ، وهو يدعو الناس الى الخير في رباط هناك ، اكتب له كتابا لينظر في تلاميذه من يبعثه معك فسر اليه ، فعنده تجد ما نريد . وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث اسم فقيه السوس : محمد وكاك (وجاج) بن زللو اللمطي ، بسجل ماسة (ولبس بالسوس) ، وقارن ترجمة دسلان ، ج ١ ص ٦٨ - حيث : محمد و - ذاك (ou - Aggag) بمعنى محمد بن وجاج ، والذي نراه ان محمدا هو اسمه العربي وان وجاج هو اسمه البربري ، تماما مثل يوسف : بلكن قبله ، ومحمد : اسغو بن تومرت بعده ، وأنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ - حيث اختصار ذلك بالقول أن أبا عمران هو الذي أرسل عبد الله بن ياسين مباشرة مع يحيى بن ابراهيم . ومن الواضح أنها رواية عز الدين بن شداد الزبري الصنهاجي التي ينقلها النويري (ج ٢٤ ص ٢٥٤) - حيث النص على أنه عندما خالف عمر ابن أخى أبي عمران ، عز على ابن ياسين ذلك ، وقال لأبي عمران : « يا فقه ، أرسلني معه (يحيى بن ابراهيم) والله المعين » ، فأرسله معه ، وتوجها (سويا من القيروان) الى الصحراء ؟

(٣٣) القرطاس ، ص ١٢٣ .

(٣٤) أنظر القرطاس ، ص ١٢٣ - حيث النص على ان يعقبي الجدالي وصل الى نفيس

تؤدفع الكتاب الى وجاج في رجب من سنة ٤٤٠ هـ / ديسمبر ١٠٤٨ م بدلا من ٤٣٠ هـ / =

وانتهى لقاء الرجلين بذلك الحدث التاريخي الذي حول بلاد الصحراء من حال الى حال ، وبالتالي بلاد المغرب والأندلس التي ارتبط مصير الواحدة منهما بالأخرى ، فكونتنا امبراطورية عظمى ، ذات حضارة مغربية أندلسية عاشت الى مطلع العصور الحديثة ، وكان لها أثرها في تشكيل البلاد الى ما آلت اليه اليوم . ذلك الحدث هو اختيار عبد الله بن ياسين ليقوم بدور المحتسب في صحراء الطوارق المثلثين - دور مهدي المرابطين ، كما يحلو لصاحب روض القرطاس أن يسميه - تشبيها بابن تومرت (٣٥) : مهدي الموحدين .

عبد الله بن ياسين محتسبا :

عرض محمد : وجاج مهمة الدعوة في صحراء المثلثين ، بصحبة يحيى ابن ابراهيم ، على تلاميذه في الرباط ، وبين لهم أن حسن الثواب في تلك المهمة الخيرة يكون على قدر العمل . وانتهى الأمر بانتداب عبد الله بن ياسين للقيام بالمهمة الشاقة في بلاد القفر الموحشة ، فكان اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب ، كما يقال في أيامنا هذه . فالرجل أصلا من أهل الصحراء ، من قبيلة جزولة ، أخت جدالة ان لم تكن بعضا منها أو هي نفسها (ما سبق ، ص) . فابن ياسين صحراوي مغربي (بربري) أصيل . وإذا كان اسم أمه « تين يزاهارن » يربري قح ، فان اسمه : عبد الله ، واسم أبيه : ي (ياء) و (سين) ، عربيان اسلاميان تماما (٣٦) . أما عن مسقط رأسه فهو قرية تسمى « تماما ناوت » في طريق صحراء غاناه (٣٧) ، من غرب أفريقيا ، على تخوم بلاد السودان .

وهذا الأمر يدعونا الى التأمل في مغزى الرواية التي يفهم منها أنه

= ١٠٣٨ م - وهو ما عدلناه حسبما اقتضت اصول المنهج وسلامة الحس - مما سبقت الإشارة اليه : ص ١٦٩ . وعن وجاج الذي لا يعرف ان كان من تلاميذ أبي عمران في فاس أم في القيروان - أنظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ، ط . بيروت ، ج ٤ ص ١٨١ - حيث الاسم أو كاد (وجاج) بن زللوه اللمطي وان اللقاء كان في دار وجاج بالسوس التي سماها دار المرابطين ، وفارن عبد الله كنون ، أبو عمران الفاسي ، مجلة الثقافة ، ١٩٧٠ ، ص ٥٥ . (٣٥) ابن أبي زرع ، القرطاس ، ص ١٢٤ . وقارن ترتيب المدارك للقاضي عياض ، ط . بيروت ، ج ٤ ص ٧٨٠ - ٧٨١ - حيث انحص على أن ابن ياسين « ذو الأنباء العظيمة والقصص الغريبة ، القائم بدور المرابطين ، المزين لدولتهم أو خروجهم » . (٣٦) نسبة الله أشهر ما عبد من الأسماء ، والى س من الحروف القرآنية الرمزية المبجلة التي تبدأ بها بعض السور (أنظر سورة ي س رقم ٣٦ ، آية ٩) . (٣٧) البكري ص ١٦٥ .

عبد الله بن ياسين كان من تلاميذ أبي عمران الفاسي ، وأنه عرض نفسه للقيام بتلك المهمة ارضاء لأستأذه الذي أسف لاعتذار ابن أخيه عمر (ما سبق ، ص ١٧٢) . وهنا يمكن القول أن قصة ابن ياسين في القيروان هذه يمكن أن نشكك في حقيقة قصة البحث عن المعلم (الصحراوي) بين طلاب أبي عمران أو قرابته ، وما اعترض ذلك من عقبات . وهنا نرجح فكرة أن أبي عمران لم يكن ليغيب عنه أن أصلح المعلمين لأهل الصحراء ، هو من يكون مهم أصلا . وعندئذ تكون محاولة اختيار معلم قيرواني مجرد اجراء شكلي ، الهدف منه محاولة تجميل موقف العاصمة الثقافية الافريقية ، وبالتالي مدرستها المالكية (٣٨) .

رابط وجاج :

والهم من كل ذلك هو : أين وجدت مدرسة وجاج أو رابطه الذي درس فيه عبد الله بن ياسين ، الطالب الوافد من جنوب الصحراء ، من تخوم بلاد السودان الغربي ؟ وهنا نجد ٣ (ثلاثة) مواضع ، أولها : ملكوس (النى لا تعرف لها مكانا) (البكرى ص ١٦٥) ، وثانيها : « رابط » نفيس غير بعيد من الموضع الذى ستبنى فيه مدينة مراكش (القرطاس ، ص ١٢٣) ، وثالثها : بسجلماسة (ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٢) . وإذا كنا نستبعد سجلماسة التى لم تعرف بأنها موطن رابط ، فضلا عن بعدها عن العدو البحرى ، وكذلك الأمر بالنسبة لنفيس من حيث كونها من مدن وادى تنسيفت ، وهى المنطقة الوعرة التى لا يطرقها أهل الصحراء من طلبة العلم . وهكذا فلا تبقى الا ملكوس التى نرى أنها تحريف لاسم مدينة ماست التى ينسب اليها نهر السوس فهو وادى ماست ، والتى كانت وقتئذ على عهد البكرى موطن رابط مقصود ، له موسم عظيم ومجمع جليل ، من حيث كانت مأوى للصالحين (٣٩) .

وكان ذلك الرابط على ساحل البحر ، فى موضع اللسان الأرضى الذى

(٣٨) أنظر حسن أحمد محمود ، المرابظون ص ١١٢ - حيث انتقاد ما يقال من أن الفقهاء والمالكية أعربوا عن اشفاقهم من السفر البعيد فى الأرض النفرة ، وحيث فكرة أن أبا عمران فكر فى الرجل الصحيح من أهل المنطقة وهى فكرة لا بأس بها ، ومع ذلك فالذى نراه أن فقهاء المالكية بشر لهم مصالحهم الدنيوية مثل غيرهم ، فهم ليسوا رهبانا رغم استخدام النصوص لكلمات مثل : التعميد والرهينة والتنسك ، على كل حال . وبناء على ذلك فلا بأس أن يكون عرض النزوح من القيروان عليهم الى الصحراء نوعا من الشكليات التى يجب أن تستوفى .

(٣٩) البكرى ، ص ١٦١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

- ١٧٦ -

يلتقي عنده نهر السوس بالبحر المحيط (الأطلنطي) . والمقصود بالرباط هو ملجأ العباد والمجاهدين على نسق ما هو معروف في ساحل القيروان وخاصة في سوسة (ما بعد ص ١٨٣ وهـ ٢) .

الطريق الى جدالة :

من المهم هنا الإشارة الى أن مادتنا التاريخية الخاصة بعملية تثقيف أهل الصحراء هذه ، تتضارب في طبيعتها . فهي تفصيلية مسببة لتراوح ما بين المذكرات الشخصية الوثائقية ، والأساطير الشعبية ، فكانها من طراز روايات الأيام الشفوية أصلا ، وخاصة فيما يتعلق بالدعوة ونشر الاسلام . وهي مختصرة ناقصة أو مفتقدة تجاما في مواضع أخرى ، حيث افتقاد التوقيت ، مما يقلل من قيمتها التاريخية ، وعدم الاهتمام بتحديد الأماكن والطرق مما يقلل من أهميتها الجغرافية والطبوغرافية ، الى غير ذلك مما تعرضت له الرواية من التحريف والتقطيع ، على طول تداولها بين أيدي النساخ والكتاب ، مما يقتضى محاولة إعادة الترتيب (٤٠) .

وهكذا لم نعرف شيئا عن الطريق من القيروان الى رباط وجاج (بالسوس الأقصى) ، وأغلب الظن أنه طريق الغرب المتعارف عليه الى فاس ، والى أغمات فالسوس ، فطريق البحر من نول لمطة الى جدالة على طول الساحل (٤١) . وكذلك الأمر بالنسبة الى عدد أفراد جماعة المسافرين مع عبد الله بن ياسين ، لا نعرف عنهم شيئا ، ولا عن أحداث الرحلة ، وهو الأمر الذى يثير الكثير من التساؤل . وإذا كانت هناك بعض المعلومات عن نهاية الرحلة بارض جدالة ، حيث خرج الناس من قبائل جدالة (كدالة) ولمتونة ، فالتقوا الفقيه بالسرور وفرحوا به غاية الفرح ، وبالقوا فى اكرامه وبره (٤٢) ، فانها معلومات عامة ليست ذات بال .

والمهم أن احتساب عبد الله بن ياسين في جدالة وفي لمتونة لم يكن

(٤٠) أنظر النويرى ، نهاية الأرب ، أبو ضيفر ، ص ٣٧٧ وما بعدها ، حسين نصار ، ج ٢٤ ص ٥ - ٢٥٤ - حيث النص خطأ على خروج ابن ياسين من القيروان مع يحيى الجدالى الذى نزل عن جملة وأمسك بزمام جمل ابن ياسين ، اجلالا وتقديرا ، وهو يقول عنه : هو حامل سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، والمفترض أن يكون هذا المشهد خاصا بالخروج من جدالة الى لمتونة على عهد رئاسة أبى بكر بن عمر .
(٤١) البكرى ، ص ١٤١ ، ١٥٤ ، ١٦٠ .
(٤٢) القرطاس ، ص ١٢٣ .

من الأمور السهلة . فتعليم الجفاة من أهل الصحراء الذين لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، والذين يعيشون على قوانينهم الطبيعية وأعرافهم القديمة التي قد تتفق مع أعراف الجاهلية ، وليس مع شريعة الإسلام ، مما سبقت الإشارة إليه قديما (ص ١٢٥) ومما عرفه الداعي في تجربته المرابطة .

أصول الاحتساب عند عبد الله بن ياسين :

في أرض جدالة :

كان من الطبيعي أن يبدأ عبد الله بن ياسين عملية التجديد الإسلامي ، في صحراء صنهاجة المثلثين في بلاد قبائل جدالة ، عصبية يحيى بن إبراهيم ، الرئيس المرموق ، صهر جماعة النبلاء من بني ورتنطق (ماسبق ، ص) . فعندما وصل إلى موضع سكنه ، وبفضل الدعاية التي قام بها الشيخ الجدالي التفت الناس حوله للتعلم (٤٢ م) . وفي البداية سارت الأمور على ما يرام . فالداعي كان يتحسس طريقه في شبه المجهول ، حيث تقضى أصول الدعوة إلى اتباع حكم الشريعة بالبده بالكلمة الطيبة مع القدوة الحسنة . ومع مرور الأيام بدأ ابن ياسين يكتشف أنه يحترق في أرض جدبة ، وأن جذور الإسلام في تلك الصحراء سطحية فوق الرمل . وكانت أولى المفاجآت ما عرفه ابن ياسين من أن صاحبه الزعيم الجدالي يحيى بن إبراهيم عنده ٩ (تسع) زوجات دفعة واحدة (٤٣) . وكان على الفقيه أن يبين له أصول الشرع في مسائل الزواج والتسرى . وإذا كان يحيى المتحمس للإسلام الصحيح قد وافق بسهولة على تصحيح موقفه بفراق ٥ (خمسة) من نسائه ، فإن الأمر لم يكن هينا بالنسبة لرؤساء القبائل الآخرين . وهكذا كانت مطالبة الناس بالالتزام بأداء الفروض ، من صلاة وزكاة في مواقيتها من المشقات التي استصعبوها ، وخاصة مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهكذا انقسم الجداليون إلى مؤيدين للفقيه ومعارضين (٤٤) . والظاهر أن كفة المعارضين كانت الأرجح بفضل مؤيديهم

(٤٢) م) البكري ، ص ١٦٥ .

(٤٣) أنظر روض القرطاس ، ص ١٢٤ ، وهنا لا بأس من الإشارة إلى أن البعض يفسر الآية التي تنص على أنه يمكن للمسلم أن يتزوج « مثنى وثلاث ورباع » على جمع هذه الأعداد (٢ + ٣ + ٤ = ٩) وأن كان ذلك يمكن أن يكون بعض النكت التي يتندر بها أصحاب بعض المذاهب على أصحاب مذهب آخر .

(٤٤) أنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ - حيث النص على أن منهم من أطاع ومنهم من

عصى .

من الرؤساء الذين رأوا النجاح المتوقع للفقيه ضياعا لما لهم من سلطات .
وذلك أنهم عندما استثقلوا ما عرضه عليهم من الواجبات ، فتهربوا منه
وهجروه ، ففكر في الرحيل الى بلاد السودان الاسلامية ، لمتابعة نشاطه
الحيرى (٤٤ م) .

واذا كان أبى زرع يرى أن يحيى بن ابراهيم له الفضل في توجيه
أنظار عبد الله بن ياسين الى اقامة رباط للتعبيد بدلا من الهجرة الى السودان
فمن الواضح أن ابن ياسين كان في أول مراحل نشاطه في جدالة لم يعرف
غيرها من قبائل الصحراء الصنهاجية ، من لمتونة ومسوفة ولطة وغيرها ،
وهو ما سوف يعود اليه ملخصا بعد تكوين الرباط ، فكانه تقطيع لأوصال
الرواية وتقديم بين بعض أجزائها وتأخير ، مما يجافى تواصل الأحداث
وتواترها التاريخي (٤٥) .

والذي نراه هنا هو استكمال قصة الدعوة السنية في جدالة من رواية
ابن شداد الصنهاجي التي يأخذ بها كل من ابن الأثير والنويري ، وإن خالفا
السياق التاريخي بتقديم الدعوة في لمتونة على الدعوة في جدالة (٤٦) .

فعندما استشعر عبد الله بن ياسين قوة المعارضين الذين التفوا حول
رؤسائهم في شبه حزب رسمي رأى تحريض أنصاره على التحزب في تجمع
مضاد ، يعمل على استخدام القوة في الدفاع عن نفسه ، عن طريق اقامة
جيش مسلح ، واتخاذ رمز خاص لتلك القوة ، ممثلا في رايتها المميزة ،
واختيار أمير للقيادة وإدارة الحرب ضد « مخالف الحق » وهو يحيى بن
ابراهيم الجدالي ، الذي كان يظهر وكأنه المستشار (المساعد) للفقيه ، حامل
أمانة الشريعة (٤٧) .

(٤٤م) روض القرطاس ، ص ١٢٤ - حيث النص على انهم عندما تهربوا منه وهجروا
ونافروه ، وثقل ذلك عليهم أراد الرحيل عنهم الى بلاد السودان الذين دخلوا في الاسلام .
(٤٥) أنظر روض القرطاس ، ص ١٢٦ .

(٤٦) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ - حيث البدء بلمتونة ، ص ٦٢٠ - حيث وعادوا الى
جدالة ، النويري ، أبو ضيف ، ص ٣٧٧ (لمتونة) وص ٣٧٨ (جدالة) ، وتحقيق حسين
نصار ، ص ٢٥٤ (لمتونة) ، ص ٢٥٦ (جدالة) .

(٤٧) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ ، وقارن النويري ، أبو ضيف ، ص ٣٧٨ ، حسين
نصار ، ص ٢٥٦ .

في أرض لتونة :

والذي يفهم من رواية البكري انه عندما قويت جماعة أهل الحق في مواجهة المعارضين من الجداليين نقلت نشاطها الى أرض لتونة المجاورة حيث دخلوا جبلهم الحصين وغنموا أموالهم رغم قلة عددهم (٤٨) الا اذا كان ذلك قد تم بترتيب مسبق مع أعوان « دعوة الحق » في لتونة ، حيث تشير الروايات الى حسن استقبال اللمتونيين لابن ياسين الذي كان يحيي الجدالي يأخذ بزمام جملة تعظيما لشريعة الاسلام (٤٨ م) بصرف النظر عن اختلاف ترتيب الأحداث .

وهكذا تنتقل قيادة دعوة الحق من أرض جدالة ، الى أرض لتونة حيث تبدأ حركة التاهيل الاسلامية - في شكلها المالكى - على نطاق واسع ، وبمفاهيم أعمق ، وامكانيات أكبر ، مع ضوابط عملية مثلة في تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكان من الطبيعي أن يؤدي مثل هذا التشدد في محاولة العودة بالاسلام الى نقائه الأول الى رد فعل مضاد فيما يتعلق بأمور المعاملات وشئون الحياة اليومية الجارية . فابن ياسين عندما قدم اليهم بصفتهم الفقيه العارف بشئون الدين ، والمعلم الحامل لسنة رسول الله قوبل بما يستحقه من التبجيل والاحترام . وهو عندما طالب بأداء الفروض من الصلاة والزكاة ، وافقوه على أنه أمر « قريب » أى سهل مقبول . ولكنه عندما طالب بتطبيق شريعة القرآن مما يتعلق بالقانون الجنائي ، من مثل : من قتل يقتل ، ومن سرق يقطع (تقطع يده) ، ومن زنى يجلد أو يرحم ، رفضوا ذلك ، قائلين هذا « أمر لا يلزمنا » (٤٩) . على

(٤٨) البكري ، ص ١٦٥ - حيث النص على أن غزاة الجداليين من أعوان ابن ياسين كانوا سبعة رجال فقط ، الأمر الذي قد يعنى أنهم أخذوا لتونة على غرة ، الا اذا كان استخدام الرقم سبعة له مدلول رمزي كما هو الحال عند الشيعة ، حيث نجد - في روض القرطاس ان الجداليين الذين ابتنوا أول رباط لابن ياسين كانوا ٧ (سبعة) ، وأن ابن ياسين بعد الخروج من الرباط جمع أشياع القبائل وظل يدعوهم الى التوبة ٧ (سبعة) أيام - الأمر الذي يشكك في علاقة ما بن تنظيم الدعوة المرابطية السنية والدعوة الاسماعيلية الفاطمية في منطقة القبائل بقسنطينة (ج ٢ ، ص ٥٥٧) .

(٤٨ م) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ ، النويري ، أبو ضيف ٣٧٧ - حيث النص على انهم انتهوا الى قبيلة لتونة ، على رتبة عالية ، وأن أعيان لتونة وأكابرهم خرجوا للسلام على الزعيم الجدالي الذي عرفهم ان الفقه هو حامل سنة الرسول ، وانه جاء يعلم أهل الصحراء ما يلزمهم من دين الاسلام ، وقارن نشر حسين نصار ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٤٩) ابن الأثير ، ج ٩ ، ص ٦١٩ ، وقارن النويري ، أبو ضيف ، ص ٣٧٧ ، وحسين نصار ، ح ٤ ، ص ٢٥٥ - حيث « أمر لا يلزمنا ، ولا ندخل تحت » .

أساس أنهم يرون أن القوانين العرفية (الطبيعية) المطبقة عندهم كانت تؤدي الغرض منها (٤٩ م) ، فكأنهم يطالبون بالفصل بين الشريعة الدينية وبين القوانين المدنية ، أو الفصل بين الدين والدولة المتمثل في مقولة اعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله (٥٠) .

والذي يلفت النظر أن حركة الإصلاح في الصحراء ، تنص بشدة على أداء كل من فريضة الصلاة والزكاة دون إشارة واضحة إلى الصيام (٥١) . ولا ندري ان كان ذلك يعني أن الصوم في الصحراء كان أمرا هينا بالنسبة لأهلها المعتادين على شطف العيش ، أم أن الجوع في البادية - مع كثرة التنقل والسفر - كان لا يزين لهم التفكير كثيرا في الصوم ، وانه على العكس من ذلك كان يؤدي إلى إلحاح المسئولين في جباية الزكاة والصدقات وغيرها من الجبايات ، ممن كانوا يستطيعون ذلك ، وخاصة من أهل الواحات والقرى - وهنا لا بأس من التفكير فقهيا في أن المسافرين يمكنهم أرجاء الأداء .

والخلاصة أن « دعوة الحق » اصطدمت في لمثونة بحركة مقاومة أشبه بتلك التي صادفتها في بلد جدالة . ولكنه إذا كانت بعض الروايات تقول أن اللمتونيين عندما استنقلوا حسيبة ابن ياسين قالوا له : اذهب إلى غيرنا ، فرحل بصحبه الرئيسى الجدالي يحيى بن إبراهيم ، فإن من المقبول أن نأخذ

(٤٩ م) أنظر فيما سبق ، ص ١٧٧ ، وفيما بعد ص ٥٢ ص ١٨١ .

(٥٠) وهي المسألة المثارة حاليا في كل من العالمين العربى والاسلامى ، بين جماعات المسلمين المتشددون الذين يرون ان عملية انقاذ عالم الاسلام مما دهاه من تدنى لا تتأتى إلا بالرجوع بالاسلام إلى ما كان عليه في عصر « السلف الصالح » ، الأمر الذى لا يتحقق إلا في ظل حكومة تطبق الشريعة الاسلامية بشقيها : الدينى المتعلق بالاعتقادات والفرائض ، والدنيوى المتمثل في القوانين المدنية ، وخاصة تطبيق الحدود الاسلامية ، بدلا من القوانين الجنائية الحديثة المبينة على قوانين الطبيعة والسياسة العقلية ، وهي التى تتفق مع روح الاسلام ، والصالح العام ، وهي المسألة التى يصل الخلاف فيها - حاليا وهو الأمر المستغرب - إلى حد قطع أسباب الود ، واستباحة استخدام العنف بدلا من الحوار والاقناع بالرأى ، الأمر الذى لا يتفق مع استقرار عصر العلم ، والتنوير والحرية ، عصر حقوق الانسان كائنا من كان ، رجلا كان أم امرأة مما لا تنكره مصلحة ولا شرع ولا دين .

(٥١) أنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ ، النويرى أبو ضيف ، ص ٣٧٧ ، حسين نصار ،

ج ٢٤ ص ٢٥٥ ، القوطاس ، ص ١٢٦ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث التركيز على أخذ الصدقات .

برواية البكرى التى تقول بشئ شكل قصصى ، أن أمر الأنصار الجدد من اللمتونيين كان يزداد قوة ، بعد أن استعملوا على أنفسهم يحيى بن عمر بن تلاجاجين فى الوقت الذى كان عبد الله بن ياسين ، رافضا لطعامهم وشرايهم ، على اعتبار الشك فى أنها حرام غير مشروعة فكأنه ضرب عليهم نوعا من الحرمان الكنسى (excommunication) (٥٢) .

معسكر أهل الحق : مدينة ابن ياسين الفاضلة :

والهم أن ذلك كان بداية لانفصال جماعة « أهل الحق » عن بقية « المحرومين » (من رضاء الفقيه) من أهل لمتونة . فلقد قرر عبد الله بن ياسين بناء مدينة خاصة به وأنصاره ، هى التى عرفت باسم « ارتننى » ، والتى تقرر فى عمارتها اتباع شروط المدينة الإسلامية على عهد عمر بن الخطاب ، وهى « ألا يشف (يرتفع فيها) بناء بعضهم على بناء بعض » (٥٣) ، بمعنى تحقيق مبدأ المساواة والأفقية فى عمارة بيوت المدينة ذات الطابق الواحد عادة ، الأمر الذى جعل من الأفقية واحدة من أهم سمات العمارة الإسلامية المبكرة . وبفضل البساطة فى المظهر والتقوى فى المخبر ، أصبحت « ارتننى » رباطا وسط لمتونة ، ومركزا للدعوة السنية فى قلب صحنها الصحراء .

والهم أن ضغوط الالتزام بالخط الرفيع الذى يفصل بين الحلال

(٥٢) أنظر البكرى ، ص ١٦٥ - حيث النص : وعبد الله بن ياسين مقيم فيهم ، متورع عن أكل لحمانهم وشرب البانهم ، لما كانت أموالهم غير طيبة ، وإنما كان عيشه من صد البرية . وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ - حيث الجوهر هو يحيى الجدلى ، الذى يطلب من ابن ياسين أن تكون الامارة لأبى بكر بن عمر رأس لمتونة وكبيرها ، والذى سماه ، كما تنص الرواية بـ « أمير المسلمين » . وقارن التويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٧٧ - حيث النص على أن زعماء لمتونة طلبوا ، ومنهم أبو بكر بن عمر ، من عبد الله بن ياسين أن يعلمهم ما يلزمهم من الدين وأنهم رفضوا الحدود من القطع والجلد والرجم ، ص ٣٧٨ - حيث أبو بكر ابن عمر ، والهامش ٧ - حيث نقل القيادة إليه بعد وفاة يحيى بن إبراهيم الجدلى ، وص ٣٧٩ - حيث عقد الراية لأبى بكر بن عمر ، وتسميته بأمر المسلمين ، ص ٣٨٠ - حيث حسد الجوهر (يحيى الجدلى) لأبى بكر بن عمر ، ونشر حسين نصار ، ج ٢٤ ص ٢٥٥ - ٢٥٧ ، وأنظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٢ - ١٨٣ - حيث هلك يحيى بن إبراهيم واقترب أمرهم ، وأطرحوا عبد الله بن ياسين ، واستمعوا لعلمه ، وتركوا الأخذ عنه ، لما تجشعوا منه مشاق التكليف ، فأعرض عنهم وترهب ، وتنسك يحيى بن عمر بن تلاكاكين - من رؤساء لمتونة .

(٥٣) البكرى ، ص ١٦٥ .

والحرّام أو بين الخير والشر لم يلبث أن فجر سكون الامتثال للأوامر ، والسمع والطاعة . وفي ذلك قالت بعض الروايات أن « أهل الحق » نعموا على ابن ياسين بعض قراراته عندما وجدوا تناقضا في عدد من أحكامه ، الأمر الذي أدى الى الخروج عليه . وتقول رواية البكرى أن الذين قادوا الثورة على ابن ياسين فقيه يدعى الجوهر ، بمعاونة اثنين من رؤساء لمتونة : أحدهما يدعى أيار ، والآخر انتكوا (٥٤) . ومن الواضح أن فتنة الجوهر لم تثر خواطر اللمتونيين فقط ، بل جميع الصنهاجيين الذين لم يرتفع لهم صوت عندما هب المعارضون لابن ياسين يجرّدونه - خطوة بعد أخرى - من سلطاته الروحية والمدنية التي كان يمارسها جميعا بشكل فعل . فلقد بدأوا بعزله عن « الرأي والشورى » ، بمعنى تجريده من السلطات السياسية ، ثم انهم « قبضوا منه بيت مالهم » ، والمال عصب السياسة والحرب كما نعرف ، وانتهى الأمر ليس بطرده من المدينة فقط ، بل وبهدم داره بعد نهبا وتخريب أثاثها (٥٥) - حتى لا يفكر في العودة ثانية .

وبذلك انتهى مشروع المدينة الفاضلة التي أقامها ابن ياسين ، بناء على الفكر السنّي المالكي ، ولم ترتفع أصوات المعارضة لهذا العمل المناهض للأصولية الإسلامية الا من رباط وجاج بن زللو في أقصى السوس على مصب الوادي في البحر المحيط ، حيث أدين الثوار ، وأهدرت دماء زعماء الثورة والمساندين لهم (٥٦) .

والحقيقة أن ما تقوله رواية البكرى من أن وجاج أمر ابن ياسين بالعودة فرجع وقتل الذين قاموا عليه ، كما قتل كثيرا من الخلق الذين استوجب الأمر قتلهم (بحرابة أو فسق) ، فهو يعبر عما حدث بعد إقامة الرباط وتكوين النواة الأولى من المرابطين الذين وقع عليهم نشر الدعوة بالترغيب والترهيب ، والذين استولوا « على الصحرا كلها » ، كما تختتم بذلك نفس رواية البكرى (٥٧) .

(٥٤) البكرى ، ص ١٦٥ .

(٥٥) البكرى ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٥٦) انظر البكرى ، ص ١٦٦ - حيث النص على أن ابن ياسين « خرج مستخفا من قبائل صنهاجة الى أن أتى وجاج بن زلوى ، فقيه (ملكوس) فعاتبهم وحاج عن ما كان منهم الى عبد الله ، وأعلمهم أن من خالف أمر عبد الله فقد فارق الجماعة ، وأن دمه هدر » .

(٥٧) نفس المصدر ، ص ١٦٦ - حيث النص أيضا على أن جميع القبائل أجابت ابن ياسين « ودخلوا في دعوته والتزموا السنة به ثم نهضوا الى لمطة » .

الرباط :

رباط عبد الله بن ياسين :

والأمر المستغرب فى بداية حركة المرابطين بمجهودات عبد الله بن ياسين ما قد يظن من أن أهم معالمها وهو الرباط لم يلبث أنظار المعاصرين ، حيث تمر رواية البكرى على أهمية تأسيس الرباط من الكرام فلا تقدم لنا بعضاً من تفصيلاتها ، وكأنها لا توليها شيئاً من الاهتمام ، وهذا ليس بصحيح أبداً ، فالفضل يرجع للبكرى المعاصر فى تعريفنا بأهم التفاصيل التنظيمية الخاصة بالرباط ورجائه ، مما يدخل فى مجال الحسبة أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بمعنى أن اهتمام أهل العصر كان منصبا على حركة التجديد الإسلامية ، والتأهيل الممنونى لرجال المرابطين أكثر من الاهتمام بالأمور السياسية والعسكرية ، أو النفعية على وجه العموم ، مثل الظروف التى أدت الى اقامة الرباط ، واختيار المكان ، واعداد المرابطين ، وطريقة معاشهم ، وأساليب تدريباتهم اليومية من مادية ومعنوية .

والهدف الأول من الرباط : فى الاسلام كما يرد فى الآيات القرآنية هو الدفاع عن حظيرة الاسلام وحماه بتجميع العباد المجاهدين على الحدود وتجهيزهم بالعدد والعتاد ، من أنواع الأسلحة وخاصة الخيل (١) ، للدفاع الأعداء ، وخاصة العدو البحرى ، فى المواضع الساحلية المعرضة للخطر ، التى عرفت باسم الثغور - فكانها فتحات ضعيفة يلزمها التحصين والحماية . وهكذا كانت الثغور فى « جزيرة (بلاد) المغرب » بحرية ، كما اشتهرت بأنها أربطة للجهاد وللعبادة ، وكان من أشهرها فى قرننا الهـ ٥ / ١١ م رباط سوسة ورباط المنستير فى منطقة الساحل التونسية (٢) وفى السوس

(١) سورة ٨ - آية ٦٠ - حيث النص « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم - والخيل فى الحروب القديمة كانت بمثابة العربات المدرعة ، السريعة الحركة ، فى الحروب الحديثة .

(٢) البكرى ، ص ٣٥ - حيث النص على رباط سوسة الذى عرف بمحرس الرباط وأنه عظيم كالمدينة ، وأنه مأوى للصالحين وبداخله حصن كان هو القصبه - ص ٣٦ - حيث رباط المنستير كالمدينة المستقلة بمرافقها من الطواحين الفارسية (الهوائية) وصهاريج المياه (المواجه) - والحمامات فى حصن الرباط حيث النساء المرابطات .

Manuel d'Art Musulman

وانظر ج . مارسه ، المجلد فى الفن الاسلامى

ج ١ ص ٤٧ - ٤٩ - حيث بناء الرباط (المحرس) على نسق الجامع من حيث التخطيط المربع =

الأقصى رباط ماسة (ما سبق ، ص ١٧٥) . أما عن أشهر رباط المغرب حاليا وهي مدينة الرباط (رباط الفتح) التي أنشئت في القرن التالي (٦ هـ / ١١ م) - فهي وريثة رباط عبد الله بن ياسين . أما في المشرق الآسيوي فقد تحولت ثغور الشام في العصر العباسي الى عواصم ، جمع عاصمة بمعنى الحصن والحامية ، بينما حملت ثغور أواسط آسيا وبلاذ ما وراء النهر اسم الربط وواحدتها « الرباط » وظلت كذلك حتى بعد أن تحولت الى « تكايا » للعباد أو « فنادق » للقوافل في طريق الحرير (٣) .

وعلى هذا الأساس اعتبرنا مدينة « ارتنني » حيث كانت دار عبد الله ابن ياسين مركز الحكم ، وساحتها (صحنها) مكان الصلاة على ما نظن ، مكان الرباط الأول الذي اعتكفت فيه جماعة أهل الحق ، لكي تصبح النواة الصالحة للمجتمع السني الفاضل الذي كان يطمح فيه ابن ياسين . وهكذا لم يكن الرجل الذي يوصف بالعلم والورع ، والشهامة وقوة النفس والحزم ، وحسن التدبير والصبر ، لياس من مجرد الفشل للمرة الثانية في لمنونة بعد فشله الأول في جدالة . ولا بأس أن يكون وقوف الزعيم للمتونى يحيى بن عمر بن تلاجاجين الى جانبه مما زاد من صلابته ، وحماه من كآبة اليأس والفتور . وهنا ينبغي أن ينسب شرف مؤازرة الفقيه وتشريفه (الذي يعزى خطأ للزعيم الجدالي الأول ، يحيى بن ابراهيم) الى الزعيم للمتونى الثاني يحيى بن عمر - وهو الأمر البين (٤) .

= والصحن المكشوف (السماوى) ، ولكنه من طابقي : الأول للسكنى والمخازن ، والأعلى ، حيث المصلى للعبادة والتعلم - أما المنارة المدورة ، حيث استخدام الإشارة الضوئية ، فتقع في الركن الجنوبي الشرقي . وأنظر محمد توفيق بليغ ، مطبوعات جمعية الآثار ، بالاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ٤٧ (سورة) ، ص ٤٤ (المنستير) .

(٣) أنظر للمؤلف ، الترك والاسلام ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ١٩٧٩ ، المجلد ١٠ ، عدد ٢ ، وأنظر محمد توفيق بليغ ، نشأة الرباط وتطوره ، مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية ١٩٦٨ ، ص ٣٨ - ٤٠ .

(٤) أنظر البكرى ، ص ١٦٥ - حيث من الواضح ان الرئاسة المدنية لجماعة ابن ياسين بعد دخول لمنونة مباشرة ، كانت ليحيى بن عمر تلاجاجين - بينما الجوهر وهو أحد الفقهاء ، كما سبق ، ص ١٧٠ ربما كاو ممن وصفهم يحيى بن ابراهيم وهو في القروان بانهم قليلوا العلم ، ضميموا الايمان ، أنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ - حيث انتقل الرئاسة من يحيى بن ابراهيم الجدالي (الجوهر) الى يحيى بن عمر للمتونى ، وان كان بشكل غامض ، والنويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٧٧ ، حيث كان أبو بكر بن عمر بين المرجين بالفقيه. ومد معه عند قدمهم (من جدالة) الى لمنونة ، وقارن ص ٣٧٨ - حيث رواية =

مكان الرباط :

من المهم الإشارة الى أن تاريخ انشاء رباط عبد الله بن ياسين ما زال من الأمور الغامضة في تاريخ قيام دولة المرابطين ، رغم أهميته من حيث كونه الحدث المحوري الذي يدور حوله تاريخ تلك الفترة . هذا ، كما يحيط الغموض أيضا بالمكان الذي أقيم فيه الرباط ما بين مصب وادي السوس الأقصى ومصب نهر السنغال .

وفيما يتعلق بتاريخ اقامة الرباط ، فالمعروف أن اقامته تمت بعد تجربتي فشل الدعوة في كل من جدالة على عهد الرئيس يحيى بن ابراهيم ، ولتنونة على عهد يحيى بن عمر . واذا كنا قد أخذنا بسنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م كتاريخ لبدء الدعوة في جدالة ، فلا بأس أن يكون بناء الرباط في سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ، على أساس أن تاريخ غزو جدالة بعد بناء الرباط كان في السنة التالية ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م ، حسبما ينص ابن أبي زرع^(٥) . وهو ما ينسجم مع تاريخ خروج المرابطين من الصحراء الى غزو درعة وسجلماسة سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م ، حسبما ينص على ذلك ابن خلدون^(٦) .

أما عن مكان الرباط فترجع الرواية فضل اختياره الى الزعيم اللمتوني

= ابن شداد (الزيري) . وفيها ان الزعيم الجدالي تنازل عن الرئاسة لأبي بكر بن عمر منذ بدأت الفتن في جدالة ، أما ابن أبي زرع فهو في محاولته ترتيب الأحداث في سياق تاريخي قصصي لا يشوبه اختلافات زمنية أو مكانية أو شخصية جعل يحيى بن ابراهيم الجدالي الشخصية المركزية من البداية الى تحقيق النصر النهائي ، فهو الذي بدأ بالدعوة في كل من جدالة ولتنونة دفعة واحدة (ص ١٢٤) لكي يبنى الرباط منذ أول اختلاف (ص ١٢٥) . فهو الذي هزم جدالة ولتنونة ومسوفة (ص ١٢٦) ، كما أخضع بلاد القبلة والمصامدة وسائر بلاد المغرب (ص ١٣٦) - قبل أن تأتي وفاته فيقدم عليهم يحيى (أخو أبي بكر) بن عمر اللمتوني . أما ابن خلدون الذي يعرف رواية القرطاس فهو يقدم ملخصا مفيدا ، بجمل فيه هلاك يحيى الجدالي سبب افتراق أمرهم ، وبذلك يكون صاحب الرباط هو يحيى (أخو أبي بكر) بن عمر ابن تلاكين ويكون غزو لتنونة وجدالة ومسوفة تحت رايته .

(٥) القرطاس ، ص ١٢٦ - حيث السنة ٤٣٤ هـ / ٣ - ١٠٤٢ م التي عدلناها الى

٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م كما سبق ، ص ١٧٠ .

(٦) العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ .

يحيى بن عمر، الشريك المدني في رئاسة «أهل الحق» الى جانب ابن ياسين (٧) .

وفي اختيار الرباط تقول رواية القرطاس - بصرف النظر عن الترتيب الزمني - انه عندما كاد اليأس يغلب على عبد الله بن ياسين ، ففكر في ترك الصحراء والذهاب للدعوة في بلاد السودان المسلمة جنوبا ، اعترض « يحيى بن عمر » على اقتراحه هذا ، وعرفه بوجود جزيرة قريبة في بلاد جدالة ، تتوفر فيها جميع الشروط اللازمة للحياة الكريمة ، حسبما تقضى قواعد الدين (٨) . فالموقع حصين من حيث هو جزيرة يحيط بها ماء البحر من كل جانب ، وان كانت في وقت الجزر (عندما ينحسر الماء) يمكن الدخول اليها مشيا على الأقدام ، ولكنه في وقت المد (عند امتلاء البحر) يكون الدخول اليها في الزوارق . أما من حيث الطعام فيها فهو حلال محض لا شك فيه ، يجمع ما بين خيرات البر والبحر من ثمار الشجر وصيد الوحش والطير والسماك (الحوت) - وكل ذلك دون عناء كبير ، الأمر الذي يحقق لهم العبادة دون أن يشغلهم ، هم الطعام الى ما شاء الله حتى الموت (٩) .

واذا كان ابن خلدون يأخذ برواية ابن أبي زرع فهو يعد لها حسبما يتراءى له من أصول المنهج العلمي . فالجزيرة عنده ربوة عالية تتفق مع وصف بلاد لمتونة الجبلية ، والماء المحيط بالجزيرة مع نهر النيل (النيجر)

(٧) والحقيقة ان قصة الرباط ليست واضحة في الروايتين الأساسيتين ، وهما : الرواية الأندلسية للبكرى المعاصر ، والرواية الإفريقية لابن شداد الصنهاجي المتأخر قليلا عن البكرى ، فهي تكاد تضيع فيهما في غمرة الانتفاضة اللمتونية ضد ابن ياسين . والحقيقة انه اذا كان البكرى قد عوض ما أثاره من الغموض بالتفصيلات المدهشة عن الحياة في الرباط مما يجعله حقيقة ناصعة مثل : الترتيب الدقيق الذي خطط للدخول في الرباط ، واللوائح المنظمة للمقوبات الخاصة بالجرائم المختلفة والتي عادة ما يكون تطبيقها باثر رجعي ، كما يقال الآن ، والذي يمكن في تلك الحال أن يكون الاتهام فيها أمرا محتملا وليس أكيدا ، كنوع من التزكية والتطهر ، فان رواية ابن شداد أثارت الבלبله في كتابات المؤرخين ، حتى الكبار منهم مثل ابن الأثير ، والنويري . أما عن ابن أبي زرع ، صاحب روض القرطاس ورغم ما فيه من الاضطرابات فيرجع اليه الفضل في محاولة ترتيب الأحداث اعتبارا من تأسيس الرباط ، وبالتالي محاولة لقاء الضوء على ظروف بنائه ، الأمر الذي أخذ به ابن خلدون ، وأكده غيره من المحدثين .

(٨) القرطاس ، ص ١٢٤ - مع ملاحظة جعل يحيى بن ابراهيم الجدالي مكان يحيى ابن عمر - مما سبقت الإشارة اليه - ص ١٨٤ - حيث النص على انه أى يحيى (الجدالي) لم يرتكبه بل قال له : هل لك في رأى أشير به عليك ان كنت تريد الأخيرة . . . الخ .
(٩) القرطاس ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

والسنغال عند الجغرافيين العرب) الذى يهيم الماء العذب اللازم لشرب الجماعة والذى تقوم عليه بطبيعة الحال حياة الشجر والوحش والطيور (١٠) .

والذى نراه أن وصف مكان الرباط بأنه جزيرة فى البحر فى بعض نواحي جدالة وملتونة ، كما يرد فى قرطاس ابن أبى زرع يمكن أن ينطبق على واحد من ثلاثة مواضع على شاطئ الأطلس : أولها جزيرة أيونى أو جزيرة السلاحف البحرية (الترسا) عند البكرى (ما سبق ، ص ٩٤) . ولكن تلك الجزيرة لما كانت غير عامرة الا لصيد البحر من الأسماك والسلاحف الى جانب بقايا الدنبر التى تقذفها الحيتان فى البحر فترسو على الشط ، فهى اذن ليست صالحة لاقامة رباط يحوى أعدادا كبيرة من الناس لنقص الغذاء فيها ، والماء ، وهى لذلك مستبعدة .

أما عن الموضوعين الآخرين فأولهما رباط ماسة الذى رأينا احتمال كونه رباط وجاج ابن زللو (رباط ملكوس) افتراضا جيدا (ما سبق ، ص ١٧٣) بسبب كونه فى مصب وادى ماست ، فى تلك المنطقة الغنية بخيراتها الزراعية ، وبوفرة مياهها . ويؤيد افتراضنا هذا وصف أيون الأفريقى الذى يكاد يطابق وصف ابن خلدون لرباط ابن ياسين من حيث وجوده فى منطقة جزائر بحرية يحيط بها الماء . فمدينة ماسة عبارة عن ٣ (ثلاث) مدن على ساحل المحيط ، ونهر السوس يمر بينها . وهذا النهر يعبر خوصا فى الصيف ولكن لا يمكن اجتيازه شتاء الا فى مراكب صغيرة ليست مهيأة تماما لتلك المهمة (١١) . هذا ، ومما يوجه النظر الى منطقة ماست ، ما تقوله رواية القرطاس أيضا من لجوء عبد الله بن ياسين الى وجاج

(١٠) العبر ج ٦ ، ص ١٨٣ - حيث النص على هلاك يحيى بن ابراهيم ، وترك الأحذ عن ابن ياسين « لما تجشعوا فيه من مشاق التكليف ، فأعرض عنهم ، وترهب ، ونسك يحيى بن عمر بن تلاكين ، من رؤساء ملتونة » . وعن وصف الرباط ، يقول : « فنبذوا الناس فى ربوة يحيط بها بحر النيل من جهاتها ضحاحا فى المصيف وغمر فى الشتاء ، فتعود جزرا منقطعة . وهنا يكون ابن خلدون قد غابت عنه ظاهرة المد والجزر ، وجعل بدلا عنها ظاهرة الفيضان النهري وان وضع الصيف مكان الشتاء - حيث فيضان الأنهار المدارية موسميا فى الصيف ، وهو ما لاحظته د . عصمت فى رسالتها عن دور المرابطين فى نشر الاسلام فى غرب إفريقيا ، ص ٧١ - ٧٢ .

(١١) لسون الأفريقى ، ص ١٢٥ ، وه ٦٨ - حيث أحياه ماست الثلاثة هي : غبالو ، وأغادير نسوق ، وتاسلنوت .

ابن زللو عقب طرده من « ارتنى » ، رباط لمتونة المحلى وهدم داره هناك ، والقول بأنه عاد مؤيدا بمساندة وجاج لكى يقاتل خصومه ويهزمهم ويقتص منهم ، قبل فتحه كل بلاد الصحراء (ما سبق ، ص ١٨٢) .

وفيما يتعلق بالموضع الثالث والآخر ، فالحقيقة أن تحديد ابن خلدون لمكان الرباط فى النيل حاز موافقة جمهرة الباحثين ، وخاصة منذ ترجمة الجزء الخاص بالمغرب (بلاد البربر) من كتاب العبر بمعرفة دسلان (De Slane) ، الذى حدد جزيرة الرباط بمنطقة مصب نهر السنغال فى المحيط الأطلسى (ما سبق ، ص ١٨٧ ، هـ ١٠) . ويرجح هذا الاحتمال بطبيعة الحال ، قرب مواطن جدالة وملتونة ، بشكل عام ، كما ان منطقة الجنوب الصحراوى المتاخم لقناة كانت موطن آل عبد الله بن ياسين من جزولة (ما سبق ، ص ١٧٤) بصفة خاصة ، وهذا ما كان يلج عليه فى أن ينقل نشاطه الدعائى جنوبا نحو بلاد السودان الاسلامية ، منطقة التكرور . ولكل ذلك كانت منطقة مصب السنغال هى المنطقة المثالية بالنسبة لابن ياسين ليقوم « الرباط » (١٢) .

(١٢) انظر العبر ج ٦ ص ١٨٣ ، وترجمة دسلان ، ج ١ ص ٦٩ وهـ ٤ - حيث المقارنة مع وصف القوط للرباط ، والنص على ان ابن خلدون محق عندما يجعل الرباط فى نهر السنغال ، من حيث أن من المعروف ان هذا النهر يفصل بين الجنس الزنجى (الأسود) والجنس البربرى (الأبيض) . ويؤيد ذلك ما لاحظته البرتغاليون سنة ١٤٤٦ ، عندما كانوا يقومون باستكشافاتهم الأولى فى الساحل الافريقى الغربى حيث كانت قبائل الصنهاجى (Assanngi) أو الزنجية (Zanaga) تعيش على الضفة الشمالية لنهر السنغال ، بينما كانت قبائل اليالوف (Yalof) أو الولوف (Wolof) أى القبائل السودانية تحتل الجانب الآخر (الجنوبى) . هذا ، كما يجب ملاحظة ان السنغال هو تحريف بكلمة الصنهاج (Asnaga) أو زنجان (Zenaguen) ، وهى جمع صنهاج (زنجاج : Zenag أى صنهاجة . وقارن حسن احمد محمود ، المرباطون ص ١٢٤ - ١٢٥ - حيث اقتراح حسين مؤنس (فى مقدمة رياض النفوس) ان يكون الرباط فيما يلى تارودانت جنوبا على حدود الصحراء ، واقتراح ديلاشابل أن يكون الرباط قرب بلدة اوليل فى خليج ارجان (Arguin) قبل ترجيع مصب السنغال الأدنى . وقارن عصمت دندش ، دور المرباطين فى نشر الاسلام فى غرب افريقيا ، ص ٧٠ وما بعدها - حيث نفس الاختلافات مع محاولة نقد موضع الرباط فى « حوض السنغال الذى تسيطر عليه ممالك السودان » ؟ ، واضافة اقتراح عنان أن يكون الرباط جزيرة فى منحنى نهر النيجر .

نظام المراقبة :

الذى يفهم من مجمل الروايات الخاصة ببناء الرباط أن الذين دخلوه بصحبة الفقيه : عبد الله بن ياسين (الجزولى : الجدالى) والرئيس : يحيى بن عمر بن تلاكاكين (تلاجاجين) اللمتونى ، كانوا عصبة قليلة لم تبلغ أكثر من ٧ (سبعة) أفراد ، وهو الأمر غير المقبول من غير شك . ونحن نقبل رقم الـ ٧٠ (سبعين) رجلا الذى يقول البكرى أنهم دخلوا لمتونة ، فكانوا نواة « رباط » ارتننى « فى أرض لمتونة ، على أساس أنه وضع فى غير موضعه الصحيح (١٣) . فلا أقل من هذا العدد من الأنصار يكونون فى معية الداعى المالكي ، وصاحبه الزعيم اللمتونى بما له من الشأن والجاه ، مهما كانت النعمة على دعوتهما ، والنوء بثقل التكليف التى فرضها على الناس فى كل من بلاد جدالة و لمتونة . وأما القول بأن القصد كان البحث عن ملجأ متواضع من أجل التعب والتنسك ، فاعرف أن الرباط كان فى الأصل مؤسسة عسكرية جهادية ، وأن هذا ما عبر عنه ابن ياسين عندما فكر فى المسير الى بلاد السودان الاسلامية (ما سبق . ص ١٨٦) التى يكون الرباط على حدودها من أجل مجاهدة الكفار منهم والعمل على نشر الاسلام الصحيح بين الجميع . وهذا لا يمنع بطبيعة الحال أن تكون البداية متواضعة ، وأن يكون الهدف الأول المعلن عن التجمع فى الرباط هو العبادة .

وإذا كان أبى زرع ينص على أن جماعة المؤسسين للرباط من مريدي ابن ياسين كانوا ٧ (سبعة) نفر من الجداليين (١٤) ، فإن هذا النص يمكن قبوله على أساس أن هؤلاء الجداليين كانوا من الأنصار الأوائل الذين دخلوا معه الى بلاد لمتونة أو لحقوا به هناك ، وأنهم ظلوا أنصارا مخلصين ، فخرجوا مع من خرج معه من جمهور لمتونة تحت أمرة رئيسهم يحيى بن عمر بن تلاجاجين اللمتونى - ولا بأس أن يكون عددهم ٧٠ (سبعين) رجلا ، وهو الرقم الذى يقدمه البكرى ، وإن كان بمناسبة الدخول الى لمتونة وليس بمناسبة الخروج منها (ما سبق ، هـ ٤٦ ص ١٧٩) . والمهم أن جماعة المؤسسين من المرابطين ، اكتفت فى معاشها بالماكل الحلال المحض من ثمار الشجر وصيد البر والبحر ، وانقطعت الى حياة الزهد والعبادة لمدة ٣ (ثلاثة)

(١٣) انظر فيما سبق ، ص ١٧٩ وهـ ٤٨ - حيث الاشارة الى أهمية الرقم ٧ فى الفكر

الفاطمى الاسماعيلى .

(١٤) القرطاس ، ص ١٢٥ ، وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث النص على أنهم

دخلوا فى غياضها (الربوة) منفردين للعبادة .

أشهر ، وصلت خلالها أخبار تنسكهم الى أبناء القبائل فى المنطقة (١٥) ، الأمر الذى يعنى أن الدعاية للرباط كانت تسير جنباً الى جنب مع أعمال الورع والتقوى ، ان لم تكن تلك الأعمال التعبدية ، من : قراءة القرآن ، والاستمالة الى الآخرة ، والترغيب فى الثواب ، والتحذير من العذاب ، هى نفسها مادة الدعاية للجماعة ومصدرها . وفى ذلك تقول رواية القرطاس أنه عندما تسامع الناس بأخبارهم كثر « الوارد » عليهم « والتوابون » (١٦) ، فكان الداخلون فى الرباط ما بين وارد للسقى أى لطلب العلم والخير ، وتائب عن الذنب والشر ، فكانهم طلاب أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وهو المبدأ الإسلامى المنبثق عن الفكرة الأساسية فى الإسلام ، كما فى الديانات السماوية الأخرى ، مبدأ الحساب والثواب والعقاب ، الذى يعنى أن الحياة الدنيا لم تخلق عبثاً . ومن هنا كان تطبيق مبدأ التوبة كشرط مسبق لدخول الرباط ، وعن هذا الطريق تحول « أهل الحق » الى « توابين » قبل أن يصيروا « مرابطين » .

شروط الالتحاق بالرباط :

وهكذا نرى أن نظام الرباط كان يتكامل بشكل طبيعى مع مرور الوقت ، وخاصة بعد أن تهاقت المحرومون من أهل الصحراء وفقرائهم ، على طلب ثواب الجنة الذى وجدوا فيه عزاء لهم عن مشاق حياتهم ومتاعبها . والحقيقة أن الفضل يرجع الى البكرى فى التعريف بنظام الرباط من حيث تقرير مبدأ التوبة على الداخلين الجدد فى الجماعة وما يقتضيه من العقوبات المختلفة بدءاً من التعزير ، الى اقامة الحدود ، وحتى العقوبة العظمى ، وذلك حسب اللائحة التى وضعها عبد الله بن ياسين . وإذا لوحظ فى تطبيق العقوبات شيء من الصرامة ، مثل تطبيقها بأثر رجعى ، فإن ذلك يعنى حساباً مقتضى الحال بالنسبة لمجتمع الصحراء بعباداته الحشنة وأعرافه الحادة مما يسمح لأهل الحواضر بوصفه بمجتمع الجاهلية (ما سبق ، هـ ٤٥ ص ٧٥) . وتظهر القسوة فى تطبيق قواعد الشرع بشكل تاريخى سافر فى الصحراء ، عندما انطلق رجال عبد الله بن ياسين من الرباط ، يأمرزون بالمعروف وينهون عن المنكر فى بلاد القبائل ، والمطالبة « بحقوق الله » من أموال أهل القرى

(١٥) القرطاس ، ص ١٣٥ .

(١٦) القرطاس ، ص ١٢٥ وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث النص :

وتسامع بهم من فى قلبه مثقال حبة من خير ، فتسائلوا اليهم ، ودخلوا فى دينهم ، وغضبتهم .

والوحدات ، الأمر الذى أثار اشمئزاز وجاج بن زللو : أستاذ ابن ياسين ،
وقدوته فى المراقبة (ما بعد ٢٠٦) .

وهنا نود الإشارة الى أن بعض ما ينسبه البكرى الى فترة الرباط من
أعمال الشدة مع الواردين أو التوابين فى الرباط يمكن أن يكون قد اختلط
بما طبق من القوانين بصرامة - ربما كانت مبررة - مع المهزومين وخاصة
فى الصحراء ، من الأخوة وأبناء الجلدة ، ممن كان عليهم الالتحاق بصغوف
المجاهدين فى فترة التحول الحاسمة هذه ، حيث كانت الحاجة ماسة للرجال
قبل الأموال .

التوبة والتطهر :

وهكذا كان على عبد الله بن ياسين ومن معه من رؤساء الرابطة أن
يحسنوا اختيار المريدين بعد أن تزايد عدد الراغبين منهم فى الانتساب
للرباط ابتغاء عمل الخير وثواب الجنة . فكان عليهم أن يخضعوا الداخلين
الجدد فى زمرة الجماعة لاختبار حسن النية وصدق الإرادة مع قوة العزيمة
عن طريق تجربة التحمل النفسى والجسدى . ومن الواضح أن الرباط كان
لا يقبل الا الناضجين من الرجال ممن تخطوا مرحلة الشباب ، الأمر الذى كان
يعنى تمام الجسم مع كمال العقل ، ويضمن حسن التصرف . ويستنتج ذلك
مما كان يعرض على الداخل فى الدعوة بعد أن يعلن التوبة ، من أداء حقوق
الله فيما كان يمكن أن يكون قد اقترفه فى شبابه ، من الذنوب ، فيقام عليه
حد الزانى (١٠٠ سوط) ، وحد المفترى (٨٠ سوط) ، وحد الشارب
(للخمر ١٠٠ سوط) ، بل وربما زيد على ذلك زيادة فى الحيلة .

أما اذا اتضح من اجابة الرجل المستجوب أنه ارتكب جريمة القتل
مثلا ، فانهم يقتلونه « سواء اتاهم تائبا طائعا أو مجاهرا عاصيا » (١٧) .

وأداء فريضة الصلاة كان خاضعا للرقابة المشددة ، تحت العقوبة
الجسدية للمتخلف أو المقصر ، بل وكانت الصلاة تؤدى كاملة مرتين ، مرة
أولى بصفة شخصية كصلاة فردية ، ومرة بشكل رسمى كصلاة جماعة ،
عوضا عن التفریط . وهنا كان لكل ذنب عقوبته المناسبة ، فالتخلف عن

« الصلاة عقوبته ٢٠ (عشرين) سوطا ، وعن الركعة الواحدة ٥ (خمسة) أسواط (١٨) .

ومن الواضح أن هذه الترتيبات الخاصة بأداء الصلاة وبإقامة الحدود مما عرف في الرباط ظلت تطبق في العهد الأول للدولة المرابطية ، عهد « صحابة » عبد الله بن ياسين . فإمامة الصلاة في مساجدهم ظلت حكرا أو عملا شرفيا لأولئك الذين صلوا وراء ابن ياسين ، حتى ولو وجد بين المصلين من هو أكثر علما وورعا (١٩) . وأولئك الذين دانوا « لدولة الرباط » سواء بالقهر أو بالرغبة كان عليهم أن يخضعوا للامتحان الجسدى بعد اعلان التوبة (٢٠) .

وهكذا كان عبد الله بن ياسين يمكنه أن يأخذ الموافقة من الأمير يحيى ابن عمر لجلع ملاسيبه حتى ينزل به عقوبة التأديب الخفيف جلدا . وهو ما فعله الفقيه قبل أن يعرفه أن ذنبه التهور أثناء المعركة ومباشرة القتال بنفسه الأمر الذى عرض حياته للخطر ، وفى ذلك تعريض لهلاك عسكريه (٢١) .

الخروج من الرباط والعمل الإيجابى :

رغم النظام الصارم الذى اتبعه ابن ياسين فى التأهيل الدينى والنفسى لأهل الرباط ، فإن النصوص التى بين أيدينا لا تشير الى أى ترتيبات تتعلق

(١٨) البكرى ، ص ١٦٩ - حيث النص على أن أكثر عوامهم يصلون بغير وضوء إذا أعجلهم الأمر جزعا من الضرب .

(١٩) البكرى ، ص ١٦٩ - حيث النص : « وهم الآن (على عهد البكرى) لا تقدم طائفة منهم أحدا للصلاة الا من صلى وراء عبد الله ، وإن كان فى تلك الطائفة أقرا منه وأورع من لم يصل وراءه .

(٢٠) البكرى ، ص ١٦٩ - حيث النص على أنهم « يفعلون (هكذا) بمن تغلبوا عليه وأدخلوه فى رباطهم سواء أتاهم تايبا طايما أو غلبوا عليه مجاهرا عاصبا لا ينفعه توبته ولا يغنى عنه رجعتة . وقارن القرطاس ، ص ١٢٦ - حيث القول فى توبة قبائل صنهاجة : « كان كل من أقبل اليه قائبا منهم ظهره بأن يضربه مئة سوط ، ثم يعلمه القرآن » الخ .

(٢١) البكرى ، ص ١٦٧ ، وقارن القرطاس ، ص ١٢٧ - حيث عدد الضربات ٢٠ سوطا - وحيث تتلخص واجبات الأمير فى الحرب فى الوقوف وتحريض الناس وتوبة نفوسهم .

بإعداد العسكرى للجماعة ، فى أى من مجالات التأهيل البدنى أو الفنى أو التقنى . والحقيقة أنه لا بأس فى أن يكون المرابطون الأوائل فى غير حاجة الى التدريبات العسكرية من حيث أن أهل الصحراء من الجمالة كانوا معدين للأعمال العسكرية وخوض المعارك الحربية بحكم النشأة . فهم بنو رحالة ، اعتادوا مشاق الطرق الوعرة بأشكالها ، والتوحد فى القفر ، كما اعتادوا على أعمال الدفاع عن الديار ، واحترفوا أحيانا الغارة على الجيران . وهكذا انقطعت الجماعة الأولى الى أعمال العبادة والتسك . وإذا كان ابن أبى زرع ينص على أن شهرة الجماعة كانت قد ذاعت بين القبائل خلال ٢ (ثلاثة) أشهر فقط ، وأنه لما كثرت الوفود على الرباط فكر ابن ياسين جديا فى الخروج من الرباط لنشر دعوته - دون تحديد الوقت - فان الوقائع تدل على أن تلك المرحلة استغرقت ما يناهز الثلاث سنوات وأكثر من سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م (حيث التفكير فى إنشاء الرباط - ماسبق ص ١٨٥) الى سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م (حيث الخروج لغزو بلاد جدالة - المتأخرة للرباط - فما بعد ، ص ١٩٥) .

وإذا كانت الرواية الدارجة تنص على أن عبد الله بن ياسين ، قرر الخروج لمواجهة الأعداء عندما بلغ أنصاره ١٠٠٠ (ألف) رجل من أشرف القبائل ، كما يقول ابن أبى زرع (٢٢) ، بمعنى المحاربين الأشداء ، على أساس أن فرقة عسكرية من ألف مقاتل جيد لا تغلب من قلة ، كما يقول نص ابن خلدون ، فمن الواضح أن المقصود بتلك المقالة هو موقف الدفاع الذى يتحقق بفضل الاستقلال ، وليس الفتح والغزو ، بل الاكتفاء بالدعوة « لدولة الحق » (٢٣) . وهذا ما يفهم فعلا من تواتر الأحداث ، كما فى تكملة النصين السابقين ، حيث تؤكد رواية ابن أبى زرع أن ابن ياسين وجه الألف رجل من المرابطين لانداز أقوامهم ودعوتهم الى الدخول فى « دولة الرباط » ، وتحذيرهم من مغبة الرفض والعصيان حيث يكون الحكم للسيف - وهو حكم الله الذى ينصف « أهل الحق » (٢٤) . ومثل هذا ما تقوله رواية

(٢٢) القرطاس ، ص ١٢٥ - حيث النص على أنه عندما اجتمع له من التلاميذ نحو ١٠٠٠ رجل من أشرف صنهجة ، فسماهم « المرابطين » للزوم رابطته ، وأخذ يعلمهم الكتاب والسنة والوضوء والصلاة والزكاة .

(٢٣) أنظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث النص : « لما كان معهم ألف من الرجال ، قال لهم شيخهم عبد الله : ان ألفا لن تغلب من قلة ٠٠٠ » .

(٢٤) أنظر القرطاس ، ص ١٢٥ - حيث النص على أنهم لما تفقهوا وكثروا ، وعظم

ابن خلدون ملخصا ، من قول ابن ياسين ، « وقد تعين علينا القيام بالحق ، والدعاء اليه ، وحمل الكافة عليه ، فاخرجوا بنا لذلك » (٢٥) .

الدعوة السلمية قبل الأعمال الحربية :

ويؤكد ما نذهب اليه من أن حركة الألف رجل كانت للدعاية « لدولة الرباط » في قبائلهم ، ما تنص عليه رواية القرطاس استكمالا لما سبق ، من أن كل رجل من المرابطين سار الى قومه وعشيرته ، فوعظهم وأنذرهم دون جدوى ، اذ لم يكن منهم من يقبل . وعندئذ خرج اليهم عبد الله بن ياسين بنفسه وقام بمحاولة أخيرة لاستمالتهم الى دعوته . فجمع مؤتمرا عاما من رؤساء القبائل ، حاول فيه أن يعرفهم بأصول مذهبه ، فرغبهم في الثواب وخوفهم من العقاب ، ودعاهم الى التوبة والتطهر ، كما فعل أهل دعوة الحق في الرباط ، وذلك على طول ٧ (سبعة) أيام ، وهم لا يلتفتون اليه . وعندما أصابه اليأس آخر الأمر ، أعلن لأصحابه فشل التسوية السلمية وضرورة اللجوء الى القوة (٢٦) .

والذي تنص عليه الرواية هو أن أن الجيش المرابط الذي بدأ يغزو جدالة كان يتألف من ٣ (ثلاثة) آلاف رجل ، فهو اذن غير الألف ناسك الذين خرجوا الى القبائل الداعين للدخول في دولة الرباط . أما عن كيفية جمع الرجال فأغلب الظن أنه تم في مكان مؤتمر القبائل الذي كان في أرض محايدة متوسطة بين حامي القبائل المختلفة من غير شك ، وهو المكان الذي أصبح معسكرا جديدا ، في موضع استراتيجي يسمح بحشد المزيد من الداخلين الجدد من القبائل في حزب ابن ياسين ، بشكل أفضل من رباط مصب السنغال الذي لم يعد من الممكن في الظروف الجديدة العودة اليه .

= وشوقهم الى الجنة وأمرهم بتقوى الا والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم دعاهم الى جهاد من خالفهم من قبائل منتهجة ... فقالوا (له) : أيها الشيخ المبارك ، مرنا بما شئتم . تجدنا سامعين مطيعين ، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا . فقال لهم : اخرجوا ... أنذروا قومكم ... ان تابوا فخلوا عنهم ، وان أبوا ... جاهدناهم حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين .

(٢٥) العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ - واذا كانت الرواية تعرض بعد ذلك لقتال المصاهر من القبائل ، فان هذا مما يأتي في سياقه فيما بعد - ص ١٩٥ وما بعدها .
(٢٦) أنظر القرطاس ، ص ١٢٥ - ١٢٦ - حيث النص على انه لم يثيس قاله لأصحابه ... وجب علينا جهادهم ، فاغزوهم على بركة الله .

غزو الصحراء :

خضوع جدالة :

وهكذا بدأ المرابطون تحت قيادتهم الدينية العسكرية المشتركة ، وإن كانت الهيمنة بطبيعة الحال لابن ياسين ، غزو قبائل جدالة لكونها أقرب لمواطني صنهاجة الى الرباط من جهة ، وبصفتها المهد الأول لدعوة عبد الله بن ياسين من جهة أخرى ، حيث يكون للانتصار فيها قيمة معنوية تمحو ذكريات الفشل الأليمة ، وتفتح آفاق المستقبل المشرقة أمام حركة التجديد الإسلامية في صحراء أفريقيا الغربية * ودون تفصيلات مثيرة ، تكتفي الرواية بتسجيل هزيمة جدالة ، ومقتل الكثير من رجالها ، بينما « أسلم الباقون » أسلاماً جديداً ، وحسنت حالهم ، وذلك في صفر سنة ٤٤٤ هـ / يونيه ١٠٥٢ م (٢٧) *

فكان رباط عبد الله بن ياسين يدخل في حقيقة الأمر ضمن حركة التجديد التي قامت بها ربط الطرق الصوفية في المشرق وخانقائوها ، والتي سيكون للامام الغزالي عما قريب ، شأن فيها بفضل تجربته الصوفية ، ومن ثم تأليفه « احياء علوم الدين » مما يمت لتاريخ المرابطين والموحدين بسبب أو بآخر *

خضوع لتونة :

ويأتى بعد جدالة غزو لتونة الذين لم يقاوموا كثيراً كما يفهم من رواية القرطاس ، الأمر الذي يبرره وجود زعيمهم يحيى بن عمر على رأس المرابطين الى جانب ابن ياسين * وهكذا أذعنوا الى الطاعة ، وأعلنوا التوبة وخضعوا بالتالي لما تتطلبه من التطهر الجسدي والتزكية بالسوط *

(٢٧) القرطاس ، ص ١٢٦ - حيث السنة ٤٣٤ هـ / ٣ - ١٠٤٢ م التي عدلته بداية الدراسة بإضافة ١٠ (عشر) سنوات ، حتى يستقيم مسار الأحداث (٢٠٠٠ هـ - ص ١٦٨) * وقارو ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٩ - حيث السودة (من الرباط) ذكر صريح في رواية ابن شداد الصنهاجي ، وهي الأصل (الى جدالة ابن ياسين على جهادهم والنويري (أبو ضيف) ، ص ٣٧٩ ، (نصار ص ٢٥٧ ، حيث التجريش على القتال وتسمية الأنصار بالمرابطين ، وعن جد كما سبق ، ص ٦٩) *

- ١٩٦ -

والأهم من كل ذلك أنهم التزموا بالتوسيك بقواعد الشرع من القرآن والتقاليد النبوية (٢٨) •

خضوع مسوفة :

وكان من الطبيعي بعد أن خضعت كل من جدالة ولتونة أن يتم ادخال ثالث أكثر قبائل صحراء الملثمين الصنهاجية ، وهي قبيلة مسوفة (ماسبق ص ٧١) في دولة الرباط • والظاهر أن الأمر لم يتطلب كثيرا من الجهد ، إذ أذعن المسوفيون بدورهم على نفس الشروط التي قبلتها جدالة ولتونة ، وهي : بعد التوبة والتركية الجسدية ، الالتزام بالعمل بما يقضى به الكتاب ، وما يقرره مذهب عبد الله بن ياسين السني أصيلا ، المالكي فرعا •

دخول بقية قبائل صنهاجة الصحراء في دعوة الرباط والتخلص من بقايا المعارضين :

بعد خضوع القبائل الصنهاجية الكبرى لابن ياسين ، وتجديده إسلامها حسيما يقضى مذهب المرابطين ، وأمام الحماس الدافق من قبل الداخلين الجدد في الدعوة ، لم يكن أمام بقية الفروع من القبائل والأفخاذ والعشائر الا الاعتراف بنظام الرباط ، وما يقضى به من الالتزام بعمل الخير مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر • وهكذا سارع الجميع « الى التوبة والبيعة » مع تجديده دينهم بالتعلم والعمل (٢٩) •

وكان من الطبيعي أن تبقى بعض عناصر المجتمع القبلي الصحراوي على ما كانت عليه ، تماما كما حدث في أول الدعوة في جدالة ولتونة ، مما أدى الى الاعتكاف في الرباط ، وأن يقف هؤلاء من ابن ياسين وحزبه من المرابطين موقف المعارضة • وفي ذلك تقول رواية ابن حيداد (الزيري الصنهاجي) التي يأخذ بها كل من ابن الأثير والنويري أن هؤلاء المخالفين الذين يطلق عليهم اسم الأشرار ، تجمعوا فيما بينهم في أعداد كبيرة كان يخشى بأسها ، الأمر الذي دعا كلا من ابن ياسين ويحيى بن عمر عملي التتريث ، والهجوم

(٢٨) القرطاس ، ص ١٢٦ - حيث النص على أنهم « بالعموم على إقامة الكتاب والسنة » وعن لتونة أنظر ما سبق ص ٦٩ •
(٢٩) أنظر القرطاس ، ص ١٢٦ - حيث النص على أن « كل من قبل اليه تأقبا منهم ظهره » بأن يضربه ١٠٠ (مائة) سوط ، ثم يعلم القرآن وشرائع الإسلام ، ويأمره بالصلوات والزكاة وأخراج الشر • •

الى السياسة والمداواة ، بل وربما الى الخدعة ايضا ، فى سبيل النخلص منهم بأهون الأسباب • وهكذا استعانت القيادة المرابطية بالمصلحين من قبائل هؤلاء الرجال الذين يوصفون مرة أخرى « بأهل البغى والفساد » فى استمالتهم بالترغيب والترهيب ، على ما نظن • ونجحت سياسة « الحاجة تبرر الوسطة » فى استدراج عدد كبير من أولئك الذين كان يشك فى ولائهم « للرباط » على الأقل ، بلغ حوالى ٢٠٠٠ (ألفين) الى ساحة كانت تستخدم « زربا » أى حظيرا للابل • وهناك أحيط بهم ، وتركوا أيا ما بغير طعام • وعندما وهنت قواهم ، أخرجوهم جماعة بعد أخرى لكى يقتلوا عن آخرهم (٣٠) • وأتى العمل الترهيبى بما كان يرجى منه فدانت لابن ياسين قبائل الصحراء ، وسادت هيبة المرابطين وتوited شوكتهم (٣١) ، الأمر الذى يعنى وضع القواعد التأسيسية لدولة الرباط •

(٣٠) أنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٠ ، وقارن النويرى (أبو ضيف) ص ٣٧٩ ،
(نصار) ج ٢٤ ، ص ٢٥٧ •
(٣١) نفس المصدر •

الفصل الرابع

قيام دولة المرابطين القواعد التأسيسية والسياسة المدنية

القواعد التأسيسية :

المقصود بالقواعد التأسيسية التي قامت عليها الدولة المرابطية ، هي مجموعة المبادئ العامة التي يلتزم بها المسئولون في تسييرهم لشئون الحكم ، من أجل تحقيق الأهداف المعلنة من قبل عبد الله بن ياسين ، المنظر الأول للدولة المرابطية ، والتي تتحقق بها مصالح « أهل الحق » من المسلمين الجدد على كل المستويات ، من دينية روحية أو مدنية مادية . فكان تلك المبادئ التي تعرف في أيامنا هذه بالمبادئ الدستورية أو بالدستور فقط على وجه الاختصار ، وهي التي يتمسك بها جميع أفراد المجتمع على أساس أنها تحفظ حقوق أبناء الوطن وتنص على ما عليهم من واجبات .

والمهم أن ما تقرر في الرباط من واجبات على جماعة « أهل الحق » أصبح من القواعد الملزمة لرعية « دولة الرباط » . وأول هذه الواجبات تتمثل في التوبة (عما سلف من التفريط في مجتمع الجاهلية) وما يستتبعها من التطهر وتزكية الجسد ، حتى تشف الروح وتسمو النفس . ومن ثم يكون حق النائب في تعلم القرآن وشرائع الإسلام ، من الصلاة إلى أداء ضريبتى زكاة المال وخراج الأرض . ومن ثم يصبح المرابط مواطناً صالحاً ، يعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويجاهد في سبيل الله ، ويصير من أهل الخير المبشرين بالجنة - الهدف الأسمى من الحياة (ما سبق ، ص ١٩١ - ١٩٢) .

السياسة المدنية :

القيادة المشتركة وتقسيم العمل :

تميز الرباط بقيادته المشتركة ، وهو الأمر المقبول من حيث ازدواجية تكوين الرباط كمؤسسة جهادية تعبدية . وهكذا تأسس الجيش منذ بداية الدعوة ، وقام قائد الأمير ، ممثل السلطة المدنية إلى جانب الفقيه المنظر .

٢٠٠ -

تمثل السلطة الدينية ، وله التفوق على الأمير ، من حيث هو صاحب السلطة العليا أو القرار الأخير . وهو ما أكده ابن ياسين ، في ساحة القتال فيما بعد ، عندما أدب يحيى بن عمار على ما بدر منه من التهور في القتال ، قبل أن يعرفه بسبب العقوبة . وبذلك تحددت مهام الأمير القائد في الوقوف وتحريض الجنود على خشن القتال دون مباشرته الحرب ، ففي حياة الأمير حياة رجاله ، وفي هلاكه فناء جيشه (١) . وبذلك تحددت وظيفة الأمير في مجال الحرب والدفاع ، بينما صارت للفقهاء الأمور الدينية من الأحكام ، فكانت الرئاسة الحقيقية لعبد الله بن ياسين (٢) : شهيد الجهاد في تامسنا (ما بعد ، ص ٢٢٨) ومشرع القوانين التي لم تكن فوق مستوى النقد من قبل المثقفين من أهل القيروان (٣) .

الجيش :

أما عن الجيش الذي تكونته نواته في الرباط ، فلم يكن جيشا قبليا مبنيا على العصبية كجيوش الصحراء الطبيعية ، اذا كان أفرادهم يرتبطون فيما بينهم برابط الأخوة في الرباط ، أي في التعبد والجهاد بشقيه : النفس والحرب . تماما كما كان الحال بالنسبة للمسلمين الأوائل السابقين من أنصار ومهاجرين . فجيش ابن ياسين أشبه بجيوش الدول الحديثة ، ذات النظم المتحدة أو الاتحادية ، الذي يحارب فيه أبناء العصبية المختلفة تحت الراية الواحدة ، رمز الوطنية في الدولة المفردة أو الامبراطورية المركبة - انه جيش دولة الرباط والمرابطين ، دولة العباد المجاهدين ، دون تفرقة عنصرية جدالية كانت أم لثنوية مسووية .

أما عن تسليح هذا الجيش وتقنياته الحربية فالمفروض أنها كانت بسيطة في بداية الأمر بشكل يتفق مع امكانيات جماعة العباد المحدودة في

(١) البكري ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) القرطاس ، ص ١٢٧ .

(٣) البكري ، ص ١٧٠ - حيث النص على أنه « ما يحفظ من جهل ابن ياسين أن رجلا اختصم اليه مع تاجر غريب عندهم ، فقال التاجر في بعض مراجعته لحصمه حاشى لله أن يكون ذلك ، فأمر عبد الله بضربه ، وقال : لقد قال كلاما عظيما وقولا شنيعا يوجب عليه أشد الأدب » وكان بالحضرة رجل قيرواني فقال لعبد الله وما تنكر من مقالته والله عز وجل قد ذكر ذلك في كتابه فقال حكاية عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن في قصة يوسف : « وقلن حاشى الله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم » (سورة يوسف آية ١٢) ، لرفع الضرب من ذلك الرجل .

الرباط ، ولكنها لم تلبث أن تطورت بشكل سريع يتفق مع إيقاع الوحدة المتزايد بين قبائل الصحراء ، الأمر الذي كان له مردوده السريع والمتعاظم على المستوى الاقتصادى ، بتوحد ثروات قبائل الصحراء المسيطرة على طرق التجارة مع بلاد السودان (ما سبق ، ص ١١٤) تحت سلطات المرابطين . فحوالى سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م أى بعد حوالى ١٥ (خمسة عشر) عاما من توحيد الصحراء تحت علم دولة الرباط ، يعطى البكرى صورة جيدة عن نظام القوات المرابطية وتسليحها الجيد ، وخططها الحربية المتقدمة ، رغم ما يقوله من أن سلطة الدولة الناشئة كانت بعد منتشرة غير موحدة ، وأن الالتئام لم يكن قد تحقق بعد بين أطرافها المتفرقة^(٤) .

الخطط الحربية :

ففرق الجيش المرابطى كانت قد تطورت بعد أن أصبحت تحوى الخيل الى جانب المهارى ، وبعد أن أصبحت الحراب الطويلة والمزاريق القصيرة العمود الفقرى لقوات المشاة ، الكتلة الرئيسية فى الجيش . وهذا التجديد فى التسليح يعنى أخذ المرابطين بأساليب الحرب فى بلاد الحضارة المتاخمة للصحراء مما كان قد وقع بين أيديهم من أطراف بلاد المغرب ، وخاصة فى بلاد السوس الأقصى ، بلاد التخصص فى استعمال النشاب أو المزاريق التى كان الرجل يحمل عدة منها دفعة واحدة ، الأمر الذى تطلب اتخاذ خطط حربية تناسب هذا التجديد الحضرى فى التسليح^(٥) .

فالكتيبة من المرابطين كانت تسير وراء الراية التى استخدمت لمعرفة عبد الله بن ياسين منذ ما قبل الرباط (ما سبق ، ص ١٧٨) والتى يعتبر حاملها من مساعدى القائد الهامين ، حيث كان يتلقى أوامر تحرك الجند فى المعركة من القيادة ويبلغها للجنود عن طريق الراية . فطالما كانت الراية مرتفعة وقف الرجال فى مواجهة العدو بالقنى (الرماح) الطوال للمناوشة والدفاع ، فى الصف الأول ، بينما أصحاب المزاريق يرمون بنشاباتهم التى لا تخطئ . فاذا توجس القائد من خطر هجوم يقوم به العدو ، أمر صاحب الراية بتنكيسها ، وعندئذ يجلسون جميعا على الأرض فى وضع دفاعى

(٤) البكرى ، ص ١٦٦ - عن أسلوبهم فى الحرب ، ص ١٧٠ عن أبى بكر بن عمر وأحوال المرابطين سنة ٤٦٠ هـ .

(٥) البكرى ، ص ١٦٦ ، وانظر أعلاه .

كانهم الهضاب الثابتة ، لا يعرفون الفرار • أما اذا انهزم عدوهم فهم لا يتبعونه (٦) •

ومما يشير اليه البكرى أنهم لا يستخدمون الكلاب كأدوات مساعدة في الحرب ، في أعمال الاستكشاف مثلا أو التصنت ، على أساس أنهم يكرهونها (٧) كتعبير عن تشدد المالكية في مسألة الطهارة ، كما نظن •

بيت المال :

ولما كان المال عصب الحرب كما يقال ، كان اهتمام عبد الله بن ياسين بإنشاء خزانة عامه تحفظ فيها أموال جماعة « أهل الحق » مصاحبا لتكوين الجيش وتنصيب الأمير قائد الحرب ، قبل بناء رباط السنغال ، وهو ما يظهر واضحا في مدينة « ارتننى » ، رباط لمتونة - حيث قبض خصوم الفقيه منه بيت مالهم قبل أن يطردوه ويهدموا داره (٨) • والمهم هنا هو تمويل خزانة الرباط عند الخروج لغزو القبائل اعتبارا من سنة ٤٤٤ هـ / ٣ - ١٠٥٢ م • وكان من الطبيعي وقد خرج المرابطون لأول مرة ، من معسكرهم خالين الوفاض ، ناقلين على خصومهم من أهل البغي والفساد ، أن يتبعوهم بالقتل والنهب والسلب ، على أساس أن أموالهم - التي أخذت من حينئذ ترفد الخزانة المرابطية غير نقية مستباحة (٩ م) ، الأمر الذي أثار اشمئزاز فقيه السوس وجاج بن زللو فكتب الى عبد الله بن ياسين يعبر له عن أسفه لسفك الدماء ونهب الأموال ، وندمه على ارساله اليهم ، فاعتذر اليه عبد الله بأنهم أمة جاهلية لا ترعى حرمة الحريم ولا الدية في الدماء ، ولا توفى عندهم الأموال ، وانه ما تجاوز حكم الله ولا تعداه (٩) •

(٦) البكرى ، ص ١٦٦ •

(٧) البكرى ، ص ١٦٦ - حيث النص على أنهم يقتلون التي غيرناها الى الكراهية ، على أساس نجاستها ، كما يظن • أما عن قتل الكلاب في الصحراء فالمعروف أنها كانت تؤكل في واحات سجلماسة غير بعيد عن السوس الأقصى ، وكذلك في واحات بلاد الجريد في الجنوب التونسي ، حيث اعتبر لحمها من أطيب اللحوم وأشهاها . وهنا لا بأس من الإشارة الى ان اقتقاد الكلاب في شوارع بعض بلاد الخليج في أيامنا هذه كان يعزى الى بعض العمال من الآسيويين من الكوريين أو غيرهم ؟ الذين يقرمون لحمها •

(٨) البكرى ، ص ١٦٦ (ما سبق ، ص ١٨٢) •

(٩ م) النويرى (أبو ضيف) ، ص ٣٨٠ - حيث النص على تتبع المعاندين بالقتل والنهب والسلب الا من أسلم منهم وسالم •

(٩) النويرى (أبو ضيف) ، ص ٣٨٠ ، (نصار) ج ٢٤ ، ص ٢٥٩ •

والذى يلفت النظر فى غزو جدالة وملتونة ومسوفة ، أنه لا ذكر لمثل أعمال العنف هذه ، فكان المسألة مجرد سوء تفاهم بين الأخوة وأبناء العم ، يمكن أن يزول بمجرد زوال أسبابه .

حقيقة أنهم انهزموا ، وقتل كثير منهم ، ولكن رواية القرطاس لا تشير الى أموالهم ، اكتفاء بأنهم أسلموا أو أذعنوا وتابوا ، وأنهم أمروا بالصلاة ، والزكاة وإخراج العشر ، « وان ابن ياسين جعل لذلك بيت مال يجمعه فيه » ، وأنه « أخذ يركب منه الجيوش ، ويشترى السلاح ، ويغزو القبائل » (١٠) . فكان هذه القبائل الثلاث تمثل الوطن الذى دخل كرها وطوعا فى الدعوة والذى تمثل أمواله رصيد عملية الفتوح فى غيرها من القبائل والأوطان الخارجة عن طوق الحمى .

وهكذا يفهم من رواية البكرى أن غزو قبيلة لمطة ، والتي نرى أن اسمها (لمتة) هو الاسم الأصلى القديم (الجدم) للمتونة (ما سبق ، ص ٦٩) ، حدث وكأنه غزو فى أرض أجنبية معادية مثلها مثل درعه : « أول ما أخذوا من البلاد المخالفة لهم » (١١) . فلقد اعتبر ابن ياسين أن أموال لمطة « مختلطة » حلالها بحرامها ، وأنهما لكى تتطهر أو تتزكى (بمعنى التنظيم أو الغسيل الدارج الآن بالنسبة للأموال المجهولة المصدر) يجب دفع ثلثها للمرابطين ، لكى « يطيب لهم (للمطيين) الثلثان » ، فكان تشريعا جديدا « أفتى به ابن ياسين فى الأموال المختلطة ، وطبقه فى كثير من البلاد المفتوحة » (١٢) . وعن هذا الطريق كانت خزانة أمواله المخصصة للغزو والجهاد تقوى من امكاناته فى تحقيق المزيد من الانتصارات . وكان لابن ياسين فى بداية تاريخ الدولة الاسلامية الناشئة خير قدوة يحتذى بها ، فهو يقسم أسلاب القتلى فيثا للمرابطين (١٣) ، وهو فى السوس يسقط المغانم ولا يجبى الا زكاة المال وإخراج الأرض (١٤) ، وبالتالي يؤلف القلوب ويهيئ بداية مضمونة لامبراطورية الصحراء الناشئة .

(١٠) أنظر القرطاس ، ص ١٢٦ .

(١١) البكرى ، ص ١٦٦ .

(١٢) البكرى ، ص ١٦٦ ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٢ - حيث النص على ابن ياسين كان يأخذ الثلث ١/٣ من الاموال المختلطة ، ليحلل باقيها ، وذلك شذوذ الفعل .

(١٣) القرطاس ، ص ١٢٩ .

(١٤) القرطاس ، ص ١٢٩ .

التوسع الاقليمي خارج الصحراء

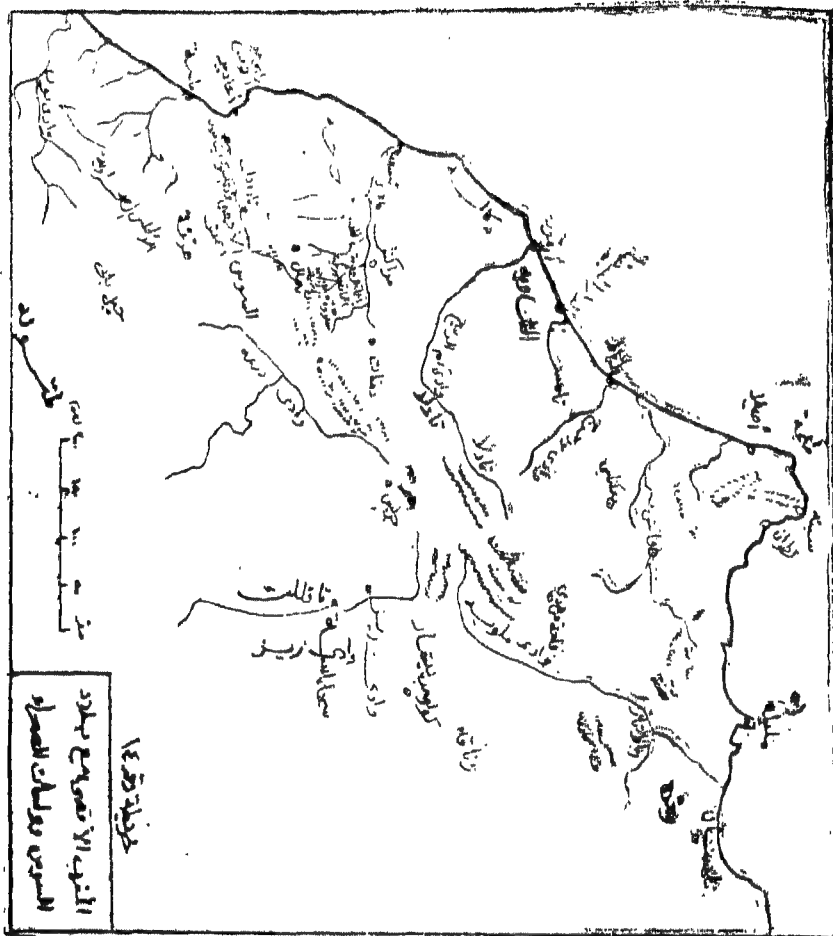
فتح درعة وسجلماسة :

بعد استيلاء المرابطين على كامل تراب الصحراء ، بدخول قبيلة لمطة جنوب السوس الأقصى على شاطئ الاطلنطي ، حيث أكبر مراكزها العمرانية « نول لمطة » : أول محطات القوافل على طريق الساحل نحو غانة والسودان (ما سبق ، ص ٢٠٣) ، كانت الظروف تقضي بأن يوجه ابن ياسين أنظاره نحو الأقاليم المتاخمة ، وكان من الأوفق له البدء بالأقاليم الداخلية على أطراف الصحراء ، لتكون مراكز ارتكاز « لدولة الرباط » القارية أصلا ، قبل توجيهها نحو الأقاليم البحرية العامرة غربا وشمالا ، الى شواطئ المحيط والمتوسط عبر ممرات جبال درن . وهكذا كان البدء بإقليم درعة الوثيق الصلة بمنطقة سجلماسة العريقة ، من جنوب شرق المغرب الأقصى ، وكاننا تحت سلطان أسرة بنى وانودين المغراوية الزناتية .

وإذا كان ابن خلدون (الذى يلخص القرطاس) يحدد تاريخ فتح درعة وسجلماسة بسنة ٤٤٥ هـ / ٤ - ٣ - ١٠٥٣ م بعد فتح الصحراء ، فإنه يفهم من نفس الرواية أن المسألة بدأت بنوع من التفاهم بين الطرفين عندما خرج المرابطون نحو درعة وسجلماسة يعرفون أهلها بأنفسهم ، ويطلبون « حق الله » من الصدقات فأعطوهم ما عن لهم فيها ، لكى يعودوا الى موطنهم(١) . وإذا كانت الرواية تعمل بعد ذلك غزو درعة وسجلماسة بأنه كان استجابة لشكوى أهل البلدين من جور حكامهم من بنى وانودين(٢) ، بمعنى أن استبدادهم وتشددهم فى جمع الضرائب من زكاة

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث أذن لهم (ابن ياسين) فى أخذ الصدقات من أموال المسلمين ، وسماهم بالمرابطين ، وجعل أمرهم الى الأمير يحيى بن عمر ، فتخطوا الرمال الصحراوية الى بلاد درعة وسجلماسة ، فأعطوهم صدقاتهم وانقلبوا والترجمة ، ج ١ ص ٦٩ - ٧٠ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٠ - حيث أمر ابن ياسين ضبغهم بالخروج الى السوس وأخذ الزكاة ، فخرج منهم نحو ٩٠٠ رجل ، قدموا سجلماسة ، وطلبوا الزكاة فجمعوا لهم شيئا له قدر ، وعادوا .

(٢) القرطاس ، ص ١٢٧ - حيث النص على أن فقهاء سجلماسة وفقهاء درعة وصلحائهم ، هم الذين كتبوا الى عبد الله بن ياسين ، مع وضع هذا الفتح فى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، وهو مانشير اليه فى موضع تال .



خريطة رقم ١٤ - المغرب الأقصى مع بلاد السوس وواحات الصحراء

المال أو خراج الأرض وغيرها ، فلا بأس أن يكون ذلك بسبب مطالبتهم بتلك الضرائب كاملة رغم ما أخذ المرابطون من الصدقات . ولكنه لما كانت رواية ابن خلدون هذه تنسب تلك الشكوى الى فقيه السوس وجاج ابن زللو (٣) ، الأمر الذى ترتب عليه اعتبار سجلماسة من بلاد السوس الأقصى ، فاننا نرجح رواية ابن الأثير التى تقرر هى الأخرى خطأ ، أن سجلماسة من بلاد السوس ، والتى تنص على أن المرابطين « ساروا الى سجلماسة يطلبون الزكاة (المعتادة) فامتنعوا (أهلها) » (٤) ، فكان ذلك ذريعة الفتح بالنسبة لابن ياسين .

والحقيقة أن هناك ذرائع أخرى لا يجب التقليل من شأنها - من حيث كونها من النوازل الكونية أى الطبيعية ، وأهمها بالنسبة الى الصحراء آفة الجذب والقحط التى يقدمها ابن الأثير على غيرها فى فتح سجلماسة (من السوس - ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) (٥) ، الى جانب الانفجار السكانى ، كما تقول الآن ، والذى تقدمه رواية ابن الأثير أيضا كمقدمة لفتح السوس الأقصى (يقصد تامسنا : بلاد برغواطية أيضا) (٦) فكان اسم السوس يكاد يعادل اسم المغرب الأقصى من شماله ، حيث السوس الأدنى (فاس وبلاد الريف) الى جنوبه حيث السوس الأقصى (ودواخله الصحراوية) .

والمهم أن درعة التابعة لأسرة بنى وانودين المقرابية الزناتية خضعت سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م لمطالب المرابطين خضوعا يؤكد دفع الجزية (الزكاة) ، بينما رفض اجابتهم أهل سجلماسة وعلى رأسهم أميرهم مسعود بن وانودين الذى فوجئ بخطورة ما كان يواجهه من التحدى . فلقد خرج المرابطون بجيش عرمرم ، عدته ٣٠ (ثلاثين) ألف جمل سرج (٧) أى من النجيب الأصيلة (والمفرد نجيب) وهى المهارى (٨) . واتجهوا نحو درعة حيث كان

(٣) العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ ، والترجمة ج ١ ص ٧٠ - ٧١ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ .

(٥) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٠ .

(٦) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ .

(٧) البكرى ، ص ١٦٧ .

(٨) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ ، والترجمة ج ١ ص ٧٠ وهـ ٢ - حيث خرجوا فى عدد ضخم أكثرهم ركبانا على المهارى ، والمفرد مهرة بمعنى الناقة الأصيلة السريعة العدو ، القوية التحمل على المشاق الطويلة فى الصحراء والاسم نسبة الى مهرة بن هيدان أول من أنتجها (القاموس) .

في حماها نحو ٥٠ (خمسين) ألفا من الابل ، الأمر الذي حمل مسعود بن وانودين على ان يخرج سريعا في محاولة لانقاذها .

وكان اللقاء غير متكافئ بين النساك المجاهدين الذين لا يعرفون الهزيمة وبين المغراويين من منتجي الابل العاملين في خدمة تجار السودان ، فانتهى بهزيمة اهل سجلماسة ، ومقتل وانودين واستيلاء المرابطين على الحمى بدرعه ، ودخولهم مدينة سجلماسة . وبعد أن رتب عبد الله بن ياسين شئون المدينة وأخضعها لنظام حسبته فقتل من وجد بها من نبلاء مغاوة ، وغير ما وجده بها من المنكرات ، فكسر آلات الموسيقى والغناء ، وأحرق المواخير ، وأسقط المغارم ، وبعد أن اطمأن الى استقرار الأمور قدم عليها عاملا من لُتونة ، وترك معه حامية قليلة العدد ، وعاد برجاله الى بلادهم(٩) .

فتح أودغست :

واذا كان البكري يقول ان المرابطين قد عادوا بعد فتح سجلماسة (سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م) الى بلادهم ، فانه ينص بعد ذلك على أن ابن ياسين قام في سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م بفتح أودغست جنوب الصحراء ، على مسيرة شهرين ، والتي كانت خاضعة لمملكة غانة ، وهو الأمر المقبول . ففي هذه الحالة يكون القصد من الحملة العظمى التي حوت ٣٠.٠٠٠ من المهارى ليس سجلماسة لذاتها ، بل كمحطة على طريق السودان الى بلاد الساحل ، منطقة أعشاب السافانا التي يمكن أن تميز هذا العدد الضخم من الجمال بالعلف والماء .

ويُصنف البكري أودغست وقتئذ ، بأنها مدينة كبيرة ، يسكنها بربر وناتة مع العرب الذين لم يكونوا على وفاق فيما بينهم . واذا كانت رواية البكري تنص على اساءة المرابطين الى أهل أودغست حيث استباحوا حريمهم

(٩) البكري ، ص ١٦٧ ، وقارن القرطاس ، ص ١٢٨ - حيث النص على اخراج عامل درعة منها ، والاستيلاء على ٥٠ ألف ناقة كانت لمسعود في مراعيها ، وان الحرب العظيمة انتهت بمقتل مسعود وأكثر جيشه وفرار الباقين ، وان عبد الله بن ياسين أخذ أمواله وأدوانهم وأسلحتهم مع الابل فأخرج الخمس جميعه ففرقه في فقهاء سجلماسة وصلحائها وقسم الباقي على المرابطين . وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث اختصار رواية ابن أزرع - دون الإشارة الى ذلك . وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ - حيث النص على المرابطين ساروا الى سجلماسة وطلبوا الزكاة فامنعوا ، فهزموا صاحب سجلماسة وقتلوا بدخلوها ، وان كان ذلك في سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م .

واستحلوا أكل ممتلكاتهم ، فلا بأس أن يكون ذلك نتيجة للشقاق بين الزناتية والعرب المترفين الى جانب ما قدموه من تبريرات أخرى كالخضوع الى غير المسلمين من أهل غانة ، وهو الأمر المقبول على كل حال من حيث حماسهم لدينهم الذى جددوه ، الى جانب رغبتهم الصادقة في نشر الاسلام بين قبائل السودان التى لم تكن قد دخلت بعد فيه (١٠) . ولا بأس أن يكون ابتعاد الجيوش المرابطية ، جنوبا على بعد شهرين من سجلماسة ، فرصة انتهازها دهاة مغراوة في سجلماسة لتحرير بلدهم من نير المرابطين . فلقد نصبوا لحماية النساك شركا في ظهيرة يوم جمعة وقت الانشغال بالصلاة في المسجد ، وهى الحيلة التى كانت معروفة لدى مديري الانقلابات على ما نظن ، في دولة الاسلام - حيث كان قواد المرابطين قد تجمعوا حول رئيسهم القائد « عامل سجلماسة » فغدروا بهم وقتلوا منهم عددا كثيرا ، وذلك خلال سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ التالية (١١) .

ولقد تنبه زعماء المدينة الى خطورة المغامرة التى انغمسوا فيها ، وحاولوا اصلاح ما يمكن اصلاحه ، « فتواترت رسلهم على عبيد الله بن ياسين ، أن يرجع اليهم بالعساكر ، ويذكرون أن زناتة زحفوا اليهم (١٢) » . ولم يجد هذا الاعتذار شيئا ، فقد قرر ابن ياسين الأخذ بثأر المغدورين من رجاله .

ولم يكن عبد الله بن ياسين يدرى أن حملة سيجلماسية الثانية هذه ، ستؤدى الى انشقاق خطير في صفوف المرابطين ، وقيام حرب أهلية بين قطبي قبائل الملتشين : جدالة وملتونة ، فجدة التى كانت لا تنسى أن فضل « اسلام الصحراء الجديد » يرجع الى زعيمها يحيى بن ابراهيم صاحب لقاء القيروان التاريخي مع الشيخ الامام أبى عمران الفاسي . وترنوا الى الأخذ من جديد بزمام القيادة بدلا من ملتونة ، على أمل اعادة توجيه تاريخ المنطقة المستقبل الى مساره الجدالى السابق ، وهو ما لم تعد تسمح به حتمية التاريخ

(١٠) البكرى ، ص ١٦٨ - حيث النص أيضا على ابن ياسين قتل في أودغست رجالا من العرب المولدين من أهل القيروان « معلوما بالورع والصلاح وتلاوة القرآن ، ورجح البيهقي ، يسمى زباقرة ، وانما تقموا عليهم انهم كانوا تحت طاعة صياح غانة وحكمه » ، وعن أودغست أنظر فيما سبق ص ١١٦ .

(١١) البكرى ، ص ١٦٧ - حيث النص : « فغدر أهل سجلماسة بالمرابطين فمرو المسجد ، وقتلوا منهم عددا كثيرا ، وذلك سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م » . الخ .

(١٢) البكرى ، ص ١٦٧ .

فى أوضاعها المستجدة • وكانت أزمة تهدد كيان البناء المرباطى الذى لم تكن قد تماسكت بعد لبناته اللينة ، لولا حنكة عبد الله بن ياسين الذى لم يظهر بمظهر رجل الدولة المحنك فقط ، بل وبمظهر القائد الموهوب فى علاجه لمشاكل الحرب والسياسة •

الفقيه رئيسا :

بدأ عبد الله بن ياسين يعد المدة لمقاسب أولئك المستهترين بدولة الرباط من رؤساء مغراوة ومن يحوم حولهم من أهل سبلماسة ، فندب المرباطين الى غزوهم • وهنا لم تلق دعوة جهاد المغاربة المسامحين من أهل سبلماسة للمرة الثانية القبول من جانب عامة المرباطين فقط ، بل انها وجدت معارضة صريحة من جانب الجداليين • ولا بأس أن يكون المثلثون قد حشوا فى هذه المرة مقابلة مع بقايا بنى وانودين المغراويين فى واحات درعة وسبلماسة قد تنقلب الى مواجهة شاملة مع الزناتية قد تكلفهم ثمنا باهظا قد لا يهدد كيانهم فقط ، بل ووجودهم أصلا • فهذا ما يمكن أن نفهمه من انسحاب جدالة الى مواطنها الأولى على ساحل البحر (المحيط) ، فكانهم عبروا عن عدم رضاهم عن سياسة ابن ياسين ، بترك مشروع دولة الرباط التى بدأت تتحول من دعوة للجهاد فى الجنوب السودانى الذى لم يدخل بعد فى الاسلام ، الى دولة اسلامية تقليدية ، تبنى سياستها على الوقائع الجغرافية السياسية الاقتصادية التى تعنى الحلول مكان دول المغرب السابقة فى شمال الصحراء •

والظاهر أن نظرة جدالة نحو الجنوب كانت تجد قبولا حسنا لدى بنى جلدتهم على حدود السودان ، وربما من طوائف أخرى من مسلمة السودان الذين لا يجذبون فكرة التجديد الاسلامية ، بل يفضلون مواصلة عملية نشر الاسلام بين ملاحدة السودان •

انشقاق المثلثين والحرب الاهلية ،

وبدء ظهور « أبو بكر بن عمر » :

هكذا اتخذ عبد الله بن ياسين الاجراءات السياسية والعسكرية المناسبة لمواجهة المخاطر المتوقعة من حركة العصيان الجدالية فعمل على تقوية الجهة الداخلية فى مجتمع الرباط ، والتى تتمثل فى جبل لتونة مركز الثقل البشرى والاقتصادى ، فى دواخل بلاد المثلثين • فقد أمر الزعيم يحيى بن عمر بالتمركز هناك فى قصبة الجبل المعروفة باسم أزكى « أزقى » ،

وهى عقدة الطرق التجارية الى غانة ، وحيث غابة النخيل العظيمة التى تحوى حوالى ٢٠ (عشرين) ألف نخلة ، وحيث الحصن اذى ينسب بناؤه الى يانو بن عمر أخى الأمير يحيى بن عمر الحاج (١٣) ، تحسبا لهجوم محتمل من قبل جدالة .

هذا ، كما اتخذ ابن ياسين اجراءات تضمن سلامة المرابطين فى درعة حيث كانوا مقسمين الى فرقتين احدهما بقيادة أبى بكر بن عمر ، والأخرى بقيادة أحمد بن أقدجنوا ، فجعل القيادة هناك الى أبى بكر نيابة عن أخيه يحيى الموجود فى أرض لمتونة . والظاهر أن فتنة جدالة استمرت لفترة زادت على سنة وأكثر ، الأمر الذى يعنى ان الجداليين كانوا فى حاجة الى الوقت لاعداد العدة لمواجهة الترتيبات العسكرية فى بلاد لمتونة ، وذلك أن الهجوم الجدالى المرتقب على جبل لمتونة لم يبدأ الا فى مطلع سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م (١٤) .

ولا ندرى ان كان الهجوم الجدالى قد تم بتنسيق مع المغراويين الزناتية أصحاب سجلماسة أم لا . وذلك أن رواية البكرى لا تحدد تاريخا لعودة عبد الله بن ياسين الى سجلماسة . والرواية هنا تكفى بالقول ان ابن ياسين سار نحو سجلماسة فى حوالى ٢٠٠ (مائتى) رجل من الصنهاجيين وانه نزل فى حصن تامدلت (ما سبق ، ص ١١٣) حيث « اجتمع اليه جيش كثيف من (حصون قبائل) سرطه وترجه » (١٥) ، الأمر الذى يفهم منه أن عبد الله بن ياسين استعاد سجلماسة دون قتال أو أعمال عنف فى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م التالية ، حسب رواية ابن أبى زرع ، التى تكمل رواية البكرى فى هذا الموضع ، كما نرى . وهكذا يكون خروج عبد الله بن ياسين لاسترجاع سجلماسة ، وأخذ الثأر من أولئك الذين غدروا برجاله المرابطين فى ٢٠ صفر سنة ٤٤٧ هـ / ٢٠ مايو ١٠٥٥ م (١٦) .

(١٣) أنظر البكرى ، ص ١٦٧ .

(١٤) البكرى ، ص ١٦٧ .

(١٥) البكرى ، ص ١٦٧ ، وقارن ما سبق ، ص ٧١ ، ٨٨ من مدينة ترغة وسجلماسة ،

ص ٧١ عن سرطه وترجة .

(١٦) أنظر روض القرطاس ، ص ١٢٧ - حيث النص على أن أهل سجلماسة وفقهاء

درعة وصلحائهم كتبوا الى ابن ياسين والمرابطين يطلبون قدومهم للقضاء على المنكر والمفسد والجور ، وذلك فى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، فكان ذلك هو الفتح الأول ، وهو ما نراه مناسبا لتكملة رواية البكرى عن الفتح الثانى الذى أعقبه الغدر بالحامية المرابطية

سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م .

أما في جبل لمتونة (ما سبق ، ص ٢١٠) فقد سارت الأمور في غير مصلحة ابن ياسين . ففي المحرم من سنة ٤٤٨ هـ / مارس - إبريل ١٠٥٦ م . التالية ، حاصرت جدالة وحلفاؤها من صنهاجة ومن السودان ، كما يقتضى السياق ، الجبل فى جيش كبير يبلغ عدده زهاء ٣٠ (ثلاثين) ألف رجل . ورغم كثرة اللمتونيين الذين كانوا تحت قيادة يحيى بن عمر مع من انضم اليهم من حلفاء المرابطين من مسلمة السودان الذين كانوا تحت قيادة لبي بن وارجى رئيس التكرور ، فان المعركة الكبيرة التى وقعت بين الطرفين فى تبغريل فيما بين قرية (حصن) تاليوين وجبل لمتونة ، انتهت بكارثة بالنسبة لحزب ابن ياسين . فلقد انهزم المرابطون وهم المجاهدون الأشداء ، الذين « يختارون الموت على الانهزام ، ولا يحفظ لهم فرار من زحف » (١٧) ، وبقي قائدهم الأمير يحيى بن عمر فى أرض المعركة ، كما « قتل معه بشر كثير » . وبذلك أصبحت ساحة تبغريل على حدود السودان مقبرة تذكارية من مقابر شهداء الاسلام على أطراف دولته البعيدة ، مما يذكر بسيدى عقبة (تهودة) سنة ٦٣ هـ / ٦٨٣ م ، وبلاط الشهداء (بواتيه ١١٤ هـ / ١٣٢) ، وخاصة بشهداء الاباضية فى ورداسة (بتاورغى ١٤٤ هـ / ٧٦١ م - ج ٢ ص ٢٤٥) ، حسبما يفهم من الرواية المرابطية المنقوبة (١٨) .

وبعد استشهاد يحيى بن عمر الحاج بن تلاكاكين فى تلك الحرب الأهلية . كان على الفقيه عبد الله بن ياسين أن يختار أخاه « أبو بكر بن عمر » لقيادة القوات المرابطية ، فكان اختيار الرجل المناسب الذى سيخلفه الرجل المناسب (يوسف بن تاشفين) (١٨ م) .

(١٧) البكرى ، ص ١٦٦ . وقارن الاستبصار ، ص ٢١٧ (حيث اسم ملك التكرور السابق : وازجى بن ياسين) ، وقارن أمين الطيبي ، تأثير الاسلام فى غانه ومالى ، مجلة العلوم الانسانية ، الكويت ، مجلد ٤ عدد ١٥ ، ١٩٨٤ ، ص ٢٥٠ - حيث اسم الملك : وارجى بن رابيس ، وأنظر فيما سبق ص ١١٩ وهـ ٤٣ .

(١٨) أنظر البكرى ، ص ١٦٨ - حيث النص : « وهم يذكرون أنهم يسمعون فى هذا الموضع أصوات المؤذنين عند أوقات الصلوات ، وهم يتحاورونه ، ولا يدخله أحد ولا أخذ منه سيف ولا درقة ، ولا شيء من أسلحتهم ولا ثيابهم ، وقارن الترطاس ، ص ١٢٨ - حيث النص على وفاة الأمير يحيى بن عمر فى جهاد كان ببلاد السودان مع تقديم ابن ياسين لأخيه أبى بكر بن عمر اللمتونى مكانه ، وذلك فى المحرم سنة ٤٤٨ هـ / مارس - إبريل ١٠٥٦ م .

(١٨ م) نفس المصدر السابق .

اتحاد قبائل الرباط من لتونة وحلفائهم ،
تحت قيادة عبد الله بن ياسين :

كان للحرب الاهامية بصماتها الواضحة على النظام المراتبي الذي كان قد تحول الى كيان ديني سياسي على قمته « ثنائي رئاسي » ، من : الأمير القائد والفقيه المنظر ، صاحب الكلمة الأخيرة على كل حال * هكذا كان عبد الله بن ياسين يلزم جميع المراتبين من قبائل الملثمين ومن بعدهم الداخين الجدد في حظيرة دولة الرباط من أهل المغرب ، بإعلان التوبة والخضوع لتقوبة التعطير الجسدي - دونما تفرقة عنصرية .

ولكنه عقب هزيمة تبفريلى ، ومقتل الزعيم اللمتونى يحيى بن عمر اكتفى عبد الله بن ياسين بالخروج من الكارثة بأقل الخسائر ، حيث علمه درس الهزيمة أن يكون واقعيا فى سياسته : أى أن يرضى بالمكن دون المستحيل كما يقال ، وأن يدع مجالا للرغبة الشخصية فى عمل الخير أو النهى عن الشر ، دون كسر لارادة الآخرين .

وهكذا تقول الرواية تعقيبا على الهزيمة انه « لم تكن للمراتبين بعد ، كرة الى بنى جدالة(١٩) » بمعنى أن عبد الله ابن ياسين لم يثار « لنكسة » تبفريلى ، فكان جدالة خرجت منذ هذا الوقت من الوحدة المراتبية (وحدة أهل الحق) ، وكأنها صارت قبيلة حليفة وليست تابعة ، وكان دولة الرباط الموحدة اقتضت على قبائل لتونة التى شاركتها مسوفة فى نوع من الاتحاد .

وهكذا أصبح النظام المراتبي فى معناه وحدة سياسية ساداتها قبائل لتونة ولحمتها قبائل مسوفة ، وأما غيرها من القبائل فقد صارت قبائل حليفة - فكانها فى اتحاد تتمتع بحقوق المتساوين(٢٠) ، شكليا على الأقل .

(١٩) البكرى ، ص ١٦٨ ، وقارن القرطاس ، ص ١٢٩ - حيث يجعل أول أعمال يوسف بن تاشفين الذى كان على مقدمة أبى بكر بن عمر فى مسيرته نحو السوس ، غزو جدالة .

(٢٠) أنظر عن الفتوح الاسلامية ونظام الحلف مع القبائل والدويلات التركية المجاورة الى المشرق ، محمد عبد الهادى شعيرة ، الممالك الحليفة ، مجلة كلية الاداب - الاسكندرية ، سنة ١٩٤٨ ، المجلد ٤ ص ٤٢ وما بعدها .

وهذا لا يدنى أن دولة الرباط الوليدة فقدت صبغها الدينية في الوقت المبكر . فطالما عاش الفقيه ، حامل السنة وعالم الشريعة ، ظل نام المراتبي مرنديا عبادة الدين ، كما ظل الهدف من الجهاد والفتح هو يد الاسلام ونشر دعوة الحق بين من لا يعرفونها . وفي هذا المجال قام الله بن ياسين بتنشئة أعداد من الطلبة الفقهاء ممن سيساعدونه في إقامة الدولة وترتيب الدعوة لنشر الاسلام الصحيح (٢١) - الامر اندي كون قدوة لمحمد بن تومرت : مهدي الموحدين . أما عن مسار الفتوح ن منهجيا ، بدءا بشمال الصحراء في المغرب الأقصى وجنوبها في بلاد سودان ، الامر الذي تطلب اقامة قيادتين حربيتين ، احدهما شمالية أخرى جنوبية . وكانت الجبهة الشمالية هي التي استأثرت باهتمام الله بن ياسين ، لقوة بلاد المغرب النسبية بشريا واقتصاديا ، الامر الذي ، يشير بمجالات مزدهرة للعمل على كل من مستوى الجهاد والدعوة .

وهكذا تتدرج فتوح المغرب الشمالية فيما وراء درعة وسجلماصة ل يوردها البكري ، بدءا بأغصات سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م ثم بلاد المصامدة نة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ، وانتهاء ببلاد برغواطة حيث استشهد عبد الله بن ياسين - مقابل سواحل الأندلس : أرض الجهاد وموطن الرباط التي يكون لها رجالها من المراتبين خلفاء ابن ياسين ، سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م ، هو الترتيب المقبول بشكل عام رغم ما قد يوجد من اختلافات في ترتيب احداث عند من أخذ برواية البكري ممن أتى بعده من الكتاب . والحقيقة ، اضطراب رواية البكري عند المتأخرين يرجع الى أحد سببين ، أولهما : أنهم لموها عن غيرهم ممن كانوا يعرضون لها بشيء قليل أو كثير من التحوير والتغيير ، والثاني : هو خلط رواية البكري الأندلسية المعاصرة برواية ن شداد الافريقية المتأخرة بعض الشيء ، والتي تعتبر أقل أصالة من حيث كونها صحراوية ذات أصول شفوية معرضة للتحويل الشديد .

فرواية ابن الأثير (ج ٩ ص ٦٢١) والنويري (أبو ضيف ص ٣٨١ - زيرية أيضا) تخلط ما بين بلاد السوس الأقصى (موطن مصمودة) تامسنا (بلاد برغواطة - حيث قتل عبد الله بن ياسين) . ومثل هذا قال عن اللبس بين بلاد جزولة وجبل لمتونة والسودان في قصة وفاة يحيى بن عمر اللمتوني في كل من البكري (ص ١٦٧ - ١٦٨) والقرطاس

(ص ١٢٨ - ١٢٩) • وكل ذلك رغم الاجتهادات المحمودة لكل من ابن أبى زرع ، ومن بعده ابن خلدون ، فى محاولة ترتيب الاحداث بشكل منهجى مقبول •

والمهم من كل ذلك ان رواية البكرى التى يرجع الفضل الى دسلان (De Slane) فى تحقيقها وترجمتها والتعليق عليها هى المعتمدة فى ترتيبها الزمنى كما نرى ، وان عانت من قلة التفصيلات التى كان يمكن أن تنفث فى توقيتها الزمنى الجيد نوعا من الحياة •

فتح أغمات :

والقضاء على امارة البجليين :

وهكذا يكون فتح أغمات قد تم بعد نهاية الفتنة مع جدالة وحلفائها من السودان فى جنوب الصحراء ، حيث قتل الأمير يحيى وآلت القيادة الى أبى بكر بن عمر اللتوني ، بعد استرجاع سجلماسة بمعرفة عبد الله ابن ياسين الذى رأى أن يستنفذ طاقة المرابطين الذين بدأت تضيق بهم الصحراء ، فى توسيع رقعة دولة أهل الحق ، فكان التوجه الطبيعى نحو أغمات فى سفوح جبال درن ، غير بعيد من الموضع الذى سوف تبنى فيه مدينة مراكش ، وحيث كانت السلطة هناك للمغراويين الزناتية ، أقارب أصحاب سجلماسة ، فكان فى الاستيلاء على أغمات (ما يات ص ٢١٥) ضمان لهدوء الأحوال فى كل من درعة وسجلماسة •

وهكذا أصدر عبد الله بن ياسين أوامره الى الأمير أبى بكر بن عمر باعداد جيوشه للمسير نحو السوس الأقصى وجبال المصامدة • وفى شهر ربيع الثانى من صيف ٤٤٨ هـ / يونيه - يوليه ١٠٥٦ م كانت القوات المرابطية بقيادة ابن ياسين وأبى بكر ، تتجاوز حدود سجلماسة نحو سفوح جبال درن (أطلس) لكى تخترق دروبها على طول ١١ (أحد عشر) يوما الى أغمات (٢٢) • ومن المهم الاشارة هنا الى أن قائد المقدمة وقتئذ ،

(٢٢) انظر البكرى ، ص ١٥٢ - حيث الطريق من سجلماسة الى أغمات يستغرق ١١ يوما على طول المحطات التالية : بيجمامين (٢ يوم) ، وادى درعة (٢ يوم) ، وزرارات : حبت مساكن هسكورة (٢ يوم) ، هزرجة : حيث جبل الياقوت (٤ يوم) وعلى مسافة يوم واحد من أغمات •

المعين من قبل أبى بكر بن عمر، هو : ابن عم هذا الأخير يوسف بن تاشفين (٢٣) الذى سوف يرتبط اسمه بالامبراطورية المرابطية ، فكان هذا اول ظهور له على مسرح الأحداث - الأمر الذى غاب عن البكرى .

ولا بأس أن كانت منطقة تارودانت فى منتصف المسافة هدفا فى حد ذاته بالنسبة لعبد الله بن ياسين ، اذ كان أهلها يعتنقون مذهب الشيعة الاسماعيلية الذى نشره فى المنطقة بعض دعاة الاسماعيلية المعروف بالبجل الذى تسموا باسمه ، قبل قيام الدولة الفاطمية فى أفريقية (٢٤) . ولا بأس أن يكون ذلك الهدف الدينى من الأسباب الرئيسية لتلك الحملة ، الى جانب الهدف السياسى المعلن فى سجل ماسة ، وهو القضاء على حكومة أغمات المغراوية الزناتية التى تمت لبنى وادين أمراء سجل ماسة ، بصلة العرق والنسب . وهذا ما كان يحقق للمرابطين أيضا قاعدة للإشراف على مصامدة جبل درن ، وذلك فى الموضع الذى سوف تبنى فيه مدينة مراكش بمعرفة يوسف بن تاشفين ، والتى ستصبح أكبر مدن المغرب الأقصى الذى سيعرف باسمها أى « البلاد المراكشية » ، اعتبارا من عهد الموحيدين .

والمهم انه كان على المرابطين أن يقضوا على إمارة البجليين من الاسماعيلية المتطرفين فى المنطقة وأن يعيدوا إليها السنة المالكية . وفى ذلك تقول رواية ابن أبى زرع : « فقالتهم الأمير أبو بكر بن عمر ، وعبد الله ابن ياسين ، حتى فتح مدينتهم عنوة ، وقتل بها من الروافض خلق كثير ، وأخذ أموال القتلى فجعلها قيثا للمرابطين ، فكان على الباقين منهم أن يرجعوا

(٢٣) القرطاس ، ص ١٢٨ .

(٢٤) البكرى ، ص ١٦١ - حيث النص على أن الداعية الاسماعيلية محمد بن ورستد ، كان من أهل نفطة من بلاد قسطنطينية ، وأنه دعا بربر المنطقة من بنى لماس الى سب الصحابة رضه ، وأحل لهم المحرمات كالربا الذى زعم انه بيع من البيوع ، كما أضاف الى الأذان بعد شهادة : محمد رسول الله : « أشهد أن محمدا خير البشر ، وبعد : حى على الفلاح : » حى على خير العمل آل محمد خير البرية » . وقارن القرطاس ، ص ١٢٩ - حيث التماس التبسيط فى تعريف رواية البكرى الى عكس مقصدها حيث النص على أن البجلة منسوبون إلى عبد الله البجل الرافضى ، وأنه كان قدم الى السوس أيام قدوم عبيد الله الشيعى افريقية هذا ، ولا بأس أن يكون ذلك قد تم بتمهيد على أيدي دعاة الإدارة الزيدية فى فاس من حيث انهم كانوا - حسب نفي رواية البكرى يرون أن الإمامة فى ولد الحسن لا فى ولد الحسين ، وهو رأى الزيدية (الأدرسية) .

الى السنة (٢٥) « . والظاهر أن المرابطين نجحوا فعلا فى استئصال البجليين وذلك أننا لا نجد لهم ذكرا عند صاحب الاستبصار الموحدى فى أواخر القرن الـ ٦هـ / ١٢ م .

وبعد هذا الانجاز الدينى الكبير كان على ابن ياسين أن يسير مرتاح الضمير نحو أغمات التى كانت أشبه بدويلة صغيرة يحكمها أمير مغراوى هو لقوط بن يوسف الذى ربما كانت له علاقة مشبوهة بحركة الهرطقة البرغواطية فى افليم تامسنا ، من حيث كانت له دولة سابقة فى كل من سبتة وطنجة قبل الانتقال الى أغمات فى سفح جبال المصامدة (٢٦) . فهذا ما يفهم من رواية ابن أبى زرع عندما ينص بعد فرار لقوط بن يوسف ليلا اثر تضيق الحصار عليه الى تادلا ، التى سار اليها المرابطون وفتحوها عنوة ، فقتلوا من وجدوا بها من أمراء بنى يفرن ، وقبضوا على لقوط الذى أمر ابن ياسين بقتله . وبذلك انتهى الأمر بإسلام أغمات بمعنى عودة أهلها الى السنة (المالكية) ، تماما كما كان الحال بالنسبة لمنطقة تارودانت . ورغم الاختلاف مع البكرى فى تفاصيل خطوات الفتح المرابطى فى السوس وأغمات يجعل ابن أبى زرع فتح أغمات فى سنة ٤٤٩هـ / ١٠٥٧ م وهو تاريخ البكرى (٢٧) .

فتح السوس الأقصى :

ومن الواضح ان فتح سفوح جبال درن (أطلس العليا) الشمالية والتمركز فى أغمات التى اتخذها أبو بكر وابن ياسين مقرا للمرابطين كان يعنى التضيق على إقليم وادى السوس الأقصى ، وقطع الطريق بينه

(٢٥) القرطاس ، ص ١٢٩ - حيث اسم المدينة رودانه وهى تحريف محتمل لتارودانت . والحقيقة أن اسم تارودانت لا يرد فى رواية البكرى ، الأمر الذى يعنى أن اسم تارودانت لم يبدأ فى الظهور الا على عهد الموحدين حيث لها ذكر فى رواية الأدريسى ، بينما يصفها صاحب الاستبصار فى أواخر القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م بأنها قرية كبيرة جدا « فكانها عدة قرى على طول النهر » (الاستبصار ص ٢١١ وهـ ٥) .

(٢٦) أنظر ج ٣ ص ٥٠٨ - حيث تغلب الحاجب (لكوت) أو لقوط بدلا مد سكوت ، حسب تصحيح دسلان فى ترجمة ابن خلدون الذى يعرف بالبرغواطى على سبته ، ص ٥٠٩ . حيث موقع اغمات فى سفوح جبال المصامدة وارتباطها بكل من فاس وسجلماسة وكذلك بمنطقة السوس الأقصى ، وأهميتها على طرق التجارة ، وأنها مدينتان يفصل بينهما نهر وربكة أو بعض روافده ص ٥١١ - حيث نهاية لقوط على أيدي المرابطين .

(٢٧) القرطاس ، ص ١٢٩ ، (البكرى ، ص ١٦٨) .

ويبين أقاليم مغراوة. وغمارة وبرغواطة الشمالية ، بمعنى سقوطه الوشيك بأقل الجهد والتكاليف .

وهكذا اتخذ ابن ياسين من أغمات مقرا حيث استراح المرابطون لمدة شهرين (٢٨) ، من أوائل شتاء سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م . وعندما تحسنت الأحوال الجوية بدأ الأعداد لاتمام حملة فتح وادى السوس . وكان من الطبيعى أن يبدأ الغزو بفتح تادلة حيث لجأ لقوط البراغواطى أمير أغمات لدى بنى يفرن هناك ، حيث تم القبض عليه وكان مصيره القتل (٢٩) ، وذلك فى نفس السنة (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) حسبما يأخذ به ابن خلدون (٣٠) .

ونرى بعد ذلك ان فتح مدينة نفيس كان مطلباً هاماً بالنسبة لابن ياسين من حيث كونها من أول فتوح عقبة بن نافع. فى المغرب الأقصى سنة ٦٢ هـ / ٦٨١ م ، فهى جديرة بتجديده اسلامها قبل غيرها من مدن السوس ، طالما كان مسجدها من أوائل مساجد المنطقة . وبعدها تأتى سائر بلاد جدميوه (٣١) ، وفتح مدينة شيشاوة عنوة ، الأمر الذى دعا قبائل المنطقة من رجاجة وحاجة الى الاسراع الى الحضرة (أغمات) لتقديم الطاعة وآيات الخضوع (٣٢) . واذا كانت رواية القرطاس تذكر فتح مدينة ماست التى تحمل اسم رافد السوس قرب المصب على المحيط ، فالمفهوم أن تمام فتح السوس الأقصى لا يتم الا بفتح « قاعدته » ايجلى مركز انتاج السكر الذى تستهلكه « جميع بلاد المغرب » ، وهو الأمر الذى لا يشير اليه البكرى أيضا (٣٣) . ولا بأس أن يكون ذلك قد تم فى مرحلة أخرى عن طريق حملة تكون قد سارت بطريق المحيط الساحلى ، بدأ من الاستيلاء على نول لمطة ، على ٣ (ثلاثة) مراحل من ماست . وذلك أن بعض الروايات تجعل فتح نول لمطة ضمن فتح المرابطين لبلاد السوس .

وهكذا يكون المرابطون قد فتحوا معاقل بلاد السوس كما يقو

• (٢٨) القرطاس ، ص ١٢٩

• (٢٩) القرطاس ، ص ١٢٩

• (٣٠) المبر ، ج ٦ ص ١٨٣ ، والترجمة ، ص ٧١ - حيث اسم لقوط فى شكل لجوت (Laghout) بن يوسف بن على المفاوى .

• (٣١) القرطاس ، ص ١٢٩ - حيث تكرر فتح جبل درن ، وبلاد روده (٩ : رودانه

أو تارودنت) .

• (٣٢) القرطاس ، ص ١٢٩

• (٣٣) البكرى ، ص ١٦١

ابن أبي زرع ، وأطاعتهم قبائلها جميعا ، من المصامدة وغيرهم وذلك في سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ، بناء على تقرير البكري (ص ١٦٨) . وبعد الفتح تبدأ مرحلة وضع تراتيب الإدارة ونظم الحكم ، من : اخراج الولاة والعمال الى نواحي البلاد المختلفة مع اصدار التعليمات بأن يكون دستور الحكم على المستوى الدينى ، هو : اقامة العدل واطهار الحق ، وعلى المستوى المالى والاقتصادى : الالتزام بجباية الزكاة (ضريبة الأموال والممتلكات) والعشر (ضريبة) ناتج الأرض ، وعلى المستوى السياسى : مما عرفه المتشددون من الفقهاء باسم « المغارم » أو « المظالم » ، على أساس عدم شرعيتها من وجهة نظرهم(٣٤) .

فتح تامسنا : بلاد برغواطة :

تمهيد فى السمات العامة للحركة البرغواطية :

كان استيلاء ابن ياسين على بلاد السوس الأقصى مقدمة طبيعية لتمدد دولة الرباط الصحراوية نحو السواحل الشمالية لبلاد المغرب الأقصى ، فى منطقة تامسنا الممتدة على طول ساحل الأطلنطى ما بين كل من وادى أبو الرقراق (بور جرج) شمالا ، وحتى مصبه فى سلا والرباط (رباط الفتح) ووادى أم الربيع جنوبا وحتى مصبه آزمور . وهذه المنطقة الغنية بمياهها وأوديتها المحيطة تشبه أن تكون منعزلة عن بقية بلاد المغرب ، من حيث هى المغرب الأقصى حقا أى التى ليست مشرقا بالنسبة لغيرها من البلاد ، كما تسكنها قبائل برغواطة المعدودة أصلا من قبائل المصامدة وإن ماجت المنطقة بفسيفساء مختلطة من قبائل زناتة وصنهاجة وغيرهم(٣٥) .

والمهم أن قبائل برغواطة تمثل اتجاه العزلة التى يوصف بها اقليم تامسنا ، من حيث القول أنهم أندلسيون أصلا ، سكنوا منطقة شريش المواجهة لساحلهم ، حيث منطقة مستنقعات وادى برباط التى كانت فوضع أول نزول للفاتحين العرب بالأندلس . وفى ذلك قيل ان اسمهم برغواطة

(٣٤) انظر القرطاس ، ص ١٢٩ ، وقارن ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٨٣ ، والترجمة ص ٧١ ، القلشندي ج ٥ ص ١٨٩ - حيث الأخذ بتواريخ البكري ، كما فعل ابن أبي زرع وابن خلدون ، رغم الاختلافات فى التفاصيل مما يظهر أصلا فى رواية ابن شداد التى أخذ بها كل من ابن الأثير والنويرى .
(٣٥) انظر ج ٢ ص ٤٣٢ والهوامش .

تحويل لاسم برباطة (مفردھا بالأصل برباطى أى برغواطى) (٣٦) .

وتتمثل مظاهر العزلة فى تامسنا فى تمسك قبائل برغواطية هناك بعاداتها القديمة وتمسكها بلغتها البربرية الأصيلة ، الأمر الذى أدى الى اعتناقها مذاهب الخوارج الصفرية ، والمشاركة فى ثورة ميسرة المطغرى سنة ١٢٢هـ/ ٧٤٠م الأمر الذى انتهى بإقامة إمارة بربرية مستقلة جاهدت فى الاستقلال عن دولة الخلافة فى بغداد ، وعن دول المغرب المستقلة ، سواء فى الأندلس أو المغرب الأقصى .

هكذا كانت دولة برغواطية مرتبطة بدولة مططرة الغمارية التى قام بها خوارج الريف بقيادة ميسرة الفقير ، واستمر أمراؤها يتسلسلون أبا عن جد فى بلادهم المحتمية بكل من جبل درن وشاطئ المحيط طوال خمسة قرون الى قيام دولة الرباط ، وبعدها دولة التوحيد ، وهى تقاوم معارضة خصومها على كل المستويات من رسمية وشعبية أو دعائية وحربية ، الأمر الذى يعنى نوعا من الصمود الذى يثير فى النفس نوعا من الاستغراب ان لم يكن من الاعجاب .

هذا ، ولم تكف برغواطية بالقدرة على الدفاع عن كيانها المستقل سياسيا وحضاريا ضد الحوصوم فحسب ، بل انها نجحت فى اقامة علاقات ودية أشبه بتلك التى تقوم بين الدول المستقلة فى أيامنا هذه - كذلك الذى حدث بين مملكة برغواطية على أيام السابع من ملوكهم : أبى منصور عيسى بن أبى الأنصار ، الذى ولى سنة ٣٤١هـ/ ٩٦١م ، عندما راسل الحكم المستنصر الأموى سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م ، فاستقبل رسوله (صاحب الصلاه عندهم) : أبا صالح زمور البرغواطى رسميا فى قرطبة ، استقبال سفير دولة صديقة (ج ٣ ص ٤٣٦) ، فكان مملكة برغواطية فى تامسنا بلغت القمة كدولة مستقلة ذات سيادة فى منتصف القرن الرابع الهجرى (١٠م) .

ورغم غزو اليفرنيين (الزناتية) لتامسنا ، بعد جوالى ٧٠ (سبعين) سنة ، أى فى سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م ، والقول باستيطان بنى يفرن لبلاد تامسنا التى غزوها ، بل والنص على انقطاع أمر برغواطية فلم يبق لضاللتهم

(٣٦) انظر ج ٢ ص ٤٣٠ وما بعدها ، وعن المنطقة انظر سيجر سالم ، قانس ...
فى العصر الاسلامى ، ص ١٧ وما بعدها .

باقية ولا من أواصر كفرهم أصرة (٣٧) .

ماهية هرطقة برغواطة :

وهنا ، لا بأس من محاولة القاء الضوء على أحوال اقليمى تادلا وتامسنا الحضارية والثقافية بشكل عام ، وأوضاع قبائل برغواطة والقبائل الحليفة لها على المستويين الاجتماعى والثقافى والدينى أيضا ، فى سبيل الاقتراب من الحقيقة ، اذا كان الوصول اليها من الصعوبة بمكان . فالمعروف ان أهل الجبال مثل سكان البادية والصحراء يصنفون فى أول درجات السلم الحضارى مع عامة أهل المطالب الضرورية ممن يوصفون بالجفاء والغلظة ، مثلهم مثل العامة من الكادحين أو أهل الشقاء . وهؤلاء مقلون بطبيعة الحال فى أسباب حياتهم اليومية ، من مادية ومعنوية - فمثلا هم قليلوا المال بعامه ، فان بضاعتهم قليلة فى مجالات الثقافة والدين ، وكذلك الأمر بالنسبة للأعراف والتقاليد ، مما سبقت الإشارة إليه أعلاه ، ومما وصفتهم به روايات المرابطين أو ما جاء على لسان ابن ياسين أو المرابطين مما يأتى .

وأول ما تتهم به برغواطة ، حسب رواية القرن الـ ٥هـ / ١١م التى يقدمها البكرى ، مع روايتى القرن الـ ٤هـ / ١٠م المنسوبتين الى كل من زهور البرغواطى ، وفضل بن مفضل المذحجى (٣٨) ، هى الزندقة المبنية على التنبؤ ، وابتداع قرآن خاص بهم ، يتكون من ٨٠ (ثمانين) سورة ، مقسمة ما بين سور بأسماء الأنبياء ، وأخرى بأسماء الحيوان (٣٩) . اما ما يوجه الى البرغواطية من انحرافات لا تتفق مع أحكام الشريعة ، فمنها ما يتصل

(٣٧) البكرى ، ص ١٤١ ، وانظر ج ٢ ص ٤٣٤ ، فقد ظلت الحركة البرغواطية باقية ، الأمر الذى قد يفسره قيام المرابطين بجهود اضافية من أجل القضاء على ذلك الانحراف البرغواطى . وهنا تحسن الإشارة الى ان أقاليم أخرى كانت قد اتهمت بالخروج على الاسلام الصحيح ، سواء فى الصحراء ، من : جدالة الى لتونة ، وفى أقاليم المغرب شبه الصحراوية كدرعة وسجلماسة ، بل والأقاليم المغربية أصلا كبعض مواضع من السوس الأقصى ، الأمر الذى تطلب تجديد اسلامها - مما سبقت الإشارة إليه .

(٣٨) البكرى ، ص ١٣٧ .

(٣٩) البكرى ، ص ١٤٠ - حيث سور الانبياء : أيوب (أولها) ، وفرعون ، ومارون ، وهامان ، وياجوج ، وماجوج ، وهاروت ، وماروت ، وآخرها : سورة يونس . ومن سور الحيوان : العجل ، والدبك ، والجمل ، والجراد ، والحمل ، وآخرها سورة الحنش : يضاف الى ذلك سورة غرائب الدنيا . وقارن روض القرطاس ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

بالعقائد والعبادات ومنها ما يتصل بالمعاملات الى جانب ما كانوا يتمسكون من عادات وأعراف قديمة مما يتصل بالأخلاق والجنایات والعقوبات .

فى العقيدة : ما بين التشدد الخارجى والتساهل الشيعى :

فيما يتعلق بالعقيدة الاسلامية ، ورغم ما تقوله الرواية من ان البرغواطيين اتخذوا قرآنا خاصا بهم ، وأنهم حرفوا شعائر الاسلام ، وخاصة فيما يتعلق بالصلاة والصوم والزكاة ، فانه يمكن أن يستشف من التفصيلات المتعلقة بذلك ، ان المذهب البرغواطى - اذا صحت التسمية - هو مذهب اسلامى أصيل ، وأنه اذا كانت قد شابته بعض الشوائب ، فتكون من حيث الميل الى التشدد الخارجى والغلو من ناحية أو التساهل الشيعى من ناحية أخرى .

فأمير برغواطى الاول صالح بن طريف كان مشتركا بصحبة والده فى ثورة ميسرة المطفرى ، فيكون المذهب فى أصوله صفريا (خارجيا) ، ويكون البرغواطيون من أهل القيام والصيام ، رهبان الليل وفرسان النهار ، الأمر الذى يفسر ميلهم الى التشدد فى العبادات ، بدءا من الوضوء حيث المبالغة فى التطهر - الى جانب اشارة تساهل فى الجنابة المعتادة عند صاحب القرطاس (٤٠) .

وفى الصلاة يظهر التشدد فى جعلها ١٠ (عشر) صلوات : خمسة بالنهار ، وخمسة بالليل (٤١) ، الى جانب أشياء أخرى فى الصلاة يمكن اعتبارها نوعا من التيسير ، مثل : قصر الصلاة (٤٢) ، الى جانب أقواله

(٤٠) البكرى ، ص ١٢٩ - حيث النص على غسل السرة فى الوضوء ، والخاصتين ، والذراعين بدءا من الكتفين ، والرجلين بدءا من الركبتين . وهنا اذا كان التشدد يضيف الاستنجاء الى كل ذلك ، فان اشارة التساهل فى التطهر من الجنابة الا من الحرام ، التى يضيفها ابن أبى ذرغ الى رواية البكرى لا تتفق مع هذا السياق ، ونرى انها موضوعية ، وخاصة أنه اهتم بجمع أخبار برغواطى فى كتابه الذى سماه « ازهار البستان فى أخبار الزمان » وذكر الموجود مما وقع فى الوجود ، الذى ربما انصب على غرائب الموضوع وعجائبه - القرطاس ، ص ١٢١ .

(٤١) البكرى ، ص ١٢٨ - ١٢٩ ، الأمر الذى يذكر بما فرضه عبد الله بن ياسين على أهل الرباط ومن لاذ بهم ، من أداء كل صلاة مرتين . فردا ثم جماعة ، درءا لما يكون قد سدت من التفريط من قبل ، ص ١٩٦ .

(٤٢) أو كأداء بعض الصلاة أيماء ، أو رفع الجباء من الأرض بمقدار نصف شبر خشية -

أخرى مثل صلاة الجمعة في يوم الخميس ضحا (٤٣) . أما ما يقال عن صوم رجب بدلا من رمضان فالظن انه تحريف يقصد به التشويه من قبل بعض المحصوم (٤٤) .

أما عن توحيد الزكاة وضريبة الأرض (الحراج) وجعل كل منهما العشر (٤٥) ، فهو يعنى أيضا نوعا من التشدد الذى كان يقوم به المرابطون عند خروجهم لفتح الصحراء أو بعض أقاليم المغرب ، حيث جعلوا الزكاة عشرا ، أو عندما فرضوا زكاة الثلث على أموال القبائل من الماشية حتى يزكو لأصحابها الثلثان (ما سبق ، ص ٢٠٣) .

وفيما يقال من أن البرغواطيين جعلوا عيد الأضحى في اليوم الـ ١١ من المحرم بدلا من الـ ١٠ من ذى الحجة (البكرى ، ص ١٣٩) ، فهى مقالة لا تعبر إلا عن توجه شيعى بين قبائل تلمسنا كذلك الذى رأيناه فى تارودانت بالسوس الأقصى ، وذلك ضمن علامات شيعية أخرى ، مثل القول بأن أول ملوكهم صالح بن طريف زعم أنه « المهدي الأكبر » الذى يظهر آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما (٤٦) . ومثل استخدام الرقم ٧ (سبعة) الذى له قيمة رمزية خفية عند الشيعة الاسماعيلية ، مثل القول بأن صالح يرجع على عهد السابع من ملوكهم (البكرى ، ص ١٣٥) وأن يونس بن الياس قتل فى سوق المدينة ٧٧٧٠ رجلا (البكرى ، ص ١٣٥) .

وفى المعاملات من زواج وطلاق وبيع وشراء وغيرها ، ينسب إلى آل صالح التمسك ببعض العادات القديمة كتلك التى عرفها عبد الله

= احتكاك الجباه بالأرض أو باقدام المصلين فى الصف المتقدم ، أو السجود ثلاثا ، أنظر البكرى ، ص ١٣٩ . وقارن القرطاس ، ص ١٢١ - حيث شرح الصلاة إيماء بلا سجود حيث يكون السجود فى آخر ركعة ٥ سجودات .

(٤٣) البكرى ، ص ١٢٩ ، مما لا يعرف له تبريرا إلا اذا كان من تركات الشيعة الذين لا يرون بأسا فى ترك صلاة الجمعة انتظارا لرجعة الإمام - الأمر الذى قد يقبله بعض الخوارج .
(٤٤) البكرى ، ص ١٣٨ ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٠ - حيث المقبول أن يكون هناك الاهتمام بالصوم فى رجب كما شعبان قبل رمضان - ويؤيد ذلك ما تنقله رواية البكرى من اهتمامهم بصوم يوم أسبوعيا ، والاهتمام بصوم يوم الجمعة على وجه الخصوص - وكل ذلك تزيادة فى أداء فرائض العبادة .

(٤٥) البكرى ، ص ١٣١ - حيث النص على الأمر بإخراج العشر من جميع الثمار .

(٤٦) البكرى ، ص ١٣٥ .

ابن ياسين في مجتمعات الصحراء (ما سبق ، ص ١٧٧) ، حيث الزواج بالنسبة للسادة ، حسب الاستطاعة ، والطلاق والمراجعة حسب المشيئة ، مع وضع بعض الضوابط ، مثل عدم الزواج من بنت العم الى ٣ (ثلاثة) جدد ، الى جانب عدم الترسى مما يعادل بطلان زواج المتعة (٤٧) .

وفي شئون الطعام والمطبخ يظهر عندهم بعض التشدد في عدد من المحرمات ، مثل : عدم أكل رأس الحيوان ، وعدم أكل لحم الحوت (السماك) الا أن يزكى (أى يذبح حيا) ، وعدم أكل البيض ، وكراهية أكل الدجاج مع تحريم أكل الديكة ، على أساس أنها تذكر الناس بأوقات الصلاة ، الأمر الذى أعطاها تلك الحصانة أو ذلك التبجيل (٤٨) .

اما في الجرائم والعقوبات فلا بأس أن كان لقبائل برغواطة الجبلية مثل قبائل الصحراء ، قوانينهم العرفية التى تتسم بالشدة من أجل انضباط افراد المجتمع ، والصرامة . فالسرقة عقوبتها الاعدام ، سواء ثبتت بالاقرار أم اتضحت بالبيئة . وعقوبة الزنا هى الموت أيضا ، وان كان رجما بالحجارة فى جميع الحالات . هذا ، ولو أنه عرفت الدية ثمنا لحياة الجاني - مع اصلاح الضرر اذا أمكن ، على ما نظن - وتقدر تلك الغرامة الباهظة بـ ١٠٠ (مائة) من البقر . ومن الطريف هنا أيضا ، أنه كان للكذب عقوبته الرادعة فى تامسنا هو الآخر ، حيث كان الكاذب يسمى « المغير » (للحقيقة) ، وعقوبته النفى من البلاد (٤٩) .

والذى يفهم من هذا العرض لأحوال قبائل برغواطة فى تامسنا أنه كان لتلك القبائل عاداتها القديمة التى ظلت محتفظة بها بعد الدخول فى الاسلام ، وهو الأمر الواقع بالنسبة للتجمعات البشرية ، وخاصة فى البيئات الانعزالية ، مثل تامسنا . كما كان لتلك القبائل مفهومها الخاص

(٤٧) البكرى ، ص ١٣٩ - وفى ذلك يقال ان ابا عفير يعمد (ت سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) الرابع فى قائمة البكرى ، ص ١٣٧ ، وكان له ٤٤ (اربع واربعون) زوجة ، وان كانت بقية الرواية التى تنص على انهن أنجن له ٤٤ ولدا (نفس الرقم) تشكك فى صحة الخبر جسيما ، فكانه لون من أدب الطرائف أو الغرائب .

(٤٨) البكرى ، ص ١٣٩ - ١٤٠ - حيث اضافة التبرك بها الى درجة الاستشفاء « ببصاقها » مما يمكن حسبانها فى أدب الغرائب .

(٤٩) البكرى ، ص ١٣٩ - وعن القانون العرفى عند قبائل الصحراء ، أنظر ما سبق ، ص ١٣٦ .

لشريعة الاسلام وسننه التي تميل الى التشدد منذ البداية بفضل حركات
الخوارج ، وجهود الردع التي قامت بها الدويلات الموالية لدول المشرق
أو المغرب والأندلس من سنية أو شيعية .

برغواطة وترجمة القرآن وشرحه :

لأول مرة باللغة البربرية :

والتهمة الكبرى التي تلصق ببرغواطة وهي الزندقة ، عن طريق
اتخاذ قرآن جديد ، الأمر الذي يتضمن ادعاء النبوة ، هي تعبير حسبما
نرى ، عن اتجاهات دينية سياسية هدفها الاستقلال عن طريق تكوين كيان
خاص ، يبنى على التوافق بين روح الاسلام التي تتواءم مع الظروف البيئية
بمعناها الاجتماعي والثقافي . وأول أسباب المواءمة تتمثل في فهم قواعد
الاسلام الأساسية ، في نصوصها القرآنية وشرحها في السنن النبوية .
وهكذا نرى ان ما تسميه الروايات المناهضة لآل صالح « بزندقة » برغواطة ،
ليس في حقيقة الأمر سوى ترجمة للقرآن الكريم ومحاولة لتفسيره باللغة
البربرية ، لغة قبائل جبال المغرب الأقصى الشمالية الغربية . ورغم ان
المحاولة كانت لها أسبابها العملية أو الواقعية بالنسبة لجمهرة المغاربة من
البربر ، الا أن الوقت لم يكن مناسباً لتنفيذها في تلك الفترة المبكرة من
تاريخ دولة الاسلام الفتية ، حيث كانت « العروبة » تكاد تعاد « الاسلام »
من حيث أن انتشار الاسلام كان العامل الحاسم في انتشار اللغة العربية ،
قبل أن يسير الاثنان جنباً الى جنب يدفع كل منهما الآخر ويقوى انتشاره .
والحقيقة ان التعريب كما يرى بعض الباحثين ، كان معجزة الاسلام في ذلك
الزمان - من حيث أنه العملية التي لا يدانيها في تاريخ العالم الا ما يقوم
به الأنجلوسكسون في أيامنا المعاصرة ، من نشر لغتهم الانجليزية دولياً
(٤٩م) وهي العملية المستمرة حتى الآن .

ويتأكد سبق برغواطة في ترجمة القرآن الى اللغة البربرية من
النصوص الخاصة بتطبيق الشريعة الاسلامية في تامسنا على أيام البكرى ،
في النصف الثاني من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م . ويتأكد من حسن النية في
سلامة تلك العملية التي كان يصعب قبولها وقتئذ ، مما يقال في وصف
قبائل برغواطة ، ومن صفات ملوكها من آل صالح بن طريف . وبرغواطة

هم أجمل الناس رجالا ونساء ، وأشدهم أبدا (٥٠) .

وأما عن آل صالح فأول ملوكهم وهو صالح بن طريف يعتبر - رغم
ما ينسب إليه من النبوة من أهل العلم والخير . والثاني : الياس ، فقد
كان - رغم ما يسر به ، تقيا - طاهرا ، عفيفا ، زاهدا . ويونس (الثالث)
كان - رغم عنفه مع رعيته - ورعا ، قام بإداء فريضة الحج دون سائر أمراء
الأسرة . أما أبو الأنصار عبد الله (الخامس) فقد عرف بأنه سخي ، طريف ،
يفي بالعهد ، ويحفظ الجار ، ويكافئ على الهدية (٥١) ، الأمر الذي يعنى أن
أسرة ملوك بنى صالح ، الذين كانوا ما بين عالم ، وعفيف ، وزاهد ، وحاج
ورع ، ليسوا إلا من أهل السيرة الطيبة والأخلاق الحميدة . وإن هذا يعنى
أنهم مؤمنون مخلصون ، يتمسكون بأصول الشريعة - وما تقضى به قواعد
الدين . أما ما ينسب إليه من اختراع قرآن بلغتهم ، فهو لا يكون فى
الحقيقة إلا ترجمة للقرآن ، ربما كانت بتصرف فى بعض المواضع أو تفسيرا
لما يحتاجه النص من بيان وشرح . فهذا ما يتضح مما كانوا يقرأونه فى
صلواتهم : فكلمة « ياكش » حلت محل اسم « الله » ، تماما كما حلت عند
الترك فى المشرق كلمة « تنجرى » محل كلمة « الله » (٥٢) . وهكذا كان
افتتاح الصلاة (الاحرام) يبدأ بقول « ابسمن ياكش ، مقر ياكوش » ،
تفسيره : « بسم الله ، الكبير الله » (بسم الله ، الله أكبر) ، وفى النهاية ،
يقولون فى التسليم بالبربرية : « الله فوقنا ، لم يغب عنه شئ فى الأرض
ولا فى السماء » سبحانه ربى الأعلى ، له ما فى السماوات وما فى الأرض) ،
ثم يقول : « ايحن ياكش » ومعناه : « الواحد الله » (قل هو الله أحد)
٢٥٠ (خمس وعشرين) مرة ، و«وردام ياكش » ومعناه : « لا أحد مثل الله ،
(ليس كمثل شئ) ، مثلها (٥٣) .

وبناء على ذلك نرى أن ما يقال عن زندقة برغواطية ليس إلا مجرد
معارضة لمحاولة استقلالهم السياسى ، الذى حاولوا أن يدعموه ثقافيا عن
طريق الدين ، وذلك بترجمة القرآن الى لغتهم حتى يتمكنوا من الاستغناء

(٥٠) البكرى ، ص ١٤٠ - حيث النص على أن الجارية البكر منهن كانت تثب ٣ (ثلاث)
حجر مصطفة ولا يمس ثوبها شيئا من الحجر - وإن كانت الثيب لا تقدر على ذلك .
(٥١) البكرى ، ص ١٣٥ ، ١٣٧ .
(٥٢) انظر للمؤلف ، الترك والمجتمعات ، التركية ، مجلة كلية الآداب بالاسكندرية ،
سنة ١٩٥٦ ، المجلد العاشر ، ص ٨٠ - ٨٢ .
(٥٣) البكرى ، ص ١٣٩ .

(الاستقلال) عن غيرهم فى تعلمهم لقواعد دينهم • وتلك كانت مسألة طموحة ، سابقة لأوانها ، بكل مقاييس ذلك العصر • ولا شك أن إقامة علاقات جيدة بين ملك برغواطة فى منتصف القرن الـ ١٠هـ / ١٠م ، كان يعنى تدعيم الدولة الأموية الأندلسية ، بما لها من سلطان وجاء فى المغرب ، لدولة برغواطة التامسنية ، والاعتراف بشرعيتها الإسلامية • وبناء على هذه المقدمات يكون الغزو المرابطى لتامسنا وقبائل برغواطة باسم تجديد الإسلام هناك ليس الا محاولة جديدة ذات أهداف سياسية ، تماما كما سيكون الحال بعد ذلك ، على عهد الموحدون •

ضم تامسنا لدولة الرباط :

وهكذا تقدم المرابطون وعلى رأسهم ابن ياسين لغزو تامسنا ، واسقاط حكومتها البرغواطية (المغراوية) ، وهم يرفعون شعارات تجديد الإسلام ، تماما كما فعلوا فى الصحراء ، وبما تم غزوه من بلاد المغرب • ولنا فيما يقرره البكرى فى نهاية تعريفه بأحوال تامسنا على أيامه ، سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م ، من أن « جميع بلاد برغواطة اليوم على ملّة الإسلام » (٥٤) ، سند لمقالنا هذا •

والمعلومات عن فتح المرابطين لتامسنا ، بلاد قبائل برغواطة وحلفائها قليلة ، ومضطربة بما يتناسب والمعلومات المختلطة عن تنبؤ ملوكهم ، وزندقة اعتقادهم • والبكرى يركز اهتمامه هناك على استشهاد ابن ياسين الذى أصبح ضريحه مزارا مبهجا ، يؤمه الناس للتبرك وقضاء الحاجات • وابن الأثير الذى يعتمد على رواية ابن شداد الزيرى الصنهاجي ، يخلط ما بين فتح تامسنا وفتح السوس ، حيث يرى هزيمة المرابطين وقتل ابن ياسين • والنويرى يتبع ابن الأثير فى مساره هذا مع اختلافات جزئية فى التفاصيل • رغم وحدة المصدر • أما ابن أبى زرع الذى يأخذ برواية البكرى عن المرابطين وعن هرطقة (زندقة) برغواطة ، فإنه يحاول عرض معلومات البكرى المتفرقة بطريقة « مبرمجة » (منظمة) مع إضافة بعض الشروح من لدنه ، أو محاولة كشف ما قد يكتنف بعضها من غموض • وعن هذا الطريق يقدم ابن أبى زرع رواية بعض التفاصيل منذ تاريخ وفاة عبد الله بن ياسين ، بالوقت (الساعة) واليوم والشهر والسنة ، ويتكلم

عن معارك ضارية ، ولكن دون تحديد مواضعها ، الأمر الذى يشكك فى أصل الرواية . وعلى نسق ابن أبى زرع توجد بعض التفصيلات عند ابن خلدون ولكنها معروضة بشكل منهجى ، وإن كانت غير متكاملة ، على كل حال .

معالم حرب تامسنا :

وباستعراض تلك الروايات يمكن تحديد بعض معالم حرب تامسنا المرابطية ، التى تبدأ من أغمات ، قاعدة حملة السوس ، بفضل موقعها الاستراتيجى ، فيما بين السوس وتادلا ، على طول الطريق المؤدى غربا نحو المحيط حيث رباط قوز العامر بالصالحين ، والذى يعتبر ساحل أغمات . وإلى الشمال من ذلك ساحل تادلا حيث مرسى أسفى ، والرأس البيضاء التى تعتبر ساحل تادلا . وإلى الشمال من ذلك فيما بين آزموور ، على مصب أم الربيع والرباط على مصب بور جرج (أبو الرقراق) يمتد ساحل « تامسنى » ، حيث جزيرة فضالة ، ساحل برغواطة . ومن الواضح أن بلاد برغواطة ، سواء فى الداخل أو على الساحل ، ليس بها مراكز عمرانية كبيرة ، إنما هى قرى جبلية متناثرة فى سفوح الجبال الوعرة ، مما يعنى حصانتها (وصعوبة اجتياحها) .

وهنا يمكن أن تقسم الحرب المرابطية فى تامسنا والثى امتدت حوالى ٣ (ثلاث) سنوات ، الى مرحلتين يفصل بينهما مقتل عبد الله بن ياسين . ولا بأس أن تكون المرحلة الأولى أقصر من الثانية بعض الشيء ، حيث كانت وفاة ابن ياسين فى جمادى الأولى سنة ٤٥١ هـ / يونيه ١٠٥٩ م . أما المرحلة الثانية فتنتهى قبل صفر ٤٥٢ هـ / مارس ١٠٦٠ م بالعودة الى أغمات ، حسب رواية القرطاس (٥٥) ، أو فى سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م - وهو التاريخ الذى يحدده ابن الأثير خطأ لفتح سجلماسة (٥٦) .

والحقيقة أن رواية ابن الأثير هنا ، لا تخلط بين فتح تامسنا وفتح سجلماسة فقط ، بل وبين بلاد السوس بشكل عام أيضا ، فكان شمال المغرب الأقصى (بلاد جبال درن) يمثل وحدة اقليمية واحدة ، أو بالأحرى وحدة سياسية اقتصادية ، حيث كانت السيادة للزناتية من يفرنية وغيره

(٥٥) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٣٣ .

(٥٦) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨١ - حيث عدم

وجود التاريخ رغم الاشتراك فى نفس المصدر .

وتمتد المنطقة اعتبارا من وادى درعة وسجلماصة فى الأقاليم شبه الصحراوية حتى الأقاليم الجبلية الحصبة فى السوس وتادلا ، وكذلك برغواطة (تامسنا) حيث الأسرة الجديدة من اليفرنيين كانت قد بدأت فى حكمها منذ حوالى ٧٠ (سبعين) سنة ، حينا غزاهم الأمير تميم اليفرنى بعد سنة ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م - أى قبل ثلاثين سنة من الفتح المرباطى للسوس وتامسنا (٥٧) :

وهكذا ، وفى الاطار الدينى الاقتصادى سارت حرب « المطاولة » ، التى تفرق بين عهدين حسب اصطلاح ابن خلدون ، بين الدولة المرباطية الناشئة ودولة زناتة الغاربة ، صاحبة السيادة على المغرب الأقصى ، يوضح فتح تامسنا فى اطار هجرة أهل الصحراء من بلادهم عندما قحطت بلادهم ، وضاعت بهم فى سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م (٥٨) . وينفرد ابن أبى زرع بالحديث عن تقدم ابن ياسين ورجاله تسبقهم دعاية واسعة عن هدفهم النبيل ، من القضاء على هرطقة برغواطة الجاهلية ، وتجديد الاسلام فى تلك البلاد ، ووجوب تقديم جهادهم على غيرهم (٥٩) .

موقعة كريفلة ومقتل عبد الله بن ياسين :

ويتم اللقاء الرائع بين ملك تامسنا اليفرنى يومئذ ، وبين ابن ياسين ، فى ملاحم شديدة هلك فيها الكثير من الجانبين (٦٠) . وكان أشهر أيامها تلك الواقعة التى حدثت فى موضع يعرف بـ « كريفلة » ، فى منطقة الرباط

(٥٧) البكرى ، ص ١٤٦ - حيث النص على أنه لم تزل برغواطة فى بلادها معلنة بدينها ، صالح بن طريف ملوكها الى أن قام فيهم الأمير تميم اليفرنى ، وذلك بعد ٤٢٠ هـ / (عشرين وأربعمائة) من الهجرة ، فغلبهم على بلادهم ، وسباهم ، وجلا من بقي واستوطن ديارهم وانقطع أمرهم ، وعفا آثارهم ، ولم يبق لضلالتهم باقية ، ولا من كفرهم أسرة ، هذا مع النص على جد وعدالة الأمير تميم الذى لم يتردد فى « قتل بنيه لاغتصابه جارية من التجار بوادى « سلا » ، وكذلك على أن « جميع بلاد برغواطة م. (سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م) على ملة الاسلام » . وأنظر ما سبق ، ص ٢٢٦) .

(٥٨) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١ - ٦٢٠ - حيث خرجوا طلبا للزكاة ، كما حدث فى مجلماصة لأول مرة سنة ٤٤٧ هـ ، (القرطاس ، ١٤٧ ، ١٢٨) .

(٥٩) القرطاس ، ص ١٣١ - حيث النص على أن رواية المؤلف (ابن أبى زرع نفسه) تبدأ من الفقرة الأخيرة الخاصة بتقديم جهادهم على جهاد غيرهم .

(٦٠) أنظر القرطاس ، ص ١٣٢ - حيث الأمير على يرغواطة وقتلته هو : أبو حفص عبد الله بن أبى عبيد محمد بن مقلد ابن اليسع بن صالح بن طريف ، البرغواطى المتنشى ، فكان أبا حفص هذا من نفس أسرة المؤسسين المتهمين بالتنشى ، وهو الأمر غير المصحح كما سبقت الإشارة .

(العاصمة) ، فى نهار الأحد ٢٤ جمادى الأولى سنة ٤٥١هـ / ٩ يولية ١٠٥٩ م ، حيث قتل عبد الله بن ياسين ، الذى أصبح قبره مزارا يحج اليه كثير من أهل المغرب (١) . ومن المهم هنا ، الاشارة الى مقتل عبد الله ابن ياسين فى حيز الرباط (العاصمة المغربية) يعنى أن ابن ياسين كان قد اجتاح معام مملكة برغواطة من تخوم تادلا الى نهاية تامسنا ، أى من وادى أم الربيع جيوبا الى وادى بور جورج شمالا ، فكأنه لم يعد هناك حائل بين المرابطين وبين الأندلس ، أرض الجهاد حقا وموطن الرباط .

وصية عبد الله بن ياسين واتخاذ منظر بديل :

وتأخذ نهاية عبد الله بن ياسين فى رواية القرطاس شكلا قصصيا مؤثرا ، يعبر عن دقة أوضاع عصره على أواخر أيام الموحدين . فابن ياسين هو مهدى المرابطين ، فكأنه النموذج الذى اقتدى به ابن تومرت فيما بعد . وهو لا يموت فى التو واللحظة فى ميدان الممركة ، بل يدرك وفيه رمق ، فلا يغادر الدنيا قبل أن يترك وصيته فى جماعة المرابطين ، مثله مثل عظام الرجال من القادة والآباء . وبصرف النظر عن صحة تلك الوصية أم وضعها فمن الواضح أنها تعبر عن آمال الحركة المرابطية فى أوائل عهدها وطموحاتها الدينية والسياسية ، فهى بمثابة دستوره أو برنامج التأسيس . فهو يحرض المرابطين على الوحدة فيما بينهم فى أرض الأعداء ، ويدعوهم الى التمسك بمبادئ أهل الحق ، والتحذير من المخالفة ، أو التحاسد فى سبيل الزعامة وأخيرا يدعو ابن ياسين الى انتخاب رئيس بدلا عنه يقوم بالأمر ويقود الجيش ويجمع الأموال ، ويقسم الفىء (٢) . وهذا ما يقرر حدوده ابن خلدون - دون غيره - اذ ينص على ان جماعة المرابطين اختاروا بعد ابن ياسين أحد فقهاءهم ، وهو سليمان بن عدوا ، ليرجعوا اليه فى قضايا دينهم ، وأنه هلك فى السنة التالية ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م (٣) ، فكأنها دعوة الى

(١) انظر البكرى ، ص ١٦٨ - حيث يوجد على قبره مشهد مقصود ، ورابطة معمورة . وقارن ابن أبى زرع ، ص ١٣٢ - حيث التحديد الدقيق لمقتل ابن ياسين ، وه ٧٩ - حيث النص على انه ما زال ضريح عبد الله بن ياسين معروفا ، مزارا بكريفة ، من أرض قبيلة زعير بحوز الرباط . وقارن ترتيب المدارك للقاضى عياض ، ط . بيروت ، ج ٤ ص ٧٨٢ - حيث استشهد فى تامسنا سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م .

(٢) انظر القرطاس ، ص ١٣٢ .

(٣) العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث الاسم سليمان بن حرو ، وابن عروا ، والتصحيح من الترجمة ج ١ ص ٧١ ، وان وفاته فى سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م التى عدلناها الى سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠ م فى السنة التالية على وفاة ابن ياسين .

التمسك بالقيادة الثنائية من الفقيه المشرع ، والأمير المنفذ ، بمعنى عدم انفراد أبي بكر بن عمر بالسلطة ، الأمر الذى يشكك فى صحة الوصية . وقد تكون قرينة ذلك ، ما تنص عليه الرواية بعد ذلك من أن جماعة المرابطين اختارت الأمير أبا بكر بن عمر اللمتونى قائدا للجيش ، مع التركيز على أهليته وشرف محتدة ونبله من جهتي الأب والأم جميعا(٦٤) .

الثار لمقتل الفقيه وكسر آخر معاقل المقاومة البرغواطية :

ويفهم من رواية ابن الأثير أن المرحلة الثانية من حرب برغواطة بدأت فعلا بانفراد أبي بكر بالقيادة ونجاحه فى لم شمل المنهزمين فى كريفلة من الرجال ، وأنه خرج على رأس ٢٠٠٠ (ألفى) فارس (راكب) منهم ، يواجه جحافل الخصوم الذين بلغ عددهم ١٢٠٠٠ (اثنى عشر ألف) فارس من برغواطة ومن زناتة . وبفضل الثبات والصبر هذه المرة ، انتصرت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، وغنمت أموالهم التى قسمت بين المرابطين . وانتهت المعركة الفاصلة بقتل ملك برغواطة ودخول المرابطين مدينته ، وذلك فى (أوائل) سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م (٦٥) .

وهنا تقول الرواية ان المرابطين كانوا قد طلبوا من برغواطة التنحي لهم عن الطريق الى الأندلس ، فكان تامسنا كانت محطة أخيرة فى طريق المرابطين الى الجهاد فى الأندلس ، منذ ذلك الوقت المبكر . وهذا يعنى إخضاع برغواطة والقضاء على ما كان لديهم من الميول الانفصالية . وهو ما يعبر عنه بتفرقهم فى الصحراء واذعانهم لدولة الأمير أبي بكر بن عمر ، وأنهم أسلموا اسلاما جديدا(٦٦) .

(٦٤) القرطاس ، ص ١٣٢ وكذلك ص ١٣٣ - حيث النص على أن أبا بكر من جماعة بنى ورتانطق النبيلة ، وأن أمه حرة جدالية اسمها صفية ، وأن أول أعماله بعد أن آلت إليه السلطة هو دفن عبد الله بن ياسين .

(٦٥) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ - حيث اعتبار تامسنا من بلاد السوس وزناته - مما سبق الإشارة اليه - وقارن النويرى ، أبو ضيف ٣٨١ ، حسين نصار ج ٢٤ ص ٢٦٠ ، والقرطاس ، ص ١٣٣ . حيث يفهم ان العمليات العسكرية كانت قد انتهت قبل دخول سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦٠ م التى كانت فيها العودة الى أغمات ، وهو ما لا يتفق مع طبيعة الاحوال ، الأمر الذى يرجح توقيت ابن الأثير الذى أخذنا به .

(٦٦) القرطاس ، ١٣٣ - حيث النص أيضا على أنه لم يبق أثر لديانتهم الى اليوم ، وأن أبا بكر جمع أموالهم وغنائمهم وقسمها بين المرابطين .

والحقيقة أنه اذا كانت الروايات تتحدث عن القضاء تماما على اتجاهات برغواطة الانفصالية في أنفا وتامسنا والساحل الغربى (٦٧) ، وان المرابطين بدأوا يطالبون بفتح الطريق أمامهم الى الأندلس ، فان الوقت ما زال مبكرا للتفكير فى مثل هذا التمدد ، بعيدا فيما وراء الزقاق . وذلك ان سواحل المغرب الأقصى فى السوس الأدنى (وادى سيو ومنطقة فاس) ، وفى ممرات تازا الى جانب بلاد الريف وسواحل المغرب الأوسط فى وهران وتلمسان - فضلا عن سبتة وطنجة ، قمة بر العدو فى مواجهة جبل طارق والجزيرة الخضراء - كانت بعد بعيدا عن قواعد المرابطين .

وهكذا كان على أبى بكر بن عمر العودة بجيوشه المرابطية فى مطلع سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م الى مدينة أغمات التى أصبحت منذ سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م مركز القيادة اللتونية ، بمعنى العاصمة الجديدة للدولة المرابطية بفضل موقعها المتوسط فى منطقة جبال أطلس الغربى الحصبية ، وأرضها المعتدلة فى السفوح التى تتحكم فى منافذ ممرات تلك الجبال ، وبالتالى فى تحركات سكانها من قبائل مصمودة . وهكذا ، فابتداء من هذا الوقت بدأت قبائل المصامدة تنضم الى الجيوش المرابطية ، لاختضاع بقية من لم يكن قد دخل فى الدعوة من أهل المنطقة ، وما يليها . ومنذ هذا الوقت دخلت فى خدمة القوات المرابطية التى كان يقودها أبو بكر بن عمر جماعات عرقية مختلفة من صنهاجة ، وجزولة أهل الصحراء ، ومن قبائل المصامدة (٦٨) سكان جبال درن ، عصبية الدولة الموحدية فيما بعد ، الأمر الذى يعنى أن صنهاجة بقيادة لمتونة هى صاحبة الدولة ، وان جزولة أصبحت قبيلة حليفة ، مثلها مثل مصمودة .

واذا كان غزو السوس الأقصى قد أدى الى دخول المصامدة فى الجيوش المرابطية ، فان غزو أقاليم أغمات وتادلا وأنفا وتامسنا كان يسمح هو لآخر بدخول جماعات من الزناتية فى خدمة القوات المرابطية ، ليس من بين سادة المغرب القدامى من زناتية بنى خزر ، وأبناء موسى بن الى العافية فقط ، بل ومن المنهزمين فى سجلماسة وتامسنا من زناتية مغراوة وبنى يفرن .

(٦٧) العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ ، الترجمة ج ١ ص ٧١ .

(٦٨) القرطاس ، ص ١٣٤ .

الفصل الخامس

دولة يوسف بن تاشفين

يوسف بن تاشفين واستكمال فتوح المغرب الشمالية :

والحقيقة ان فتح الأقاليم المغربية الشمالية ، من السوس الأدنى ، أى أقاليم فاس ومكناس وما والاها من بلاد الريف ، وسواحل المغرب الأوسط الغربية ، وهى أقاليم دولة زناتة حقا ، توجع الى يوسف بن تاشفين الذى رأيناه عابرا لمنطقة تارودانت نحو أغمات ، فى بداية فتح السوس الأقصى - دون أن نسمع له ذكر بعد ذلك ، الأمر الذى يبرر سكوت البكرى، المعاصر وصاحب أهم وثيقة تاريخية عن تلك الفترة المبكرة من قيام الدولة المرابطية . هكذا ملأ عبد الله بن ياسين وخاصة فاجعة استشهاده ، مسرح الأحداث فى جبهة تامسنا ، ومن بعده أبو بكر بن عمر ، بينما كان يوسف بن تاشفين من أبناء عم أبى بكر الأقربين يتم فى صمت فتوح المغرب الشمالية ، وينتزع الأقاليم واحدا بعد آخر - دون إعلان - من بين أيدي الزناتية ليكتمل الشكل الإمبراطورى لجيوش الدولة المرابطية بانخراط العسكر الزناتى فى صفوفها .

وهكذا بينما كان أبو بكر بن عمر ، على رأس قواته المشكلة من صنهاجة وجزولة ومصمودة يثار لمقتل عبد الله بن يوسين ، سنة ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م ، ويقضى على جيوب المقاومة فى تامسنا غير بعيد من الرباط (العاصمة المغربية) وسلا ، على الساحل الغربى ، كان يوسف بن تاشفين على رأس قوته الصنهاجية أو المرابطية بمعنى اللاتونية ، يفتح باسم الأمير أبى بكر بن عمر تخوم بلاد زناتة فى السوس الأدنى ، من بلاد فازاز وجبالها وتوابع بلاد مكناسة ، أو بلاد لواتة - أشد قبائل زناتة بداوة وأقواها بالتالسى شكيمة - بمعنى اجتياح يوسف بن تاشفين بلاد البدو « الشاوية » (رعاة الشاة) المتاخمة للمغرب الأقصى ، على سفوح جبال درن (أطلس) الصحراوية . فهذا ما يفهم من رواية ابن أبى زرع التى تنص على اجتياح بلاد لواتة ، واقتحام عاصمتها - التى لا نعرف لها اسما مميزا - بعد حصار خائق ، انتهى باستئصال شأفة كثير من أهلها ، من اليفرنيين بحد السيف ، فى آخر ربيع الثانى ٤٥٢هـ/ ٢ يونية ١٠٦٠م ، فلم تقم لها

قائمة حتى أيام ابن أبي زرع فى مطلع القرن الثامن الهجرى (١٤م) ، على عهد المرينيين(٦٩) .

وهنا لا بأس من الاشارة الى أن فتوح أقاليم السوس الأدنى ، شمال وشمال شرق السوس الأقصى ليست واضحة عند الكتاب ، لا على المستوى الجغرافى الذى تختلط فيه المسميات ما بين سجلماسة والسوس وأغمات ، ولا على المستوى التاريخى (الحولى) للأحداث ، حيث كانت الدولة المغربية وقتئذ لزناتة بأسرها الحاكمة المختلفة ، من : الحزريين الى المغراويين وبنى يفرن ، الأمر الذى يمكن أن يفسر الخلط المشار اليه على مستوييه المكانى والزمانى . والى جانب هذا يمكن أن يفسر ما ينتاب أحداث تلك الفترة من الغموض على الجانب المراتبى ، من تزامن ظهور شخصية يوسف بن تاشفين بكل رموزها السياسية والدينية مع شخصية أبى بكر بن عمر رجل الدولة القوى ، الأمر الذى كاد يحول النظام المراتبى الثنوى الى نوع من نظام حكم الرجال الثلاث (Triumvirat) الذى عرفته روما قديما(٦٩م) - لولا استشهاد عبد الله بن ياسين فى ميدان القتال .

هكذا تظهر فتوح المراتبين التى قام بها يوسف بن تاشفين ، تحت إمرة أبى بكر بن عمر فيما وراء السوس الأقصى ، فى رواية ابن شداد التى ينقلها كل من ابن الأثير والنويرى ، وكأنها حرب مشروعة فى دولة زناتة التى توصف بأنها دولة ردية مذمومة ، سيئة السيرة من حيث لا سياسة ولا دين(٧٠) . أما عند ابن أبى زرع الذى حاول ترتيب الأحداث بشكل مقبول على كل حال ، فإن فتوح السوس الأدنى تنسب أولا الى أبى بكر ابن عمر ، ثم الى يوسف بن تاشفين بأمر من أبى بكر(٧١) ، وذلك قبل

(٦٩) القرطاس ، ص ١٣٤ ، وقارن صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٩ - حيث فتح لواته على يدى أبى بكر بن عمر قبل رحيله .

(٦٩م) هو النظام الذى اتفق فيه كل من قيصر وبومبى وكراسوس فى روما ضد مجلس السناتو (الشيوخ) ، والذى يشبهه البعض بما حدث فى خلافة أبى بكر يوم السقيفة ، الأمر الذى يشير اليه فيليب حتى بالنص على أنه « لعل مبايعة أبى بكر كانت نتيجة اتفاق بينه وبين عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح - الكتلة الثلاثية التى أدارت شئون الاسلام وهو بعد فى مهده » - تاريخ العرب المطول ، ط ١٩٦٥ ج ١ ص ١٩١ .

(٧٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٢ ، وقارن النويرى ، أبو خيف ، ص ٣٨٢ ، حسن نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٢ .

(٧١) القرطاس ، ص ١٣٤ - حيث فتوح فازاز ، ومكناسة ، ولواتة .

عرضها بشكل تفصيل - وان شابه التعميم ، تحت عنوان دولة يوسف ابن تاشفين بصرف النظر عما اذا كان يوسف بن تاشفين أميرا (قائدا) للجيش ، أم أميرا (رئيسا) للمسلمين (٧٢) * وهنا نشير الى أهمية حوليات ابن عذارى الخاصة بتاريخ المرابطين في المغرب والأندلس (٧٣) في امكانية اعادة شيء من الترتيب في مسار تلك الأحداث رغم اختلاطها هي الأخرى .

دور أبي بكر بن عمر في فتح المغرب قبل الرحيل :

والأمر المستغرب حقا ، هو الغموض الخاص بترك الأمير أبي بكر بن عمر لمسرح الأحداث في المغرب والمسير الى الصحراء ، لتسوية ما كان قد قام بين قبائل الملثمين هناك من النزاع على حدود بلاد السودان * والأمر لا يتعلق فقط بالطابع القصصى للرواية التي تأخذ شكل واحدة من مؤامرات الحريم في القصر الملكي ، بل الأهم من ذلك هو التحديد الزمني - أصل التاريخ ومادته الأولى - لذلك الحدث المحورى بالنسبة لتاريخ الدولة المرابطية ، فهو بمثابة موقعة حاسمة من مواقع التاريخ المصيرية بالنسبة للدولة المرابطية ، اذ يفصل بين عهدين ، أولهما تاريخي بالنسبة لدولة الرباط الدينية الطابع ، وثانيهما مستقبلي بالنسبة لدولة لمتونة (التاشفينية) المدنية السمة ، مما نشير اليه فيما بعد (ص ٤٢٨) .

فهناك عدد من الأحداث التاريخية الكبرى مما يتعلق مباشرة بترك الأمير أبي بكر قيادة المغرب وأولها : المهد بالامارة الى يوسف بن تاشفين قريبه ، وثانيها : بناء مدينة مراكش وهل تم بمعرفة أبي بكر أم يوسف ، واتخاذها عاصمة للدولة بدلا من أغمات ، وثالثها : استكمال فتوح المغرب بفتح فاس والسنوس الأدنى ، وسواحل المغرب الأوسط المواجهة للأندلس ، الى جانب السيطرة على عدوة سبتة وطنجة ، بوابة الدخول الى اشبيلية وقرطبة .

(٧٢) القرطاس ، ص ١٣٨ *

(٧٣) وهي التي يرجع الفضل في التعريف بها الى بروفنسال وويشى ، والتي نشرها

احسان عباس كجزء رابع لبيان ابن عذارى - دار الثقافة - بيروت ١٩٦٧ *

من توقيت رحيل أبي بكر الى توقيت فتح المغرب :

وفيما يتعلق برحيل أبي بكر الى الصحراء وعهده بإدارة المغرب ليوسف بعده ، نفتقد توقيت هذا الحدث في كل ما وصلنا من روايات الكتاب ، من البكري وحتى ابن خلدون ، فلا يبق لنا الا محاولة الاستنباط عن طريق مقارنة ما لدينا من أحداث تقترب أو تبتعد عن تاريخ استقلال يوسف بن تاشفين بالمغرب . وفي هذا المجال ليس لدينا - الا مجموعتين من التواريخ ، احدهما ترجع الى ابن أبي زرع صاحب روض القرطاس والأخرى تتمثل في حوايات بيان ابن عذارى التي تمثل سلسلة فقرات العمود المحورى فى هيكل التاريخ المغربى - الى جانب بعض التواريخ المتناثرة فى المصادر الأخرى ، مثل : تاريخ بناء مدينة مراكش الذى يتراوح ما بين عهده كل من أبي بكر بن عمر ، ويوسف بن تاشفين .

من مناقب الرجال الثلاث :

والتواريخ التى يقدمها ابن أبي زرع لفتح بقية بلاد المغرب خارج السوس الأقصى ، مثل : فازاز وبلاد زناته ومكناسة ، ولوالة فى سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م على يدى أبي بكر ، قبل سفره (ص ١٣٤) ، وكذلك فتح بلاد ملوية فى المغرب الأوسط على يدى يوسف سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م (ص ١٣٨) لا يمكن قبولها ، من حيث أنها تعنى اكتمال فتح بلاد المغرب فى وقت كان القتال لا يزال دائرا فى أنفا وتامسنا ، كما انها تسمح لابن أبي زرع صاحبها ، بالقول : ان يوسف بن تاشفين كان قد تقوى أمره وكبر صيته فى سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م ، حيث بنى مدينة مراكش ، وان مدينة فاس (عاصمة الشمال) وضواحيها كانت قد فتحت ، بعد ذلك ، فيما بين سنتى ٤٥٤هـ/١٠٦٢م و٤٥٥هـ/١٠٦٣م ، الأمر الذى يصعب تبريره اقليميا وزمنيا . والقريضة على ذلك ان رواية صاحب القرطاس نفسه ، تعود هنا الى تكرار ما بدأت به أولا من فتوح لوالة ومكناسة ومغراوة مع فتوح فاس (ص ١٣٨ - ١٤٠) .

ونحن لا نرفض قصة فتوح بلاد السوس الأدنى ، وأقاليم ملوية فى المغرب الأوسط كوقائع تاريخية رغم ما قد يعتريها من خلط أو لبس ، ولكننا لا نقبل مواقيت فتحها المقترحة ، من حيث تركيزها فى سنتين أو ثلاث سنوات ، مرتبطة فى وقت مبكر بفتح أقاليم السوس الأقصى وتامسنا . فمن الواضح ان صاحب تاريخ المغرب وأخبار مدينة فاس أراد أن ينسب الى عبد الله بن ياسين ، وأبى بكر بن عمر ، ويوسف تاشفين ، أعمالا عسكرية

ديمومين - فى دراسته لنص العمرى عما اذا كان هناك أمل فى العثور على بقايا لدار الخلافة بملحقاتها ، من : دار البلور ، ودار الريحان ، ودار الماء . اما عن الدراسة التى قام بها هنرى باسيه وهـ^٥ تراس عن جامع الكتبية ، والتى تصحبها صور توضيحية رائعة ، فهى تحوى فضلا عن ذلك ، رسفا لجامع القصبة ، وهو جامع المنصور . وهى الدراسة التى أعدها للنشر هـ^٥ تراس بما تستحقه من عناية وتبجيل (لباسيه) تحت عنوان : معابد وقلاع موحدية (٩٨) .

والمهم بعد ذلك أو قبله ان الكتاب من مغاربة ومشاركة لم يهتموا الا بالأعمال الانشائية التى تمت فى بناء مراكش (وكذلك ما صاحبها من الفتوح) فى سنواتها الأولى فقط - بصرف النظر عما يعترىها من خلط فى التوقيت او فى المضمون - منذ فتح أغمات والسوس حتى انفراد يوسف بن تاشفين بالولاية ، وهى الفترة التى يركزون فيها معظم الانجازات الكبيرة فيما لا يزيد عن بضع سنوات باستثناء ابن عذارى الذى مددها الى ما يناهز ٢٠ (عشرين) سنة ، وهو ما رجحناه وأخذنا به .

والذى يلفت النظر ان هؤلاء الكتاب لم يهتموا بما ينبغى أن يكون قد قام به يوسف بن تاشفين من أعمال عمرانية فى مدينة مراكش ، بشكل مباشر أو عن طريق عماله ومعاونيه ، فالوقت كان ما زال مبكرا بالنسبة لحكم يوسف بن تاشفين الذى امتد الى سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م بمعنى مزيد من العمل الحضارى على مدى ٤٠ (أربعين) سنة ، وخاصة فى العاصمة مراكش ، قاعدة جيوش المرابطين العاملة ما بين المغرب وافريقيا (السوداء) والأندلس . حقيقة ان الكتاب لا يهتمون الا بأعمال يوسف بن تاشفين الحربية مثل غيره من أبطال الفتوح الاسلامية ، وخاصة فى الأندلس ، أرض الرباط الحقيقى ، والأعمال الحربية الناجحة على وجه الخصوص . ولكن الأندلس كانت ملهمة للمرابطين أيضا فى مجالات الحضارة المختلفة ، وبخاصة فى مجالات العمارة والبناء والزخرفة - رموز الحضارة المادية الملموسة .

(٩٨) أنظر Sanctuaires et Forteress Almohades ص ١٠٣ وما بعدها ، وأنظر ترجمة ج^٥ ديمومين للعمرى ص ١٧٩ وهـ^٣ - حيث نشر العمل باسم كل من هنرى باسيه ، وهـ^٥ تراس فى مجلة هسبيريس عدد ١٩٢٤ - ص ١٨١ ، وعدد ١٩٢٥ - ص ٣١١ ، وتم بالفصلين ٢ ، ٣ لسنة ١٩٢٦ .

- ٢٤٦ -

وهكذا نرى انه ما زال أمام الكتاب والباحثين ، على مستوياتهم النظرية والعملية ، الكثير من العمل في سبيل الكشف عن أعمال المرابطين الحضارية والعمرانية ، على عهد يوسف بن تاشفين ، في مدينتهم مراكش العاصمة ، على وجه الخصوص ، على مدى حوالى أربعين سنة ، هي مدة حكم العاهل المرابطى - رمز دولة العباد المجاهدين التى قامت على أفكار حضارية قبل أن تكون أفكارا جهادية ، والفكرة تسبق الوجود ، كما يقال على كل حال .

يوسف بن تاشفين اميرا لنولة العباد المرابطين :

الرجل :

نسبه وصفاته :

ينتسب يوسف بن تاشفين الى العروق النبيلة من أحرار بني ورتانطق للمتولين * فنجده هو ابراهيم بن ترقوت (ترجوت) بن ورتانطق (١) وهو شريف أيضا من ناحية أمه الحرة : فاطمة بنت عم أبيه (٢) .

اما عن أول صفاته (التاريخية) التي تهمننا ، فهي أنه كان يبلغ من العمر حوالى ٦٣ (ثلاث وستين) سنة عندما ولى أمر المغرب ، بعد رحيل أبى بكر بن عمر ، فكان تجاربه الحياتية وقتئذ كانت تشغل العمر الافتراضى كاملا للانسان العادى ، وكان تجاربه التالية حتى وفاته سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م ، وهو يحتفل بعد ميلاده المئوى ، اضافة تجريبية فى الحكم والادارة ، تميزه عن غيره من سائر رجال الدولة * فمثل هذا ما نراه عند الماوردى وهو يقرر أن كمال العلم لا يتم الا اذا قدر الله للطالب طول العمر (٣) الأمر الذى يعنى أن طول العمر يعتبر بعدا رابعا فى قياسات الانسان (الأنموذج) السوى .

وفيما يتعلق بصفات يوسف بن تاشفين الجسمية ، ينفرد ابن أبى زرع بتقديم طائفة من الصفات المميزة ، التى لا نعرف نظيرها لدى غيره من كبار رجال الدولة المرابطية - وان لم يعرفنا بأصل مصدرها ، وبالتالى فلا نتأكد من حقيقة كونها * فيوسف ذو بشرة سمراء نقية اللون ، الأمر الذى يعنى

(١) أنظر القوطاس ، ص ١٣٦ - حيث سلسلة النسب الى الجد العاشر ، وهو الجد الأسطورى - تلميت الحميرى الصنهاجى من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير ، وفارن ابن عذارى ص ١٧ ، ١٨ - حيث النص على أن جده هو ابراهيم بد ترجوت أو (نورقبت) ابن وتاسن (بدلا من ورتانطق) ، مع المقابلة مع نص الحلل الموشية هـ ١ ص ١٧ - حيث : تورقبت بن ورتانطق * وأنظر ما سبق (عن ورتانطق » ، ص ٧٠ هـ ٣٤ .

(٢) القوطاس ، ص ١٣٦ - حيث اسمها : فاطمة بنت سيرين بن يحيى بن وجاج ابن ورتانطق .

(٣) الماوردى ، أدب الدنيا والدين ، ص ٤٥ .

نسبة لا بأس بها من الدماء السوداء التي تجرى في عروقه (٤) . وهو بعد ذلك معتدل القامة ، نحيف الجسم ، بمعنى : الرقة وخفة الحركة ، وهو ما يتجلى أيضا ، في : رقة الصوت وخفة شعر العارضين (الصدغين) . أما شعر رأسه الجعد فينسدل الى شحمة الأذنين ، بينما تميز حاجباه بأقترانهما معا (٥) .

معاشه :

اما عن طعامه وشرابه فهو الذي اعتاد عليه أهل الصحراء ، مما لا يزيد عما يتبلغ به من القوت الضروري ، من : خبز الشعير والأذرة ، ولحوم الإبل وألبانها ، لا يتركها ، الى غيرها طوال حياته ، في بوادي افريقية أو في حواضر الأندلس . وكذلك الأمر بالنسبة للملابسه فقد كان يوسف يكتفى بارتداء ثياب الصوف الخشنة - ملابس الصوفية العباد - لا يزيد عليها مع الاحتزام في أوقات العمل .

اما عن صفاته المعنوية وأخلاقه ، وهي التي هيأته لتقلد سدة الحكم والرياسة فتتمثل في قوة التدين ، وكرم الأخلاق (الفضل) ، وأورع والعدل ، والشجاعة والنجدة ، وسداد الرأي والحزم ، وأخيرا يمن النقيبة أو سعادة الطالع ، مع شيء من الخبث أو اللؤم الذي يجعل الوسيلة مبررا مقبولا للوصول الى الغاية المنشودة (٦) .

(٤) القرطاس ، ص ١٣٦ ، وقارن ابن عذرى ، ج ٤ ص ١٧ - حيث النص على أنه قريبه : ابراهيم بن أبى بكر بد عمر ، لا نعرف أمه ، وأنه كان أسود الجلد ، وهو الأمر المقبول بالنسبة لمواطن لمثونة الجنوبية حيث العلاقات الوثيقة مع بلاد السودان .

(٥) القرطاس ، ص ١٣٦ .

(٦) أنظر القرطاس ، ص ١٣٤ - حيث عرضت هذه السمائل على أنها مؤهلات يوسف ابن تاشفين التي حققت اجماع أشياخ المرابطين على تقديمه للرئاسة ، وأنظر أيضا ، ص ١٣٦ - حيث النص بعد صفاته التي تقدمت أعلاه ، على أنه : بطل ، نجد ، شجاع ، حازم ، مهاب ، ضابط للملك ، متفقد لأحوال رعيته ، جواد ، كريم ، زاهد في الدنيا . وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٢ - حيث يوصف يوسف بن تاشفين بأنه : دين ، خير ، حازم ، داهية ، مجرب ، النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٩٠ ، حسين نصار ، ج ٢٤ ص ٢٧٢ - حيث النص بمناسبة وفاته على أنه كان ديناً حازماً ، سئوما ، ذا دهاء ، الا أنه أبان عن لؤم لما اعتقل المعتمد بن عباد بأغمات ، فانه لم يجر عليه ما يقوم به حتى كان بناته يغزلن بالأجر للناس . . . الخ .

وهكذا يمكن القول أن يوسف بن تاشفين كان في عنفوان الحلققات الوسطى من عمره المديد ، عندما آلت اليه امارة الصحراء وبلاد المغرب الساحلية (الأطلسية) ، وهو في سن الثالثة والستين ، وأنه كان مسلحا بمجموعة من القوى الروحية والعقلية والأخلاقية اللازمة في أمور الحكم والحرب والادارة الى جانب سلسلة تجاربه في ميدان الحرب والسياسة التي كانت تمكنه من الهداية في طريق أهدافه المقصودة .

يوسف بن تاشفين نائبا لولاية المغرب :

ترتبط ولاية يوسف بن تاشفين الأولى ، سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٦٨ م بخمسة أحداث مهمة ، تعتبر علامات مميزة في حياة الرجل . أولها : استكمال بناء قصبة مراكش القديمة التي كان يشرف عليها الأمير أبو بكر بن عمر ، وثانيها زواجه من زينب النفزاوية (طليقة أبي بكر) مما سبقت الإشارة اليه (ص ٢٣٨) . أما الحدث الثالث وهو أخطرها من حيث أهميته بالنسبة لمصير كل من بلاد المغرب والأندلس والسودان الغربى ، فيتمثل في مسير أبي بكر بن عمر لمواصلة الجهاد في بلاد السودان فيما وراء الصحراء . والانجاز الرابع يتلخص في استكمال فتوح المغرب الزناتى في بلاد فاس ومكناس والريف ، وبلاد ملوية وتلمسان في المغرب الأوسط ، كتمهيد طبيعى لضم الأندلس - وهو الحدث الخامس - الى دولة صنهاجة الصحراوية السودانية ، التي تحولت الى مشروع امبراطورية اسلامية اتحادية ، أشبه ما تكون بدولة الخلافة الشرقية ، من حيث البنية الثقافية السنية السلفية - وهو الهدف النهائى للحركة المرابطية ، كما نظن .

ومجمل تلك الأحداث يعنى انجازات العهد اليوسفى التاشفينى خلال الـ ٣٨ (ثمانية وثلاثين) سنة ، التي تمثل عهدا لا نظير له في تاريخ ملوك الاسلام - ربما باستثناء محمود الغزنوى فاتح الهند - من حيث الحركة الدائبة ، والنشاط الذى لا يعرف السكون - فكان العاهل المرابطى من ذلك النوع من الرجال الذين لا تزيدهم المصاعب الا توهجا وحامسا .

العهد الى يوسف بالولاية :

بينما كان أبو بكر بن عمر يشرف على بناء قصبة مراكش (سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٦٨ م) ، اذ وصل رسول من لدن زعماء لمتونة بجنوب الصحراء ، يخبرونه بما كان قد قام من الفتنة بين جدالة و لمتونة - بسبب التنافس على أرض السودان ، والعمل على نشر الاسلام بين أهلها كما يظهر

- وأن بنى جلدته من اللمتونيين يطلبون العون لوضع حد لاعتداءات الجددلين على ديارهم وعليهم (٧) .

فما كان من أبي بكر - الذي استعظم الخطب - الا أن يعقد مؤتمرا لشيوخ لمتونة ووجهائها - وأن يعرض عليهم ما رآه من المسير لنجدة اخوانهم في الجنوب ، والأخذ بشأهم ، ويطلب منهم بالتالي النظر فيمن يروونه أهلا لشغل الولاية نيابة عنه أثناء مغيبه هذا . ولم تكن مسألة اختيار أمير بصفة مؤقتة ، أمرا سهلا بالنسبة لمجمع حكماء لمتونة ، اذ اختلفوا فيما بينهم ، وعندئذ انتهى الأمر بأن قرر الأمير أبو بكر أن يكون نفسه ، صاحب القرار الأخير في اختيار الرجل الذي يخلفه في الولاية . وبعد الاستشارة رأى أن قريبه يوسف بن تاشفين ، قائد جبهة حرب المغرب ، هو أصلح من يقوم بالأمر خلفا له ، ولا بأس أن يكون ابن تاشفين قد قدم الى مراكش الناشئة ، بناء على دعوة من أبي بكر أو أن يكون قد حضر عندما بلغته أخبار اختلاف المشايخ من أهل الحل والعقد حول خليفة الأمير أبي بكر المنتظر ، بل ولا بأس أن يكون يوسف قد فرض نفسه على ملأ لمتونة من حيث انه كان الرجل القوي وقتئذ . فهذا ما يمكن أن يفهم من الرواية ذات الطابع القصصي عندما تتحدث عن الاستشارة وعن الهاتف الذي صدم أبا بكر فأنساه التفكير في يوسف وحضور هذا الأخير من الجبهة ليقول لأبي بكر : « أنا أكون خليفتك ان شاء الله - عز وجل » (٨) .

(٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٠ - حيث النص على انه وقف على أبي بكر رجل راكب على فرس ، أشعث الرأس ، وقال له « أيد الله الأمير . ان جدالة أغارت على أخوتك ففتلوا الرجال وسلبوا الاموال وهزمهم » ، فما كان من أبي بكر الا أن اسرجع (فقال : انا لله وانا اليه راجعون) .

(٨) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ، ص ٢٠ - ٢١ - حيث تأخذ الرواية شكل قصص نسبي (فلكلور) يتفق مع طبيعة الحركة المرابطية ، من حيث علاقتها بالتصوف الجهادي ، وما وصف به كل من أبي بكر ويوسف بن تاشفين من الندين والزهد والعبادة ، وخاصة يوسف الذي اتخذ في قصصنا التاريخي شكل العابد المجاهد أو حتى الولي المستجاب الدعاء . وهكذا تقول الرواية ان أبا بكر دعا الله أن يسمى له رجلا يستخلفه . . . ومع انه الله أنساه ذكر يوسف بن تاشفين ، فان هذا الأخير وصل من جهة المغرب (فكانه قد سمع ذلك الهاتف) ليقول لأبي بكر . . . « أنا أكون خليفتك ان شاء الله - عز وجل » ، ويرد أبو بكر بالقبول : « صدقت يا يوسف ، أنت والله خليفتي » ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٤ - حيث الإشارة الى ان رسول بلاد القبلة قدم على أبي بكر بعد ٣ سنوات (أشهر في الأصل) من زواجه بزینب بنت اسحاق ليخبره باختلال الصحراء ، وان الأمير الصالح الورع لم يستحل =

شروط الاتفاق على النيابة :

وسواء كان أبو بكر هو الذى عين ابن تاشفين خلفا له بمحض رغبته دون موافقة أشياخ لمتونة الحكماء ، أو كان يوسف هو الذى فرض نفسه بصفته الرجل القوى فى هذا الوقت العصيب ، سواء بسبب الخلافات الداخلية بين القبائل ، أو المواجهات الحربية مع ملوك زناته فى أقطار المغرب التى لم تكن قد فتحت بعد ، أو بلاد السودان ، مجال نشر الاسلام الصحيح ، أول أهداف حركة الرباط ، فقد كان من الضروري القيام بتسوية سياسية تحقق المصلحة العامة على مستويات العلاقات الداخلية والخارجية . والحقيقة أن التسوية فى مثل هذه الحالة كانت تتلخص فى وصية ولى الأمر ، أى الأمير ، وهى التى عادة ما تتضمن ما يكون متفقا عليه بشكل عام بين المشايخ من زعماء القبائل أو الجماعات . والنموذج لذلك وصية عبد الله بن ياسين ، الذى أصيب فى ميدان المعركة ، ومع ذلك فلم يمت الا بعد وقت من النهار ، كان قادرا فيه على املاء وصيته التى عبرت عن مجموعة من القواعد الدينية السياسية والأفكار ، مما يمكن اعتباره بمثابة دستور لدولة الرباط (ما سبق ، ص ٢٢٩) .

تركة الأمير الخاصة : نوع من توريث الزوجة :

ونقصد بتركة الأمير الخاصة محتويات داره التى عادة ما تؤول لزوجته أم البنين . ولكننا هنا بصدد مجتمع « أموى » ، لا يعرف تعدد الزوجات الا فى أضيق الحدود ، اذ السيادة فيه للمرأة (ما سبق ، ص) . وفى بيت الأمير أبى بكر كان الأمر والنهى لزوجته (الست) زينب النفزاوية وهى التى تواصلت هيمنتها على الأمراء ، منذ ما قبل الحكومة الزناتية السابقة فى أغمات (ما سبق ، ص ٣٢٨) . وفى هذا السياق يمكن أن نفهم أن الأمير أبى بكر عندما أخبر يوسف بن تاشفين بأنه سوف يطلق زوجته الرقيقة ، المشهورة الى جانب الجمال بالفهم والرأى والحزم ، ونصحها بفوائد الزواج منها ، انما كان يقصد ، الى جانب استمتاع خليفته بجمال

= قتال المسلمين وسفك دمائهم ، فسار الى الصحراء ليصلح أحوالها ، ويقم بها ليجاهد الكفار من السودان ، وابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٩٨٤ - حيث النص على ان الخلاف كان بين لمتونة ومسوفة (بدلا من جدالة) أهل الصحراء ، حيث أعياصهم ووشائج أعرافهم ، ونسج عددهم ، فخشى افتراق الكلمة ، وانتظام الوصلة ، وتلافى أمره بالرحلة ، وأكد ذلك فارتحل أبو بكر الى الصحراء .

المرأة ، وسعادة طالماها ، الاستفادة بمواهبها العقلية والنفسية الأخرى : من حيث تكون خير مرشد يضمن للدولة تواصل الاستقرار في سياستها الداخلية وعلاقاتها الخارجية المتوازنة^(٩) .

تقسيم الجيش :

نصيب يوسف والعمليات العسكرية في المغرب :

ان تقسيم الجيش المرباطى الذى تشير اليه المصادر ، الى جيشين : أحدهما مغربى شمالى بقيادة يوسف بن تاشفين ، هدفه استكمال فتوح المغرب ، والآخر سودانى جنوبى بقيادة أبى بكر للجهاد ونشر الاسلام جنوب الصحراء ، يعنى أن ابن تاشفين كان قد استدعى من الجبهة على عجل للنظر فى هذا التقسيم ، وانه لما حضر بقواته كان الرجل الفوى ، المؤهل للحكم فى المغرب بالنيابة .

وهناك روايتان فى كيفية تقسيم الجيش ما بين نصفين لكل من أبى بكر ويوسف ، فكانها قسمة عدل بالتساوى ، وما بين الـ ١/٣ (الثلث) والـ ٢/٣ (الثلثين) على أساس أن يكون للأمير ضعف ما لثانيه ، وهو الأمر المقبول شكلا : اذا كان المقصود لتونة فقط - من حيث كونهم مددا لأقاربهم كما تنص الرواية^(١٠) . والحقيقة انه ليس من المقبول أن يكون أبو بكر قد سار بمعظم الجيش نحو الصحراء ، والا كان المعنى هو الجلاء عن المغرب ، الى

(٩) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢١ - حيث رحل أبى بكر الى بلاد القبلة ، ووصيته ليوسف بن تاشفين ، ابن عمه ، الذى خرج بصحبته مشيعا ، وتعريفه بأنه ينوى طلاق زينب تيرئة لدمته ، ونصحه بالزواج منها « فانها امرأة مسودة » ، هذا الى جانب رواية أخرى تشير الى ان زينب بما لها من شخصية قوية ، ونظر بعيد - هي التى طلبت الطلاق . وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٩ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٥ - حيث النص على انه تزوج زينب (بنت ابراهيم) بعد ولايته ، وانها كانت حظية عنده وأمره (أميره عند أبو ضيف) ، وكذلك جميع الملثمين يتقادون لأمر نسايم ، ولا يسمون الرجل الا بأمره فيقولون فلان ابن فلانة ولا يقولون ابن فلان ، القرطاس ، ص ١٣٤ - حيث النص على أن أبو بكر لما عزم على الخروج الى الصحراء طلق زينب ، وقال لها : « يا زينب انك ذات حسن وجمال فائق ، وإنى سائر الى الصحراء برسم الجهاد لعل أرزق بالشهادة ... وأنت امرأة لطيفة لا طاقة لك على بلاد الصحراء ، وإنى مطلقك ، فان أتممت عدتك فتزوجي ابن عمي يوسف بن تاشفين ، فهو خليفتي على بلاد المغرب » - فكان ثمة علاقة سببية بين ولاية المغرب والولاية على المرباطين وزواج زينب .

(١٠) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢١ .

جانب صعوبات شديدة في الامداد والتموين على طول الطريق الفقير *
بالاضافة الى أنه عندما يصل الى بلاده لن يكون في حاجة الى الرجال ، اذ
الهدف هو الاصلاح بين المتنافسين * والوطن هناك ، كما يقول ابن خلدون:
«أصل أعياصهم ، وشائج أعراقهم ، ومنيع عددهم» (ما سبق ، ص ٢٥١
بقية هـ ٨) ، يستطيع أن يحشد منه من يشاء سواء للجهاد في السودان
ونشر الاسلام ، أو للعودة الى المغرب اذا عن له ذلك *

وهكذا يكون أبو بكر قد سار على رأس الفيلق السوداني ، المكون من
المتونيين دون غيرهم ، في أول ربيع الآخر سنة ٤٦٣ هـ / ٦ يناير
١٠٧١ م (١١) ، من أعماق متجها عبر تادلا وبصحته يوسف بن تاشفين ،
على رأس قواته المغربية الى سجلماسة * وهناك أقام أياما ، ينظر في شئون
المنطقة ويصلح من شأنه استعدادا للسفر * وعندما أظف وقت الرحيل
استدعى يوسف ، وفوض اليه أمر المغرب ، وأوصاه بما كان يراه * ويقول
ابن أبي زرع أنه أمره بالرجوع الى المغرب لمواصلة قتال خصوم المرابطين
هناك ، من : مغراوة وبنى يفرن ، وغيرهم من قبائل البربر المختلفة ومن
زناتة (١٢) *

فتوح يوسف بن تاشفين في المغرب :

التمهيد للأعمال العسكرية :

باستقلال يوسف بن تاشفين تبدأ مرحلة جديدة من فتوح المرابطين
في المغرب ، تتميز بأنها تمت بتخطيط أكثر دقة ، وبامكانات أكبر من تلك
التي تمت من قبل ، حيث أصبح ليوسف الكلمة الأخيرة في شئون الحرب
والسلام * وهكذا استأنفت قواته التي كانت تحارب في سنة ٤٦١ هـ /
١٠٦٨ م بني يفرن في قلعة مهدى على الطريق الى مكناسة ، نشاطها في
تلك الجهات ولم يستطع معنصر صاحب فاس الذي حاول الدفاع عن القلعة
الصمود أمام قوات ، يوسف ، فانسحب الى بلده فاس حيث انتقم ممن

(١١) نفس المرجع السابق والصفحة *

(١٢) القوطاس ، ص ١٣٤ - حيث النص على انه أقام بسجلماسة أياما حتى أصلح
أحوالها * أما عن رحيل أبي بكر من سجلماسة الى الصحراء فيجدد له شهر ذي القعدة
سنة ٤٥٣ هـ / نوفمبر - ديسمبر ١٠٦١ م ، وهو التاريخ المتقدم عن الموعد الصحيح الذي
أخذنا به ، بعشر سنوات (ما سبق ، ص ١٦٨ ، ٢٣٧) *

اتهموا بالتعاون مع اللتونيين فقتلهم ، الأمر الذى أدى وقتئذ الى قيام يوسف بعمل انتقامى من زناينة سدراته ، الذين اتهموا بمالأة معنصر (١٣) .

وبطبيعة الحال لم تسمح الظروف الطارئة هذه ليوسف بالاندفاع نحو الغزو والفتح ، فضلا عما عرف به الرجل من التدين والورع بمعنى الاتزان والتروى فى اتخاذ القرار ، بل وبما عرف عنه من السياسة والدهاء ، مما وصف به أحيانا من اللؤم أو الخبث (ما سبق ، ص ٢٤٨ وه ٦) .

مراكش :

هكذا كانت أمام يوسف مهام أخرى غير حرب المغرب ، ان لم تشغله عن تلك الحرب فقد تطلبت منه بعض الجهد والوقت ، مثل : استكمال بناء العاصمة الجديدة مراكش ، من : التحصينات والصور وأبواب قصر الحجر . وهى الأعمال التى ساهم فيها بنفسه (ما سبق ، ص ٢٤٣) ، والتى شارك فيها معه رجاله المجاهدون ، من غير شك ، كما قدمت له قبائل المنطقة من المصامدة ، المعونات اللازمة ، الأمر الذى كان يوثق الصلة بينه وبينهم ويحبب الناس فيه (١٤) . والحقية أن اكتمال بناء مراكش يعتبر من الأعمال المدنية ذات القيمة الاستراتيجية (العسكرية البعيدة المدى) ، وهذا ما عرفه قدامى الكتاب لمراكش - بشكل مباشر (ما سبق ، ص ٢٤٢ والهوامش) .

زينب النفزاوية :

ومثل هذا يقال عن تمام زواج يوسف بزينب النفزاوية ، الذى تم بعد ٣ (ثلاثة) أشهر من رحيل الأمير أبى بكر ، أى بعد أن استكملت زينب عدتها ، وذلك فى شعبان سنة ٤٦٣ هـ /مايه ١٠٧١ م . وهنا نقول رواية ابن عذارى ان كلا من يوسف وزينب « سر بالآخر » وأن السيدة البعيدة النظر « أخبرته أنه يملك المغرب كله » ، فكانت صاحبة الفضل ، ليس فى بسط آماله فقط ، بل وفى امداده بالأموال التى مكنته من أن يجلب الخيل الكثيرة حتى صار رجاله فرسانا ، وأن يجمع الجيوش من البربر والحشود من سائر الناس . وهكذا كان لزوجة يوسف الذائبة

(١٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ١٩ .

(١٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٢ .

الصيت دور عظيم في تقرير مصيره ، وبالتالي مصير الدولة المرابطية . وبذلك يصبح المثل الذى يقول « وراء كل رجل عظيم امرأة » حقا ، وان أضافت الرواية امرأة أخرى ، وهى أم يوسف - التى لا نعرف عنها شيئا ، كما لا يرد فى غير هذا المكان لها ذكر (١٥) .

اعمال يوسف بن تاشفين فى عهد النيابة :

لم تطل نيابة يوسف بن تاشفين للمغرب الا حوالى فترة سنتين تستغرقان سنة ٤٦٤ هـ / ١ - ١٠٧٠ م السابقة ، ثم بعض سنة ٤٦٥ هـ / ٣ - ١٠٧٢ م التى يعود فيها أبو بكر مدفوعا بالحنين الى بلاد المغرب ، والرغبة فى شىء من الطبيعة المعتدلة والحياة الناعمة . وخلال تلك الفترة كان يوسف بن تاشفين يعمل على توطيد أركان دولته ، ان بالحرب أو بالسياسة ، حسبما قضت الظروف .

وأول ما يلفت النظر هو أن يوسف بن تاشفين نجح وهو القائد المحنك فى اعداد جيش قوى ، يعتمد على سلاح الفرسان من لتونة كقوة ضاربة ، وعلى أصناف المقاتلين من مختلف القبائل الحليفة ، من : مدافعين بالحرايب الطوال ، ومهاجمين بالنشاب والمزاريق ، أو راشقين بأنواع السهام والنبال ، مما يأتى ذكره . هذا ، ولا بأس من الإشارة الى رواية ابن أبى زرع التى نجملها فى سنة ٤٦٤ هـ / ٢ - ١٠٧١ م ، التى تقول بشكل عام عن يوسف انه « جند الأجناد واستكثر القواد ، وفتح كثيرا من البلاد » (١٦) .

والأهم من ذلك نجاح يوسف فى تدبير ما يلزم لكل ذلك من الأموال - مع الاستعانة بمشورة زينب ، زوجته وخير مستشاريه ، التى ظهرت حسبما تقضى سلامة الحس فى دولته ، واشتهرت بشهرته وتعاطف سلطانه وبالتالى كثرة أمواله . وهنا ، اذا كانت بعض النصوص تشير الى اخلاص يوسف خلال فترة النيابة هذه للأمير أبى بكر ، ابن عمه الأكبر ، فكان يكاتبه بعيدا

(١٥) البيان ، ج ٤ ص ٢٢ ، وقارن الفرطاس ، ص ١٣٤ - حيث النص على زواج يوسف « بزینب المذكورة » فكانت القائمة بملكه والمدة لأمه والفاخرة بسياستها أكثر بلاد المغرب الى أن توفيت ٤٧٤ هـ / ٢ - ١٠٨١ م (فى الأصل : ٤٦٤ هـ / ٢ - ١٠٧١ م التى صحت الى ٤٧٤ هـ) .

(١٦) الفرطاس ، ص ١٣٩ - حيث وضع تلك الأحداث فى سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م التى نرى انها متأخرة ١٠ (عشر) سنوات عن موضعها الصحيح ، كما سبقت الإشارة (ص ٢٥٣ هـ ١٢) .

فى جنوبى الصحراء ، ويطلعه أولا بأول على مجريات الأمور ، ويتلقى منه الأوامر(١٧) . فهناك روايات أخرى تشير الى أنه (يوسف) كان يكتب بعض اخوانه فى السر من أبى بكر وأن جماعة منهم كانت تصل اليه(١٨) ، وهو الأمر الذى لا تمنع منه أصول السياسة .

الحرب فى المغرب : تهدين القبائل :

وهكذا كان ابن تاشفين يستطيع ، وهو بعد فى سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م ، التالية لنيابته أن يتحرك بجيش جرار عبر بلاد المغرب (الأقصى) الى بلاد واطط وملوية ، من المغرب الأوسط الى جراوة - حيث دوح القبائل التى دانت جميعا له بالطاعة(١٨ م) .

ولا بأس أن يكون هذا الجيش الذى بلغ أكثر من ١٠٠ (مائة) ألف فارس من : صنهاجة وجزولة والمصامدة وزناتة (والأغزاز والرملة) حسب رواية ابن أبى زرع ، هو الذى قصد به يوسف اقليم فاس فى تلك السنة (٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م) وأنه واجه هناك قبائل : زواغه ولمايه ولواته ومصدينه وسدراته ومغيلة وبهلولة ومديونة وغيرها . ودارت حرب عظيمة انتهت بانتصار قوات يوسف بن تاشفين النظامية على القوات القبلية غير المنظمة . وكانت أكبر خسائر الزناتية تلك التى وقعت فى بعض ضواحي فاس الشمالية ، وحيث انحصر رجال قبيلة صدينه فى مدينتهم ، واقتحمت عليهم القوات المرابطية الموقع الحصين ، وقتلوا فيه ما يزيد على ٤ (أربعة) آلاف رجل(١٩) .

هذا ، كما كان يوسف يستطيع فى الشهر الرابع (ربيع الثانى) من تلك السنة (٤٦٤ هـ / ديسمبر ١٠٧١ - يناير ١٠٧٢ م) أن يقضى على

(١٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٢ - حيث النص على أنه كان يكتب الأمير أبا بكر بكل ما يصنع .

(١٨) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٢ .

(١٨ م) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٢ - حيث نقل الرواية أصلا من نظم الجبال لابن القطان .

(١٩) القرطاس ، ص ١٣٩ - حيث سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م ، التى عدلناها الى ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م كما سبق ، ص ٢٥٥ و١٦ ، وأنظر الهامش حيث احتمال أن يكون موضع صدينة فى شمال فاس حيث قبيلة شراكة الحالية ، كما يجوز أن يكون موضع تطوان ، حيث نرية صدينة .

ثورة قامت في جنوب (قبلة) سجلماسة بمعرفة جماعات من الزناتية
توغيرهم . وكان ذلك على أيدي بعض كتائبه اللمتونية بقيادة محمد بن
ابراهيم اللمتوني الذي قتل الثوار دون رعاية ، وعاد بالكثير من
مغانهم (٢٠) .

فتح فاس :

ومن صدينة ، التي استكمل بن تاشفين بفتحها السيطرة على أحواز
فاس اتجه نحو المدينة نفسها ، حيث ضرب عليها الحصار في آخر سنة
٤٦٤ هـ / أغسطس ١٠٧٢ م ، لمدة ١٠ (عشرة) أيام ، اكتفى في نهايتها -
على ما نظن - بشراء المدافعين عن فاس رحيله في مقابل تسليم حاكمهم :
بكار بن ابراهيم الذي قتله يوسف (٢١) .

ومن الواضح أن رحيل يوسف بن تاشفين كان مجرد خدعة حربية -
لم يتورع عن استخدامها في سبيل تحقيق مآربه ، إذ انه بعد أن سار الى
مدينة صفرو القريبة ، ودخلها عنوة ، وتخلص من أمرائها أولاد مسعود
المغراوي ، رجع الى فاس ليضرب عليها الحصار .

وتمكن يوسف من فتح فاس في مطلع سنة ٤٦٥ هـ / نوفمبر ١٠٧٢ م ،
ولم يقم بها الا أياما قليلة اطمأن خلالها على سير الأمور ، وعهد بالحكم فيها
الى بعض الولاة من لمتونة (٢٢) .

ما بين فتح غمارة ، وودة فاس ، وطاعة مكناسة :

وسار يوسف بن تاشفين في مطلع سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م من فاس
بعد فتحها نحو الشمال لغزو بلاد غمارة ، ولكنه ما أن توغل فيها حتى عاد
تميم بن معنصر (بن حمامة) الى فاس ، ونجح في دخولها من جديد ، بل
وقتل عامل يوسف الذي كان بها . وبسبب ما كان من التنافس بين كل
من أمراء فاس ومكناسة ، على ما يظن ، رأى صاحب مكناسة وهو المهدي بن

(٢٠) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٢٢ - حيث وصف ثوار الزناتية هؤلاء بالمرتدين - تبريرا
للتلك المعاملة القظة = على ما نظن .
(٢١) القرطاس ، ص ١٣٩ - أحداث سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م التي عدلناها الى ٤٦٤ هـ /
١٠٧٢ م .
(٢٢) القرطاس ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

يوسف الجزنائي أن من حسن السياسة أن يقف إلى جانب أمير المرابطين القوي ، فأعلن الطاعة ليوسف بن تاشفين . وهنا ثبت ابن تاشفين المهدي ابن يوسف في ولايته ، وبصفته تابعا له ، واختبارا لصدقه وحسن نواياه ، أمره بالخروج في نفس السنة (٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م) معه لاستكمال العمل في تهدين المغرب . ولكنه ما أن خرج المهدي في جيشه من مدينة عوسجة لينضم إلى القوات المرابطية ، حتى سارع تميم بن معنصر بالخروج إليه من فاس في عساكر زناتة « وأنجاد مغراوة » ، ليقطع عليه الطريق ، « ويفرق جمعه » ، بل وليقتله ويبيع برأسه إلى لكوت البرغواطي ، صاحب سبتة (٢٣) .

وترتب على مقتل المهدي صاحب مكناسة ابن كاتب أهل المدينة يوسف بن تاشفين يعرضون عليه تسليم بلادهم ، وبذلك تكون دويلة مكناسة الزناتية قد انضمت إلى بلاده بشكل نهائي (٢٤) .

وتوالت غارات المرابطين على فاس ، الأمر الذي كان يثير غضب أهل المدينة على تميم بن معنصر بسبب انقطاع الموارد وقلة الأقوات . وهنا قرر تميم مواجهة الخطر مهما كانت النتائج ، فخرج إلى المرابطين بمن استطاع جمعه من مغراوة ، وبني يفرن ، وكان لقاء غير متكافئ ، إذ قتل تميم بن معنصر وكثير من رجاله . ولكن فاس لم تسقط إذ تقدم القاسم بن محمد بن عبد الرحمن ، سليل موسى بن أبي العافية ، الذي تجح في الثار من المرابطين فهزمهم في وادي صيفير (٢٥) .

وهكذا تطلب الأمر بذل المزيد من الجهد في تهدين المناطق المجاورة واخضاع قبائلها الثائرة قبل ضمان الفتح النهائي لفاس ، وضماها بشكل أكيد إلى الدولة المرابطية . فعندما وصل نبأ هزيمة صيفير إلى يوسف بن تاشفين ، ترك حصار قلعة مهدي ببلاد فازار لبعض قواده (٢٦) ، ورأى البدء باخضاع القبائل وتهدين البلاد تمهيدا لأخذ فاس وعندئذ فتح بلاده

(٢٣) القرطاس ، ص ١٤٠ - حيث سكوت بدلا من لقوط .

(٢٤) القرطاس ، ص ١٤٠ .

(٢٥) القرطاس ، ص ١٤٠ - ١٤١ م .

(٢٦) القرطاس ، ص ١٤١ - حيث النص على أن قلعة مهدي ظلت تقاوم الحصار طوال

٩ (تسع) سنوات طوال ، فلم يدخلها المرابطون إلا في سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م .

- ٢٥٩ -

بني مراسن ، وأميرهم يمي بن يوسف . وأتبع ذلك بغزو بلاد فندلاوة ،
 الأمر الذي استغرق زهاء سنتين (٤٦٦ - ٤٦٨ هـ / ١٠٧٣ - ١٠٧٥ م) (٢٧) .
 وعلى نفس الوتيرة استمر يوسف بن تاشفين في تمهيد بلاد غمارة
 وجبالها ، من : الريف الى طنجة ، تمهيدا لفتح فاس للمرة الثانية
 سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م ، وهو التوقيت الذي يقترب من توقيت ابي
 عذارى (٢٨) .

إقامة نظم الدولة وترتيبها :

الدواوين :

والظاهر ان يوسف بن تاشفين كان في عجلة من أمره في فترة نيابته
 تلك - اذ بدأ يقيم ترتيب الدولة ونظمها . فلقد بدأ بإنشاء « الدواوين »
 أي ديوان الرسائل أو ديوان الانشاء ، وثنى بديوان الجند ، بمعنى تحويل
 المساكير المتطوعة الى جند نظامي ، تسجل اسمائهم في نوائم اصحاب
 الرواتب الشهرية المنتظمة (٢٩) .

واذا لم يكن في نص ابن عذارى السابق اشارة الى بعض دواوين المال
 والخراج فان النص على طاعة البلاد له تعني الخضوع للنظام انضباطي الذي
 هو من أعمال السيادة بالنسبة للدولة ، والذي يميز عادة دولة أهل اخضر
 المستقرين عن دولة أهل البادية من الرعاة الرحل .

ديوان المال والخراج :

وهنا نجد بين أحداث سنة ٤٦٤ هـ / ٢ - ١٠٧١ م - الخطيرة في تاريخ
 الدولة المرابطية - ما فرضه يوسف بن تاشفين من ضريبة ثقيلة على اليهود
 في كل بلاد المغرب الخاضعة لسلطانه ، والتي وصلت جبايتها مبلغا عظيما
 مقداره ١١٣ (مائة وثلاثة عشر) ألف دينار (٣٠) . وهو المبلغ الذي لا يبرره

(٢٧) القرطاس ، ص ١٤١ - والتاريخ المسجل هو ٤٥٦ - ٤٥٨ .

(٢٨) انظر القرطاس ، ص ١٤١ - حيث التوقيت المدون هو ٤٦٠ هـ / ٨ - ١٠٦٧ م
 الذي دجمله ٤٧٠ هـ ، وقارن ابن عذارى ، ج ٤ ص ١٨ - ١٩ - حيث فرار معنصر الى فاس
 سنة ٤٦١ هـ / ٩ - ١٠٦٨ م .

(٢٩) انظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ص ٢٣ .

(٣٠) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٣ .

— ٢٦٠ —

الا الأعمال الضخمة القائمة وقتئذ ، من : انشاءات حضارية وأعمال حربية . ومثل هذا المبلغ الكبير مما كان يجبي في السابق قبل انشاء الدواوين المختصة بالجباية ، هو الذى يفسر قصة كنوز الذهب والفضة والجواهر التى اكتشفتها زينب النفزاوية فى سراديب دار الأمير أبى بكر ، حسبما نرى . (ما سبق ، ص ٢٥٤) .

الحرس الأميرى من العبيد السود والصقالية البيض :

والأهم من كل هذا وذلك ما أخذ به يوسف بن تاشفين فى مجاله الجيش المرابطى ، من حيث دخول العبيد السود فى الخدمة العسكرية بصفقتهم حرسا خاصا للأمير ، وكذلك الأمر بالنسبة للعبيد من النصارى الذين اشتراهم من الأندلس ، أو الذين ألحقهم بالحرس الأميرى من أهل البلاد . وإذا كان استخدام «أعلاج» النصارى هؤلاء كان محمودا بحيث لم يزد عددهم فى أول الأمر عن ٢٤٠ (مائتين وأربعين) علجا ، حسب رواية ابن عذارى ، فإن عدد العبيد من رجال الحرس السودانى بلغ بسرعة ٢٠٠٠ (ألفى) . رجل . والمهم أنه زود الجميع من بيض نصارى أو سود ميسلمين على ما نظن ، بالخيال فأصبحوا فرسان أشداء يثيرون الرهبة فى قلوب الناس ، وهم يحفون به فى القصر ، ويحيطون به فى موكبه وهم يرفعون البنود ويضربون بالطبول . وبذلك غلظ حجابهم وعظم ملكهم (٣١) .

دار السكة :

ومن أهم الدواوين السيادية ، كما يقال الآن ، دار ضرب النقود ، المعروفة بالسكة التى أقيمت فى نفس سنة ٤٦٤هـ/ ٢ = ١٠٧١م . ولما كانت دار السكة هذه قد أقيمت فى مراكش ، فإن هذا يعنى تحول المدينة الجديدة بصفة رسمية الى عاصمة للدولة المرابطية فى تلك السنة ، بمعنى اكتمال مبانيها الحكومية ومرافقها العامة — وخاصة آبار المياه وصهاريجها . وهنا تنص رواية ابن عذارى على أن تلك النقود التى ضربت فى مراكش

(٣١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ص ٢٣ ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٩ (أحداث سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م التى جعلناها سنة ٤٦٤هـ/ ٢ = ١٠٧٤م كما سبق ، ص ١٦٨ ، ٢٥٦) — حيث النص على أن يوسف بن تاشفين جعل فى جيشه الأغزاز (وهم الترك بدلا من المالقي الصقالية من نصارى الأندلس) ، والبنود ، حيث الإشارة أيضا الى أن يوسف بن تاشفين اتخذ فى نفس السنة كثيرا من الطبول والبنود .

لأول مرة ، كانت دراهم فضة مدورة ، فكان ابن عذارى (٣٢) ، المراكشي ، يخشى أن يظن أن الدرهم المراكشي مربع مثل الدرهم الموحدى الذى ابتكره محمد بن تومرت فقيه الموحدين ، الذى اشتهر بأنه صاحب الدرهم المربع الذى ميز النقود المراكشيه عن بقية النقود الاسلاميه فى تلك الفترة التى تعتبر العصر الذهبى من تاريخ المغرب العربى وحضارته .

والمهم هنا أن نقود مراكش الأولى ، هذه كانت مدورة ، وزنة الدرهم منها ١١/٤ (درهم وربع) درهم ، على أساس وزن الـ ٢٠ (عشرين) درهما أوقية واحدة ، فكان صنجة الأوقية تعادل ٢٥ (خمسة وعشرين) درهما حسب رواية ابن عذارى . هذا ، كما ضرب الدينار الذهبى (المراكشى) فى نفس هذا العام ٤٦٤هـ/٢ - ١٠٧٢م ، ولكن باسم الأمير الشرعى : أبى بكر بن عمر - الأمر الذى يجعل عام ٤٦٤هـ/٢ - ١٠٧١م وكأنه العام التأسيسى للدولة المراكبية فى شكلها المدنى أى الحضرى ، للترقية بينها وبين دولة عبد الله بن ياسين وخلفائه السابقين ، دولة الفقيه البدوية ، وإن كانت دولة « الرباط » ، قرين المسجد المدنى أصلا (٣٣) .

وفيما يتعلق بالدينار الذهبى المراكشى ، توجد رواية لابن عذارى تنص على ضربه فى الأندلس بعد انتصار الزلاقة (سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م) مع الربط بين ذلك وبين حمل يوسف بن تاشفير للقب أمير المسلمين الذى سلم به عليه أمراء الأندلس ، فكان أول من تسمى بهذا اللقب بالمغرب . فالى جانب ذلك تقول الرواية انه (يوسف) ضرب السكة ، بمعنى النقود الذهبية من يومئذ ، وجردها أى طورها وحسنها ، مع بيان أن دينار يوسف بن تاشفير هذا ، كان يحمل النقش التالى : على الوجه الوسط :

- سطر ١ = لا اله الا الله .

(٣٢) البيان ، ج ٤ ص ٢٢ .

(٣٣) انظر البيان المغرب ، ج ٤ ص ٢٢ - حيث النص على أن هذا الدرهم كان موجودا على أيام ابن عذارى ، فى مطلع القرن الثامن الهجرى / ١٤ م ، وأنه كان معروفا بالدرهم الجوهري ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٧ - حيث تأتي قصة النقود المراكبية عرضا بمناسبة وفاة يوسف بن تاشفير ، وما كان يحويه بت المسال حينئذ من النقود ، وفيها : « ربع الورق » أى ربع الدرهم الفضى ، و« ربع الذهب » أى ربع الدينار الذهبى . وإذا لم يكن هناك نص على نصف الدينار الذهبى ، فإن ذلك يعنى ان ربعين ذهبيين كانا يغنيان عن النصف الذهبى .

- ٢٦٢ -

- سطر ٢ = محمد رسول الله .
- سطر ٣ = أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .
- وفي الدائرة حولها : ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه .
- وهو في الآخرة من الخاسرين .

ويحمل على الظهر ، في الوسط :

- الأمير عبد الله العباسي .

وفي الدائرة حولها : تاريخ الضرب (كتابة) ومكان الضرب
(المدينة) (٣٤) .

دولة ابن تاشفين في مهب الريح :

عودة أبي بكر بن عمر من الصحراء : ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م :

بينما كان يوسف بن تاشفين منهمكا في توطيد دعائم الدولة المرابطية بالمغرب ، عن طريق احياء الدواوين التي كانت في بلاد المغرب من قبل بطبيعة الحال - فكأنه كان يحيى تراث النظام المدني السابق ، المبني على نظام الحكم الوراثي ، وخاصة بعد أن تحقق مثل هذا الحلم ليوسف ، بميلاد أول ولد له من زينب النفزاوية ، في نفس سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١م ، وهو الابن الذي لا يعرف الا بلقبه الملكي « المعز بالله » (٣٥) ، دون المدني . وفي غمرة هذا الفرح العائلي اذا بيوسف يفاجأ في أواخر نفس السنة العتيقة (٤٦٤هـ / ١٠٧٢م) بتأهب أبي بكر بن عمر للعودة ، الأمر الذي كان مجرد تفكير فيه يقضى مضجعه من غير شك . ولم تطل حيرة يوسف كثيرا ، فلم تدخل سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٣م التالية ، الا وكان الهاجس حقيقة واقعة ، اذ أتت الأنباء تترى بنزول الأمير السابق - ولي الأمر الشرعي - مدينة سجلماسة ، في طريقه الى أغمات ومراكش (٣٦) ، بعد حين . وكان وصول أبي بكر الى أغمات

(٣٤) انظر فيما بعد ، ص ٢٧١ ، ٣٧٢ والهوامش ، شكل رقم ١٦ ص ٣٧٣ ، وانظر حسن محمود ، المرابطون هـ ١ ص ٢٨٨ - حيث الإشارة الى لافوا (Lavaix) .

(٣٥) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٢٣ .

(٣٦) انظر النويري أبو ضيف ، ص ٣٨٢ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦١ - حيث النص على أنه أقام في سجلماسة التي يمكن أن تكون السوس في حقيقة الأمر - كما سبق . ص ٢٠٦ - ولكنها مقبولة هنا على أساس أنها أهم محطة على طريق الصحراء المؤدى الى السودان ، مدة سنة كاملة ، والخطبة له وببده الأمر .

فى ٥ ربيع الأول سنة ٤٦٥هـ/ ٢٠ نوفمبر ١٠٧٢م ، حيث نزل فى خارجها ،
ومن هناك اندفع كبار رجاله نحو مراكش ، للسلام على يوسف بن تاشفين ،
والحصول على صلاته(٣٧) .

واستقبل يوسف النبأ بما يناسبه من الغم ، وكان على أم «المعز بالله»
السيدة زينب التى لم يغب عن وعيها وفراستها ما كان يعاينه يوسف من
الهم ، أن تعمل بسرعة على تهدئة روعه وتخفيف حزنه . ولم يصعب على
المرأة الحبيرة بأحوال الرجال وخاصة عندما يتعلق الامر بمن عجمت عوده
منهم . وهكذا ، رأت أن تستغل ما تعرفه فى أبى بكر من الضعف . فعندما
كلمها يوسف فى مغبة ما قد يقع بينه وبين ابن عمه من الحرب ، طمأنته بأن
أبا بكر رجل خير لا يحب سفك الدماء ، الأمر الذى بنت عليه خطة التعامل
مع تلك الأزمة ، والتى تنبنى أساسا على سياسة الترهيب والترغيب
بدرجاتها المختلفة ، وذلك فى ثلاث خطوات يقوم بها يوسف . أولاها الا يشغل
بأله بوصول أبى بكر ، فيبقى هو فى قصره بمراكش محاطا بحرسه المخلص
من العبيد السود والبيض ، ويكون الخطاب مع أبى بكر عن طريق الرسل ،
فكانه خطاب رسمى بين ندين مساويين(٣٨) . وهو ما فسر أبو بكر بن عمر
بأنه استبداد بالملكة ، حسب تعبير البيان المغرب ، الأمر الذى جعله يميل
الى تسليم الأمر ليوسف(٣٩) .

وهنا عرض يوسف هديته الجليلة (أعلاء ، هـ ٣٨) المكونة من مما يحبه
أهل الصحراء ، من الذهب ، والخلع ، والأفراس ، والسيوف المحلاة ،

(٣٧) البيان المغرب ، ج ٤ ص ٢٤ .

(٣٨) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٤ - حيث تأخذ الرواية شكل فصوص « الأيام »
أو المذكرات الشخصية إذ اغتم يوسف غما شديدا بعد أن ذاق حلاوة الملك ، وإن زوجته
زينب النفزاوية عندما رأت ذلك قالت له : والله لا ذاق أبو أبكر طعمها أبدا وأنه
عندما قال لها لو كان غير ابن عمى لتلتته ، قالت : إذا قدم فلا تخرج اليه ، ولكن بادرم
بهدية جليلة فلا يقاتلك ، فإن الرجل خير . وقارن ، القرطاس ، ص ١٣٥ - حيث النص على
أن أبا بكر عندما عرف تغلب يوسف على المغرب أقبل اليه من الصحراء ، ليعزله ويولى
غيره . وإن الفضل يرجع الى زينب زوجة يوسف ، بتعريف هذا الأخير أن ابن عمه
أبا بكر ورع ولا يحب سفك الدماء ، وتوصيه بالتقصير فى اظهار الأدب له ، بل واطهار
الغلظة حتى كانه (يوسف) مساو له ، مع ملاطفته بالهدايا والخلع ، حيث كل شئ من بلاده
مستطرف من أهل الصحراء .

(٣٩) البيان ، ج ٤ ص ٢٤ .

والجوارى ، والخدم ، والدقيق ، والشعير ، والبقر ، والغنم ، الى جانب العطور الثمينة من المسك والعود والعنبر (٤٠) ، الأمر الذى فهم أبو بكر مغزاه ، وهو طلب الرجوع الى الصحراء بأسلوب مهذب - فكانت الخطوة الثانية •

اما الثالثة والحاسمة ، فتمثلت فى خروج يوسف بن تاشفين من مراكش نحو أغمات لاستقبال ابن عمه الأمير « المخلوع » ، وهو فى جنده وعبيده • فعندما تم اللقاء فى منتصف الطريق بين المدينتين هال أبو بكر أن يلقاه ابن عمه الأصغر وتابعه راكبا دون رعاية ، الأمر الذى قضى على ما كان يجول من الأمل فى خاطره ، من وجوب الاحترام لزعامته الفبليه ان لم يكن لامارته الشرعية • وفى هذا المكان الذى عرف من ذلك الحين باسم « فرحص البرنس » نسبة الى البرنس الذى بسط على الأرض ليقعد عليه الرجلان ، ليتناجيا حول مشكلة ثنائية الحكم أو وحدته الرئاسية ، أتى الحل من قبل رجل الصحراء التقى الدين : أبى بكر ، وكان قد اقتنع بأن خصمه يوسف المتمرس بالحرب والخبرة فى الادارة مبال الى التمسك بالملك فأعرب عن رغبته فى العودة من حيث أتى الى الصحراء ، لمعاونة اخوانه هناك ، وأنه يعهد اليه مرة ثانية بولاية المغرب (٤١) •

ومع شكر أبى بكر ليوسف على الهدية ، وعده يوسف بأن يكون دائما مأمورا تحت طاعته ، وطاعة شياخ لتونة ، فان الأمر تطلب هذه المرة تنازلا نهائيا عن حكم المغرب ، من قبل أبى بكر • وهكذا ، وفى حضرة المشايخ

(٤٠) انظر ، البيان المغرب ، ج ٤ ص ٢٦ - حيث النص على ٢٥ ألف دينار من الذهب ، ٧٠ فرسا منها ٢٥ بفاخر الجهازات ، ٧٠ سيفا محلاة ، ٢٠٠ من الأشابر (الماهم - عن الحلل) المذهبة ، ١٥٠ من البنال ، والكثير من الأمتعة والكسى الفاخرة ، ٢٠ جارية أبكارا وجملة من الخدم ، ٢٠٠ من البقر ، ٥٠٠ من الغنم ، ١٠٠٠ ربح من الدقيق (الدرمق) ، ١٢٠٠٠ خيزة ، ٧٠٠ مل من الشعير ، ووزن صالح من العود والعنبر والمسك ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٦ - ويلاحظ فيه ان الهدية بسيطة تتفق مع المطالب الضرورية لأهل الصحراء حتى تنسجم مع مقولة أن القصد منها هو الافصاح للسافر لأبى بكر عن طلب عودته الى الصحراء • فالهدية تحتوى على ألف بعير قدمها يوسف لابن عمه أبى بكر وهو يقول : أيها الأمير جئت بك كل ما معى من مسال وثياب وشئ من الأدام والطعام لتستعين به على الصحراء • فعرف حاله ، وعلم انه لا يتخلى عن الأمر •

(٤١) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٥ • وقارن القرطاس ، ص ١٣٥ - حيث النص على أنهم عندما التقيا سلم (يوسف) عليه (أبى بكر) وهو راكب سلاما مختصرا • وان أبى بكر عندما سأله : ماذا يصنع بهذه الجيوش الكثيرة كلها ، رد عليه قائلا : أستعين بهم على المخالفين ، الأمر الذى أثار الريبة من سلامة جوابه •

اللمتونيين الذين يعترف لمجتمعهم بالسلطة العليا في المغرب المرابطي ، أعلن أبو بكر بن عمر اعتزاله النهائي للامارة لصالح نائبه ، وابن عمه ، يوسف ابن تشفاين ، وذلك بشهادة الشهود العدول (٤٢) . وتختتم قصة الاعتزال هذه - عند ابن زرع - بتوصية أبي بكر لابن عمه الذي استفل بالملكة المغربية ، وهو الأمر المقبول . وتعتبر وصية الأمير الذي عرف بالخير والورع عن أن مسئولية الحكم المعنوية تقع في النهاية على عاتقه (أبي بكر) نفسه - من حيث هو ولي الأمر شرعا ، وهو لذلك يطلب من يوسف حسن رعاية المسلمين (رعاياه) ليخليه ويخلي نفسه أيضا ، من مسئولية عذاب النار (يوم الحساب) ، مع الدعاء له بالصلاح والتوفيق وعمل الخير (٤٣) .

ما بين الجهاد جنوب الصحراء والمطالبة بمملكة المغرب :

وبعد وصية الوداع ، انصرف أبو بكر نحو الصحراء في رحلة ذات هدف مزدوج ، شقه الأول هو التوفيق بين الاخوة الملتزمين ، وخاصة من لمتونة وجدالة ، مادة الاسلام بالصحراء ، والشق الثاني الذي لا يتحقق الا بالأول ، هو : غزو بلاد السودان التي لم تكن قد دخلت في الاسلام بعد ، ونشر الاسلام الأصولي الصحيح عند من حرقوه منهم .

والذي يلفت النظر أن معلوماتنا عن رحلة أبي بكر بن عمر - ذهابا وعودة - وعن عمله الجهادي في السودان الغربي ليست أكثر من نتف عارضة أو شظايا متناثرة لرواية مبتسرة أصلا ، الأمر الذي يجعل محاولة إعادة عناصرها في بناء منتظم من الصعوبة بمكان . فإذا كانت رحلة الذهاب الى أغمات قد تمت عن طريق سجلماسة ، عقدة مواصلات الطريق الدولي الى أودغست ، فأغلب الظن أن أبا بكر مر بسجلماسة أيضا وهو في طريق العودة ، بل ولا بأس أن تكون الرواية التي تنص على بقاءه في سجلماسة لمدة عام وهو يصلح من أحوال المدينة وأحوازها ، حيث كان الأمر والنهي له ،

(٤٢) ابن عذاري ، البيان ، ج ٤ ص ٢٥ - حيث النص أخيرا على كون « هذا التدبير برأى زينب النفزاوية وزوجه » ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٥ - حيث اقبال أبي بكر لعزل يوسف الذي شاور زوجته (زينب) .

(٤٣) أنظر القرطاس ، ص ١٣٥ - حيث نص الوصية : « يا يوسف ولسك هذا الأمر ، واني مسئول عنه فاتى الله في المسلمين ، واعتصمى واعتق نفسك ، ولا تضيع من أمور ربك شيئا ، فانك مسئول عنهم ، والله تعالى يصلحك ، ويمدك وبوفك للعمل الصالح . » وهو خلبقتي عليك وعليهم .

خاصة برحلة العودة أيضا (ما سبق ، ه ٢٦ ص ٢٦٢) . هذا ، ويمكن أن يكون هذا الخبر متعلتا بابنه ابراهيم (بن أبى بكر بن عمر) ، حيث يكون قد ولاه سجناسا ، فى محاولة اخيرة للتشبت ببعض أهذاب المملكة المغربية . ويؤيد ذلك تلك الدنانير التى حملت اسمه (ابراهيم) ، مع سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م (٤٤) .

وهنا لا بأس من الاشارة الى محاولة ابراهيم بن أبى بكر هذا ، المطالبة بملك أبيه بمد ذلك بحوالى ٥ (خمس) سنوات (سنة ٤٦٩هـ / ١٠٦٧م) . فلقد كانت مفاجأ ليوسف من غير شك وصول ابراهيم الى البلاد ، ونزوله خارج أغمات ، غير بعيد من مراکش ، يحيط به حشد مختلط من اللمتونيين . واكتفى يوسف بالسماع عن أخبار ابراهيم ومطالبه عن بعد ، دون لقاء ، فأرسل اليه القائد مزدلى (ابن بانلوكا) ، ليعرف منه سبب قنومه ، فأخبره ابراهيم بسنداجة لا ينبغى أن تكون فى أبناء الأمراء والحكام ، حيث قال انه جاء بطلب « ملك أبيه الذى غصبه عمه » (يوسف) .

ونجح القائد المحنك فى سفارته الحرجة ، اذ اقتنع ابراهيم بعيشية

(٤٤) أنظر النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٢ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦١ - حيث النص على استخلاف أبى بكر فى رحلة الذهاب لابن أخيه : أبو بكر بن ابراهيم بن عمر ، وانظر ه ٥ - حيث نص المحقق - نقلا عن حسن محمود - على انه « لعل المقصود ابنه ابراهيم بن أبى بكر بن عمر ، الذى ولى سجناسا ، وسك نقودا باسمه عام ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م ، وعام ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م . وأنظر حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٢٥ - حيث الأخذ بالفكرة الروحية المثالية التى ترفع كلا من يوسف وأبى بكر - فى استطرادات لغوية مطولة - من مستوى دنيا التفكير فى الأمور الدنيوية ، كالحكم والرياسة « فلم يكن يوسف يفكر فى اغتصاب السلطة ٠٠٠ » . وفى المقابل « أكد أبو بكر تولية يوسف على المغرب مرة أخرى ، استخلفه أول الأمر ، فلما رأى حسن بلانه ، وسعه ملكه ، وحب الناس اياه ، أحب أن يوليه على المغرب رسما ، وينصرف هو الى الصحراء ، لأنه كان رجلا زاهدا فى الدنيا عزوفا عن السلطان ٠٠ » . (والهوامش للحلل المؤشبة) - أما عن الاستناد الى قول البكرى أن أبى بكر كان أمير المرابطين فى سنة ٤٦٠ هـ / ٨ - ١٠٦٧ م فهذا صحيح فعلا وليس اسما فقط . واما قول لافوا (Lavoix) فى قوائم النقود الاسلامية فى المكتبة الوطنية فى باريس بأن أبى بكر كان حتى سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م أمير الدولة وحاكمها الأوحده استنادا الى العثور على نقود باسمه تحمل هذا الاسم - فهو استدلال لا يدل على واقع الحال . فهناك اشارات تالبة (ص ٢٢٦ وه ١) الى سلك يوسف للنقود باسمه (بل وبلقب أمير المسلمين) الى جانب اعتباره المؤسس الحقيقى لدولة المرابطين . وعن ذنود المرابطين ، أنظر فيما بعد ، ص ٢٩٨ وشكل رقم ١٦ .

عمله ، وعدم جدوى مطالبه ، حيث أن الأمير يوسف هو الرجل المؤهل بصفاته وسجاياه للملك - دونهم . وانه يمكنه أن يطلب هدية من خيل وازد ، يهود بها الى بلاده ، فهذا خير من الضياع في سجن القصر الأميري . وهنا اتضحت النوايا الحقيقية لولي العهد (الولد) المطالب بالعرش ، ومن معه من اللمتونيين أبناء العم ، وهي الهدية والصلات من الأمير : العم الأكبر ، شيخ لمتونة الأول . ولا بأس ان كان « للهدية الجليلة » التي نالها أبو بكر من قبل ، بنصيحة سيدة القصر : زينب النفزاوية ، أصداؤها في جنوب الصحراء وفي قلوب عامة أهل أغمات ومراكش ، التي حركت الرغبة في نفس ابراهيم على قبول مثلها . وهكذا طاب خاطره لهذا الوعد بالهدية وتهنئ بينما قام ابن تاشفين الذي كان يعرف كيف يسترضى الرجال ، وخاصة من مقربيه وأهل بيته ، بالزيادة في الانعام عليه بالمال والخيول والكس ، واكرام من بصحبته بالصلات ، حتى لهج لسانه بالشكر . وانتهى الأمر بانسحاب ابراهيم بن أبي بكر بن عمر ، دون أن يجتمع بيوسف بن تاشفين أو يرام عائدا الى الصحراء حيث بقي هناك الى أن وافته منيته (٤٥) . وكان من حسن طالع ابن تاشفين أن رزق في هذا الوقت (٤٦٩هـ / ١٠٧٦ م) بابنه الفضل من زينب النفزاوية (٤٦) .

وبرجوع ولي عهد أبي بكر الى الصحراء (سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٦ م) ثم وفاته فيما بعد ، ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م (٤٦) تخلص مملكة المغرب تماما ليوسف ابن تاشفين ، وبذلك استحق التسمية بلقب أمير المسلمين ، الذي تصر بعض النصوص على اطلاقه على قائد المرابطين منذ بداية الحركة المرابطية ، وبذلك يبدأ العهد التاشفيني وهو الدور الثاني لدولة الرباط - دور الذروة والعظمة .

(٤٥) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٢٩ - ٣٠ - حيث وصف القائد مزول بأنه « كان حسن السياسة صحيح المذهب ، عارفا بخدمة الملوك ، ووصف ابراهيم بلقب « الولد » ، وهو لقب ولي العهد في الدولة المرابطية بالأندلس - الأمر الذي يعنى الأثر الأندلسي في الحضارة المرابطية » .

(٤٦) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٠ .

(٤٦م) أنظر أمين طيبي ، أثر الاسلام في غانه ومالي ، مجلة الدراسات الانسانية بجامعة الكويت (بالانجليزية) ، ١٩٨٤ ، ص ٢٦٠ - حيث النص على رجوع أبي بكر بن عمر الى الصحراء وقتاله للوثنيين من السودان حتى وفاته في حملة سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م . ومن المقبول أن يكون أبو بكر بتحالفه مع ملك التكرور المسلم قد استعاد أودغست في نفس سنة ٤٦٩ هـ وكذلك الأمر بالنسبة لعاصمة غانه في السنوات التالية ، الأمر الذي استمر الى استشهاده في سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م .

عهد يوسف بن تاشفين : ٤٦٥ - ١٠٧٢/هـ - ١١٠٦ م : الاستقلال والتقسيم :

تعتبر سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢ م ، حيث تنازل أبو بكر بن عمر ، في مدينة أغمات ، عن رئاسة دولة المرابطين لصالح قريبه يوسف بن تاشفين الممتوني ، بمثابة خط فاصل أو علامة مميزة ، ليس في تاريخ دولة لمتونة هذه فقط ، بل وفي تاريخ المغرب الاسلامي على الجملة ، من اوسطه الى أقصاه ، ومن صحرائه الى سودانه ، وحتى بلاد الاندلس عبر المضيق - وذلك على كل المستويات ، من سياسية واقتصادية وثقافية وحضارية ، بعامه .

فعلى مستوى دولة الرباط التي بدأت ثنائية الحكومة ممثلة في اغنييه والأمير ، انقسمت تلك الدولة الى حكومتين منفصلتين ، احدهما جنوبيه قاريه ذات طابع افريقي سوداني ، والاخرى شمالية بحرية ذات طابع مغربي أندلسي . وهذا التوجه الجغرافي سيكون له اثره في تحديد مصير بلاد المغرب في القرون التالية ، حيث ستصبح له عاصمتان ، احدهما فاس ، قاعده السوس الأدنى وبلاد الريف ، التي توجه أنظارها نحو الشمال ، واتانيه مراكش ، قاعده السوس الأقصى التي توجه أنظارها نحو الجنوب والتي صارت عاصمة لكل بلاد المغرب حتى أنها أعطتها اسمها (مراكش) ثم انها اضطرت بعد فشل عملية الانقاذ التي قامت بها في الشمال بالاندلس ، الى أن تكتفي بالتحول الى عاصمة اقليمية للجنوب ، تماما كما كان الحال بالنسبة لقيروان افريقية .

وبذلك أصبح للمغرب مدينتان تعبران عن توجهاته الطبيعية . هما : فاس عاصمة الشمال التي تحتوى على ذكريات عصور التأسيس الأولى ، ويفوح منها عبق الأدارسة الشرفاء ، ومراكش عاصمة الجنوب التي تخلد ذكريات عصور العظمة أيام المرابطين والموحدين ، ويفوح منها أريج الحضارة المغربية الأندلسية ممزوجة بغرائب السودان وعجائبه .

المرابطون والسودان الغربى :

دولة أبى بكر بن عمر الصحراوية :

خرج الأمير أبى بكر بن عمر بعد اعتزاله سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢ م ، الى الصحراء عبر سجلماسة نحو أودغست ، وهما المدينتان اللتان حقتا للمرابطين السيطرة على طرقات التجارة الغربى بالصحراء ، قاعده لمتونة

المتأخمة لبلاد السودان . وكان عليه أن يبدأ بتهدين البلاد وإقرار السلام بين قبائل الملحين ، قبل أن يستفيد من نشاطاتهم العدوانية ضد بعضهم البعض ، فيوجه حماسهم للحرب والقتال نحو بلاد السودان ، لجهاد غير المسلمين منهم ، ونشر الاسلام السننى بينهم ، وأخذ المحاربين منهم عبيدا أسرى ، يوجهون الى أسواق النخاسة فى المغرب والأندلس ، وربما الى المشرق أيضا - فكانهم ذهب السودان الأسود ، الى جانب ذهبه الأصفر . وفى ذلك تقول الرواية الدارجة ان أبا بكر بن عمر حشد الجيوش وغزا بلاد السودان على طول مسيرة ٣ (ثلاثة) أشهر وهى المسافة التى تقوم بأكثر من ٣ (ثلاثة) آلاف كم (٤٧) ، فى المنطقة ما بين أعالي كل من نهري السنغال ، ورافد النيجر الغربى - حيث تم الاستيلاء على أملاك كل من دولتي غانا والسونغاي (مالى ؟) غربا ، وأقاليم تادمكة شرقا (٤٨) .

وحسب رواية ابن عذارى استمر جهاد السودان ٣ سنوات فقط ، انتهت بوفاة أبى بكر بن عمر اثر اصابته برشقة سهم ، وذلك فى ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م ، وهى الرواية التى تتضمن مع الرواية الخاصة بمجىء ابنه ابراهيم (ابن أبى بكر) مطالبا بملك أبيه الذى غصبه عمه يوسف (ابن تاشفين) - الأمر الذى يجعلنا نأخذ بهذا التاريخ دون غيره ، طالما رجعنا للتواريخ التى حددها ابن عذارى (ما سبق ، ص ٢٥٣ وهـ ١٢ ، وما يأتى هـ ٥١ ص ٢٧١) (٤٩) .

(٤٧) أنظر القرطاس ، ص ١٣٥ .

(٤٨) أنظر لبون الافريقى ، ص ٥٣٨ - حيث النص على ان مملكة مالى (الماندنج) تمتد ٣٠٠ (ثلاثمائة) ميل على طول نهر النيجر ، وأهلها أول من اعتقد فى الدين المحمدى ، وان ذلك كان على يدى عم يوسف بن تاشفين وهو الذى عاش بعد خروجه من المغرب فى منطقة أدرار الموريتانية ، والذى لم يكنف بحرب السودان ، بل حالفهم عن طريق المصاهرة اذ زوح احدى بناته لل ملك من الماندنج المالين ، وظلت السلطة بين حفدة اخوته من أمه الى وقت متأخر (هـ ٣٣) ، كولبن ماكيفيدى ، أطلس التاريخ الافريقى ، الترجمة ، ص ٨٧ . (٤٩) ابن عذارى ، البستان ، ج ٤ ص ٢٦ - حيث النص على أنه (أبو بكر بن عمر) أقام بصحرائه ٣ (ثلاث) سنوات ، ويوسف يمدد ، الى أن قتلته السودانيون المجاورون للمتونة فى الصحراء لأنه يحاربهم ، حتى قضى الله بوفاته بسهم كان فيه منيته سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م . وقارن ابن الأثير ، حيث يجعل وفاته سنة ٤٦٢ هـ / ٦٩ - ١٠٧٠م - حيث اجتمعت طوائف المرابطين على يوسف بن تاشفين وملكوه عليهم ، ولقبوه أمير المسلمين ، النويرى ، أبو ضيف ، ص ٨٣٢ ، نصار ج ٢٤ ص ٢٦١ ، هـ ٦ - حيث الإشارة أيضا الى ابن تغرى بردى الذى جعل وفاته سنة ٤٨٠ هـ / ٨ - ١٠٨٧م ، وأشياخ الذى جعل وفاته سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦م ، القرطاس ، ص ١٣٤ - حيث يحدد تاريخ رحل أبى بكر الى الصحراء بشهر ذى القعدة سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١م (٤٦٣ هـ / ١٠٧١م) ، اما عن =

وهكذا يكون أبو بكر قد قتل بذلك السهم ، مسموماً كان أم غير مسموم ، فى حرب غانه التى لم يكن أسلم أهلها ، رغم وجود جاليات اسلامية فى كثير من أنحائها (٥٠) . ولا بأس أن كان اسلام التكرور فى أسافل موريتانيا وغيرهم من مسلمة السودان الغربى ، وانتشار الاسلام هناك على أيدي المرابطين قد تم بشكل لم يكن له نظير من قبل ، فى حركات التبشير، الاسلامية التى كان يقوم بها دعاة السنة أو الشيعة الأباضية فى العهد السابقة .

والظاهر ان مقتل أبى بكر المفاجيء فى غانه كانت له نتائج وخيمة على مملكة لتونة الصحراوية وجيشها الافريقى (السودانى) الذى لم يقدر له أن يحتفظ طويلا بفتوحاته الغانية التى شملت كل من موريتانيا الحالية ، وامبراطورية غانه التى تعادل اقليم السودان الغربى ، ووصلت جنوبا حتى مناجم الذهب فى بامبوك . ومن المقبول أن خلفاء أبى بكر الذين خضعت لهم كل الشعوب السوداء ، وكذلك الفولان ، ودفعوا لهم الضرائب لم يكونوا على مستوى المسئولية ، داخليا وخارجيا . فهم لم يستطيعوا منع النزاعات الداخلية من الظهور الى العلن ، الأمر الذى أدى الى ظهور النزاعات الفردية ، وانكار أن يكون للأمير كل السلطات على رؤساء القبائل ، مما أدى الى فقد الهيبة ، وانتشار الفوضى ، ونزول الأمير الى مستوى شيخ القبيلة

= وفاته فيجعلها ابن أبى زرع (ص ١٣٥) فى شعبان سنة ٤٨٠ هـ / نوفمبر ١٠٨٧ م (وهى الرواية التى نقلها ابن بقرى يردى) - حيث النص على انه أقام بالصحراء مدة (دون تحديد) يجاهد الكفرة من السودان الى أن استشهد - رحمه الله - فى بعض غزواته . رمى بسهم مسموم فمات - رحمه الله - فى شعبان سنة ٤٨٠ هـ / نوفمبر ١٠٨٧ م . بعد أن استقام له امر الصحراء الى جبل الذهب من بلاد السودان (معنى انه وصل الى بامبوك جنوبا ، حيث مناجم الذهب) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٤ - حيث النص على أن أبى بكر فتح بابا من جهاد السودان فاستولى على نحو سبعين مرحلة (مسيره يوم) من بلاد المرابطين . (٥٠) ما سبق ، ص ٦٣ - ٦٤ ، وأنظر البكرى الذى يكتب سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م ، ص ١٧٤ - حيث سمة المذك « غاه » اما اسم البلد فهو أوكار (ص ١٧٥) - حيث ملك غانه فى ذلك الوقت « ننگامنب » الذى يوصف بشدة الشوكة وهيئة السلطان . اما غاه العاصمة . فى مدينتان : واحد يسكنها المسلمون وفيها ١٢ مسجدا ، أحدها هو مسجد الجمعة . ولها الأئمة والمؤذنون والخم المرنون . وفيها فقهاء وحملة علم . والثانية مدينة الملك على ٦ (ستة) أميال ونسبى العامة ، والمساكن متصلة بنها ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط ، وللملك قصور وقبب محاطة بسور - وهناك مسجد لصلاة المسلمين فى مدينة الملك هذه - وجعلها شعراء وغانات فيها أكواخ (قبب) السحرة والتماثيل (الدكاكير) وقبور الملوك . وكل ذلك تحت الحراسة الشديدة . وللملك سجون وبیت مال ووزراء وتراجمة من المسلمين ١٠٠ الخ .

المادى (٥١) •

هذا ، كما صاحب الاضطرابات الداخلية بين القبائل ، ثورات الأمراء المحليين فى امبراطورية غانه الذين عجزت لمتونة عن قممهم ، وبذلك انتهى الأمر باسترداد السود وخاصة المالين منهم ، أقاليم تاجانت ، وجنوب ترارزا ، وأخضعوا أهلها لحكمهم (٥٢) •

ولكن الأمر المستغرب هو أنه برغم الخسائر العسكرية التى لحقت بلمتونة فان قبائلها الصحراوية كانت تزداد انتشارا نحو الجنوب السودانى مع مرور الوقت • ويظهر ذلك خلال فترة لا تزيد كثيرا عن ربع قرن من وفاة أبى بكر عندما قامت قبائل المثلثين فى سنة ١١١١م/ ٥٠٥ هـ ، بتأسيس مدينة تومبوكتو (Tim Bokton) التى حلت محل عاصمة غانة القديمة ، الأمر الذى انتهى بأن لم يبق فى الصحراء الموريتانية الا لمتونة وجزء من مسوفة (٥٣) • ولا ندرى ان كان التصحر فى تلك الأقاليم يعتبر تفسيراً مقبولا لانسحاب الفلاحين السود جنوبا الى أماكن أكثر خصبا تاركين مناطقهم لتكون مرعى لقطعان الطوارق (٥٤) •

وهكذا كان الاسلام يزداد انتشارا فى الجنوب نحو بلاد الساحل والسودان الغربى مع مرور الوقت ، وهو ما يظهر بشكل واضح على عهد امبراطورية مالى فى القرن الثامن الهجرى/ ١٤م •

(٥١) أنظر التاريخ الصغير لبنى عيد أو عيش ، مجلة الدراسات الاسلامية ، سنة ١٩٣٧ ، الكراسى ١ ، بالفرنسية ، ص ٤٢ - حيث يأخذ المؤلف برواية القرطاس بالنسبة لوداء أبى بكر بن عمر (٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م) بدلا من سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م التى يقدمها ابن عذارى والنسبة لرجحانها على غيرها مع الإشارة الى وفاة أبى بكر فى نواحي ايم كرىرى (Im Kriri) : تاجانت Tagant) الحالية بضربة سهم من سودانى ثائر •

(٥٢) التاريخ الصغير لبنى عيد ، مجلة الدراسات الاسلامية ، سنة ١٩٣٧ ، كراسى ١ ، بالفرنسية ، ص ٤٢ •

(٥٣) التاريخ الصغير لبنى عيد ، مجلة الدراسات الاسلامية ، سنة ١٩٣٧ ، كراسى ١ ، بالفرنسية ، ص ٤٥ •

(٥٤) التاريخ الصغير لبنى عيد ، مجلة الدراسات الاسلامية ، سنة ١٩٣٧ ، كراسى ١ ، بالفرنسية ص ٤٢ - وهنا لا بأس من الإشارة الى ما تنسبه الروايات القصصية من انه ينسب الى أبى بكر ابن عمر تقسيم المجتمع المغربى الى ٣ (ثلاث) طبقات ، هى : الشرفاء ، ورجال الدين ، ثم الرعاة : وعليهم خدمة الطبقتين السابقتين •

التوسع الاقليمي على عهد يوسف بن تاشفين :

استكمال فتوح المغرب :

بدأ استكمال فتوح المغرب منذ عهد النيابة اليوسفية ، بعهد خروج أبي بكر الى الصحراء وتقسيم الجيش الى فيلقين : صحراوي ومغربي ، بين الأمير ونائبه في المغرب . ولكنه بسبب ما أثارته رجمة أبي بكر من اضطراب في مسار الأحداث سنة ٤٦٤هـ/٢ - ١٠٧١م ، كان من الطبيعي أن تتوقف فتوح المغرب مؤقتا ، لكي تعود قوية بعد استقلال يوسف بالامارة : بنظام أفضل وامكانيات أقوى ، خاصة بعد أن نجح يوسف في اكتساب قبائل المغرب « فأعانتته في جميع أحواله » . وبعد أن ازدادت أعداد جيوشه من البربر (المتطوعة) ، ومن العساكر المحتشدة (النظامية) (٥٥) ، بعد انشاء ديوان الجند ، فضلا عن انشاء الحرس الأميري الخاص من العبيد السود والماليك البيض (الصقالية) ، الذين كان يزداد عددهم على مر الأيام (٥٦) .

وهنا نلفت النظر من جديد الى ان التأريخ لعهد يوسف بن تاشفين ، وهو الشخصية المحورية في تاريخ الأمبراطورية ، ما زال يعاني - في مرحلته الأولى على الأقل - من الصعوبة في توقيت أحداثه السياسية الهامة والعسكرية ، وخاصة ما يتعلق بفتوح المغرب في خطواتها المتوالية . ويرجع السبب في ذلك الى نقص الوثائق الرسمية ، واعتماد الكتاب على الروايات الشفهية والقصص الشعبية التي لم تدون الا في فترات متأخرة ، الأمر الذي لا يضمن الدقة في التوقيت أو في صحة الخبر . وفي اطار هذا السياق فان ما وصلنا من الرسائل أو من الخطاب مما ينسب الى المرابطين يعاني من الصنعة الى جانب سوء النسخ وعدم سلامة الحفظ ، ناهيك عن أن الدولة الصحراوية كانت في بداية أمرها ، وأن دواوينها الناشئة وسجلاتها لم تكن بعد تعرف أساليب التنظيم والحفظ .

وهكذا اختلف الكتاب من مؤرخين وغيرهم في تحديد أحداث العصر الكبيرة ، مثل : بناء مراكش (ما سبق ، ص ٢٣٩) ، وفتح فاس وتلمسان والجزائر ، مما يأتي ذكره . والخلط في الأحداث الكبرى والاختلاف في توقيتها لا ترجع مسئوليته الى الكتاب وحدهم ، بل كثيرا ما يكون

(٥٥) السنان (ابن عذاري) ، ج ٤ ص ٢٢ .

(٥٦) البيان ، ج ٤ ص ٢٣ .

بسبب طبيعة الأحداث نفسها • فحرب الصحراء والخلوات حيث يكون أسلوب القتال ، هو الأسلوب البدوي المبني على فن « الكر والفر » أو الغارات التي يقصد بها الاستكشاف قبل الاستحواذ والاستقرار أو الخضوع والحلف العسكري •

وبناء على كل ذلك يختلف الكتاب في تحديد المسار الزمني لأحداث التوسع المرابطي في بلاد المغرب على عهد يوسف بن تاشفين ما بين الاختصار المخل ، كما في كامل ابن الأثير ، ونهاية النويري • والاسهاب المختلط ، كما في قرطاس بن عذارى ، الذي حاول ابن خلدون ترتيبه - دون الإشارة الى ذلك صراحة - وبيان ابن عذارى الذي نفتقد - للأسف الشديد - بعض أجزائه ، والذي يعتبر بمثابة العمود الفقري بالنسبة لتاريخ المغرب ، منذ بدايته وحتى أيام المؤلف ، في مطلع القرن الثامن الهجري (١٤ م) والذي نفضل أن نتخذ روايته مصدرا أولا في هذا المقام ، طالما وجدت ، مع المقارنة والمقابلة مع النصوص الأخرى ، حسبا يقضى المنهج ، وعلى قدر الطاقة •

فتح الأقاليم البحرية في شمال المغرب :

خضوع منطقة سلا :

وهنا نرى أنه كان على يوسف بن تاشفين أن يبدأ بتهدين بلاد المغرب ، حسب سياسته التي انتهجها بقصد تحبيب القبائل فيه وتحالفها معه • ونسجل أنه لا بأس من تعديل تاريخ الرواية التي يقدمها ابن أبي زرع في تهدين المغرب الزناتى ، من : السوس الأدنى ، بلاد مكناسة وفاس ، الى : غمارة والريف ، من حيث تزامنها مع خروج أبى بكر الى الصحراء في سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م (٥٧) • ففي هذا الوقت تقول الرواية ان ابن تاشفين هدى البلاد حتى ملوية ، في تخوم المغرب الشرقية ، وأنه ميز (عرض) جيوشه ، فوجد ٤٠ (أربعين) ألفا من المرابطين ، فانتخب منهم النصف (٢٠٠٠ ر) من حرسه الخاص ومن المقربين من لمتونة وجعلهم تحت قيادته ، بينما قسم الآخرين (٢٠ ألفا) الى ٤ (أربعة) ألوية ، كل منها ٥ خمسة آلاف رجل حسب تنظيمهم القبلي ، وجعل لكل لواء قائدا • فكان على لواء

(٥٧) انظر القرطاس ، ص ١٣٨ - حيث تقديم أبى بكر ليوسف في الامارة سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١ م الى رأينا أن تقدم ١٠ سنوات فتصبح سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م حسب رواية ابن عذارى - انظر ما سبق ، ص ١٦٨ ، ص ٢٥٦ وهـ ١٩ •

جدالة : محمد بن تميم (الجدالي) وعلى مسوفة : عمر بن سليمان (المسوفي) ، وعلى تلكاتة : مدرك (التلكاتي) ، وعلى لمتونة سير بن أبي بكر (اللمتوني) . وتقدمت الألوية الأربعة يتبعها يوسف بن تاشفين ، ساقه للأمن والحماية ، وهم يغزون قبائل المغرب ، قبيلة بعد أخرى ، وبندا بعد بلد ، وقوم يغزون منهم ، وقوم يقاتلون ، وقوم يدخلون في طاعته (٥٨) ، الأمر الذي يعنى اقرار السلام المرابطي في تلك البلاد ، بدخول قبائل البربر من الزناتية (البتر) في الطاعة ، وقبول دفع الضرائب المقررة .

والحقيقة أن أهمية هذا النص تتلخص في أنه يعرف ببناء الجيش «لتاشفيني في بداية عهد « أمير المسلمين » يوسف ، وكيف أن نواته كان «لحرس الأميري ، وتوابعه الرئيسية الى جانب لمتونة ، هي قبائل : جدالة ومسوفة وتلكاتة (التي ربما كانت من أفخاذ لمتونة ؟) .

أما عما بعد اخضاع القبائل في اقليم ملوية ، فيفهم من رواية ابن عذارى ، أن أول أعمال يوسف بن تاشفين بعد أن آلت اليه الامارة ، هو التأكد من خضوع قبائل يرغواطة ، في حيز سلا من بلاد تامسنا المناخمة للسوس الأقصى . ففي شهر صفر من سنة ٤٦٦هـ/أكتوبر ١٠٧٣م التالية لاعتزال أبي بكر ، وجه ابن تاشفين جيشا ضخما بقيادة الأمير مزدي بن بانلونكا نحو سلا ، فكان مجرد ظهور القائد المقرب من الأمير كافيا لتقديم القبائل هناك فروض الطاعة ، بما يستتبع ذلك من دفع الضريبة - على ما هو متعارف عليه . وهكذا لم تستغرق حملة استعراض القوة هذه أكثر من (ثلاثة) أشهر ، اذ كان خروج مزدي من تامسنا نحو مراكش ، في ٢٥ ربيع الثاني/ ٢٩ ديسمبر من نفس السنة (٥٩) .

التوسع في السوس الأدنى : فتح مكناسة :

من الواضح في حوليات ابن عذارى ، أن عملية تهديد تامسنا كانت مقدمة لضم السوس الأدنى الى الدولة المرابطية بشكل نهائي على يد يوسف بن تاشفين ، بمعنى أن ما قام به المرابطون قبل ذلك في السوس الأدنى كان مجرد أعمال تمهيدية للضم النهائي (ما سبق أعلاه) . ففي سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م كان يوسف بن تاشفين ، يوجه حملة عسكرية تحت

(٥٨) القرطاس ، ص ١٣٨ .

(٥٩) البيان ، ج ٤ ص ٢٦ - ٢٧ .

قيادة بطى بن اسماعيل ، تهدف الى تأكيد خضوع زناتية مكناسة ، وعلى رأسهم : الخير بن خزر الزناتى . فعندما وصلت الحملة الى قلعة بهت ، بعث القائد بطى رجل يريد عداء (رقاص) الى الخير بن خزر يخبره بالعفو عنه نظير عودته الى الطاعة ، ويسلمه الخطاب الخاص بالأمان ، اذا ما سلم مدينة مكناسة ، وسار معه الى الحاضرة مراکش للقاء الأمير يوسف .

وعقد الخير اجتماعا لرؤساء زناتة وعرض عليهم الأمر فهاهم ما سمعوا ، وعبروا عن تمسكهم برئاسته وبأنهم على استعداد للقتال حتى النصر ، واخراج الجيش اللمتونى من بلادهم . وهنا أفهمهم الخير أنه لا سبيل الى ذلك ، وأعلمهم أنه سيراسل القائد المرابطى للتفاوض معه . وأوفد فعلا سفيرا من لدنه ، وهو : منغقاد بن عبد العزيز الزناتى ، الذى احتفى به بطى وأكرمه . وبعد مشاورات عبر فيها رسول مكناسة عن أن الخير ومن معه هم رجال يوسف بن تاشفين ، وانهم متمسكون بالاجتماع معه للاتفاق على الشروط الخاصة بتسليم البلاد . وعندما أعلن القائد المرابطى أنه يضمن من جانبه ، تنفيذ تلك الشروط انحلت الأزمة . وهكذا خرج الخير بن خزر الزناتى ومن كان معه من قواد زناتة ، الى موضع القناطر ، خارج مكناسة ، ودخل بطى بن اسماعيل المدينة ، ورتب شئونها كولاية مرابطية ، وعهد بحكمها الى الأفضل اللمتونى .

وبعد أن اطمأن بطى بن اسماعيل على حسن سير الأمور بمكناسة ، خرج ليصحب الخير ومن معه من الزناتية ، الى مراکش . وهناك حظى الزعيم المكناسى بمقابلة الأمير يوسف بن تاشفين الذى أنعم عليه بكل ما أراد ، ثم انه أذن له بالانصراف ، فعاد الخير الى وطنه ، ولكنه أقام بخارج مكناسة حيث بقى حتى وفاته (٦٠) . وبذلك تهدنت مكناسة ، واطمأنت الى دخولها فى حظيرة الدولة المرابطية ، على عهد يوسف بن تاشفين .

فتح فاس :

بعد ضم مكناسة كان من الطبيعى أن يأتى دور عاصمة السوس الأدنى ، قيروان المغرب الأقصى ، فاس : مدينة الشرفاء الأدارسة ، ومقر آخر سلالتهم الحموديين ، خلفاء قرطبة بمد مروانيين . فبعد وصول الخير بن خزر الزناتى الى حضرة مراکش كان أول ما فكر فيه يوسف بن تاشفين

هو اخضاع حكام فاس الزناتية المغراويين بدورهم ، وضم المدينة « المقدسة » الى دولته ، الأمر الذى كان يضيف المزيد من البهاء والجلال . وفى هذا الجو المفعم بروح النصر سير ابن تاشفين « عسكرا جرارا » عهد بقيادته الى قائد من بنى عمه المقربين ، هو : يحيى بن واسينوا الممتونى ، لمنازلة فاس .

وكان وصول يحيى الى فاس فى آخر رجب سنة ٤٦٧هـ / ١٩ مارس سنة ١٠٧٤م ، حيث كان أبناء حمامة الذين حوصروا حصرا شديدا ، لمدة ٧ (سبعة) أيام حتى استسلموا فى اليوم الثالث ، ودخل رجال يحيى ابن واسينوا المدينة عنوة ، بعد مقتل كثير من المدافعين . واستبيحت فاس لفترة من الوقت ، سلبت فى أثنائها الدور ونهبت الأموال ، قبل أن يعلن العفو عن أهلها والأمان لهم . ونجح الفتوح ودوناس أبنا حمامة فى الاعتصام بقصرهما بعض الوقت ، ثم انهما طلبا الأمان فعفى عنهما ، وان كان فى نفسيهما فقط ، دون الأموال . وأرسلت الكتب بأخبار فتح فاس الى مراكش ، فأمر يوسف بن تاشفين باطلاق سراح الأميرين الزناتيين ابني حمامة ، والسماح لهما بالمسير أينما شاءا ، فرغب الفتوح فى المسير الى بلاد مغيلة . وبذلك تكون لمثونة قد استولت نهائيا على فاس ، وضممتها الى دولتها المرابطية (٦١) .

ولا نعرف ان كانت رواية القرطاس (الهامش السابق) تبالغ اذ نقول ان يوسف بن تاشفين قتل من أهل فاس بجامع الفرويين وجامع الأندلس

(٦١) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٨ . وقارن القرطاس ، ص ١٤١ - حيث الفتح الثانى لفاس سنة ٤٦٠ هـ / ٨ - ١٠٦٧ م ، مع فتح جميع بلاد غمارة وجبالهم وبلاد الريف الى طنجة . أما عن الفتح الثالث لفاس فكان يوم الخميس ١٢ جمادى الآخرة سنة ٤٦٣ هـ / ١٨٠ مارس سنة ١٠٧٠ م حيث نزل عليها يوسف بن تاشفين بجمع جيوشه ، وشدد عليها الحصار حتى دخلها عنوة بالسيف ، فقتل من مغاوة بها ، وبنى يفرن ، ومكناسة ، وقبائل زنانة حتى امتلأت أسواق المدينة وشوارعها بالقتلى ، وقارن العبر ، ج ١ ص ١٨٥ ، أنظر القرطاس ، الفتح الاول سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م . وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٤ - حيث الفتح الاول سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م بتحريض صاحب مكناسة مهدي بن يوسف الجزائى ، ثم الفتح الثانى (ص ١٨٥) - حيث قتل معنصر ، ثم الفتح الثالث (ص ١٨٥) - حيث أخذت عنوة بيدي يوسف بن تاشفين سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م ، وقارن صبح الاعشى ، ج ٥ ص ١٨٧ - حيث الفتح الاول سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م . والفتح الثانى (ص ١٨٨) - حيث قتل معنصر سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م ، والفتح الثالث (ص ١٨٨) ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م - حيث فتحت عنوة ، وهرب الناجون الى تلمسان .

ما يزيد على ٣ (ثلاثة) آلاف رجل ، وأنه فر من بقى منهم الى أحواز تلمسان . هذا ، وان كان لا بأس فيما تقوله تلك الرواية من أن يوسف بن تاشفين قام بتحسين مدينة فاس عندما دخلها ، وان اعتبرت أن أمره بهدم الأسوار التي كانت تفصل بين المدينتين : عدوة القرويين وعدوة الأندلس ، بمعنى توحيد المدينة المقسمة ، وجعلها حاضرة واحدة ، وكأنه نوع من العقوبة التي أنزلت بأهل فاس (٦٢) . أما ما تقوله الرواية من أنه اعتنى بفاس ، وأنه أمر ببناء المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها وأنه عاقب أهل كل زقاق لم يجد فيه مسجدا ، وأجبرهم على بناء مسجد فيه ، الى جانب أنه بنى الحمامات والفنادق والأرحاء ، وأصلح أسواقها وهذب بناءها (٦٣) فنرى أنه من أعمال العمران التي عرفتتها المدينة في فترات الاستقرار التالية بعد تمام الأعمال العسكرية . وربما كان ذلك على أواخر أيام يوسف ، أو حتى في عهود تالية . فذلك بعامة ، من سمات عصور الاسترخاء والترف ، التي تتأوا عصور الانجازات العسكرية والسياسية الكبير (٦٤) .

فتح تلمسان :

لما كانت بقايا زناتة المنهزمين في فاس ، قد فروا الى أحواز تلمسان ، حسبما تنص رواية ابن أبي زرع (٦٥) يصبح فتح تلمسان من الأحداث التالية لفتح فاس ، كما يأتي عند ابن عذارى ، وذلك في سنة ١٠٧٥م ، التالية . فلقد جهز يوسف بن تاشفين لهذا الأمر جيشا ضخما عهد بقيادته الى قريبة القائد مزدلى الممتونى ، وسيره نحو تلمسان مزودا بخطاب الى أميرها العباس بن يحيى ، كبير زناتة هناك ، يعهده فيه بالعفو اذا ما أذعن للقائد المرباطى دون قتال . وخرج ذلك الجيش من مراكش في أوائل المحرم ٤٦٨هـ / أغسطس ١٠٧٥م لكي يصل الى تلمسان في أواخر صفر / منتصف سبتمبر ، بمعنى أن الرحلة استغرقت زهاء شهرين ، الأمر الذى يبرره ضخامة الجيش وصعوبة إمداده وتموينه على طول الطريق .

(٦٣) القرطاس ، ص ١٤٦ ، وفارن العبر ، ج ٦ ص ١٨٥ .

(٦٣) القرطاس ، ص ١٤١ .

(٦٤) أبطر القرطاس ، ص ١٤١ - ١٤٢ - حيث النص على أن يوسف بن تاشفين بعد أن فتح فاس أقام بها الى شهر صفر سنة ٤٦٣ هـ / نوفمبر ١٠٧٠م (وهو التاريخ السابق على توقيت ابن عذارى بـ ٥ (خمس) سنوات - كما سبق ، ص ٢٧٦ وهـ ٦١) ، ثم انه خرج منها الى بلاد ملوية ففتح حصون وطاطا سنة ٤٦٤ هـ / ٢ - ١٠٧١م التالية ، فارن العبر ، ج ٦ ص ١٨٥ .

(٦٥) ما سبق ، ص ٢٧٦ وهـ ٦١ .

والمهم أنه بمجرد أن قدم ساعى البريد (الرقاص) الخطاب الأميرى الذى حمله مزدلى الى العباس ، بادر هذا الأخير بمغادرة تلمسان ، ودخلها مزدلى بقواته المرابطية « فى مهلة وحال هدنة » . وبعد أن رتب مزدلى أحوال المدينة ، عهد بولايتها الى ابنه : يحيى بن مزدلى ، وعاد هو وبصحبه العباس الى مراكش ، فوصلها فى ٥ ربيع الثانى/ ١٨ نوفمبر ، فكانه لم يمكث فى تلمسان الا أسبوعين أو ثلاثة ، على حساب أن رحلة العودة كانت أسهل ، من حيث بقاء حامية مرابطية معقولة الحجم فى تلمسان ، خفت من ثقل العسكر العائد الى الحاضرة .

وفى مراكش ، ومثلما حدث للخير صاحب مكناسة (ص ٢٧٥) ، حظى العباس بقاء الأمير يوسف الذى أنعم عليه بكل خير ، ومن ذلك امتيازات خاصة يتمتع بها فى بلده ، ربما كان أهمها الاعفاء من دفع الضريبة ، بعد أن سمح له بالانصراف اليه والاقامة فيه (٦٦) .

وآخر ما تسجله رواية ابن عذارى التى عثر على أوراقها مؤخرًا فى جامع فاس ، والخاصة بفتوح يوسف بن تاشفين فى المغرب ، هو حروبه الشديدة فى سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م ضد أمير تازا أبو يعلى (الزناتى) فى فحص الوادى . وكان يعاون هذا الأخير أبو القاسم محمد بن عبد الرحمن ابن أبى العافية الذى كان قد غلب على فاس بعد مقتل تميم بن معنصر سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م الذى كان على رأس الزناتية الذين انتصروا على المرابطين بموضع آجرسييف (٦٦) .

ومما يؤسف له أن بقية فتوح يوسف بن تاشفين فى المغرب تنقطع فى ابن عذارى بعد فتح تلمسان حيث يوجد خرم كبير ، ضاعت فيه أخبار

(٦٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٩ ، وفارن القرطاس ، ص ١٤٣ - حيث وضع فتح تلمسان سنة ٤٧٢هـ / ١٠٧٩ م ، على يدى مزدلى ، على رأس ٢٠ ألفا وظفره بأمرها معلى بن يعلى المغراوى الذى قتل ، ثم عودته الى مراكش حيث لقي فيها يوسف ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٦ - حيث النص على قنسل العباس بن يحيى أمير تلمسان . وأنزل محمد بن تيمغر المستوفى بها فى عساكر المرابطين ، فصارت ثغرا للملك ، واخيلط مدبنة تاكرات (تاجررات) بمكان محلته ، وهو اسم المحلة بلسان البربر .

(٦٦م) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٠ - حيث النص خطأ على أن أبا القاسم بن أبى العافية كان رأس لمتونة (بدلا من زناتة) ، مع الإشارة الى أن توقيت هذا الحدث ربما كان فى سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٥ م ، السابقة .

الأحداث من سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م الى ٤٩٥هـ/١١٠١م (٦٧) ، الأمر الذي يتطلب الرجوع الى قرطاس ابن أبي زرع ، الذي نلاحظ أن توقيتاته الأخيرة للأحداث تقترب من تاريخ ابن عذارى وهو ما يطمئن بعض الشيء ، الى جانب الاستعانة بغيره من الروايات المتأخرة ، مما فى الحلل الموشية وغيره من كتب التاريخ أو التراجم .

تهدين البلاد والتقسيم الإدارى :

والذى يفهم من رواية القرطاس أنه عند مستوى هذه الفتوح التى أضاف إليها يوسف بن تاشفين فتح مدينة الدمنة من أعمال طنجة ، وكذلك جبل علودان بمنطقة فاس ، ثم فتح جبال غيابة وعدد من مستوطنات القبائل ، مثل : بنى مكود ، وبنى رهينة ، من أحواز تازا عند ابن خلدون ، مع ردم المخالفين (٦٨) ، اطمأن يوسف بن تاشفين الى اكتمال نمو الدولة المرابطية تحت رعايته ، بمعنى أنها أصبحت أمبراطورية متحدة ، يسودها الأمن والسلام ، ويعترف بها رؤساء الأقاليم ومشايخ القبائل ، فلم يبق أمامه سوى اعتراف هؤلاء جميعا بسلطنته وحده دون قرين أو منافس منهم ، فكأنه كان يستحق يومئذ لقب « أمير المسلمين » الذى يميزه عن سائر الأمراء .

وهكذا ، وجه يوسف بن تاشفين الدعوة الى « أمراء المغرب ، وأشياخ القبائل ، من : زناتة ، والمصامدة ، وغمارة وسائر قبائل البربر ، فقدموا عليه ، وبايعوه ، فكسى جميعهم ، ووصلهم بالأموال » . وأكثر من ذلك تضيف الرواية أنه « خرج معهم ليطوف على جميع أعمال المغرب ، ويتفقد أحوال الرعية ، وينظر الى سير ولايتهم وعمالهم فيه ، فصلح على يديه بذلك كثير من أمور الناس » (٦٩) . كما كان عليه أن يهيئ نظم الدولة السياسية والعسكرية ، بما يضمن لها الاستقرار ، والاضطراد فى النمو والنجاح .

وهنا كان على يوسف بن تاشفين إعادة تقسيم البلاد الى ٤ (أربعة)

(٦٧) أنظر البلبان ، ج ٤ ص ٣٠ ، هـ ١ - حيث النص على ان هذا الحرم ضيع بقية فنوح يوسف بن تاشفين فى المغرب ، وأخبار جوازانه الى الأندلس ، وموقعة الزلاقة ، وسقوط أكثر دول الطوائف وذلك ما يمكن مراجعته فى روض القرطاس والحلل الموشية وغيرهما .
(٦٨) القرطاس ، ص ١٤٢ - حيث تم ذلك فيما بين سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م و٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م ، وأنظر المبر ، ج ٦ ص ١٨٥ .
(٦٩) القرطاس ، ص ١٤٢ .

ولايات ، لكل منها قائد من أهل الخبرة والثقة ، المقربين كآلاتي :

- ١ - مكناسة وبلاد مكلاته ، وبلاد فازاز ، ويليها : سير بن أبي بكر .
- ٢ - فاس وأحوازاها ، ويليها : عمر بن سليمان .
- ٣ - سجلماسة ودرعة ، ويليها : داود بن عائشة .
- ٤ - مدينتا أغمات ومراكش ، وبلاد السوس ، وسائر بلاد المصامدة ، وبلاد تامسنا ، ويليها : ولده : تميم بن يوسف بن تاشفين (٧٠) . فكان تلك الولاية التي تمثل قلب الدولة المرابطية ، اقطاع ولي العهد ، أوسمة لمنصب ولاية العهد - تماما كما كانت ولاية ديوان المغرب (النصف الغربي للدولة العباسية) ببغداد من رموز ولي العهد على أيام المهدي والرشيد .

غزو العدو الافريقية : سبنة وطنجة :

والحقيقة انه كان قد بقي جزء مهم بالنسبة لدولة الرباط لم يعد في حوزتها ، ألا وهي عدوة الأندلس الافريقية ، ممثلة في منطقتي سبنة وطنجة . فهذا ما تنبه اليه مؤرخوا المرابطين عندما قالوا : ان عبد الله بن ياسين ، عندما دخل تامسنا للقضاء على هرطقة برغواطية ، كان يعلن أنه لا يطلب منهم الا التخلي له عن منطقة العبور الى الأندلس ، أرض الجهاد حقيقة (ما سبق ، ص ٢١٣ ، ٢٣٠) .

واذا كان هذا الأمر وقتئذ بعيدا عن تفكير ابن ياسين وزعماء المشتهين ، فانه لم يعد كذلك بعد أن وصلت الفتوح في المغرب على أيدي يوسف بن تاشفين الى تخوم كل من سبنة وطنجة ، بل والدخول في صراع مع أسرة لكوت الحاجب ، الذي ورث ولاية سبنة من الحموديين . والظاهر ان ما فعله ابن ياسين ، أعاد سيرته ابن تاشفين من جديد . فهذا ما يفسر رواية ابن أبي زرع التي تقول ان بداية اتصال المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ، بيوسف بن تاشفين يستمدعية للجواز برسم الجهاد ونصر البلاد ، كان في سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م . وان رد ابن تاشفين السلبي كان مبررا بأنه لا يملك سبنة وطنجة ، مما دعا ابن عباد الى أن يعرض عليه معونته البحرية لتمكين قواته البرية من تحقيق هذا الهدف (٧١) .

(٧٠) القرطاس ، ص ٦٤٢ ، وأنظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٥ .

(٧١) القرطاس ، ص ١٤٢ ، وقارن العبر ، ج ٦ ص ١٨٥ - حيث النص : « ثم استدعاه المعتمد بن عباد الى الجهاد (سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م) فاعتذر بمكان الحاجب (سكوت) وقومه من أولياء الدولة الحمودية بسبنة ، فأعاد اليه ابن عباد الرسل بالمشايعة اليهم ، فجهز اليهم قائده صالح بن عمران في عساكر لمتونة ٠٠٠ الخ . .

والذى نراه أنه لما كان سقوط طليطلة بين أيدي القشتاليين قد وقع فى سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م ، أى بعد عشر سنوات وأكثر ، فإن تبرير فتح سببة وطنجة بغرض معونة أهل الأندلس فى كفاحهم ضد خطر أمراء الدويلات الأسبانية المسيحية وملوكها ، لا ينهض دليلا مقنعا فى سنة ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٤ م ، حيث كانت فتوح المرابطين فى شمال المغرب قد وصلت الى تخوم العدو . فضلا عن طرد البرغواطيين من آل لقوط من أغمات (ما سبق ، ص ٢١٦) وهكذا كان من الطبيعى أن يبدأوا غز سببة وطنجة قريب ذلك الوقت ، على يد يوسف بن تاشفين ، بصرف النظر عن الأزمة الأندلسية التى كانت تتراوح مكانها ما بين تقييم فكرتى محاسن ومثالب الاعتماد على الذات ، وطلب المعونة من وراء الزقاق ، سواء من العرب أو من البربر .

فتح طنجة :

ففى سنة ٤٧٠ هـ/ ١٠٧٧ م ، قبل ٨ (ثمان) سنوات من سقوط طليطلة ، سير يوسف بن تاشفين قائده صالح بن عمران نحو طنجة على رأس جيش كبير من ١٢ (اثنى عشر) ألف فارس من المرابطين (لمتونة) ، و ٢٠ (عشرين) ألف رجل من سائر القبائل الزناتية وغيرهم (٧٢) . وعندما اقتربوا من تخوم طنجة خرج اليهم الحاجب لكوت الذى كان وقتئذ ، شيخا معمرافى الـ ٨٦ (السادسة والثمانين) من عمره ، بمن لديه من العساكر . وكان اللقاء فى موضع وادى منى قرب طنجة ، وانتهى القتال الشديد بمقتل لكوت ، وهزيمة جيشه . وبذلك دخل المرابطون طنجة بينما بقيت سببة بين يدى ضياء الدولة يحيى بن لكوت الذى اعتصم بها (٧٣) .

وأعقب ذلك فتوح بلاد الريف ، من جرسيف الى مليلة (سنة

(٧٢) القرطاس ، ص ١٤٢ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٥ - حيث اختصار تفصيلات القرطاس . هذا ولقد جعلنا جيش الزناتية رجالة فى مقابل فرسان لمتونة ، بناء على رواية ابن خلدون التى يقول فيها بعد بناء مدينة مراكش (٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م) ان ابن تاشفين صرف عزمه الى مطالبة مغراوة ، وبنى يفرن ، وقبائل زناتة المغرب ، وجذب الحيل من أيديهم ، وكشف ما نزل بالرعايا من جورهم وعسفهم ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٤ .

(٧٣) القرطاس ، ص ١٤٢ - ١٤٣ - حيث النص على تصميم الحاجب لكوت على مقاومة المرابطين حيث قال : والله لا يسمع أهل طنجة طبول اللمتونيين وأنا حى ، الى جانب النص على بقاء الحاجب ضياء بسببة ، وكتابة القائد صالح بالفتح الى يوسف (فتح طنجة) .

٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م) وتخريب نكور ، فلم تقم لها قائمة بعدها ، وفتح وجمد وتنس ووهران وجبال وانشریش ، وجميع أعمال وادی شلف حتى مدينة الجزائر (فى سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م) ، وكل ذلك على يدى يوسف بن تاشفين فيما بين ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ و ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م (٧٤) . ويكون ختام فتوح المغرب بطلب المعتمد بن عباد المعونة لمواجهة العدو بالأندلس ، وذلك فى سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م حيث يرد يوسف بن تاشفين بأنه سيلبى النداء اذا فتح الله له سبته ، كما سبقت الاشارة (٧٥) - فكان فتح سبته كان من شئون فتح الأندلس ، بمعنى المقدمة الطبيعية لمحاولة انقاذ بلاد المسلمين مما كان يتهدها من خطر حرب الاسترداد ، وذلك على أيدي المرابطين .

(٧٤) أنظر القرطاس ، ص ١٤٣ - حيث رجوع يوسف بن تاشفين الى الجزائر ، عقب فتح سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م ، ربيع الثانى ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٦ .
(٧٥) أنظر ما سبق ، ص ٢٨٠ وما بعد ، ٢٩٧ .

الفصل السادس

المرابطون وحرب الاسترداد في الأندلس :

على عهد يوسف بن تاشفين :

كان من الطبيعي ، وقد استكمل يوسف بن تاشفين فتوح المغرب الأقصى بضم طنجة بعد غمارة وبلاد الريف وفاس (٤٦٢ هـ / ٧٠ - ١٠٦٩ م) أن يوجه الزعيم المرابطي أنظاره الى ما وراء المضيق ، الى الأندلس التي كانت تعاني من وطأة حرب الاسترداد (Reconquista) التي كانت تمثل وقتئذ ، خطرا داهما على الوجود العربي الاسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية ، الأمر الذي كان يتطلب نوعا من الانقاذ العاجل من جانب الأخوة المغاربة فيما وراء العدو . والحقيقة ان هذا ما كان يدور بخلد عبد الله بن ياسين ، مؤسس الحركة المرابطية ، عندما دخل تامسنا ، وأعلن انه جاء يطلب اخلاء الطريق أمامه نحو الأندلس أرض الرباط الحقيقية والجهاد . وبصرف النظر عن صحة هذا الادعاء وقتئذ ، فالمعروف تاريخيا أن هناك نوعا من الربط ، بناء على الواقع الجغرافي بين كل من شبه جزيرتي المغرب والأندلس ، فالتنظيم السياسي الأقوى في أى من البلدين عادة ما يفرض نفوذه المعنوي ان لم يكن سلطانه المادي على الطرف الآخر .

وهكذا ، وفي اطار التجربة الاسلامية كان الفتح العربي للأندلس حتمية تاريخية بعد فتح المغرب الأقصى ، ترتيبا على تداعى الأحداث (١) . وعندما قويت كل من دولتي المرابطين بالأندلس ، والفاطميين بأفريقية التونسية ، وارتفعتا الى درجة الخلافة ، ظل الصراع محتدما بينهما من أجل السيطرة على العدو المغربية في سبتة وطنجة . وعندما هاجرت خلافة المهدي الى القاهرة ، واضمحلت خلافة قرطبة ، رنا الحماديون ، سلالة الأدارسة في فاس ، بأبصارهم نحو قرطبة في محاولة للملاءمة الفراغ الذي

(١) وفي ذلك قبل ان فتح الأندلس كاد يتم منذ أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان . انظر العبر ، ج ١ ص ١٦٢ ، كما قيل ان مراكب الفتح أحرقت تحميسا للغاتحين ، فكانه استكمل بجامعة المحاربين الأوائل من اصحاب طارق ، أو بدون حاجة الى أسطول : انظر محمد مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب ، ط ١ ، ١٩٦٨ ، ص ٢٣ وما بعدها .

تركه المروانيون هناك • وكان فشل احياء حكومة الخلافة في قرطبة - بصرف النظر عن لونها السياسى أو المذهبى - ايذانا بعصر الطوائف ، عهد التفنت السياسى وبالتالى الضعف العسكرى والمعنوى الذى عانت منه بلاد المغرب الأقصى أيضا ، فكانت حركة الاحياء المرابطية تحت مظلة الاصلاح الدينى والتجديد الثقافى والروحى ، بمثابة المنقذ من « الضلال » ، سمة العصر حسبما يفهم من عنوان بعض كتب الغزالى ، امام الاسلام المعاصر وقتئذ - وفى كل وقت •

وهنا لا بأس فى محاولة تقييم الموقف العام فى الأندلس ، فى ذلك الوقت من أواخر القرن الخامس الهجرى/ ١١ م ، على المستويات المادية والمعنوية المتشابكة فى مجريات الحياة اليومية هناك ، بهدف حسابان أوجه الكسب والخسارة ، وإن كان من الممكن إعادة الاتزان المختل الى كفة الميزان ليعتدل • فمن الجانب الآخر كانت الجبهة المسيحية ، وهى تقود حرب الاسترداد (الريكونكيستا) ، تتكثل وتقوى ، فى مقابل التفنت والضعف فى الجانب الاسلامى ، حيث كانت الطوائف تخسر المعنويات مع خسران الأرض ، وبالتالى تضل الطريق فى غمرة الدهشة الى عملية الانقاذ ، وهو طريق الوحدة والقوة فتتمادى فى متاهة التقسيم والفرقة ، طريق الأغراض الشخصية من : عارضة وأنانية (٢) •

وفى هذه الظروف التесعة ومع انكماش الحدود الاسلامية متراجعة نحو الجنوب والغرب يوما بعد يوم ، أصبحت أراضى الأندلس الاسلامية وكأنها جميعا جبهات قتال لا صاحب لها (no man's land) ، لا تعرف لها خطوط فاصلة أو حدود • وهكذا ، بينما كان يوسف بن تاشفين يهدن المغرب الأقصى فيضم المدائن ويخضع القبائل ، كان فرناندو الأول (ابن شانجه) يضم مملكة ليون الى قشتالة ، ويفرض هيمنته على بقية الممالك الاسبانية ، من : شمالية مسيحية ، مثل غاليسيا (جليقية) وأراجون ، وجنوبية اسلامية ، تدفع الجزية ، منل : سرقسطة وطليطلة وبطليوس حتى

(٢) أنظر جوليان ، تاريخ افريقية الشمالية ، الترجمة ، ج ٢ ص ١١٠ - حيث عدد الطوائف ٢٣ دولة ، وأنظر الخريطة ، كذلك ، شكل ١١ ، ص ١١٢ • وقارن زامبور ، الترجمة ص ٨٦ - ٩٢ - حيث تعداد ٢٥ مملكة ، أولها مالقه وآخرها دانية ، ويضاف اليها ميورقة ذات الدولتين : بنو مجاهد وبنو غانية ثم مملكة مينورقة (رقم لا ٢) حيث دولة ابن الحكم الفرشى •

اشبيلية وتابعتها قرطبة . وكانت فرصة مواتية لكنيسة روما انتهزها البابا اسكندر الثانى الذى أصدر فى سنة ١٠٦٣ م/ ٤٥٥ هـ ، مرسوما بالغفران لكل من يساهم من المسيحيين فى قتال المسلمين بالأندلس ، فكان ذلك حافزا لكثير من الفرسان الفرنسيين على المشاركة فى الصليبية الاسبانية ، بمهاجمة قلاع المسلمين الشمالية فيما وراء الجبال (٣) . بينما كانت جماعات أخرى من الفرسان الاسبان المسيحيين (أو المستعربة) مثل : السيد (El-Cid, Mio Cid) عند المسلمين وهو القنبيطور (Camplador) بمعنى البطل عند الاسبان ، ممن ييمون خدماتهم العسكرية لمن يدفع الثمن ، يثقلون بأحمالهم على صدور المسلمين ، فيزيدونهم وهنا عن وهن ، بانهكهم عسكريا واستنزافهم ماليا (٤) .

تهديدات الفونسو السادس :

وهكذا ، وفى الوقت الذى كانت قوات يوسف بن تاشفين تدخل طنجة تهيئدا للعبور الى الجزيرة الخضراء ، كانت الأخبار تترى عبر الزقاق ، عن تلك الغارة الجريئة التى قام بها الفونسو السادس (وريث فرناند الأول) فى سنة ٤٧٥ هـ/ ١٠٨٢ م ، حيث « شق بلاد الأندلس شقا ، يقف على كل مدينة فيها ٣ (ثلاثة) أيام ، فيفسد ويخرب ويقتل ويسبى ويرتحل الى غيرها » (٥) . وفى تفصيل ذلك يقول ابن أبى زرع ان الملك التستالى نزل على اشبيلية فأفسد أحوازاها وخرب كثيرا من قرى مزارعها وجناتها المعروفة بالشرف ، وكذلك الأمر بالنسبة لشذونة وأحوازاها . وهنا تخرج الرواية من نطاق الواقع التاريخي الى رحاب القصص الشعبي ، فتنص على أن الفونسو السادس أدخل قوائم فرسه فى البحر ، وقال « هذا

(٣) أنظر جوليان ، (ش . ١٠) ، الترجمة ، ج ٢ ص ١١١ .

(٤) أنظر جوليان (ش ١٠) ، ج ٢ ص ١١٢ - حيث اسم السيد : ردرى (دياز دى فيفار : (Díaz De Vívar) وكان له دور سياسى فاصل ، فكان يضع سيفه مرة فى خدمة ملك فشتالة ، ومرة فى خدمة دولة بنى هود بمرقسطة ، وكان فى أكثر الأحيان يخدم مطامحه الشخصية ، وقارن حسن أحمد محمود قيام المرابطين ، ص ٢٥٠ - حيث النص على بلوغ حرب الاسترداد ذروتها بمطالبة « فرديناند » ليس باخضاع المسلمين فقط ، بل وبجلائهم عن البلاد استنادا الى رواية ابن عذارى .

(٥) القرطاس ، ص ١٤٢ - حيث النص على ان جيوش الفونسو السادس كانت لا يحصى عددها ، من : الروم (الاسبان) ، والافرنج (الفرنسيين) والبشكنس (الباسك) والجلالة (الناليسيين) وغيرهم .

آخر بلاد الأندلس وطأته (وطنته) ، فكانه يعيد سيرة عقبة بن نافع
في اجتياحه الثاني للمغرب (٤٦٢ هـ / ٧٠ - ١٠٦٩ م) الذي حل هنا محله
بلاد المسلمين الأندلسية (٧) .

ومن الواضح أن الرواية تنصد أن تلك الغارة البعيدة المدى كانت
تهدف إلى التظاهر بالقوة ارهابا للمسلمين ، اد ننص على أنه عندها عاد
الفونسو السادس نحو بلاده ، عرج على سرقسطة وضرب عليها الحصار ،
مظهرا العزم على الاستيلاء عليها ، الأمر الذي دفع أميرها المستعين إلى ابوءاء
بما كان قد قصر في دفعه من الضريبة السنوية ، مع ما اقتضاه الحال من
الزيادة (٨) .

سقوط طليطلة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م :

وحتمية التدخل المراتبي :

والحقيقة أن سقوط طليطلة بين يدي الفونسو السادس ، في سنة
٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، أتى ليكرس عجز نظام الطوائف عن مواجهة الخطر
المسيحي في الأندلس ، بل وينذر بحلول النكبة (الفاقة) ، فكان من
الطبيعي أن تتوجه أنظار أهل الأندلس ، حكاما ومحكومين رضوا أم لم

(٦) القرطاس ، ص ١٤٣ .

(٧) عن عقبة ، أنظر ج ١ ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٨) القرطاس ، ص ١٤٤ - حيث النص على ان الملك القشتالي حلف ألا يرحل عن
سرقسطة حتى يدخلها أو يموت دون ذلك ، وأنه أراد أن يقدم فتح سرقسطة على غيرها
من بلاد الأندلس ، الأمر الذي يعنى - حسبما نرى - أنه أراد ألا تكون شوكة في جنبه
عندما يغير على بلاد المسلمين في الجنوب ، وإن كان يقف دونه قوة تحصينات سرقسطة
واستعدادها لمواجهة الحصار الطويل بمؤن المخزون في أهرائها من الطعام ، وهو ما جعلنا
نرجح أخذ الملك القشتالي للضريبة التي ربما زيد قدرها بعض الشيء ، رغم مقولة أنه
لم يقبل المال من المستعين ، اذ قال له : « المال والبلاد لي » ، التي ربما عبرت عن الاستيلاء
على سرقسطة بعد حين (ما بعد ، ص ٢٨٨ ، ٣٩٠) . وأنظر جوليان ، الترجمة ج ٢ ص ١١٣ -
النص على ان ملك سرقسطة (ابن هود) كان يلقى عناء كبيرا في الصمود أمام ضرات
ملك الأرغون وكونتات برشلونة ، وقارن ص ١١٢ - حيث النص على أنه لولا الخلافات
والضغائن بين السيد القنبيطور وبين الفونسو السادس لتحقق النصر لهما على المسلمين
« لاختر المسيحيون الآجال ، طالما أن قوى ملوك الطوائف كانت محدودة ، وقارن حسن أحمد
محمود ، قيام المراتبين ، ص ٢٥١ - حيث القول ، استنادا إلى ابن عذارى وأشباه ، أنه
بدأ للناس أن أيام المسلمين في شبه الجزيرة معدودات ، وأنه لولا وفاة فريناند سنة ١٠٦٥ م /
٤٥٨ هـ ، وتفرق شمل ملكه عقب ذلك لزال دولة المسلمين بالأندلس .

يرضوا ، الى ما وراء المضيق ، تنشده من « أمير المسلمين » العون والنجدة -
لعل وعسى !

والحقيقة أن تحول طليطلة الاسلامية ، فى هذا الوقت الصعب ، الى
خطيرة امبانيا المسيحية وان كانت له أصداء مدوية أو مكتومة ، من حزنية
أو فرحية فى كلا الجانبين ، الا أن التحول نفسه تم دون ضجة أو كاد ،
فكانه من أحداث الحياة اليومية فى جانب أو آخر . فالحقيقة أن أمير طليطلة
انقاد بالله ابن ذى النون الذى يوصف بالتزلف والسرف (٩) ، كان تابعاً
متعاوناً لالفونسو السادس ، الأمر الذى لا يستريح له عامة أهل المدينة .
وهنا فكر الفونسو السادس فى حل يرضى ظاهرياً كلا الطرفين : هو
والقادر ، وذلك بأن يقايض طليطلة بلنسية التى كانت للفتيان العامرية
قبل أن تدخل فى طاعته ، الأمر الذى وجد فيه ابن ذى النون حلاً لمشكلة
العامرة المزعجين فى بلده (١٠) . والحقيقة أن الفونسو كان يترك بلنسية
ليتخلص من عبء حليفه غير المضمون ، المحارب المغامر : السيد الكامبادور
(ص ٢٨٥) ، ليكون تركة « غير مرغوب فيها » بالنسبة للقادر ، الأمر الذى
سيسفر بعدئذ عن أحداث مأساوية فى شرق الأندلس ، مما تاتى الإشارة
اليه .

(٩) بنو ذو النون ، من قبائل البربر الذين كانوا قد دخلوا فى خدمة الدولة العامرية .
ناصل الاسم : « زنون » بربرى ، تصحف فى شكل عربى فصار « ذوالنون » . ووصل
منهم : عبد الرحمن بن ذى النون الملقب بالمظفر وهو على ولاية شنتبرية الى ملك طليطلة
عندما طلب منه أهلها - المضطربون دائماً - المعونة فسير اليها ابنه اسماعيل - الذى أحسن
حكمها باستشارة أهل الحل والعقد فيها ، وعلى رأسهم الفقيه أبى بكر بن الحديدي . وأن
كان ابن بسام - يعتبره على المستوى العام - : جرثومة النفاق والعصيان ، بسبب رفضه
الاعتراف بإمامة بنى أمية فى قرطبة . وبعد اسماعيل خلفه فى الإمارة ابنه يحيى (المأمون)
فأصبحت طليطلة ملكية وراثية الى أن استولى عليها الفونسو السادس ، على عهد القادر
حنيد المأمون (٤٢٤ هـ / ١٠٣٢ م - ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م - أنظر ابن عذارى ، ج ٣
ص ٢٧٦ ، ابن بسام ، الذخيرة ، ج ٧ ص ١٤٢) عن ذى النون وابنه اسماعيل) ، ص ١٤٦
(يحيى : المأمون بن اسماعيل) ، حتى (فيليب) ، تاريخ العرب المطلول ، ج ٢
ص ٦٣٩ .

(١٠) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٦ (والترجمة ص ٧٦) - حيث النص على
انتهاز الطاغية (الفونى ٦) الفرصة فيها ، بما كان من الفرقة بين ملوك الطوائف ، فحاصر
طليطلة ، وبها القادر بن يحيى بن ذى النون حتى نال منهم الجهد ، وتسلمها منه مسلحاً
سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م على أن يملكه بلنسية ، فبعث معه عسكرياً من النصرانية فدخل
بلنسية ، وتملكها على حين مهلك صاحبها أبى بكر بن العزيز قبل قليل من حصار طليطلة
(بين يدي حصار طليطلة) .

والحقيقة أن ضياع بلنسية من الفتيان العامرين (الصقالبة) لا يرجع إلى اعتداءات أمراء قشتالة وليون أو أراجون فقط ، على شرق الأندلس (١١) ، وكذلك الأمر بالنسبة لطليلة ، بل وإلى النزاعات الداخلية مع بني هود أصحاب سرقسطة وغيرهم ، ممن كانوا يلجأون إلى ملوك النصارى وأمرائهم عندما يطلب هؤلاء منهم المعونة أو عندما يطلبون هم المساعدة منهم ، حسب مقتضى الأحوال (١٢) . وبذلك لا تقع مسئولية سقوط بلنسية أو طليطلة على صاحبها فقط ، إذ المسئولية تضامنية بين زعماء الطوائف جميعا ، وإن أمكن أن يفرد لصاحبى الثغر الأعلى (ابن هود) والثغر الأوسط (ابن ذى النون) نصيب أكبر من المسئولية ، إذ كان لكل منهما - بصفتها حراس الحدود - تحالفات مع المسيحيين ضد بعضهم البعض ، الأمر الذى كان يندرج بضياع سرقسطة ، عاصمة الثغر الأعلى ومحط أنظار ألفونسو السادس ملك ليون وقشتالة ، كما رأينا (١٣) .

ما بين الوعى والغبوبة :

وبطبيعة الحال لم يكن يخفى على أمراء الطوائف ما يحدث ببلاد المسلمين جميعا ، من الخطر الذى كان يحدث بكل واحد منهم على حدة ، وكثيرا ما كانوا يثربون إلى رشدهم أو ينوءون بشدة وخز ضميرهم ، فيراجعون أنفسهم ، ويرجعون إلى التأزر فيما بينهم للوقوف أمام عدوهم ، ولكننا

(١١) عن تبدل أحوال بلنسية ، انظر زامبارو ، الأسر الحاكمة ، الترجمة ، ص ٨٩ - حيث الإشارة إلى ملك العامرين لها سنة ٤١٢ هـ / ٢ - ١٠٢١ م وفتح السيد القمبيطور - لها سنة ٤٨٩ هـ / ٦ - ١٠٩٥ م وفتحها على يد المرابطين سنة ٤٩٥ هـ / ٢ - ١١٠١ م . وانظر أيضا حتى (فيليب) ، تاريخ العرب المطلول ، ج ٢ ص ٦٤٨ - حيث كان السيد القمبيطور (المبارز) فى خدمة ألفونسو السادس ، ملك ليون وقشتالة ، الذى أقصاه عن بلاده سنة ١٠٨١ م / ٤٧٤ هـ ، وأنه أحرز لقب السيد (El Cid, Mio cid) وهو فى خدمة بنى هود ملوك سرقسطة ، وإن أشهر أعماله هو اقتحام بلنسية سنة ١٠٩٤ م / ٤٨٧ هـ . (١٢) عن الصراع بين بنى هود (بسبب استيلائهم على وادى الحجارة) وبين بنى ذنون أصحاب طليطلة الذين لجأوا آخر الأمر إلى النصارى - انظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٧٧ والصفحات التالية عن غير ذلك .

(١٣) انظر ما سبق ، ص ٢٨٥ . ولا بأس من الإشارة إلى ما تذكره النصوص من قبل ذلك ، عن دخول الكونتات (القومسان) (Comes) إبننا شانجه إلى بلاد ابن هود ، ظاهريا لحساب ابن ذنون (المأمون) ، وعساكر ابن هود يتفرجون عليهم من وراء الأسواء ، إلى أن ينضج محصول القمح فيحصده القشتاليون ، الأمر الذى استغرق مدة شهرين « مما قوى أطماع العدو فيهم ، فامتدت آماله إلى التغلب على كل بلاد المسلمين » - حسبما ينص ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٧٨ .

لما نعرف ان كان ذلك نوعا من خداع النفس ، اذ لا يظهر بينهم من يجعل
«التعاضد فيما بينهم أو التوحد مطلباً في حد ذاته ، وهو الهدف الذي كان
ينادى به أحيانا بعض رجال العلم والسياسة ممن لا يخشون في الدعوة الى
«الصالح العام لومة لائم ، مثل ابن حزم القرطبي ، الذي عاش الفترة الأولى
من عصر الطوائف (١٤) ، فكان محاولة إعادة الوحدة الى الجماعة التي فتتها
«الفتنة قد أصبحت هدفا صعب المنال ، ان لم نقل من المحرمات (١٥) .

فيحيى بن ذى النون عندما حاول التصالح مع المعتضد بن عباد كان
هذا الأخير مشغولا بحرب ابن الأفطس صاحب بطليوس . وعندما تم ذلك
«التقارب أدى الى زيادة تعقيد الموقف ، اذ وثق ابن هود علاقته بنصاري
الشمال وعلى رأسهم فرناندو (فرزند) الذي سينجح في توحيد غاليسيا
وليون مع قشتالة ، وبالغ في اغرائهم بالأموال والهدايا ، تحريضا لهم ضد
ابن ذى النون . وهكذا « خرج فرديناند الى ثغر طليطلة ، فأفنى حماته
«ورجاله وعاث في بلادهم » . وانتهى تكرار تلك الغارات « بفساد بلاد
«الشعر ، وذهاب أموال أهل طليطلة ، واحتماء أهل الريف والضياع حولها
بأسوار المدينة » التي انكشفت ، كما نرى فكانها تهرت من ثيابها أمام

(١٤) انظر ابن عذاري ، ج ٣ ص ٢٤٤ - حيث النص على قول ابن حزم : واجمع
عندنا في صقع الأندلس أربعة خلفاء ، كل واحد منهم يخطب بالخلافة بالموضع الذي هو فيه ،
«وذلك فضيحة لم ير مثيها ، دلت على الأدبار المؤبد . وهم : خلف الحصرى بأشبيلية ،
«ومحمد بن القاسم الحسنى بالجزيرة ، ومحمد بن أدريس بمالقة ، وأدريس بن يحيى بسبته ،
«هذا ، ولو ان ابن حبان - حسيما ينقل عنه ابن بسام في الذخيرة (ق ١ م ١) - وهو يشير
الى ان عصف ابن حزم في عرضه لأرائه انتهى بتماثل الفقهاء على بفضه فردوا قوله ، واجتمعوا
على تضليله وشنعوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من فتنه . . . ، فطفق الملوك يقصونه عن
«قربهم ويسيرونه عن بلادهم . . . وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع الى ما أرادوا (ص ١٦٨)
حتى انتهى الأمر باحراق كتبه . ولا بأس أن يكون من أسباب ذلك « تشييعه لامراء بني أمية ،
«ماضيهم وياقيهم بالشرق والأندلس ، وباعتقاده لصحة امامتهم . . . (ص ١٦٩) .

(١٥) وهنا لا بأس في عرض تلخيص المقرئ لهذا الموقف اذ يقول (نفع الطيب ،
«بيروت ١٩٤٩ ، ج ١ ص ١٩٩) عن ملوك الطوائف انهم : « صاروا يتبسطون للخاصة وكثير
«من العامة ، ويظهرون مداراة الجند وعوام البلاد ، وكان أكثرهم يحاضر العلماء والأدباء ، ويحب
«أن يشهد عنه ذلك عند مباديه في الرياسة . . . وعندما وقعت الفتنة بالأندلس اعتاد أهل
«الممالك المتفرقة الاستياد عن أيام الجماعة ، وصار في كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانها
«الرياسة كما يتوارث ملوكها الملك ، ومرنوا على ذلك فصعب ضبطهم الى نظام واحد ، وتمكن
«العدو منهم بالفرقة وعداوة بعضهم لبعض بقبيح المنافسة والطمع . . . الخ » .

المهاجرين (١٦) .

واضطرب أهل طليطلة الى مراسلة ابن هود يطلبون الصلح ، بينما كانه أميرهم يحيى بن ذى النون يحاول بدوره التحالف مع غارسية أخى فردينان . ومنافسه فى الامارة على غاليسيا . فكان يلاذ بالتفرج جميعا من أعلى وأوسط . قد دخلت تحت حماية دويلات حرب الاسترداد فى الشمال ، وان كان بشكل تبادلى ، بمعنى أن كلا من ابن ذى النون ، وابن هود الخصمين متحالفت مع أمير مسيحي معاد لحليف أخيه المسيحي الآخر . ولقد اعتبر ابن حزم هذا الأمر كرامة أكرم بها الله المسلمين وقتئذ ، والا لما صمدوا أمام الاخوة الأعداء لو اتحدوا (١٧) .

ولكن الذى أضعف موقف يحيى بن ذى النون أكثر ، هو أن أخاه عبد الرحمن (ابن اسماعيل بن ذى النون) كان ينازعه سلطانه وينضم الى جانب الخصوم فكان يدلهم على عورات بلد أخيه ، مما أدى الى سقوط كثير من القلاع المحيطة « بمدينة سالم » بين أيدي الأعداء . وأدى هذا الأمر الى أن حرض يحيى حليفه غارسية بالمسال والدخائر ، على تخريب بلاد ابن هود فيما بين مدينتى تطيلة ووشقة ، وبذلك تم للمسيحيين فتح قلعة من ثغر تطيلة سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م . فكان ذلك يحدث دون محاولة من ابن هود للدفاع عن بلاده ومصالح رعيته ، مكتفيا بالاعتصام بأسوار حصونه ، تاركا الأراضى الزراعية نهبا للعدو . وبدون الأرض الزراعية المحيطة ، ما كان يمكن للقلاع أن تعيش (١٨) .

(١٦) أنظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٧٨ - حيث دعت الضرورة ابن ذنون الى مخالفة المعتضد بن عباد ، ص ٢٧٩ - حيث مظاهرة سليمان بن هود النصارى ، من : فردينان (فردلند) بن غارسية ، وردمير بن شائجة بن غارسية ، وهم الاخوة الذين كان بينهم من التنافس والتباعد والعداوة والحرب أشد ما بين آبقين (ص ٢٧٩) . ومع ذلك فقد « صب » الله على أهل الثغور من الجبن عن العدو ما لا كفاءة له ، فلا يكاد أحد منهم يلقى نصرانيا فى قرار من الأرض الا ويولى الدبر غير مستحيين من الله سبحانه من الفرار أمامه ... (ص ٢٨٠) .

(١٧) أنظر ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ م ٩ ، ص ١٨٤ - ١٨٥ - حيث النص : « وكان من أعظم ما حبا الله به الاسلام يومئذ عندما بعث فتنتهم (النصارى) ومحدث فرقتهم ، ونشئت كلمتهم ، والفاقرة بين من أنظر منهم الشتات والعداوة حتم . صاروا أسدة المسلمين حدو النعل بالنعل فى اقتراق الكلمة وزوال أمر المملكة ، فان الفتنة باقنا جاءت يومئذ من المسلمين وزعماء الطائفة حضور وفيهم عمو الله شناعة ابن فردلند ... الخ » .

(١٨) أنظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٨٩ .

وعندئذ يتلخص الموقف بين ملوك الطوائف المسلمين على الحدود الشمالية وبين جيرانهم ملوك أسبانيا المسيحية ، فى أن الاسبان كانوا يمثلون طبقة عسكرية خشنة من أهل الجبال ، صناعتهم الحرب ، كالفاتحين العرب الأوائل . فهم يعيشون اما على غزو الأراضى الإسلامية الحصنة ونهبها ، واما على ما يدفعه ملوك الطوائف من الاتوات السنوية لهم . بينما كان المسلمون فى الجانب الآخر ، مثلما كان أهل البلاد من الاسبان وقت الفتح ، اما زراع أو صناع يقضون وقتهم فى العمل من أجل الرزق ، ثم انهم يهبون للدفاع عن بلادهم اذا تطلب الأمر ، الى جانب قوات أمرائهم الذين كانوا قد فقدوا كثيرا من خشونتهم العسكرية بانصرافهم الى اللهو واللعب منذ مدة ، واستكانوا الى دفع الجزية (١٩) .

وهكذا بينما كان يحيى بن ذى النون يحاول الدفاع عن أطراف مملكته فى مدينة سالم خرج فرديناند ، حليف ابن هود ، وبصحبه ابن عم يحيى ومنافسه ، نحو بلاد طليطلة ، ففرت أمامه جموع أهلها نحو المدينة التى نصت بهم فاضطربت أحوالهم (٢٠) . وعندما راسله أهل طليطلة من أجل الصلح ، اشتط فى شروطه وتعسف . وعندما هددوه بالاستعانة بالمرابطين « البربر » أفهمهم أنهم لا يستطيعون ذلك بسبب ما كان بينهم من المراء . وأخيرا كشف لهم عن أهدافه النهائية وهى : استرداد البلاد منهم ، وعودتهم الى بلادهم الأصلية فيما وراء العدو . والمهم أن ذلك حدث قبل ٤٠ « أربعين » سنة من سقوط طليطلة (أى سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م) كانت الأحوال بعدها قد ازدادت سوءا . فعندما توفى سليمان بن هود ، وتنفس يحيى بن ذى النون الصعداء ، كان كل همه الطمع فى أملاك بنى الأفطس ففى بطليوس ، الأمر الذى أدى الى سوء العلاقة بينه وبين المعتمد بن عباد ، الذى ضم قرطبة الى مملكته (اشبيلية) بناء على طلب أهل قرطبة (أهل

(١٩) انظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٥٠ - حيث التدليل على اختلاط الأمور مع قيام عصر الطوائف - بعد قصة سخوية ابن حزم من وجود ٤ خلفاء ، دفعة واحدة على أيامه (ص ٢٨٩ وهـ ١٤) برواية تنسب الى أبى الوليد بن جهور ، صاحب قرطبة انه قال : وردت على من الكتب فى يوم واحد : كتاب من ابن صمادح صاحب المرية ، يطلب جارية عوادة ، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة ، وكتاب من لقوط (سكوت : سراجات) صاحب سبتة (مولى يحيى بن على بن حمود) يطلب قارئا يقرأ القرآن ، ويظهر أبو الوليد حبه من ذلك ويقول (بلسان الواعظ) : جاهل يطلب قارئا ٠٠٠ وعلماء يطلبون الأباطيل . (٢٠) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٨٩ .

الجماعة) ، بعد ما تناول ابن ذى النون عليهم وجاهل أخير مدينتهم (٢١) .

أما عن آخر بنى ذى النون وهو القادر بالله (حفيد الميامون : يحيى ابن اسماعيل بن عبد الرحمن بن زنون) فهو ناعم لين الجانب . يصفه ابن بسام بأنه أجبن من قبره : ان حزم لم يعزم وان سد لم يلحم (٢٢) . وفى مقابل هذه الشخصية الضعيفة الجسم ، الكثيرة المرض ، كان الطاغية أذفنش (الفونس السادس) يظهر لوفود الطوائف ، ثائر الرأس ، كريمة الوجه ، خبيث النفس ، وسخ الثياب ، درن الأظفار (٢٣) . وهكذا لم يقتنع أهل طليطلة بملكهم المترفع ، لولا فقيهم ابن الحديد الذى كان ما يزال يترأس أهل الحل والعقد ، والحقيقة ان السبب المباشر فى ضياع طليطلة هو ما قام به القادر بالله من الحماقة عندما عول على أن يقبض على مقاليد الأمور بكتلتا يديه ، فتخلص من أبى بكر بن الحديد بطريقة مأساوية ، إذ قتل زعيم أهل طليطلة ، وهو يتعلق بأذياله مستجيرا به دون جدوى .

وهنا انحلت أمور طليطلة ، وكانت قيامة أهلها الذين تأمروا مع المتوكل ابن الأفطس سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٧٩ م ، مما أدى الى فرار ابن ذى النون من طليطلة نحو كونكة (Cuenca) على عجل ، وخروج زوجته العامرية وابنته من المدينة راجلتين . وكان من الطبيعى أن يؤدي ذلك الى تدخل ألفونسو السادس ، حامى ابن ذى النون ، اعتبارا من سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م الى أن انتهت المطالبة بينه وبين الطليطليين الى الاستيلاء على المدينة .

(٢١) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ - حيث دوام الفتنة بين ابن هود وابن ذى النون من سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٦ م الى ٤٣٨ هـ / ١٠٥٩ م - وحيث طلب صاحب قرمونة (من بنى برزال) المعونة من ابن ذى النون ضد ابن عباد الذى كان قابضه عنها (قرمونة) بحصن المدور . وكيف ان ابن عباد طلب من ابن ذى النون الموافقة على أخذ ، قرمونة مع الإيحاء له بأخذ قرطبة فى نظير ذلك ، ولكنه غدر به ولم يوف له بشئ .

(٢٢) الذخيرة ، ج ٧ ص ١٤٢ - هذا ولا بأس من الإشارة الى ان ابن بسام يعتبر جده : اسماعيل (ناصر الدولة) : رئيس الخلاف ورأس الانحراف ، وأنه كان أول الشوار المفاخرة للجماعة وأنه صار جرئومة النفاق ، وأول من استن سنة العصبان والنفاق من حيث : رفض طاعة بنى أمية اذ كان يقول : « أحقهم بالملك من استتمل به والله ما أولى غير نفسى » .

(٢٣) ابن بسام ، الذخيرة ، ج ٧ ص ٤ م ٢ ، وقارن ق ١ م ١ ، ص ١٨٤ - حيث وصف شانجه بن غرسية ، ملك قشتالة ، الذى رأى الكاتب أبو أمية بباب تطيلة يلبس ثيابا من ثياب المسلمين ، مع رجولته وكمال أدواته ، فلا يعدل الا صهره وسميه : شانجه ابن غرسية صاحب البشكنش .

فى سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، بعد أن أزهقهم بالضرائب ، وروعهم بالترهيب .
وكان الايدان بسقوط المدينة عندما دخل المدينة المصورة العجيبة ، التى
كان المأمون ، جده ، قد جلب اليها كل حسن ، فاتخذ عروشها مرابط
لأفراسه وايوناتها ملاعب لأراذله وأرجافه (٢٤) .

واذا كانت الرواية تلقى بكل التبعية على أمير طليطلة المترف المسرف ،
الذى كانت تميد الأرض تحت قدميه ، وهو مع ذلك يمسك الأصطرلاب
بيده ليرى فيه أى وقت يرحل ، وعلى أى شئ يعول ، وأى سبيل يتمثل ،
والناس من نصارى ومسلمين يضحكون من فعله ويتعجبون من جهله (٢٥) .
ولكن هذا لا يعنى كما قلنا ابتداء ، أن يلقي بالمسئولية جميعا على كنفى
الرجل الضعيف ، فالخطيئة هى نتاج عصر بأكمله ، والمسئولية تضامنية
يشترك فيها كل ملوك الطوائف ، بل كل أفراد العصر ، لا يتنصل من
تحملها أحد ، كبر أم صغر - فهذه أمثلة التاريخ ، وهى أمثلة أيا منا
هذه .

التدخل المربطى فى الأندلس :

عملية الانقاذ المرابطية ، ما بين الأمانة والواقع :

كان سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) اذن ، بمثابة نذير لكل
مسلم على كل من ضفتى العدو (المجاز) وليس بالنسبة لأهل الأندلس
وملوك الطوائف فقط ، بأن أراضى المسلمين فى شبه جزيرة ايبيريا أصبحت
فى مهب الريح ، وأن عملية الانقاذ أصبحت أكبر من أن تقف على كاهل
الأندلسيين وحدهم ، من العرب والبربر والمولدين ، ممن حافظوا على نقائهم

(٢٤) ابن بسام ، الذخيرة ، ج ٧ ص ١٥٢ - ولا بأس من الإشارة هنا الى ما نقله
الرواية عما أنفق المأمون فى بنان مجده الفاخر المعروف « بالمكرم » من الكنوز التى
جمعها والده اسماعيل ، وما كان يتحمله فى سبيل ذلك من مضايقات صانعه الفنان المتعرج
دون أن يبالي بما كانت تعرض له بلاد ابن الأفطس من غارات فريناند المدمرة . وفى ذلك
كان وزيره يقول : انه لم يكن يدري من أى الثلاثة يعجب ، من : ابن ذى النون أم من
نفسه (أى الوزير) لخدمته مثله ، أم من جراءة الصانع على ابن ذى النون (الذخيرة ،
ق ٤ م ١ ، المجلد ٧ ، ص ١٢٩ - ١٤٧ . وعن اختلاف الرواة فى تحديد تاريخ سقوط
طليطلة وغزوة الزلاقة أنظر : حسن أحمد محمود ، قسام دولة المربطن ، ص ٢٨١ - حيث
الإشارة الى أن آخر النقود التى ضربت فى طليطلة الإسلامية كانت تحمل تاريخ ٤٧٨ هـ .
(٢٥) ابن بسام ، الذخيرة ، ج ٧ ص ١٦٦

العرقي أو ممن اكتسبوا الطابع المحلي فأصبحوا أندلسيين أولا وقبل كل شيء - عن قصد أو عن غير قصد . وهذا هو السند الذي كان يتكئ عليه ملوك الطوائف ، على ألوانهم العرقية ، في تمسكهم بالاستقلال دونما نظر إلى تميز العروبة أو التمسك بالقرشية . وهذا الاتجاه الوطني الأندلسي الذي استفحل كرد فعل لمجيء دفعات المغاربة الجدد من الصحراويين المرابطين ، ومن بعدهم الجبليين الموحيين حتى الوطنية الأندلسية في العصر الموحي ، هو ظاهرة لا تخفى على أحد بظهور قادة محليين لحما ودما ، مثل ابن ممشك أو ابن مردنيش ، فكأن حركاتهم لمن البشائر المبكرة لوطنية العصور الحديثة .

طلب النجدة من يوسف بن تاشفين ، ما بين القبول والرفض :

وهكذا ، فرغم الحاجة الملحة إلى نجدة المرابطين التي كانت تملئها الأخوة في الدين والمصالح المشتركة بين الأندلسيين ، من عرب وبربر وموالي ، فإن مصالح الطوائف الخاصة كانت تمنع من ذلك إلى حد كبير . وهذا ما عرفه الفونسو عندما هدد ، أهل طليطلة بالبربر (المرابطين) فأكد لهم أن الفرقة بين الطائفتين لا تسمح بذلك (ما سبق ، ص ٢٩١) . وهذه الفكرة هي التي تعبر عنها رواية أن خلكان التي تقول أن يوسف بن تاشفين عندما تاق إلى العبور إلى جزيرة الأندلس (دون دعوة) ، فأنشأ الشواني والمراكب للعبور ، كره ملوك الأندلس أن يصبحوا بين عدوين : الفرنج شمالا ، والملثمين جنوبا . هذا ، في الوقت الذي كانوا يخوفون الفرنج بيوسف بن تاشفين (٢٦) ، فكأن الاستعانة بالمرابطين كانت مجرد تمويه ليس إلا .

والذي يظهر في رواية ابن الأثير هو أن ملك الفرنج لطليطلة أساع الخوف (بين ملوك الطوائف) من غلبة النصاري على كل البلاد ، وأنهم عندما تطلعوا إلى النجدة من البر الأفريقي ، دار بخلوهم الاستعانة أولا بعرب إفريقية (من هلال وسليم) ولكنهم خافوا منهم (٢٧) بسبب فسادهم الذي كان قد ذاع على السنة شعراء القيروان في العولة الزيرية ، في كل من صقلية والأندلس (ج ٣ ص ٤٢٧ - ٤٢٨) .

(٢٦) وفيات الأعيان ، ملحق ابن عذاري ، ج ٤ ص ١١٢ .

(٢٧) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥١ .

والحقيقة أن التفكير في الاستعانة بالعرب أولا : يمكن أن ينسب الى آل عباد باشبيلية من حيث انهم من أرومة عربية عريقة (٢٨) . وعلى هذا الأساس تصبح مقولة أن المعتمد بن عباد كان أول من فكر في الاستعانة بمسلمي المغرب مقبولة من حيث المبدأ ، الأمر الذي تؤيده فكرة أنه كان أولى ملوك الطوائف وأحقهم في استيعاب فكرة الوحدة الأندلسية المتقدمة أو الاتحاد ، وهي التي ترمز اليها مدينة أهل الجماعة قرطبة العتيقة ، التي كانت قد انضمت الى أملاك أشبيلية ، بعد قرمونة (ما سبق، ص ٢٩١-٢٩٢) . هذا ، وإذا كانت مقولة المعتمد بن عباد : أن رعى الجمال في صحراء الملثمين أحب اليه من رعى الحنازير في جبال غاليسيا وقشتالة (٢٩) ، تعني الشجاعة المعنوية والتضحية من جانب الأندلسي : سليل الرفاهية والعلم ، فانها تعنى في ذات الوقت منتهى اليأس من فكرة الخلاص كنتيجة محتملة لعملية الانقاذ المرابطية (٢٩ م) . والمهم أن سفير المعتمد بن عباد الى يوسف بن تاشفين فيما وراء العدو ، كان قاضي قرطبة : ابن أدهم (عبد الله بن محمد) (٣٠) ، سليل قضاة الجماعة (في قرطبة عاصمة الخلافة) - فكانه رمز الوحدة في عهد الطوائف والفتنة (٣١) .

(٢٨) ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٩٣ .

(٢٩) وفيات الأعيان ، ملحق ابن عذارى ، ج ٤ ص ١١٤ - حيث ابتداء النص بأن المعتمد عرف ان الفرنج والملثمين ضدان له ، ولكن الملثمين أهون .
(٢٩ م) أنظر للمؤلف ، عملية انقاذ المرابطية للأندلس ، ندوة الأندلس بكلية الآداب بالاسكندرية ، ١٩٩٣ .

(٣٠) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٩ .

(٣١) وقارن الروض المطار ، عن الزلاقة (ص ٨٣ وما بعدها) ، وملحق ، البيان ، ابن عذارى ، ج ٤ ص ١٣٠ وما بعدها - حيث استعانة المعتمد بيوسف بسبب سوء العلاقة مع ألفونسو الذي اشتط في مطالبه المالية والاقليمية الى جانب ما تقوله القصة الشعبية من طلب السماح لزوجه بأن تلد في المسجد الجامع في موضع الكنيسة القديمة ، الأمر الذي أدى الى ثورة ابن عباد الذي أقدم على قتل سفير ألفونسو اليهودي (الذي قد يبرر ظهور أسطورة الولادة) مما جعل ألفونسو يهدد بغزو قرطبة ، وهو السبب المباشر للاستعانة بابن تاشفين . وكان مما جذر به من ملوك الطوائف ابن عباد من يوسف قولهم له : « السيفان لا يجتمعان في غمد واحد » . وكانت السفارة التي كونها ابن عباد للقاء يوسف تتكون من قاضي بطليوس وقاضي غرناطة ويرا سهما ابن أدهم ، قاضي الجماعة بقرطبة ، وهؤلاء لوعظ يوسف وترغبه في الجهاد ، وأضاف اليهم الوزير ابن زيدون ، فنيا لابرام العقود الرسمية (السلطانية) . مع الاشارة الى الوفود الشعبية التي أتت الى يوسف من تغور الأندلس مستعطفين ، باكين ، مستنجدين . وقارن النويري ، أبو صيف ، ص ٥٨ وما بعدها - حيث تسلط ألفونسو بعد أخذه طليطلة ، ومطالبته بأخذ الحصون فلا يهتدى لابن عباد الا السهل . اما عن سفير ألفونسو فكان وزيره اليهودي شليب ، ومعه ٥٠٠ فارس ، =

ويتضح من هذا العرض أن ملوك الطوائف بالأندلس كان لهم موقفهم الحذر من دعوة المرابطين الى مساعدتهم في الحد من خطورة حرب الاسترداد المسيحية ، وأنهم لم يفضلوا « رعى الجمال على رعى الخنازير » بمعنى الخضوع للاخوة الأعداء من البربر المرابطين الا تحت ضغط العامة من أهل الأندلس . وهؤلاء كانوا يستجيبون لتوجيه قيادتهم الروحية الممثلة في العلماء ورجال الدين ، الى جانب أهل الثقافة والأدب من الشعراء والزجالين والقصاصين . أما عن المرابطين في المغرب فكان تمددهم نحو الأندلس أمرا طبيعيا . حسبما كانت تمليه طبيعة الأحوال هناك .

فتح سبتة وعمور يوسف بن تاشفين الى الأندلس :

٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م - ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م :

سبتة :

إذا كان الشائع لدى مؤرخي الدولة المرابطية أن عبور يوسف بن تاشفين الى الأندلس (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م) يرتبط بشكل عام بفتحه لمدينة سبتة (قلب العدو والمجاز) التي يرتبط فتحها بدورها المتعلق بسقوط طليطلة على يدى الفونسو السادس (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) فان تداعى الأحداث يجعل فتح سبتة تاليا لفتح طنجة (٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م) الذى واكب غارة ألفونسو السادس الكبرى حتى طريقة (ما سبق ، ص ٢٨٥) . وهكذا

= وكان يطالب بـ ١٢ ألف دينار ، ففرقهم المعتمد وقتلهم ، كما قتل اليهودى ضريا بالنمال المسيرة حتى خرجت عيناه . وعن فقهاء قرطبة الذين كانوا يخشون ضياع بقية مدن الأندلس ، فانهم ساروا الى القاضى ابن أدهم يعلمونه بما هم فيه من الدلة . . وطلبوا منه الكتابة الى عرب أفريقية ليصلوا اليهم على أن يقاسموهم فى أموالهم ، والخروج معهم مجاهدين . ولكنه عندما أعرب عن خوفه من أن يخربوا الأندلس ، واقترح مكانة المرابطين وافقوا على أن يأتى يوسف بن تاشفين اليهم .

ووافق المعتمد على مقترحانهم تلك . ونم ارسال القاضى اليه مع الكاتب ابن القصيرة . وقارن القرطاس ، ص ١٤٤ - حيث كتب أمراء الأندلس ورؤساؤها الى يوسف يستنصرونه ، ويطلبون منه الجواز الى الأندلس ، مع اضافة ان المعتمد عبر بنفسه الى يوسف الذى طلب منه العودة للاستعداد ، وانه يأتى فى اثره . وأنظر ص ١٥٩ - قصة مسير المعتمد الى يوسف فى شكل أسطورة ، يفاجأ فيها يوسف حتى يظن ان ابن عباد أتى اليه بعساكره أو أساطيله ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٦ ، والترجمة ، ص ٧٧ - حيث كان حصار سرقسطة سبب مخاطبة المعتمد ليوسف لينجز وعده ، وصريح الاسلام بالعدوة . كما كاتبه أهل الأندلس كافة من العلماء والخاصة - وهو تلخيص مستوحى من رواية القرطاس المتميزة عن المرابطين .

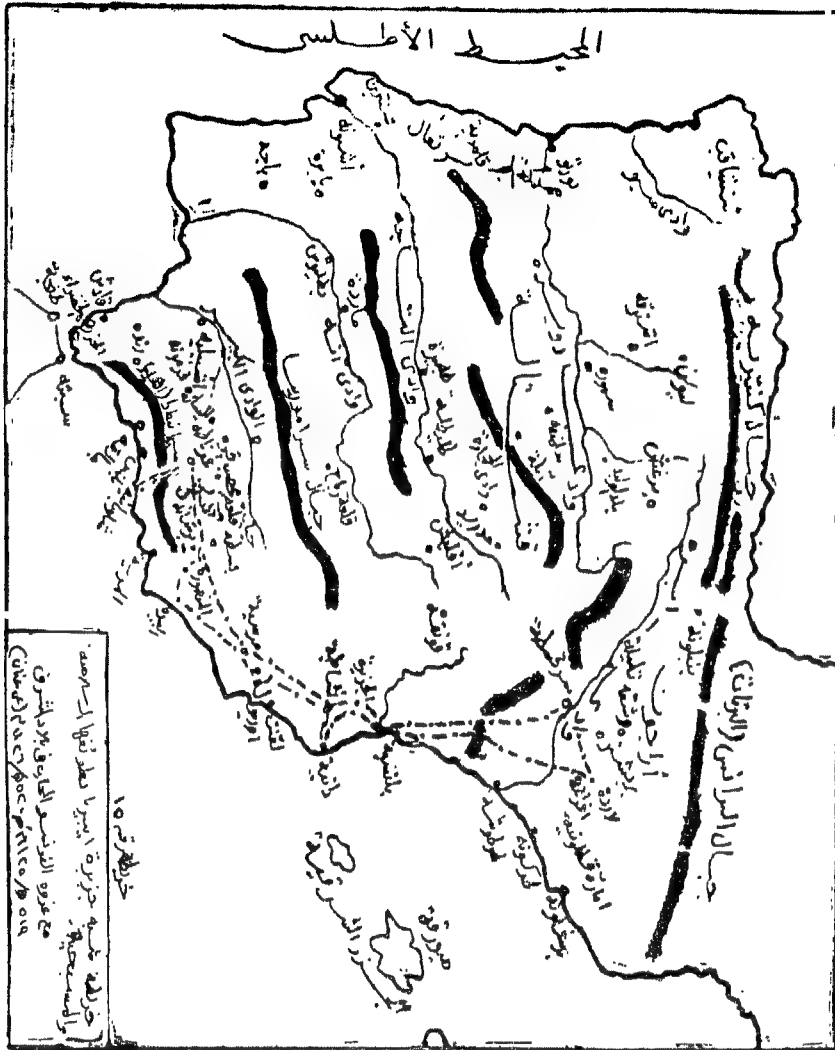
تصبح رواية ابن أبي زرع التي تقدم لنا التاريخ المقبول لفتح المرابطين لسبته ، وهو : شهر ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ / يولييه ١٠٨٤ م ، في حمية المفاوضات التي كانت دائرة بين يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف من ناحية ، وبين وفود الأندلس الشعبية وبينه من ناحية أخرى ، مقبولة . وكان ذلك الفتح على يدى ولده المعز الذي حاصرها بجيش عظيم حتى استسلمت . ووصل كتاب الفتح من المعز الى والده يوسف وهو مقيم بمدينة فاس ، « ينظر في أمر الجهاد ويستنفر له قبائل العرب » ، وان كانت الرواية تستطرد قائلة « ففرح (يوسف) ، وخرج من حينه نحو سبته ليجوز منها الى الأندلس » ، فكانها تربط بشكل تلقائي فتح سبته (٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م) بالجواز الى الأندلس (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م) - الأمر الذي يغفر لابن أبي زرع (٣٢) . ويرجح صحة فتح المرابطين لسبته قبل سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) ، أن وفد المفاوضات الأندلسيين الذي أسرع نحو العدو بعد سقوط عاصمة الثغر الأوسط ، وجد ابن تاشفين مقيما بسبته (٣٣) .

وهكذا عندما أتت الى يوسف بن تاشفين وفود ثغور الأندلس مستعطفين باكين اثر سقوط طليطلة (ص ٢٨٦) ، وقرر يوسف الاستجابة لندائهم كانت سبته في حوزته منذ أوائل سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م . وكان فتح المدينة قد تم بصفة مشروعة ، بناء على فتوى الفقهاء بجواز قتال صاحبها (ابن لكوث - ص ٢١٦) بناء على امتناعه عن فتح المجاز أمام المجاهدين . وبذلك تم اقتحام سبته من قبل الجيش المرابطي الذي كان على أهبة الاستعداد للعبور ، وذلك بمساعدة الأسطول وبمعاونة محسوبة من أسطول ابن عباد (٣٤) ، بعد أن تم اجماع الأندلسيين على طلب المعاونة ، منذ اختراق

(٣٢) أنظر الفرطاس ، ص ١٤٤ - حيث وضع فتح طليطلة سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م فكانه فتح سبته ، وحيث عزم الفونسو السادس على دخول سرفسطة بعد أن ملك طليطلة . والصحيح انه كان بعد الغارة الكبرى على طريفة (ما سبق ص ٢٨٥) .

(٣٣) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٢ .

(٣٤) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٢ - حيث الإشارة الى عبور يوسف مع من طلبه من العساكر من مراكش واقبالها ، وقارن النويري ، أبو ضيف ، ص ١٥٩ - حيث الأخذ عما نقله ، أهل التاريخ عن القاضي ابن القصيرة ، وفيه أن يوسف كان ينظر في سبته مجيء بقية العساكر ، وأنه دخل في آخر فوج منها . الى جانب تلك الرواية التي تقول بأنه (يوسف) فوجيء بدخول ابن عباد عليه بسبته حتى ظن فزعا انه (ابن عباد) جاء بعساكره ، مما يعني أنه كان قد جاء مع مراكبه معاونة ليوسف ، مما سبق الإشارة اليه (ص ٢٩٦ وهـ ٣٠) .



خريطة رقم ١٥ - شعبه جزيرة يبيريا بطوائفها الاسلامية والمسيحية - مع غزو الفونسو المحارب في بلاد الشرق (٥١٩ - ٥٢٠ هـ / ١١٢٥ - ١١٢٦ م)

طريفه - بحسن نية من كلا الطرفين : المرابطى والأندلسى ، أم بغير
حسن نية .

العبور :

ربيع الأول ٤٧٩ هـ / يونيه ١٠٨٦ م :

فى هذه الظروف المشوشة بالنسبة للأندلسيين على الأقل ، وفى يوم
الخميس ١٥ ربيع الأول ٤٧٩ هـ / ٣٠ يونيه ١٠٨٦ م كان عبور طلائع
القوات المرابطية من ساحل سبتة دون عوائق ، لكى تنزل فى الجزيرة
الحضراء ، حيث لقيت استقبالا حارا من أهلها الذين قدموا لهم الأقوات
والضيافات (٣٥) . وهنا يمكن التفكير فى أن العبور كان عبثا على أهل
العدوة الأندلسية ، وهو الأمر المقبول ، اضافة الى ما كانوا يقدمونه من
المعونة لضعفاء المطوعين والمساعدة . هذا ، ولو أن أهل المنطقة كانوا
يستفيدون أيضا من وجود هذا العسكر الكثيف ، من حيث اقامة الأسواق
لهم ، وفيها يعرضون عليهم ما كانوا يحتاجون اليه مما عندهم من السلع :
استهلاكية كانت أم حربية معمرة (٣٦) ، الأمر الذى كان يؤدى الى رواج
التجارة الداخلية ويساعد بالتالى على زيادة الانتاج .

ومن الجزيرة الحضراء ، واصلت القوات المرابطية مسيرتها شمالا ،
جيشا وراء جيش ، وقبيلة بعد قبيلة (٣٧) . وكان عبور الجيوش المرابطية

(٣٥) ابن عذارى ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ٣٣ . وهنا لا بأس من الإشارة الى ان
رواية القرطاس (ص ١٤٥) تشير الى ان ابن عباد وجميع أمراء الأندلس ورؤسائها كانوا
فى استقبال يوسف بن تاشفين ، وهو الأمر المستبعد اذ كان يكفى أن يكون ابن المعتمد (والى
الجزيرة الحضراء) فى استقبال يوسف بينما يكون الأمراء الآخر مشغولين باعداد الجيوش
وتجهيز المؤن اللازمة للحشود . وشبهه بذلك ما تشير اليه رواية الحلل الموشة (ص ٤٩)
من نزاع قام بين يوسف وابن عباد بشأن تملك الجزيرة الحضراء (مجاز العدوة الأندلسية)
فياسا على تملك المرابطين سبتة ، وهو الأمر غير المناسب فى هذا الوقت (وأنظر يوسف
حوالة ، بنو عباد ، ص ٢٨٦ وما بعدها) .

(٣٦) ابن عذارى ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ١٣٣ - حيث النص على خروج أهل الجزيرة
الحضراء ، واقامة السوق فى السباط ، مع الاذن للغزاة فى دخول البلد حيث امتلأت المساجد
والرحبات بضعفاء المطوعين الذين تواصى أهل المدينة بهم جدا .

(٣٧) ابن عذارى ، (ملحق ٢) ، ص ١٣٣ ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٤ - حيث
النص على انه لحقت ببوسف فى سبتة العساكر والجنود ، وقدمت عليه الوفود ، وأباء من
بلاد الصحراء والفيلة والزاب ، والقبائل والحشود فشرع فى تجهز الحوش الى الأندلس الى =

الكثيفة في الأراضي الإسلامية بالاندلس يمثل عبثا اضافيا على كل حال ،
بالنسبة لأهل البلاد الذين كانوا يقاسون من اجتياحات فرسان النصاري
وجولاتهم الحربية من ردية وتخريبية • فبينما كان ابن عباد يبعث ابنه
الى لقاء يوسف ، كان عمار البلاد يجلبون الأقوات والضيافات التي كان
ينوء بحملها أهل البلاد ، وان لم يمنع ذلك من سرور المرابطين بها (٣٨) •

التصنيف الأندلسي المرابطي ورد الفعل الأسباني المسيحي :

التهديد لمحركه خاصة :

ولهم ان السقاء بين ابن عباد وابن ناشفين ، وسط وجوه اصحابهما ،
كان محبرا عن الود والصدقة ، التي تأللت عند انفرادهما بالمصافحة
واصنام ، والنعاقد على الصبر والرحمة • وكان المعتمد بن عباد قدوة لبقية
ملوك الطوائف الذين خرجوا برجالهم وعانوا بأموالهم (٢٦) وكان من
الطبيعي ان تثير حشود المرابطين والاندلسيين المتحالفه تأثرة الفونس
السادس (ابن فرذلند) واشفاقه ، فقام بدعوة جميع المحاربين من اهل
بلادهم وان لرجال الكنيسة من القسيسين والأساقفة ، وكذلك رهبان
الأديرة ، دورهم في التحريض على الانخراط في صفوف القوات المسيحية ،
من : غاليسيا غربا (الجلالة) الى أراجون (أرغونة) شرقا (٤٠) •

وتعبر روايتنا العربية عن قوة الجبهة المسيحية ، حيث يظهر ألفونسو
السادس (ابن فرذلند) الذي يستحق ان يلقبه المسلمون « بالطاغية » ،
وكأنه صاحب شبه الجزيرة الايبيرية جميعا ، بكل أراضيها من مسيحية في
الشمال حيث كون نواة دولة اتحادية كبرى من : قشتالة وغاليسيا وليون ،

= جانب الإشارة الى ان الجيش حوى الى جانب الأندلسيين من الرجال الصلحاء أيضا ، من الذين يعتبر
ابن تاشفين واحدا منهم • وفي ذلك يقال ان يوسف دعا : « اللهم ان كنت تعلم ان جوازي
هذا حيرا وصالحا للمسلمين فسهل على جوار هذا البحر ، وان كان غير ذلك فصعبه - سي
لا أجوزه » •

(٣٨) أطر فيما سبق ص ٢٩٥ وه ٢٩٩ م - عن تعبير الأندلسيين عن ضيق بلادهم عن حمل
العساكر الكثيرة ، وانظر البيان ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ١٣٣ - حيث النص على أن يوسف
ابن تاشفين كان يسر بهذه الضيافات ، وبهدايا ابن عباد والطافه ، مما كان يرد الى معسكر
يوسف (محلته) - الأمر المقبول بالنسبة للمجاهدين المغاربة في غربتهم •

(٣٩) البيان ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ١٣٣ - ١٣٤ •

(٤٠) البيان ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ١٣٤ •

فأصبحت تنور في فلكها بقية الإمارات الصغيرة ، أو اسلامية في الجنوب ، خاضعة لدفع الاتاوة السنوية من المال والقلاع ، ابتداء من الثغر الأعلى حيث بنو هود في سرقسطة (أقوى امارات الثغور) ، وانتهاء بأشميلية دولة بنى عباد (أقوى ملوك الطوائف) أصحاب قرطبة . وبالتالي أصبح هو كانه صاحب الحق الشرعي في إعادة الوحدة المفقدة الى البلاد - الأمر الذي كان يتطلب حتما ، عملية الانقاذ المرابطية (٤١) .

والحقيقة ان مبادرة الفونسو السادس الى لقاء الحلفاء المسلمين حيث تجمعوا في عقر دارهم ، تعني أنه كان على ثقة من النصر ، الأمر الذي أراد أن يحققه أيضا باللجوء الى الحرب النفسية التي قد تضعف من معنويات المسلمين ، عن طريق التهديد بقواته التي لا تقهر (٤٢) . ولا بأس أن يكون المسلمون قد قاموا بدورهم بحرب نفسية مضادة ، فهذا ما يمكن أن يفهم من الرواية التي تنسب الى ألفونسو السادس رؤيا ركوبه الفيل ونقره الطبل (على طريقة السودان) فكأنه أبرهة الواثق من انتصاره ، ونهايته الفاجعة ، كما في سورة الفيل (٤٣) .

(٤١) وهنا لا بأس من الإشارة الى ما تقوله بعض المصادر من أن ألفونسو السادس عندما سمر بفرسه على كل الملوك من مسيحيين ومسلمين تلقب بالامبراطور (أمير المؤمنين) ، بل وسمى نفسه ورئيس الملتعن المسيحية والاسلامية ، أنظر الحلل المشوية ، ص ٤٠ ، وأنظر ابن الكردوس ، ص ٨٨ - ٨٩ ، ويوسف بن أحمد حوالة ، بنو عباد ، رسالة ماجستير من جامعة الملك عبد العزيز ، ص ٢٦٢ .

(٤٢) البسان ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ١٣٤ - حيث النص على أن ألفونس برز بالمختار من أنجاد جموعه ، وقال بهؤلاء أقاتل الجن والانس وملائكة السماء ، وبناء على تلك المقولة قدرت الرواية العربية قوات ألفونس بـ ٤٠ (أربعين) ألف فارس منقلين بالديد (دارع) ، لكل واحد منهم نايح أو اثنا ، فكان اجمالي عددهم ١٠٠.٠٠٠ (مائة ألف) رجل يزيدون قليلا أو ينقصون - الأمر الذي يشكك فيه صاحب الرواية عندما يقول ان النصر ينعجبون ممن يقول ذلك . كان المسلمين يبالغون في تقدير القوة المسحبة ، وان ختم بقوله ان المسلمين كانوا أقل من المشركين (على كل حال) ، وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٣ - حيث النص على أن الفرنج كانوا في ٥٠ (خمسين) ألفا ، وأنهم عندما اجتمعوا نحت قيادة الأدفنش ، قال : « بهذا الجيش ألى إله محمد » ، وأنظر النويري ، أبو ضيف ، ص ١٦٠ - حيث النص على أن حش ألفونس بلغ ٤٠ (أربعين) ألف فارس .

(٤٣) القرآن ، سورة الفيل ، آية ١ ، وذلك أثر المراسلات التي تمت بين ألفونس السادس وبين يوسف بن تاشفين ، والتي أساء فيها الملك الفرنجي ، المغتر بقوته الى « أمير المسلمين على لسان بعض أدناء المسلمين » فأمر يوسف كاتبه (أبا بكر بن القصير) بأن يختصر أجابه عليه في ظهر كتابه ، في جملة واحدة هي : « الذي سيكون ستره » - تعبيراً =

هذا ، ولا بأس أن تكون قصة عبور الجمال الى الأندلس التي أمر بها يوسف بن تاشفين ، بعد جوازه ، والتي يوردها ابن خلكان ، ضمن الحرب النفسية التي شنّها المرابطون أيضا على الاسبان(٤٤) ، اذ المعروف أن المرابطين لم يستخدموا الجمال في فتوحهم ، خارج الصحراء الا في حمل المتاع ، وربما الطعام ، فال معروف أن الحصان هو آلة الحرب بالامتياز في بلاد الحضر ، وهذا ما حدث منذ بدء حرب السوس الأقصى ، ومن ثم في سائر بلاد المغرب حتى الواحات . ومن الواضح أنه لا ذكر للجمل اطلاقا في الموقعة التي ستدور بين الطرفين فيما يأتي سرده .

والحقيقة أن الرواية المتزنة هي التي تقول ان هدف الفونسو السادس عندما قرر المسير الى لقاء المسلمين في عقر دارهم ، كان الحرص على حفظ بلاده من ويلات الهزيمة ، اذا كانت الدائرة عليه(٤٥) - وهذا لا يمنع بطبيعة الحال من الاعتراف للرجال بالجرأة والمعنويات العالية ، رغم سمعة المرابطين التي كانت تدوى فيما وراء المضيق ، ربما للثقة في عدم خلوص النوايا في الجانب الاسلامي .

موقعة الزلاقة (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م) في بطليوس :

ميدان المعركة : ما بين التلقائية والاختيار :

وفي تكييف أوضاع اللقاء بين الفونسو السادس قائد الحلف الاسباني المسيحي ويوسف بن تاشفين قائد الحلف الأندلسي - المغربي الاسلامي نرى أنه تم بايقاع سريع خلال عدة أشهر من ربيع الأول (يونيه) حيث بدأ

= عن الثقة في حكم الله وقضائه . الامر الذي اوتاع له الادفنش فكانت للرؤيا التي حطمت معنوياته ، عندما عرف تفسيرها من بعض المسلمين ، ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٣ ، وقارن النوبري ، اهر ضيف ، ص ١٦٠ - حيث اضافة بيت الشعر :

ولا كتب الا المشرعة والقنا ولا رسل الا الخمس المرمر

(٤٤) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ (الملحق) - عن وفيات الأعيان ، ص ١١٥ - حيث قيل انه عبر من الجمال بأمر يوسف بعد جوازه ما أغص الجزيرة ، وارتفع رغاؤها الى عنان السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا قط جمالا ، وأن خيولهم تقلق منها وتذعر . وذلك الى جانب الاشارة الى أن فكرة يوسف من استخدام الجمال « أن يحدد بها عسكره » ، أي أن تكون سائرا للعساكر ، وهذا من فن حرب جمالة الصحراء منذ القدم (أنظر فمعة سبق) .

ص ٧٦ .

(٤٥) البنان ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

العبور الى رجب (أكتوبر) حيث كانت الموقعة الكبيرة . وخلال تلك الفترة ، وأثناء الحشد خارج اشبيلية بلغ يوسف بن تاشفين نبأ وفاة ابنه أبى بكر : سير الذى كان مريضا بسببة ، الأمر الذى حير ابن تاشفين حتى هم بالنصراف ، كما تهول بعض الروايات لولا أنه أثر الجهاد (٤٦) . والمهم أن اللقاء تم فى موضع بأراضى مملكة بطليوس ، وملكها المتوكل : عمر ابن الأفطس ، بيدها عن أراضى الفونسو السادس ، والمعتمد بن عباد ، وهما طرفا النزاع الاصيلان منذ البداية ، على أساس كونهما أقوى ملوك الطوائف فى كل من الجانبين ، بصرف النظر عن استنجد الواحد أو الآخر بالحلفاء من خارج البلاد .

والحقيقة أن وقوع المعركة فى أراضى مملكة بطليوس يمكن أن يفسر على أساس جغرافى سياسى مزدوج . فمن الوجهة السياسية كانت امارة بطليوس ، بفضل طموح حكامها (ينو الأفطس) ، منافسة لكل من مملكة طليطلة التى آلت الى الفونسو السادس الذى يريد إعادة الوحدة لاسبانيا المسيحية تحت شعار « الاسترداد » ، ولمملكة اشبيلية حيث ابن عباد الذى يرنو الى توحيد الأراضى الاسلامية بالأندلس تحت رايات اشبيلية وخاصة انه كان يملك وقتئذ قرطبة ، حيث صوت أهل الجماعة ، مثل الأمة ، كان ما زال يسموعا - وان بايقاع خافت . فقبل سقوط طليطلة كان ابن الأفطس يهفو الى امتلاك طليطلة - عاصمة الشتر الأوسط ، التى استحوذ عليها فعلا لبعض الوقت (ما سبق ، ص ٢٩٤) . وقبل أن يضم ابن عباد قرطبة ، بكل ما ترمز اليه من وحدة التاريخ الأندلسى وعظمة حضارته الاسلامية ، كان طموح ابن الأفطس (المتوكل) فى الاستئثار بها أمرا سهلا المنال لا يكلفه أكثر من مدينة قرمونة يقدمها ثمنا لسكوت ابن عباد (المعتمد) ، لولا غدر هذا الأخير ، ونكثانه بوعده (ما سبق ، ص ٢٩١) .

وهكذا ، اذا كان ابن الأفطس قد ظهر منذ وقت غير بعيد ، وكأنه الخصم المشترك لكل من الفونس السادس وابن عباد ، فان لقاء المتصارعين فى أرض بطليوس يمكن ألا يكون عفويا بل اختيارا مسبقا . واذا صح ذلك فيمكن إعادة النظر فى أن تكون تهديدات الفونس السادس للمعتمد نوعا

(٤٦) أنظر الحلل الموشبة ، ص ٦٦ - حيث النص أيضا على ان ابن تاشفين أنفذ القائد مزدلى (أبو عبد الله مزدلى بن سلنكا - ت ٥٠٨ هـ / ١١١٥ م فى حرب قشتالة) الى سراكش . وأنظر للمؤلف ، عملية الانفاذ الترابطى فى الأندلس ، أعمال ندوة الأندلس بأداب الإسكندرية ، ١٩٩٣ .

من الدعاية المصطنعة في الجبهة الأندلسية ، تبريرا للإنسحاب من ضواحي
اشبيلية نحو أراضى بطليوس في اتجاه مسار الفونس ، الى جانب تحريض
المسلمين على حسن الاستعداد للمعركة - بطبيعة الحال * أما من الناحية
الجغرافية فإن أرض بطليوس ، من حيث كونها آخر الأراضى الإسلامية
المواجهة لطليطلة في منطقة الغرب ، تجعل من موقع اللقاء نفرا أو جبهة
قتال طبيعية ، ليست ملكا لأحد من المتحاربين ، فهي : « أرض لا صاحب لها »
(no man's land) « حسب المصطلح الحديث * وبذلك يكون موضع اللقاء ،
حينئذ ، مناسباً لجميع الأطراف ، حسبما كانت تقضي أعرف الحرب والسلام
في تلك العصور وتقاليدها »

وقعة الزلاقة :

وإذا لم تكن هناك نصوص تشير الى اتفاق مسبق بين المتحاربين على
موضع المعركة في أرض الزلاقة (ساكر الياس : (Sacralias)) بمعنى
السهلة (٤٧) ، فهناك روايات تنص على أن وفود الجواسيس كانت تترى على
الجانبيين : الاسلامي والمسيحي ، تنقل الأخبار من صجيحة ومصطنعة ، كما
توجد روايات يفهم منها تبادل الرأي حول وقت اللقاء (السبت أو الاثنين)
ويمكن أن تكون قرينة على نوع من الاتفاق حول المكان أيضا - وإن كان ذلك
بشكل ضمني * فالمفترض أن الفونسو السادس الذي كان يحاصر
سرقسطة ، ترك الثغر الأعلى متجها نحو طليطلة ، وقد أرسل الى كل من
رذمير (سانشو راميرز ، ملك أرجوان وصاحب بنباونة) الذي كان يحاصر
طرطوشة ، والبرهانس (البارفانييث : (Alvar Fanes) ، القائد القشتالي
وابن أخى السيد القمبيطور ، الذي كان يحاصر بلنسية ، للحاق به
بجيوشهما * كما لحقت به حشود أخرى من قشتالة وغاليسيا وبنبلونة (٤٨) ،
وذلك على الطريق الى الزلاقة ، مرورا بطليطلة وعبروا وادي تاجه ، الى أن
وقف في مواجهة الجيوش الإسلامية التي كانت تعرف مسيرته ، وتوجه هي

(٤٧) أنظر القرطاس ، ص ٤٦ ، وهـ ٨٨ - حيث الزلاقة = السهلة ، والاشارة الى أن
نهر بطليوس كان يحجز بين الفريقين ، وكل منهما يشرب منه وعن الزلاقة (حديثا :
(Sagrajas) التي تعني بالعربية الزلفة ، فكانها من نوع السبخة ، أنظر الحلة السبراء ،
ص ١٠١ ، وهـ ١ - حيث ينص حسن مؤنس على أن الموضع يقع على أحد نهيرات وادي آنه ،
ويعرف باسم جريرو (Guerrero) على بعد حوالي ١٢ كم شمال بطليوس ، مع الاشارة
الى أن الفضل يرجع الى زايبولد (Seybold) في تحديد هذا الموقع .
(٤٨) القرطاس ، ص ١٤٥ ، وهـ ٨٦ .

• الأخرى للقائه (٤٩) •

وحط الفريقان كل في معسكره (محلته) ، وبينهما مسافة فرسخ
أى حوالى (ثلاثة) أميال • والذى يفهم من الروايات أن العلاقات بين
الطرفين كانت متصلة بشكل علنى عن طريق السفارات ، وبشكل سرى عن
طريق الجواسيس (٥٠) • وإن الحرب والسلام كانا موضوعا للمناقشة • وهكذا
نفول رواية السياسى التى ينقلها ابن خلكا أن يوسف بن تاشفين عرض على
الفونسو السادس (الادفنش) ، من مركز القوة وكأننسا فى عصر الفتوح

(٤٩) أنظر الحلة السبراء ، ج ٢ ص ١٠٠ - حيث النص على أنه لحق بيوسف خارج
أسبيلية كل من : صاحب غرناطة (بلكين بن حبوس الصنهاجى) فى نحو ٣٠٠ (ثلاثمائة)
فارس ، وأخوه تميم من مالقة فى نحو ٢٠٠ (مائتى) فارس ، وابن صاحب المرية فى عدد
قليل من الحبل • ونص الرواية على أن ابن تاشفين تقدم مستعجلا فى حركته الى بطليموس ،
وإن عباد وراءه • وإن المتوكل صاحب بطليموس ، خرج اليهم وأوسعهم برا وضيافة •
أما الفونسو فكان وصوله عشية الجمعة ، وأنه اقترح أن يكون اللقاء بعد يومى الجمعة (بعد
المسلمين) والأحد (عبد النصارى) أى يوم الاثنين (اليوم المفضل عند المسلمين وكذلك
يوم الخميس) ، فكان ذلك نوعا من الاتفاق أو على الأقل موضوعا للمناقشة ، وقارن القرطاس ،
ص ١٤٦ - حيث قصد الفونسو الذى قصده هو الآخر (حسبما تسمح حدود بطليموس) ،
وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٦ - حيث النص على أن الفونسو (ابن الفونس) ملك
الخلافة جمع أمم النصرانية لقتاله (يوسف) بالزلاقة ، وأنظر الترجمة ، ص ٧٨ ، وه ١ -
حيث النص على أن ابن خلدون يعرف أن اسمه الفونسو وإن أباه فرديناند وأنه ليس ملك
الخلافة (غاليسيا) فقط ، بل وليون وقشتالة • وهو يشير الى وجود نقش فى كندراية
سان جان دى كومبوستل مؤرخ بسنة ٨٧٤ م / ٢٦١ هـ يبين أن الفونس السادس وقتئذ ،
كان ملكا لأشتوريش (غاليسيا) وليون •

(٥٠) أنظر القرطاس ، ص ١٤٧ - حيث تواجه الجيشان فى الموضع لمدة ٣ (ثلاثة)
أيام ، والرسل تختلف بينهم الى أن اتفق رأيهم أن تكون الملاقاة يوم الاثنين ١٤ رجب ٤٧٩هـ/
٢٦ أكتوبر ١٠٨٦ م ، كان المعتمد « يجعل (خلائها) على عسكر العدو عيونا على خيل سبق
بأنونه بأخبارهم » ، وأيضا ص ١٥٠ - حيث نص الكتاب الذى يقال أن يوسف أرسله الى
العدو ، وفيه خیرنا العدو فاختار الحرب ، • وإن الاتفاق تم على الملاقاة يوم الاثنين ١٤
رجب • وأضرر اللعين خلاف شرطنا • • وجعلنا عليهم العيون التى أنتنا فجر يوم الجمعة
١١ رجب بأن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين • وهنا لا بأس من الإشارة الى أن معسكر
المرابطين كان موضوعا تحت رقابة صارمة من المعتمد بن عباد نفسه ، والذى كان يستخدم
البريد الطائر عن طريق الحمام الزاجل ، أنظر الحميرى ، الروض المطار ، القاهرة ١٩٣٧
(الزلاقة رقم ٨٢) ، ص ٨٨ - حيث جواسيس كل فريق مترددون بين الجميع ، وص ٩٠ -
حيث رقابة المعتمد بنفسه لمعسكر الصحراويين ، وأنظر نفس النص فى ابن عذارى ، ج ٢
(ملحق ٢) ، ص ١٣٦ - ١٣٧ •

الأولى ، الاختيار ما بين : الاسلام أو دفع الجزية أو الاحتكام الى السيف(٥١)، وهو الأمر المقبول من جانب المجاهد الأصولي ، وهو ما قد يفسر لما ينسب الى الأذفنش ، من ثورة عارمة وتهديدات طنانة (ما سبق ، ص ٣٠٠) .
والهم أن المعركة وقعت في يوم الجمعة ١٥ رجب ٤٧٩ هـ / ٢٢ أكتوبر ١٠٨٦ م (٥٢) .

إدارة المعركة :

أما عن سير المعركة فالمهم أن ادارتها كانت لـيوسف بن تاشفين الذي قسم القوات الاسلامية الى ٣ (ثلاثة) جيوش ، أولها : جيش الأندلسيين الذين جعلهم يوسف وحدة واحدة ، ملتفة حول المعتمد بن عباد في مركز القلب ، وهو جيش المقدمة أو الصدام مع العدو(٥٣) . أما عساكر المرابطين فقد ونقسموا الى قوتين ، أولاهما : جيش يتكون من ١٠ (عشرة) آلاف خارس بقيادة أبي سليمان داود بن عائشة ، فهو الجيش الثاني الذي كان

(٥١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان (يوسف بن تاشفين) ، ط . بيروت ، ج ٧ ، ترجمة رقم ٨٤٤ ، ص ١١٦ (ونفس المصدر في ابن عذاري ، ج ٤ ملحق ١ ص ١١٥) - حيث البياسي : أبو الحجاج يوسف بن محمد ، وكتابه : « تذكير العادل وتنبيه الغافل » الذي يورد روايات تفصيلية جديدة عن الزلاقة ، وان لم يشر الى مصدرها ، القرطاس ، ص ٩٠ .

(٥٢) ابن خلكان ، ج ٧ ، ترجمة ٨٤٤ ، ص ١١٧ (نفس المصدر في ابن عذاري ، ج ٤ (ملحق ١) ، ص ١١٦) ، وأنظر القرطاس ، ص ١٤٧ - حيث الوقعة في ١٤ رجب ٤٧٩ هـ / ٢٦ أكتوبر ١٠٨٦ م ، وقارن الروض المعطار ، ص ٩٤ - حيث صدور كتاب المعتمد من المحلة الى ابنه في أشبيلية بتاريخ ٢٠ رجب . ولا بأس من الإشارة الى ما قيل من أن ألفونسو أراد الغدر بالمسلمين يوم الجمعة ، وكان قد قرر أن تكون السبت (حسب البياسي) أو الاثنين بعد الأحد ، عيد النصر (حسب ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٣ - حيث الوقعة يوم الجمعة - في العشر الأول من رمضان) ، وقارن النويري ، أبو ضيف ، ص ٣٨٦ (العشر الأول من رمضان ٤٧٩ هـ / ديسمبر ١٠٨٦ م وهـ ٢٤ حيث الاختلافات في تحديد التاريخ من سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ، مع اعتماد الجمعة ١٢ رجب : تاريخ خطاب الفتح ليوسف بن تاشفين ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٦ - حيث اليوم المشهود (الزلاقة) سنة ٨١ (٤) هـ / ٢٤ أكتوبر ١٠٨٦ م ؟ .

(٥٣) حسب رواية ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٣ ، على أساس أن الأندلسيين أصحاب خبرة بالبلاد وبالأعداء الأسبان المسيحيين ، وأنظر القرطاس ، ص ٤٦ - حيث النص على أن يوسف بن تاشفين أمر أمراء الأندلس ، ابن صمادح (المرية) وابن جيبوس (غرناطة) وابن مسلمة (النفر الأعلى) وابن ذي النون وابن الأفطس أن يكونوا مع المعتمد ، فكون معجلة الأندلس واحدة .

عليه أن يتبع جيش الأندلسيين ، فكانه ساقه لهم حماية (رده) • أما الجيش المرابطي الآخر فعماده الحرس الأميري الخاص المكون من الممالك انسودان على وجه الخصوص والقراية المقربين تحت لواء الأمير يوسف القائد العام (٥٤) •

أخبار الجواسيس :

وبناء على المعلومات السرية الواردة الى المعسكر الاسلامي ، والتى عرف منها أن هجوم العدو سيوجه الى ابن عباد أولا في محاولة لكشفه حتى يسهل على العدو التعامل بعد ذلك مع الصحراويين الذين لا يعرفون البلاد ، قرر ابن تاشفين ادخال تعديل على مهام الكمين الذي كان يعدده لمفاجأة العدو • وذلك أنه أمر واحدا من قواده بأن يسير بكتيبة خاصة عينها له يقتحم بها معسكر الفونسو السادس ، أثناء انشغاله بقتال ابن عباد ، فيضرمه نارا (٥٥) •

والمهم أن أخبار الجاسوسية الأندلسية كانت صادقة في الهجوم الوشيك للعدو ووجهته ، اذ لم تلبث أن ظهرت « طلائع ابن عباد والروم في اثرها » ، الأمر الذي أدى الى اضطراب المعسكر الاسلامي الذي كاد يروح نهبا للفوضى ، وخاصة عندما كشف العدو هجومه حتى غمرت خيله المعسكر الأندلسي الذي كادت تحل به الهزيمة التامة • ويرجع الفضل في صمود الجيش الأول (الأندلسي) الى المعتمد بن عباد ، وهو الرجل المترف الذي أظهر من العزم والثبات في تحمل الضربات ، ومن البطولة والقوة في مناجزة الأعداء ، ما صار مضربا المثل في الشجاعة والصبر على تحمل المكاره.

(٥٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، يوسف بن تاشفين ، ج ٧ ، ترجمة رقم ٨٤٤ ، ص ١١٧ (وملحق ١ في ابن عذاري ، ج ٤ ص ١١٦) - حيث النص على ان ابن عباد اختار (بمحض ارادته) أن يكون المصادم أولا : وان انهزم يميل عليهم يوسف ، وفار الروض المطمار ، ص ٩٠ (ملحق ٢ في ابن عذاري ، ج ٤ ص ١٣٦) - حيث النص على أن ابن المعتمد أذكي عمونه في محلات الصحراويين خوفا عليهم من مكاييد ابن فرذند (ألفونس) اذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد • حتى كان يطيف بنفسه بالمحلة ويضع الكراديس من الخيل على أفواء طرق محذرتهم •

(٥٥) الروض المطمار ، ص ٩٢ ، (ملحق ٢ من البيان ، ج ٤ ص ١٣٧) - حيث كان ابن القصيرة كاتب ابن عباد الوسيط في تعريف يوسف بن تاشفين بما كان يرد للمعسكر الأندلسي من أخبار العدو ، وانظر القرطاس ، ص ١٤٧ - حيث اعداد ابن عباد كتابه وجهه • عونه على عسكر العدو يأتونه بأخبارهم وما يرونه من حركاتهم •

والآلام (٥٦) .

تباطؤ « حركة المرابطين » :

وتميل الرواية الأندلسية المنسوبة الى البياسى ، والنسبة ينقلها ابن خلكان ، الى تأخر الجيش المرابطى الثانى الذى كان تحت امره داود بن عائشة فى التدخل الى جانب الأندلسيين أصحاب الجيش الأول بقيادة المعتمد بن عباد ، الأمر الذى يثير الشك فى كون أصحاب تلك الرواية ممن يرون أن يوسف بن تاشفين ربما فكر فى انهاك قوى الجانبين : الأندلسى والاسبانى المسيحى فى القتال ، حتى ينتهى الأمر بانفراد القوة المرابطية ، وحدها بالبلاد ، دون منافس . ولكنه يستشف من تفاصيل القتال فى رواية صاحب القرطاس التى تظهر موالية للمرابطين ، على أساس أنها تعبر عن الرواية المرينية المناهضة للموحدين خلفاء الأعداء المرابطين ، أن ادارة المعركة التى انفرد بها يوسف بن تاشفين اتسمت بالحنكر والذكاء ، وخاصة فى تحريك القوات فى الوقت المناسب ، الأمر الذى ترتب عليه الانتصار الحاسم (٥٧) .

فمن الواضح أن داود بن عائشة أدى المهام التى كلف بها من القائد الأعلى فى وقتها المقرر ، واذا كان هناك من لوم فانه يقع على عاتق أمراء الأندلس الذين انتشروا فى أول صدام ، بشكل يشبه الهزيمة ، حيث وصلوا فى فرهم (فرارهم) حتى دشارف بطليوس ، الامر الذى أدى الى حرج موقف ابن عباد .

(٥٦) أنظر الروض المعطار ، ص ٩٢ - حيث النص على أن « ابن فرذلند (ألفونس) مال على المعتمد بجموعه ، وأحاطوا به ٠٠٠ (وإن المعتمد) صبر صبورا لم يعهد مثله لأحد » . وأنه أثنى جراحات ، وضرب رأسه - كما تبألغ الرواية - ضربة فلقت هامته حتى وصلت الى صدغيه وجرحته يمنى يديه ، وطعن فى أحد جانبيه ، وعقرت تحته ٣ (ثلاثة) أفراس ، وهو يضرب يميناً وشمالاً ، (وقارن نفس الرواية فى الملحق فى البيان ، ج ٤ ص ١٣٧) ، وأنظر الحلة السبراء ، ج ٢ ص ١٠١ ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٧ - حيث النص على ان المعتمد أرسل الى يوسف أن يكون على أهبة الاستعداد لأن العدو صاحب مكر وخديعة فى الحرب . وأن يوسف عندما علم بزحف العدو فى فجر الجمعة (١٠ رجب) أرسل قائده المظفر داود بن عائشة فى جيش عظيم من لمتونة ووجوه المرابطين وأقبالهم ليكونوا طليعة له . (٥٧) عن أدب الزلافة وما قبل فيها ، أنظر حسن أحمد محمود ، قيام المرابطين ، ص ٢٧٣ ، وعن اختلاف مواقف المشاركين فيها من الأندلسيين والمغاربة ، أنظر نفس المرجع ، ص ٢٨٣ .

الكمين : الحرس الأميري يحسم المعركة :

والهم أن ابن عائشة التحم مع قوات البرهانس (الفارفاييث : Alvar Faniez) التي احاطت بابن عباد في ذلك القتال المحتدم فلم يقوم هيزانه ، بل ظلت كفته تتأرجح لصالح العدو . وعندما تقدم ألفونسو السادس هو الآخر بغواته فوقع في جيش داود بن عائشة الذي كاد حينئذ يسمأصل ، وهو يحسبه جيش يوسف بن تاشفين ، رأى هذا الأخير أن ينفذ خطة الكمين الذي يفاجيء معسكر ألفونس ، وهو مشغول بالقتال ، بالحرق والتخريب . وخرج ابن تاشفين من وراء المرتفع الذي كان يتخفى فيه بحرسه الخاص من ممالك السودان وطبولة التي صدعت الجو ، مع المقربين من لمونة وغيرهم بقيادة سير بن أبي بكر ، لكي يشاركوا في ضرب محلة ألفونس واضرامها نارا تشتعل (٥٨) .

وفوجيء ألفونس السادس بالفارين من محلته التي راحت نهبا للحريق والقتل والتدمير ، فأسرع نحوها بجيشه ليقف فريسه لقوات الحرس الأميري المدربة ، التي أطلق منها يوسف عليه ٤ (اربعة) آلاف ممدوك من السودان الذين يحسنون حرب الالتحام بالمازيق يصيبون بها الخيل ، والخناجر يطعنون بها الرجال والفرسان ، فكان نصيب ألفونس طعنة خنجر هتكت دماغات الزرد وأصابع الفخذ ، وعوقته مدى الحياة (٥٩) .

(٥٨) الفرطاس ، ص ١٤٧ - حيث ابن عائشة في جيش عظيم ، طليعة ليوسف بن تاشفين - وحيث قسم ألفونس عسكره على فرفتين : واحده بقيادته وقع بها في جيش ابن عائشة والآخرى بقيادة البرهانس (الفارفاييث) داهموا محله ابن عباد وهزموها ، فلم يثبت منها الا ابن عباد وجيشه ، وص ١٤٨ - حيث سار سير بن أبي بكر اغاته لابن عائشة وابن عباد ، في قبائل المغرب وزناتة ، والمصامدة وغمارة وسائر قبائل البربر الذين كانوا في محلته ، ومسير يوسف في لمونة والمرايطين الى محلة ألفونس لاحتراقها وقتل من بها من الرجال والفرسان .

(٥٩) وفيات الأعيان ، ج ٧ ترجمة ٨٤٤ ، ص ١١٧ - حيث نص البياسي : « ودهمهم خيل العدو ففجعت ابن عباد ٠٠٠ وفر رؤساء الأندلس ٠٠ فركب أمير المسلمين ، وأحرق به أنجاد خيله ٠٠ فعمدوا الى محلة الأدفنش فاقتحموها وقتلوا حاميتها ، وضربت الطبول فاهتزت الارض وتزاحفت الروم الى محلته ٠٠ فقصدوا أمير المؤمنين ، فأخرج لهم عنها ثم كر فأخرجهم منها ٠٠ ولم الكرات بينهم تتوالى الى أن أمر أمير المسلمين حشمه السودان فترجل منهم زهاء ٤ (أربعة) آلاف ، ودخلوا المعترك بدرق اللط وسيوف الهند ومزاريق الزان فطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها ٠٠ وتلاحق الأدفونس بأسود فددق مزاريقه بالدف ، فاهوى ليضربه بالسيف فلصق به الأسود وقبض على أعنته ، وانضى خنجرا كان منتظا به ، فأنبته في فخذه فهتك خلق درعه ، ومشك فخذه ، مع بدء سرجه ، ٠٠٠ وصدقوا الحملة على =

- ٣١٠ -

الربح والخسارة في المعركة الفاصلة :

وهكذا انتهت معركة الزلاقة الى صالح المسلمين في الأندلس والمغرب .
- رغم قلة عددهم النسبية - واعتبرها كثير من كتاب المسلمين وكأنها من
الوقائع الفاصلة في تاريخ الاسلام - وهو الأمر الصحيح ، ليس من حيث
النتائج المباشرة فقط ، بل والمستقبلية لفترة جاوزت القرن ، وسمحت
بتدخل الموحدين في الأندلس بعد حين من تدخل المرابطين ، فتتفكك الصعداء
فيها العرب والمسلمون (٦٠) .

فلقد كانت الهزيمة تامة على ألفونس السادس الذي نجح في الهرب
تحت جنح الظلام مع قلة من المحيطين به ، لا يتجاوز عددهم الى ٥٠٠
(خمسمائة) فارس (٦١) ، بينما بقي معظم رجاله في أرض المعركة ، لم

= الأدفنش وأصحابه فأخرجوهم عن محلتهم ، فولوا ظهورهم (ونفسه في ملحق البيان ، ج ٤
ص ١١٧) وقارن الروض المطار الزلاقة ، ص ٩٢ - ٩٣ - حيث : نفس مجيء ابن عائشة ،
عن ابن عباد قبل اقبال يوسف ، وعهور ريج الظفر ونباشير النصر ، ثم رجوع المنهزمين
حين علموا بالتحام الفنتين ، فانكشف الطاغية ، وفر هارباً مذ ذماً ، وقد طعن في إحدى ركبتيه
طعنة بقي أثرها بقية عمره ، فكان يجمع لها (وملحق ، البيان ، ج ٤ ص ١٣٨) ، وفارن
القرطاس ، ص ١٤٨ - حيث النص : « فأخبر (ألفونسو) بحرق محلتها ونهبها ٠٠ فرد
وجهه الى قتاله (أمير المسلمين) وكان على فرس انثى يمر بين صفوف المسلمين يحرضهم
ويغوي نفوسهم على الجهاد والصبر ٠٠ فقاتل المسلمون قتال من يطلب الشهادة » .
وعندما رأى ابن عباد وأصحابه انهزام الروم ٠٠ شدوا عليهم وحمل القائد سير (عليهم)
فاستمرت الهزيمة على الروم ٠٠ وتراجعت الطائفة المنهزمة من المسلمين ٠ واشتد القتال على
ألفونسو حتى أيقن بالفناء .

(٦٠) أنظر الحلة السبراء (لابن الأبار) ، ج ٢ ترجمة المتوكل (عمر بن محمد
ابن الألفس) رقم ١٢٨ وص ٩٦ وه ٢ - حيث يقول ابن جهور (عبد الله بن أحمد) ، أحد
مشاهير أدباء وفقهاء أشبيلية في القرن السادس الهجري (٥١٦ - ٥٩٦ هـ / ١١٢٢ -
١٢٩٩ م) ، في الزلاقة وكأنها معركة العالم العربي وقتئذ :

لم تعلم العجم اذ جاءت مصمة يوم العروة أن اليوم للمعرب
وفارن القرطاس ، ص ١٥١ - حيث هذا البيت لأبي جوهري ، وأيضاً لابن اللبنة :
يوم العروة كان ذاك الموقف وأنا شهدت فأين من يستوصف

(٦١) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٣ - حيث النص على أن « أمير المسلمين سار الى خاسم
الفرنج ونهبها فانهزم الفرنج ، ونجا الأدفونش في نغريس ، ثم النص (ص ١٥٤) على أنه
لم يرجع من الفرنج الا ٣٠٠ فارس ، وقارن الروض المطار ، ص ٩٣ - حيث النص على انه
ألفونسو لجاً (بعد الهزيمة) الى تل كان يلي محلته (معسكره) في نحو الخمسمائة فارس ،
كلهم مكشوف (نفسه : ملحق في البيان ، ج ٤ ص ١٣٨) ، القرطاس ، ص ١٤٨ - =

- ٣١١ -

ينج منهم الا من لاذ بالفرار ، كما آلت عدده وسلاحه للمسلمين وطيرت كتب النصر مع الحمام الزاجل من ميدان المعركة الى اشبيلية مباشرة ، كما حملت مع رجال الأخبار الى غيرها من المدن ، وعبر المجاز الى مراكش باسم « أمير المسلمين » . ولتأكيد كتب انتصار الزلاقة هذه ، التي يؤيدها قول الشاعر : « السيف أصدق انباء من الكتب » ان نماذج من جماجم قتلى الأعداء سيرت الى عواصم الأندلس وكذلك الغرب - كشاهد مادي على الانتصار الكبير في الزلاقة (٦٢) .

هذا ، ولا بأس من الإشارة الى أن المسلمين دفعوا ثمننا باهظا نظير هذا النصر الكبير في تلك « الغزوة المباركة » . فاذا كانت رواية القرطاس تبالغ ، من غير شك ، في مقولة أن عدد القتلى من « الروم » (الاسبان المسيحيين) بلغ ٣٨٠ ألفا ما بين فارس (١٨٠ ألفا) وراجل (٢٠٠ ألفا) ، فأغلب الظن أن تلك الاحصائية الحزينة في جبهة العدو ، هي المقدمة المقبولة لفاجعة استشهاد ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) رجل من المسلمين - وهو الرقم الذي نراه قريبا من الواقع (٦٣) .

= حيث : فلما رأى الفونسو ان الليل أقبل من مهزوما على وجهه في نحو ٥٠٠ فارس على غير طريق ، (ص ١٤٩) - حيث مات من ٤٠٠ فلم يدخل طليطلة منهم الا ١٠٠ فقط ، وركبهم المرابطون بالسيف يقتلونهم في كل فج وسهل الى ان حال الليل بظلمته بينهم . (٦٢) ونبات الأعيان ، ج ٧ ، ترجمة ٨٤٤ ، ص ١١٨ - حيث النص على أن أصحاب الأدفونش « أفلتوا بعد ما نشبت فيهم أظفار المنية ، واستولى المسلمون على ما كان في محلتهم من الآلات والآنة والمضارب والأسلحة » . وأمر ابن عباد بضم رؤوس القتلى من الروم ، ونشر منها امامه كالتل العظيم ثم كتب ابن عباد الى ولده الرشيد ، كتابا ، وأطار به الحمام يوم السبت ١٦ محرم يخبره بالنصر (نفس البيان ، ملحق ج ٤ ص ١١٧) ، وفازن الروض المطار ، ص ٩٣ - حيث القول بشيء من المبالغة انه بعد لجوء الأدفونش الى مرتفع : « وأباد القتل والأسر من عداهم من أصحابهم ، وعمل المسلمون بعد ذلك من رؤوسهم صوامع يؤذنون عليها ، وابن فزذلد ينظر الى موضع الوقعة ومكان الهزيمة فلا يرى الا نكالا محمطا به وبأصحابه » (نفس البيان ملحق ٢ ، ص ١٣٨) ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٩ - حيث : وبات المسلمون على خبولهم تلك الليلة يقتلون ويأسرون ويغنمون ، وأنهم صلوا صلاة الصبح وسط المقتاة . وأن (أمير المسلمين) أرسل من جماجمهم ١٠ (عشرة) آلاف الى أشبيلية ، ومنهنا الى : قرطبة وبلنسية وسرقسطة ومرسية ؟ كما بعث الى بلاد العدو ٤٠ (أربعين) ألفا قسمت على مدنها ؟

(٦٣) القرطاس ، ص ١٤٩ - حيث يتفرد ابن أبي زرع بهذه الاحصائيات الكبيرة العدد ، وان كانت مقولة نظرا للامتحانات الصعبة التي واجهها المسلمون أمام قوات الأدفونش والبرهانس وحلفائها ، التي جعلت من النصر وكأنه - حتى آخر ساعات « يوم الزلاقة » - أمنية صعبة =

التقييم الختامي للزلاقة :

ودون محاولة استقصاء نصيب كل من الأندلسيين والمرابطين في تلك التضحية الباهظة بالدم ، أو التساؤل عما حصل عليه كل من يوسف بن تاشفين وأمرء الأندلس من المكاسب المادية والأدبية ، نرى أن المعركة بوقائعها السلبية كانت خسارة مادية - بشكل أو بآخر - لكل الأطراف المتحاربة . وإذا كان الطرف الإسباني المسيحي هو أكثر الأطراف خسارة في الرجال والعتاد ، فإن المرابطين بدورهم كانوا أكثر الخاسرين في الجهد والنفقات ، من حيث طول مسيرتهم ذهاباً وإياباً من الجنوب المراكشي ، وركوب البحر ، وتجشم القتال في بلاد غريبة . وأكثر من ذلك تلك الصدمة النفسية التي أصابتهم لما عاينوه بالأندلس من الترف الذي لم يصيبوا منه شيئاً طالما تحددت مهمتهم في المعركة وحدها دون مقدمات في التعرف على البلاد ، أو عائدات مادية تقابل ما بذل من الجهد والعطاء . حقيقة أن الأندلسيين قدموا لهم الترحيب والضيافات ، قبل أن تكلل هزيمتهم هالات النصر والفخار ، ولكن ذلك لا يكافئ وزن الفداء ، على كل حال .

والحقيقة أيضاً أنه لكي تتم الفائدة من دعوة المرابطين إلى الأندلس كان ينبغي أن يستثمر النصر إلى أقصى حد ، بمعنى أن يدفع المهزوم تكاليف المعركة ، من الأموال والأراضي وناتج العمل . وهذا ما كان يراه المعتمد بن عباد عندما طلب من يوسف بن تاشفين استئصال شأفة الأذفونش بهزيمة هزيمته ، وهو ما لم يستجب له أمير المرابطين . ولقد فسر الجانب الأندلسي إصرار ابن تاشفين على عدم متابعة الأذفونش ، بأنه خاف أن يشتهي بهلاكه السبب في دعوة المرابطين إلى الأندلس ، فكان الأندلسيين كانوا يرغبون في استغلال المرابطين لتحقيق أهدافهم الأنانية ، في الوقت الذي رأى فيه ابن تاشفين أن انتقاد الأندلس واجب سياسي ديني لا مناص منه في كل وقت وحين (٦٤) .

= المثال . وأنظر فيما سبق ، هـ ٥٩ ص ٣١٠ - حيث نحريش ابن تاشفين - في آخر لحظات القتال - على الشهادة والجنة ، وقال المسلمين قتال من يطلب الشهادة - وأنظر الروض المطار ، ص ٩٤ - ٩٥ - حيث النص على أنه كان من بين كبار الشهداء : ابن رميلة ، وقاضى مراكش أبي مروان عبد الملك المصمودي ، وغيرهم .

(٦٤) أنظر الروض المطار ، ص ٩٣ (ملحق ٢ في البان ، ج ٤ ص ١٣٩) - حيث النص على أن شيع بن عباد قالوا بخوف يوسف من هلاك العدو فيقع الاستغناء عنه ، وقال شيع يوسف إنما أراد ابن عباد قطع حبال يوسف من العود إلى الأندلس ، بينما قال المحايدون أن كلا من الرجلين أسر حشوا في ارتقاء ، وإن كان ابن عباد أحرى بالصواب .

وهكذا تكون وقعة الزلاقة (المباركة) قد فشلت ، رغم تحطيم قوات العدو الاسباني ، فى تحقيق أهم أهدافها ، وهو استرجاع الأراضى الإسلامية المفقودة فى طليطلة ، وهى سبب استدعاء المرابطين • والحقيقة أن القاء تبعه ذلك الفشل على نوايا كل من الطرفين ، حسنة كانت أم سيئة مشتركة بينهما ، فالصحيح أن عملية الانقاذ لم يكن يكفيها جبهة موحدة أو متحدة ، بل جبهة واحدة ، الأمر الذى يعنى انفراد المرابطين بالأمر فى الأندلس ، حتى تتركس موارد البلاد جميعا لمواجهة حرب الاسترداد ، بدلا من تبديد تلك الموارد فى أعمال الترف والفساد فى بلاط الأمراء ، الأمر الذى كان يعيه أفراد الطبقة المثقفة مثل القاضى أبى الوليد الباجي (٦٥) ، بل وأمراء الأندلس أنفسهم ، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد عندما فضل رعى الجمال على رعى الخنازير (ما سبق ، ص ٢٩٥) •

حرب الاحلال والتجديد المرابطية :

وبذلك تكون حرب احلال وتجديد اسلامية قد قامت من قبل المرابطين ، الى جانب حرب الاسترداد المسيحية ، ضد أمراء الأندلس • وإذا كانت بداية تلك الحرب ، وهو الأمر المستغرب ، هى عودة يوسف بن تاشفين الى المغرب ، فالحقيقة التى نراها هى أن الأحوال الجوية فى الأندلس فى تلك الفترة الحرجية من نهاية أكتوبر وبداية نوفمبر ، كانت تملئ على المجاهدين العودة الى بلادهم ، انتظارا لتحسن الأحوال الجوية فى فصل الربيع ، حيث يكون استدعاؤهم من جديد الى الأندلس ضرورة حتمية لمواجهة العدو المطالب بالثأر • وهذا يعنى أن تلبية الدعوة للقتال فى معركة الزلاقة تمت

(٦٥) أنظر الحلة السبراء ، ج ٢ ص ٩٨ - حيث كان القاضى أبو الوليد الباجى يطوف على رؤساء الأندلس ويندبهم الى لم الشمل ومدافعة العدو ، وإن اختلف الأمر فى اصغائهم الى وعظه أو استبرادهم نزعته ، وأنظر وفيات الأعيان ، ج ٧ ترجمة يوسف بن تاشفين ، رقم ٤٤ ، ص ١١٨ - ١١٩ (ملحق ١ فى البيان ، ج ٤ ص ١١٨) - حيث « أمير المسلمين » يطلب المعونة من المرية ، والفتوى من قبل جماعة من الفقهاء بجواز الاقتداء بعمر بن الخطاب ، وفتوى القاضى أبى الوليد وغيره من القضاة والفقهاء بالدعوة (المغرب) والأندلس وتفيد ذلك بأن يكون أمير المسلمين فى حاجة ماسة الى المعونة المسالمة ، الأمر الذى يتأكد بحلفائه ، وأن يكون ذلك من أجل الجهاد • وهنا تنص الرواية على ان « أمير المسلمين » أقام بعد الوقعة بشن الغارات على بلاد الفرنج - الأمر الذى يعنى بقاء الحامية المرابطية بقيادة سير بن أبى بكر • كما تأتى الإشارة بعد ذلك الى تعلق يوسف بن تاشفين على ما شاهده من ترف بن عباد فى منطقة الشرف ، من غرب اشبيلية ، بقوله : « يلوح انه مضيق لما بين يديه من الملك » حيث تؤخذ أمواله بالظلم والاستهتار •

فى غير موعدها الصحيح ، فى مطلع فصل الصيف حيث تطول العمليات العسكرية على مدى شهور هذا الفصل ، حيث تسمى صائفة • ولا بأس أن كان ذلك محسوبا من قبل المرابطين بالنسبة للقاء بعيد ، غير مضمون النتائج مع المجهول • ولكنه بعد أن نجحت التجربة فى الزلافة لم يكن بد من مواصلة العمل من أجل الحفاظ على بلاد المسلمين فى الأندلس ، الأمر الذى لا يتأتى الا بوضعها تحت سلطان واحد : تحت هيمنة امارة المسلمين المرابطية •

يوسف بن تاشفين أميراً للمسلمين :

وهكذا كانت الدولة المرابطية تتحول على يد يوسف بن تاشفين من دولة اقليمية صغرى الى دولة عالمية كبرى ، أشبه بدول الخلافة الامبراطورية ، التى نافست خلال القرنين السابقين خلافة بغداد ، مثل : دولة الأمويين فى قرطبة أو دولة الفاطميين فى المهديّة ثم القاهرة • والحقيقة أن الدولة المرابطية بتمدها جنوبا الى تخوم السودان وشمالا الى ما وراء المضيق ، استحققت أن تكون امبراطورية (متعددة الأقاليم والأجناس) ، مثل دولة الخلافة • ولكنها لما كانت دولة سنّية سلفية تعترف بالخلافة العباسية ، لم يكن لها أن تخرج - قانونا - عن طاعة خليفة بغداد : أمير المؤمنين (جميعا) •

والحقيقة أنه اذا كان ما تقوله الرواية الدارجة من أن يوسف بن تاشفين اتخذ لقب أمير المسلمين بعد انتصار الزلافة (٦٦) ، وكأنه مكافأة على الانتصار العظيم الذى حققه لجماعة المسلمين - تماما كما تعطى حديثا رتبة (المارشالية : المشير) مكافأة لكبار القواد على انتصاراتهم فى المعارك العالمية الكبرى •

واذا كان هذا الأمر مقبولا بالنسبة للمعاصرين ، فانه لم يكن كذلك بالنسبة لمؤرخى الدولة المرابطية ، من قدامى ومتأخرين • اذ لما كانت الدعوة المرابطية بمثابة تجديد للإسلام فى صحراء المغرب ، اعتبر القائمون بها أصحابهم وكأنهم المسلمون حقا (أو أهل الحق) ، وهو أقل رتبة من لقب « أمير المؤمنين » الخلافة • وفى ذلك قيل ان أول من حمل هذا اللقب هو الأمير أبو بكر بن عمر (٦٧) ، فكانه لقب عريق فى دولة المرابطين • وهذا

(٦٦) القرطاس ، ص ١٤٩ - حيث وفى هذا اليوم (الزلافة) تسمى يوسف بن تاشفين « بأمير المسلمين » •

(٦٧) أنظر النويرى ، ط • نصار ، ج ٢٤ ص ٢٥٧ - حيث النص على أن الذى سمي أبا بكر بأمير المؤمنين هو عبد الله بن ياسين •

ما يفسر اطلاق لقب أمير المسلمين على يوسف بن تاشفين منذ بداية ظهوره كشخصية تاريخية ، وخاصة عند المتأخرين . وبطبيعة الحال فان عدم معرفة الكرى (حوالى ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م) بيوسف بن تاشفين ، أو بلقب « أمير المسلمين » (ما سبق ، ص ٢١٥) ، يرجع فكرة عدم معرفة المرابطين بذلك اللقب قبل وقعة الزلاقة ، الأمر الذى يؤيده خلو النقود المرابطية ، التى ضربت ما بين سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، و ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م من لقب أمير المسلمين (٦٨) .

وهكذا تصح الرواية التى تربط بين اللقب السلطانى الرفيع (أمير المسلمين وناصر الدين) ، وبين الانتصار الكبير فى موقعة الزلاقة (المباركة) ، وان لم تجعلها مكافأة للمجاهد الكبير على جهده ، فى خدمة الاسلام بالأندلس ، بل أعطتها شكلا رسميا ، على قاعدة القانون والشرعية . وفى ذلك تقول الرواية ان فقهاء الأندلس قالوا ليوسف بن تاشفين انه لا تجب على المسلمين طاعته الا بعهد من الخليفة ، الأمر الذى دعاه الى ارسال سفارة الى بغداد ، تقدم هدية وتعرف بما فعل (يوسف) بالفرنج ، وما قصده من نصرة الدين والجهاد فى سبيل الله ، وان ديوان الخليفة المستظهر بالله (ولايته : ٤٨٧ - ٥١٢ هـ / ١٠٩٤ - ١١١٨ م) رد على طلبه بهدية وكتاب وتقليد وخلع (٦٩) .

.....

(٦٨) انظر حسن محمود ، المرابطون ، ص ٣٣٣ وما بعدها ، وهـ التالى .
(٦٩) أنظر النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٩٠ ، ونصار ، ج ٢٤ ص ٢٧٣ - ٢٧٣ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٨ (والترجمة الفرنسية ، ج ١ ص ٨٢) - حيث النص على أنه تسمى بأمر المسلمين (كما فى القرطاس ، ما سبق ، هـ ٦٦ ص ٣١٤) ، وانه خاطب المستظهر (المستنصر) العباسى ، الخليفة ببغداد لمعهده ، وبعث اليه عبد الله بن محمد بن العربى (العرب) الأشبيلي ، وولده أبا بكر (القاضى) فتلقا فى القول ، وأحسننا فى الابلاغ ، وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس ، فعقد له . وتضمن ذلك مكتوب الخليفة ، منقولا فى أيدى الناس . وانقلبا اليه بتقليد الخليفة وعهده ، على ما الى نظره من الاقطار والأقاليم . هذا ونضيف الرواية الى ذلك : « وخاطبه الامام الغزالى ، والقاضى أبو بكر الطرطوشى ، يحضانه على العدل والتمسك بالخير ، وبفتبانه فى شأن ملوك الطوائف بحكم الله » ، وقارن أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ١٩٦٨ ، ص ١٠٣ - حيث النص على ان ما ظهر من وثائق (خاصة بالمرابطين والخلافة العباسية) يتفق مع رواية ابن خلدون ، وصحة سفارة ابن العربى . وقارن ابن الاثير ، ج ١ ص ١٥٥ - حيث ارسل (يوسف) الى المتحدى بأمر الله (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٧٤ - ١٠٩٤ م) ببغداد فأناء الخلع والأعلام والتقليد ، ولقب أمير المسلمين وناصر الدين ، وانظر حسن أحمد محمود ، المرابطون ، ص ٢٣٥ - حيث النص على ان اسم الخليفة العباسى المنقوش على السكة المرابطية =

وبناء على ما تقدم يمكن القول أن لقب « أمير المسلمين » لقب شرفى حظى به يوسف بن تاشفين بعد انتصار الزلاقة فى الأندلس ، فكأنه تكريم شعبى من قبل العلماء والفقهاء الذين ينقاد لهم عامة الناس ، الأمر الذى جعل المتأخرين من الكتاب يصفونه على يوسف بن تاشفين بأثر رجعى ، كما يقال ، فشرّفوه بحمله منذ بدء ظهوره على مسرح الأحداث ، حتى أصبح لقب « أمير المسلمين » مفردا ، مرادفا لاسم يوسف بن تاشفين ، دون غيره من الناس - وخاصة فى الأندلس التى أعاد إليها الأمل فى الصمود والبقاء - فكان عهده بها تجديد لعهد الناصر « أمير المؤمنين » ، أو ابن أبى عامر « المنصور الحاجب » .

امارة المسلمين تنهى نظام امراء الطوائف :

والهم أن يوسف بن تاشفين كان فى بر العودة بعد وقت قصير من الزلاقة . وعندما دخلت سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م كان مقيما فى قصره بالحضرة مراکش . وعندما دخل الصيف وتحسنت الأحوال الجوية خرج فى دفة ربيع الثانى/يوليه ، فى جولة تفقدية طاف خلالها أرجاء بلاده المغربية . وهو ينظر فى أحوال الرعية ، ويطمئن على حسن سير الأمور ، من استقامة العمال وعدالة القضاة (٧٠) - مؤكدا اهتمامات أمير المسلمين الجديدة - بصفته رأس كل من السلطتين التنفيذية والقضائية (التشريعية) الى جانب قيادته الحربية ، فكأنه بذلك أصبح صاحب السيف والقلم جميعا ، كما تقضى بذلك أصول النظم السلطانية فى دولة الاسلام .

مشكلة التوقيت :

ومن شذرات التاريخ الخاصة بالتدخل المرابطى فى الأندلس الذى انتهى بالقضاء على نظام الطوائف يتبين أن هذا الأمر استلزم من أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) العبور ٣ (ثلاث) مرات أخرى الى الأندلس ، خلال فترة وجيزة لا تتجاوز ٤ (أربع) سنوات فقط ، فيما بين ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م ، حيث الجواز الثانى ، وسنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م تاريخ الجواز الرابع الذى أنهى نظام الطوائف ، فأصبحت بلاد الأندلس بموجب هذا

= هو : « عبد الله أمير المؤمنين » ، الأمر الذى أثار جدلا حوله عند بعض الباحثين ، وهو الأمر الذى لم يتأكد بعد (وقارن أيضا ص ٣٣٣ - ٣٣٤ - حيث الإشارة الى نصوص تؤيد اعتراف المرابطين بالخلافة العباسية قبل الزلاقة والحصول على اللقب) .
(٧٠) انظر الفرطاس ، ص ١٥٢ .

الوضع الجديد ، الولاية الثالثة في امبراطورية الاتحاد المراتبي ، بعد :
الصحراء والمغرب (الأقصى) • واذا كان تاريخ العبور الرابع والآخر أكيد
بسبب أحداثه المعروفة في الأندلس ، فإن العبور الثاني يوضع في سنة
٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م بناء على ترجيح رواية ابن أبي زرع الواضحة رقما
(٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م) وكتابة (بعد سنتين من الزلافة) على رواية كل من
ابن الأثير والنويرى التى يشوبها الغموض عندما تتكلم عن عودة أمير
المسلمين الى العدو بعد الزلافة ، وترد ذلك بوضع العودة الى الأندلس
فى العام المقبل (الكامل) والعام الآتى (النهاية) (٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م) ،
وهو الأمر غير المقبول ، حيث كان يوسف يطوف فى البلاد المغربية فى شبه
نزهة ترويحىة - يستحقها هو ورجاله - مع الأخذ فى الاعتبار بأحوال
المعسكر المعادى بأسبانيا الذى كان ما زال بعد ينفذ عن نفسه غبار
الهزيمة (٧١) • أما الجواز التالى وهو الثالث فلا بأس فى تأريخه بعد سنتين
أى فى سنة ٤٨٣ هـ كما تقول رواية الحلل الموشية ، المدعمة برواية القاضى
أبى بكر بن عقاب (٧٢) •

الحامية المراتبية الأولى :

ومن المهم الاشارة هنا الى انه رغم الوحشة التى لفت العلاقات
الأندلسية المراتبية عقب انتصار الزلافة ، الأمر الذى يظهر فى عودة أمير
المسلمين يوسف بن تاشفين الى بلاده مباشرة وبشكل مريب (ما سبق ،
ص ٣١٣) ، فمن الواضح أنه كانت قد اتخذت ترتيبات ثنائية للبقاء على
حبل المودة موصولا بين الجانبين ، احتسابا لطارىء يلم أو نازلة تفاجيء
طرفا أو الآخر • من ذلك ابقاء حامية مراتبية فى الأندلس بقيادة سير بن
أبى بكر (الممتونى) ، أقامت فى بعض القلاع على حدود الثغر الأدنى من

(٧١) القرطاس ، ص ١٥٢ - حيث سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م ، وفيها جاز أمير المسلمين
الجواز الثانى الى الأندلس ، برسم الجهاد ، وأنظر الحلل الموشية ، ص ٦٦ (وملحق ٣ فى
البيان ، ج ٤ ص ١٤١) - حيث التاريخ (٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م) مدعم برواية الوزير أبى بكر
ابن عقاب حيث لفظ سنتين محرف الى سنتين ، وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٤ - حيث
النصر بعد الزلافة على انه فى العام المقبل عاد (أمير المسلمين) الى الأندلس • وأنظر النويرى ،
أبو ضيف ، ص ٣٨٧ ، (نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٧) - حيث رجوع يوسف من الزلافة الى
مراكش فاقام بها الى العام الآتى ، ثم دخل الى الأندلس (وهى الرواية المحورة عن الخروج
للطواف فى المغرب سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ، كما فى القرطاس - ما يأتى ، ص ٣١٨ و٧٧-٧٧) •
(٧٢) أنظر الحلل الموشية ، ص ٧١ ، والملحق ٣ فى البيان ، ج ٤ ص ١٤٣ •

- ٣١٨ -

غرب الأندلس . وهذه الحامية التي لا يعرف عددها على ما نظن هي التي قامت ، بما سينسب الى أمير المسلمين القيام به بعد الغزوة ، من : مهاجمة بعض حصون العدو في المنطقة ، واحراز بعض المكاسب في الأراضي المسيحية المتطرفة (٧٣) .

ومن الأمور التي تستدعي التأمل ما تقوله الرواية السابقة من احتجاج أهل رابطة سير هذه حياة الخشونة والضنك التي عاشوها مدافعين عن الحدود ، بينما ينعم أمراء الأندلس برغد العيش ، الأمر الذي جعل ابن تاشفين بأمر سير بن أبي بكر بإخراج ملوك الأندلس من بلادهم والحاقهم بالعدوة . وإذا كان ذلك يعني أن ضم الأندلس الى امبراطورية المرابطين كان أمرا محسوما منذ العبور الأول سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م وانتصار الزلاقة ، فمن الواضح أن بقية الرواية ، تعنى رسم خطة الاستيلاء على البلاد خطوة بعد خطوة ، كما يقال الآن ، بدءا بمجاورى الثغور الذين يحل أمراء العساكر المرابطين محلهم وأكابرهم ، وانتهاء بأشبيلية وابن عباد (٧٤) .

وهكذا تعبر تلك الرواية عن أن التخطيط لانتهاء نظام الطوائف كان قد ارتسم في حرب الزلاقة التي تكون بمثابة مرحلة استكشافية أولى تتلوها مرحلة ثانية يتم فيها القضاء على أمراء الحدود (الثغور) ، وبذلك تسقط أشبيلية وصاحبها المعتمد بن عباد كبير الأمراء ، ثمرة ناضجة دون جهد - في آخر الأمر .

«العبور الثانى وحصار حصن لبيط (٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م) :

استيلاء الأسبان على حصن لبيط :

إذا كان عبور يوسف بن تاشفين مرة ثانية الى الأندلس بعد سنتين

(٧٣) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ترجمة رقم ٨٤٤ ص ١٢٢ ، (ملحق ١ فى البیان ، ج ٤ ص ١٢١) - حيث يحيط الرواية بنوع من الفموض ، إذ تقول ان سير بن أبي بكر ، بعد أن بست بما حصل عليه من المغانم عقب الزلاقة الى بر العدوة (المغربية) استأذن من يوسف بن تاشفين فى البقاء فى الأندلس ، وقال له : انه افتتح معاقل فى الثغور ، وترتب فيها مستحفظين ورجالا يفتنون فيها . وأنظر جولييان ، تاريخ افريقية الشمالية ، الترجمة ، ج ٢ ص ١١٤ - حيث النص على عودة ابن تاشفين الى المغرب « ولم يترك للمعتمد إلا ثلاثة آلاف من البربر » .

(٧٤) وفيات الأعيان ، ترجمة رقم ٨٤٤ ص ١٢٢ .

فقط من الزلاقة ، بطلب من الأندلسيين حكومة وشعبا ، كما يقال الآن ، وممثلهم المعتمد بن عباد كبير الأمراء ، يمكن أن يثير الشك حول نتائج الزلاقة بالنسبة لاستقرار الأمور في الأندلس ، وبالتالي الشك في نوايا أمير المسلمين الذي لم يستثمر النصر كما كان يرجو الأندلسيون . فالحقيقة أن المشكلة الأندلسية كانت أكبر من أن تحل في معركة واحدة . مهما كان حجمها ، أو بمعرفة رجل واحد مهما كان قدره أو إمكاناته . فالإصابة في طليطلة التي لم يتحقق علاجها في الزلاقة ، كانت في موضع القلب ، بمعنى أنها تقطع سبل الاتصال بين أرجاء البلاد ، وبالتالي تتركس التفتت وما يترتب عليه من مظاهر الضعف والاضمحلال ، مثلها مثل التوب الذي ينسل من وسطه ، كما قال الشاعر (٧٥) .

وهكذا إذا كان نصر الزلاقة قد نجح في تهدين غرب الأندلس لمدة ٦٠ (ستين) عاما ، كما يرى ابن أبي زرع (٧٦) ، فانه لم يكن له أصداء تسمع في الشرق . فالحقيقة أن حرب الاسترداد المسيحية كانت قد حققت معظم أهدافها في غرب الأندلس قبل الزلاقة ، حتى كان الفونس السادس يستطيع أن يصل عبر الحدود النازلة جنوبا بغرب ، وهي الجبهة المفتوحة على المحيط ، بعيدا عن قواعد الاسلام الشرقية ، كما كانت تتلقى فوق ذلك مساعدات الصليبيين البحرية ، وهم في الطريق الى شرق المتوسط الى طريفة (٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م) (ما سبق ، ص ٢١٥ وما يأتي ٣٥١) الأمر الذي مكنه من أخذ طليطلة ، وكأنها ثمرة ناضجة دانية القطاف . وبذلك كان بدء الضغط على شرق الأندلس أمرا طبيعيا ، بعد أن دجنت بلاد بني هود في الثغر الأعلى (سرقسطة وأعمالها) ، بفضل تطبيع علاقاتها بدول الاسترداد ، والضغط جنوب برشلونة على بلنسية ومرسية ، حيث ظهر أعداء جدد من أمراء الاقطاع الأحرار ، الذين يعملون لحسابهم الخاص ، ويقدهون سيرفهم لمن يدفع لهم الثمن - والمثل لذلك : السيد القمبيطور (ما يأتي ،

(٧٥) عن موقع طليطلة وسط الجزيرة الأيبيرية ، أنظر الروض المطار ، ص ١٣٠ - حيث طليطلة مركز لجميع بلاد الأندلس ، وسط بين كل من قرطبة وبلنسية والمرية (٩مراحل)، وهي عظمى القطر ، ودار الملك القديمة ، وأنظر للمؤلف عملية الانقاذ المرابطية ، ندوة الأندلس بأداب الاسكندرية ١٩٩٣ . وأنظر يوسف بن حوالة ، بنو عباد في اشبيلية ، ص ٢٦٣ - حيث بيت الشاعر ابن العسال اليحصبي ، الذي يقول فيه :
 التوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
 (٧٦) القرطاس ، ص ٤٩ - حيث النص على انه « لم تقسم للشرك قائمة نحو ٦٠ (ستين) سنة »

ص ٣٥٨ ، ٣٦٠) • وهؤلاء اذا كانوا قد سمعوا عن انتصار المسلمين فى الزلاقة ، فانهم لم يشعروا بصدهاء حيث كانوا فى الشرق ، بل وربما عملوا متأثرين بما اصاب اخوانهم فى الغرب بنواحي بطليوس •

وهكذا هدد السيد القمبيطور بلنسية ، ونجح فى انتزاعها من ابن ذى النون الذى كان قد استبدلها بطليطة • والخطر من ذلك أن الاسبان المسيحيين بدأوا يفرضون هيمنتهم أيضا على أهل مدن لورقة وبسطة ، ويرهقونهم بالأتاوات والضرائب ، بعد أن استولوا من المسلمين بتدبير ألفونسو السادس على حصن الليط (Alédo) على بعد ١/٢ ميل من لورقة ، ذى الموقع الاستراتيجى الهام وسط الأراضى الاسلامية ، واستخدموه فى استنزاف موارد أهلها (٧٧) •

وراحت الشكوى تترى الى المعتمد بن عباد ، كبير الأمراء ، الذى أصابه الهلع ، اذ تبين له أن التضحية الكبيرة فى الزلاقة لم تؤت ما كان يرجى منها ، وبلغ به الأمر الى حد تجشم أعباء السفر بنفسه الى المغرب مستصرخا أمير المسلمين • ولم يستجب ابن تاشفين لنداء الملهوف الا بعد أن استوثق من حسن نواياه تجاه المرابطين ، على أن يكون عبوره الى الأندلس من جديد عندما يعتدل الجو تماما يتمكن فصل الصيف • وعاد المعتمد الى اشبيلية لكى يجهز العساكر ، وينشط فى صنع آلات الحرب من السهام والمطارد والرعادات وغيرها ، الأمر الذى وقع عبؤه على أهل المملكة كل على حسب طبقته • وعندما جاز أمير المسلمين الى الجزيرة الخضراء ، كان على ابن عباد أن يقدم لجيشه الميرة والضيافات على قدر طاقته • ومن الجزيرة الخضراء وجه أمير المسلمين الدعوة الى أمراء الأندلس فى مالقة وقرنطة والمرية وشقورة وبسطة وجيان ، قبل أن يغادر الخضراء فى ربيع الأول ٤٨١ هـ/يونيه ١٠٨٨ ، على أن يكون اللقاء معه بعساكرهم على حصن لييط

(٧٧) أنظر القرطاس ، ص ١٥٢ وما بعدها - حيث النص على أن ألفونسو السادس ، عمد بعد هزيمته فى الزلاقة الى حصن لييط (لييط) الموالى لعمل بن عباد فشحنه بالخبيل والرجال والرماة ، وأمر بالفارة على بلاد ابن عباد ، وقارن الحبل الموشية ، ص ٧١ (ملحق ٣ فى البيان ، ج ٤ ص ١٤١) ، وأنظر الروض المطار ، رقم ٤٦ ص ٤٤ (عن بسطة القرية من وادى آش ، وعلى مسافة ٣ مراحل من جبان) ، لورقة ، رقم ١٦٢ ص ١٧١ وما بعدها - حيث تفسير الاسم (لورقة) باللغة اللاتينية الزرع الحبيب (ص ١٧٢) ، وهى من بلاد تدمير (مرسية) بينهما ٤٠ ميلا •

» (من شرق الأندلس) (٧٨) *

حصار حصن لبيط (Alédo) :

حب دون هوادة وصمود دون نهاية :

رغم اتفاق بعض الروايات المعاصرة ، مثل : مذكرات الأمير عبد الله (رئيس غرناطة) والمتأخرة ، مثل : الحلل الموشية (لمجهول) على أن رؤساء الأندلس جميعا ، شاركوا في حصار حصن لبيط ، فإن الذى يفهم من مسار الأحداث ، الأمر الذى يرجح رواية ابن الأثير التى تظهر أصدائها عند ابن أبى زرع ، هو أن الحضور الى الموعد على حصن لبيط حسبما طلب أمير المسلمين ، كان فاترا . وفى ذلك يقول ابن أبى زرع انه لم يحضر ذلك الموعد من الرؤساء غير المتضرر الأول من عدو لبيط وهو صاحب مرسية : عبد الرحمن بن رشيق ، الى جانب المعتمد بن عباد الذى كانت تحركه أغراض أنانية ، الا صاحب غرناطة الأمير عبد الله (٧٩) ، الأمر الذى كان

(٧٨) أنظر الفرص ، ص ١٥٤ - ونميز رواية ابن أبى زرع هذه ، والذى ينفها صاحب الحلل الموشية مع التصرف ، بأنها أوفى الروايات الخاصة بحصن لبيط وأوضحها ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٦٨ (ملحق ٣ فى البيان ، ص ١٤٢ - ١٤٣) ، وفارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٤ - حيث الخلط مع فتح غرناطة ، وقارن النويرة ، أبو ضيف ، ص ٣٨٦ - حيث الحصن « لبيطة » مع الإشارة الى حصره - وعدم القدرة على فتحه . وعن شقورة أنظر الروض المطار ، رقم ٩٥ ص ١٠٥ - حيث هى من أعمال جيان ، وفى جبلها شجر الطخش الذى نتخذ منه القى . وبها أيضا قبر على بن همشك *

(٧٩) أنظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٤ - حيث : وفى العام القابل (بعد الزلافة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م) عاد (يوسف) الى الأندلس ومعه المعتمد وعبد الله بن بلكين الصنهاجى ، صاحب غرناطة وأنهم سماروا حتى نزلوا على حصن لبيط . وقارن النويرة ، أبو ضيف ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧ ، القرطاس ، ص ١٥٢ - حيث النص على انه « لم ياته ممن كتب اليه منهم غير ابن عبد العزيز » والصحيح هو ابن رشيق الذى حل محله (صاحب مرسية ، والمعتمد بن عباد ، وأنهما نزلا على الحصن ، وشرعا فى قتاله ، بينما شن يوسف الفارات على بلاد الروم فى كل يوم » ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٦٨ - ٦٩ - حيث النص على ان يوسف بن تاشفين اجتاز على مאלقة واستنصر صاحبها تميم (المستنصر بالله) الذى تلاحق به أخوه عبد الله (المظفر) صاحب غرناطة ، وانضم (ابن مسماح) صاحب المرية ، الى جانب رؤساء شتورة وبسطة وجيان ، وغيرهم من الرؤساء بشكل عام . من كل مكان ، وقارن مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٠٨ - حيث النص على أن تحرك ابن عباد فى هذه الغزوة كان « لأغراض شخصية ، هدفها وضع ابنه الراضى فى مرسية عوضا عن الجزيرة الخضراء ، مع النص على مشاركته » (نفسه) فى قتال لبيط مع غيره من الرؤساء « كل رئيس يقابل على حسب =

يسى. ظن أمير المسلمين برؤساء الأندلس ، من غير شك ، والمهم أن عبيد
اعداد آلات الحصار وقع على عاتق ابن رشيق ، أمير مرسية الذى أحضر من
بلده (مرسية) النجارين والبنائين والحدادين ، فأحاطوا بها الحصن ، وسدوا
المنافذ على من كان بداخله ، وكانوا ١٠٠٠ (ألف) فارس و ١٢ (اثنى عشر)
ألف راجل (٨٠) .

وتلخصت خطة الحصار من جانب أمير المسلمين والمعتمد بن عباد في
ارهاق أهل الحصن بالحرب المتصلة ليل نهار ، بهدف تحطيم معنوياتهم .
وهكذا اقتسمت الحرب مداولة بين الأمراء الثلاثة (٨١) واستمر الحصار طوال
٤ (أربعة) أشهر الصيف من يولييه الى أكتوبر دون طائل حتى يأس كل
من يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد من سقوط الحصن (٨٢) .

والواقع أن أمير مرسية (ثالثهم) كان في الحبس مثقفا في الحديده ،
ولا بأس ان كان طول الحصار والانشغال بالجدل في تقلب الأحوال ، قد
ساعد على إثارة ما كان من ضغائن بين ابن عباد وبين ابن رشيق ، الذى
أتهم بالتعاون كما كان فى الماضى ، مع ألفونس السادس .

والحقيقة أنه كان للفقهاء الذين كانوا يتقربون من أمير المسلمين
ويصاحبونه فى جولاته العسكرية أو التفقدية ، دورهم الهام فى تقرير مصير
رؤساء الطوائف ، بالشكل الذى أدى الى نهاية نظمهم فى الأندلس بشكل
عام ، وكانت حالة ابن رشيق فى ليبيط هى البداية لتلك النهاية . فمن
أتى ذكرهم فى معسكر ليبيط من الفقهاء : عالم غرناطة الشهير القليعى الذى

= مجهوده » ، وانظر الذخيرة لابن بسام ، ج ٥ (ق ٣ م ١) - عن عبد الرحمن ابن رشيق
الذى قيضه الله ليكون للمعتمد « عدو فى ثياب صديق » - حيث أخرجه من مرسية ،
ج ٢ (ق ١ م ٢) ، ص ٧٣٣ - حيث دخل ابن صبادج فى غمار الأمراء الخارجين الى ليبيط
يجر جيشا ويعرض نفسه على أمير المسلمين .

(٨٠) الحلل الموشية ، ص ٦٩ .

(٨١) الحلل الموشية ، ص ٦٩ (ملحق ٣ فى البيان ، ج ٤ ص ١٤٢) ، وقارن مذكرات
الأمير عبد الله ، ص ١٠٩ - حيث نصب المطابق ، وأن أمير الثرية ابن صبادج أتى « بغيل »
(دبابة) أقامة ، خرق به العادة ، وأن « أحرقة أهل الحصن » .

(٨٢) القرطاس ، ص ١٥٣ ، وقارن الحلل ص ٦٩ (ملحق ٣ فى البيان ، ج ٤
ص ١٤٢) - حيث استمر الحصر الى مدة شهر فقط ، وقارن التويرى ، أبو ضيف ،
ص ٣٨٧ - حيث النص على أنهم حاربوا الحصن أياما فلم يطبقوا فتحه فرحلوا بعد مدة .

تكان في صحبة الأمير عبد الله - وكان أكثرهم توددا الى أمير المسلمين - كما يظهر من رواية أمير غرناطة الذي يصف خباء (خيمة) ابن القليعي بتلك المحلة ، بأنه قد صار « مغناطيسا » (جذابا) لكل صادر ووارد .

وهنا يشكو الأمير عبد الله من تأييد ابن القليعي لرعيته ، بل ومن خشيته على الامتناع عن دفع الأضراب المعتادة ، على أساس انها من المفارم غير الشرعية ، بينما كانوا يفومون بما يكلفون به من تقديم الطعام للجيش المرابطي ، وما كان يلحق بذلك من المجاملات وحقوق الضيافة وكان ذلك يصيب أمير غرناطة - كما يقول بالضرر الشنيع (٨٣) .

والمهم انه رغم ما قام به ابن رشيق من بذل الأموال للمرابطين ، واصطناعه للأمير سير ، كبير القواد ، والدعوة لأمير المسلمين من على منبر مرسية ، الأمر الذي جعله يتيه على المعتمد ابن عباد ، ويزيد في حسرته ، احتجاجا عليه بأحكام السنة ، فقد انتهى الأمر بوقوف أمير المسلمين ، كما تقضى السياسة ، الى جانب كبير رؤساء الأندلس ضد ابن رشيق (٨٤) . وفى ذلك تقول رواية الأمير عبد الله انه عندما استغاث ابن رشيق بأمير المسلمين ، أجابه : « انه لو كان الأمر عندى لوهبته لك ، غير أنها أحكام السنة ، لا أستطيع ازالتها عن مراتبها (٨٥) » .

وما كان من أمير المسلمين الا أن استفتى الفقهاء فى أمر انرييس « المتعاون » ، فجرموه ، وكان عقابه التثقيف (التاديب ضربا) والحبس . وكان لهذا العمل رد فعل سئ لدى عسكر مرسية والعاملين من أهلها فى خدمة المعسكر الذين تسللوا الى بلدهم . وهناك لم يكتفوا باظهار السخط ، بل أعلنوا الثورة (على أمير المسلمين) فقطعوا الميرة عن المعسكر المضروب . أمام لبيط حتى اختلت أموره وغلغت الأسعار فيه ، وصعب المعاش على الناس فيه (٨٦) .

(٨٣) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١١٠ . وهنا لا بأس من الإشارة الى جهود الفقيه الغاضى ابن الوليد الباجى (ت ٤٧٤هـ / ١٠٨١م) فى سبيل لم الشمل بالأندلس حتى قال فيه ابن بسام انه « مكى بين ملوك أهل الجزيرة » وكأنه مؤمن آل فرعون - الذخيرة ، ج ٣ ق ٢ ص ١ ، ص ٩٤ - ٩٥ ، وكذلك الأمر بالنسبة للوزير أبى العلاء زهر بن عبد الملك ابن زهر الذى شخض مع أمير المسلمين من شرق الأندلس الى حصن لبيط (ص ٢١٨ - ٢٢٣) .

(٨٤) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٢٠ - ١١٢ .

(٨٥) نفس المصدر .

(٨٦) الحلل الموشية ، ص ٦٩ - ٧٠ (كريسبان ملحق ٣ ، ج ٤ ص ١٤٢) ، وقارن =

وهنا وجد ألفونسو السادس أن الظروف مناسبة لإعلان تمام نفوذ غبار هزيمة الزلاقة ، وأنه يمكنه إعلان القوة عن طريق الاستجابة لطلب النجدة من المحاصرين في لبيط الذين كانوا يمانون من طول الحصار والجوع ، فحشد رجاله وسار نحو حصن لبيط ، وكانت فرصة انتزاعها أمير المسلمين للتخجيل بالرحيل عن الموقع الحصين ، فتنحى عن طريق ألفونسو إلى طريق لورقة - المرية - الجزيرة الخضراء ، ثم جاز إلى العدو . وقد تغير على أمراء الأندلس لكونه لم يأت أحد إلى نزال حصن لبيط (٨٧) ، ولكن دون أن ينسى إرسال حامية إلى بلنسية لحمايتها من العدو (٨٨) ، فكان أمير المسلمين يستطيع اثبات وجوده ، وهو يغيب منسحبا . وفي مقابل ذلك يقوم ألفونسو السادس بعمل مماثل ، فهو يخلي الحصن ويقوم بإحراقه بعلم أن أخلى أهله ، فكأنه أراد تحريرهم من معاناة ذكريات الحصار والشدة ، وعاد بهم إلى طليطلة (٨٩) .

وهكذا انتهى حصار لبيط دون تمكن أحد طرفي الصراع في الأندلس من املاء ارادته على الآخر ، بل وينوع من إعلان كل من الطرفين وكأنه في حاجة إلى شيء من الهدنة التي تسمح له بلم شعثه واعداد معسكره قبل مواصلة الصراع المحتوم . وكان على أمير المسلمين أن يبدأ بتصعيد حسابه مع أولئك المتخاذلين من أمراء الأندلس ، حتى تتوحد الجبهة الاندلسية ، تحت رايات المجاهدين المرابطية استعدادا لمواجهة العدو المتنمر - صفا واحدا - تحت قيادته الراشدة .

= القرطاس ، ص ١٥٣ - حيث أدى النزاع بين ابن عبد العزيز (٩) أمير مرسية وابن عباد إلى أن قبض القائد سير بن أبي بكر على « ابن عبد العزيز » (ابن رشيق) وتسليمه إلى المعتد ، وأن اختلال المحلة كان سبب الفشل ، وقارن مذكورات الأمير عبد الله ، ص ١١٢ - ١١٣ - حيث الإشارة إلى المشاجرات بين المعتد وصاحب المرية « المعتصم » ، ومنه هو نفسه وبين أخيه صاحب مالة ، وأن سبب الفشل النهائي في لبيط كان ورود الخبر بقدم ألفونس .

(٨٧) أنظر القرطاس ، ص ١٥٣ - حيث نزول تحريفا لنزال ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٦٩ (ملحق في البيان ، ج ٤ ص ١٤٢) .

(٨٨) الحلل الموشية ، ص ٧٠ (ملحق ٣ في البيان ، ج ٤ ص ١٤٣) - حيث النص على أن حامية بلنسية كانت مكونة من ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) رجل ، مع القول أيضا بأنه أورد بعد عسكرا عظيما بقيادة محمد بن تاشفين إلى بعض الجهات ؟

(٨٩) القرطاس ، ص ١٥٣ - حيث النص على أن ابن عباد أخذ الحصن بعد اختلاله وفناء من كان به بالقتل والجوع ٠٠٠ حيث لم يبق فيه غير مائة من الرجال ، وهم الذين عاد بهم ألفونسو ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٧٠ (ملحق ٣ في البيان ، ج ٤ ص ١٤٣) .

توحيد قيادة الجبهة الأندلسية تحت رايات أمير المسلمين :

انتهاء نظام الطوائف : فتح إسلامي جديد :

٤٨٣ - ٤٨٤هـ / ١٠٩٠ - ١٠٩١م

وبناء على ما تقدم يمكن القول أن فشل حصار حصن لبيب في شرق الأندلس في الجواز الثاني لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس ، في صيف سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م ، قد أثبت حقيقتين تتعلقان بقضية أزمة « الجماعة والطوائف » لدى المسلمين في الأندلس . وتتمثل أولاهما في أن انحصار الزلافة لم يحقق الهدف المأمول منه ، في إيقاف خطر حرب الاسترداد الأسبانية ، والثانية تعنى بالتالي ، فشل مشروع التحالف المغربي - الأندلسي في مواجهة الخطر المسيحي ، الأمر الذي كان يستدعي انفراد الطرف المغربي الناهض بعملية الانتفاذ ، دون الارتباط بموقوفات انطرف الأندلسي المتهالك . وهذا ما كان يفكر فيه زعماء المرابطين الأوائل منذ دخولهم إلى بلاد السوس ، وحربهم لبرغواطية التي شنوها تحت شعار فتح طريق الجهاد في الأندلس (ما سبق ، ص ٢٣٠) .

والحقيقة أن الأندلسيين بدورهم ، كانوا يرون أن زوال نظام الطوائف حتمية تاريخية منذ أن فتحوا الحوار مع يوسف بن تاشفين (ما سبق ، ص ٢٩٥) ، وأتى القضاء على ذلك النظام في جواز أمير المسلمين الثالث ، الأمر الذي لم يستغرق إلا « صائفتين » في سنتي ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م - ٤٨٤هـ / ١٠٩١م ، ليؤكد على أرض الواقع صحة فرضية تلك الحتمية التاريخية . وهنا يمكن القول أن ضم الأندلس إلى الدولة المرابطية - بهذا الشكل لم يكن فتحاً بالمعنى المتعارف عليه ، بل كان أقرب ما يكون إلى عمليات التسليم والتسليم بين كبار الموظفين ، أو بين رجال الحكم والإدارة ، عندما يشغل الواحد مكان آخر - عن طريق التعيين أو عن طريق الاختيار ، فتشوبه فرجة المتسلم القادم مرارة « المستسلم » الراحل . وإذا كان البعض يعتبر هذا التغيير بالأندلس بمثابة فتح إسلامي جديد ، فالحقيقة أنه كان نوعاً من التجدد الإسلامي - الذي كان يتم عادة مع مطلع كل قرن ، معبراً عن حيوية الإسلام وصلاحه لكل زمان ومكان ، حسبما اعتقدت أوساط المتفائلين من المفكرين الإسلاميين .

شريط الأحداث :

اما عن « سيناريو » (أحداث) التغيير فقد تم على الوجه التالى :
دولة صنهاجة الزيرية فى غرناطة وفى مائة وتوابعهما كانت أول دويلات
الطوائف المستسلمة لأمر المسلمين . وإذا كان ذلك قد تم فى ظروف غامضة
فيمكن تفسير ذلك على أساس القرابة العرقية بين لمتونة الصحراء الصنهاجية
(المرابطية) ، وبين صنهاجة افريقية الزيرية (الفاطمية) ، أصحاب غرناطة ،
حيث أخذ التغيير - على استحياء وبدون تكلف - شكل التسليم والتسلم .

وهذا ما يفسر ظاهرة الخلط فى توقيت واقعة تنحية الأمير عبد الله ،
صاحب غرناطة ، وتقديمها الى سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م ، مباشرة بعد عام
الزلافة ، أو سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م ، بعد ليبط بدلا من وضعها الصحيح
فى سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م ، حيث يكون الجواز الثالث ليوسف بن تاشفين ،
الذى يتم فيه أخذ غرناطة ، وحدها دون بقية الممالك التى تسقط فى السنة
التالية ٤٨٤هـ / ١٠٩١م ، بين يدى قواد أمير المسلمين الذى كان يشرف ،
من سبته ، على عبورهم الى الأندلس . وهنا يسود نوع من الغموض على
أحداث ذلك العبور (الثالث) حتى ليخيل الى الباحث فى هذا الأمر وكأن
سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م كانت سنة عبور رابع (١) ، لولا ما سنعرفه فيما بعد
من أن جواز أمير المسلمين الرابع يقع فى سنة ٤٩٦هـ / ٣ - ١١٠٢م وأنه
لم يكن عبورا عسكريا ، بل جوازا تفقديا للنظر فى أحوال البلاد والعباد ،
وأصول الحكم والادارة حسب مفهوم النظم المرابطية وترتيبها (ص ٣٦٤) .

الأسباب العامة :

والحقيقة ان الغموض لا يحيط فقط بتوقيت ضم مملكة غرناطة قبل
غيرها ، بل ان الأسباب من أساسية وثانوية لهذا الضم تتكاثر فيما بينها

(١) أنظر ابن الأثير ، ج ١ ص ١٥٤ - حيث يجعل أخذ غرناطة سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م
« أو فى نوبة الزلافة - ص ١٨٩) ، أو بعد حصار ليبط ، (سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م) ،
وأنه حدث دون حرب بطريق القدر عندما دخل يوسف بن تاشفين المدينة ولم يخرج منها ،
بل أخرج صاحبها ، ص ١٥٥ - حيث كانت غرناطة أول ما ملكه من الأندلس ، ص ١٨٧ -
حيث ملك أمير المسلمين بلاد الأندلس التى كانت للمسلمين (سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م) ، وقارن
النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٧ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ، ثم ص ٢٦٩ - حيث
أنص على أنه فى سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م ملك فى جزيرة الأندلس ما كان بقى من بلاد المسلمين
جها ، وذلك أنه سار فى هذه السنة من مراكش الى سبته ... الخ .

وتتشابك بما يجعل تجليتها للعيان من الصعوبة بمكان - وخاصة عندما يتعلق الأمر بالمقارنة بين مواقف رؤساء الطوائف فيما بينهم أو بموقفهم من أمير المسلمين الذي كان يستطيع أن يتساهل في حقوقه إزاء بعضهم إلا أن يكون الأمر تفريطا في حقوق الله أو سنن رسوله (ما سبق ، ص ٣٢٣) .
وهنا نبدأ بمذكرات الأمير عبد الله ، لنقلب النظر في رأيه على وجهه المختلفة فيما أصابه من الخلع ، وهو ما يعنى النظرة السياسية الواقعية في مقابل الرؤية المثالية الشاملة ، في الجانب الآخر . وهنا نتلخص الرؤية المستقبلية لخمسة الخلع ، كما رآها صاحب غرناطة ، في عدد من الأسباب غير المباشرة التي رتبها زمنيا بشكل مقبول وهي :

١ - الأهمية النسبية لموقع غرناطة مقارنة بموقع مالقة ، من حيث كون الأولى على طريق الغزو المرابطي .

٢ - التجربة الفاشلة في العمل المشترك في حصار حصن لبيط - حيث قال أمير المسلمين للرؤساء : « أصلحوا نياتكم ، تكفوا عدوكم » ، ورض أن يطيهم عسكريا لمذاقة العدو .

٣ - جزاء سنمار الذي نفى ابن رشيق أمير مرسية ، بعد المحاولات التي قام بها من أجل التقرب من المرابطين وعلى رأسها ما انفرد به من إعلان خطبة الجمعة باسم أمير المسلمين .

٤ - تهديد الفقيه ابن القليعي بالتأثر لما أنزله به (عبد الله) من التثقيف ، بسبب موقفه المعادي له في لبيط (اليدو) ، الأمر الذي تحقق بشكوى الفقيه فعلا إلى أمير المسلمين - إلى جانب شكوى فقيه غرناطة الآخر أبي بكر بن مسكن .

٥ - طمع الرعية بسعيهم في حط (اسقاط) المغارم (الضرائب المستجدة) اكتفاء بالزكاة والعشر عند المرابطين .

٦ - المصالحة الخفية التي عقدها عبد الله مع ألفونس السادس ، وقضت بدفع الأموال المتأخرة منذ سنة الزلافة - تماما كما فعل صاحب سرقسطة .

هذه الأمور هي التي أثارت اشتفاق الأمير عبد الله من مصير مجهول على يدي أمير المسلمين أو ألفونس السادس الذي اضطر عبد الله إلى مصلحته على أساس علاقات الحماية السابقة ، الأمر الذي دفعه إلى النهاية بتأمين بلده

- ٣٢٨ -

ببناء الحصون المنيعة والأسوار الدفاعية (٢) .

الأسباب المباشرة :

لا شك أن أخطر الأسباب التي قطعت جبل الود بين رؤساء الطوائف ويوسف بن تاشفين ، بعد فشل لبيط الذي هبط بانتصار الزلافة الى مستوى الحضيض ، كانت عودة العلاقات بين عدد من أمراء الأندلس وبين ألفونس السادس الى سابق عهدها ، من : التبعية ودفع الجزية السنوية - إما فيها ضريبة سنة الزلافة ، كما فعل كل من أمير سرفسطه (ابن هود) وأمير غرناطة (ابن بلقين الصنهاجي) : « قريب » ابن تاشفين (الهامش السابق) .

والحقيقة أن أمير غرناطة كان يعرف خطورة هذا العمل ، اذ يحاول استرضاء أمير المسلمين أثناء عبوره الثالث عن طريق السفراء الذين أرسلهم الى سبتة على أمل أن يقبل يوسف الأمر الواقع ، ولكن دون جدوى (٣) .

(٢) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١١٣ - ١٢٥ - حيث النص أخيراً على القول : « وصرفت بوجه احتياطي الى تشييد الحصون ، فان غلب المربط لم يفتنا الدخول في طاعته ٠٠٠ وان غلب الرومي كنا منه على حذر » . وهنا يقرر الصنهاجي انه كان مضطراً الى أن يدفع لألفونس جزية ٣ (ثلاثة) أعوام بما فيها سنة الزلافة والتي تلتها ، وقدرها ٣٠ ألف دينار مرايطي ، دفعها من مخدراته وليس من أموال الرعية ، خشية الشكوى الى مراکش (مروكش) ، والقول : « أخذ أموالنا ، وأعطاهم للنصارى » ، وقارن القرطاس ، ص ١٥٣ - حيث النص على ان سبب غزوة غرناطة أن صاحبها عبد الله بن بلقين بن باديس بن حيوس كان قد صالح ألفونسو الـ ٦ ، وظاهره على يوسف ، وبعث اليه بالمال ، واشتغل بتحصين بلده . وفي تحصين البلد قال بعض الأدباء المعاصرين .

يبنى على نفسه سفاهاً كأنه دودة الحسبر
دعوه يبنى فسوف يدري اذا أتت قدرة القدير

هذا كما يشير الأمير عبد الله الى مسائل ثانوية أخرى ، مثل : تهديد ألفونس للمعتمد (ص ١٢) ، ونفاق يهود اليسانة (Lucena) ضاحية غرناطة ، الأغنياء ، الذين كان يقع عليهم عبء الكثير من الضرائب الطارئة (ص ١٣٠ - ١٣١) ، وقصة زواج الأميرتين اختي عبد الله من بعض رجال الدولة ، دون عرض ذلك أولاً على أمير المسلمين (ص ١٣٩ ، ١٤٣) ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٧١ - حيث الجواز الثالث سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م ، وان السبب : ما كان على حصن لبيط من ملوك الأندلس مما أحفظه (يوسف) وأوغر صدره عليهم . وأنهم لما علموا ذلك نظر كل منهم لنفسه بغاية عزمه . وأول من جهر بذلك وتظاهر به ، وجد فيه المنظر (عبد الله بن بلقين ، صاحب غرناطة) ، وغضب يوسف بن تاشفين لذلك . (٣) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٥٤ - حيث تكونت السفارة من ابن سهل القاضي ، =

وهكذا فعندما التقى يوسف بن تاشفين بالمعتمد بن عباد بقرطبة (٤٨٣هـ/١٠٩٠م) وتأكدت لديه شبهة العلاقة بين ألفونس السادس وعبد الله بن بلقين ، أرسل الى هذا الأخير يأمره بالحضور لديه فى التو واللحظة . وعندما اعتذر اليه عبد الله عن طريق الرسل ، أساء أمير المسلمين الى السفيرين ، وأخبرهما بعزمه على غزو صاحبهما ، تماما كما يغزو ألفونس « وانذى يقدر عليه (عبد الله) فليصنعه » (٤) .

غرناطة أولا :

وبدأت كتب يوسف بن تاشفين تصل الى أهل اليسانة (Lucena) وقواد الحصون يطلب منهم الخضوع له (٥) . ولم تمض الا أيام قليلة ، قضاهما عبد الله بن بلقين متفجعا مدهوشا ، حتى وصل العسكر المراتبى الى غرناطة ، يسبق أمير المسلمين . وفشل رسل عبد الله ، من فقهاء حاشيته فى ائتناع يوسف بن تاشفين بقبول الهدية المالية ، اعتبارا لرابطة الدم بينهما ، حيث اعتبر عبد الله نفسه بمثابة ابن له . وأصر يوسف على خروجه اليه ، مع اعطائه الأمان فى نفسه وفى أهله ، دون المال (٦) . وهكذا ، وبمجرد

١٠٠٠ يوسف بن زاوى النلكانى ، وحيث قال لهما أمير المسلمين : « يصنع ما شاء ؛ لست ممن يكنف أحدا الا طائفه » - ويعلق عبد الله على ذلك قائلا : « فكان ذلك منه دهاء وحذفا » . ولا بأس أن يكون ذلك ردا على إفراح الأمير عبد الله بأنه كان مستعدا لتقديم المساعدة العسكرية لأمر المسلمين أو المالية ، ولكن دون أن يخرج بنفسه للمشاركة فى العمليات العسكرية المحتملة (ص ١٢١) .

(٤) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٤٧ - حيث أحد الرسل : ولد حجاج ، والآخر ابن ما شاء الله ، اللذين قرعا وثقفا فى الحديد .

٥ - مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٤٨ - حيث كان محتوى خطابات يوسف بن تاشفين : آية من سورة الاسراء (رقم ٨١) التى نقول : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » .

(٦) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٤٩ - حيث اضافة أسباب أخرى مؤذنة بالروال (ص ١٥٠ - ١٥١) - من ابتهاج الجند من البربر بأقاربهم المراتبين ، وعجز المطمعين من النجار وأهل البلدة عن الحرب ، وطمع الرعية فى الحرية . وفى التخفف من الضرائب باستثناء الزكاة والعشر . وهكذا كان الجميع بأمل فى مستقبل أفضل ، من : حماة الحصون من « الرقاصة » ، والعبيد الصتالية ، بل والخدم من النساء والحصيان ، كل طامع فى إقبال الدنيا عليه والخروج من ثغاف العصر الى راحة السريح ، والاستهزاء بالرجال ، وما أسسه ذلك . وعن « الرقاصة » من حراس الحصون من العبيد السودان الذين كانوا يخدمون البربر أيضا أنظر دوزى (Dozy) ، ملحق القواميس العربية بالفرنسية ، ج ١ ص ٥٤٧ (حيث راقص المغرقة تعادل ساع المشرقة) .

- ٣٣٠ -

وصول أمير المسلمين خرج عبد الله بن بلقين اليه متوكلا على القدر ، حيث يقول : « وكأنا نساق الى الموت » • وإذا كان عبد الله قد اطمأن بتأكيد الأمان له ولأهله فقد كان عليه ان يقدم ما لديه من الاموال ووثائق الممتلكات ، بعد ما صودر ما كان قد أخرجه بصحبته من الذهب والجواهر « والدنانير المرابطية » ، وذلك بمعرفة قرور : « أمين السر » الذى يشكك عبد الله فى أمانته التى قد لا تقاوم اغراء تلك الذخائر والكنوز (٧) •

والذى نراه أن رواية الأمير عبد الله تمثل التحليل الدقيق ، وبالتالى الواقعى الصحيح ، لموقف أمراء الأندلس جميعا وبلااستثناء ، من يوسف بن تاشفين : أمير المرابطين (المغاربة) وأمير المسلمين (الأندلسيين) - وهو باختصار موقف التمزق ما بين هاجس الحسran الفردى الآتى وأمل المستقبل الأفضل للأمة والجماعة • ولا شك أن صلة القرابة الصنهاجية كان لها دورها فى وقوف عبد الله بن بلقين ذلك الموقف المتوازن ، الذى يعبر فى الحقيقة عن الواقع الغامض ما بين شك الخوف ويقين الرجاء •

والى جانب تلك الرواية المتوازنة ، يمكن أن نرى روايتين مختلفتين من حيث وقوف احدهما الى جانب اليمين المرابطى ، والآخرى الى جانب اليسار الأندلسى • والأولى هى رواية ابن أبى زرع التى لا تريد أن يكون الهدف الأول للأمير المسلمين ، فى جوازه الثالث سنة ٥٨٣هـ / ١٠٩٠م ، هو الاستيلاء على أملاك المسلمين فى الأندلس ، بل تحطيم العدو الأسباني المسيحى فهو يرى هنا أن ذلك العبور كان برسم الجهاد ، وأنه نزل على طليطلة وحاصرها وبها ألفونس ، وخرّب نواحيها وقتل أهلها • أما عن غزوة غرناطة فكانت ثارا من أمراء الأندلس الذين لم يستجيبوا لندائه للحاق به - الأمر الذى لا سند له فى مذكرات الأمير عبد الله أو غيرها من المصادر • والحق ان نص ابن أبى زرع بعد ذلك ، على ان يوسف بن تاشفين سار من حرب طليطلة الى منازل غرناطة لأن صاحبها كان قد صالح ألفونسو السادس ، وظهره على

(٧) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٥٥ - ١٥٨ - حيث التفتيش الدقيق الذى يبلغ حد حفر الأرض ، والبحث عن الودائع عند الناس ، ومصادرة كل شئ ، والمهم ان عبد الله وجد العزاء عن كل ذلك فى ثقافة جيدة اذ يقول لأمه بتلك المناسبة : « ليس يدخر المال الا لثلاث : سلطان ، او فتنة ندوم أو عمر يطول » • وعن ذخائر قصور غرناطة المصادرة ، أنظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٥ - حيث السبحة التى تحوى ٤٠٠ جوهرة ثمن الواحدة منها ١٠٠ (مائة) دينار ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٧ ، نصار ، ج ٢٤ ، ص ٢٦٨ •

يوسف ، وبعث اليه بالمال ، واشتغل بتحسين بلده (٨) ، يشكك في أن يكون ابن تاشفين قد مر بغرناطة مرور الكرام ، وأنه ترك فتحها حين العودة من الجهاد .

اما عن رواية الحلل الموشية التي تعبر عن وجهة النظر الأندلسية بعامة ، فهي ذات قيمة تاريخية عالية ، من حيث أنها تنص على أن يوسف ابن تاشفين بدأ باخراج تميم ، أخى عبد الله بن بلقين الأصغر من مالقة ، وهو على الطريق الى غرناطة . ولما كان عبد الله لم يعرف بمصير أخيه الا في مدينة مكناسة بعد نفيه الى المغرب (٩) ، فان ذلك يعنى اختلاق قصة مهاجمة طليطلة ، كما ترد في القرطاس قبل فتح غرناطة .

والهم أن الأمير عبد الله استقبل أمير المسلمين خارج المدينة لتسليمه البلد ، وهو الأمر الذى يأخذ فيه صاحب الحلل الموشية برواية الأمير عبد الله - أهم وثيقة وصلت إلينا في هذا الشأن (١٠) .

وهكذا تكون مملكة غرناطة الصنهاجية قد سلمت بشقيها في سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م الى أمير المسلمين بمحض ارادة أصحابها ، أقارب لمتونة أصلا دون حرب . أما عن تحديد اقامة الأميرين عبد الله و تميم بعيدا في أغمات ، بعد التعرف على أحوال البلد وتوطيد أمورها (١١) ، فهو أمر مشروع من حيث تأمين الأوضاع في الاقليم الشمالى (الأندلسى) الذى دخل جديدا في حظيرة المغرب ، الذى صار الاقليم الجنوبى من الدولة المرابطية (المتحدة) .

(٨) القرطاس ، ص ١٥٣ .

(٩) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٢ - ١٦٣ - حيث أبعد تميم الى السوس ، وأنه زار أخاه عبد الله على طريق مكناسة ، فأخبره بهول ما قاسى - رغم انه كان أول من أطاع يوسف بن تاشفين ، وضرب الدراهم المرابطية .

(١٠) الحلل الموشية ، ص ٧١ ، وما سبق ص ٣٣٠ أما عن رواية القرطاس المتحيزة للمرابطين فتجعل استسلام غرناطة بعد شهرين من الحصار (القرطاس ، ص ١٥١) .

(١١) الحلل الموشية ، ص ٧١ ، والقرطاس ، ص ١٥٤ - حيث النص على خسوف ابن عباد ، وانقباضه عنه وعشى الوشاة بينهما بالنمائم ، وتغير عليه يوسف .

استسلام بقية امراء في سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م :

سير بن أبي بكر نائبا لأمير المسلمين بالأندلس :

كان استسلام الأمير عبد الله وتسليمه غرناطة للمرابطين يعنى بداية النهاية بالنسبة لبقية رؤساء الطوائف بالأندلس . وهذا ما كان أعنه تقريبا ، أمير المسلمين بعد دخوله غرناطة ، عندما أتاه المعتمد بن عباد ، صاحب أشبيلية وكبير الرؤساء ، وبصحبته المتوكل بن الافطس ، صاحب بطليوس للتهنئة بأخذ غرناطة ، فكان استقباله الفاتر لهما أشبه ما يكون بالرفض لمساعهما(١٢) ، فكأنه الانذار النهائي ، كما في المصطلح الحديث .

وهكذا بدأت الوحشة بين يوسف بن تاشفين وأمراء الأندلس بضم مملكة غرناطة الصنهاجية الى الدولة المرابطية ، وتمثلت القطيعة التامة بين الطرفين في عودة أمير المسلمين الى مراكش في رمضان ٤٨٣هـ/ أكتوبر ١٩٩٠م(١٣) ، في أثر الأميرين عبد الله وتميم (ابني بلقين) ليطمئن على حسن عزلهما ، كما نظن ، بعد أن ترك زمام الأندلس ، وتقرير مصير بقية رؤسائها الى القائد سير بن أبي بكر ، الذي صار من وقتئذ بمثابة نائب الملك - بالنسبة للأمير المسلمين(١٤) .

والحقيقة أنه كان لطرد أمير غرناطة من الأندلس رنة حزن في قلوب أمراء أشبيلية(١٥) ، ولم يكن أمام المعتمد سوى أن يعيد سيرة أمير غرناطة ، اذ أخذ في بناء الأسوار وترهيم (عمل) القنطرة(١٦) . وعندما تحسنت الأحوال الجوية بحلول صيف سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م ، أخذ يوسف بن تاشفين من سببته مقرا له ، حيث جمع جيوشه التي أعدها لانتهاء نظام الطوائف ،

(١٣) القرطاس ، ص ١٥٤ .

(١٤) أنظر القرطاس ، ص ١٥٤ - حيث النص على ان يوسف بن تاشفين عندما جاز الى العدو قاصدا مراكش قدم على الأندلس قائده : سير بن أبي بكر اللمتوني ، وفوض اليه جميع الأمور كلها ، ولم يأمره في ابن عباد بشيء .

(١٥) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٧ - ١٨٨ - حيث كان الرشيد بن المعتمد يتوجع في مجالس أسسه عندما يجرى ذكر غرناطة وقصرها ويتطبر بذلك . وقارن الحلل المرشبة ، ص ٧٢ - حيث انصرف المعتمد والمتوكل الى بلادهما اثر عودتهما من غرناطة وأدرك ابن عباد الندم على استدعاء يوسف .

(١٦) الحلل المرشبة ، ص ٧٢ - الأمر الذي جعل الرشيد يذكر والده المعتمد بما كان من اعتراضه على دعوة الصحراوي الذي يخرجهم من بلادهم .

مكتفيا بالاشعاع على جواز العساكر الى الأندلس حيث كان سير بن أبي بكر ، دون أن يعبر بنفسه (١٧) . فكان الأمر يتعلق بفتنة لا يصح أن ينغمس فيها أمير المسلمين .

ولقد اقتضت « فتوح » المرابطين في الأندلس أن يترك أمير المسلمين هراكش العاصمة ليتخذ رباطا ثانيا في سبتة - كما سيتخذ الموحدون رباطا ثالثا لهم في الرباط الحالية ، ولكن من أجل فتوح برغواطة . وتطلب الأمر تطوير سبتة وما فيها من المرافق بحيث تقدم الخدمات اللازمة لحشود العساكر من مقيمة فيها وواردة ومصادرة . ولقد قام يوسف بن تاشفين بترميم جامع سبتة والزيادة فيه من جهة الشمال حتى أشرف على البحر ، كما اعتنى ببناء بلاط المحراب الأعظم ، وزخرفته (١٨) بما فيه من المحراب والمئبر ، على ما يظن .

هذا كما تطلب الأمر العناية بميناء سبتة حيث رمت أسواره السفلى (الستارة) ، الأمر الذي كان يؤمن مخيمات العساكر التي كانت في حالة استرخاء ، من غناء السفر ، انتظارا للعبور (١٩) .

مسار الأحداث :

وهنا نشير الى ان سرد أحداث هذا الفتح الجديد للأندلس ، منتظمة في مسارها الزمني الصحيح ، ليس أمرا سهلا بسبب فقدان الوثائق الأصلية وخاصة من الرسائل الرسمية ، التي أصابها التحريف على مر الزمن وتوالى الدول من صدقة ومعادية ، وكذلك الأمر بالنسبة للروايات التاريخية التي نفتقد الكثير منها ، كما تعرض ما وصل إلينا منها الى أعمال البتر والزيادة والتصحيف ، بل والتشويه ، بقصد أو بغير قصد ، حتى بعدت في كثير من المواضع عن أصولها الأولى . وإذا كان الفضل يرجع الى قدامى الأساتذة من المحدثين في توطئة دراسة هذه الفترة وتمهيدها عن طريق الكشف عن مخابىء المصادر المخطوطة ثم التحقيق والنشر والبحث ، مما ظهر في عمل جوزيف أشباح ، وبخاصة أعمال رينهارت دوزي ، وخليفة

(١٧) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ (النويري ، ص ٣٨٧) - حيث النول - وهما -

انه سير العساكر مع سير عبر المضيق .

(١٨) الحلل الموشية ، ص ٧٢ .

(١٩) الحلل الموشية ، ص ٧٢ .

هذا الأخير : ليفي بروفنسال - كما كان يسميه الأستاذ عبد الحميد العبادي - ومن اهتمدى بخطاهم ، مثل : عنان ومؤنس ، فان الأمل ما زال مرجوا في مواصلة الكشف عن وثائق جديدة ، والجهد في البحث والتقصي ، حتى تتلاحم أجزاء الموضوع ويغمر الضوء ما يكتنف أحداثه من الغموض ، فتتجلي الحقيقة واضحة للعيان .

وهنا نرى أن كتاب التبيين لعبد الله بن بلقين الصنهاجي الذي نشره بروفنسال تحت عنوان « مذكرات الأمير عبد الله ، أمير غرناطة المعاصر ، الذي عاش الأحداث ، وشارك في نسيج سدااتها ولحمتها ، هو أفضل وثيقة وصلت إلينا في موضوع الطوائف . والحقيقة أنها شهادة اعتراف أخيرة من رجل يتقدم بخطى ثابتة وعقل متفتح نحو نهايته الغامضة ، وهو لا يريد من سعيه هذا الا حكم التاريخ . فهو رغم مشاهدته لخلع بقية ملوك الطوائف بشكل مباشر ، فانه يذكر ما بلغه نقلا مما يقبله العقل ، لا بتخليط الناس » (٢٠) .

الوحدة تحت الراية المرابطية : بداية لعملية الانقاذ :

والسبب الرئيسي لخلع بقية ملوك الطوائف ، هو نفس السبب الذي تم به خلع عبد الله من امارة غرناطة ، وهو خوف يوسف بن تاشفين على « بلاد المسلمين » بالأندلس من الرومي (ألفونس ال ٦) . فأمر المسلمين لا مطمع له في مال أو بلاد (٢١) ، فكان روايته موالية للمرابطين - ربما بحكم القرابة مما سبقت اليه الاشارة (ما سبق ، ص ٣٣٠) . وهذا ما يؤكده أيضا قول عبد الله في مذكراته : ان أمير المسلمين ما كان يخاف ابن عباد الا بذنب ، وانه كان قد عرض عليه السماح والعفو شريطة التزام الرباط والجهاد ، واسقاط المغارم ، ولكن ابن عباد لم يرض بذلك (٢٢) .

والى ذلك فلا شك أن فكرة توحيد المسلمين في الأندلس تحت راية

(٢٠) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٤ .

(٢١) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٤ - حيث النص على أن أمير المسلمين ، قيل مجئته الى غرناطة وقد وعد المعتمد بها ، اذ قال له : « أنا رجل مغربي وليس قدمي أخذ مال ولا بلاد الا الخوف على غرناطة من الرومي . . وكذلك كان موقف ابن الألفيس وصاحبه المرية » .

(٢٢) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

أمير المسلمين (المرابطية) في مواجهة حرب الاسترداد المسيحية الى جانب تخفيف عبء الضرائب عن كاهل الناس ، كانت تحظى بموافقة المجاهدين في الحصون ، والرعية من التجار وأهل الأسواق ، وتزيد في ارتباطهم بدعوة أمير المسلمين ، وترجع كفة أنصاره المرابطين . وهكذا كان المرابطي يستميل حماة المعقل ويثير الرعية بكل قطر ، الأمر الذي كان يضعف من قدرة ملوك الطوائف على المقاومة والصمود ، ويجعل المواجهة وما يتبعها من الاستسلام أشبه بأعمال التسليم والتسليم بين كبار رجال الدولة الواحدة ،
حقا .

خطة شاملة لغزو ملوك الطوائف :

من الواضح أن يوسف بن تاشفين عندما رجع بعد الاستيلاء على غرناطة الى مراكش ، في خريف سنة ٤٨٣هـ / ١٠٦٠م ، كان يهدف الى اعداد العدة لتقضاء - دفعة واحدة على بقية ملوك الطوائف المتحالفين مع ألفونس السادس كسابق العهد بهم ، وبدون استثناء رئيسهم ، المعتمد بن عباد وبنيه الذين كانوا يسيطرون على معظم أراضي الوسط والجنوب الأندلسي ، في : أشبيلية وقرمونة ورندة الى حدود الجزيرة الخضراء جنوبا ، وشمالا الى قرطبة وحتى قلعة رباح - آخر امتداد الأراضي الاسلامية في اتجاه نهر تاجه (٢٣) .

والذي يفهم من الخطة التي قضت ببقاء أمير المسلمين في المغرب ، واتخاذ سبلة قاعدة للحشد ومركزا متقدما للإشراف على سير العمليات الحربية فيما وراء المضيق ، هو اعطاء يوسف بن تاشفين الفرصة لمواجهة ما قد تتطلبه الجبهة الأندلسية من حشود وامدادات من مراكش ، في الوقت المناسب . كما كان ابتعاده عن ميدان المواجهة صونا لذاته من التعرض لتجريح الغيبة والنميمة ، وحفظا لشخصه من التعرض لمخاطر القتال ، كما حدث في الزلاقة ، وهو الأمر الذي لم تكن تسمح به النظم المرابطية الأولى ، والدولة في بداية أمرها على عهد عبد الله بن ياسين وأبي بكر بن عمر فما بالنا وقد أصبح أمير المسلمين مركز الدائرة ، ومعقد الآمال في كل بلاد الأندلس ، فضلا عن المغرب (٢٤) .

(٢٣) القرطاس ، ص ١٥٥ .

(٢٤) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٧٦ - حيث التعليق على استيلاء السيد (El-Cid) على مدينة بلنسية بقوله : وأول ما يجب أخذ أنفسنا به : اخلاص النية للأمير المسلمين - أيده الله ، لأن صلاح المسلمين بصلاحه .

- ٤٣٦ -

ورغم ما يوجد من تقديم وتأخير في فتح مدن الأندلس وترتيب
خضوعها لحكم يوسف بن تاشفين في سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م بعد غرناطة ،
فان مملكة العباديين كانت الهدف الأول بالنسبة للقائد سير بن أبي بكر ،
من حيث كونها في مركز الوسط ، أشبه بحجر الزاوية الذي تسقط بسقوطه
أركان البناء . أما مقولة أن أمير المسلمين لم يأمر نائبه القائد سير بن أبي بكر
بشيء في ابن عباد(٢٥) ، فهدفها ، كما نرى تجميل موقف يوسف بن
تاشفين الذي كان يرى ابتداء ، أنه من حسن السياسة أن يقرب المعتمد من
نفسه حتى يسهل عليه التخلص من صغار المشايخين من الأمراء كابن رشيق
(صاحب مرسية) أو قريبه الصنهاجيين : تميم وعبد الله (صاحب
مالقة وغرناطة) .

وفى محاولة تلخيص الأعمال الحربية التي قامت بها حامية الأندلس
المرابطة بقيادة سير بن أبي بكر ، والجيوش الأخرى التي أرسلها يوسف
ابن تاشفين من سبتة عبر المجاز سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ، يتراوح الأمر بين
٤ (أربع) عمليات كبيرة استهدفت ٤ (أربع) مدن هي : أشبيلية والمرية
وقرطبة وبطليوس(٢٦) ، أو ٦ (ستة) باضافة : قرمونة وجيان(٢٧) .

واذا كان مما يحدد لصاحب كتاب الحلل الموشية (المجهول) اجتهاده
في محاولة تلخيص عمليات استيلاء يوسف بن تاشفين على الأندلس ، وضمها
الى البلاد المراكشية في السنة الثانية من العبور الثالث (٨٤هـ/١٠٩١م)

(٢٥) القرطاس ، ص ١٥٤ .

(٢٦) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٧٧ ، ١٩٣ ، وقارن النويري ، أبو ضيف ، ص ١٦٢ .

٣٨٧ - ٣٨٨ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

(٢٧) القرطاس ، ص ١٥٤ - ١٥٦ ، وقارن ابن خلدون (الذي ينقل عن القرطاس -

دون أن يشير الى ذلك) ، ج ٦ ص ١٨٧ وما بعدها - حيث الجواز الثاني سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م
خطأ وهو مصحح الى ٤٨١هـ/١٠٨٨م في ترجمة دسلان ، ج ١ ص ٧٩ - حيث الخطأ بن
جواز لسط (البدو) ٤٨١هـ/١٠٨٨م وفتح غرناطة ومالقة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م وصي ١٨٨ -
حيث الجواز الثالث في سنة ٤٨٠هـ/٧ - ١٠٩٦م بدلا من ٤٨٣هـ/١٠٩٠م ثم جواز الأمير
بجى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين سنة ٩٣(٤)هـ/١١٠٠ - ١٠٩٩م ، وانضمام
محمد بن الحاج اليه مع سير بن أبي بكر - حيث اقتحموا عامة الأندلس من أيدي ملوكها ،
وذلك بدلا من سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ، وقارن ص ١٨٨ ، والترجمة ص ٨٢ - حيث الجواز الرابع
في سنة ٩٧(٤)هـ/١١٠٤م - وهي السنة التي زحف فيها المنصور بن ناصر الحمادي إلى
تلمسان .

في ٤ (أربع) حملات موجهة بشكل متوازي الى :

- ١ - أشبيلية ثم بطليموس ، بقيادة نائب الأندلس سير بن أبي بكر .
- ٢ - قرطبة بقيادة أبي عبد الله محمد بن الحاج .
- ٣ - المرية بقيادة أبي زكريا بن واسينوا (٢٨) .
- ٤ - رندة بقيادة جؤذر الحشمي .

فانه مما يؤسف له اعتذاره عن هذا الاختصار بأن الأمر مشهور ، ولا داعي اذن للتقصي (٢٩) . و هنا يحسن أن نشير الى أن رواية القرطاس وهي أوفى الروايات من حيث اهتمام صاحبها ابن أبي زرع ليس بالتقصي فقط ، بل وبالماية بتدعيم الأحداث بما أمكنه من التواريخ الدقيقة .

اما عن رواية الأمير عبد الله فهي الأجدر بالنقطة من غير شك . هذا ، كما يتضح من الروايات جميعا أن اهتمام المؤرخين منصب على بلاد الوسط والغرب من الأندلس ، بينما تأتي أخبار شرق الأندلس شبه عابرة ، ربما بسبب عدم دخول بني هود أصحاب سرقسطة والثغر الأعلى في مشروع انضمام ، لتطرف الثغر المجاور للبلاد الأسبانية المسيحية في الشمال الشرقي . وساعد على ذلك أيضا موقف ابن هود المتزن من ألفونسو والمرابطين ، والذي كان مقبولا من أمير المسلمين ، بينما لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لأمراء الوسط والجنوب ، لقربهم من العدو المغربية .

وعلى أساس القرب أو البعد من قاعدة الحشد العسكري المرابطي في سبتة ، حيث كان مستقر أمير المسلمين ، توجد معلومات متناثرة ، تنقصها التواريخ الدقيقة ، عن شرق الأندلس والثغر الأعلى مما يتعلق بترك ابن هود في مملكته لأنه كان من الشجعان (٣٠) ، الى جانب أخبار عن عواصم

(٢٨) وهو في القرطاس ، محمد بن عائشة وانظر ما يأتي ، ص ٣٤٢ هـ ٣٩٠ .

(٢٩) الحلل المؤبقة ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٣٠) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ - حيث اضطراب النص الذي يبدأ (في ص ١٨٧) عن ملك أمير المسلمين بلاد الأندلس الى المسلمين بالكلام عن أخذ قرطبة واشبيلية في رجب ٤٨٤هـ / ١٠٩١م لكي يجعل بعد ذلك (في ص ١٨٩) مسيرة سير بن أبي بكر بعد دبره الخلل (خطأ) مباشرة الى اخضاع كل من مرسية وشاطبة وبلنسية (وهو الأمر المستغرب) وان فسر ذلك بأن تلك الحملة الشرقية وقعت أثناء حصار اشبيلية ، فكأنها كانت لمواحية الجيش الذي أرسله ألفونسو الى ٦ نجدة للمعتمد والحملة أن الأمير عبد الله يقول بعد سقوط نظام الدوائف في اشبيلية وبطلموس انه « نسا بعد ذلك أمر ببلنسية ٠٠٠ » =

الشرق من : طرطوشة ودانية وشاطبة وشقورة وبلنسية ، فى مرحلة
بها بعد تهدين اشبيلية والغرب (٣١) .

نهاية مملكة العباديين باشبيلية وتوابعها :

رغم قلة المصادر اللازمة لدراسة نهاية عصر انطوائف ، من حيث
ان الاساسى منها قد لا يتجاوز كثيرا أصابع اليمين عدا . ورغم قصر انقطة
الزمنية التى قد لا تتجاوز ربع القرن من اواخر عهد أمير المسلمين يوسف
ابن تاشفين ، وهو الشخصية المرموقة بالنسبة لتاريخ شمال افريقيا وشبه
جزيرة ايبيريا على الأقل ، فان ترتيب أحداث تلك الفترة بشكل منهجى من
الصعوبة بمكان . فالوثائق الأصلية ما بين مفتقدة فى غمار ما مر بالبلاد
من الاضطرابات السياسية والدينية أو مسووخة بسبب ما اصابها من آفات
البتير والزياة والتشويه ، باستثناء القليل ، مثل : مذكرات الأمير عبد الله
التى يرجع الفضل فى اكتشافها الى الأستاذ ليفى بروفنسال (مثلما اكتشف
مذكرات البيدق ، فى أخبار مهدي الموحدين ابن تومرت) .

فبفضل آراء الأمير عبد الله بن بلقين (صاحب غرناطة) يمكن التعرف
على بواطن الضعف فى نظام رؤساء الأندلس فى مواجهة المرابطين ،
مما يلخصه فى مقولة : ان « صلاح المسلمين بصلاح أمير المسلمين »
(مما سبق ، ص ٣٣٥ ، هـ ٢٤) . وبفضل حاسته التاريخية العلمية التى تقضى
باستبعاد ما لا يقبله العقل من تخليط الناس ، والتوقف عن اثبات ما لا يصح
من الأخبار ، يمكن الاسترشاد فى محاولة إعادة شىء من الترتيب لنهاية
الطوائف . ويظهر ذلك فى عرض الموضوع فى شكل ممالك مستسلمة وليس
فى شكل بلاد منهاره تماما ، كما حدث فى غرناطة الصنهاجية وتوابعها ،
مما كان قدوة يحتذى بها ، حتى تتساق بداية الاستعانة بالمرابطين مع النهاية

= وبين ان الصراع كان ما زال سجلا بين المرابطين والنصارى فى هذا الشأن ، وأنه يترك
التأليف ناقصا الى أن يتم ما يرجوه من « أن يكون الظهور للمسلمين » . وأنظر بعد ،
ص ١٩٣ - حيث النص الى جانب شجاعة بنى هود ، استعداد مدينتهم رولة لمفاجآت الحصار ،
وقارن النويرى ، ص ١٦٨ - حيث النص على انه بعد انقضاء الدولة العبادية صار ملك
الأندلس الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وص ١٦٩ - حيث النص على ان سرقسطة
والشر الأعلى « فكانا بيد ابن هود » (منذر بن يحيى) .
(٣١) أنظر القرطاس ، ص ١٥٦ ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٨ - عن سرقسطة وبلنسية
وبرشلونة .

المتوقعة لرؤساء الأندلسيين - وهو الأمر الذي كان يستوعبه المعتمد بن عباد ، عندما فضل « رعى الجمال على رعى الخنازير » (ما سبق ، ص ٢٩٥) ، وإنذى ربما كان القصد منه ، فى حينه مجرد الحوار .

قيادة الحامية المرابطية :

مقر نيابة الأندلس :

الذى يفهم من الروايات الخاصة بالحامية المرابطية فى الأندلس أنها كانت موزعة على العواصم الكبيرة ما بين ٣ آلاف وألف رجل ، بينما كانت حاميات الحصون على الحدود (الثغور) تعد بالمئات وربما العشرات (٣٢) . وعندما عبر المعتمد بن عباد فى السنة التالية للزلافة (٤٨٠هـ / ١٠٨٧م) عن الشكوى من نصارى حصن ليط (Alédo) ، يفهم من بعض الروايات أن أمير أشبيلية ، كبير الرؤساء ، كان يأمل أن يبعث معه أمير المسلمين حامية ينودها بنفسه الى ليط ، وربما لتكون تحت تصرفه بعد ذلك (٣٣) . وإذا كان يوسف بن تاشفين قد رفض ، بعد فشل حصار ليط ، مطالب الأمراء بترك حامية لديهم ، فإنه خص بلنسية التى كان يهددها الأسبان بحامية من ٤ (أربعة) آلاف رجل (ما سبق ، ص ٣٢٤) فكان عساكر المرابطين كانوا متفرقين فى العواصم والثغور ، الأمر الذى دعا الى تملل المجاهدين منهم ، مما كانوا فيه من الجهد والتعب ، بينما كان السادة الأندلسيون ينعمون بحياة الرفاه والترف (ما سبق ص ٣١٨) .

أما بعد سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م ودخول غرناطة الصنهاجية فى الدعوة المرابطية ، فكان من الطبيعى أن تصبح « حصون الحمراء القديمة » مقرا للحشد الكبير من المرابطين فى الأندلس ، بمعنى أن غرناطة كانت بمثابة مقر القائد ، نائب أمير المسلمين ، سير بن أبى بكر ، منذ تلك الفترة السابقة على صيف سنة ٣٨٤هـ / ١٠٩١م . أما عن مقولة أن سير بن أبى بكر كان على رأس الجيش الأول ، الذى عبر من سبتة فى صيف ٤٨٤هـ / ١٠٩١م

(٣٢) ما سبق ، ص ٣١٨ وهـ ٧٣ ، وانظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٦ ، والترجمة الفرنسية ، ج ١ ص ٨٢ - حيث النص على أنه عند رجوع أمير المسلمين الى المغرب بعد الزلافة ، خلف عسكرا بأشبيلية تحت قيادة محمد ومجون (ابن مجنون (ou-Meggoun) بن سيموين (Semouin) بن محمد بن وركوت (ابن وركوت (ou-Reggout) من عشيرته ويعرف أبوه بالحاج - وكان محمد من بطانته ، وأعظم قواده .

(٣٣) أنظر يوسف أشباح ، ترجمة عنان ، ج ١ ص ٩ .

« ما سبق ، ص ٣٣٦) ، فأغلب الظن أنها تعنى اشراف سير بن أبى بكر من الجزيرة الخضراء على عملية العبور ، بينما كان أمير المسلمين يصدر اليه الأوامر من سبتة . وكان من بين تلك الأوامر بده سير بالتوجه لأخذ أشبيلية .

الشروع فى غزو أشبيلية :

والذى يفهم من الرواية المرابطية ان الأوامر قد صدرت من سبتة الى سير بن أبى بكر بأن يبدأ بالشروع فى انهاء نظام الطائفة الأشبيلية ، وذلك مع بداية صيف سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م . ومن الواضح ان الخطة كانت تقضى بأن يرجىء استخدام العنف الى آخر وقت ، وفى أضيق الحدود . ولا بأس أن كان نموذج دخول غرناطة سلما هو الأفضل ، بصرف النظر عما يقال من الغدر أو الخديعة (ما سبق ، ص ٣٢٧) . فهذا ما تعنيه رواية القرطاس التى تنص على أن الأمير سير بن أبى بكر كان يتوقع عندما أقبل على أشبيلية أن يخرج اليه المعتمد بن عباد بما كان متعارفا عليه من الترحيب بنائب أمير المسلمين وتقديم الضيافات لعسكره ، وكان الود ما زال متصلا بين المعتمد وبين أمير المسلمين .

وهنا وجد سير اعلان المعتمد بضرورة تسليم بلاد مملكته (٣٣م) التى كانت تشتمل على كل من : قرطبة وقرمونة ورندة ، كما كانت تخضع لها جيان ، وعدد من الحصون والقلاع ، التى حكمها بعض أبناء المعتمد الذين بلغوا مائة ذكر غير الاناث (٣٤) ، والمقربون منه من رجال الدولة . ولم يستجيب المعتمد للدعوة الموجهة اليه باسم أمير المسلمين فقط ، بل انه حذر ابن الأفطس فى بطليموس ، وأخذ فى مراسلة ألفونسو السادس طالبا منه النجدة (٣٥) .

وعندما وجد سير ان أعمال التحصين أخذت تسير على قدم وساق فى المدينة ، كان عليه أن يتخذ الاجراءات العسكرية اللازمة لاحكام الحصار .

(٣٣م) القرطاس ، ص ١٥٤ ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٧ ، وقارن مذكرات الأمير عبد الله .

١٦٨ - ١٦٩ .

(٣٤) أنظر النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٤ ، وأنظر فيما بعد ، ص ٣٤٧ .

(٣٥) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٩ - حيث يسمى ألفونس « بالرومى » ، وينسب

على انه « قعد عنه » خيفة من التغيرير بمعنى انه أثر السلامة خشية التورط فى ذ . الأمر .

حولها ، بهدف ارغام المعتمد الذي كان معتصما بقلعة قصوره المعروفة بالقصبة على طاعة أوامر أمير المسلمين (٣٦) . ولما كانت مدينة أشبيلية مفتوحة من جهة الغرب على نهر الوادي الكبير ، حيث كان مرسى الأسطول الذي كان يحميها من ذلك الجانب ، ويخفف من وطأة الحمر المفروض على الضفة الشرقية للنهر ، كان الأمر يتطلب إعداد جيش ثان لمواجهة الأسطول .

ودون تضييع الوقت انتظارا لاستكمال الحشود والعدد كان على سير أن يلجأ الى إثارة أهل البلاد على حكامهم العباديين في كل مكان ، واستخدم في ذلك الفقهاء والعلماء الذين كانوا يرون أن غزو المرابطين لبلادهم أمر مباح ، وذلك ما سهل سقوط الكثير من عواصمهم ومعاقلم دون جهد كبير (٣٧) .

أخذ المرية :

وهكذا كان دخول المرابطين الى المرية بغير قتال على يدي القائد محمد بن عائشة (٣٨) ، اذ تقول الرواية ان أميرها محمد بن صمادح مات غما ، وهو على سرير المرض ، عندما علم بقدوم المرابطين بينما فر ابنه المعز في رمضان سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م في البحر لاجئا الى بجاية في كنف المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي (٣٩) .

(٣٦) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٩ ، القرطاس ، ص ١٥٤ .
(٣٧) أنظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٠ - حيث النص على ذهاب كثير من معافل ابن عباد بالطاعة ، وفارن الذخيرة لابن بسام ، ق ١ م ٢ ، ص ٦٥١ - حيث اللقاء تيمة الفتنة منذ بدايتها الأولى على المعتمد - حيث القول : « وأشد هذه العصابة المشؤومة ابن عباد الذي سسل سيف الفتنة والبغى من قرابة ٠٠٠ ففزا على الاسلام في عقر دارهم ٠٠٠ واستعار اثم الشهيد هشام المؤيد لغير أهله .
(٣٨) أنظر القرطاس - ص ١٥٥ ، وهو في الحلل الموشية : أبو زكريا بن واسبنرا (ما سبق ، ص ٣٣٧) .

(٣٩) أنظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٧ - حيث النص على أنه مات عندما وصل المرابطون الى باب المدينة ، مع الاشارة الى أنه كان قد أوصى ابنه وولي عهده المعز بأن يبقى محصنا بالمدينة طالما بقي المعتمد صامدا في القصبة (القلعة) . فاذا ما خرج من اسبيلية فعليه أن يغادر المرية في التو واللحظة على أن يلجأ الى الخزانة في كنف بني حماد . وهذا ما فعله المعز فعلا ، اذ خرج عندما تأزم الموقف في مركب شحنه بجمع ما يندر عليه من ذخائره ، بل وكان ذلك في السر ، وعلى أنه « ناهض الى أمير المسلمين بهدية ، ليهن بذلك أهل المرية » . وقارن ابن بسام ، الذخيرة ، ج ٢ ق ١ م ٢ ، ص ٧٣٤ - حيث النص على أن ابن صمادح - مثل المعتمد - كان قد جاهر بالعصيان =

سقوط جيان وقرطبة :

وهكذا رأى سير بن أبى بكر ألا يضيع كل جهده فى حصار أشبيلية ، وأن يحسن استغلال نجاح الدعاية المرابطية فى اكتساب شعب الأندلس الى جانب سياسة أمير المسلمين التى قد تؤمن لهم عملية الانقاذ حقا ، وأن تبدأ بأخذ ما يمكن أخذه من البلاد بأيسر السبل . وأصدر سير أوامره فعلا الى مروسه القائد بطى بن اسماعيل بالمسير الى جيان التى كان صاحبها عبد الله بن بكر من أتباع ابن عباد ، وأخذها . وبعد أن حاصر بطى المدينة نجح فعلا فى دخولها صلحا(٤٠) .

ورأى سير أن يستغل الظروف المواتية ، فأسرع وهو يزف الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين خبر خضوع جيان ، بالكتابة الى بطى بن اسماعيل يأمره بترك تلك المدينة ، والمسير لأخذ قرطبة التى كانت تحت امرة المأمون بن المعتمد بن عباد(٤١) . ولم يطل حصار مدينة الخلفاء طويلا فلقد سقطت بفضل مداخله أهلها ، وذلك فى ٣ صفر ٤٨٤هـ/ ٢٦ مارس ١٠٩١م . وكانت عقوبة المأمون بن المعتمد هى القتل ، وكذلك الأمر بالنسبة لوزيره ابن زيدون(٤٢) .

= أما عن ميته فكانت أدبية تناسب موضوعات الكتاب . فعندما سمع جلبة أصوات المرابطين ، وهو مريض قال : لا اله الا الله ، نفص علينا كل شيء حتى الموت . وقارن القرطاس ، ص ١٥٥ - حيث النص على هرب صاحبها (معز الدولة) فى البحر الى افريقية بأمواله اله ، وأسلم له البلد ، فملكها المرابطون ، وكتب محمد بن عائشة بالفتح الى أمير المؤمنين ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٧ ، والترجمة ص ٧٩ - حيث النص انه بمجرد بدء العداوة مع المعتمد ابن عباد بعث (يوسف بن تاشفين) جيشا الى مرية ، ففر عنها ابن صمادح ، ونزل على المنصور بن الناصر ببجاية (وان وضع ذلك خطأ فى الجواز الثانى) سنة ٨٦٤هـ/ ١٠٩٣م بدلا من (٨٨١هـ/ ١١٨٨م) . وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٢ - حيث يجعل فتح المرية ، بعد سقوط أشبيلية وعلى يد سير بن أبى بكر نفسه ، وان واليها محمد بن معن بن صمادح مات غما ، وان ولده خرج ناخوته وأهله فى مركب الى الجزائر (بأمواله) والتحق ببني حماد فأحسنوا اليهم ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٨ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٩ - حيث نهاية النص « والتحق ببني حماد » الذين أسكنوه تدلس ، وهو تحريف كما نرى .

(٤٠) القرطاس ، ص ١٥٤ .

(٤١) القرطاس ، ص ١٥٤ .

(٤٢) أنظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٠ - حيث النص على قتل من يسمى ان بكر (مع الوزير) وأغلب الظن انه عبد الله بن بكر والى جان السابق الذى قد يكون لجأ الى قرطبة .

تهدين أعمال قرطبة وموقف المعتمد من الفونس :

وكان على بطى أن يهدن بلاد قرطبة بالاستيلاء على أعمالها من البلدان والقرى وما يتبعها من الفلاح ، من : بياسة الى أبدة أو حصن البلاط والمدور والصخرة وشقورة . ولما كان ابن أبى زرع يذكر بشيء من المبالغة ، كما نرى ، أنه لم ينته شهر صفر الذى فتحت قرطبة فى اليوم الثالث منه ، حتى لم يبق بيد أبى عباد بلد الا وقد ملكه المرابطون ، ما عدا قرمونة وأشبيلية^(٤٣) ، فأغلب الظن أن هذه الرواية تحمل فى ثناياها فكرة سقوط تلك البلاد والحصون بمداخلة من أهلها ، والطاعة لأمير المسلمين ، حسبما ينص عبد الله بن بلقين على أن « المرابط داخل معاقله (المعتمد) فقامت عليه الرعايا بكل قطر » . وهنا يكون استتجاد المعتمد - الذى كان يرى قرب نهايته - بالفونس حسب تقرير الأمر عبد الله ، فى موضعه الصحيح^(٤٤) ، كما تضع الرواية الأخرى التى يأخذ بها ابن الأثير ومن تبعه من الكتاب ، وهى التى تقول ان الأفرنج ، والمقصود الفونس السادس ، كانوا قد قرروا منذ البداية تقديم المساعدة للمعتمد ، ليس حبا له ولكن خوفا من المرابطين^(٤٥) . هذا ، ولا بأس أيضا أن يكون التفكير فى المساعدة العسكرية للمعتمد قد حدثت بعد أن طلبها المعتمد اثر سقوط قرمونة فيما بعد ، أى فى يوم السبت ١٧ ربيع الأول ٤٨٤هـ / ١٠ مايو ١٠٩١م ، كما يرى ابن أبى زرع^(٤٦) . وما يتبعها من سقوط رندة ، التى استولى عليها قرور من الراضى بن المعتمد خدعة ، بعد أن مناه بالأمان فى نفسه دون المال ، ثم قتله^(٤٧) .

(٤٣) القرطاس ، ص ١٥٤ ، وأنظر الروض المعمار ، ص ٥٧ - حيث بياسة على ٢٠ ميلا من جاس ، ص ١١ - حيث ايذه على ٧ أميال من بياسة ، ص ٨٥ - حيث الحصن المدور قرب بياسة ، ص ١٠٥ - حيث شقورة من أعمال جيان .

(٤٤) المذكرات ، ص ١٦٩ ، وما سبق ، ص ٣٣٧ .

(٤٥) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٤٦) القرطاس ، ص ١٥٥ - حيث النص على دخول قرمونة عنوة من قبل سير بن أبى بكر ، وقارن مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧١ - حيث النص على أنها فتحت قبل سقوط اشبيلية ، ومات فيها عالم كثير .

(٤٧) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧١ - حيث النص على أن قرور تخلص من الأمير العبادى الراضى دون اذن من السلطان (أى أمير المسلمين) ، وقال ابن خلدون ، العير ، ج ٦ ص ١٨٧ - حيث النص على غلبة (والى الاندلس الأمير) سير (بن أبى بكر بن محمد ابن وركوت) على كل عمله (ابن عباد) ، واستنزل أولاده : المأمون من قرطبة ، ويزيد الراضى من رندة وقرمونة - واستولى على جميعها وقتلهم .

تحييد القشتاليين : هزيمة البرهانس :

وهكذا سارت خطة تصفية مملكة بنى عباد على ما يرام ، وكان الأمير سير بن أبى بكر فى موقف يسمح له باجهاض أية عملية مساندة من قبل القوات الأسبانية المسيحية ، قد تمكن المعتمد من الصمود . فعندما علم سير بقدوم القائد (القومس : الكونت) المسيحى البرهانس (Alvar Hanez) على رأس حملة كبيرة يزيد عددها على ٢٠ (عشرين) ألف رجل ، بين فارس وراجل لمساعدة المعتمد على فك الحصار حول اشبيلية ، أسرع سير بانتخاب ١٠ (عشرة) آلاف فارس من خيرة الرجال ، وسيرهم تحت قيادة الأمير ابراهيم بن اسحق اللمتونى ، الذى التقى بالأسبان فى منطقة حصن المدور حيث دارت واحدة من ملاحم المرابطين المشهورة فى الأندلس . فلقد انتهت المعركة التى صبر فيها الفريقان الى حد الفناء ، بانتصار دفع المرابطون فيه الكثير من الشهداء ، بينما استؤصل رجال البرهانس ، فلم ينج منهم الا العدد القليل - الأمر الذى قطع الأمل تماما ، فى امكانية صمود ابن عباد(٤٨) .

الشعر الأقصى : قلعة رباح :

والمهم من كل ذلك أن بطى بن اسماعيل نجح فى المهمة التى كلفه بها سير بن أبى بكر ، وهى دخول قرطبة وتهديد أعمالها ، الأمر الذى سمح له بالاستقرار فيها ، من حيث كان يشرف على رم ثغورها . وهكذا اهتم بطى بن اسماعيل بأعمال قلعة رباح ، آخر حصون بلاد قرطبة على الحدود مع قشتالة ، فخصها بحامية مرابطية من ألف فارس من المرابطين يرأسهم قائد لمتونى مكلف بالنظر فى حسن سير العمل فى القلعة ، وضبط الأمور على طول الجبهة(٤٩) .

نهاية العباديين فى اشبيلية :

وهكذا كان يمكن لسير وقد تخفف من هاجس معونة محتملة يقدمها

(٤٨) أنظر القرطاس ، ص ١٥٥ - حيث النص بشئ من المبالغة على تكوين حملة البرهانس ، من ٢٠ ألف فارس و٤٠ ألف راجل . الأمر الذى أوجب الإكفاء بالرقم الأول دون الثانى حتى ينسجم مع عدد الحملة المرابطية ، وفارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٠ (والنويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٣) . وقارن مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٩ - حيث خاف الادمنش من النورط فى ذلك الامر .

(٤٩) القرطاس ، ص ١٥٥ .

الفونس السادس الى المعتمد ، أن يحكم الحصار حول اشبيلية ، عن طريق جيش جديد يهاجم الضفة الغربية للمدينة عبر النهر . وفعل استولى الجيش الثانى على الاسطول الاشبيلي فى نهر الوادى الكبير ، وتمكن من اعتلاء الاسوار ودخول المدينة بمخامرة أنصار المرابطين من اهلها ، وذلك فى يوم الاحد ٢٢ رجب سنة ٤٤٨هـ / ١١ سبتمبر ١٠٩١م (٥٠) .

وتظهر فى رواية ابن الأثير نزعة أندلسية عندما تتحدث عما لحق بأهل اشبيلية على أيدي الغزاة المرابطين من أعمال النهب والسلب - وانتهاك الحرمات ، بمعنى فتح العنوة واستباحة المدينة المفتوحة ، وقد يؤكد ذلك ما تنص عليه رواية موازية من ان المعتمد بن عباد سلم البلد بالأمان ، وأنه كتب نسخة العهد ، ولكن المرابطين لم يوفوا له (٥١) . اما عن الرواية المغربية التى يمثلها ابن أبى زرع فتقتصر على استمرار سير (والمرابطين) فى حصار اشبيلية حتى دخلها على المعتمد ، فأمنه فى نفسه وأهله وولده (٥٢) فكان الأمان تفضل كريم على المعتمد ، من قبل نائب أمير المسلمين .

والحقيقة أن الرواية الأندلسية النزعة تتبلور حول شخصية المعتمد ابن عباد ، الذى يشتغل بالحرب والشرب والذى يقول الشعر ويعشق

(٥٠) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٠ - حيث ينص المؤلف الغرناطى على أن دخول اشبيلية كان بعد عام من دخول غرناطة ، مدينته المفتوحة . وقارن القرطاس ، ص ١٥٥ - حيث نفس التاريخ ٢٢ رجب ٤٤٨هـ / ٩ سبتمبر ١٠٩٦م ، عن طريق الوادى ، والنويرى . أبو ضيف ، ص ٣٨٧ - حيث نفس رواية ابن الأثير مع مزيد من بعض التفاصيل ، الذخيرة لابن بسام ، ج ٣ (ق ٢ م ١) ص ٥٦ - حيث دخل عليه البلد فى ٢٠ رجب (٤٤٨٤هـ / ٩ سبتمبر ١٠٩١م) فخطب ، منجمله (أبا بكر الخولانى) شعرا .

أرمدت ام بنجوك الرممد قد عاد ضدا كل ما تعد
(٥١) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٠ - حيث القول ان الفاتحين سلبوا الناس ثيابهم ، فخرجوا من مساكنهم يسترون عوراتهم بأيديهم ، . . . وسبيت المخدرات وانتهكت الحرمات - وكان الأمر يتعلق بأعمال الفتن التى كانت تتورق قديما بين العرب والبربر أو بين العساكر وأهل المدينة ، وخاصة فى قرطبة العاصمة التى حملت محلها الآن اشبيلية . وقارن النويرى أبو ضيف ص ١٦٣ - حيث النص على أسر المعتمد ومعه أولاده الذكور والانات ، بعد استئصال جميع أموالهم . وقيل ان المعتمد سلم البلد بأمان ، وكتب نسخة الأمان والعهد واستخلصهم على نفسه وأهله وماله وعبيده . . . فلما سلم العهد اليهم لم يفرو له ، ونصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٩ - حيث اختلاف الرواية المتبصرة هنا عن السابقة .

(٥٢) القرطاس ، ص ١٥٥

النساء^(٥٣) ، فى مقابل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذى يوصف بالبساطة والورع ، والتمسك بتعاليم الدين ، فلا يقلل من شأنه الا اساءته للمعتمد ، التى تعتبر مدخلا لوسمه بشيء من الحسنة واللوم (ما سبق ، ص ٢٤٨) . والحقيقة ان المعتمد بن عباد الذى تنسب اليه ضروب من الشجاعة فى الدفاع عن مدينته ، لا تقل كثيرا عما نسب اليه يوم الزلاقة^(٥٤) ، كان ما يزال يقاوم الاستسلام بعد سقوط اشبيلية (المدينة) ، وهو معتصم بالقصبة (القلعة الكبيرة) التى كانت تعتبر بمثابة الحى الملكى فى اشبيلية ، يتوسطه القصر (Alcazar) والجامع ، ويحيط بهما معسكرات الحرس الخاص ، ومقار كبار القواد .

والمهم ان مقاومة المعتمد انتهت ، كما تقضى أصول السياسة ، تحت الحاح أهل الحاشية والمقربين بالاستسلام^(٥٥) ، وذلك نظير الأمان فى النفس ، دون الأموال والعبيد والخدم والحشم - تماما كما حدث فى غرناطة قبل

(٥٣) هذا وان كان وراء هذه الواجهة الناعمة غلظة قلب لا مزيد عليها ، لا تتمثل فقط فى القتل وارقة الدماء فى الحرب ، بل التى تصل فى حب النار والتشفى الى حد الاحتفاظ برؤوس القلى مصبرة فى بعض الخزائن وكأنها تحف أثرية ، أو التوسع فى ذلك ونصبها فى رؤوس العيdan وكأنها حديقة الموت - أنظر الذخيرة لابن بسام ج ١ (ق ١ م ١) ، ص ٣٨٨ - حيث رؤوس أمراء بطلبوس المختزنة (من حرب سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م) عند ابن عباد بأشبيلية ، ج ٣ (ق ٢ م ١) ، ص ٢٧ - حيث النص على وجود حديقة ، بباب المعنضد بن عباد ، تطلع كل وقت ثمرا من رؤوسهم (الأعداء) المهذاه اله مقرطة الأذان برقاع الأسماء ٥٥٠ ترتاح نفسه لمعاينتها ٥٥٠ وكان محمد بن عبد الجبار المهدي ، مفرق الجماعة بقرطبة سبق ابن عباد الى اتخاذ مثل هذه الحديقة المطلعة لرؤوس أعدائه . وفيها قال صاعد ابن الحسين :

جلاء العين بهجة النفوس حداثق أطلعت ثمر الرؤوس
ص ٢٨ - حيث النص على أنه لما خلق المعتمد ، وجد جوالق مطبوع عليه ، وطن أنه مال أو ذخيرة ، فاذا هو مملوء رؤساء (منها) : رأس يحيى بن على بن حمود ، ثابت الرسم متغير الشكل ، فدفع الى بعض ولده فدفعه .

(٥٤) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ ، وقارن التويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٣ ، وما سبق (عن الزلاقة) ، ص ٣٠٧ .
(٥٥) الذخيرة ، ج ١ (ص ٢ م ١) ، ص ٥٢ - حيث تقول الرواية انه يوم دخل عليه المدينة ، فى منتصف رجب سنة ٤٨٤ هـ / ٤ سبتمبر ١٠٩١م قال فى ذلك شعرا منه :

قالوا الخضوع ساسة فليبد منك لهم خضوع
وألد من طعم الخضوع على فنى السم التقيع

عام(٥٦) . وهذا ما يفسر تلك الرواية التي تقول ان المعتمد سلم البلد بأمان . وأنه كتب نسخة العهد . فلم يوفوا له (ما سبق ، ص ٣٤٥) . بمعنى ازدواجية فتح اشبيلية : عنوة (بالنسبة للمدينة وأهلها الذين نكل بهم) ، وصلحا (بالنسبة للمعتمد وأهله ، حسبما قضت شروط الصلح) - وهو الأمر الدارج في كثير من الفتوح الاسلامية الأولى .

وتمثل انتهاك أمان المعتمد في مقاتل أبنائه ممن كان يخشى خطرهم ، سواء في اشبيلية أو أعمالها من قرمونة ورندة ممن تزخر أشعاره برئائهم(٥٧) . والقبض عليه بعد اطلاق أمهات الأولاد من نسائه ، ومن كان لا يخشى منه من أبنائه الذين بلغوا حوالى المائة عدا(٥٨) ، ثم حمله مع الأبناء الصغار الى جانب البنات ، بحرا عبر المجاز(٥٩) الى سبتة ، ومنها ساروا الى مكناس موضع تجمع الأمراء المنفيين من الأندلس ، حيث التقى بهم صاحب غرناطة عبد الله بن بلقين ، قبل نقل الجميع الى أغمات(٦٠) .

نهاية المعتمد بن عباد في أغمات :

والذى نراه أن نفى المعتمد الى بلاد البربر على يدى أمير المسلمين ، هو الذى فجر طاقات الأمير المحارب ، شاعر المناسبات الموهوب ، وجعلته

(٥٦) أنظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧١ - حيث النص على انه : لما طفر بابن عباد فيا الأمير سير خدمه وعبيده (أى اعتبرهم فيثا يقسم كالغنيمة) ، حاشى أمهات الأولاد . وفي قفول يوسف بن ناشفين بعد ذلك (من سبتة) الى مراکش ، تقول نفس الرواية : « بعد الفتح انصرف أمير المسلمين الى مراکش (وقد) امتلأت يداه بالمال (الذى) قسمه على أجناده ، وأهدى الى الصحراوى عمه من تلك الذخائر .

(٥٧) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩١ - حيث النص على مقتل ولديه الفتح (صاحب فرطبة) ، ويزيد (الراضى صاحب رنده وقرمونه ؟) بين يديه (فى اشبيلية) صبرا ، وقارو النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٦ - حيث يقول المعتمد فى رثاء ولديه اللذين ذبحا بين يديه :

يتولون صبيرا لا سبيل الى الصبر سأكى وانكى ما يطاول من عمرى
ولو عدتما لاخرتما العود فى الثرى اذا انتما أبصرتما فى الأسر

(٥٨) أنظر النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٤ .

(٥٩) أنظر الذخيرة لابن بسام ، ج ٣ (ق ٢ م ١) ، ص ٥٦ - حيث النص على أنه أطلقت أمهات أولاده وبنيه . وعمر بهم مركبا ، فركبوا البحر ورزقوا السلامة فيه الى أن وصلوا الى أمير المسلمين . وبقوا هناك فى كنفه ، تحت احسانه عليهم الى أخريات أيامه سنة ٤٨٨ هـ / ١١٠٤ م .

(٦٠) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧١ .

يصنع من نهايته المحتومة ، مأساة فاجعة أشبه بمآسى اليونان القديمة أو مقاتل الطالبين الاسلامية ، كما شاركه فى هذا الصنيع ندماءه من الأدباء والشعراء الذين نعوا مجالس أنسه ، بنفس الايقاع الذى كان ينعى به نفسه . ولا نعرف ما اذا كان بعضهم وهو يرجو أخذ عطاء الأسير ، كما كان يفعل وهو أمير ، كان يحسن الظن بما يكتنزه من المال أم كان لا يهتم باستنزاف بقية ما كان يدخره لبناته - اللاتي اضطرن الى الغزل بالأجر .

والمهم ان اقامة المعتمد ، مثقفا بأغمات كما تقول بعض الروايات ، كان موضوعا لذلك النوع من الشعر الشجنى الذى ساد فى ذلك العصر ، والذى كان يعالج أشياء من أحوال البلاط ومجالس الأنس ، على وجه الخصوص . فمما نظمه المعتمد فى أسرهِ بأغمات ، تلك الأبيات التى وجهها الى الشيخ عبد الجبار بن أبى بكر بن حمد يس ، بالمهدية :

غريب بأقصى المغربين أسير يبكى عليه منبر وسرير
أذل بنى ماء السماء زمانهم وذل بنى ماء السماء كبير (٦١)

وقريب من هذا ما قاله المعتمد أيضا فى يوم عيد ، وهو بالمعتقل أسير :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فصرت كالعبد فى أغمات مأسورا
قد كان دهرك ان تأمره ممتثلا فردك الدهر منهيا ومأمورا (٦٢)

ومن شعر وزير المعتمد الشهير : أبى بكر محمد بن اللبانة ، الذى ذهب اليه بأغمات ، ومدحه وهو فى سجنه فقال :

انما أنت درة للمعـال ركبت الدهر فوقها أهدافا
أنت للفضـل كعبة ولو انى كنت أستطيع لالتزمت الطوافا

(٦١) الذخيرة ، لابن بسام ، ج ٣ (ق ٢ م ١) ، ص ٧٥ ، النویری ، أبو ضيف ، ص ١٦٧ - حيث النص على ان ابن حمديس كان قد توجه الى الأندلس سنة ٤٧١ هـ / ٩ - ١٠٧٨ م فقصده المعتمد وأقام عنده الى أن خلع ، وكان مما رد به على المعتمد ، فى أغمات ذلك البيت :

جرى لك جد بالكرام عثور وجار زمان كنت منه تجير

(٦٢) النویری ، أبو ضيف ، ص ٢١٦ .

وكانت هدية المعتمد التي حملها ابنه شرف الدولة الى الشاعر
(الوزير السابق) ٢٠ (عشرين) مثقالا مرابطية ، وثوبين من القماش ،
وبضعة أبيات شعر من نظمه يعبر بها عن الاعتذار عن قلة الهدية التي
لا تتناسب وقدر المهدي ، ومنها :

اليك النزر من كف الأسير وأن تقنع تكن عين الشكور
تفيسل ما يندوب به حياء وان عذرت حالات الفقير(٦٣)

وفى حفيد المعتمد « فخر الدولة » الذي عمل بصناعة الصاغة بعد
نهاية الدولة ، قال أبو بكر الداني ، وقد رآه وهو ينفخ النار بقصبة
الصاغ :

صرفت في آلة الصواغ أنملة لم تدر الا الندى والسيف والقلم(٦٤)

اما أجمل ما قيل في ابن عباد ، فهو ما أنشده وزيره ابن اللبانة على
قبره يرثيه في يوم عيد :

ملك الملوك أسامع فأنادى أم قد عداك عن الجواب عوادى(٦٥)

غزو بطليوس : آخر ممالك الوسط والغرب :

وبسقوط اشبيلية لم يبق أمام سير الا بطليوس ، التي تمتد أعمالها
غربا حتى أشبونه (لشبونه) وشنترين (Santarem) من جنوب البرتغال
حاليا(٦٦) ، وكان صاحبها : المتوكل عمر بن الأفطس يساعد المعتمد بن

(٦٣) النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٦٤) الذخيرة ، ج ٣ (ق ٢ م ١) ، ص ٧٩ ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٨ -
حدث فخر الدولة ابن المعتمد (وليس حفيده) وانه تعلم حرفة الصياغة بناء على طلب حميه
الحباز ، الذي رفض أن يزوج ابنته الجميلة « الا ممن له صناعة يستر حاله وحالها بها ان
احتاج لها » . وفى ذلك قال المعتمد « هذا رجل عاقل ، فأمر باحضار الصناعة الى القصر ،
وعلم نحر الدولة الصياغة ٠٠٠ الخ » .

(٦٥) الذخيرة ، ج ٣ ، (ق ٢ م ١) ، ص ٤١ ، النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٧ .
(٦٦) أنظر عبد الله عنان ، الطوائف ، ص ٣٦٩ ، عن استعادة أشبونة (نوفمبر
١٠٩٤ / ذو القعدة ٤٨٧هـ) ، وص ٣٨٣ عن نفوذ فرذلند (فرناندو) سنة ١٠٥٧م / ٤٤٩هـ
الى شمال البرتغال ؟ والى أطراف بطليوس الشمالية الغربية وحصاره مدينة بازو (Vizeu).
واقحامها على أهلها المسلمين ، واستيلائه على لامجو (مليقة) شمالها واسكان النصارى بها ،
دون أن يعحرك ابن الأفطس .

- ٣٥٠ -

عباد على الصمود في مواجهة المرابطين ، ولا يدارى في التعاون مع ألفونس السادس . ورغم أن ابن الأفطس لم يكن يستطيع الوقوف وحده أمام القوات المرابطية المظفرة في كل الجبهات ، كما تحظى بتأييد أهل البلاد الساخطين على أمرائهم في كل مكان ، فإن سير بن أبي بكر رأى استخدام الحيلة في أخذ بطليوس بأيسر السبل ، عن طريق استخدام خصم بن عباد ، صاحب مرسية السابق : عبد الرحمن بن رشيق ، بصفته أندلسيا خيرا في تدبير المكائد ، نظير استعادته لمدينته مرسية (ما يأتي ، ص ٣٥٣) . فأطلقه من حبسه - الأمر الذي أثار وقتئذ الكثير من التخمينات . وتبعاً للخطة المدبرة دخل ابن رشيق بطليوس كخصم للمرابطين - على ما نظن . وعن هذا الطريق نجح في مداخلته أهل البلد ، بل وفي إشراك حرس القسبة (القلعة الأميرية) في تدبيره ، وبذلك تم له القبض على « الشيخ » : المتوكل عمر بن الأفطس ، وابنيه الفضل ولى العهد ، والعباس ، اللذين قتل ، بين يدي أبيهما دون رحمة أو شفقة (٦٧) .

والحقيقة أن ابن الأفطس لم يؤخذ بذنب التحالف مع المعتمد بن عباد ، بل بمغالاته وبعض بنيته في التشبيث بالملك إلى حد الوقوف في صف ألفونس السادس ، دون موازنة . وتظهر هذه النزعة - التي لا تفسرها إلا العلاقات الوثيقة بين بني الأفطس وجيرانهم الأسبان من البرتغاليين والقشتاليين . فلقد بلغ الأمر إلى حد أن عرض ولد ابن الأفطس على أبيه المتوكل الاختيار بين التخلي عن الرئاسة للمرابطين أو الفرار إلى « الرومي » ألفونس السادس ، والسكنى في بعض البلاد (الإسلامية) التي في طاعته . وأنه عندما رفض المتوكل هذا الاقتراح ، خرج الابن هو نفسه ، بماله وولده مهاجراً من بطليوس (٦٨) .

وبسقوط بطليوس (Badajoz) يكون المرابطون قد ضموا إلى حولتهم كل أراضي الوسط والغرب من الأراضي الإسلامية الأندلسية ، ولم

(٦٧) أنظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٤ - حيث النص على أن الأمير سير أمر بقتل المتوكل مع ابنه . وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٣ - حيث النص على أن ابن الأفطس طلب أن يقدم ابنه (ولى العهد) قبله ليكون في صحيفته ، والنويرى ، أبو ضيف . ص ٣٨٨ .

(٦٨) أنظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٢ - حيث الإشارة إلى أن الفقيه ابن الأحسن المسجلماى أصلاً ، والبطليوسى إقامة ، والذي كان متربياً من الأمير المتوكل ، كان يعلن أن « كونه في الثغر ينفع المسلمين » ، وهو يعمل (حقيقة) في خلق صاحب بطليوس .

يبقى أمامهم الا اقليم الشرق الذى كان موضع الشد والجذب بين المسلمين والمسيحيين الذين كانوا منقسمين بدورهم على أنفسهم ، مما كان يزيد فى تعقيد المواقف ، وبالتالي فى صعوبة الوصول الى ترتيبات أمن واستقرار فى أحد الجانبين أو الآخر .

المرابطون فى شرق الأندلس :

وينمى تدخّل المرابطين فى الشرق ، حيث : مرسية ودانية وبلنسية وطرطوشة ثم سرقسطة بالصعوبة الشديدة ، مقارنة بسهولة استحوادهم على اقليم الغرب . ويمكن تفسير ذلك بأنه رغم وطأة الضغط المسيحى على الشرق ، فإن ما حققته حرب الاسترداد من نجاح هناك كان أقل كثيرا مما تحقّق فى الغرب . ولا شك أن بدء المقاومة المسيحية ، فى مناطق ليون واشتوريش وغاليسيا فى الركن الشمالى الغربى من أيبيريا ، حول مركزى شنت ياقب (سنتياجو دي كومبوستيلو) وافييدو (Oviedo) ، سهّل استرجاع الأراضى الغربية الموازية لساحل المحيط الأطلنطى من الشمال الى الجنوب ، حيث غابت الأساطيل الاسلامية عن تلك السواحل التى صارت مسرحا لمراكب المجوس (النورمان) منذ القرن الثالث الهجرى (٩ م) قبل أن تصبح المياه الاقليمية فيها ، منذ القرن السادس الهجرى (١٢ م) ، سمرا عموميا لمراكب الفرنسيين والانجليز الصليبية ، الذاهبة الى شرق المتوسط ، والتى كانت تمد يد العون للصليبية الاسترداد الاسبانية . وهذا مما يسر نزول الثغر الأدنى جنوبا بغرب الى حدود لشبونة شنترين (ما بعد ، ص ٣٦٩) .

وعلى العكس من ذلك كان الوجود الاسلامى فى الجزر الشرقية (ميورقة : البليار) بصفة خاصة ، الى جانب الوجود الاسلامى فى صقلية وجنوب إيطاليا وجنوب فرنسا (البروفانس والألب) ، من العوامل التى ساعدت على ثبات المسلمين فى شرق الأندلس ، مقابل : دانية وشاطبة وبلنسية ، وعلى بقاء الثغر الأعلى شمالا فى سرقسطة وأعمالها ، بحيث صارت الحدود الاسلامية تسير من الشمال : جنوبا بغرب ، من سرقسطة (الثغر الأعلى) ، الى طليطلة (الثغر الأوسط) الى بطليوس الثغر الأدنى الذى لم يلبث أن انزلق ، بعد سقوط طليطلة (الثغر الأوسط) ، سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م الى قلعة رباح (أقصى ثغور قرطبة) ، الأمر الذى كان يسمح فى قرننا (ال ٥ هـ / ١١ م) هذا ، بغارات مسيحية تهدد الأراضى الاسلامية الى طريفة ، على شاطئ المجاز (ما سبق ، ص ٢٨٥) حتى قدرت الأراضى المسيحية بـ ٧/٨ (سبعة أثمان) مساحة ايبيرية ، مقابل ال ١/٨

« الثمن) فقط للمسلمين عندما فكر المرابطون فى الجواز الى الأندلس
(ما سبق ، ص ٣٠٠ ، والحلل ، ص ٤٩) .

وهكذا اذا كان يوم الزلاقة قد جدد الأمل فى رتق فتق طليطلة ،
وتهدين الغرب فى اشبيلية وبطليوس ، فان ما وقع فى لبيط (Alédo)
غداة الزلاقة كان يعنى خرقا جديدا قد ظهر فى اشرق ، فى مرسية التى
خرجت على أمير المسلمين ، وفى بلنسية التى أرسل إليها ابن تاشفين ٤
(أربعة) آلاف فارس من المرابطين (ما سبق ، ص ٢٢٤) . وبذلك يكون
المرابطون قد انغمسوا فى مشاكل الشرق قبل غزوهم للغرب ، اذا لم تكن
مسألة لبيط الشرقية هى السبب المباشر للقضاء على أمراء الأندلس فى
الغرب .

والظاهر أن هذا التدخل المبكر من قبل المرابطين فى شئون شرق
الأندلس ، كان السبب فيما يظهر لدى بعض الكتاب من اختلاط الروايات
المتعلقة بفتح الشرق ، بتلك التى تتعلق بغزو الغرب السابقة عليها ، مما
كراه فى محاولة رسم الخطوط العريضة لموضوع اقليم الشرق لسلطان
المرابطين . وهنا لا بأس من الاشارة الى أن اختلاط الروايات هو النصدى
الطبيعى لاضطراب الأحوال .

فالذى يفهم من رواية ابن الأثير أن فتح المرابطين لاقليم شرق الأندلس
جميعا ، من مرسية الى دانية وشاطبة وبلنسية ، قد تم دفعة واحدة بمعرفة
سير بن أبى بكر ، وكأنه تكلمة لفتوحه فى الوسط والغرب ، خلال العبور
لثالث ليوسف بن تاشفين ، وأنه كان فى السنة الثانية لذلك العبور وهى
سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م أى مع غزو اشبيلية وبطليوس (٦٨ م) . أما النويرى
الذى يشارك بن الأثير نفس المصدر ، فهو عند نهاية ملوك الطوائف ، وحيث
يذكر نهاية غرناطة ، يقول : « وانقرضت جميع هذه الدول ، وصارت الأندلس
جميعها للمسلمين ، على ما نذكره - ان شاء الله عز وجل - فى أيام أمير
المسلمين : يوسف بن تاشفين » (٦٩) . ولكنه فى ملك أمير المسلمين لجزيرة
الأندلس لا يشير الى شرق الأندلس ، ولا يقول فى نهايتها الا : « وتتابعت

(٦٨ م) أنظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ .

(٦٩) النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٧٢ - حش النص على فتح غرناطة سنة ٤٨٤ هـ /
١٠٩٣ م بدلا من ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م .

الفتوح على أمير المسلمين حتى احتوى على جميع بلاد الأندلس التي كانت للمسلمين ٠٠٠ وفتح في بلاد الفرنج فتوحا كثيرا « (٧٠) . ولما كان صاحب الحلل الموشية قد أعرض عن تفصيل غزو المرابطين لممالك الطوائف (٧١) ، لا يبقى لنا الا قرطاس ابن أبي زرع ، وعبر ابن خلدون الذي ينقل عنه ويضيف اليه ، مع محاولة ترتيب الأحداث ، وان تعرضت روايته الى التحريف مما يظهر في ترجمة دسلان (Du Slane) .

أخذ قبرة ومرسية : شعبان ٤٨٤ هـ / سبتمبر ١٠٩١ م :

وأخر ما عرفناه عن مرسية ، ثورتها التي أدت الى فشل حصار حصن لبيط حيث ثارت المدينة على يوسف بن تاشفين اثر مجاملته للمعتمد بن عباد ، عندما امر سير بن أبي بكر بالقبض على ابن رشيق أمير مرسية وتسليمه بعد تنقيفه الى ابن عباد الذي سجنه في اشبيلية (ما سبق ، ص ٣٢٣) ، أما آخر ما عرفناه عن ابن رشيق ، فهو أنه كان وسيلة سير الذي أطلقه من السجن لكي يحيك مؤامرة سقوط قرطبة - نظير استعادته لمرسية (ما سبق ، ص ٣٤٢) . ولما كان سقوط قرطبة قد تم في شهر رجب ، وتبعها سقوط مدينة « قبرة » في شهر شعبان بين أيدي المرابطين ، وذلك قبل قليل من سقوط مرسية في شهر شوال التالي ، بين يدي يوسف بن داود بن عائشة ، وكذلك أعمالها - حسبما ينص ابن أبي زرع (٧٢) . ولما كانت قبرة القريبة من شرق قرطبة ، على بعد ٣٠ (ثلاثين) ميلا ، في منتصف الطريق المؤدى جنوبا بشرق من شقندة : ضاحية قرطبة الجنوبية الى البيرة المتاخمة لغرناطة ، من حيث يكون الطريق ، عبر بسطة ولورقة الى مرسية (٧٣) ، فبفضل الموقع الاستراتيجي لقبرة ما بين مرسية

(٧٠) النويري ، أبو ضيف ، ص ٣٨٧ - حيث قرطبة واشبيلية والمرية وبطلبوس ، ص ٣٨٩ ، نصار ، ج ٢٤ ، ص ٢٦٠ - ٢٧٠ .
(٧١) الحلل ، ص ٧٣ - حيث النص على انه « كان ما هو مشهور من الاستيلاء على بلادهم ، والغلبة على ممالكهم ، وليس هذا موضع التقصي » .
(٧٢) أنظر القرطاس ، ص ١٥٥ - حيث اسم المدينة نبرة ، وهو تحريف لقبرة ، كما نرى . وذلك بصرف النظر عن اختلاف كل من المذكرات (ص ٣٤٢) والقرطاس (هنا) في تحديد شهر سقوط قرطبة .
(٧٣) أنظر الحميري ، ألروض المعطار ، ص ١٤٩ - حيث منطقة فبرة كثيرة الماء ، وحلبها غنى بضروب النواوير وأصناف الأزهار وأجناس الأفواية والمقابر ، كما تحسن بها ضروب الغراسات ويكثر الزيتون . أما سرقها الجامع فيوم الخميس ، وأما مسجد الجاهل نله ٣ (ثلاث) بلاطات . وعن موقع قبره ، أنظر عبد الله عنان ، الآثار الباقية ، الخريطة أمام ص ٢٦ .

وقرطبة ، نرى أن يكون عبد الرحمن بن رشيق قد قام بدور مهم في دخول مرسية في شعبان سنة ٤٨٤ هـ / سبتمبر ١٠٩١ م ، في طاعة المرابطين ، مثلما دبر استسلام قرطبة خدعة بغير قتال . ولا بأس أن يكون ذلك مدعاة لما تنفوله الرواية من أن القائد يوسف بن عائشة كان « عادلا ورعا فأحببه الناس » (٧٤) .

وهكذا عاد عبد الرحمن بن رشيق الى رئاسة مرسية تحت رايات المرابطين ، ولا بأس أن يكون ما تقوله بعض الروايات من أنه دعا في الخطبة لأمر المسلمين (ما سبق ، ص ٣٢٣) يعني بعد رئاسته الثانية هذه ، والتي استمرت الى وفاته بمرسية سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ (٧٥) .

دخول دانية وشاطبة :

وبعد أن قضى الجيش المرابطي في مرسية أشهر الشتاء الأخيرة من سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، خرج يوسف بن داود بن عائشة ، عندما تحسنت الأحوال الجوية في سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ، ليستكمل فتح الشق الأوسط من ساحل الشرق ، وما وراء مرسية ، حيث مدينتي دانية - دار صناعة الأسطول ، وقاعدة الغزو ، في جزر البحر الشرقي - وشاطبة (٧٦) . وكانت دانية قد آلت ، منذ رمضان سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م (عام طليطلة) ، بعد العامرين : بنى مجاهد أصحاب الجزائر الشرقية ، الى المنذر بن أحمد المقتدر بن هود صاحب طرطوشة (٧٧) ، فانتزعتها منه ابن عائشة دون مقاومة . ومن دانية على الساحل سار ابن عائشة نحو الداخل غربا الى شاطبة القريبة ، التي دخلها المرابطون دون قتال أيضا ، سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ، بعد أن فر صاحبها ابن منقذر (٧٨) .

(٧٤) القرطاس ، ص ١٥٥ .

(٧٥) النويري ، أبو ضيف ، ص ١٧٠ .

(٧٦) القرطاس ، ص ١٥٦ ، وعن دانية أنظر الروض المعمار ، ص ٧٦ - حيث النص على أن السفن واردة عليها ، وأن الأسطول كان يخرج منها الى الغزو ، وبها ينشأ أكثرهم لأنها دار انشاء ، ومن أعلى جبلها في الجنوب كانت تظهر جبال يابسة ثلاثة جزر ميورقة - في البحر .

(٧٧) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى في عصر المرابطين ، ص ١٤ .

(٧٨) القرطاس ، ص ١٥٦ - أما ما تقوله رواية ابن أبي زرع من أن ابن عائشة سار بعد ذلك الى مدينة شقورة فنرى أنه تكرر لا داعي له - حيث أنه سبق النص على فتح شقورة مع بياسة وأبذة ، بعد فتح قرطبة ، وهو الأمر المبول ابتداء ، من حيث أن شقورة كانت من أعمال جيبان ، كما نص الحميري في الروض المعمار (ما سبق ، ص ٣٤٣ وهـ ٤٣) .

غزو بلنسية :

نهاية القادر بن ذى النون :

وبعد شاطبة يأتى خضوع بلنسية للمرابطين فى خريف سنة ٤٨٥ هـ / سبتمبر ١٠٩٢ م ، مكملًا (لصائفة) ابن عائشة المظفرة . والحقيقة أن الأوضاع فى بلنسية وقتئذ ، كانت أشبه بتلك التى عرفتها طليطلة قبيل سقوطها بين يدى الفونس السادس سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . وذلك أننا لا نعرف شيئاً عن مصير الحامية التى كان قد أرسلها يوسف بن تاشفين بعد ليط إلى بلنسية للدفاع عنها ، والتى بلغت ٤ (أربعة) آلاف فارس (ما سبق ، ص ٣٢٤) ، وهل كانت قد دخلت المدينة حفاً ، أم أن مآلها كان المراقبة فى غرناطة ، قاعدة المرابطين الصنهاجية ، حقيقة ! فالقادر بن ذى النون كان يملك بلنسية التى استبدلها ، بمعرفة الفونس السادس ، بطليطلة - بمعنى أنه كان أميراً تابعاً ، وإن الحكم كان لعملاء الفونس السادس الذين كانوا يفرضون الضرائب والاتاوات على سائر أعمالها (٧٩) . والحقيقة أن منطقة بلنسية كانت واقعة تحت حماية السيد الكمبيادور (El Cid, El- Campeador, Alvar Roderigo) أو ميوسيد (Mio Cid) الذى كان قد سخط عليه الفونس السادس ، فصار يعمل فى شرق الأندلس لحساب بنى هود أصحاب سرقسطة والثغر الأعلى (٧٩ م) ، الذى نجحوا فى مد نفوذهم حتى دانية (٨٠) ، قبل أن يعمل (السيد) لحسابه الخاص . وكان أهل بلنسية ساخطين بطبيعة الحال على هذه الأوضاع ، كما فعل قبلهم أهل طليطلة ، بفضل تحريض أهل العلم والدين ، وكان على رأسهم قاضى

(٧٩) ابن غذارى ، ص ٣١ - حيث النص على أن «القيبطور» (البيطور) أخذ بمخنق بلنسية يجبى رعينها ويستغلها : حاضرة وبادية ، وقد استضعف ابن (حفيد) ذو النون ، ملكها المشتوم ، ونالظر القرطاس ، ص ١٥٦ - حيث النص على أنه كان بها «بلنسية» القادر بن ذى النون ، والحاكم فيها من النصارى يجبرون خراجها ، وقارن مجهول ، فى ابن غذارى ، ج ٤ (ملحق ٤) ، ص ١٤٧ - حيث النص على أن القادر بن ذى النون صادق الفونس (الفنش) ، وهاداف فخاف أهل بلنسية أن يملكها (الفونس) كما ملك طليطلة .

(٧٩ م) ابن غذارى ، ج ٤ ص ٣١ - حيث النص على أن ابن هود كان يبيع لزريق عواصمها ويقصده بالسلفة ، وأنه كان فى شعبان سنة ٤٨٥ هـ / سبتمبر ١٠٩٢ م مستقراً بسرقسطة وقد استخلف على أطمته المختزفة وضرائبه المفترضة ببلنسية . فتنفس مخنق أهلها ، وانفجرت الضيقة عنها .

(٨٠) حسنين مؤمنين ، الثغر الأعلى ، ص ١٣ - مع ملاحظة اضطراب بعض التواريخ .

المدينة الشهير : ابن جحاف (أبو أحمد جعفر بن عبد الله) الذى ينسب إليه حث المرابطين - عندما وصلوا الى مرسية - على تقديم المعونة العسكرية لبلنسية ، الأمر الذى يذكر بالمفاوضات الأولى مع المعتمد قبل الزلافة ، مع الاستعداد للاعتراف بسيادة أمير المسلمين على المدينة وأعمالها(٨١) .

وهكذا تكون بلنسية التى استقبلت - على دفعتين - عددا قليلا من رجال ابن عائشة لم يزد عددهم على ٣٠٠ (ثلاثمائة) (٨٢) ، قد دخلت طوعا فى النظام المرابطى بالأندلس ، ولم تفتح عنوة أو صلحا مثل غيرها من الممالك الغربية ، وان كان القادر بن ذى النون قد دفع حياته ثمنا لذلك على يدى ابن جحاف الذى قبض عليه مختبئا فى بعض دور المدينة ، ليلة الجمعة ٧ رمضان ٤٨٥ هـ / ١٢ أكتوبر ١٠٩٢ م (٨٣) .

ابن جحاف رئيسا تحت الحصار :

وبالتخلص من ابن ذى النون آلت الرياسة الى ابن جحاف الذى حاول أن يعيد سيرة القاضى محمد بن اسماعيل بن عباد فى اشبيلية ، فكان يجلس محاطا بالوزراء والفقهاء ، ويركب فى موكب من العبيد والجند ، فكانه ملك جديد من ملوك الطوائف (٨٣ م) ، لولا عودة السيد الكمبيادور الذى طالب بتركة القادر والثأر له ، وأحاط المدينة برجاله فى محاولة لعزلها ، على أمل خروج فرسان المرابطين - بعد أن استثقلهم ابن جحاف - منها(٨٤) .

(٨١) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣١ - حيث النص على انه كان الى جانب القاضى ابن جحاف ، فى الترحيب بمجئ أول دفعة من فرسان المرابطين صاحب الأحكام : ابن واجب ، وأهل العقد والحل من أهل بلنسية .

(٨٢) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٢ .

(٨٣) ابن عذارى ، ج ٤ ، ص ٣١ - ٣٢ - حيث النص على ان قتل القادر بن ذى ذنون كان ثارا أو نوعا من القصص لمقتل الزعيم الطليطلى أبى بكر بن الحديدي ، اذ تولاه فتى من أوليائه من بنى الحديدي ، وقارن ملحق ٤ ص ١٤٧ (لجهول) - حيث ذل القادر ليلة الثلاثاء ٢٣ رمضان / ٢٨ أكتوبر ويبيع ابن جحاف (بالامارة) فى صبيحة الثلاثاء نفسها ٢٤ رمضان / ٢٩ أكتوبر ، ودخل بعدها القصر لكى يستمتع بكل ما فيه من ذخائر ورياش وممتع .

(٨٣ م) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٢ .

(٨٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٢ - حيث النص على ان ابن جحاف استثقل المرابطين ، الأمر الذى سمح بمدخلة الكمبيادور اياه فى اخراجهم من المدينة - واستبداده (ابن جحاف) بالملك - الأمر الذى لم يكن فى مقدور ابن جحاف قبوله ، وقارن ملحق ٥ (أعمال الاعلام) .

ومن الواضح أن القوات المرابطية التي كانت تحت قيادة ابن عائشة (يوسف) كان قد أصابها الهزال والوهن بعد ما قامت به من جهد طوال « صانفتي » ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م و ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ، وعلى طول الجبهتين : الغربية والشرقية ، وعرضهما . فهذا ما يستشف من قلة عدد الحامية المكونة من ٣٠٠ (ثلاثمائة) فارس ، التي أرسلت الى بلنسية ، وأيضا على دفعتين . وإذا التمسنا العذر لعدم التقدم لمواجهة « السيد » في حينه ، بدخول فصل الحريف ثم الشتاء ، فإن عدم الاقدام على مواجهته في السنة التالية ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م ، بعد تحسن الأحوال الجوية ، يؤكد افتراض ما حل بجيش الشرق المرابطي من الضعف والتعب ، الأمر الذي جراً قوات الكونت (القمط) المغامر على احكام الحصار حول بلنسية وقطع الميرة عنها نهائيا ، والمدد(٨٥) .

ولكن ما هو أغرب من ذلك هو عجز القوات الكبيرة التي تجمعت من كل بلاد الأندلس ، من مغاربة وصحراويين وبلديين ، في شاطبة بأمر يوسف بن تاشفين ، تحت قيادة الأمير أبي بكر بن ابراهيم اللمتوني ، عن مواجهة العدو الذي قسم جيشه الى فرقتين (حنى تسهل له المناورة) ، الأمر الذي ربما أثار مخاوف القائد المرابطي ، الذي عاد ادراجه الى معسكره في شاطبة ، بعد ما كانت قواته قد أشرفت على بلنسية - وبذلك انقلب أمل الفرج عند المحاصرين وراء الأسوار الى يأس وقنوط من النجاة .

عودة السيد الى بلنسية :

وهكذا قدر لأهل بلنسية أن يقضوا مطلع سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، ما بين هم القحط والجوع ، ويأس الرضا بالموت في المدينة ، الأمر الذي كان يضاعف حقد العدو وغضبه(٨٦) ، ففي أوائل السنة ، في ربيع الأول

= ص ١٥٠ - حيث طالب الكامبيادور بما كان له من حق «الاطعمة» اغنى كانت له بحصون بلنسية وان ابن ججاف رد عليه بأن البلد « لأمير المسلمين » . هنا ، ولو أن الرواية تقول بعد ذلك ان السيد الكامبيادور خدع ابن ججاف حتى انه صرف اللمتونيين الذين استثقلهم ، كما ضاق بمؤنثهم .

(٨٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٢ - ٣٤ .

(٨٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٣ - حيث النص على انها زادت على أزمة طليظلة أضاعفا ، إذ هلك أكثر الناس جوعا ، وأكلت الجلود والدواب ، وقارن الملحق (لجهول نشر بروفنسال)، ص ١٤٧ - حيث عرض لبعض ما ذكره ابن علانة (أبو العباس أحمد) كشاهد عيان في =

٤٨٧ هـ / فبراير ١٠٩٤ م ، بلغ ثمن رطل القمح ١٥ مثقال والشعير ١ مثقال ، وأوقية الجبن ٣ (ثلاثة) مثاقيل ، وبيضة الدجاجة ٣ دراهم ، ورطل الجلد البقرى ٥ دراهم ، ورطل اللحم البغلى ٦ دنانير (٨٧) .

وفى جمادى الأولى عدمت الأقوات وهلك الناس واستحكم الوباء ، ولم يبق حيا من دواب الركوب الا ٤ (أربع) : اثنتان للقاضي الرئيس ابن جحاف وابنه ، واثنتان لابن البربرير (الرتبير) : قائد جماعة المرتزقة من المسيحيين . ولقد ثمن فرس ابن البربرير بـ ٢٠٠ (مائتى) دينار دفعها له الجزارون الذين باعوا الرطل من لحمه بعشرة دنانير ، بينما بيع رأس الفرس بـ ١٥ (خمسة عشر) ديناراً .

وأمام تفاقم الأزمة ، واليأس من وساطة محتملة من ابن هود (صاحب سرقسطة) أو نجدة تأتي من مرسية (حيث المرابطون) انتهى الأمر باستسلام القاضي ابن جحاف بالأمان ، على أن يحتفظ بمنصبه كقاض للمدينة التى تتفق على أن يقدم ابن عدبس مشرفا لها ، على أن تكون أبوابها بيد المستعربة (المسيحيين) من أهلها . وفى آخر جمادى الأولى ٤٨٧ هـ / ١١ يونيه ١٠٩٤ م خرج القاضي ابن جحاف لاستقبال السيد الكمبيادور (٨٨) ، الذى ظهر بمظهر السياسى الرشيد حتى انتشطت الأنفس ، وانبسطلت الآمال ، وأمن الناس (٨٩) ، بينما كان على أهل دانية وأعمالها أن يقاسوا من الغارات التى أخذ يشنها « السيد » على بلادهم .

تاريخه عن حصار للنسبة هذا - حيث ضاق الكمبيادور المدينة فحصرها ونصب عليها المجاذق حتى عدم الناس الطعام وأكلوا الفئران والكلاب والحيات إلى أن أكل الناس الناس . الأمر الذى يمكن أن يكون قد استفاد منه ابن خلدون فى وصف حصار تلمسان بمعرفة المربنيين سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م .

(٨٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٨ . وعن حصار تلمسان سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م ، أنظر ابن خلدون ج ٦ ص ٩٥-٩٦ - حيث قائمة الأسعار فى المدينة التى كانت تعاني من الجوع أثناء الحصار كالاتى : بعد لحم الجيف : رطل لحم البغال والحمر ١٨ مثقال ، رطل لحم ايلحل ١٠ دراهم ، ثم الجلد البقرى ميتة أو مذكى ٣٠ درهما ٠٠٠ الخ من الحضر والفاكهة والأدم .
(٨٨) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٩ - حيث النص على أن قائمة الأسعار فى يوم ١٥ من هذا الشهر كانت كالاتى : رطل القمح : ٣ مثاقيل ، الشعير : ٢٥ مثقال ، أوقية الجبن : ١٠ دراهم ، بيضة الدجاجة : ٨ دراهم .
(٨٩) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٤ .

أدبر المسلمين يعود بنفسه للإشراف على العمليات الحربية :

وأمام استصراخ الناس لأمير المسلمين وهو بمراكش من أجل انقاذ الشرق ، كما سبق له تهديد الغرب ، قرر أن يعاود الكرة . وانتقل يوسف ابن تاشفين فعلا من مراكش الى سبتة التي صارت مرة أخرى قاعدة العمليات الحربية في الأندلس ، حيث حشدت بها الجيوش من أجناد نظامية ، وقبائل متطوعة ، وعهد بقيادتها الى الأمير أبي عبد الله محمد بن تاشفين (ابن أخيه لأمه) ويعاونه كقائد ثان ابن أخيه الآخر : أبو بكر (ابن أخيه لأمه أيضا وابن عمه في نفس الوقت) .

وكان عبور هذا الجيش الذي تكون من ٤ (أربعة) آلاف فارس وما يقدر بأكثر من ضعفهم من الرجال في شهر رمضان ٤٨٧ هـ / سبتمبر ١٠٩٤ م ، على أن يلحق بهم على مشارف بلنسية قوات غرناطة بقيادة الوالي الممتوني ، وشنترية حيث بنو رزين المغاربة أيضا ، وكذلك الأمر بالنسبة للشنياطي : المحارب الشجاع الذي كان من أصل اشقة من قواد الحصون بالشغر الأعلى (٩٠) . وإلى جانب القوات أقيمت قوافل التزويج تترى من كل البلاد على مشارف بلنسية ، حيث تضخم المعسكر فصار كالمدينة العظيمة أو البحر المحيط (٩١) ولكن السيد الكمبيادور الذي كان قد خبر المرابطين في السنة الماضية ، لم يرعه ذلك الجمع ولا عبأ به . وبصفته عارنا بأحوال البلاد والعباد ، اكتفى بأن يطرد من بلنسية ، نحوهم : « الضعفة من النساء والولدان » الذين تلقفهم ضعفة النفوس من السودان والسفلة من سياس الدواب ، ومن الباعة بأعمال الفسق والفجور ، الأمر الذي أثار الاضطراب في المعسكر ، وأدى الى افتقاد النظام والضبط ، مما انتهى الى اختلال الجيش ، وبالتالي الانسحاب الى دانية - وبذلك صح ما توقعه « السيد » ، وكأنه صار خيرا في شئون المسلمين .

(٩٠) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٥ ، وأنظر ص ٤٠ - حيث النص على أنه في نفس الوقت (رمضان - شوال) كانت محلة الأمير محمد بن تاشفين (ابن أخى أمير المسلمين) تستقبل الى جانب العساكر المغربية والصحراوية ، جميع عساكر الأندلس والشغر الأعلى ، من قبل : تأييد الدولة (لاردة) وسند الدولة (طرطوشة) وحسام الدولة (شنترية) ونظام الدولة (البون) والشنياطي (الشغر) وابن ياسين (شيرب) وابن يمول (حصن الأشرف) ، وهو الجمع الذي جعل النصارى المعاهدين يتصنعون (بدارون) لمن كان بالمدينة من المسلمين . ومن الواضح ان في ذلك خلط مع أحداث فتش بلنسية سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م ، الذي سيؤدى الى فتح المرابطين لسرقسطة بعد ذلك .

(٩١) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٥ .

- ٣٦٠ -

والمهم أن الموقف ازداد سوءاً بوصول الفونس السادس الذي كان قد استجاشه السيد ، إذ أصبح الجيش الاسلامي الكبير صيدا سهل المنال بالنسبة لرجلي الريكونكستا(٦٢) . فالكامبيادور (السيد) كان يستطيع أن يخذع الأمير محمد بن تاشفين بسهولة ، فيخرجه من المعسكر (المحلة) ليخلو له الجو لنهبه ، وسد حاجاته منه(٩٢ م) .

وكانت فرصة انتهازها الفونسو السادس ، فاكسح جيشه وادى آش من نظر غرناطة (مقر صنهاجة) لكي يعود من هناك وبصحبة جماعات من المستعربة لعمارة أرض طليطلة . ورغم غضب يوسف بن تاشفين لما حدث ، وسخطه على ابن أخيه الهزيل ، فلم يكن بوسع الا قبول الأمر الواقع ، والعمل على التشبث بشاطبة ، وقطع الطريق على بلنسية التي كان على أهلها أن يعانون حصار اخوتهم المسلمين - « فكانت هـدنة على دخن »(٩٣) .

« السيد الكامبيادور » أميرا لبلنسية : التخلص من ابن جحاف :

والصمود أمام المرابطين :

وهكذا انتهت الجولة الأولى من أجل السيطرة على بلنسية بانتصار السيد على المرابطين ، وغلبته التامة على المدينة ، فكانه أمير جديد من رؤساء الطوائف ، وذلك عندما تخلص من القاضي ابن جحاف ، ليس بالقتل ثارا للمقادير بن ذى النون ، بل حرقا بالنار في مأساة فريدة من مآسي عصور الانحطاط المسلمين في أسبانيا(٩٤) ، تلتها مأساة أهل بلنسية الذين كان عليهم أن يعانون بعد ذلك حصار المرابطين - بعد نزع سلاحهم .

(٩٢) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٥ - ٣٦ - حيث اعتبار ما حدث قدرا مكتوبا يلتصق به العذر ، سواء من ضعف الرجال أو من خور محمد بن تاشفين (ابن أخى أمير الميـسلمين لأمه) ، الأمر الذي لم يتطلب من العدو استخدام السيف أو اراقته للدم .
(٩٣) م) أنظر ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٠ - حيث استهلال شهر شوال وصلاة العيد بمنزل عطاء بساقية هواره . وإعلان السيد في ٨ شوال ٤٨٧ هـ / ٢٢ أكتوبر ١٠٩٤ م أن ملك أرغون (ابن ردمير) اتاه مددا ، وإيهام المرابطين أنه (السيد) خرج لمناوشتهم ، وتمكنه من مفاجاته المعسكر المرابطى ونهبه - فكانه تعلم درس يوسف ابن تاشفين في الزلافة .

(٩٣) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٦ - ٣٧ .

(٩٤) عن نهاية ابن جحاف في بلنسية وتعرضه لواحدة من عمليات التعذيب بالنار =

ففى شهر شعبان ٤٨٨ هـ/أغسطس ١٠٩٥ م ، عندما نجسنت الأحوال الجوية وأتت الأنباء بمسير المسلمين من مرسية نحو بلنسية ، كان على أهل المدينة أن يتخلصوا تحت التهديد بالقتل ، من كل ما لديهم من الآلات الحديدية ، فسلموا كل ما لديهم مما يمت للحديد بصلة ، حتى الابن والمسامر - على باب القصر (القلعة) • كما كان عليهم أن يعرضوا بعد ذلك فى ساحة القصر للتمييز • ولما كان الضعفاء والفقراء قد طردوا قبل ذلك فى حادثة اضطراب المعسكر الاسلامى ، فانه تم فى هذه المرة طرد من يخشى بأسهم من ذوى القوة والهمة ، وربما بلغ الأمر الى حد قتلهم ، اذا أقيمت مآتم العزاء فى دورهم وبين أهليهم • وبذلك لم يبق فى بلنسية من المسلمين الا المتيسرين الذين أخضعوا بعد مساومات من اليهودى وزير السيد الكمبيادور « الى جباية بلغت ٢٠٠ (مائتى) ألف دينار (مئقال) ، جمعت تحت التهديد من قبل نواب الجباية ، من : الموكلين والمتصرفين وأصحاب الرسوم ، كما كان على أهل المدينة بعد ذلك جر القطع البحرية من الماء الى البر - خشية أن تفاجئهم مراكب المسلمين فتستولى عليها ، وتحكم الحصار من جهة البحر أيضا - كما نظن(٩٥) •

فتح بلنسية : رجب ٤٩٥ هـ/ابريل ١١٠١ م :

والهم أن صمود بلنسية أمام محاولات استرجاع المرابطين استمر تحت حكم « السيد الكمبيادور » لمدة تزيد على ٨ (ثمانى) سنوات ، وذلك أن استخلاصها لم يتم على يدى القائد مزدلى الا فى مطلع شهر رجب من سنة ٤٩٥ هـ/أواخر ابريل ١١٠٢ م • واذا كنا نفتقد أحداث تلك الفترة بافتقاد الجزء من بيان ابن عذارى الخاص بالمرابطين ، فانه من حسن الحظ أن بقيت لنا منه القطعة الخاصة باستعادة بلنسية ، وان كانت فى حالة رثة • والذي يفهم منها أن المدينة كانت تثن وقتئذ تحت وطأة الحصار المرابطى - لا فرق فى ذلك بين المسيحيين ، ومن كان قدر له البقاء فيها من المسلمين - بعد أكثر من سنتين من وفاة السيد « الكمبيادور » (ت ٤٩٢ هـ/١٠٩٩ م) ،

=السنينة ، التى تذكر بعملية السمل بالحديد المحمى - حيث وضع الرجل قائما فى حفرة وأوقد الحطب حوله فى محاولة لاجباره على الاقرار بما كان لديه من ذخائر القادر بن ذى النون ، وشجاعة الفاضى البنسى الذى كان كل همه أن يحكم بلنسية بمعونة المسلمين او النصارى ، وكفى أنه يطلب الشهادة وهو يضم ما تصل اليه يده من الحطب المشتعل الى جسده ، أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٧ - ٣٨ ، والملحق رقم ٥ ص ١٥٠ - ١٥١ • (٩٥) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٠ •

بفضل اصرار زوجته وخليفته « شيمين » الذي استنجدت بملك قشتالة
ألفونس السادس (١٦) .

والظاهر أن ألفونس كان قد قرر أن يضع حدا لتلك المطاولة الممتدة
بين المسلمين والمسيحيين ، بأن يتم الجلاء عن بلنسية ، فسار هذه المرة
بجيش أكثر عددا (أحسن) من المعتاد ، ممادعا مزدلى الى أن يفسح له
الطريق الى المدينة ، بينما يعود هو الى معسكره فى قليرة . ومن الواضح
أن ألفونس السادس كان يرغب فى اجلاء المسيحيين من بلنسية ، كما
سبق أن أجلى أهل لييط (٩٧) . ولكنه أمام الحاح أهل المدينة المسيحيين ، قرر
أن يستكشف بنفسه القوة الحقيقية للمرابطين على مشارف بلنسية فخرج
بجيشه نحو الأمير مزدلى بقليرة . وعندما تواجه الجيشان وعابن ألفونس
كثرة كئائب خصمه وحسن كفاحها فى القتال ، انتهاز فرصة غروب الشمس
لكى ينسل من ميدان المعركة ، عائدا أدراجه نحو بلنسية ، وقد قرر ترتيب
الجلاء عنها ، ولكن بعد تحريقها بالنار . وبذلك دخل مزدلى بلنسية ، مدينة
الأطلال فى شهر رجب ٤٩٥ هـ /مايه - يونيه ١١٠٢ م - بعد ثمانية أعوام
وشهر ونصف (٩٨) . وتم اخطار أمير المسلمين فى مراکش بذلك الفتح

(٩٦) البيان ، ٤ ص ٤١ - حيث يتضح مما بلى من الرواية أن القائد مزدلى كان
قد ضرب معسكره فى بلدة قليرة : Celler : قليرة أصلا) جنوب بلنسية ، من حيث
كان يقوم بالغارات على بلنسية ، ما بين الحين والآخر ، وأنه فى مطلع سنة ٤٩٣ هـ /نوفمبر
١٠٩٨ م ، وربما بسبب ضعف ردود الفعل من جانب أرملة « السيد » قرر مزدلى أن يستكشف
حقيقة الموقف ، فتقدم بمعسكره الى قرب بلنسية الأمر الذى دعا الى طلب النجدة من ألفونس .
وانظر دوزى ، تاريخ المسلمين بالأندلس ، بالفرنسية ، ج ٣ ص ١٥٣ ، وقارن أشباح
(يوسف) ، المرابطون والموحدون ، ج ١ ص ١١٤ - ١١٥ - حيث سقوط بلنسية بين أيدي
السيد (ص ١١٤) ، واسترجاع المسلمين لها بعد ٣ (ثلاث) سنوات من وفاته (ص ١١٥) ،
محمد عبد الله عثمان ، الطوائف ، (ص ٣٦٨) - حيث حصار بلنسية فى أواخر سنة ٤٨٨ هـ /
ديسمبر ١٠٩٥ م ، وعدم تمكن المرابطين من دخول المدينة الا فى شعبان سنة ٤٩٥ هـ /١١٠٢ م ،
وأىضا ص ٤٠٠ - حيث استيلاء السيد على بلنسية فى ١٠٩٤ م ، ودخول ألفونس إليها بعد
استغاثة أرملة السيد فى مارس ١١٠٢ م واسترجاع المرابطين لها فى مايه ١١٠٢ م /جمادى
٤٩٥ هـ .

(٩٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٢ - حيث النص : « فاقام الألفونس ببلنسية نحو شهر
والروم ترومة على التمسك بها ويرغبونه فيها ، ويهزون عليه أمر جيوش المسلمين ، وعن
لييط انظر ما سبق ، ص ٣٢٤ .
(٩٨) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٢ - حيث النص على اخرام النار فى الجامع والقصر
وبعض الدور ، وقارن ابن بسام ، الذخيرة - حيث اخذ بلنسية فى شهر رمضان من نفس
السنة .

السعيد (٩٩) .

ومن المهم الإشارة الى أن القائد مزدلى لم يبق في بلنسية الا حوالى ٤ (أربعة) اشهر انتهت بأن حل محله في ولايتها ، في مستهل ذى الحجة (٤٩٥ هـ / سبتمبر ١١٠٢ م) ، القائد أبو محمد عبد الله بن فاطمة . والظاهر أن تنحيه مزدلى عن قيادة بلنسية يعنى تغيرا في طبيعة العلاقة بين يوسف بن تاشفين وبين أمير سرقسطة وقتئذ المستعين ابن هود . وذلك ان ابن فاطمة كان عليه أن يترك كرسى اماره بلنسية ، نيابة لأحد قواده ، وأن يسير الى سرقسطة على رأس ١٥٠٠ (ألف وخمسمائة) فارس ، بناء على طلب للمساعدة ضد الاسبان في الثغر الأعلى ، كان قد تقدم به ابن هود ، ليدخل سرقسطة في ١٢ من ذى الحجة / ٢٧ سبتمبر (ثانى أيام الأضحى ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م) . وبهذا يكون ابن هود قد انتهج سياسة مداراة أمير المسلمين ، جاره الجديد في الجنوب ، على حساب جيرانه الاسبان في الثغر ، وعلى رأسهم الفونس السادس (١٠٠) . وهكذا تكون ولاية سرقسطة قد بدأت مرحلة الدخول الجدى فى طاعة المرابطين ، وبذلك تكتمل وحدة المسلمين فى شرق الأندلس وفى الغرب ، وتحت رايات أمير المسلمين .

اعلان ولاية العهد فى غرناطة : مقر النيابة المرابطية فى الأندلس :

بدخول سرقسطة والثغر الأعلى فى الطاعة المباشرة للمرابطين ، تكون بلاد المسلمين فى الأندلس جميعا ، قد توحدت فى أواخر سنة ٤٩٥ هـ / سبتمبر ١١٠٢ م تحت رايات يوسف بن تاشفين الذى كان يدبر شئونها من مراکش منذ عودته من العبور الثالث سنة ٤٨٤ هـ / ١١٠٢ م . وهكذا

(٩٩) القرطاس ، ص ١٥٦ - حيث تضع رواية ابن أبى زرع فتح بلنسية (خطأ) فى سنة ٤٨٥ هـ ، مع النص على فرار القادر من ذى النون ، وأعوانه المسيحيين من جبال الضرائب ، ودخول القائد ابن عائشة (خطأ) المدينة ، فكان فتح بلنسية هذا من توابع الجواز الثالث لأمير المسلمين . أما عن اخطار أمير المسلمين فهو الأمر المقبول . أما عن فتح المرابطين لمدينة « افراغ » من بلاد شرق الأندلس فى سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م التالية ، فأغلب الظن أن هذا سوف يحدث فيما بعد ، على عهد على بن يوسف ، ضمن الصراع وقتئذ بين المرابطين وبين أصحاب الريكونكستا فى الثغر الأعلى .

(١٠٠) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٢ - حيث النص على ان ابن فاطمة ولى بلنسية فى مستهل ذى الحجة ، وأنه استتاب ونهض الى سرقسطة ، لما وصل ولد ابن هود من العدوة بكتاب من أمير المسلمين .

كان أمير المسلمين يمكنه الاطمئنان الى استقرار الأمور في الأندلس ، ويعمل بالتالي على أن يستكمل ذلك بالاطمئنان على مصير الدولة المرابطية بعده ، عن طريق تعيين ابنه أبي الحسن على بن يوسف وليا لعهد ، وهذا ما كان قد حسمه فعلا في مراكش ، في ذات السنة ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م ، حسبما يرد في الكتاب الرسمي لولاية العهد (١٠١) . وبسبب الأهمية الخاصة التي اكتسبتها أخبار الأندلس ، رأى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وله الحق في ذلك ، أن يقوم بجوازه الرابع الى الأندلس في سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م (١٠٢) ، ليس بهدف الفتح والجهاد هذه المرة ، بل من أجل القيام بجولة تفقدية في البلاد بصحبة ولديه أبو الطاهر تميم ، وأبو الحسن على الذي كان أصغر سنا من أخيه تميم (١٠٣) .

وفي ذلك ينص الخطاب الرسمي الخاص بولاية عهد الأمير على بن يوسف ، على أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وجد تعيين خليفة له من واجباته الدينية ، بصفته راعي عباد الله المؤمنين . ففي ذلك رحمة بهم وتأكيد لوحدة الجماعة والائتلاف فيما بينهم . أما عن تبرير اختيار على بعده فلأنه الرجل المناسب ، وهو الأمر الذي يقره أهل الرأي على القرب والنأي (١٠٤) .

والمهم أن غرناطة التي عهد بولايتها الى القائد على بن الحاج ، الذي تجمع حوله قواد المرابطين وكبار رجالاتهم الى جانب رؤساء الأندلس ، كانت موضع بيعة الأمير على بن يوسف بولاية العهد ، حيث قام هؤلاء الأعيان من مغاربة وأندلسيين ، في حضور أمير المسلمين بالبيعة لولي العهد برئاسة الدولة بعد والده (١٠٥) . فكان غرناطة الأندلس أصبحت قرينة العاصمة

(١٠١) أنظر الحلل الموشية ، ص ٨٠ ، وأنظر أيضا ص ٧٩ وهـ ٦٨ - حيث يورد ابن الخطيب في الإحاطة نصا آخر لولاية العهد كتبه محمد بن سليمان (ابن القصيرة) بقرطبة ، وهو مؤرخ بنى الحجة ٤٩٦ هـ / سبتمبر ١١٠٣ م .
(١٠٢) أنظر ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٢ - حيث وسم هذا العبور من حضرة مراكش بجواز الى الأندلس ٠٠٠ المرسوم بالأنوار الجليلة .
(١٠٣) أنظر الحلل الموشية ، ص ٧٧ - حيث تبرير تفضيل الأمير على الأصغر سنا ،
هنا يقول شعراء الأندلس :

وان كان في الأسنان يحسب ثانا على ففي العلياء يحسب أولا
كذلك الأبدى سواء بناها وتختص فيهن الخناصر بالحا
(١٠٤) الحلل الموشية ، ص ٧٩ .

(١٠٥) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٢ - ٤٣ .

الرسمية للدولة المرابطية مراكش ، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار ، ذلك التقليد الذى أخذ به منظروا النظم الاسلامية ، اعتمادا على الأمر الواقع الذى يقضى بأن مكان البيعة بالخلافة عادة ما يكون البلد الذى يتوفى فيه الامام (١٠٦) ، والذى عادة ما يكون العاصمة . واذا صحت هذه المفولة تكون الأندلس قد أكملت غلبتها الحضارية على المغرب بالغلبة السياسية - وهو الأمر المقبول على كل حال .

وهنا كان لسرقسطة والثغر الأعلى تحت قيادة بنى هود ، دورهما فى رفع رايات الاندلس عالية فى حفل تنصيب على بن يوسف وليا للعهد ، اذ وجه المستعين : أحمد بن هود ، ابنه عماد الدولة عبد الملك الى (غرناطة) بهدية ثمينة ، منها مجموعة من الأواني الفضية المنتقاة من ذخائر قصره بـ « روطه » والمنقوشة باسمه ، والتي رأى يوسف بن تاشفين أن تحول الى قطع من النقود الصغيرة برسم الاحتفال الأميرى . وفعلما ضربت أواني الفضة « اليهودية » الى قراريط نقدية ، وفرقت فى قواد المرابطين بمناسبة عقد ولاية العهد للأمير على بن يوسف ، وذلك فى ليلة عيد النحر من سنة ٤٩٦ هـ / ١٤ سبتمبر ١١٠٣ م ، وكان كاتب العهد الوزير أبا بكر بن القصيرة ، بينما كان ضيف الشرف ولى عهد الثغر الأعلى عماد الدولة : عبد الملك بن المستعين (١٠٧) .

العودة الى مراكش ونهاية يوسف بن تاشفين :

بعد أن تأكدت البيعة بولاية العهد للأمير على بن يوسف بن تاشفين فى غرناطة ، فى أواخر سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م ، كان دخول اقطاع بنى عزين فى كورة شنتبرية (Santaver) من الثغر الأوسط بعد ذلك ، أى فى السنة التالية ٤٩٧ هـ / ٤ - ١١٠٣ م ، فى طاعة المرابطين اثر وفاة يحيى بن (ذى الرياستين) حسام الدولة بن هذيل بن عبد الملك بن خلف ، وأيلولة تلك الولاية الى يوسف بن تاشفين (١٠٨) . فقد أخذ أمير المسلمين

(١٠٦) الأحكام السلطانية للماوردي ، الفصل الأول ص ٤ .

(١٠٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٣ - حيث صاحب روطن (Rueda) والثغر الأعلى ، هو المعتمد بالله (بدلا من المستعين) - وحبث المسير بالهدية الى قرطبة (بدلا من غرناطة) ، وأنظر هـ ٥ - حيث اسم الكاتب فى احاطة ابن الخطيب ، هو الوزير الفقيه أبو محمد عبد الغفور « بدلا من ابن القصيرة » .

(١٠٨) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٣ والهوامش - حيث تعرف شنتبرية أيضا باسم « سهلة بنى رزين » نسبة الى أول المنتزين بها وهو هذيل بن خلف بن رزين .

في الحركة الى حضرة مراکش بعد أن اطمأن الى ضبط أحوال بلاد الأندلس (١٠٩) التي تركها أمانة في عنق ولي عهده علي بن يوسف . وفي ذلك تقول رواية الحلل الموشية انه خصص لضبط الأندلس ١٧٠٠٠ (سبعة عشر ألف) فارس من المرابطين ، يوزعون كالآتي : ٧٠٠٠ (سبعة آلاف) لاشبيلية ، و ١٠٠٠ (ألف) لكل من قرطبة وغرناطة ، و ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) للشرق ، وال ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) فارس الباقية توزع للمرابطة في الثغور والحصون المصاوبة للعدو (١١٠) . ولا بأس أن كان يهود غرناطة ، أثرياء ضاحية اليسانة (Lucena) ، قد خضعوا لتلك الضريبة التي تتناسب مع يسارهم . فهذا ما يفهم مما تقوله الرواية من أن اليهود خضعوا لتلك الضريبة تحت التلويح بإدخالهم قسرا في الاسلام في سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م التي كانت على الأبواب وهي سنة وفاة يوسف بن تاشفين الذي كان مريضا منذ سنتين ، (وذلك اذا لم تتحقق نبوءة منسوبة اليهم ، تقرر ظهور نبي منهم في تلك السنة) (١١١) .

واذا كان الأمر كذلك يمكن القول أن غرناطة كانت قد صارت مركز الحكومة المحلية أو النيابة في الأندلس ، بمعنى أنها صارت منافسة لكل من قرطبة واشبيلية كمركز للحكومة ، كما أصبحت خزانة البلاد العامة حيث كانت اليسانة أهم مركز لتجمع الأثرياء من الميهود في البلاد . أما اشبيلية حيث تمركز أكبر حامية مرابطية فتصبح بمنابة مركز القيادة المرابطية العامة ، المسئولة عن حماية الثغور ، حيث القائد الأعلى ، وقتئذ : أبو محمد عبد الله بن فاطمة (١١٢) .

الموقف في شرق الأندلس :

والهمم أن أوضاع المرابطين اذا كانت قد استقرت في الغرب ، فإن

(١٠٩) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٤ .

١١٠ - الحلل الموشية ، ص ٨٠ .

(١١١) أنظر الحلل الموشية ، ص ٨٠ - ٨١ . حيث النص على نسبة تلك النبوءة الى ابن مسرة بمعرفة أحد فقهاء قرطبة ، أو بناء على فتوى قاضي الجماعة : أبي عبد الله مصدق ابن أحمد العلبي ، مع الإشارة الى أن القدوة في ذلك كان بعض عمال البحرين قديما ، الأمر الذي يسمح باعتبار الرواية من القصص الشعبي (الفولكلور) والذي كان يسمح من جهة أخرى بتفسير تلك القصة على أنها رمز لسبوء استغلال الجالية اليهودية سواء في المغرب أو في المشرق - بحق أو بغير حق .

(١١٢) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٤ .

موقفهم في الشرق كان هذا غير أكيد رغم دخول منطقة الشجر الأعلى
وسرقسطة في دائرة نفوذهم . فمنطقة بلنسية قرينة طليطلة ، ظلت قلقة
رغم استعادتها من خلفاء السيد الكمبيادور ، إذ ظلت واقعة في دائرة نفوذ
طليطلة وصاحبها الفونس السادس ، الذي حمل لقب الامبراطور ، وإن
رفض لبس التاج حتى يأخذ قرطبة مما سبقته الإشارة إليه (ص) .

وعكذا ، وبينما كان يوسف بن تاشفين يعبر المضيق نحو العدو
المغربية كان يصدر الأوامر إلى واليه (النائب) علي غرناطة الذي كان
منصرفا من وداعه ، وهو أبو الحسن علي بن الحاج ، بالنهوض إلى شرق
الأندلس ، ويستحثه على سرعة المسير - فكان العملية العسكرية المنوطة
بإبن الحاج كانت سرية مفاجئة ، تتفق مع « تكتيك » الكمان المعروف عند
البدو ، والذي كان يجيده أمير المسلمين . والمهم أن الرسالة الخطية لم تصل
إلى ابن الحاج إلا وهو على مقربة من الجزيرة الخضراء ، من حيث توجهه إلى
ما أمر به من سرعة المسير إلى بلنسية - التي وصلها ابن الحاج في شهر
صفر من سنة ٤٩٨ م / أكتوبر ١١٠٤ م . ولا بأس أن تكون مرابطة
ابن الحاج في بلنسية قد أحبطت ما كان يتوقعه أمير المسلمين من أعمال
عدوانية آتية من قبل العدو ، وذلك أن أول أعمال عدائية قام بها الفونس
السادس لم تصل أخبارها إلى بلنسية إلا في شهر رمضان ، بعد أكثر من
٦٠ (ستة) أشهر ، وكان هدف هذا العدوان مدينة سالم (مدينة الفرج)
من أعمال سرقسطة والشجر الأعلى .

ولم يتردد ابن الحاج في المسير للقاء الفونس السادس على رأس حملة
تقوية من المشاة والخيالة ، وخرج في طريقه على قلعة أيوب حيث استمد
القائد الأعلى : أبا محمد عبد الله بن فاطمة ، الذي سار برجاله معونة له .
والظاهر أن الملك القشتالي ترك منازل مدينة سالم عائدا إلى طليطلة ، وذلك
أن القائدين المرابطين قررا اثر اجتماع بينهما ، متابعة العدو نحو طليطلة
وغزو بلاده في حملة تاديبية رادعة . والذي يفهم من نص ابن عذارى المقطع
الأوصال - للأسف - والخاص بتلك الحملة ، أن التكتيك الذي كان يتبعه
طرفا النزاع في الأندلس وقتئذ ، من المرابطين والقشتاليين كان يبنى على
مبدأ الغش والخداع ، أي انتهاز الغرة من العدو - الأمر الذي يعنى استشمار
تكاثر ميزان القوى بين الطرفين ، بمعنى استحالة تفوق طرف على الآخر إلا
إذا أحسن استخدام عنصر المفاجأة والتخفى ، وهذا ما كان يريه الفونس
السادس عندما ترك مدينة سالم ، وسار نحو طليطلة ، واتجه مدحا نحو
طليطلة من حيث يكون الدخول إلى الثغور الإسلامية لكل من مملكتي قرطبة

وبطليوس (١١٢ م) التى رأى الفونس أن ينقل اليها ميدان القتال . والمهم ان الحرب كانت تدور سجلا على طول الطريق ، فلم تتوقف المطاردة إلا عندما انتهت بعض الاشتباكات بوفاة قائد غرناطة : الأمير على بن الحاج ، الذى وجد ميتا بكامل سلاحه ودرعه ، لا أثر فيه لضربة واحدة ، فانفض اللقاء ، وعادت قوة غرناطة تحمل تابوت قائدها الأمير ، الذى دفن فى تطيلة مدينة الثغر الأعلى ، فى قبلى جامعها أى فى اتجاه القبلة (١١٣) .

مرض يوسف والتطاول على الغرب :

وبينما كان يدور هذا النزال الحفيف بين القوات المرابطية فى الأندلس وبين خصومها من قوات العدو القشتالى ، فى خلال سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م ، انتشر خبر مرض أمير المسلمين : يوسف بن تاشفين ، وما كان يعانيه من آلام ذلك المرض (الفالج ؟) الذى لا أمل فى البرء منه . الأمر الذى شغل أهل الدولة ، وأثار القلق بينهم والشقاق (١١٣ م) .

وكانت فرصة انتهزها الفونس السادس لكى يعاود فرض سلطانه على بلاد المسلمين . وبدأ بعملية جس نبض عسكرية فى منطقة اشبيلية الغنية بخيرات الزراعة ، اذ جاسها على رأس قوة بلغت حوالى ٣٥٠٠ (ثلاثة آلاف وخمسمائة) فارس ، هاجمت القرى فى منطقة « متاطع » ، وعادت « بالمغانم الموفورة والأسلاب الكبيرة » ، فى وقت كانت تسود فيه المجاعة . ولكنه عندما خرج أمير اشبيلية الى بعض الحصون هناك ، انتظارا لمجئ الامداد من عسكر غرناطة الذين وافوه بقيادة الأمير أبى محمد بن الحاج ، « هرب جميع الكفرة » وولوا أمامهم فارين مهزومين ، وكانت فرصة انتهزها العسكر المرابطون لكى يشفى غليله منهم ، قتيلا واستلحاما حتى كادوا يستأصلون (١١٤) . ورغم ما تنص عليه الرواية من استئصال العدو ،

(١١٢ م) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٤ .

(١١٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٤ - حيث الاشادة بالأمير على بن الحاج ، الذى اقتصر أثر أبيه فى تعضيد الحق وانصاف المظلوم وثأمين الخائف ، وسد النفور ونكاية العدو . هذا كما كان أخص الناس به أبو محمد عبد الله بن أسباط الذى نال به الآمال ، وأوطأ عقبه جماهير الرجال .

(١١٣ م) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٤ - حيث النص على خوض أهل الدولة فى أمر مرضي أمير المسلمين ، فكانوا يستنبطون الغوائل ، ويشعلون نيران الشقاق والنفاق . (١١٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٤ - ٤٥ - حيث النص على انه قتل منهم ١٥٠٠ لحد ، فى ذلك الوقت من سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م الذى كان يعم فيه انحطاط بلاد الأندلس والمغرب ، الأمر الذى يبرر عنف السار من العدو القشتالى .

فالظاهر أن ابن الحاج دفع منصبه ثمنا لتلك المفاجأة غير السارة التي دبرها
الخنوس السادس لمنطقة أشبيلية ، إذ أنه عزل في سنة ٤٩٩ هـ / ٦-١١٠٥م
التالية من ولاية غرناطة ، التي آلت الى القائد أبي بكر بن ابراهيم
اللمتوني(١١٥) .

هذا ، ومما لا شك فيه أنه زاد في كلب العدو الاسباني على بلاد
المسلمين اعتبارا من سنة ٤٩٩ هـ / ٦- ١١٠٥ م ، هو بداية الحروب
الصليبية ، التي كانت حملاتها البحرية المارة بسواحل الأندلس الغربية ،
تقدم العون والمساندة للأسبان في حربهم ضد المسلمين ، فكان الريكونكستا
في الأندلس كانت الشرارة التي أشعلت الحروب الصليبية في المشرق
البعيد(١١٦) .

والى جانب القحط ، ومرور الصليبيين بالمياه الاقليمية الغربية
وتعديهم على السواحل الاسلامية كانت علة أمير المسلمين تزداد عليه شدة ،
الأمر الذي دعا الى عودة الأمير تميم من شرق الأندلس وكذلك الأمر بالنسبة
لولي العهد الأمير على ، الى مراكش العاصمة ، لالقاء نظرة الوداع الأخير ، على
الوالد المجاهد الذي قضى أجله في مستهل سنة ٥٠٠ هـ / ٢ سبتمبر
١١٠٦ م(١١١) . وهكذا توفي أكبر مجاهدى العصر ، وأكثرهم ألفة مع
مبادئ القتال ، على سريريه (أى رغم أنفه) ، وهو على أوله في العدل
والجد ، وفي نصرته الدين وعضد الاسلام ، واطهار كلمته . ودفن بنصره
بالخضرة مراكش(١١٨) .

(١١٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٥ - هذا ، كما ينص ابن عذارى على عزل الفاضل
ابن منظور عن قضاء اشبيلية بأمر من ولي العهد على بن يوسف .
(١١٦) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٥ - حيث النص على خروج ٧٠ (سبعين) قطعة
من البحر الغربى (الأطلنطى) ، قصدت بيت المقدس ، ولكن « الريح فرققتها وأغرقتها ،
فكفى الله المسلمين شرها » .

(١١٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٥ - حيث النص على انه في سنة ٥٠٠ هـ / ٧- ١١٠٦م
استأثر الله أمير المسلمين يوسف بن ناشفين في يوم الاثنين مستهل ، شهر المحرم من السنة ،
وقارن الحلل الموشية ، ص ٨٣ - حيث النص على أنه حضر مونه ابنه : أبو الطاهر تميم ،
وأبو لحسن على ، مع من حضر من عترته الصنهاجية وأسرتة اللمتونية .
(١١٨) الحلل ، ص ٨٣ .

وفاة يوسف : نهاية مرحلة القوة المرابطية :

بوفاة يوسف بن تاشفين تنتهى مرحلة القوة التى عرفتها الدولة المرابطية والفتوة ، وهى المرحلة الثانية فى حياة الدولة بعد مرحلة التنظيم والتأسيس ، وهى المرحلة الأولى لدولة الرباط ، والتى تبدأ بعبد الله بن ياسين وصاحبه الأمير يحيى بن ابراهيم ، وتنتهى بظهور يوسف بن تاشفين فى فتوح المغرب وتامسنا ، والتى تعتبر عهد تمدد الدولة المرابطية فى الأندلس وفوتوتها . وذلك أن مرحلة حكم على بن يوسف انالية تعتبر عصر الذروة فى تاريخ الدولة المرابطية حيث تبدأ عملية التحضر والازدهار ، نذير التدهور والانحدار ، حيث تدخل الدولة والجماعة فى مرحلة الترف المؤذنة بفساد « العمران » ، كما يرى ابن خلدون بحق - وحيث تبدأ مرحلة المطاولة (أو الصراع) بين الدولة وبين خصومها الذين يتآمرون ضدها ويخططون للحلول مكانها (١١٩) .

والصورة المبجلة التى يرسمها الكتاب ليوسف بن تاشفين ، تبرز فيه صفات الرجل المثالى ، الذى يمكن أن تقارن صفاته بصفات عمر بن الخطاب ، مؤسس الدولة الاسلامية حقا ، وواضع نظمها ، والمنظر لثقافتها . فيوسف : حسن السيرة ، خير ، عادل ، فاضل ، زكى ، فطن ، حاذق ، نبه ، زاهد ، عزيز النفس يأكل من عمل يده ، كثير الحُوف من الله ، ينيب الى الخير والصلاح ، كتوم لسره ، مقبل على الصلاة ، كثير الدعاء ، والاستخارة ، محب لأهل العلم والدين والصلاح ، متواضع كثير الحياء (١٢٠) .

أما عن صورته الطبيعية فلا نعرف عنها الا أنه كان أسمر اللون نحيف القد معتدل القامة . أما عن القول بأنه لا يعرف العربية (١٢١) فربما كان المقصود به أصول اللغة ومعرفة الأدب والشعر .

أما عن أخباره ، فهو محب للعفو والصفح فى الذنوب (١٢٢) ، فأكثر

(١١٩) ابن خلدون ، المقدمة ، الباب ١ الفصل ١٨ - فى ان من عوائق الملك حصول الترف .

(١٢٠) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٦ - ٤٧ ، الحلل المشبة ، ص ٨١ - ٨٢ ، روض القرطاس ، ص ١٣٧ ، ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤١٧ ، النويرى (أبو ضيف) ، ص ٣٩٠ .

(١٢١) أنظر محمد الملى ، تاريخ الجزائر ، ١٩٧٦ ، ص ٦٥٨ .

(١٢٢) أنظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤١٧ - حيث قصة الثلاثة رجال الذين تمنى أحدهم ١٠٠٠ دينار والثانى عملا والثالث زوجة يوسف بن تاشفين النفزاوية ، وكيف أنه أحضرهم =

عقابه الاعتقال الطويل - الا من انتزى وشق العصا « فالسيف حسم لانتشار الداء » (١٢٣) . كما كان يفضل الفقهاء ويعظم العلماء ، ويصرف الأمور اليهم ، ويقضى على نفسه بفتياهم ، تماما كما كان يفعل يحيى بن ابراهيم الجدالى أول أهرانهم مع عبد الله بن ياسين المنظر الأول .

وفى هذا السياق يرى صاحب الحلل الموشية ، ان بلاد الأندلس أقامت فى مدته سعيدة حميدة ، فى رفاهية عيش ، وعلى أحسن حال ، بعد أن أحيا الجهاد الذى كان قد انقطع بها منذ ٧٩ سنة - من مدة آل عامر . فقد قام أشياخ المرابطين فيها ، وكانوا أقواما « ربّتهم الصحراء ، نيتهم صالحة ، لم تفسدها الحضارة » (١٢٤) .

ومما يذكر لأمر المسلمين يوسف بن تاشفين من الأعمال الخاصة بالأندلس ، عنايته الفائقة بمدينة العبور فى العدو المغربية وهى سبتة . فبعد أن استقرت أمور الأندلس بعد دخولها تحت المظلة المرابطية ، عهد يوسف بن تاشفين الى القاضى ابراهيم بن أحمد ببناء سور الميناء تأمينا لجواز القوات المرابطية وهى واردة الى الأندلس وصادرة عنها . وبعد ذلك بأعوام ، وفى سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م قرر أمير المسلمين ترميم مسجد سبتة الجامع وزيادة سعته حتى يستوعب أعداد الجنود ، الوفيرة من العابرين ، وحتى يليق بدولته التى أصبحت امبراطورية عالمية عظيمة . وفعلا قام القاضى محمد بن عيسى الذى عهد اليه بالاشراف على تلك المهمة فرمى الجامع وزاد مساحته من جهة الصحن شمالا حتى أشرف على البحر - الأمر الذى يظن معه أن صحن جامع سبتة على الأقل ، كان وقتئذ بارزا على البحر ، خارج السور (١٢٥) .

هذا ، كما كان من شواهد سعادة عصره أن ديناره تبر (أى خام ذهب خالص) ، فى احدى صفحاته :

« لا اله الا الله ، محمد رسول الله » .

= ولى رغبة الأولين بينما أرسل الثالث الى زوجته التى تركته فى خيمة لعدة أيام يأكل مد. نفس الطعام ثم قالت له كل النساء شيء واحد . وامرت له بمال وكسوة واطلته .

(١٢٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٦ .

(١٢٤) الحلل الموشية ، ص ٨٢ .

(١٢٥) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٨ ،

وتحت ذلك : « أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » .

وفى الدير : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » - الآية .

وفى الصفحة الأخرى : اسم أمير المؤمنين العباسي (١٢٦) . أما عنوان كتبه : فـ « من أمير المسلمين وناصر الدين » الى فلان (١٢٧) ، وهو اللقب الذى تقول الرواية انه حصل عليه من ديوان الخلافة ببغداد ، بعد انتصار الزلافة بالأندلس على عهد الخليفة أبى العباس : أحمد المستظهر بالله (٤٨٧ - ٥١٢ هـ / ١٠٩٤ - ١١١٨ م) (١٢٨) .

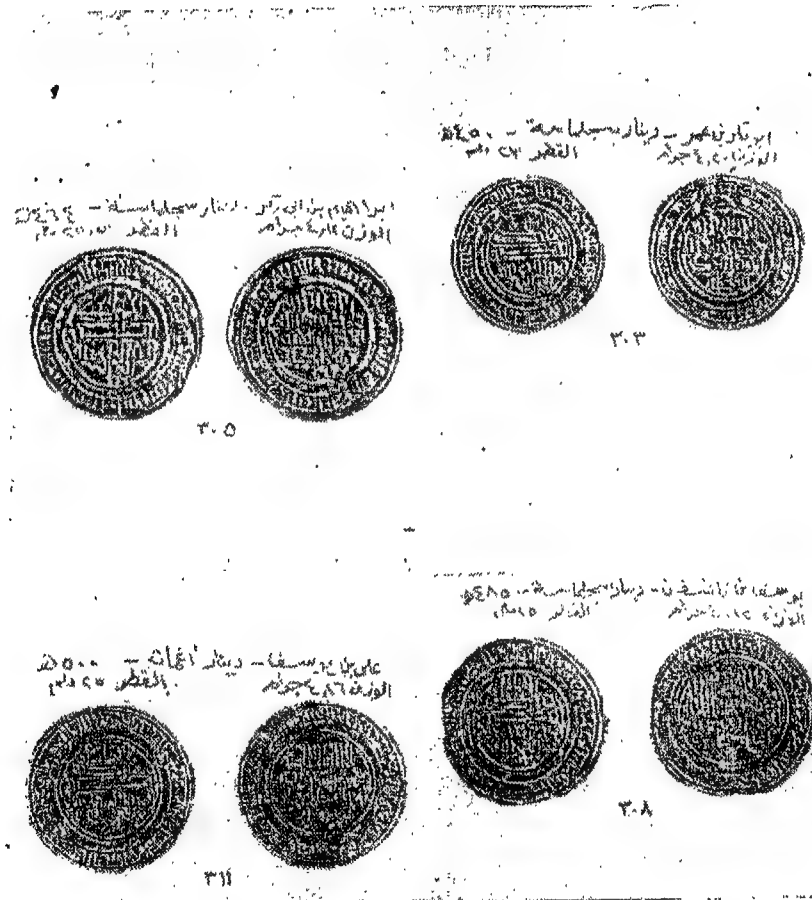
وأما ما توج به أعماله ، كما يرى محمد بن الحلف فى البيان الواضح ، فهو : « تولية الأمر فى حياته لابنه الأمير أبى الحسن (تلى بن يوسف) ، ذى العقل الرصين ، والرأى الحسن - قدس الله روحهما ، وبردضريحهما (١٢٨) .

(١٢٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٦ ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٣ - حيث النص على أن كتابة اسم يوسف بن تاشفين على السكة لأول مرة كان فى سنة ٤٧٣ - حيث بدل السكة على كل أرجاء المملكة ، وأيضاً ص ١٣٧ - حيث تجديد السكة بمناسبة انتصار الزلافة (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م) ، واتخاذ لقب أمير المسلمين (وناصر الدين) - حيث تكلمة الآية بـ « وهو فى الآخرة من الخاسرين » ، ثم الأمير عبد الله العباسى ، وبعد ذلك « تاريخ ضربة وموضع سكته » ، وقارن حتى : فليبي ، تاريخ العرب المطول ، ج ٢ ص ٦٤٥ - حيث للإشارة الى قيام الفونس الثامن ملك كاستيل (قشتالة : ١١٥٨ - ١٢١٤ م) بتقليد هذه النقود - حيث احتفظ بالكتابة العربية الا أنه طبق اللفظ على العقائد النصرانية ، فأورد لقبه هكذا : « أمير القنوليين (الكاثوليكين) » واسم بابا روما جاء هكذا : « امام البعثة المسيحية » . وقد صدرت السكة باسم : الأب والابن والروح القدس ، اله واحد ، بدل الشهادة ، واستعملت الآية : « فمن آمن واعتمد يخلص » عوضاً عن الآية : « ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » (البقرة ٧٩ ، ٢) . وقارن فيما سبق ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ ، وفيما بعد ، ص ٢٧١ - ٢٢٧ .

(١٢٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٦ ، وأنظر عن النقود المرابطة ، مجموعة ولبيم قازان ، المسكوكات الاسلامية ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ٢٦٦ (عن دنائير الأميرين : أبو بكر بن عمر ، وابراهيم بن شكر) ، ص ٢٦٨ (عن دنائير الأميرين : يوسف بن تاشفين ، وعلى بن يوسف) ، وأنظر شكل ١٦ .

(١٢٨) النويرى (أبو ضيف) ، ص ٣٩٠ - حيث النص على ان فقهاء المسلمين قالوا : « لا تجب ليوست طاعة الا بعهد من الخليفة ، فأرسل قوماً من أهله بهدية الى بغداد ، وكتاب يذكر فيه ما فعل بالفرنح ، وأنه جاء رسول من أمير المؤمنين المستنصر بالله بهدية وكتاب وتلميذ خلع » .

(١٢٩) الحلل المشوبة ، ص ٨٣ - حيث النص على أن توليته لانه التى توصف بالنظر الجميل والرأى الأصبل كانت « مما سبى النفوس كل التسلبية ، وأطلقاً نار الرزية » .



شكل رقم ١٦ - نقود مرابعية ، مجموعة وليم قازان الخاصة ،
المسكوكات الاسلامية ، بيروت ١٩٨٤

- ٣٧٤ -

وهكذا فاذا صحت مقارنة ولاية يوسف بن تاشفين بخلافة عمر بن الخطاب بصفتها رمز مرحلة التأسيس تصح مقارنة عهد علي بن يوسف بخلافة عمر بن عبد العزيز من حيث ما كانت عهد العدل وسيادة الفضيلة .
وهنا لا ندري ما اذا كان ما يورده ابن عذارى من خبر النجم المنظور الضوء ، ذى الذؤاية الطويلة ، الذى يسجل آخر أحداث سنة ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ - ١١٠٦ هـ ، يمكن أن يرمز الى البشارة ، بولاية علي بن يوسف فى مطلع سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م (١٣٠) .

(١٣٠) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٥ - هذا ، ولا بأس من الإشارة هنا الى واحدة من المراتى المعبرة التى أنشئت على قبر يوسف بن تاشفين ، وهى قصيدة ، أبى بكر بن سوار ، التى يقول فيها (ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٧) :

ملك الملوك وما تركت لعاقل	عملا من النوى يشارك فيه
يا يوسف ما أنت الا يوسف	والكل يعقوب بما تطويه
اسمع أمير المؤمنين وناصر الـ	سدين الذى بنفوسنا نفديه
فى كل عام غزوة مبرورة	تردى عديد الروم أو تغنیه
ولقد ملكت بحكم الدنيا وكم	ملك الملوك الأمر بالتمويه
انا المفجوعون منك بواحد	جمعت خصال الخلق أجمع فيه
وهضى قد استرعى رعبه ابنه	فأقام منهم حق مسترعيه
واذا (على) كان وارث ملكه	فالسهم ملقى فى یدى باریه

- ٣٧٥ -

التخصص في المسابع

على بن يوسف بن تاشفين

٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م - ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م

ذروة العصر المرابطي : بداية الانحلال :

لم يكن من المستغرب أن يتحول تاريخ الدولة المرابطية عند الكتاب من مغاربة وأندلسيين الى تاريخ الأندلس فقط ، منذ بدأت عملية الانقراض المرابطي لتلك البلاد بعبور يوسف بن تاشفين لمضيق جبل طارق الى الجزيرة الخضراء ، وهو « الجواز » الذي تكرر على حياة ابن تاشفين لأربع مرات على مدى ١٦ (ستة عشر) عاما ، كان آخرها جواز سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م ، بقصد تفقد أحوال بلاد المسلمين في الأندلس ، وتأكيدها للعلاقة العضوية بين القطرين الاسباني والمغربى بتجديد ولاية العهد للأمير على « ولد » أمير المسلمين يوسف ، في العدو الأندلسية . ولا شك أن تجديد الاحتفال بولاية العهد بالأندلس يعنى اعترافا ضمنيا من أمير المسلمين بالدور المتفوق الذى أصبحت تقوم به بلاد الأندلس فى توجيه مسار الأحداث فى الدولة المرابطية ، الأمر الذى كان يتمثل وقتئذ فى هيمنة الكتاب أو الوزراء الأندلسيين على الشؤون الادارية فى الدولة التى أصبحت مقسمة بين هؤلاء الوزراء الأندلسيين وبين رجال الحرب من القواد (الأمراء) المرابطين . هذا ، بينما أصبح أمير المسلمين وكأنه الحكم الذى يقع على عاتقه تنظيم أداء كل من الطرفين (الأندلسى والمغربى) بما يحقق التوازن فى أداء كل طرف منهما لدوره سواء فى أمور الحكم والادارة فى الجانب الأندلسى أو فى شئون الحرب والمال فى الجانب المرابطى .

وبطبيعة الحال كان للأندلسيين دورهم الحضارى المؤثر فى ميادين الثقافة فى مجالات الكتابة والأدب والشعر الى جانب مجالات الفن من العمارة والزخرفة ، وترتيب الأثاث والرياش ، وفى كل أسباب الحياة اليومية من التقاليد والعادات ، مما يتعلق بأحوال الطمطم والشراب ، ومجالس الفرح والأنس والتسلية ، وهى الأمور التى جذبت انتباه المغاربة حتى تحول الكثير من المرابطين الملتزمين ، فى مجالات الترف الى نوع من غلاة الأندلسيين من هواة الحياة الناعمة . والنموذج لهؤلاء هو حاكم سرقسطة

المرابطى : أبو بكر بن إبراهيم الذى بالغ فى تقليده لبنى هود (أصحاب المدينة السابقين) فى الشراب ولبس التاج ، وفى رعاية الفلاسفة ، كما فعل مع ابن باجه الفيلسوف « العلماني » (المتحرر) ، حسبما يقول دوزى (١) . الأمر الذى يؤكد مقولة ابن خلدون فى أن الحضارة بعلاماتها المميزة من الترف والأخذ بمباهج الحياة ، هى نهاية العمران ومؤذنة بفساده (٢) .

وهكذا حق لعبد الواحد المراكشى أن يقول : انه حين ملك يوسف بن ناشفين ، أمير المسلمين جزيرة الأندلس عد من يومئذ فى جملة الملوك ، على أساس أن « جزيرة الأندلس : حاضرة الغرب الأقصى وأم قراه ومعدن الفضائل منه ... واستحق اسم السلطنة ... فانقطع الى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم » . هذا ، كما عمل أعيان الكتاب (الوزراء) فى دولة المرابطين ، مثل : ابن القصيرة وابن عبدون الذى كتب لسير عند دخوله أشبيلية ، قبل أن يتصل بأمر المسلمين (٣) .

صورة على بن يوسف : أمير المسلمين وناصر الدين :

والمهم أنه اذا كان الكتاب قد رسموا صورة لعلى بن يوسف ، أمير

(١) المسلمون فى اسبانيا (بالفرنسية) ، ج ٣ ص ١٦٣ .

(٢) المقدمة ، ط . التجارية ، باب ٤ الفصل ١٨ - فى أن الحضارة غاية العمران ونهاية

لعمره ..

(٣) المعجب ، ص ١٦٣ - ١٦٨ - حيث عرض رسالة ابن عبدون الوزير فى فتح شنترين. عن الأمير الذى فتحها على عهد أمير المسلمين وناصر الدين أبى الحسن على بن يوسف بن ناشفين، فكان الكتاب من داخل مدينة شنترين ، وفتح المعقل الحصين تم بحسن سريرة أمير المسلمين « فأمكننا الله تعالى من ذروتها ، وأنزل ركابها لنا عن صهوتها » ، وأنظر أيضا (المعجب) ، ص ١٧٣ - حيث النص على أعيان الكتاب فى عهد على بن يوسف ، ممن تم استدعاؤهم من الأندلس ، ومنهم أبو القاسم بن الجند (المعروف بالأحذب) ، وأبو بكر محمد بن محمد ابن القبطونة (الرأس المستديرة) ، وأبو عبد الله بن أبى الحصال وأخوه أبو مروان (وهو أنبهم) ، ثم أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، ص ١٧٦ - حيث فقرات خاصة بأبن عبد الله ابن أبى الحصال وأخيه أبى مروان اللذين ظلا فى خدمة على بن يوسف الى أن أخرهما لموجدة كانت منه عليها عندما أمرهما بالكتابة الى جند بلنسية المرابطى اثر هزيمة قبحة لحقت بهم من ابن رديمير ، فانتهزا الفرصة وغلظا لهم فى القول أكثر من الحاجة مما شككه فى بغض أبى مروان للمرابطين ، الأمر الذى دعا أبا عبد الله الى الاستعفاء بعد وفاة أخيه أبى مروان بمراكش ، والعودة الى قرطبة حيث توفي فى أول الفتنة القائمة فيها على المرابطين. (سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م ، أنظر ما يأتى ، ص ٣٨٤) .

المسلمين الثاني تختلف الى حد كبير عن صورة والده يوسف بن تاشفين ، أمير المسلمين الأول ، فان البعد الزمني الذي يصل الى ٧٧ (سبعة وسبعين) عاما بين الأب الصحراوي أصلا والابن الأندلسي منشأ يمكن أن يبرر الفارق بين الصورتين . والحقيقة أنه رغم أن الكتاب يتفقون على رسم صورة معنوية لعل تكاد تكون نسخة طبق الأصل ، كما يقال ، من صورة والده يوسف ، من حيث المشاركة تجريديا في كثير من الصفات الأخلاقية والدينية السامية التي ترفعهما عاليا في درجات الانسانية ، فان عليا وهو الشخصية المدنية يتفوق على والده ، رجل الحرب بالامتياز ، باهتماماته الدينية المتميزة ، وفي انتراده بصورة طبيعية (فوتوغرافية) واضحة ، خصه بها ابن أبي زرع ، تنفق ونصف الدم الاسباني الذي كان يجري في عروقه .

فالأمر على بن يوسف الذي ولى وعمره ٢٣ (ثلاثة وعشرون) سنة يوصف بأنه أبيض اللون مشرب بخمرة تام الثقد ، أسيل الوجه ، أفلج اقنى (الأنف) ، خفيف العارضين ، سبط الشعر ، أكحل العينين(٤) - ومثل هذه الصورة مفتقدة بالنسبة ليوسف الوالد ، وهو الشخصية التاريخية العارمة .

والحقيقة انه اذا كانت صورة يوسف بن تاشفين تمثل الفارس المحارب فان صورة علي ابنه تمثل الراهب العابد . وفي ذلك تقول رواية الحلل الموشية انه كان في طبعه منذ مولده مثل كاهن يأتي بعجائب الأخبار(٥) . وهو أقرب عند عبد الواحد المراكشي أن يعد في الزهاد والمتبتلين منه الى أن يعد في الملوك والمتغلبين(٦) . فعلى منذ ما بلغ الثامنة عشرة من عمره ظهرت عليه مخايل النبيل والفهم والذكاء ، الأمر الذي جعل والده يسند اليه النظر في نظام الشكايات المعروف « بالمظالم » ، مما حقق النفع للناس ، والخير لمصالح العام(٧) . وفي ذلك عرفت عنه البراعة في الاضطلاع بما يعهد به اليه من الأعمال والقيام بها مقاما محمودا ، حتى أحبه الناس جميعا حبا مشوبا بالهيبة . هذا ، كما عرف عنه الذكاء وحسن السيرة ، وجودة الطوية ، ونزاهة النفس والبعد عن الظلم(٨) ، وعلو الهممة ، من حيث :

(٤) روض القرطاس ، ص ١٥٧ .

(٥) الحلل ، ص ٨٤ (حيث في طبعه ومولده (بدلا من منذ مولده) .

(٦) المعجب ، ص ٧١ .

(٧) الحلل الموشية ، ص ٨٤ .

(٨) المعجب ، ص ١٧١ .

محبة الأشراف ، وتقليد العلماء ، وإيثار الفضلاء ، مما حقق له اتفاق الكلمة واجتماع الأمة(٩) .

أما عن أفراد أسرة علي بن يوسف فان صاحب الحلل الموشية يعرف بشمانية من أبنائه الذكور هم : تاشفين (ولى عهده) وأبو بكر (بيكور) وعمر (الكبير) وإبراهيم واسحاق وتميم وداود ، وعمر الصغير(١٠) .

وصية يوسف بن تاشفين لولى عهده الأمير علي : فى أصول الحكم :

رغم ما هو معروف من أن يوسف بن تاشفين كان يعاني فى السنتين الأخيرتين (٤٩٨ - ٤٩٩ هـ / ٥ - ١١٠٤ م) كثيرا من آلام المرض الذى ألم به ، الأمر الذى دعانا الى التفكير فى أن يكون مرضه الذى مات فيه ربما كان الفالج (الشلل النصفي) أو الدرن السرطاني ، فهناك رواية فى الحلل الموشية تجعل أمير المسلمين يوسف فى تمام وعيه وهو بى ذروة أزمته الصحية ، اذ تنص على أنه ترك لخليفته على وصية تعبر عن البرنامج السياسى المثالى الذى يجب أن يقتدى به فى ادارته للدولة ، والذى يتلخص فى ٣ (ثلاثة) مبادئ هى :

١ - ألا يهيج أهل جبال درن (أطلس - بعامة) والمصامدة (بخاصة) .



(٩) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ ، الحلل ، ص ٨٤ ، ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤١٧ - حيث النص على أنه : ازداد فى اكرام العلماء والوقوف عند اشارتهم ، وأنه كان يخشع عندما يعظه أحدهم ويلين قلبه ، المعجب ، ص ١٧١ - حيث النص على اشارة لأهل الفقه وأنه كان لا يقطع أمرا دون مشاورة الفقهاء ، وأنه اذا ولى قاضيا يعهد اليه الا يقطع أمرا ولا يبت فى حكومته فى صغير أو كبير من الأمور الا بمحضر ٤ (أربعة) من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الاندلس ، وأنظر أيضا ص ١٧٢ - ١٧٣ - حيث الاهتمام بالقروع أى فروع مذهب مالك والاكتثار من ذلك حتى نسيان النظر فى كتاب الله ، واعتبار علم الكلام بدعة ، وتكفير كل من ظهر منه الخوض فيه ، والتشدد فى ذلك حتى الاجترار على احراق كتب الغزالي بخاصة والتهديد بسفك دم كل من وجدت عنده ، وقارن دوزى ، المسلمون فى الاندلس ، ج ٣ ص ١٥٥ - حيث النص على ان على بن يوسف أكثر بنى تاشفين استحقاقا للمديح ، وأنه لم يولد للحكم ، بل الأوفق لو كان راهبا (ناسكا) يكرس أعماله للخير والصلاة والصوم .

(١٠) الحلل ، ص ٨٤ - حيث النص على ان أبا بكر (بيكور) كان ذا حدة ونجدة ، وأن أباه سجنه مكبولا بالجزيرة الخضراء الى أن مات والده ، وهو ابن ١٦ سنة ، وان إبراهيم هو الوحيد الذى (حج) يذكر له حجة منهم ، اما تميم فقد ثار على أخيه إبراهيم وقتل فى حينه ، بينما كانت أم عمر (أصغرهم) رومية تسمى بـ « رياض الحسن » .

٢ - أن يهادن بنى هود بالأندلس (بالنظر الأعلى) ، وأن يتركهم حائلين بينه وبين الروم (الاسبان) *

٣ - أن يدارى أهل قرطبة فيقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن عسيئهم (١١) . وهو الأمر الذى يذكر فى وصية المعز لدين الله الفاطمى لنائبه فى حكم أفريقية : بلقين بن زيرى مؤسس أسرة بنى زيرى الصنهاجية (١٢) ، الأمر الذى يعنى فى الحقيقة أن تلك الوصية تعبر عن الصعوبات التى كانت تعرض لها الدولة فى بلاد المغرب وقتئذ ، والمبادئ الأساسية التى ينبغى أن تسير عليها أية حكومة مغربية فى تلك العصور .

أما عن الامبراطورية التى ورثها يوسف لابنه على ، فكانت تحتوى على ثلاثة أقطار عظيمة الجرم ، وهى :

١ - جميع بلاد المغرب ، من : مدينة بجاية (فى المغرب الأوسط) إلى بلاد السوس الأقصى .

٢ - جميع بلاد القبلة (الصحراوية) من سجلماسة إلى جبل الذهب من بلاد السودان (إقليم بامبوك) .

٣ - بلاد الأندلس (الإسلامية) من شرقها إلى غربها ، كما ملك الجزائر الشرقية : مبورقة .

وهكذا خطب له على أكثر من ٢٣٠٠ منبر ، على طول تلك البلاد وعرضها (١٣) .

مبايعة رؤساء القبائل لعل ، وتوزيع الحكام على الولايات الهامة :

بعد احتفال الجنازة والدفن الذى أقيم ليوسف بن تاشفين كان على ولى العهد على ابنه ، أن يأخذ البيعة من جديد على زعماء القبائل الموجودين

(١١) الحل ، ص ٨٢ ، وانظر فيما يأتى ص ٤٠٣ .

(١٢) انظر كنانا ، ج ٣ ص ١٨٢ - ١٨٣ - حيث تشتمل الوصية على المبادئ اللازمة وقتئذ للحكم ، وهى ألا يرفع بلقين السيف عن البربر ، ولا يرفع الجباية عن أهل البادية ، وأن يفعل مع أهل الحاضرة خيرا ، إلى جانب ألا يولى أحدا من أخوته أو بنى عمهم .

(١٣) روض القرطاس ، ص ١٥٧ .

بالعاصمة مراكش ، وأن يقوم بعد ذلك بجولة تفقدية بصحبة أخ
الأسن : تميم ، على القبائل القريبة من لمتونة وغيرهم من قبائل المثلثين
وكذلك الأمر بالنسبة لقبائل المصامدة في بلاد السوس الأقصى ، حي
نعيا « أمير المؤمنين ! » الوالد ، وأخذا البيعة لعللى كأمير للمسلمين
« خليفة » للوالد . وكان على تميم أن يجدد هو الآخر البيعة لأخيه
حضور زعماء تلك القبائل - أى بشكل نهائى .

وكان أول ما أمضاه الأمير على بن يوسف هو تقليد كبار القو
(الأمراء) للولايات الهامة وتسييرهم على رأس قواتهم إليها ، لحفظ النط
واقرار الأمور . وهكذا عين الأمير أبو الطاهر تميم (الأخ الأسن لعللى
واليا لمنطقة مكناسة ، والأمير يحيى بن أبى بكر واليا لمنطقة فاس بالمغرب
الأقصى ، والأمير مزدلى قائدا لمنطقة تلمسان بالمغرب الأوسط ، كما جدد
ولاية الأمير سير بن أبى بكر الذى كان قد أعلن الطاعة وتجديد البي
لمنطقة أشبيلية ، بينما أمر الأمير أبو بكر بن ابراهيم (بن تيفلويت
بالاسراع الى مركز ولايته بغرناطة التى وصل إليها فى ربيع الأول
السنة (٥٠٠ هـ / أكتوبر ١١٠٦ م) (١٤) .

ومن الواضح أن أبا بكر بن ابراهيم (ابن تيفلويت) كان يشغ
ولاية غرناطة كنائب لأمير المسلمين على الأندلس ، فهذا ما يفهم من روا
ابن عذارى التى تنص على انه تلقى التهانى بولاية أمير المسلمين على
يوسف من زعماء الأقطار والمدايح من الشعراء الذين أجزل لهم العطاء
والظاهر أن احتفالات غرناطة بالحدث السعيد استمرت طوال شهرين
وذلك أن أبا بكر بن ابراهيم (ابن تيفلويت) لم يخرج من غرناطة الا فى
شهر رجب/فبراير من السنة (١٥) .

الادارة المدنية بالمغرب والأثر الأندلسى :

والحقيقة أنه اذا كان لأسلوب الحياة الأندلسية الراقية تأثيره عـ

(١٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ ، وأنظر الذخيرة ، ج ٦ (ق ٣ م ٢) ص ١٢
والهامش - حيث (ابن تيفلويت) ت ٥١٠ هـ / ١١١٦ م ، وأنه ولى غرناطة سنة ٤٩٩ هـ
١١٠٥ م ثم سرقسطة سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م ، وأنظر ص ٦٢١ - حيث رثاء ابن با-
الفيلسوف الذى كان فى خدمته له شعرا .
(١٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ .

المرابطين في الأندلس . فان هذا التأثير كان محدودا في بلاد المغرب ، على كل حال . فاذا كان عدد من وزراء الطوائف كان لهم الظهور على عهد يوسف ابن تاشفين فذلك لأن أحداث الأندلس كان لها الأولوية وقتئذ . ولكنه بعد ان استغرت أوضاع المرابطين في الأندلس عادت الأمور في المغرب لمجاريها الطبيعية على عهد أمير المسلمين الثاني : علي بن يوسف ، وبدأت أخبار العاصمة مراكش من سياسية وعسكرية ومدنية في الظهور في عناوين الأحداث . فابن أبي زرع في تعريفه الأولى بدولة علي بن يوسف ينص على أن كاتبه الذي يظهر وكأن له دور في أخذ البيعة لسبيده الأمير في مراكش هو : أبو محمد بن اسباط (١٦) الذي ربما كان من قبيلة الأمير لثونة . واليه ، علي ما يظهر ، كان واجب الكتابة الى جميع بلاد المغرب والأندلس ، وبلاد الغلبة ، يعلمهم (باسم الأمير علي) بموت أبيه واستخلافه . . ويأمرهم بالبيعة (١٧) .

وكذلك الأمر بالنسبة لأول وزراء الأمير علي بن يوسف : ينتيان بن عمر بن ينتيان ، الذي يظهر من اسمه أنه بربري أصيل ، والذي كان يمكن أن يكون باكورة أسرة وزراية مرابطية ، لو قدر لدولة المثلثين أن يطول عمرها بعض الشيء ، وذلك أنه خلف ينتيان في الوزارة ، على أواخر أيام علي بن يوسف ابنه : اسحاق بن ينتيان بن عمر بن ينتيان (١٨) .

أما عن أول رياح أندلسية هبت على المجتمع المغربي في مراكش فتتمثلت في ظهور الاسبانيات (الروميات) في بلاط الأمير ، حيث كانت أم الأمير علي بن يوسف ، وهي « قمر » الرومية التي كانت تكنى « بأم الحسن » (ص ٣٧٧) ، بينما كانت ظل ابنه عمر (الصغير : أصغر أبنائه سنا) أسبانيا أيضا ، وهي : « رياض الحسن » (١٩) .

وعلى مستوى نظم الدولة كان الأمير علي بن يوسف أول من استعمل الاسبان (الروم) في المغرب كحرس أميرى من الحياالة ، بعد استخدام السودان والأغزاز (جمع غزي) الترك . هذا ، كما عهد اليهم بجباية

(١٦) روض القرطاس ، ص ١٥٢ .

(١٧) روض القرطاس ، ص ١٥٨ .

(١٨) الحلل الموشية ، ص ٨٤ .

(١٩) الحلل الموشية ، ص ٨٤ .

الضرائب في أحواز مراكش العاصمة ، وبلاد السوس - الأمر الذي سيثير نكرة محمد بن تومرت العرقية ، عما قريب . وهنا تحسن الإشارة الى أنه لما كانت تلك الضرائب يطلق عليها البعض اسم المغارم (بمعنى المظالم) (٢٠) ، فكان الدولة المرابطية - في نظرهم - قد حادت عن سياستها الأصولية في انكار ما زاد عن الزكاة والحراج من الضرائب ، على اعتبار أنها غير مطلوبة بالنص الشرعي - الا اذا كان ذلك دعاية مغرضة من خصوم الدولة من الموحدين الذين ظهروا على عهد علي بن يوسف اعتبارا من منتصف العقد الثاني لولايته .

أحوال الأندلس تثير اهتمام علي بن يوسف منذ ولايته :

والحقيقة أن اهتمام الأمير علي بن يوسف الشخصي بشئون الأندلس يظهر منذ بداية ولايته ، وهو الأمر الذي تكرر لأربع مرات على طول عهده خلال ٣٧ (سبع وثلاثين) سنة ، كما كان الحال على عهد والده يوسف بالأندلس ، على طوال حوالي عشرين سنة . والمهم أنه كان ثمة خلل قد طرأ على أحوال الأندلس وقتما ولى عهد امارة المسلمين في مراكش ، في أول المحرم سنة ٥٠٠ هـ / ٢ سبتمبر ١١٠٦ م . فهناك إشارة في ابن عذاري الى أن والي قرطبة وقتئذ ، وهو محمد بن الحاج ، ظل خاملا في بداية عهد الأمير علي ، بل انه وقع تحت الاعتقال لفترة من الوقت الى أن رضى عنه الأمير فولاه مدينة فاس في المغرب ، حيث بقي الى سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م ، عندما أعاده الى الأندلس واليا لمدينة بلنسية (٢١) .

ويشرح ابن الأبار سخط الأمير علي على الوالي والقائد الكبير (سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م) بأن ابن الحاج تلكأ في مبايعته ، بل وانه « رام القيام عليه » ، الأمر الذي لقي قبولا من أعيان أهل قرطبة ومشيختها وفقهائها (٢٢).

(٢٠) الحلل الموشية ، ص ٨٤ .

(٢١) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٨ - ٤٩ - حيث توقيت هذا الحدث تحت رواية

سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م .

(٢٢) أنظر ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٩ وهـ ١ - حث الإشارة لرواية ابن الأبار في

« أصحاب الصدفى » . أنظر ط . مدريد ١٨٨٥ ، ترجمة رقم ١٢٠ - حيث أبو بكر محمد ابن عبد الملك اللخمى الاشبيلى نزيل قرطبة ، الكاتب الجليل ، المعروف بابن المرخي (ص ١٣٢) . ولأبى بكر أيضا رواية عن أبى علي الصدفى الذى لثبه بمرسية ٠٠٠ وكان سبب ذلك اختصاصه بأمير قرطبة أبى عبد الله محمد بن الحاج داود اللثونى هو وأبى عبد الله بن أبى الحصال الى أن رام القيام على بن يوسف بد تاشفين . ودفع أمرته -

- دون الإشارة الى السبب ، وهل كان الأمر يتعلق بحدة مزاج أهل قرطبة وميهم الى الفتنة ، مما رأيناه في وصية يوسف بن تاشفين الى ولي عهده علي . ام تعلق الأمر بالميل الى أبي الطاهر تميم أخى الأمير علي بن يوسف الاسن : • وهنا لا بأس من الإشارة الى أن موقف قرطبة الفاتر وواليتها (ابن الحاج) من علي بن يوسف كان من الأسباب التي دفعت الأمير الى تجديد ولاية القائد سير بن أبي بكر على مدينة أشبيلية المجاورة لقرطبة ، ودفعه الى المسير بسرعة على رأس قواته الى الأندلس في ذلك الوقت من فصل الحريف (من أوائل سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م) ، حيث كان وصوله الى مفر ولاينه في شهر ربيع (نوفمبر) • ولا شك أن هذا الأمر أثار قلق الأمير على أحوال الأندلس ، فكان دافعا له على بداية عهده بالجواز الى الأندلس بمجرد تحسين الأحوال الجوية في الشهور الأخيرة من سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، أول سنى حكمه - وفي ذلك تقول الرواية انه تحرك الى الأندلس « لتفقد أعلاها ، وسد خللها » (٢٣) •

العبور الأول للأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين :

وإذا كانت الروايات الخاصة بهذا العبور الأول تكتفى بتحديد سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م دون إشارة الى الشهر أو الفصل من السنة ، فمن الواضح أن هذا الجواز كان في الشهور الأخيرة من ذلك العام ، وأغلب الظن في شهر شوال بعد عيد الفطر أى في بداية الصيف من شهر يونيه • وكان خروج الأمير علي فيما يشبه الحملة الحربية ، اذ تقدمته الجيوش من المرابطين: أهل الدولة ، والمصموديين أتباعها من أهل السوس ، كما أحاطت به الجنود من الحرس الأميري الذي دخلت في تشكيله ، الى جانب الأقباش السود

= وتلكا (ص ١٣٣) عن بيعته لأول ولايته سلطان أبيه ، وماله الملا من أهل قرطبة : مشيختها وفقهاها ، وذلك سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، ثم نكب وقبض عليه ، وفسد تدبيره ، فهرب أبو بكر حنثل الى شرق الأندلس وسمع من أبي علي كثيرا • ولم يفارقه الى أن رضى علي بن يوسف على ابن الحاج وأخيه وقومه ومن عليه وصفح عنه ، وولاه مدينة فاس ، وما إليها من أعمال المغرب ، فلحق به أبو بكر وصحبه هناك ، وبسرقسطة اذ وليها مع دنسسه بعد ذلك ، حتى استشهد بالموضع المعروف « بالبورت » وتفسيره بالعربة « الباب » سنة ٥٠٨ هـ / ١١٠٨ م (ص ١٣٤) - توفي ١٧ من ذى الحجة ٥٣٦ هـ / ١٤ يولية ١١٤٢ م ، وهو ابن ٧٠ سنة ودفن بمقبرة أم سلمة وصلى عليه انه أبو الحكم ، وكانت جنازته مشهودة ، وحضرها الرئيس أبو محمد بن الزبير بن عمر اللمتوني ، ومولده في صفر سنة ٤٦٨ هـ / سبتمبر ١٠٧٥ م ، (ص ١٣٥) •

(٢٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ •

والأغزاز من الترك البيض ، وجماعات من العسكر الاسباني المسيحي ممن عرفوا باسم « الروم » ، كما تبعته أعداد من المتطوعة الوافدين من مختلف القبائل من سائر الأمصار ، ممن عرفوا باسم الحشود .

وكانت المسيرة سريعة نحو سبتة من حيث كان العبور الى الجزيرة الخضراء - حيث استقبل أمير المسلمين الجديد : على بن يوسف بن تاشفين بما يليق به من تجميل واحترام ، من كل فئات الخاصة من أهل الأندلس على مراتبهم ، وفي طليعتهم رجال الدين ، من : القضاة والفقهاء ، يتبعهم الأعيان المدنيون ، من : الزعماء والرؤساء ثم بطانة هؤلاء ، من : الأدباء والشعراء ، الذين احتفلوا به بمدائحهم ، وناولوا عطاءه . وتبع ذلك أن اجتهد الأمير على في اكتساب رضا الجميع « ففُضِيَ لمن كان ذا ارب اربه ، وسُنِيَ لكل ذى مطلب مطلبه » (٢٣ م) ، فكان ذلك مما حقق له الشعبية العارمة ، من : « اتفاق الكلمة واجتماع الأمة » (ما سبق ، ص ٣٧٨) .

وبدأت الحملة التفقدية (الرادعة) في الأندلس بصدور الأمر بتعيين أبي الطاهر تميم ، أخى أمير المسلمين على بن يوسف (الذى كان موجودا فى المغرب كنائب لأمير المسلمين) ، واليا لقرنطة فكانها ظلت محتفظة بمركزها المتفوق كمقر لنيابة الأندلس وولاية العهد ، من حيث كانت قاعدة صنهاجية أصلا . أما عن محمد بن الحاج ، والى قرطبة المتهم بسوء النية ، فانه عزل من موقعه هذا وحل مكانه : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر اللمتونى (٢٤) من عصبية الأمير .

هذا ، كما أصدر الأمير قرارا بعزل قاضى أشبيلية ابن منظور اثر التشكيك فى ذمته ، من قبل الوزير : الطبيب الشهير أبى العلاء بن زهر (٢٥) .

(٢٣ م) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ ، وأنظر الحلل المشوية ، ص ٨٥ - حيث نفس النص تقريبا .

(٢٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ ، وأنظر روض القرطاس ، ص ١٥٩ - حيث الإشارة الى عزل الأمير تميم عن بلاد المغرب فى السنة التالية ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م (بدلا من النص على تعيينه على بلاد الأندلس) وتعيين القائد أبى عبد الله محمد مكانه (بدلا من القول بعزله عن قرطبة - مما يأتى ذكره) والبا على فاس وسائر أعمال المغرب لمدة ٦ (ستة) أشهر قبل توليه بلنسية من حيث يكون دخوله الى سرقسطة سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م .

(٢٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٩ وهـ ٢ - حيث شرح سبب الخصومة بين الطبيب الوزير ابن زهر والقاضى الشهير ابن منظور ، وهى التى أدت الى عزل الأخير ، نذلا عن كتاب « تقصى =

وهكذا تحققت أهداف جواز الأمير على بن يوسف الى الأندلس ، اذ تنفقد أمورها « وعت البيعة دانيها وقاصيها » حسبما سمحت الظروف ، اذ من الواضح أن أمير المسلمين كان فى عجلة من أمره خشية نهاية الصيف واقبال فصل الشتاء ، وأنه كان عليه أن يصدر الى سبتة ، قبل نهاية العام بـ (٢٦) ٥٠٠ هـ / أغسطس ١١٠٧ م) ، ومنها الى مراكش (العاصمة) (٢٦) .

وبمجرد وصوله الى الحاضرة كان على أخيه أبى الطاهر - نائب الملك - أن يخرج الى ولايته بغرناطة ، حيث كان وصوله الى الأندلس فى مطلع سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م دافعا الى اطمئنان النفوس وراحة البال ، وبذلك تم له الفرح « بمملكته ، وظهر به جمال دولته » (٢٧) . وكان على أبى الطاهر تميم أن يؤكد ولايته لغرناطة وبالتالي لسلطانه على كل الأندلس بتأكيد سيطرته على بلاد المسلمين ، وفرض هيمنته على الجيران الاسبان المسيحيين .

فتح أقليمش :

وهكذا كان عليه أن يهيئ نفسه للغزو ، عن طريق حسن سياسة الجند ، والترتيب للعمل الجماعى مع القريبين منه ، من سائر التواد ، وكان حسن أقليمش (Ucles) من كورة شنتبرية - على منابع وادى أنه قرب وبذه من شرق طليطلة - هو هدف حملته التى قادها فى أواخر شعبان / ١٣ ابريل ١١٠٧ من نفس العام . وكانت مدينة جيان مكان التجمع بين قواتها وجيوش الحملة ، وكذلك القوات الوافدة أيضا من قرطبة ، ومن غيرها من البلاد (٢٨) . والتى كان من كبار قادتها عبد الله بن محمد بن فاطمة ، ومحمد بن عائشة اللذين كانا أقرب المستشارين الى الأمير

=الأنباء فى سياسة الرؤساء « لابن الصيرفى (الذى لم يصل إلينا) ، وفيه أن الطبيب مرض ذات يوم فسخر من ذلك القاضى ابن منظور قائلا : « طبيب ماهر يمرض » ، فما كان من ابن زهر الا أن رد على ذلك بكلام يقول فيه : ان أبا الطب والأطباء جالينوس كان يمرض دائما ، الى جانب شعر ، قال فيه انه :

« كما : قد يعثر من مشى قد يكون من الفقيه أكل الرشاش »

(٢٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٩٠ .

(٢٧) نفسه ، وانظر ما سبق ، ص ٣٨٤ والهامش ٢٤ - حيث الاشارة الى نص روصي لإلترطاس ، ص ١٥٩ عن عزل الأمير تميم عن المغرب وتولية ابن الحاج فكانه بديل عن القول بعزله عن قرطبة (سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م) .

(٢٨) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٩٠ - ٥٠ .

تميم (٢٩) :

وخرجت القوات المرابطية بقيادة الأمير تميم ، أخى أمير المسلمين وإلى غرناطة ونائب الأندلس ، إلى منطقة طليطلة لتضرب الحصار على حصن أقايش ، وتتمكن بعد نزال عنيف من اقتحامه لكي ياجأ سكانه إلى قصبته الحصينة ، يحتمون بها انتظارا لمجيء النجدة من قبل الفونس السادس . ورأى الملك العنيد الذى كان يعيش وقتئذ أيامه الأخيرة ، أن يواجه نائب الأندلس الأمير تميم بن يوسف بقرين له هو الأمير ولى عهده « الوقت » (Infante) شـانـجـه (Sancho). ابنه من زوجته زائدة (زوجة المأمون بن المعتمد بن عباد السابقة) التي كانت قد تنصرت (٣٠) .

ووافى الأمير القشتالى الذى كانت تجرى في عروقه بعض الدماء العربية - فى جيش انقاذ مسيحي كبير ، يبلغ عدده حوالى ٧ (سبعة) آلاف رجل ، على رأس كل ألف منهم واحد من قوادهم المعروفين بالفوامس (جمع قومس : Comes). أو قومط : كونت (٣١) . ومن الواضح أن

(٢٩) انظر نظم الجمان لابن القطان ، ص ٨ ، هـ ١ (عن ابن عائشة) صاحب مرسية وهـ ٢ (عن ابن فاطمة) صاحب بلنسية ، اللذين ينسب اليهما تقويم الموقف عند انهزام عسكر قرطبة لعدة اميال ففاما بمهاجمة محلة التصارى وطاردهم ثم تبهم الأمير تميم (ص ٩) ، ولما الأسبان إلى حصن بلشون (هـ ٣ (Belinchon) - حيث رعبتهم من المسلمين ، ولكنهم أخذوا ابن الفونس وقتل ، روض القرطاس ص ١٦٠ . وقارن الرسالة الرسمية ، نشر حسين مؤنس ، الثغر الأعلى في عصر المرابطين ، ص ٤٠ وهـ ٢ - حيث النص على أنه « لم نعلم الا من هذه الوثيقة ان هذين القائدين المرابطين الكبيرين حضرا هذه المعركة » (٤) ، وقارن ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٦ - حيث النص : كان مدير الحملة هو أمير قرطبة ابن رنقى . وجماعة عن الرؤساء بالأندلس ، ص ٨ - حيث مشاركة ابن عائشة وابن فاطمة فى تلك الحملة .

(٣٠) أنظر القرطاس ، ص ١٩٥ - ١٦٠ - حيث اسم الرقعة اقلنج ، وتاريخها ، فى سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م ، وان الفونسو عندما استعد للخروج اغاثة لبلده اشارت عليه زوجته أن يوجه ولده بدلا عنه فيكون مقابلا لتميم ابن ملك المسلمين وسانشو ابن ملك الروم ، فبعثه فى جبروش كبيرة ، وقارن حسين مؤنس الثغر الأعلى فى عصر المرابطين ، ص ٢٠ - حيث رواية ابن رزق هذه ، وقارن ابن القطان نظم الجمان ، ص ٧ وهـ ٥ - حيث عمر الشاب ولى العهد ١٥ سنة ، وان رواية القرطاس مقتبسة من نظم الجمان .

(٣١) قارن حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، ص ٢٠ - حيث تسمى الرقعة بموقعة الاكناة السبعة بالاسبانية (Los Siete Condes) وانظر الرسالة الرسمية الخاصة بالرقعة (الوثيقة الاولى) ، ص ٣٥ - حيث تبدأ الرسالة بعنوان « رسالة كتب بها . . . ابن شرف عن بعض

المحيطين بالأمير القشتالي الصغير ، من كبار القواد أو المستشارين لم يكن لهم مثل دراية الفونس السادس في أمور الحرب والسياسة . وذلك ان الحرب التي لا نعرف من تفصيلاتها عند المؤرخين سوى أنها كانت طويلة يصعب شرحها (٣٢) . بينما لا تظهر تلك التفصيلات في الرسالة الرسمية بسبب عناية الكاتب بالمحسنات اللفظية والسجع على حساب الموضوع ، الى جانب تحريفات النساخ ، انتهت بهزيمة مؤلة للعسكر الاسباني ، اذ قتل الشاب الصغير سانكو (ولى العهد : الانفانت) وعدد من كبار القواد (الأقاط) ، منهم : غرسية أوردونش (Ardonez) وغرسية بقيدره (De Carba) بينما أتيح الهرب للقائد البرهانس (Alvar Hanes) ابن عم السيد (El Cid) ونصير الفونس السادس (٣٣) . أما من بقوا في أرض المعركة من الرجال فقد اجتز من رؤوسهم على ٣ (ثلاثة) آلاف رأس ، جعلت أكواما من أجل الأذان عليها (٣٤) ، مما يذكر بمعركة الزلاقة .

رؤساء المغرب .. في فتح اقلش أعادها الله « وهو العنوان الذي يعلق عليه مؤنس في الهوامش - حيث يقول في (ص ١) ان كلمة « الغرب » تعنى المغرب وانه كان يطلق أيضا على الأندلس في ذلك الحين (٣٥) ، وفي (هـ ٣) انه لم يتم فتح اقلش في هذه الحملة . اذ بقيت قصبة البلد في يد النصارى ، كما سنرى ولهذا يقول : « أعادها الله » . والذي نراه ان هذا العنوان ليس من صلب الرسالة بل انه من وضع الكاتب الذي نقل الرسالة في وقت متأخر (كما هو الحال بالنسبة للقلقشندي في صبح الأعشى) فهو الذي يدعو : « أعادها الله » . اما تفسير اغفال سقوط القصبة في الرسالة فلان الرسالة يمكن أن تكون كتابتها في اليوم التالي للمعركة : كما يرى مؤنس (ص ٤٢ هـ ٣) ، أى قبل استسلام القصبة صلحا ، كما تشير بعض النصوص التاريخية . وهذا ما يبرره أيضا ، ما كان يصيب مثل هذه الرسالة من الحرم والتحريف والتعديل على أيدي النساخ . (وانظر ص ٣٧ والهوامش) . ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٧ - حيث نزول عساكر المسلمين على المدينة الحصينة ... فارس أدفونس ابنه بنحو ١٠ (عشرة) آلاف فارس لأغاكة اقلش .

(٣٢) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٠ ، القرطاس ، ص ١٦٠ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٦ - حيث النص على ان اقلش من غر الوقائع وجليلتها .. ثم ان عساكر المسلمين اقتحموها فلجأ من كان أسفلها إلى القصبة العليا .

(٣٣) الرسالة رقم ١ في الثغر الأعلى ، حسين مؤنس ، ص ٣٩ وهـ ٢ ، وقارن : نظم الجمان لابن القطان ، ص ٧ وهـ ١ .

(٣٤) الرسالة رقم ١ ، حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، ص ٤٢ وهـ ٢ ، ص ٣٩ وهـ ٣ ، وقارن : روض القرطاس ، ص ١٦٠ - حيث المبالغة في عدد قتل العدو الذي بلغ زيادة على ٢٣ (ثلاثة وعشرين) ألفا ، نظم الجمان لابن القطان ، ص ٩ - حيث النص على انهزام المشركين الذين قتلوا قتلا ذريعا مع ذكر استشهاد الامام الجزولي في الجانب الاسلامي ، وجماعة من الأعيان والربان (الهالدية) .

وكانت كارثة مؤلة بالنسبة لألفونسو السادس ، اذ ينسب اليها وفاته ،
وان كان فى شهر ذى الحجة من سنة ٥٠٢ هـ / يولييه ١١٠٨ م التالية (٣٥) .
أما بالنسبة للجانب الاسلامي فكان هذا النصر فى أول حرب ضد الاسبان
المسيحيين ، من بشائر السعد بالنسبة لياكورة عهد علي بن يوسف بن
تاشفين فى الأندلس (٣٦) .

العبور الثانى للأمير المسلمين علي بن يوسف الى الأندلس سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م :

وهكذا ، ب وفاة كل من يوسف بن تاشفين (سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م) ،
والفونس السادس (سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م) فى مطلع القرن السادس
الهجرى / ١٢ م . يظهر وكان الزمن كان يعمل لصالح الدولة المرابطية وذلك
باعتدال ميزان القوى فى أول سنة للملك الأمير علي بن يوسف ، وهى السنة
قبل الأخيرة لألفونس . والظاهر أن أمير المسلمين الثانى (علي) استبشر
بما حققه أخوه تميم فى أقليمش ، ورأى أن يكون له نصيبه هو الآخر فى
أحداث مفاخر الغزو والجهاد فى الأندلس ، فقرر أن يكون عبوره الثانى الى
الأندلس فى سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م التالية - وهو الجواز الذى تحقق فيه
فتح مدينة طليطلة ذات الموقع الاستراتيجى الهام بالنسبة لمنطقة طليطلة
ومدينتها المتيدة . والحقيقة انه اذا صح يوم الخميس ١٣ محرم ٥٠٣ هـ
الذى يعادل ١٢ أغسطس كتاريخ لبدء فتح طليطلة يكون عبور الأمير علي قبل
تم قبل ذلك فى شهر ذى الحجة المبارك الذى يعادل يولييه من شهور
الصيف (٣٧) .

(٣٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٠ ، وقارن: روض القرطاس ، ص ١٦٠ - حيث النص على
ان الفونس اغتتم لقتل ولده وهلاك عسكره ، فمرض بالفقمة ومات لـ ٢٠ (عشرين) يوماً
من الكاثنة) ، وأنظر هـ ٩١ - حيث تصحيح المحقق بالنص على أن وفاته كانت بعدها بنحو
عام (٣) يولييه ١١٠٩ م) .

(٣٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٠ - حيث النص ، ورجع الأمير أبو الطاهر الى غرناطة ،
فكان ذلك حسب مقالة ابن الصيرفى فى كتاب " تقصى الأبناء فى سياسة الرؤساء " ، دليل
اليمن والبركة ولولاية علي بن يوسف فى أول دولته ، وقارن هـ ١ - حيث النص على ان
انتصار أبي الطاهر كان فى سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م حسب روض القرطاس ، ونظم الجمان
(هـ ٢) - حيث النص على زائدة زوجة المأمون بن المعتز .

(٣٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٢ ، وقارن ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٣ - حيث
حصل الرواية ، على أساس ان ١٣ محرم (٥٠٣ هـ) هو يوم الوصول الى طليطلة ، وانه أول

والمهم أن الأمير على خرج من الحاضرة مراکش الى الأندلس فى أواخر سنة ٥٠٢ هـ / صيف ١١٠٩ م أو أوائل سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م برسم الغزو الصيفى (الصائفة) ، وأنه بعد أن أجاز يمم شطر غرناطة حيث أقام بعض انوقت ، ريشما تلحق به بقيية كتائب الحملة المغربية (العدوية) ، من العساكر والحشود والمطوعة ، وحتى تتأهب بدورها القوات الأندلسية . ومن غرناطة سارت الجيوش بقيادته نحو قرطبة حيث أقام أياما حين اكتمال تجمع الرجال ، وعندئذ سار بصحبته القاضى ابن حمدين نحو الهدف ، وهو طليبة : بوابة الدخول الى طليطة (٣٨) .

فتح طليبة واجتياح منطقة طليطة :

ولا ندرى ان كان وصول القوات الاسلامية كان مفاجأة لأهل طليبة ، أم انهم فضلوا عدم مواجهة المرابطين ، تاركين الدفاع عن المدينة لرجال الحامية الذين اكتفوا بدورهم بالجوء الى القصبه والاعنصام بها . وهكذا سنحت الفرصة بدخول القوات المرابطية طليبة ونهبها واستنقاذ أسرى المسلمين فيها ، بينما هرب العساكر من أفراد الحامية الاسبان ليلا عن طريق النهر الذى كان يحيط بالمدينة كالخندق ، ومن ثم عبر المحلات المحيطة بها وبذلك نجحوا فى الافلات من الحصار (٣٩) .

وهكذا كان فتح طليبة سهلا فكأنها مدينة مفتوحة ، اذ لا نجد الا ذكرا للمغانم التى امتلأت بها أيدي المسلمين من سقط المناع ، من : الثياب

= يوم من أيام المعركة التى استغرقت عدة أيام ، وقارن روض القرطاس ، ص ١٦١ - حيث الجواز (دون تحديد) يوم ١٥ محرم / ١٤ غشت أغسطس ١١٠٩ م بدلا من تاريخ الانتصار فى طليبة التى تظهر خطأ فى شكل مدينة طلابوت ، وأنظر أيضا الحلل الموشية ، ص ٨٥ - حيث الجواز الثانى وبرسم الجهاد ونصر الملة وقصد طليبة .

(٣٨) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٢ ، وقارن ابن القطان ، ص ١٣ ، القرطاس ، ص ١٦١ - حيث الجواز من سببة ، والاقامة فى قرطبة لمدة شهر (الأمر الذى يزيد فى تاخر الصائفة) ، الحلل ، ص ٨٥ - حيث البدء بقصد طليطة .

(٣٩) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٢ ، وقارن ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٣ - ١٤ - حيث الرواية التفصيلية من احاطة المسلمين بالمدينة ليلا ، وخرقهم الوادى الذى كان يحيط بالمدينة ليهرب المساء ويمكن الوصول الى السور يوم السبت - حيث تم اقتحام المدينة واستفاد أسارى المسلمين . هذا كما كان فى صحبة الحملة القاضى ابن حمدين فى سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م ، وكان يحرض الناس على القتال ، القرطاس ، ص ١٦١ ، والحلل ، ص ٨٥ - حيث فتحت عنوة بالسيف .

— ٣٩٠ —

والماشية والأسلحة . هذا ، كما طهر المسجد الجامع ، ورد الى ما كانت عليه هيئته أيام المسلمين . وبعد أن رتب الأمير على بن يوسف حامية مناسبة من الرجال والفرسان والرماة تحت إمرة قائد من المرابطين ، غادر المدينة ، وسار غربا نحو طليطلة (٤٠) .

ومن الواضح أن النزول على طليطلة لم يكن لحرها بل لمجرد ترهيب أهلها ، وبالتالي ردع المستولين من خلفاء الفونس السادس . وذلك أنه بعد الإقامة حولها لمدة ٣ أيام ، عادت الجيوش الإسلامية أدراجها صوب غرناطة بعد أن ساءت ظنون أهل طليطلة — مع ما هي عليه من الحصانة والمنعة (٤١) . وبذلك تكون حملة الأمير على الثانية بالأندلس قد دامت حوالي ٤٠ (أربعين) يوما ، ويكون الهدف قد تحقق من ردع العدو وترهيبه (٤٢) .

سرقسطة ما بين المرابطين والاسبان المسيحيين :

الدخول تحت المظلة المرابطية :

ومن المهم أيضا ما حققته القوات المرابطية في منطقة الشرق ، من دخول سرقسطة ، قاعدة الثغر الأعلى في نفس سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م ، في طاعة المرابطين — رغم ما كان معروفا منذ بدء التدخل المرابطي في شئون الأندلس ، من موافقة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على الحفاظ على الاستقلال امارة بني هود في الثغر الأعلى ، متميزة على غيرها من رئاسات الطوائف ، من حيث كونها امارة فاصلة بين الممالك المسيحية في الشمال وبين بلاد المسلمين في الأندلس ، وهو ما أوصى به ولي عهده عليا ، على أنه قاعدة سياسية ذهبية لا يصح الاخلال بها (٤٣) .

(٤٠) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٢ .

(٤١) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٢ ، وقارن روض القرطاس ، ص ١٦١ — حيث فتح ٢٧ حصنا من أحواز طليطلة ؟ ثم وصل الى طليطلة وحاصرها شهرا ، وقطع ثمارها ، وبلغ فيها من النكابة كثيرا ، ثم قفل الى قرطبة ، الحلل الموشية ، ص ٨٥ — حيث قصد طليطلة (قبل طليطلة) ونزل على بابها ، وحاز المنية المشهورة بخارجها ، وانتشرت جيوشه على تلك الأقطار . ودوخ بلاد المشرقيين ، فلأدوا بالفرار الى المعقل واعتصموا بالحصون المنيعه ؟

(٤٢) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٢ — حيث النص على أنه لم يمهّد في ذلك الوقت مثل هذه الغزوة قوة وظهرها وعدة ووفورا ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٨٥ — حيث النص على أن غزوة طليطلة لم يمهّد مثلها « قوة وظهرها وعدة ووفورا » فكانه منقول عن ابن عذاري .

(٤٣) أنظر الحلل الموشية ، ص ٩٨ — ٩٩ — حيث كتاب عماد الدولة عبد الملك الى أمير المسلمين على بمناسبة التفكير في أخذه بلاده وفيه : وكان المستعين بالله خاطب أباك =

ففي سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م كان المستعين أحمد بن هود أمير مملكة سرقسطة يتخذ حصن روضة (Rueda) مقرا له ، وعندما قرر في تلك السنة أن يعهد بولاية عهده الى ابنه عبد الملك نزل الى مدينة سرقسطة حيث جدد البيعة عن أهلها قبل أن يقوم بغزو أراضي مجاوريه من الاسبانيان المسيحيين ، وذلك في شهر جمادى الثاني/ديسمبر من تلك السنة .

وكان من بين المدن والقرى المحصنة التي داهمها المستعين أحمد بن هود تطيله وارنيط التي صالحه أهلها على دفع الجزية السنوية وأخذ منهم الرهائن ضمنا لذلك (٤٤) . وإذا كان من الواضح أن الرواية تباليغ فيما أنزله بهذا الصقع المجاور لمملكة سرقسطة من الهدم والحرق والسبي ، قبل أن يعود الى بلاده ، فلا بأس أن يكون ذلك من الأسباب التي دعت الى ملاحقة كتيبته الفرسان التي تجمعت من أنحاء المنطقة للمستعين ، ونشوب معركة حامية بين الطرفين انتهت بهزيمة مروعة لجيش سرقسطة ، اذ استشهد المستعين أحمد بن هود ، وتبدد رجاله بعد أن بقي الكثير منهم في أرض المعركة ، وذلك في أول رجب سنة ٥٠٣ هـ / ٢٤ يناير ١١١٠ م (٤٥) .

ومع أن عبد الملك بن أحمد بن المستعين خلف والده في امارة سرقسطة متخذا لقب عماد الدولة الا أن هزيمة أول رجب هذه كانت نذير شؤم لمملكة سرقسطة ، اذ أضعفت موقف الأمير الجديد بالنسبة لأهل سرقسطة ، الأمر الذي مهد لقاعدة الثغر الأعلى الدخول في طاعة المرابطين بشكل سافر دون موارد أو مداراة . فعندما طلب عبد الملك البيعة من أهل سرقسطة اشترطوا عليه ألا يستخدم عسكرا من الاسبانيان المسيحيين ، بل وأن يقطع علاقاته بهم (٤٦) . هذا ، في الوقت الذي كان فيه والى بلنسية المرابطى

= يسأله الدعة ويرغب في الهدوء والاستعانة على العدو ، فاقام واقمنا هريجين ، ومن تعب النفاق فرحين ، ثم دهمنا من جهتك داهم أبدى صفحته ٠٠٠ ولا يمكننا تسليم ما بأيدينا اليكم ، فيتحكم فينا الاذلال والله حسيب من بغي ٠٠ وتنتهى الرواية بالقول أن أمير المسلمين على بن يوسف خاطب قائده أبا بكر بن تيفلويت يأمره بالكف عن بلاده (ابن هود) فوفاه الكتاب وقد أدخلته الرعية مدينة سرقسطة .

(٤٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٣ - حيث النص على أن أهل أرنيط (في الأصل : أرنبه ؟) اعتصموا بكنيسة منيعة لديهم ، هي التي ضمنت لهم الصلح .

(٤٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٣ .

(٤٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٣ - حيث النص على انه قد بايعة الناس بسرقسطة بعد

ما اشترطوا ألا يستخدم الروم ، ولا يتلبس بشيء من أمرهم .

يتربس بسرقسطة الدوائر ، وفعلًا قام القائد عبد الله بن فاطمة بعد شهر واحد من مقتل المستعين في واقعة أول رجب ، بالتحرك على رأس حامية نحو سرقسطة ، ولكنه عندما اقترب منها نبهه زعماء المدينة الى خطورة الموقف الذى قد يؤدي الى استنجد عماد الدولة عبد الملك بالاسبان المسيحيين ، ودخول بلدهم في دوامة الفتنة من جديد ، ونصحوه بناء على ذلك بالانصراف عنهم - ترقبًا لما تصير اليه الأمور ، وهو ما استجاب له القائد المرابطي (٤٧) .

ولما كانت الأوضاع في الثغر الشمالى تفرض ضرورة التعامل بين المسلمين والمسيحيين ان بالحرب أو السلم ، ولما كان استخدام المسيحيين من الاسبان كعسكر في صفوف الدويلات الاسلامية قد صار أمرًا دارجًا ، ليس من المستحسن الاخلال به حتى العصر المرابطي ، بل وعند المرابطين أيضا (ما سبق ، ص ٢٦٠) ، لم يكن من المستغرب بعد ، ألا يفى عماد الدولة عبد الملك بشرط عدم استخدام « الروم : الاسبان » ، في عسكره ، وقطع صلته بهم . وهكذا لم يكن وفاء عبد الملك بهذا الشرط أو عزمه على مداخلتهم (الروم) كافيا لاستدعاء أمير بلنسية الجديد محمد بن الحاج (أمير قرطبة السابق) (٤٨) ، اذ الأقرب أن يكون ذلك أمرًا مبيتًا من زعماء سرقسطة ، كراهية لأمرهم ابن هود ، تماما كما كان الحال من قبل ، لكل من أهل طليطلة وبلنسية بالنسبة لأمرهم ابن ذى النون (ماسبق، ص ٢٩٢) . وهذا الأمر يعنى أن الحركات الشعبية في المدن الاسلامية بالأندلس في ذلك الوقت من أواخر القرن الخامس وبداية السادس (١١ - ١٢ م) ، كانت أقوى من أن تحجمها سلطات أمراء الطوائف الصغار ، ربما بسبب تأييد المرابطين لتلك الحركات سياسيا ، الى جانب دعايتهم الدينية التي كانت تلقى التأييد شعبيا . وهذا ما يتأكد بعد انفراد المرابطين بالسلطة ، حيث استمر الغليان الشعبى الناتج عن مأزق الضعف السياسى والاقتصادى ، فى مقابل حركة القوة المتصاعدة فى جانب حرب الاسترداد المسيحية (الريكونكستا) ، وبيان عجز حركة الانقاذ المرابطية وحدها عن مواجهتها .

هكذا استجاب القائد محمد بن الحاج أمير بلنسية الجديد من قبل أمير المسلمين على بن يوسف (بعد أن رضى عنه) لدعوة أهل سرقسطة ،

(٤٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٣ .

(٤٨) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٣ - ٥٤ .

وتقدم اليها فى ١٠ من ذى القعدة ٥٠٣ هـ/مايه ١١١٠ م ، حيث فتحت المدينة أبوابها لدخول قواته التى استقرت فى موضع المصلى (الشريعة) ، بينما دخل محمد بن الحاج قصور الجعفرية الشهيرة بعمارتها الفاخرة وفنونها الزخرفية الرائعة (٤٩) .

المهم انه حدث ما كان يتوقعه زعماء أهل سرقسطة من قبل ، من استصراخ عماد الدولة عبد الملك ابن المستعين بالفونس بن ردمير (ملك أراجون المعروف بالمحارب) الذى وافاه بحصن تطيلة (Tudela)

وهنا رأى محمد بن الحاج الذى كان قد خرج للتحرش بابن هود أن يعود الى سرقسطة ، ترقبا لتطور الأحداث . وعندما تقدم ابن ردمير نحو سرقسطة حيث توقف على مسافة فرسخين منها خرج له ابن الحاج على رأس المرابطين بينما عهد بقيادة أهل سرقسطة الى ابنه أبى يحيى . ورغم ما بذله ابن الحاج من الجهد فى ترتيب أهل سرقسطة فى هيئة القتال ، الا أن هؤلاء لم يصمدوا طويلا عندما اندلعت الحرب ، اذ لم يأت آخر النهار حتى أخذوا بنظام التعبئة ، بل وتسلسل كثير منهم الى داخل المدينة . وكانت فرصة انتهزها ابن ردمير الذى قسم قواته الى فرقتين ، وقفت احدها ازاء ابن الحاج بينما صدمت الأخرى عسكر أهل المدينة المختل فحلت بهم الهزيمة وقتل أبو يحيى بن محمد ابن الحاج وكثير من أصحابه السرقسطيين ، وذلك عشية يوم الأحد ٥ من ذى الحجة ٥٠٣ هـ/٢٦ يونيه ١١١٠ م (٥٠) .

ذروة الصراع بين المرابطين والاسبان المسيحيين :

يعتبر انتصار المرابطين على قوات الفونس السادس فى أقليمش (شرق طليطنة) سنة ٥٠١ هـ/١١٠٨ م فى مطلع عهد على بن يوسف ، ذروة النجاحات التى حققتها حركة الانقاذ المرابطية فى الأندلس والتى تنوجت بضم آخر امارات الطوائف فى سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى ، الى أراضى المسلمين فى الأندلس لتتم وحدتها تحت رايات المرابطين . والحقيقة أن الصراع سوف يستمر سجالا طوال عشر سنوات تقريبا ، بين حركتى الانقاذ

(٤٩) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٤ - حيث النص على ولاية ابن الحاج بلنسية عوضا عن ابن ناطمة والى غرناطة ، وانظر القرطاس ، ص ١٦٠ - أحداث سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م - حيث سار محمد بن الحاج من بلنسية الى سرقسطة فدخلها وأخرج عنها بنى هود .
(٥٠) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٤ .

المرابطين والاسترداد الاسباني ، عندما يبدأ رجحان كفة « الريكونيستيا » نتيجة فقدان حماس المرابطين الحربى من ناحية ، وافتقاد ثقة الأندلسيين فى كفايتهم بشكل عام ، الأمر الذى يمكن أن يكون قد ساعد على قيام حركه الموحدين فى المغرب ، التى زعزعت قواعد الدولة المرابطية فى مهدها من جهة ثالثة فى بلاد المصامدة ، وخاصة فى منطقة مراكش حاضرة المرابطين ، على مشارف بلاد السوس الأقصى .

وتمثلت علامات التحول الأول فى الجانب الأندلسى فى وقوف عبدالمملك ابن المستعين بن هود صاحب سرقسطة السافر الى جانب ابن ردمير (المحارب) ، الأمر الذى يشبه ما فعله المنصور بن المتوكل عمر بن الأفطس عندما فضل المسير الى أرض يسيطر عليها الفونسو السادس بدلا من مواجهة يوسف بن تاشفين (ما سبق ، ص) - الأمر الذى لم يجعل الحرب سجلا فقط بين المرابطين والمسيحيين فى ضواحي سرقسطة بل جعلها تصبح فى سنة ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م ميدانا للحرب والمناوشة بين الطرفين صباحا ومساء . وإذا كان النص يجعل التفوق (الظهور) لابن ردمير فى كثير من الأحيان (٥١) ، فإن وصول القائد أبى عبد الله بن عائشة ، والى مرسية ، نجدة الى ابن الحاج بأمر من أمير المسلمين ، بدل الموقف فاعتدل ميزان الحرب بين الطرفين ، وهكذا : « لم تزل الحرب بعد ذلك متصلة ، والمضارب مترددة ، وغزوات محمد بن الحاج متوالية » ولكنه عندما زاد ضغط المرابطين فى منطقة نفوذ عبد الملك بن المستعين ، أثر توجيه على بن كنفاط اللمتونى لحصار بعض حصون بنى هود فى جهة قلعة أيوب ، استغاث عبد الملك بملك أراجون فوجه اليه مددا من العساكر الاسبان (الروم) الذى لم ينجح فقط فى الدخول الى الحصن رغم الحصار ، بل نجح أيضا فى التسلسل خلال المعسكر المرابطى المطمئن ليلا ليأسر قائده « على بن كنفاط » ، ويعود به رهينة ثمينة الى عبد الملك بن المستعين بمقر امارته فى رولة (Rueda) حيث بقى بيده قبل أن يفك أسره عندما تم توقيع الهدنة بين الطرفين - وان لم يمنع ذلك من معاودة القتال ، « والحرب سجلا والنفوس آجال » (٥٢) ، كما حدث فى سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م ، حيث خرج عماد الدولة من رولة لحرب محمد بن الحاج وانتهى الأمر دون هزيمة أحد ، باكتفاء عماد الدولة بالاياب (٥٣) .

(٥١) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٥ .

(٥٢) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٥ .

(٥٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٦ .

والظاهر أن توازن القوى الذى ترجح فيه شيئا ما كفة الاسبان المسيحيين فى الأندلس على كفة المرابطين لم يكن مقبولا من أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين فى مراكش ، الأمر الذى جعله يلجأ فى اواخر سنة ٥٠٤ هـ/يونيه ١١١١ م الى تغيير القيادة العليا فى الأندلس ، وذلك بنقل أخيه تميم - نائب الملك - من ولاية غرناطة الى ولاية تلمسان ، قاعدة المغرب الأوسط (٥٤) . ووقع الاختيار على واحد من أكفأ انقواد المرابطين الذين عملوا فى الجبهة الأندلسية ، وهو الأمير مزدلى (أبو محمد بن سزلنكان: ابن عم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين) الذى آلت اليه فى مطلع سنة ٥٠٥ هـ/يوليه ١١١١ م ولاية كل من قرطبة وغرناطة والمرية وما انتظم معها من الحصون والقوى - بمعنى النيابة أو المملكة (٥٥) . والظاهر أن سياسة القوة التى أظهرها الأمير على نالت رضا عاما من بعض الزعماء الذين عملوا فى الجهة الأندلسية ، وهو الأمير مزدلى (أبو محمد بن سزلنكان: عاد بعضهم الى الانتظام فى صفوف حزبه الطيعى ، الاسلامى . ففى هذا الوقت المبكر من سنة ٥٠٥ هـ صفر/أغسطس ١١١١ م ، كان المنصور بن المتوكل عمر بن الأفطس يرجع من أرض أسبانيا المسيحية الى مدينة أشبيلية - حيث كان الأمير سير بن أبى بكر (منذ فتح المدينة على عهد يوسف) ، الذى رتب توجهه الى حضرة أمير المسلمين بمراكش ، حيث لقي استقبالا حسنا ، وصارت مه منزلة رفيعة فى كنف الأمير (٥٦) .

وتظهر سياسة القوة التى انتهجها المرابطون فى العقد الأول من ولاية الأمير على بن يوسف نتيجة طبيعية لتضافر عدد من العوامل التى هيات استقرار الأمور فى كل من المغرب والأندلس . أولها حسن اختيار أمير على لمساعدته من الرجال الأكفاء من أهل الحرب والسياسة ، من أمثال محمد بن الحاج ، وعبد الله بن فاطمة ، ومحمد بن عائشة وعلى رأسهم مزدلى ، ومن وقف الى جانبهم من الكتاب والوزراء من أهل العلم والأدب والفن : أصحاب الخبرة فى الادارة وشئون الحكم . هذا ، الى جانب التمسك بتطبيق سياسة دينية أصولية مبنية على مبادئ المذهب المالكي وقواعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الأمر الذى أدى أيضا الى تقريب الفقهاء ، والعهد اليهم بالبت فى كل الأمور ، مما جل منها وما صغر (٥٧) .

(٥٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٥ .

(٥٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٦ .

(٥٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٦ .

(٥٧) قارن المعجب لعبد الواحد المراكشى ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

- ٣٩٦ -

وهكذا كان للأمير سير بن أبي بكر ، والى أشبيلية من قبل يوسف بن تاشفين منذ ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، أعماله الهامة في إقليم الغرب حتى سنة ٥٠٤ هـ / ١١ - ١١١٠ م ، بل والى وفاته بأشبيلية (جمادى الأولى ٥٠٧ هـ / أكتوبر ١١١٣ م) (٥٨) حيث ينسب إليه فتوح مدن : برتقال (Porto) ويابره (Yavara) والاشبونه (Lisbau ; Lisbonne) حتى شريش في الجنوب ، الى جانب تهدين منطقة بطليوس ايضا - حيث كانت هذه الأعمال موضوع كتب رسمية أرسلت باسمه الى أمير المسلمين علي بن يوسف . وبعد الأمير سير آلت ولاية أشبيلية الى القائد محمد بن فاطمة الى حين وفاته في سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦ م (٥٩) .

هذا كما كانت للقائد مزدلى بصفتة والى غرناطة ، ونائب الأمير بالأندلس ، أعماله الحربية المجيدة التي أكدت التفوق المرابطي في تلك الحقبة الأولى من ولاية علي بن يوسف . ففي سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م التي تسلم فيها مزدلى ولاية قرطبة وغرناطة خرج على رأس جيش كبير من المرابطين والحرس الأميري (الحشم) ممن حضروا من المغرب ، ومن قوات امارته ، وبما أمده به سير بن أبي بكر من قوات أشبيلية الى جانب المطوعة من الفرسان والرجالة . وكانت وجهة هذا الجيش الكبير منطقة طليطلة - هدف المرابطين وكل المسلمين ، الصعب المنال - « فدوخها واكتسح (مزدلى) به أوديتها ، وأبلغ في نكايتها » ، قبل أن يعود الى قرطبة « ظافرا ، ظاهرا على عدوه » . واذا كانت هذه الأعمال موضوع اتفاق كل من ابن عذارى وابن أبي زرع (٦٠) ، فإن الأخير يضيف اليها فتح مزدلى في تلك الغزوة حصن أرهينه (أرينه أو أورينا) عنوة ، « وقتل من كان به من الرجال ،

(٥٨) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٦ - حيث يفهم من رواية ابن عذارى ان وفاة سير كانت مفاجئة ليلة خروجه للاحتفال بزفاف ابنته فاطمة الى أمير المسلمين ، وذلك في موضع يسمى بأغرناط قرب أشبيلية . وكان يشيع مع ابنته زوجته حواء (بنت تاشفين : أخى يوسف ابن تاشفين لأمه ، وابن عمه (علي) في نفس الوقت) . وعقب الحفل الكبير الذي استمتع فيه الناس بالموسيقى (اللهو) والأطعمة الفاخرة ، نزل بالأمير سير مفص شديد صار يتزايد عليه حتى قضى عليه عند الفجر ، وشهد جنازته بشر عظيم - بعد ولاية ناهزت الـ ٢٥ سنة . اما عن حواء بنت تاشفين ، زوجة سير فقد عرفت بأنها شاعرة جليلة ماهرة ، ذات براءة وخطر ، وأنها كانت تحاضر كثيرا من رجال الدولة من الأدباء والشعراء ، مثل : ابن الفصير والمرخى .

(٥٩) روض القرطاس ، ص ١٦١ - ١٦٢ ، ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٦ .

(٦٠) البيسان ، ج ٤ ص ٥٧ ، القرطاس ، ص ١٦٢ .

عوسبي اسنسا. والندرية » . هذا ، وتضيف الرواية أن الفوائد الاسباني الشهير : البرهانس (Alvar Hanez) عندما خرج مسرعا لنجدة أهل المنطقة لم يستطع مواجهة مزدلى في معركة مكشوفة ، بل انه فر عائدا الى بلده مستترا بسواد الليل . وقبل ان يرجع مزدلى الى قرطبة أمر بنحسين أرينه وحمل الميرة اليها ، كمسا رتب بها حامية مناسبة من الدوسان والرجال (٦١) .

ولا ندري ان كان من حسن حظ مزدلى في صائفته تلك (سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م) ان شئت النوء العاصف الحملة الصليبية البحرية التي خرجت من فرنسا (الأرض الكبيرة) في نحو ٥٠٠ (خمسمائة) مركب تحمل عشرات الالوف من المقاتلة ، من : الفرسان والرماة والرجال : والتي كانت تصحبها مراكب الحجاج مشحونة أيضا بالأطعمة والأزواد (٦٢) . وذلك أن مثل هذه الحملة الضخمة عادة ما كانت تقدم المعاونة على طول الطريق ، وأثناء مرورهم بحذاء الساحل الأندلسي الغربي ، اذا ما طلبها منهم محاربوا الاسترداد ، بل وكان يبقى بعضهم في أسبانيا عندما تفوتهم المراكب المتجهة إلى بلاد الشام وفلسطين - ومن المعروف أنه كان لذلك أثره في نشأة مينكة البرتغال التي استقلت بجزء من غربي شبه الجزيرة الأيبيرية .

من علامات انهبوط : وفاة مزدلى بالشعر واستشهاد ولده محمد :

واظواهر أن أيا من نشاط مزدلى الشخصي أو كمائه العسكرية لم تكن وحدها ، بل ولا كلاهما كافيتين لتقويم الأمر الواقع وتعديل ميزان القوى الى مصلحة المرابطين . وذلك أنه عندما علم مزدلى بتهديد غرسية بن الرند ، صاحب وادي الحجارة (Guadalajara) المدينة المحصنة في الثغر ، بالاستيلاء على مدينة سالم (Medincoli) الاسلامية -سد أن حاصرها ، خرج اثنى لقائه ، ولكن مجرد خبر وصوله الى المنطقة كان كافيا لهرب ابن

(٦١) الرطاس ، ص ١٦٢ ، وقارن ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٧ وهـ ١ - حث الاشارة الى ان المصادر الاسبانية تذكر أن الأمير مزدلى فتح حصن « أوربغا » الذي يمكن أن يكون اسم أرينه بحريفا له - من مجلة تطوان ١٩٥٨ .

(٦٢) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٨ - حث النسخ على أنها كانت مملوكة من القرمش ، يبلغ عددها ١٥٠٠ فارس ، ومن الرماة ٥٠٠٠٠ ، وأن الريح الصرصر العالية أغرستهم فلم تبق منهم باقية .

الرند ، « تاركا جميع أسبابه وأثفانه ومضاربته » التي وقيت جميعا بين يدي مزدلي .

ومع نجاح تلك الحملة التي ربما بدأت في الربيع أو الصيف المبكر ، فإنه لم يقدر لمزدلي العودة الى مقر نيابته في قرطبة وغرناطة ، اذ استمر في غزو الثغر الأعلى (بلاد الروم) استكمالا للصائفة المبكرة ، حيث كانت بداية سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م في أوائل يونيه ، وهي السنة التي توفي فيها مزدلي ، ربما بسبب الاجهاد ان لم يكن من المرض (٦٢) . وعندما بلغ الخبر الى مراکش (العاصمة) صدر الأمر من ديوان أمير المسلمين بتعيين ولدي مزدلي وهما : عبد الله بن مزدلي ومحمد بن مزدلي اللذين كانا في كنفه بالحضرة مكانه ، فكان لعبد الله غرناطة ولمحمد قرطبة ، وتم لهما الاستقرار بولايتهما في آخر ذي القعدة من سنة ٥٠٨ هـ / ٢٧ ابريل ١١١٥ م (٦٤) .

واستمر محمد بن مزدلي في الغزو بمنطقة الثغر هذه لمدة ٣ (ثلاثة) أشهر أي حتى نهاية الصيف ، ولكنه توفي شهيدا في ساحة القتال ، وفي ظروف صعبة على ما نظن ، وذلك ان الرواية لا تحدد تاريخا لذلك المصائب خلال سنة ٥٠٨ هـ / ٥ - ١١١٤ م (٦٥) .

وهكذا كانت قائمة وفيات كبار القواد وأسر بعضهم تزداد طولا مع مرور الوقت خلال العقد الأول من عهد أمير المسلمين علي بن يوسف ، الأمر الذي يمكن أن يعتبر سمة مميزة لنهاية عهد الصعود المرابطي في الأندلس ، وبداية بالتالي لعهد الهبوط ، وهو ما يجعله عبد الواحد المراكشي بداية لعهد الفساد والتردي (٦٦) ، الأمر الذي ينفق مع نظرية ابن خلدون في أن الحضارة

(٦٢) عن مزدلي : هو : أبو محمد مزدلي بن سولنكان ، ابن عم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ووصل جثمانه الى قرطبة في بداية شهر شوال ، ثاني يوم وفاته ، وصلى عليه أثر صلاة العصر ، الفقيه القاضي أبو العباس بن حمدين ، ابن عذارى ، ج ٤ ص ٦٠ .
والهامش رقم ١ للمحقق ، وانظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٨ - حيث النص على كثرة غزواته في بلاد النصرانية .

(٦٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٦٠ ، وقارن المقرطاس ، ص ١٦٢ - حفيد خلف والده مزدلي بشكل عام .
(٦٥) روض القرطاس ، ص ١٦٢ .

(٦٦) أنظر المعجب ، لعبد الواحد المراكشي ، ص ١٧٧ - حيث النهي على اختلال البلاط (الأندلس) بعد سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م باستيلاء أتباع المرابطين على البلاد .
وأمير المسلمين ٠٠ يتزايد تفاخله ، ويقوى ضعفه ٠٠٠ الخ .

ذروة العمران ومؤذنة بضماد (٦٧) •

مظاهر الهبوط والتردى على عهد علي بن يوسف :

والحقيقة أن عهد الواحد المراكشي يبالغ عندما يقرر بشكل عام - أن اختلال الدولة المرابطية بدأ مع عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، بعد سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، فكانه يجعل عهد يوسف وألد علي ، هو ذروة العصر المرابطي • والصحيح أن عهد يوسف بن تاشفين هو عهد التأسيس والقوة العسكرية - والسياسة - أساس حكمه الاستقران التي تزدهر تحت مظلتها أسباب الحضارة والرقى في جميع أشكالها ، وهو الأمر الذي ظل يتحقق في عهد أمير المسلمين الثاني : علي بن يوسف إلى أن بلغ أوجه حوالى منتصف أمارته (٥١٨ هـ / ١٢٢٤ م) وهو التوقيت المقبول كيداية لتفاهم أسباب الهبوط قبل التردى •

وعهد الواحد المراكشي يعتمد أسباب الاختلال في كثير من المظاهر التي يطلق عليها اسم « المناكر » (جمع منكر بمعنى الشر ، عكس المعروف بمعنى الخير) كالآتي :

١ - استيلاء أكابر المرابطين على البلاد - فكان القواد والولة من المرابطين كونوا طبقة أرستقراطية من السادة الجدد الذين حلوا مكان رؤساء الطوائف وأعادوا سيرتهم الأولى من حيث الاستقلال أو الاستبداد أو الافتئات على السلطة المركزية المثلثة في سلطان أمير المسلمين (٦٨) •

٢ - حصول المرأة المرابطية (أى الصنهاجية أو اللمتونية من قبيلة يوسف بن تاشفين - بخاصة) على مركز متميز ، كما هو الحال في المجتمع المغربي البربري حيث نظام الأسرة ذات السيادة الأموية (الماترياركية) ، وخاصة عند الصحراويين المثلثين ، مما يسمح للمرأة بالسفور ، وباجتماع النساء والرجال في العلانية (ما سبق ، ص ٧٤) ، مما لم تعرفه المجتمعات المدنية الإسلامية وخاصة في عواصم المغرب الكبرى والأندلس

(٦٧) المقدمة ، طبعة التجارية ، باب ١ الفصل ١٩ (في أن الحضارة غاية العمران) ، ص ٣٧١ ، وأنظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٨ ، عن مزدلى وكثرة غزواته ، وعلى بن يوسف وأنه كان خير ملك ، كما كانت أيامه صدر وداعة ••

(٦٨) المعجب ، ص ١٧٧ - حث النص على استبداد أكابر المرابطين وتناولهم على السلطان إلى حد التصريح « بأن كل واحد منهم خير من علي أمير المسلمين ، وأحق بالأمر منه » •

حيث حياة السراري والجواري الى جانب الحرات من ذوات الحبس ، ففي مجتمعات الحريم بالقصور المغلقة ومجالس الخاصة (٦٩) ، الأمر الذي كان يثير مشاعر المتشددین من المصلحين ، مثل محمد بن تومرت صاحب الدعوة الموحدية المناهضة للمرابطين ، الذي لفت الأنظار الى هذه « البدع » - وهو ما كان يعتبر من حرب الدعاية التي قام بها مختلف الخصوم ضد قيام الدولة الفاطمية في أفريقية (ج ٢ ص ٥٦٨ ، ج ٣ ص ٣٥) .

٣ - ويعتبر السبب الثالث والأخير ، وهو الخاص بتغافل أمير المسلمين أو ضعفه ، مما قدمه عبد الواحد المراكشي لاختلال الدولة المرابطية ، السبب الرئيسي على اعتبار أن غيره من الأسباب توابع له ، اذ يقول ان ضعف علي ابن يوسف كان يتزايد ويقوى مع مرور الوقت ، حتى « قنع باسم أمير المسلمين ، وبما يرجع اليه من الحراج » وعكف على العبادة والتبتل ، فكان يقوم الليل ويصوم النهار ، مشتهرا عنه ذلك ، وأهمل أمور الرعية ، فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس ، وكادت تعود الى حالتها الأولى ، ولا سيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس (٧٠) .

والذي نراه أن ضعف أمير المسلمين علي بن يوسف أو تبتله وتحوله الى ولي من أولياء الله الصالحين « يقوم الليل ويصوم النهار » مهملاً أمور الرعية وخاصة بالنسبة للأندلس ، إنما هو تنهّب من مواجهة الموقف الذي أخذ يتأزم وبخاصة في حرب الاسبان المسيحيين (الريكونيستات) . والحقيقة أن الأمير علي - الذي خلد قولكمي يكون كاهنا ، كما يقول دوزي (ص ٣٧٨ ، هـ ٩) - ما كان يصلح لمثل هذا الموقف الذي يحتاج الى نوع آخر من الرجال الذين لا تزيدهم الشدائد الا عزيمة واصرارا ، تماما كما كان الحال بالنسبة لوالده يوسف : ابن الصحراء الذي تهرس : باختبارات البيئة الصعبة التي لا تسمح بالبقاء الا للعناصر القوية من النسياس . وهكذا لم يتحمل الأمير علي فشل قواته أكثر من مرة في مواجهة القوات الاسبانية ، وما كان يصاحب ذلك من استشهاد الشجعان من قواته - فكان تحوله من أمير قائد الى ولي صالح .

(٦٩) المعجب ، ص ١٧٧ - حيث المبالغة في القول : « واستولى النساء على الأحوال ، وأسندت اليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر المتونة ومسونة مشملة على كل مفيد وشريير وقاطع سبيل ، وصاحب خمر وماخور » .
(٧٠) المعجب ، ص ١٧٧ .

مصاعب الحرب الاسبانية :

وتابعها من الاضطرابات الداخلية والتحديات الخارجية :

ومن سوء حظ الأمير علي بن يوسف أنه لم يواجه في بداية ملكه حرب الاسترداد وحدها في الأندلس ، بل كان عليه أن يواجه ثورات الزناتية ، خصوم المرابطين الأوائل في المغرب ، كما حدث في بلاد الريف وفي المغرب الأوسط بتلمسان ، الى جانب الغارات البحرية التي بدأت تقوم بها أساطيل الجمهوريات الإيطالية البحرية ، سواء على جزر الأندلس الشرقية أو بعض السواحل الليبية .

اضطرابات الزناتية في العدو المغربية :

ففي سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م ثار الزناتية ببلاد غمارة في الريف ، حيث قام رجل يعرف بابن الزنر الذي ادعى أنه من أبناء معنصر الزناتى ، آخر ملوك فاس السابقين . والظاهر أن الدعوة الى قيام دولة مغراوية من جديد لقي نجاحا لدى زناتية الاقليم ، وذلك أن علي بن يوسف بن تاشفين لم يستطع أن يقضى على تلك الثورة بالقوة ، الأمر الذي دعاه الى استخدام بريق الذهب لتهديد الغماريين الذين خلصوه من الثائر ، فقتلوه غدرا . وأتوه برأسه .

أما عن ثورة تلمسان حيث قام ماخوخ الزناتى الذي لم يستقر في عاصمة الاقليم بل اتخذ مدينة أميرية خاصة به ، فكان يكفي للقضاء عليها خروج أمير المسلمين نحو الثائر لكي يفر أمامه ويخرج من بلاده (٧١) .

غارات ودعية للجنوبيين على ميورقة وبرقة :

هذا ، كما واجه الأمير علي بن يوسف تهديد أساطيل جنوة التي بدأت تهيمن على الملاحة في البحر المتوسط ، وتكون امبراطورية تجارية كبرى تستطيع أن تؤمن متاجرها بقوة الأساطيل الحربية اذا لم تجد العلاقات الدبلوماسية ومعاهدات السلام .

وهكذا كان الجنوبيون يهاجمون في سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م جزيرة.

ميورقة (البليار) التي كانت بيد الفتى مبشر ، مولى علي بن مجاهد ، ودخلوها عنوة بعد حصار شديد (٧٢) . ومن الواضح أن الغارة الجنوبية كانت انتقامية للرد فقط ، وذلك أن الأسطول المراتبي المكون من ٢٠ (عشرين) مركبا حربية ، حشدت من أجل استرجاع ميورقة ، وجدت الجزيرة خالية من العدو عندما وصلت اليها في السنة التالية ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م (٧٣) .

وفي سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م هذه كان الجنويون يهاجمون برقة ويستولون عليها ويخلونها من أهلها . ولكنهم بعد أن تركوها لم يلبث العمران أن عاد اليها بفضل القائد مرتانا قرط المراتبي - الأمر الذي يعني أن النفوذ المراتبي كان يصل في بعض الأحيان شرقا الى برقة (٧٤) - أن لم يكن برا فمن طريق الأسطول بحرا .

وقعة قرطبة واستشهاد محمد بن مزدلي :

وهنا نلاحظ أن مظاهر بلوغ عهد الذروة عند المراتبين يتمثل في استخدام الأسطول في الجهاد وخاصة ضد صقلية النورمندية ، حيث تمدنا حوليات ابن عذارى بمعلومات جيدة بهذا الشأن . ففي سنة ٥٠٩ هـ / مايو ١١١٥ م كان الاسبان يردون على غارات محمد بن الحاج ومزدلي على بلادهم في سرقسطة وطليطلة بغارات انتقامية على القواعد الاسلامية في قرطبة وأشبيلية . ففي بداية ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م « ضرب العدو على نظر قرطبة » وتعجل محمد بن مزدلي في مواجهة المعتدين . والظاهر أنه تهور بعض الشيء في مطاردته لهم ، الأمر الذي مكّنهم من مفاجاته على حين غرة . وانتهت المفاجأة بكارثة كبرى في يوم الخميس مستهل صفر ٥٠٩ هـ / ٢٦ يونيو ١١١٥ م ، يمكن أن تعتبر قرينة وثارا لهزيمة « الفنت سانكو » ولى عهد الفونس السادس ، وصحبه الأقماط السبعة في أقليمش (ما سبق ، ص ٣٨٥) . وإذا كانت رواية ابن عذارى تبالغ عندما تحدد عدد القتلى من

(٧٢) ابن عذارى ، نشر كولان وبروفنسسال ، ج ١ ص ٣٠٥ ، وقارن ابن القطان نظم الحمال ، ص ١٩ - حيث النص على قتل الرجال وسبي النساء والأطفال .
(٧٣) روض القلطاس ، ص ١٦٢ - حيث النص على ملك أمير المسلمين على الجزائر البحرية شرق الأندلس ، وابن عذارى ، ج ١ ص ٣٠٥ ، ابن القطان ، ص ١٩ - حيث النص على ان الروم ، هاجموا الجزيرة ، والمقصود ، أهل جنوة وبيزة وقطالونيا .
(٧٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٨ .

الأمراء المسلمين (القواد) بما يناهز الثمانين قائدا ، فان هذا التهويل يعنى فى حقيقة الأمر رسم علامة مميزة على مسار الانقاذ المرابطى فى الأندلس ، بما يفيد أن وقعة قرطبة هذه يمكن أن تعتبر نذير شؤم على طريق بداية النهاية بالنسبة للوجود المرابطى بالأندلس . فالى جانبه استشهد محمد بن مزدلى يذكر مقتل كل من : أبى اسحق بن غانية (دانية أصلا) وأبى بكر بن واسينوا ، وجملة كبيرة من رجال الحرس الأميرى (الحشم) وأهل الأندلس - « فكان مصابا عظيما ، وخطبا جسيما » (٧٥) .

الهيّاج الشعبى على المرابطين :

ثورة قرطبة ٥١٤ هـ / ١١٢١ م بداية النهاية للمرابطين :

هذا ، واذا كانت حوليات ابن القطان تذكر غزوة لعبد الله بن فاطمة الذى آلت اليه ولاية أشبيلية فى نفس السنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م (بدلا من فاس) (٧٦) يمكن أن تعتبر انتقاما لوفاة مزدلى واستشهاد ابنه محمد بن مزدلى فى ميدان الجهاد ، فان ثورة قرطبة ، قاعدة البلاد وحاضرة الخلافة العتيقة ، منذ أواخر سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م ، تعتبر بحق علامة بداية النهاية بالنسبة للمرابطين بالأندلس .

والحقيقة أن ثورة قرطبة هذه كانت نوعا من الهيّاج الشعبى الذى عرفته العواصم الاسلامية ، بعد عهد من الاستقرار تضخم فيه عدد سكانها ، وازدادت فيه رقعتها خارج الأسوار ، أشبه ما يعرف حاليا بالبناء العشوائى خارج المدن ، كما حدث فى بغداد على عهد الأمين والمأمون ، وفى قرطبة أيام الحكم الرضى ، وفيما بينهما بالاسكندرية ثم فى مدن المغرب الكبرى وصقلية ، والأندلس على مر الزمن ، الأمر الذى ينتهى بقيام حكومات مدن الطوائف .

(٧٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٦١ - حيث تضيف الرواية الى زمرة القواد الشهداء ، الأمير محمد بن الحاج ربما نحت تأثير ضخامة الكارثة أو من أجل المنارنة بحادثة ابن الحاج وهو الأمر المقبول . فمن المعروف أن مجال جهاد محمد بن الحاج كان فى منطقة الثغر الأعلى ورسولونة شمالا ، وأنه استشهد سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م (السابقة) فى موقعة البورت . (البساب) (هـ ١ - حيث الإشارة الى معجم الصدفى لابن الأبار) التى تعنى مبرات جبال البرانس المعروفة بالبربات (الأبواب) . وانظر فيما سبق ص ٣٨٣ وهـ ٢٢ - حيث رواية ابن الأبار (المعجم) ترجمة رقم ١٢٠ ص ١٣٤ - حيث استشهد محمد بن الحاج أثناء ولايته . سرقسطة بالبورت (الباب) سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م .

(٧٦) نظم الحمان ، ص ٢١ وهـ ٢ .

ففى خلال احتفالات عيد الأضحى من سنة ٥١٤ هـ/غبرابر ١١٢١ م ،
وخروج عامة أهل قرطبة رجالا ونساء الى المنتزهات وشطبان النهر الكبير ،
كان الاغراء أشد من أن يحتمل السكوت عليه بالنسبة لبعض رجال الحرس
الأميرى من العبيد السود ، فامتدت يده الى امرأة وهى نمر بالقرب منه —
الأمر الذى يعنى أن الحدث وقع على الرصيف المواجه لسور القصر على طول
شاطيء النهر ، غير بعيد من القنطرة .

والمهم أن الحدث الفردى هذا ، لم يمر بسلام بل انتهى بقيام العامة
على حرس أبى بكر بن يحيى بن رواد ، وإلى قرطبة وقتئذ ، ودامت «الفتنة»
العظيمة بين العبيد السودان من رجال الحرس وأهل البلد طوال النهار .
وعندما تدخل زعماء العاصمة من الفقهاء والأعيان ورأوا ان يشترى الوالى
أبو بكر تهديئة العامة بقتل واحد ما ، من عبيده الذين أثاروا الفتنة ، أنف
من ذلك واعتبره تطاولا على سدة الحكم ، واستعد لمواجهة العامة الذين ردوا
رجاله الى داخل القصر . وعندما ضيق القرطبيون حصارهم على القصر ،
اضطر الوالى الى الهرب منهم ، فكانت فرصة انتهزها العامة لنهب القصر
ثم تهادوا الى دور المرابطين فأحرقوها وأخرجوا أصحابها من البلد (٧٧) .
وبذلك تكون قرطبة قد قلبت ظهر المجن للمرابطين وعادت جمهورية شعبية ،
كما كان الحال على أيام ابن جهور (ما سبق ، ص ٢٩٣ رهـ ٢١) .

وعندما وصل خبر ثورة قرطبة على المرابطين ،رسل أمير المسلمين على
ابن يوسف الى أهلها خطاب تقريع وتهديد ، فلم يؤثر فيهم ذلك التهيب ،
وعندئذ قرر المسير بنفسه على رأس حملة عبرت الى الأندلس فى ربيع الأول
سنة ٥١٥ هـ/مارس ١١٢١ م قبل أن يزداد الخرق اتساعا . ولكنه رغم
وصوله أمام المدينة لم تفتح له الأبواب . وعندما ضرب جيشه الحصار عليها
وقف أهلها على أهبة الاستعداد للقتال . وأخيرا انتهى الأمر الى المفاوضة
فى الصلح على أساس ما قيل له من وصية والده بالاحسان الى محسنى أهل
قرطبة والصفو عن مسيئتهم — لما لهم من منزلة خاصة (ماسبق ، ص ٣٧٩) ،
واستجاب القرطبيون ، الى ما قرره الأمير (المتبتل) من أن يخرم أهل قرطبة

(٧٧) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٥٥٨ — حيث النص على ان هاج قرطبة الجديد هذا .
كان قبل سنة ٥١٣ هـ / ١١٢٠ م ، وقارن ابن التطان ، نظم الجمان ، ص ٢٣ — حيث تحديد
حملة الأمير على قرطبة فى سنة ٥١٥ هـ / ١١٢٢ م ، بعد ان لم يستجيبوا الى تهديده فى
لسنة السابقة (٥١٤ / ١١٢١ م ، سنة الثورة) .

للمرابطين ما نهبوه من أموالهم ، وعاد من قنائهم (٧٨) . وهنا لا ندرى ان كان يمكن المناورة بين فتح الامير على هذا القرطبة وفتحها الاول على عهد أمير المسلمين يوسف ، فالاختلاف واضح بين الترحيب الشعبي الاول وموقف القهر الآتي الذي يجعل من أمير المسلمين الثاني واحدا من ملوك الطوائف .

والهم هنا الاشارة الى أن ثورة قرطبة هذه التي بدأت خلال سنة ٥١٤ هـ / ١١٢١ م واستمرت الى أوائل سنة ٥١٥ هـ / مارس ١١٢١ م كانت متزامنة مع ظهور دعوة المهدي الموحدين محمد بن تومرت ، وهو التوقيت الذي يمتد بدء اختلال الأمور على عهد الامير على بن يوسف ، بل واعم أسبابه (٧٩) .

وهكذا يكون موقف المرابطين العسكري والسياسي قد ضعف في الأندلس على المستويين الخارجي والداخلي بحكم التدهور ، من حيث أدت نجاحات حركة الريكونكيستا الى افتقاد ثقة أهل البلاد في قدرة حكامهم الجدد على تحقيق عمالية الانقاذ الخارجي ، الأمر الذي أدى بالتالي الى التحول السلبي في الموقف الأدبي الذي كان يؤدي الى الضعف المنسوي للجهة الداخلية مما يمكن التعبير عنه بالانفصال الروحي بين الشعب والدولة الحاكمة .

الموقف الديني والثقافي في الأندلس والمغرب :

في أوائل عهد الأمير على بن يوسف :

ويظهر أثر ذلك التحول الأدبي في الجهة الداخلية في كل من الأندلس والمغرب فيما طرأ على الفكر الديني من التطور ، نتيجة طبيعية لتطور الثقافة الإسلامية التي كانت قد بلغت الذروة في القرن الـ ٥ هـ / ١١ م في اشرف

(٧٨) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٥٥٨ .

(٧٩) أنظر ابن التلطان ، ص ٢٣ - حيث النص في أخبار سنة ٥١٥ هـ / ١١٢٢ م : ثم هاجر الامام أرضه وحل بجل ايجلس ومع ذلك اتصل بعلى بن يوسف أن أهل قرطبة قادوا على المسلمين ، أنذر ابن عداري ، ط ، بيروت ، ج ١ ص ٤٤٣ - حيث النص في سنة ٥١٤ هـ / ١١٢١ م . وفيها كان حلول ابن تومرت الملقب المهدي بأغصان محمدا على الخروج على السلطان وتفريق الكلمة المنتظمة . وفارن الحلل المنسوبة ، ص ١٠٢ - حيث النص : وان أمير المسلمين على بن يوسف اضطربت عليه الأمور من لدن ظهور المهدي عليه . وبعد هذا الكلام أعرف بالمهدي ، وبداية أمره . . . وأعود الى اتمام دولة أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين .

يظهر كبار المفكرين هناك على كل المستويات ، مثل : الفارابي والماوردي ونظام الملك في الفكر السياسي ونظم الحكم ، والفارابي والرازي وابن سينا في الفلسفة والطب ، والماوردي والغزالي والشهرستاني بعدهم ، في علوم الدين والتصوف ، الأمر الذي كانت له أصدائه في القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م ، في الفكر الإسباني المغربي والحضارة فيما تمثل في أعمال كل من ابن رشد وابن زهر في الفلسفة والطب أو أعمال ابن عربي وابن تومرت في الفكر السياسي والتصوف الديني أو أعمال ابن بصال وابن العوام في فلاحة الأرض والزراعة . وهي الأعمال التي تمثل نهضة الغرب الإسلامي التي بدأت بواكيرها في ذلك الوقت المتقدم من عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، والتي ستبلغ الذروة عما قريب على عهد الموحيدين الذي يعتبر استمرارا طبيعيا لتطور الحضارة المغربية الأندلسية الناشئة في كنف دولة المرابطين .

المالكية المرابطية على عهد علي بن يوسف :

ويظهر التطور الديني على عهد علي بن يوسف بن تاشفين في بلوغ المذهب المالكي الى قمة قوته بفضل مساندة الأمير « المتبتل » الذي أحاط نفسه بفقهاء المالكية ، كما وضعهم على رأس الجهاز الإداري ، حيث شغلوا مناصب القضاء وإقامة الصلاة في المساجد العظمى بالأمصار ، كما شغلوا مناصب الشورى الى جانب أمير المسلمين في مراكش ، وفي نيابة الأندلس وقواعدها الكبرى ، كما في المغرب . الى جانب ما كان لبعضهم ، من وظائف الوزارة والكتابة التي ارتقى بعضهم فيها وبلغ درجة الرشد والكمال (٨٠) .

وأهم المصادر المعتمدة للتعريف بأحوال المالكية في الأندلس على عهد علي بن يوسف وهيمنة المذهب المالكي في تلك الفترة المصيرية من تاريخ الدولة المرابطية هو كتاب ابن الأبار المعروف بمعجم أصحاب الصدفى :

(٨٠) أنظر معجم الصدفى لابن الأبار ، رقم ١٢٠ ص ١٢٣ - حيث ترجمة ابن المرخي : أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز الأشبيلي ، الكاتب الجليل ، أحد المقربين من أمير قرطبة محمد بن الحاج ، والذي وصف بأنه أحد رجال الكمال بالأندلس ، رقم ١٢٥ ص ١٤٦ - حيث يوصف محمد بن أبي الحصال (ذو الوزارتين - ت ٤٥٠ هـ / ١١٤٥ م) بأنه أحد رجال الكمال ، وأنظر أيضا رقم ١٤٤ ص ٢٠٣ - حيث رسالة من أبي علي الصدفى الى صديقه صاحب الترجمة : الركل السرقسطي (عبد الله بن دري - ت ٥١٣ هـ) يخبره انه لو كان معه في بغداد أثناء رحلته الشرقية ، أذن لعرف الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك له قدره ووفاء حقه وقسطه « اذ يقل وجود مثلك وتكثر حاجاتهم ال من دونك فكيف بهم لو ظفروا بك ٠٠٠ هو أو من كنت تتصل به من أهل الدولة العباسية » .

شيخ مرسية ، شهيد موقعة كتندة سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م (٨١) . ويظهر الاهتمام بالمذهب المالكي فى عناية أفراد الأسرة الحاكمة - اقتداء برأس الأسرة أمير المسلمين على بن يوسف . وهذا ما يتضح فى ترجمة الأمير أبى اسحق إبراهيم بن يوسف (المعروف بابن تقيشت - اسم أمه) ، أخى الأمير على الذى دخل فى زهرة تلاميذ أبى على الصدفى بحكم موقعه فى امارة مرسية ، والذى استشهد معه أبو على الصدفى فى كتندة (٨٢) . والمهم أن ابن الأبار يختم ترجمة الأمير إبراهيم الذى ولى مرسية بعد أشبيلية ، مؤكدا سيادة العلم والايمان وقتئذ ، قائلا : وفى دولة أخيه (أمير المسلمين على) تفقت العلوم والآداب ، وكثر النباه ، وخصوصا الكتاب (٨٣) .

والحقيقة أنه رغم أن المشرق ظل حتى ذلك الوقت من بداية القرن ١٢ هـ / ١٢ م منهل العلم والثقافة بالنسبة لعلماء المغرب الاسلامى ، فان حواضر الأندلس كانت قد أصبحت مراكز علمية مرموقة بفضل إبنائها الرحالة الذين أصبح يشهد اليهم الرحال بدورهم - حتى أصبح اسم « الرحالة » يطلق على من كان لهم تجوال فى عواصم الأندلس العلمية أيضا (٨٤) .

أما عمن أخذ عنهم من مشاهير الأندلسيين من المشاركة فى ذلك

(٨١) أنظر المعجم فى أصحاب الصدفى لابن الأبار ، مدريد (مجريط) ١٨٨٥ .
(٨٢) معجم الصدفى ، ترجمة إبراهيم بن يوسف ، رقم ٤٠ ص ٥٥ - ٥٦ - حيث أرسل إبراهيم وزيره يطلب مد الصدفى أن يسمع عليه فى منزله فرحب الشيخ بذلك على أن يصل اليه بعد الفراغ من اسماع أصحابه - وان طمع فى البداية فى تشريف الأمير له مجلسه . وعن استشهاد أبى على مع الأمير إبراهيم فى كتندة سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م ، أنظر ترجمة روم ٣ ص ٨ ، ٢ - ٤١ (عن كاتبه ابن قزمان) ، ص ٣٠٦ (عن سماع كبار المرابطين) .

(٨٣) معجم الصدفى ، ص ٥٦ - حيث النص على أن أبا بكر الصدفى حكى فى تاريخه ان على بن يوسف اسنجاز أنا عبد الله أحمد بن محمد الحولانى جمع رواياته لعلو اسناده فأجاز له ، وأضاف الى ذلك ، وأبوه (على بن يوسف) أبو يعقوب (يوسف بن تاشفين) مع نشأته فى الصحراء ، كان لا يمحى أمرا الا بمشورة الفقهاء .

(٨٤) معجم الصدفى ، ترجمة رقم ١٢٤ ص ١٤٠ - ١٤١ - حيث أبو الطاهر السرقسطى ، الاشتروكوى الذى يوصف بأنه كان رحالة فى طلب العلم ببلنسية وشاطبة وقرطبة ومرسة وغرناطة ومالقة واشبيلية . كما ينسب اليه التضلج فى عدد من العلوم ، من : اللغات والآداب والمسلسل (من الحديث عن طريق علماء الأندلس فيما بينهم) والمقامات للزومية والقراءة والحديث .

الوقت ، فمنهم : أبو الطاهر السلفي (الشافعي) الذي جعل من الاسكندرية واحدة من أهم مراكز علم الحديث اعتبارا من سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م ، وحتى وفاته في ٥ ربيع الآخر ٥٧٦ هـ / أغسطس ١١٨٠ م (٨٥) . وكان عدد تلاميذه السلفي من الأندلسيين الذين أخذوا عنه لا يحصون كثرة ، كما كان كثير من المعاصرين للأمير علي بن يوسف بن تاشفين قد تتلمذوا عليه بطريق المراسلة (المكاتبه) ، مثل : أبي عمران بن أبي تليد ، وأبي الوليد بن رشد ، وأبي علي بن سكرة الصدفى (صاحب المعجم) (٨٦) .

وأخذ الأندلسيون بالاسكندرية أيضا عن أبي بكر الطرطوشي ، صاحب أول مدرسة مالكية بالاسكندرية (٨٧) وأبي الحسن الحلبي ، وأبي الحسن بن داود الفارسي بمصر ، وابن أبي العالم (أبي القاسم) وابن أبي الحديد (أبي عبد الله) والمقدسي (أبي الفتح نصر) ، والاسفراييني (أبي الفرج بن سهل) بدمشق (٨٨) والبيضاوي (أبي الفتح) ، والنهائوندي .

(٨٥) معجم الصدفى ، رقم ٣٦ ص ٤٨ - حيث صلى عليه أبو الطاهر بن عوف بجامع عبد الله بن عمر بن العاص ، وكان دفنه في مقبرة وعلة (مقبرة كوم الدكة) .

(٨٦) معجم الصدفى ، رقم ٣٦ ص ٤٨ ، ٥١ - حيث النص على ان السلفى قدم الاسكندرية سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م للسمع من الرازى (أبو عبد الله بن الخطاب) وفى نية اختراق بلاد المغرب والأندلس للأخذ عن أصحاب أبي عمر بن عبد البر وغيرهم ثم العودة الى أصبهان ببلده ولكنه انشغل بسمع السكندريين منه ، وبإحسانهم اليه فاقام بالنفر الى أن مات الرازى سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م وله من العمر ١٠٠ (مائة) سنة ، فخلفه فى الأسماع . وطال عمر السلفى الذى زاد شيوخه على الألف (؟) ليطول الانتفاع به . وينص ابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) على أنه تتلمذ على أكثر من ٢٠ (عشرين) شيخا من تلاميذ الرازى من الأندلسيين والمشرقيين ، سمع منهم جميع رواياته ونوالفه ، ص ١٤٢ - حيث ينص محمد بن أحمد بن موسى ، من أهل مرسية على سماعه من الرازى والسلفى ، وأنه جلب الى المغرب فوائد جمة عند مقدمه من المشرق ، ص ١٧٩ - حيث كتب اليه السلفى والمازرى من المشرق ، ص ٢٤١ (عن السلفى) ، ص ٢٥٣ (عن السلفى والمازرى) .

(٨٧) معجم الصدفى ، ترجمة رقم ١١٦ ص ١٢٦ - حيث محمد بن إبراهيم (أبو بكر النيساني - من أهل المرية) الذى أخذ أيضا بالاسكندرية من ابن الحضرمي الذى كان من رحالة الفقهاء المشاورين والذى ولى قضاء مرسية بعد وروده من المربة فى شعبان ٥٢٧ هـ / يونيو ١١٢٣ م الى المحرم سنة ٥٢٩ هـ / أكتوبر ١١٣٤ م ، وتوفى منكوبا فى مراكش سنة ٥٣٦ هـ / أغسطس .

(٨٨) معجم الصدفى ، ترجمة رقم ١٢١ ص ١٣٥ - حيث محمد بن يحيى (أبو المالحى : الفرس : ابن الصايغ) فاضى دمشق وخال ابن عساكر ، ص ٢٣٦ (الحلبي) .

(أبى نصر) فى مكة (٨٩) ، وابن طرخان التركى (أبى بكر) بدمشق (٩٠) .

أما عن أهم الكتب الدارجة فى حلقات هؤلاء العلماء مما كان يمثل مقررات الدراسة فى هذا الوقت من امارة على بن يوسف ، فمنها القديم المتواتر بين الأجيال ، ومنها الحديث المؤلف بمعرفة رجال العصر المحدثين . وأشهر تلك الكتب التى كان يدرسها كبار العلماء وقتئذ من أهل المشرق أو من تلاميذ الأندلس الذين عرفوا بأنهم من رجالات الأندلس ، بل ومن أصحاب الكمال منهم ، سواء بالسمع أو القراءة أو الرواية أو الكتابة أو الاجازة ، هى كتب الحديث بطبيعة الحال .

ويأتى فى المقام الأول بعدد الصحاح كتب الدارقطنى (ت ببغداد ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) ، من : السنن ، والمؤلف والمختلف ، والاستدراكات على البخارى ومسلم والتتبع والالزامات (٩١) ، وبعدها يأتى رياضته المعلمين لأبى نعيم (٩٢) وجامع الترمذى (٩٣) ، ثم كتب أبى عمر بن عبد البر ، مثل الوسيط والتقى (٩٤) ثم مشتببه النسبة لابن عبد الغنى (٩٥) .

وأهم كتب المعاصرين ، هى : الاستدراك على أبى عمر بن عبد البر فى الصحابة ، لأبى اسحق إبراهيم بن يحيى (ابن الأمين ت ٥٤٤ هـ /

(٨٩) معجم الصدفى ، ترجمة رقم ١٢٣ ص ١٣٩ - حيث محمد بن الحسين الانصارى (أبو عبد الله الميورقى) الذى سكن غرناطة ، والذى امتحن بالقبض عليه من ابن رجال (أبو الحكم) ، وابن العريف (أبو العباس) ، فقصده المشرق ثانية ، وأقام بمدينة بجاية برمة وحدث بها فى سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م .

(٩٠) معجم الصدفى ، ترجمة رقم ٢١٨ ص ٢٣٨ - حيث ترجمة عبد الرحمن بن محمد النفطى (أبو الناسم بن الصايغ) الذى خرج من دمشق الى نفطة بلده سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤م فولى الصلاة والخطبة بتوزر .

(٩١) معجم الصدفى ، ص ٨٩ (السنن) ، ص ١١٩ (المؤلف والمختلف) ، ص ٢٩٥ (الاستدراكات والتتبع والالزامات) . وعن الدارقطنى الذى أخرج ٢٠٠ (مائتى) حديث من صحيح البخارى « ذهب الى أنها ضعيفة » ، أنظر تاريخ التمدن الاسلامى لجورجى زيدان ، مراجعة حسين مؤنس ، ج ٣ ص ٧٥ - ٧٦ .

(٩٢) المعجم ، ص ١٢٨ ، ١٤٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٧ ، ٢٧١ ، وكذلك حلية الأولياء ، ص ١٢٦ .

(٩٣) المعجم ، ص ١٢٨ ، ١٤٥ ، ٢٠٠ ، ٢١٥ .

(٩٤) المعجم ، ص ١٢٨ (الوسيط) ، ٢٠٩ (التقصى) .

(٩٥) المعجم ، ص ١٤٥ ، ٢٩٥ .

(١١٤٩ م) (٩٦) ، وكتاب الاهتداء بمصاييح السماء لموفق المسنالى (من أهل المرية) (٩٧) . أما تواليف « المرسى » : أبو محمد عبد الله بن محمد النفزى (٤٥٣ هـ / ١١٦١ م - ربيع الثانى ٥٣٨ هـ / سبتمبر ١١٤٣ م) ، فهى : الفوايد المبسوطة وبستان المتيقن ورياض العابدين وسبيل الهدى ، الأمر الذى يؤكد اتجاهاته فى الزهد والتصوف (٩٨) - الذى كان قد بلغ الغاية فى هذا الوقت الموصل ما بين القرن الـ ٥ هـ والـ ٦ هـ / ١١ - ١٢ م ، حيث بدأ دمج الاسلام بطابع الطرق الصوفية - علامة التوكل والسلب : نذير الاضمحلال والضعف . أما عن أعمال الرشاطى : أبو محمد عبد الله بن على الحافظ النابه - الأريولى ساكن المرية - ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م - ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م) ، المعداد من رجالات الأندلس العلماء ، فله عدة تأليف فى علم الحديث ، منها : كتاب « اقتباس الأنوار والتماس الأزهار » وكتابان فى نقد الحديث ، أولهما فى نقد كتاب الدارقطنى : « المؤتلف والمختلف وما فيه من الأوهام » ، والثانى فيه رد على القاضى ابن عطية (أبى محمد عبد الحق) فى نقده لكتابه هو (أى الرشاطى) « الكبير فى النسب » (٩٩) .

غريب الحديث والتسامح الدينى :

ومما يثير الانتباه فى معجم الصدفى هو اهتمام علماء الحديث فى تلك الفترة الأولى من عهد الأمير على بن يوسف بن تاشفين بدراسة التاريخ كعلم

(٩٦) معجم الصدفى ، ص ٤ .

(٩٧) معجم الصدفى ، ص ٢ - ١٩ - حيث سماعه من أبى على سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م وسنة ٥٠ هـ / ١١١٢ م بمروسة .

(٩٨) معجم الصدفى ، ترجمة ١٩٨ ص ٢١٥ .

(٩٩) معجم الصدفى ، لابن الأبار ، ترجمة رقم ٢٠٠ ص ٢١٧ وما بعدها - حيث النص على أن الرشاطى كان مشاركاً فى اللغات والآداب ، ومحققاً بالآثار والأنساب ، وله كتب : « اقتباس الأنوار والتماس الأزهار فى أسماء الصحابة ورواة الآثار » ، وهو فى تقدير ابن الأبار طراز جديد « لم يسبق الى مثله » ، « الاعلام بما فى كتاب المؤتلف والمختلف للدراقطنى من الأوهام » ، « اظهار فساد الاعتقاد ببيان سوء الانتقاد » ، الذى رد فيه على القاضى أبى محمد عبد الحق بن عطية . وانتصر فيه لنفسه لما تعقب عليه مواضع من كتابه الكبير فى النسب ، وعابه أشياء أوردها فى تضاعيفه لم يخل فيها من تحامل ونعسف كان تركها أولى ، حسبما يقول ابن الأبار (ص ٢١٨) - ووفى الرشاطى شهيداً فى المرية عندما تغلب عليها الروم (الأسبان) صبيحة الجمعة ٢٠ جمادى الأولى ٥٤٢ هـ / ١٨ أكتوبر ١١٤٦ م) .

مساعدة للحديث (١٠٠) مع اهتمام خاص بغريب الحديث (١٠١) ، حيث تنتهي تراجم كبار العلماء بما أخذ عنهم في مسلسلاتهم التي يؤخذ فيها الحديث فيما بينهم أخذاً باليد - زيادة في التأكيد والاطمئنان (١٠٢) .

ولا بأس أن يكون أول الغريب من الحديث في ذلك المجتمع الذي تسود فيه السنية المالكية هو الأحاديث الشيعية ، حيث يشار في بعض الأحيان ، الى عدم صحتها لفساد اسنادها ، ويسكت عن ذلك مواضع أخرى (١٠٣) ، ومما يسترعى الانتباه عناية الأندلسيين في ذلك الوقت باستخراج الغريب من الأحاديث ذات الموضوعات الأخلاقية مما تدعو الى الفضيلة ، والتحلي

(١٠٠) انظر معجم الصدفى لابن الأبار - حيث الاشارات الى تاريخ البخارى (التاريخ الكبير) ، ص ٨٦ ، وصحيح مسلم في التاريخ ، ص ٢٠٩ ، وتاريخ ابن خيثمة ، ص ١١٩ ، ٢٧١ ، وتاريخ أبى بكر بن الخطيب ، ص ١٢٦ .

(١٠١) معجم الصدفى لابن الأبار - حيث غريب الحديث لأبى عبيد ، ص ١٢٨ ، ٢١٥ ، وكتاب العربيين ، ص ٢٠٣ ، وغريب الصحيح للبخارى ، ص ٢٠٣ ، وانظر أيضا ص ٢٠٤ (ترجمة ١٨٤) لعبد الله بن درى : الركن السرقسطى (ت ٥١٢ هـ / ١١١٩ م) الذى كان أبو على كثيرا ما يحضه على تخريج غريب الصحيح للبخارى ، اشادة بتقديمه الشهير في الآداب واللغات ، وانظر ص ٢٠٩ - حيث الحديث المسلسل في الأخذ باليد الذى حملة الناس وسلسلوه من حيث القوة في الأندلس وتقييمه المهمل (لأبى على الفسائى) ص ٢٠٦ . وكمشكل الحديث (لابن مدرك) ص ٢١٥ ، وغرائب الحديث للخطابى ، ص ٢٠٧ .

(١٠٢) المسلسل من الحديث بمعنى المسند أو المأخوذ باليد بين علماء الأندلس . انظر معجم الصدفى لابن الأبار ، ص ١٤١ - حيث النص على أن الاشتراكى : محمد بن يوسف السرقسطى (ت ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م) وهو آخر من روى عن الصدفى ، الف المسلسل الى جانب المقامات اللزومية ، ص ٢٠٩ ، ترجمة رقم ١٩٥ (لأبى محمد عبد الله بن أيوب - الشاطبى - ت ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م) - حيث السماع بشاطبة (من الصدفى سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م) الحديث المسلسل في الأخذ باليد ، ص ٢١٠ - حيث يرى ابن الأبار أن الحديث المسلسل هو الذى يتأكد أخذه مع الترجيح بالأخذ باليد تبعاً لقول الرسول ، وهو يرجح ببراءة ويأخذ بيده ، ويقول له : « لا تلقى مسلم مسلماً فتهتن به ويرحب به ويأخذ دمه الا تناثرت الذنوب بينهما ، كما يتناثر (ورق الشجر اليابس) ، حسبما كتبه من خط ابن أيوب ، وانظر أيضا ، ص ٢٩٧ - حيث يفهم أن المقصود بالتسلسل هو الأستاذ بين مشايخ أهل العصر الأندلسيين المعروفين قبل تسجيل المتن .

(١٠٣) انظر معجم الصدفى ، ص ١٢٥ - حيث حديث مسند عن على بن موسى الرضا عن على بن أبى طالب ، عن النبى ، يقول فيه : « الأيمان اقرار باللسان ومعرفة بالقلب . وعمل بالأركان » فرغم جودة المتن ووضع الدار قطنى بين المسندين فإنه (الدار قطنى) يصفه بأنه لا يصح بسبب الاسناد ، وانظر ص ١٢٧ - حيث حديث : « ومن يفيض آل محمد يدخل النار » ، ص ٣١٧ - حيث الحديث : « النظر الى وجه على بن أبى طالب عبادة » .

بحسن الخلق ، والحلم ، والود ، والنصح ، والكرم ، والتعاون ،
والرحمة (١٠٤) ، ومما ينهى عن الرذيلة ، من : من الكسل والجبن والكرهية
والفجور والغضب والبخل والهجر (١٠٥) .

ومما خرج علماء الأندلس من غريب أحاديث الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر ما يتراوح ما بين الافراط فى شدة والتفريط تساهلا ، ان لم يكن
فى النص فى التطبيق ، مثل التشدد مع قاطع الطريق ، والتساهل نوعا
ما مع شارب الخمر (١٠٦) .

(١٠٤) معجم الصدفى ، ص ١٢٢ - حيث : « خير ما أعطى العبد الخلق الحسن » ،
ص ١٤٠ - حيث « وجبت محبة الله على من أغضب فحلم » ، ص ٢٠٩ - ٢١١ - حيث :
« لا يلقي مسلم مسلما فيهب به ، ويرحب به ، ويأخذ بيده ، الا نثارى الذنوب بينهما ،
كما يتناثر ورق الشجر اليابس ، وهنا يقول ابن الأبار ، انه حديث مسلسل كتبه من
خط ابن أيوب ، ولا بأس فى إيراد مع ذكر طائفة من رواه بالاندلس وبلادها ، وص ٢١٨ -
حيث حديث : « شرط النصح لكل مسلم » ، ص ٢٣٧ - حيث : الكرم بتقديم الهدية للأهل
حين العودة من السفر مهما قل قدرها ، ص ٢٤٧ - حيث « طعام السخى شفاء » ، ص ٢٦٢ -
حيث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ٠٠ » ، ص ٢٦٧ - حيث أول حديث
قصد به التسلسل : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا اهل الارض يرحمكم من فى
السماء » (هكذا) .

(١٠٥) أنظر معجم الصدفى ، ص ١٢٩ - حيث النص : « اللهم انى أعوذ بك من الكسل
والهرم والجبن والبخل وفتنة الرجال ، وعذاب القبر ، وقارن ص ٢١٧ - حيث « اللهم انى
أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل (وضلع) الدين وغلبة الرجال » .
وبالمقارنة يتضح أن نص الى (فتنة ؟) ، نقصت منه كلمات (الحزن) و (العجز) ، وأضيفت
اليه - بما قد لا يتفق مع السياق - (وعذاب القبر) ، بينما نرى أن تصحح (فى النص
الثانى) « (ضلع ؟) الدين » الى ضعف الدين . وأنظر ص ١٣٦ - حيث : « المعروف
كله صدقه » ، وان آخر ما تعلق به أهل الجاهلية من كلام النبوة : « اذا لم تستحي فاصنع
ما شئت » ، ص ٢٤٧ - حيث : « طعام البخل داء ٠٠٠ » .

(١٠٦) أنظر معجم الصدفى ، ص ٢٤٨ - « ولا يدخل الجنة قاطع » ، بينما يظهر التساهل
فى الخمر وهى « عصارة أهل النار فى النار » (ص ٢٢١) ، - حيث يعرض حديث : « وجوب
النصح لكل مسلم ، كما ينسب الى عمر بن عبد العزيز : مطالبته رجال شرطته (من العسس)
بتطبيق حديث : « ادروا الحدود بالشبهات » بالنسبة للشيوخ « السكر » ، حسن الهيئة ،
الذى ضبط أكثر من مرة متلبسا ، الذى أنزلت به ضعف عقوبة الجسد المستحقة خطأ ،
لأنه كان عبدا - وذلك فى قصة هزلية انتقدها ابن عطية واعتبرها من الفكاهات أو الحكايات
الغثة ، ص ٢٢٢ . ومثل هذا يمكن أن يقال عن حديث : « انك لتنظر الى الطير فى
الجنة فتشده فيخر بين يديك مشويا » . الأمر الذى جعل الصغير الذى كان يسمع بصحبة
والده أن يضيف من عنده « والقرصة » (الرغيف) حتى تكتمل الرغبة - وهو ما أثار إعجاب
الحاضرين (لحضور ذهنه) - ص ٢٨٧ .

وهنا تحسن الاشادة بذلك الاتجاه نحو التسامح الدينى من جانب المحدثين الأندلسيين فى بعض ما استخرجوه من الغريب ، الأمر الذى يمكن أن ينسب الى البيئة الاجتماعية والأوضاع الخاصة التى تجعل من التعامل مع أصحاب الديانات الأخرى من اليهود والنصارى بالأندلس أمرا مقبولا . والمثل انعام هنا هو الحديث الذى لا يفرق بين الناس جميعا الا بأعمالهم فى حياتهم اليومية ، حيث ينسب الى النبى حديث ينص فيه على أن : « أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة ، وأهل المنكر فى الدنيا هم أهل المنكر فى الآخرة » (١٠٧) ، الأمر الذى يشبه آراء القدرية الذين يقولون : السعيد سعيد وهو فى بطن أمه والشقى شقى وهو فى بطن أمه - دونما تفرقة عرقية أو مذهبية . وعلى هذا النسق يأتى حديث التسامح الدينى حقيقة ، الذى يعبر عن المحبة والأخوة فى الانسانية ، دونما حقد او ضغينة فكأنه من مبادئ حقوق الانسان الحديثة أو أزيد . ففى ذلك الحديث يقول الرسول : « ان هذه الأمة مرحومة لا عذاب عليها ، عذابها بأيديها ، فإذا كان يوم القيامة أعطى كل رجل منهم رجلا من أهل الأديان فكان فكاكه من النار » (١٠٨) .

وهكذا كون فقهاء الأندلس مدرسة حديث لا تكتفى بالنقل من مجموعات الصحيح الدارجة ، بل تجتهد فى البحث عن الجديد فى علم الحديث ، ليس على سبيل الجمع والاستقصاء فقط ، بل من أجل التصنيف النوعى أيضا ، فكان اجتهدهم فى البحث عن الغريب الذى صنف بدوره ما بين : « عال » والجمع « عوالى » ، « وما لا يصح » (١٠٩) .

وارتفع شأن مدرسة الحديث الأندلسية المالكية هذه ، وكان لها

(١٠٧) معجم الصدفى ، ص ٢٧٣ .

(١٠٨) معجم الصدفى ، ص ١٥٢ - حيث النص على انه غريب من حديث أبى بكر بن

أبى بردة ، تفرد به عروة بن عبد الله ، ولم يروه عنه بهذا الاستناد غير الاشهب .

(١٠٩) أنظر معجم الصدفى - حيث العوالى من الأحاديث الخاصة بالعبادات ، مثل

عوالى بن خيرون ، (ص ٦٧) وبكيفية أداء الصلاة ، كذلك الأحاديث التى صافح أبو على

(الصدفى) فيها : الامامين البخارى ومسلم (ص ٢٠٩) . ومنه الأحاديث الآحادية السند

التي لا يعرف لها الا رواية واحدة (ص ٢٠٦) ، مثل الحديث الذى ينص على أن النبى أطعم

أعرابيا لقيمات ، فقال له « انك رجل صالح » مكتفيا بتكرارها دون الدخول فى الاسلام -

وفيه يقال : « لا نعلم رواء الا حفص بن غياث (ص ٢٠٧) ، ومنه ما كان عرضة للنقد حتى

وضع فى مرتبة الفكاهات او الحكايات الفنتة (ما سبق ص ٤١٣ وه ٦) الى جانب الأحاديث

الشيعة مما سبقت الإشارة اليه (ص ٤١٠ وه ١٠٣) .

الذكر في المشرق بفضل علمائها الرحالة الذين جعلوا من أداء الحج والزيارة رحلة للعلم والثقافة ، اختصوا بها تبعا لامكاناتهم المادية التي لم تكن تتوفر لغيرهم من أهل الأقطار الأخرى بنفس السهولة ، وهكذا لم يكن في نية الفقيه الشافعي أبي الطاهر السلفي الإقامة في الاسكندرية - التي صار شيخها الأول - عندما وصلها في سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م ، بل للأخذ عن الرازي (ت ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م) الذي كان يدرس هناك ، على أن يقوم بمد ذلك - كما يقول ابن الأبار - باختراق المغرب والأندلس للأخذ من علماء الأندلس من تلاميذ أبي عمر بن عبد البر (١١٠) .

اتجاهات مالكية متشددة على المستوى الرسمي :

رغم انفتاح مدرسة الحديث المالكية الأندلسية على ثقافة المشرق الاسلامي المزدهر في ذلك الوقت من نهاية القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، ممثلة في مذهب أهل السنة والشيعة وما عاصرها من أفكار الحكماء والفلاسفة والمتصوفة ، وأخذها بطرف من كل ذلك ، الأمر الذي يعبر عن اتجاهات تسامحية تستحق الإشادة بها . ولكن الحال لم تكن دائما على هذا المنوال ، فالى جانب التسامح ظهرت في المقابل اتجاهات متشددة أخرى بالنسبة لأصحاب المذاهب والديانات المخالفة (١١١) ، الى جانب أحاديث أخر مما يظهر فيما يسمى بالطب النبوي ، والتي لا بأس في السكوت عنها (١١٢) .

ويظهر التشدد بصفة خاصة على المستوى الرسمي ، لدى العاملين في الدولة على مستوى الدواوين أو حاشية الأمير ، حيث رفضت الأفكار الدينية السياسية المخالفة ، وخاصة عندما يستشعر خطرهما على أمن الدولة أو النظام العام أو سلامة الأمير . ولا يظهر ذلك في مقاومة الدولة فقط لبعض

(١١٠) معجم الصدفى ، ص ٤٩ - حيث النص على ان السلفي كان ينوى بعد رحلة الأندلس العودة الى بلده أصبهان لولا أن شغله السكندريون بالأخذ عنه والاحسان اليه ثم جلوسه مكان الرازي بعد وفاته (وما سبق ، ص ٤٠٨ وهـ ٨٦) .

(١١١) معجم الصدفى ، ص ١٣٢ - حيث الحديث الممدود في سباعات أبي على الصدفى ونصه : « أنا أول شفتي يوم القيامة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة ، ان من الأنبياء من يأتي يوم القيامة ما معه مصدق غير واحد » .

(١١٢) معجم الصدفى ، ص ١٩٥ - حيث حديث : « من قرأ ياسين عدلت له ٢٠ (عشرين) حجة ، ومن كتبها ثم شربها أدخلت جوفه ألف يقين و ألف رحمة ، ونزعت منه كل غل وداء ، مع النص على أنه : غريب من خط أبي على (الصدفى) ، وقارن الطب النبوي لابن الجوزي .

حركات المتصوفة - التي بدأت تستشرى فى أرجاء عالم الاسلام - بل وفى الشك فى مواقف المقربين من أعيان المستشارين كالفقيه القرطبي الشهير ابن رشد الجلد (أبو الوليد) .

والحقيقة أنه يمكن القول ان الفتور كان قد اعتري العلاقة بين أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، ورعيته من الأندلسيين اعتبارا من السنة العاشرة لولايته وهى سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦ م . ففي تلك السنة حسبما تنص رواية ابن عذارى ، سرت بين العامة من الناس شائعات تتنبأ بقرب نزول كوارث خطيرة بالبلاد ، أعظمها اختلال أمر الدولة بموت الأمير السلطان فى شهر رمضان (٥١٠ هـ / يناير ١١١٧ م) (١١٣) ، الأمر الذى يمكن أن يكون دعاية سوداء من بعض المدعين بالولاية أو الكرامات من أدعياء السوء .

وهنا كان على الأمير أن يواجه تلك الفرية بما يليق بها من محاولة تهدئة خواطر الناس عن طريق دعوة المسئولين ، من الحكام والقواد الى : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن طريق اقامة الحق والالتزام بالعدل والبعد عن الشبهات ، مع الالتجاء على مداراة الرعية ورفع الغبن عن الناس ، وإغاثة الملهوف منهم (١١٤) .

احراق كتب الغزالي : بشارة قيام مذهب التوحيد :

أما ما يعبر حقيقة عن تسلط المرابطين المذهبي ، فهو ما يؤخذ على مالكية الأندلس على عهد متبتلهم أو كاهنهم الأمير على ، الأمر الذى يمكن أن ينسحب على المالكية بعامة ، ويسمهم بالتعصب الذميم ، وهو احراق كتب الغزالي التى يقصد بها احياء علوم الدين على وجه الخصوص . وهذا الأمر الذى يمثل نوعا من التناقض مع مسار الفكر الاسلامى الذى كان قد بلغ الذروة بفضل كبار العلماء والمفكرين من أمثال الفارابى وابن سينا والماوردى ، وكذلك الغزالي ، مما لم يكن يخفى على رحالة الأندلس من العلماء - وهو ما سوف تظهر تباشيره عما قريب ، على عهد الموحدين خلفاء

(١١٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٦٢ .

(١١٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٦٣ - ٦٤ - حيث نص الرسالة الموجهة الى الولاة بضرورة الالتزام بحسن السيرة والاستقامة وتهديد المخالفين منهم بالحلج .

المرابطين ، حيث يتم نضج الحضارة المغربية - الاسبانية المعبرة عن تكامل
وحدة الغرب الاسلامي .

والمهم هنا هو أن احراق كتب الامام الغزالي في الأندلس يعبر عن
المقدمات التاريخية لقيام دولة الموحدين ، بمعنى أن فترة الصراع بين
الدولتين المرابطية والموحدية ، وهي فترة « المطاولة » عند ابن خلدون ،
تمتد الى هذا الوقت المبكر من العقد الاول لولاية الامير علي بن يوسف بن
تاشفين - حيث بدأ ظهور منظر حركة التوحيد محمد بن تومرت ، في رحلته
العلمية المشرقية التي بدأت بمراكز العلم الأندلسية قبل السفر بحرا نحو
المشرق ، على أواخر أيام الامام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م) ، أشهر
أساتذة النظامية سواء في بغداد أو نيسابور ، وصاحب احياء علوم الدين
أكثر الكتب الاسلامية رقة وروحية وشفافية عند كبار علماء المسلمين ، كما
هو عند المستشرقين - رغم أصوليته الدفينة .

والحقيقة أن كتاب الاحياء هو الذي رفع من شأن الغزالي وسما به الى
درجة الحجية في الاسلام ، فهو يبين من ناحية تبحر الغزالي في معرفة
المذاهب الاسلامية المختلفة ، من مذاهب أهل السنة الخمسة (حيث يجعل
خامسها مذهب سفيان الثوري) والشيعة (التي يميل الى المعتدل منها)
ويكره الباطنية) ، والمتكلمين (فلاسفة الاسلام المدافعين عنه) ثم الصوفية .
وهو من ناحية أخرى يمثل مشروع الغزالي الاصلاحى الذى يهدف الى لم
شمل الفرق الاسلامية المختلفة تحت مظلة واحدة تعيد الى الدين شبابها
وحيويته بفضل التفكير المنطقى سمة المعرفة العقلية ، والشفافية الروحية
سمة الوعى القلبى (الصوفى) ، وعن طريق التمسك بالعلم الأخرى ،
ونبذ كل ما دونه من العلم الدنيوى الذى لا يبتغى به وجه الله ، بل ارضاء
السلطين والملوك (١١٥) . كان الخلاف بين الغزالي وبين فقهاء الأندلس من

(١١٥) أنظر احياء علوم الدين للغزالي ، ج ١ ص ٢ - حيث النص على أنه سلك في
اخراج الحديث وبيان مسحته أو حسنه أو ضعفه فخرجه . . وهو المقصود الأعظم عند أبناء
الآخرة ، ص ٥ - حيث النص على ان ثمرة هذا العلم : طب القلوب والارواح المتوصل به
الى حياة تدوم أبد الآباد ، ص ١٣ - حيث تفصيل علم الآخرة الذى يعتبره الغزالي فرض عين ،
ص ٢١ - حيث الاجماع على أن تقدم أبى بكر لم يكن بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية
ولا فتوى ولا كلام ، ولكن بشئ . وقر فى صدره ، كما شهد له سيد المرسلين ، فليكن حرصك
فى طلب ذلك الشئ ، فهو الجوهر النفيس والدر المكنون . . . ص ٢٢ - حيث زعماء الفقه
الخمسة ، وكل واحد منهم كان عابدا وزاهدا وعالما بعلوم الخلق فى الدنيا ، ومريدا بفتيحه =

«المالكية الذين كانوا في خدمة المرابطين ، والذين كانوا يقفون مع من يصنفهم الغزالي من فقهاء العصر من طلاب الدنيا ، من : المال والجاه والسلطة ، فهم من هذا الوجه من خصوم أهل الآخرة من : الفقهاء الأوائل» (١١٦) .

والى جانب اتهام فقهاء العصر بأنهم طلاب مال وسلطان وجاء ، الأمر الذى كان يثيرهم من غير شك ، فلا بأس أن كان تبحر الغزالي فى العلم ومعالجته لموضوعات شتى من الفلسفة كالكلام ونظريات الفيض الصوفية ، أو « معنى النفس والروح والقلب والعقل » (ج ٣ ص ١٢) ، الى جانب تعرضه لأمر تفصيلية غير معهودة فى عدد من المعاملات ، كما فى الحب والعشق وآداب النكاح (ج ٢ ص ١٩) ، بل وفى محاولة تأييد آرائه بغريب الحديث - كما فعل تلاميذه الروحيون من الرحالة الاندلسيين (ص ٤١٣) - حتى فى تفسير القرآن (١١٧) الذى كان يثير فقهاء المحدثين (من

= وجه الله تعالى ، ص ٤٣ - حيث العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن الى الله تعالى ، وانظر عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ، تحقيق فيصل السامر ، ونبيلة عبد المنعم ، بغداد ، ١٩٧٧ ، ج ١٢ ص ٤ - حيث القول عن الغزالي انه « وزع أوقانه على وظائف الخير ، ثم ختم القرآن ومجالسة أهل القلوب » . وحيث القول عن الأحياء : انه « أجل الكتب وأعظمها حتى قيل انه لو ذهبت كتب الاسلام وبقي الأحياء لا غنى عما ذهب » ، وانظر فنج الله خليف ، فلاسفة الاسلام (ابن سينا ، والغزالي والفخر الرازى) ، الاسكندرية بدون تاريخ ، ص ٢٦٥ - حيث موقف الغزالي من الصوفية .

(١١٦) أنظر أحياء علوم الدين للغزالي ، ج ١ ص ٣ - حيث النص على أن أدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وقد شغل منهم الزمان ٠٠٠ ولم يبق الا المتعسرون وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستفواهم الطغيان ٠٠٠ ، ص ١٩ - ٢٠ - حيث تفسير أعراض المسلمين عن الاشتغال بالطب لانه فرض كفاية قد قام به جماعة (خصوصا أهل النعمة) ، ولأن الطب ليس يتيسر الوصول به الى تولى الأوقاف والوصايا أو حياة مال الأيتام ونقد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على (عداء هيئات هيئات ، قد أندرس علم الدين بتلبس العلماء السوء ، فالله تعالى المستعان ، واليه الملاذ فى أن يميزنا من هذا الغرور ، ص ٢٢ - حيث ونحن نذكر من أحوال فقهاء الاسلام ما تعلم به ما ذكرناه ليس طعنا فيهم ، بل هو طعن فيمن أشّر الاقتداء بهم منتحلا مذاهبهم ، وهو مخالف لم فى أعمالهم وسيرهم ، ص ٣٧ - حيث أصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين ، وبعد أن كانوا أعزة بالأعراض عن السلاطين أذلة بالأقبال عليهم الا من وفقه الله تعالى فى كل عصر .

(١١٧) أنظر أحياء علوم الدين للغزالي ، ج ١ ص ١٣٤ - حيث تفسير « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ، بالقول : سكارى من كثرة الهمة ، أو من حب الدنيا ، وشرح ذلك بـ « كم من مصلى لم يشرب خمرًا وهو لا يعلم ما يقوله فى صلاته » ، ج ٢ ص ٨٦ - حيث شرح : « ومن شر غاسق إذا وقب » بأنه « قدام الذكر أو اذا دخل » ، استنادا الى ابن عباس ، وإن كان المحقق فى هـ ٢ يقول : بهذا حديث لا أصل له .

الظاهرية) الأندلسيين ضد آراء « حجة الإسلام » المعادية لهم - دونه مواربة . ولا شك أن غزابة علم الغزالي وجراته من حيث عدم الحشية في سبيل معرفة الحقيقة لومة لأنهم يمكن أن تكون مبررا كافيا لكرامية « احياء علوم الدين » - الذي يظهر في بعض المواضع وكأنه دعوة الى المودة بالاسلام الى ثقائه الاول أى الى سذاجته الأولى ، دون اعتبار لسنة التطور والتجدد - ولكن ليس الى درجة الاعداء حرقا ، على ما نظن (١١٨) .

والمهم أن مجلس شوري فقهاء قرطبة انعقد في سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٥ م برئاسة القاضي أبى عبد الله محمد بن حمدين وقرر احراق كتاب احياء علوم الدين لأبى حامد الغزالي ، الأمر الذي تم تنفيذه علنا فيما كان لديهم من النسخ ، وذلك في رجة المسجد الجامع ، المواجهة للباب الغربى للجامع .

وإذا كان ابن القطانة الذى يسجل قصة حرق الاحياء في خبر غريب يجمع ما بين تفصيلات المذكرات الشخصية وخيالات القصة الأسطورية يجعل وقوع الحرق بأمر من الأمير على بن يوسف بن تاشفين في تلك السنة المبكرة من أوائل حكمه (١١٩) ، فالذى يفهم من بعض روايات ابن الأبار أن مناهضة كتاب الاحياء كانت متدرجة ، حيث بدأ القاضي ابن حمدين بمنع الرجوع الى كتاب الاحياء قبل الاقدام على حرقه (١٢٠) . هذا ، كما كان لأمر حرق

(١١٨) انظر الاحياء ، ج ٤ ص ٤١٩ - عن الموت والحساب والسرائر بتفصيلاتها المذهلة ، فكانها شهادة شاهد عيان ، عن : حقيقة الموت وما يلزم الميت في القر من الاستجواب مع استخدام الميزان في شكل ماضى عجيب حسب تصور أهل أواخر القرن الـ ٥ هـ / ١٢ م ، تماما كما الفتنون المسيحيون في نفس هذا الوقت ، في تصوير يوم الحساب على واجهات الكاتدرائيات الرومانسكية في فرنسا وأسبانيا - الأمر الذى كان يثير البعض ، كما سنرى عند ابن تومرت .

(١١٩) انظر ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٤ ، ١٥ وهـ ٢ ، ٣ - حيث اخذت نسختي ميمون بن ياسين (أبو عمر اللمتوني) التى سكن المزية وعنى بجمع الكتب ، وكانت له رحلة حج (ت ٣٥٠ هـ / ١١٣٥ م) ، وابن العربى (أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري الاشبيلى) (٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م - ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) الذى كانت له رحلة سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م اخذ فيها عن الطرطوشى بمصر ، والغزالي ، وعاد سنة ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م الى الأندلس والمغرب حيث دفن بفاس .

(١٢٠) انظر معجم الصدفى ، ص ٢٣٢ - حيث ترجمة أبى الحسن عبد الرحمن بن أحمد ابن طاهر (من أهل مرسية) - حيث النص على انه لما جاورهم هذا الشيخ الذى زخر علمه لجة ، وجعل ابن حمدين تركه الأخذ عن أبى حامد حجة الاسلام ، قد قدروا قدره فأكبروه مكانه - وعمرؤا اذحاما عليه وابتدروا (وابتدارا) اليه زمانه وتنافس فيه اولو احسابهم . الأمر الذى يعنى ان ابن حمدين بدأ بترك الأخذ عن الغزالي (قبل تقرير حرقه الاحياء) .

الإحياء معارضة قوية ، وخاصة من أولئك الذين جلبوه معهم من المشرق ، أو الذين درسوا على أيديهم في الأندلس ، مثل : الفقيه أبي الحسن علي بن محمد البرجي (ت ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م) الذي كان يرى انزال عقوبتي التأديب والغرامة المالية بمن أحرق كتب الغزالي (١٢١) .

وهكذا تكون السلطة المراكشية ممثلة في شخص أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين قد استجابت لمطالب فقهاء الأندلس ، وعن هذا الطريق انتشرت عملية الرقابة الدينية في شكل محكمة تفتيش قرطبية نشرت ظلالها القاتمة على أهل البلاد ، ولم تفرق في بحثها الباطني عما يدور في القلوب والنفوس أو العقول ما بين المسلمين ، بل والمعاهدين ، الأمر الذي استمر ثم استشرى على عهد تاشفين بن علي مع ازدياد خطر الدعوة الموحدية التي ارتبطت بفكر الغزالي .

وعن هذا الطريق كان الأمير تاشفين الذي كانت له نيابة الأندلس سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٨ م قبل أن تؤول إليه الإمارة سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م (١٢٢) يصدر الأوامر في السنة التالية ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م إلى الولاة والحفهاء ، مثل : يحيى بن علي بن الحاج أمير بلنسية ، وكذلك قاضيها أبي محمد بن جحاف ، يأمرهم بالبحث عن كتب البدع ، وعلى الأخص كتب الغزالي التي يجب استئصالها بالحرق المتتابع (١٢٣) .

(١٢١) أنظر مجموع الصدفى ، رقم ٢٥٣ ص ٢٧١ - ٢٧٢ - حيث ترجمة البرجي الذي « أوجب في كتب أبي حامد الغزالي حين أحرقها أبو عبد الله بن حمد بن بامر تاشفين (هكذا) تأديب محرقها وتضمينه قيمتها لأنها مال مسلم (وعندما) قيل له أكتب بما قلته من خط يدك ، قال : « سبحان الله ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . وقملا كتب البرجي فتباه هذه ووافقه عليها عدد من فقهاء المرية ومشايخها الذين وقموها بخطوطهم ، ومنهم القاضي أبي عبد الملك مروان بن عبد الملك ، الأمر الذي غاظ ابن حمد بن فكنب إلى القاضي الزاهد الذي قبل العزل راضيا .

(١٢٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٨ - حيث النص على عظم شأن علي بن يوسف وأنه عقد لانه تاشفين على غرب الأندلس ، وأنزله قرطبة وإشبيلية ، وأنه عقد في نفس الوقت « لأبي بكر بن إبراهيم المسوفى على شرق الأندلس ، بينما عهد لابن غانية على الجزائر الشرقية » . « ذانية وميورقة » واستقامت أيامه .

(١٢٣) أنظر ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٦ - حيث النص (تحت أحداث سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م) على توالى الاحراق على ما اشترى منه (الإحياء) في المغرب ، وقارن بن عذاري ، ج ٤ ص ٥٩ - حيث رواية ابن القطان التي تنص على أن الاحراق كان بأمر « علي بن يوسف الذي توجه إلى جميع بلاده يأمر بأحراقه » وأنظر هـ ١ - حيث الإشارة إلى رسالة =

- ٤٢٠ -

ولا ندرى ان كان يمكن أن يذكر الى جانب أعمال التفتيش عن كتابه الاحياء منذ العقد الأول من ولاية الأمير علي بن يوسف ، ما حدث في أواخر العقد الثاني من ولايته ، مما شارك فيه (بعد ابن حدين) ، قاضى قرطبة الشهير أبو الوليد بن رشد (المعروف بابن رشد الجدل) في أواخر أيامه ، من الفتوى بتغريب جماعات المعاهدين من نصارى غرناطة واعمالها وتغريمهم بحجة تورطهم فيما قام به ابن رديم الطاغية (الفونس السابع) الذي حل محل الفونس السادس في نحدى المرابطين واكتساح الاراضى اسلامية في أواخر سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م وأوائل سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م . فلقد تجشم ابن رشد مشقة الرحلة من قرطبة الى مراكش حيث التقى بالأمير علي بن يوسف الذي قبل فتواه ، وأصدر أوامره بإجلاء معاهدي الأندلس عن أوطانهم الى العدو المغربية . وفعلنا تم نفي عدد كبير منهم الى المغرب حيث تعرضوا أثناء المسيرة التي بدأت في شهر رمضان سنة ٥١٩ هـ / أكتوبر ١١٢٥ م ، لكثير من أعمال النهب والسلب والتدمير (١٢٤) . الأمر الذي يضع علامة استفهام أمام ما يعزى الى المجتمع الإسلامى من أعمال انسانية فى أمور التسامح مع الأقليات العرقية والدينية ، مما لا يعرف له نظير لدى المجتمعات الأخرى الا في اعلانات حقوق الانسان التي نعيشها الآن .

والمهم أن الفقيه المالكي الكبير (ابن رشد) لم يقصر فتواه على نقض المستعربين الأندلسيين للعهد ، بل كانت له تنبيهاته الخاصة بالاجراءات العسكرية الكفيلة بالوقوف أمام الخطر الموحدى فى المغرب . فلقد نصح الأمير علي بن يوسف باتخاذ أساليب الدفاع المعروفة فى الأندلس ، من الأسوار والبوابات الحصينة للعاصمة مراكش . والأمر الذي يلفت النظر هو أن تلك الأساليب الدفاعية المستوحاة من الأندلس تقرر تعزيزها هناك أيضا حيث عرفت عملية التحصين فى الأندلس بالتعتيب ، وان وقع عبثه

= الأمير تاشفين (بن علي أمير المسلمين) الى ابن الحاج وابن جحاف في سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م (٩) ، والتي ينص فيها على البحث عن كتب البدعة وخاصة كتب الغزالي ، وتبع أثرها وقطع خبرها بالحرق المتتابع . وأنظر عيون التواريخ لابن شاطر الكتبي ، ج ١٢ ص ٤ - حيث النص على انه عندما دخل الاحياء المغرب أنكروا ما فيه وصنفوا عليه : « الاملاء فى الرد على الاحياء » ، ص ٥ - حيث القول : « وأنكروا عليه (الغزالي) ما فيه من الاحاديث التي لم يصح » ، مع التعليق بالقول : « ومثل هذا يجوز الترغيب والترهيب ، والكتاب فى غاية النفاسة » .

(١٢٤) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٧٢ - ٧٣ ، الحلل المؤشمية ، ص ٦٧ .

هناك على أهل كل مدينة أو حصن ، الأمر الذى كان يمثل عبئا ماليا جديدا تنوء به مقدرة أهل البلاد فى تلك الظروف الصعبة التى كانت تتعرض فيها البلاد لاجتياحات العدو (١٢٥) .

والمهم فى النهاية هو أن محاولة استئصال احياء علوم الدين ، أهم أعمال الغزالي ، وأحد دواوين الفكر الاسلامى فى عصر نهضته فى القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، كان علامة مميزة فى طريق الدولة المرابطية نحو الاضمحلال . فالحقيقة أن هناك نوعا من الربط بين احراق كتاب الاحياء وبين قيام حركة التوحيد التى قامت عليها دولة الموحدين خلفاء المرابطين فى المغرب والأندلس . وفى ذلك تريد الرواية الموحدية - رمزا ان لم يكن واقعا - أن يكون الامام الغزالي قد « أجاز » تلميذه محمد بن تومرت ، الفقيه السوسى (قبل سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م - تاريخ وفاة الغزالي) فى الشار لذلك العمل الهمجى الذى قامت به دولة لمنونة المرابطية ضد مشروع تجديد الاسلام الذى كان يعده الامام ، فكانت تلك الاجازة بمثابة المحرك لقيام ابن تومرت بحركة التوحيد . وبذلك يرتفع عبء العمل الحضارى فى كل من المغرب والأندلس ، عن كاهل أهل الصحراء المثلثين ليقع على عاتق أهل السوس الجبليين اعتبارا من مطلع القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م ، مما يكون موضوعا للجزء الخامس من الكتاب ، ان شاء الله .

(١٢٥) ابن عذارى ، ج ٤ ، ص ٧٣ ، الحلل الموشية ، ص ٩٧ - ٩٨ (عن ابن رشد)
 ص ٩٠ (عن تسوير مراکش) والعتبة وجمعها أعتاب تعنى أسفل مدخل الباب وأعله ،
 والتعتيب تعنى التقيف المعقود . والمتستعب هو المسكن المسجل الذى يخضع للضريبة (كما
 فى حالة التحصينات الأندلسية هنا) - أنظر دوزى ملحق القواميس العرسية ، ج ٢ ص ٩٣ .

- ٤٢٢ -



خريطة رقم ١٧ - المواقع التاريخية ومحطات الطرق التجارية
عبر الصحراء الافريقية

فهرس المصادر والمراجع المذكورة فى الهوامش

- ابن الآبار (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) :
كتاب الحلة السراء فى ٢ ج ، تحقيق وتعليق حسين مؤنس ، ١٩٦٣ .
أصحاب الصدفى ، مجريط (مدررو) ، ١٨٨٥ .
- ابراهيم بن محمد الساسى العوامر :
الصروف فى تاريخ الصحراء وسوف ، تونس ، ١٩٧٧ .
- ابن الأثير :
الكامل فى التاريخ (ج ٩ ، ج ١٠) ، الطبعة الأوروبية : فى ١٣ ج .
- أحمد أبو زيد :
المجتمعات الصحراوية فى : مصر شمال سيناء . دراسة اثنوجرافية
لنظم والأنساق الاجتماعية ، القاهرة ١٩٩١ .
- أحمد فكرى :
المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦١ .
- أحمد مختار العبادى :
الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ،
مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية العدد ٢١ ، سنة ١٩٦٧ -
١٩٦٨ .
دراسات فى تاريخ المغرب ، ١٩٦٨ .
- الادريسى :
المغرب العربى - من كتاب نزهة المشتاق . حققه ونقله الى الفرنسية،
محمد حاج صادق ، ط ١٩٨٣ .

— ٤٢٤ —

— الاستبصار (كتاب) :

- وصف مكة والمدينة ومصر والمغرب والسودان في القرن ٦ هـ / ١٢ م .
تحقيق المؤلف ، نشر جامعة الاسكندرية ، ١٩٤٨ .

— اسماعيل العربي :

- الصحراء الكبرى وشواطئها ، الجزائر ، ١٩٨٣ .

— الاصطخرى :

- المسالك والممالك ، القاهرة ، ١٩٦١ .

— أطلس التاريخ الافريقي :

- تأليف كولن ماكيفيدى ، ترجمة مختار السويفى ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

— اطلس مصر والعالم :

- جيوبرجكتس ، انجلترا ، ط ١٠ ، ١٩٨٧ .

— أمين توفيق طيبي :

- تأثير الاسلام فى غانا ومالى فى العصور الوسطى (قرن ١٠ - ١١ م) ،
بحث بالانجليزية فى مجلة الدراسات الانسانية بجامعة الكويت ،
صيف ١٩٨٤ .

AMIN TAWFIQ TIBI, The impact of Islam on Medieval Ghana and Mali (10-14th C.)

Arab Journal for Humanities, Kuwait University, 1984.

— بدرى محمد فهد :

- العمامة ، بحث منشور فى ١٩٦٨ .

— ابن بسام (أبو الحسن الشنترينى - ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م) :

- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، كتاب فى ٤ أقسام ، فى ٧ مجلدات
بمعدل مجلدين للأقسام الثلاثة الأولى وواحد للأخير ، تحقيق احسان
عباس ، بيروت ١٩٧٩ .

- ٤٢٥ -

- ابن بشكوال :

كتاب الصلة ، فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم
وأدبائهم ، ٢ ج ، ط ، مجريط (مدريد) ، ١٨٨٢ .

- ابن بطوطة :

الرحلة ، تحقيق على الكتانى ، ٢ ج .

- البكرى :

المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشر دسلان ، مع تعريف
بالبكرى بالفرنسية وبالكتاب الذى يعنون ب : وصف أفريقيا الشمالية
(Description de l'Afrique Septentrionale) ، الجزائر ، ١٨٥٧ .

- هـ . تراس وباسيه (H. Terrasse et Basset) :

بيوت عبادة وقلاع موحدية ، دراسة فى مجلة هسبيرس ، عدد
١٩٢٤ ، ١٩٢٥ تحت عنوان :

Sanctuaires et Fortersess Almohades, 1926.

- الجاحظ :

رسالة مناقب الترك ، فى رسائل الجاحظ ، نشر عبد السلام هارون .

- جروسيه (رينيه) :

امبراطورية السهوب ، باريس ، ١٩٣٩ .
R. Grousset, l'Empire des Steppes, Paris, 1939.

- الجزنائى (أبو الحسن على) :

كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ، نشر الفرداد بيل ، الجزائر
١٩٢٢ .

- جمال الدين الشيال :

أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، مصر - دار المعارف ، ١٩٦٥ .

- جوتييه :

- ماضى شمال افريقية ، بالفرنسية ، ١٩٤٢ .
E.F. Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord, Paris, 1942.
- الصحراء ، بالفرنسية ، بايو ، باريس ، ١٩٤٦ .
E.F. Gautier, Le Sahara, Payot, Paris, 1946.

- جودة حسنين :

- وحسن أبو العيون ، سطح هذا الكوكب ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ .

- جوليان (ش . أ) :

- تاريخ افريقيا الشمالية بالفرنسية ، باريس ، ١٩٣١ .
Ch-André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, Tunisie — Algerie —
Maroc, Payot, Paris, 1931.
- والترجمة العربية تحت عنوان : تاريخ أفريقيا الشمالية ، ج ٢ (من
الفتح الاسلامى الى سنة ١٨٣٠) • تعريب : محمد مزالى ، البشير بن
سلامة .

- الحبيب الجنحاني :

- المغرب الاسلامى : الحياة الاقتصادية والاجتماعية (ق ٣ - ٤ هـ /
٩ - ١٠ م) ، الجزائر ، ١٩٧٨ .

- حتى (فيليب) :

- تاريخ العرب المطول ، ج ٢ ، ١٩٦٥ .
- حسن أبو العيون ، أنظر جودة حسنين .

- حسن أحمد محمود :

- قيام دولة المرابطين ، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب فى العصور
الوسطى ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
- المرحلة الافريقية من تاريخ المرابطين ، المجلة التاريخية المصرية ،
مجلد ١١ ، ج ٦ ، القاهرة ١٩٦٥ .

- ٤٢٧ -

- حسين مؤنس :
الشعر الأعلى في عصر المرابطين .
- الخلل الموشية لمجهول ، الدار البيضاء ، ١٩٧٩ .
- ابن حوقل :
صورة الأرض ، مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ .
- ابن الخطيب :
أعمال الأعمال ، نشر بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦ .
- ابن خلدون :
العبر ، ج ٦ (بيروت ، مصور عن بولاق) ، ١٩٧١ .
ترجمة دسلان (De slone) تحت عنوان : تاريخ البربر (Hist. des Berbères) بالفرنسية ، ١٩٢٧ .
المقدمة ، ط التجارية ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٧ .
- دائرة معارف لكسيكون يونيفرسال
أفريقيا (Africa) والساحل (Steppes) ، نيويورك ، ١٩٧٥ .
- درش (جان) :
أصل تاريخ التسميات في جبال أطلس العليا ، مجلة الدراسات
الإسلامية ، بالفرنسية ، كراسة ٣ - ٤ ، ١٩٣٩ .
Contribution a une étude de la Toponymie de Haut Atlas, Adrarn
Deren, d'après les cartes de Jean Dresch, Revue des Etudes Islamiques,
1939 — Cahier 3-4, P. 201-312.
- دوزي Dozy :
ملحق القواميس العربية بالفرنسية ، لندن ، ١٩٦٧ .
تاريخ المسلمين في اسبانيا ، ٣ ج ، بالفرنسية .

- ٤٢٨ -

- ديفردان G. Deverdun :
- مراکش (المدينة) ، بالفرنسية ، الرباط ، ١٩٥٩ .
- ديلافوس :
- الزواج ، بالفرنسية ، باريس ، ١٩٢٧ .
- Delafosse (Maurise), Les Nègres, Reider, Paris, 1927.
- ابن رسته :
- العلق النفيس ، لندن ، ١٨٩١ .
- زامبور :
- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، ترجمة
واخراج زكى محمد حسن ، ١٩٥١ .
- ابن أبى ذؤع :
- الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار المغرب وتاريخ مدينة
فاس ، الرباط ، ١٩٧٣ .
- سالم ، السيد عبد العزيز :
- تاريخ المغرب الاسلامى
- سالم ، سحر السيد عبد العزيز :
- مدينة قادس (بالآندلس) ، الاسكندرية ، ١٩٩٠ .
- سعد زغلول عبد الحميد :
- تاريخ المغرب العربى ،
- ج ١ (فتح المغرب) - ج ٢ (الأغالبة الرستمبول الأدارسة) - ج ٣
(الفاطميون والزيرون) .
- الماوردى بين التاريخ والسياسة ، محاضرات كلية الآداب ،
الاسكندرية ، ١٩٧٠ .
- الترك والاسلام ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، المجلد ١٠ ، العدد ٢ ،
١٩٧٩ .

— ٤٢٩ —

الترك والمجتمعات التركوية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ،
عدد ١٩٥٦ ،

— سيليريه (جان) : —

مراكش (مجموعة الاتحاد الفرنسى) بالفرنسية ، باريس ، ١٩٤٨ ،
Jean Célrier, Maroc, Paris, 1948.

— ابن شاعر الكتبي : —

عيون التواريخ ج ١٢ ، تحقيق فيصل السامر ، ونيلة عبد المنعم ،
بغداد ، ١٩٧٧ ،

— شعيرة ، محمد عبد الهادي : —

المرايطون : تاريخهم السياسى (٤٣٠ هـ - ٥٣٩ هـ) ، القاهرة ،
١٩٦٩ ،

— عبد اللطيف البغدادى : —

كتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض
مصر ، لندن ١٨٠٠ ،

— عبد الله كنون : —

عبد الله بن ياسين ، مجلة الثقافة المغربية ، العدد ٤ ، ابريل ١٩٧١ ،
أبو عمران الفاسى ، مجلة الثقافة المغربية ، عدد ١ - يناير - فبراير ،
١٩٧٠ ،

— عبد المنعم الحميرى : —

الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ، جمع سنة ١٨٦٦ هـ / ١٩٦١ م ،
نشر وتصحيح برونسسال ، القاهرة ١٩٣٧ ،

— ابن عذارى المراكشى : —

البيان المغرب فى أخبار المغرب ، ٤ ج ، نشر احسان عباس ، بيروت ،

- ٤٣٠ -

- عصمت دندش :

دور المرابطين في غرب أفريقيا ، ١٩٧٤ .

- علال الفاسي :

التصوف الاسلامي في المغرب ، مجلة الثقافة المغربية ، عدد ١ يناير ١٩٧٠ .

- العمري (ابن فضل الله) - ت ٧٤٩ هـ / بداية ١٣٩٤ م :

مسالك الابصار - القسم الخاص بشمال افريقية ، ترجمة ج . ديومبين G. Demombynes ، بالفرنسية ، باريس ، ١٩٢٧ .

- العمري :

مسالك الابصار ، نشر أبو ضيف .

- عياض (القاضي) :

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك (المدارك) ، تحقيق ابن تاويت الطنجي ، الرباط (٣ ج الأولى) - مكتبة د . سالم (+ نسخة ثانية ، ط بيروت ، الجزء الرابع) .

- بنو عيد :

التاريخ الصغير لبنى عيد ، ترجمة فرنسية مع دراسة ، مجلة الدراسات الاسلامية ، ١٩٣٧ (كراسة ١) .

- ابن الفرضي :

تاريخ علماء الأندلس ، ٢ ج ، ط مجريط (مدريد) ١٨٩٠ م .

- الغزالي :

احياء علوم الدين ، ٤ ج ، ط . محمد صبيح ، القاهرة ، بدون تاريخ .

- فتح الله خليف :

فلسفة الاسلام (انظر الغزالي) ، الاسكندرية ، بدون تاريخ .

— ٤٣٢ —

— فيدج :

• مقدمة في تاريخ غرب أفريقيا ، بالانجليزية ، كامبريدج ، ١٩٦٢ .

— ابن القاضى (أحمد المكناسى) :

• جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس ، ٢ قسم ، الرباط ، ١٩٧٣ .

— ابن القطان :

• نظم الحمان ، تحقيق محمود على مكى ، الرباط .

— القلقشندى :

• صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، فى ١٤ ج ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

• كولى (Cooley) ، تاريخ وجغرافية أفريقيا فى العصر الوسيط ، بالانجليزية ، ط ١٩٦٦ .

• كولن ماكيفيدى ، أنظر أطلس .

— لارنود (مارسل) :

• الجزائر (مجموعة الاتحاد الفرنسى) ، بالفرنسية ، باريس ١٩٥٠ .
Marcel Larnaud, Algerie, Paris, 1950.

— لىسار :

• سجلماسة : المدينة وعلاقاتها التجارية فى القرن الحادى عشر عند البكرى .

J.M. Lessard, Sijilmassa : La ville et ses relations commerciales au XIe siecle d'après El-Bakri. • ١٩٦٩ (Héspéris) مجلة هسبيريس

— أ. و. لين E.W. Lane :

• عادات وتقاليد المصريين المحدثين Manners and Customs of the Modern Egyptians ، انجلترا ، ١٩٥٤ .

— ليون الافريقى :

• الحسن الوزان ، وصف افريقيا ، ترجمة عن الفرنسية بمعرفة عبد الرحمن حميدة ، السعودية .

- ٤٣٢ -

- ج . مارسيه G. Marçais :

المجلد فى الفن الاسلامى
Mannuel d'Art Musulman
٢ ج ، بالفرنسية ، ١٩٢٦ .

شمال افريقيا والمشرق الاسلامى فى العصر الوسيط ، بالفرنسية .
والترجمة العربية بمعرفة م . هيكل ، تحت عنوان : بلاد المغرب
وعلاقتها بالمشرق فى العصور الوسيطى .

- الماوردى :

أدب الدنيا والدين ، ط . القسطنطينية ، ١٢٩٩ هـ .

- محمد توفيق بلبع :

نشأة الرباط وتطوره ، مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية ، ١٩٦٨ .

- محمد سعيد القشاط :

التوارق : عرب الصحراء الكبرى ، ليبيا ، ١٩٨٩ .

- محمد بن شاكى الكتبى :

عيون التواريخ ، ج ١٢ ، تحقيق فيصل السامر ونبيلى عبد المنعم ،
العراق ، ١٩٧٧ .

- محمد عبد الله عنان :

عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، القسم الأول : عصر
المرابطين (وبداية الموحدين) ، ط . القاهرة ١٩٦٤ .
دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، القاهرة ١٩٦٩ .

- محمد الميلى :

تاريخ الجزائر ، ١٩٧٦ .

- مذكرات الأمير عبد الله (كتاب التبيان) :

نشر وتحقيق بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

- ٤٣٣ -

- مرميسى (فاطمة) : Mermissi :
جنس ، فكر ، اسلام (مجموعة المرأة والمجتمع) ، ترجمة فرنسية من
الامريكية .
- المسعودى :
مروج الذهب ، ٤ ج ، ط . بيروت .
- ابن منظور :
لسان العرب ، ط . بيروت ، ١٥ ج .
- مولار (جاك ريشار) :
افريقيا الغربية الفرنسية ، بالفرنسية ، باريس ، ١٩٤٩ .
Jacques Richard — Molard, Afrique Occidentale Francaise, Paris, 1949.
- نبيلة حسن محمد :
انتشار الاسلام فى غرب أفريقيا (ق ٣ - ٩ هـ / ٩ - ١١ م) رسالة
ماجستير ، مقدمة الى كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٧١ .
- النويرى (أحمد بن الوهاب - ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) :
الجزء ٢٢ من مخطوط موسوعة نهاية الأرب (دار الكتب المصرية
بالقاهرة) ، تحقيق مصطفى أبو ضيف ، تحت عنوان : تاريخ الغرب
الاسلامى فى العصر الوسيط (٢٧ - ٧١٩ هـ / ٦٤٩ - ١٣١٩ م) ،
الدار البيضاء .
نسخة ثانية بتحقيق حسين نصار ، ومراجعة عبد العزيز الأهوانى -
وهى الجزء ٢٤ من موسوعة النويرى (نشر دار الكتب المصرية) ،
١٩٨٣ .
- هاينز : D.E.L. Haynes :
طرابلس فى العصور القديمة ، بالانجليزية ، طرابلس ، ليبيا ، بدون
تاريخ .

— ٤٣٤ —

— هوباك (بير) :

تونس (مجموعة الاتحاد الفرنسي) ، باريس ، ١٩٤٨ •
Pierre Hubac, Tunisie, Paris, 1948.

— والطون كنيث :

الأراضى الجافة ، ترجمة على عبد الوهاب شاهين ، مصر ، ١٩٧٢ •

— قازان (وكيم) :

المسكوكات الاسلامية ، مجموعة خاصة ، بيروت ١٩٨٤ •

— عبد الواحد المراكشى :

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان
ومحمد العربى العلمى ، القاهرة ، ١٩٤٩ •

— اليعقوبى :

كتاب البلدان ، لندن ١٨٩١ •

— يوسف اشياخ :

المرابطون والموحدون ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، ١٩٤١ •

— يوسف بن جواله :

بنو عباد فى اشبيلية — دراسة سياسية وحضارية ، ١٩٨٩ •

اسماء الأشخاص والقبائل والجماعات

(١)	
- الأباضية	- ابن أزرق (الكاتب)
١٢٣	٣٥
- ابراهيم بن أحمد (القاضي بسبنة)	- أحمد بن هود (المستعين)
٣٧١	٣٦٥
- ابراهيم بن اسحق اللمتوني	- الأدقوى
٣٤٤	١٤٦ - ١٤٧
- ابراهيم بن أبى بكر بن عمر	- ابن أدهم (عبد الله بن محمد)
٢٦٦	٢٩٥
- ابراهيم بن تاشفين بن على	- الأسبان (الروم)
٣١	٤١ - ٣٠٢ - ٣١١ - ٣١٨ -
- ابراهيم بن يحيى بن ابراهيم	٣٥٠
١١٣	- اسحاق بن ينتيان
- ابراهيم بن يوسف بن تاشفين	- اسحق بن يعقوب المنصور
٤٠٧	(الموحدى)
- ابن الأثير	٤٠
٢٩ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ -	- الاسكندرية (أهل)
١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١ - ١٩٦ -	١٣٢ - ١٤٩ - ١٥٧ - ٤٠٣
٢٠٦ - ٢١٣ - ٢٢٦ - ٢٢٧ -	- الأغزاز (الغز)
٢٧٣ - ٢٩٤ - ٣١٧ - ٣٤٥ -	٢٥٦
٣٥٢	- ابن افرانك (الجذامى)
- الأيوبيون (الأحباش)	١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٩ - ١٥١ -
٤٦ - ١٠١ - ١٠٢ -	١٥٣
- الآجرى (أبو بكر)	- ابن الأفطس
١٤١	٢٨٩ - ٣٤٠
- الأدارسة	- الأقطاط (الكونتات)
٣١ - ١٠٥ - ١٣٤ - ١٣٥ -	٣٨٧ - ٤٠٢
- الأدريسى	- البرهانس
٢٨ - ١٠٤ - ١٢٨ - ١٣٦ -	٣٠٤ - ٣٠٩ - ٣٤٤ - ٣٨٧ -
	٣٩٦

- ٤٣٦ -

٣٩٨ - ٣٩٩ - ٤٠٠ - ٤١٥	- الفنت (ولى عهد)
- أمير المؤمنين العباسي	٣٨٦
٣٧٢	- الفونس ٦ (السادس)
- أمينوكال (الأمير)	٢٩ - ٣٢ - ٢٣ - ٢٨٦ - ٢٨٧
١٢١	٢٨٨ - ٢٩٢ - ٢٩٤ - ٢٩٦
- الأندلسيون (أهل الأندلس)	٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣
- ٣٣ - ٣٥ - ١٤٢ - ١٤٤	٣٠٤ - ٣٠٩ - ٣١٢ - ٣١٩
- ١٤٨ - ١٥٢ (طلاب) - ٢١٨	٣٢٤ - ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٢٩
- ٢٩٩ - ٢٩٦ - ٢٩٤ - ٢٨٦	٣٣٤ - ٣٣٥ - ٣٣٧ - ٣٤٠
- ٣١٢ - ٣٠٨ - ٣٠٧ - ٣٠٦	٣٤٣ - ٣٤٥ - ٣٥٠ - ٣٥٥
٣٨٤ - ٣ - ٢٥ - ٣١٩	٣٦٠ - ٣٦٢ - ٣٦٧ - ٣٦٨
(ب)	٣٦٩ - ٣٨٧ - ٣٨٨
- أبو الوليد الباجي	٣٩٣ - ٣٩٤
٣١٣	- الفونس (المحارب بن ردمير)
- البافلاتي (أبو بكر)	٣٩٣ - ٣٩٤
١٦١	- الأمويون
- البجاه	٤٤ - ١٣٩ - ١٤٥ (الأموي)
١٢٦ - ١٢٣	- أمير المسلمين (وناصر الدين)
- البجليون	لقب يوسف بن تاشفين (
٢١٦ - ٢١٥ - ٢١٤ - ١٣٥	٣٤ - ٢٨٦ - ٣١٤ - ٣١٥
- بربر الصحراء	٣١٦ - ٣٢٠ - ٣٢٢ - ٣٢٣
- ٧٠ - ٦٩ - ٣٢ - ٢٨ - ٢٦	٣٢٥ - ٣٢٦ - ٣٢٧ - ٣٢٨
- ١٠٢ - ١٠١ - ٧٨ - ٧٥ - ٧٤	٣٢٩ - ٣٣١ - ٣٣٢ - ٣٣٣
- ١١٩ - ١١٦ - ١٠٧ - ١٠٦	٣٣٤ - ٣٣٥ - ٣٣٦ - ٣٣٧
- ١٢٨ - ١٢٣ - ١٢٢ - ١٢٠	٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٥٢
- ١٧٢ - ١٣٧ - ١٣٠ - ١٢٩	٣٥٣ - ٣٥٤ - ٣٥٦ - ٣٥٨
٢٧٩ - ٢٥٢	٣٦٢ - ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٧
- برغواطة	٣٦٨ - ٣٦٩ - ٣٧٢
- ٢٢٠ - ٢١٩ - ٢١٨ - ٢١٧	- علي بن يوسف بن تاشفين
- ٢٢٥ - ٢٢٣ - ٢٢٢ - ٢٢١	أمير المسلمين ، الأمير
- ٢٢٩ - ٢٢٨ - ٢٢٧ - ٢٢٦	٣٨٠ - ٣٨١ - ٣٨٢ - ٣٨٣
- ٢٨١ - ٢٣٨ - ٢٣١ - ٢٣٠	٣٨٤ - ٣٨٥ - ٣٨٨ - ٣٩٠
٣٢٥	٣٩٣ - ٣٩٥ - ٣٩٦

- ٤٣٨ -

- | | |
|-------------------------|-------------------------------|
| عبد الرحمن (| تميم بن يلتان |
| ١٥٥ - ١٥٤ - ١٥١ | ١١١ - ١١٢ - ١١٧ |
| ١٠٨ - ١١٩ - ١٦٥ - ١٦٧ - | تميم بن يوسف بن تاشفين |
| ١٦٨ - ١٧٤ - ١٧٦ - ١٧٧ - | (أبو الطاهر) |
| ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٥ - ١٨٧ - | ٢٨٠ - ٣٦٤ - ٣٦٩ - ٣٨٠ - |
| ١٨٨ - ١٩٤ - ١٩٥ - ٢٠٣ - | ٣٨٣ - ٣٨٤ - ٣٨٥ - ٣٨٦ - |
| ٢٠٩ - ٢١٠ - ٢١٢ - ٢١٤ - | ٣٩٥ |
| ٢٤٩ | تميم بن معنصر |
| الجرمانيون | ٢٥٧ |
| ١١٦ | التوابون |
| جزولة (كزولة) | ١٩٠ |
| ١٣٧ - ١٧٤ - ١٨٨ - ٢١٣ - | تونكا (الأمير) |
| ٢٣١ | ١١٨ |
| جعفر بن الحسن | تيزكي (أم صنهاجة) |
| ١٤٥ | ١٢٠ |
| جنگيز خان | ابن تيفاوت |
| ٣٩ | ١١٢ |
| ابن جهضم (أبو الحسن) | تيلوتان |
| ١٤٢ - ١٤٣ | ١١٠ |
| ابن جهور (المرشاني) | تينبروتان (تنبروتان) |
| ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤ | ١١٢ - ١١٨ - ١٢٠ - ١٢١ |
| جهور بن محمد بن جهور | تينزو ابن وانشق |
| (أبو الحزم) | ٣٢ |
| ٣٧ - ٤١ | تين يازامارن (أم ابن ياسين) |
| الجوهر (بن سكم) | ١٧٤ |
| ١٦٦ - ١٧٠ - ١٨٢ | (ج) |
| الجوهري | جالينوس |
| ١٤٦ - ١٤٨ | ١٢٣ |
| الجنويون | ابن جحاف |
| ٤٠١ | ٣٠ - ٣١ - ٣٥٦ - ٣٥٨ - ٣٦٠ |
| جودفروا - ديمومين | جدالة (كدالة) |
| ٢٤٤ | ٦٣ - ٦٩ - ٧٠ - ٩٤ - ١٠٧ |
| جوتيه | ابن جرج « أبو المطرف » |

- ٤٣٩ -

- | | |
|-----------------------------|-----------------------------------|
| - الحماديون | ٢٨ - ٣١ |
| ٤٤ - ٦٨ | - جؤذر الحشمي |
| - ابن حمدين (القاضي) | ٣٣٧ |
| ٣٨٩ | - الجيلي (أبو القاسم) |
| - الحميدى (مؤرخ الأندلس) | ١٤٥ |
| ٤٠ | |
| - الحميرى (عبد المنعم) | (ح) |
| ٤١ | - ابن الحاج (أبو عبد الله محمد) |
| - ابن حوشب | ٣٣٧ - ٣٨٢ - ٣٨٣ - ٣٨٤ |
| ١٦٥ | ٣٩٢ - ٣٩٣ - ٣٩٤ |
| - ابن حوقل | - ابن الحاج (على) |
| ١٠٦ - ١١٤ - ١١٥ - ١١٧ | ٣٦٤ - ٣٦٧ - ٣٦٩ |
| ١٢٠ - ١٢١ - ١٣٨ | - الحيشة (الأثيوبيون) |
| - ابن حيان (مؤرخ الأندلس) | ١٠٢ - ١٢٣ - ١٢ - ٣٨٤ |
| ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ | - بنو حبيب |
| - ابن الخطيب (لسان الدين) | ١٠٥ - ١٠٩ |
| ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ | - ابن الحداد (الطليطلى) |
| - ابن خلدون | ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧ |
| ٣٢ - ٣٣ - ٣٦ - ٩١ - ١٠٣ | - ابن الحديدي (الفقيه) |
| ١٠٤ - ١١٢ - ١١٧ - ١٢٠ | ٢٩٢ |
| ١٦٧ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٨٦ | - ابن حزم |
| ١٨٨ - ٢٠٤ - ٢٠٦ - ٢١٤ | ٢٩٠ - ٢٩٢ |
| ٢١٧ - ٢٢٩ - ٢٣٦ - ٢٤٣ | - الحسن الوزان (ليون الافريقى) |
| ٢٧٣ - ٣٧٥ | ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣٦ - ١٣٧ |
| - ابن خلكان | ١٨٧ |
| ٣٠٥ | - الحسن بن شعبان |
| - الخوارج | ١٤٦ - ١٤٩ |
| ٢٢١ - ٢١٩ - ١٥٠ - ١٣٦ | - حسين نصار |
| ٢٢٤ | ٢٩ |
| - خوارزمشاه | - أهل الحق (دعوة) |
| ٣٩ | ١٧٩ - ١٨٠ - ١٨١ (معسكر) |
| - الخير بن خزر الزناتى | ١٨٢ - ١٨٦ - ١٩٠ - ١٩٣ |
| ٢٧٥ - ٢٧٦ | ١٩٤ - ١٩٩ - ٢١٢ - ٢١٣ |
| | ٢٢٩ |

- ٤٤٠ -

- (د)
- أبو بكر الداني ٣٤٩
- داود بن عكاشة (أبوسليمان) ٢٨٠ - ٣٠٦ - ٣٠٨
- الداودي (أحمد بن نصر) ١٥٥ - ١٥١
- ابن الدباغ ١٤٩
- ابن دحون (أبوجعفر أحمد بن ثابت) ١٥١ - ١٥٠
- دسلان ٢٧ - ٢٨ - ١١٢ - ١٨٨ - ٢١٤
- دوزي ٣٠
- الدينوري (أبو اسحق) ١٤١
- (ذ)
- ابن ذنين الصدي (الطليطي) ١٤٢ - ١٤٤ - ١٤٧ - ١٤٨
- ١٤٩ - ١٥١ - ١٥٣
- (ر)
- بنو رزين ٣٥٩ - ٣٦٥
- أبو رستم النفوسي ١٣٥
- ابن رشد (الفيلسوف) ٣٥ - ٤٢٠
- ابن رشيق (أبو الحسن) ١٤٥ - ١٤٦
- الرقيق ٢٩
- رياض الحسن
- (أ)
- أم عمر بن علي بن يوسف ٣٨١
- (ز)
- زائدة (زوجة المأمون بن المعتمد) ٣٨٦
- ابن زاهر (أبو حفص عمر) ١٦٣
- ابن أبي زرع ٣١ - ٣٢ - ١٦٦ - ١٦٨ - ١٧١
- ١٧٨ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧
- ١٨٩ - ١٩٤ - ٢١٤ - ٢١٥
- ٢١٨ - ٢٢٦ - ٢٣٤ - ٢٣٦
- ٢٤٧ - ٢٥٢ - ٢٦٥ - ٢٧٣
- ٢٧٧ - ٢٨٠ - ٣١١ - ٣٢١
- ٣٣٧ - ٣٤٠ - ٣٤٣ - ٣٥٣
- ٣٨١
- أبو زكريا بن واسينوا ٣٣٧
- زمر البرغواطي (أبو صالح) ٢١٩ - ٢٢٠
- زناتة ٤٤ - ٦٨ - ١٠٣ - ١١٥ - ١١٩
- ١٢٤ - ١٢٦ - ٢٠٧ - ٢٠٨
- ٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٣ - ٤٥١
- ٢٥٤ - ٢٧٩ - ٢٨١ - ٤٠١
- زناجة (زناقة) صنهاجة ٧٥ - ٧٠
- الزنوج (الزنج) ٧٣ - ٨٣ - ٨٤ (البانتو) - ١٠٦
- ١١٧ - ١٢١ - ١٢٦
- زياد بن يونس ١٥٠
- ابن أبي زيد (أبو محمد) ١٥٠ - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤

- ٤٤٢ -

- ١٥٥
- الزيريون (بنو زيري)
٢٩ - ٤٣ - ٤٤ - ٦٨ - ١٢٠ - ٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦١ - ٣٥٧ - ٣٥٥ - ٣٢٠ - ٣١٩ - ٣٥
٣٦٧
- زيري مناد
٤٤
- زينب النفراوية
١٢٦ - ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٥١ - ٢٦٠ - ٢٦٢ - ٢٦٧ - ٣٤٥ - ٣٥٠ - ٣٥٢ - ٣٥٣ - ٣٤٤ - ٣٣٩ - ٣٤٠ - ٣٤٢ - ٣٤٤ - ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٢٣ - ٣٢٢ - ٣١٧ - ٣١٨ - ٣١٩
٣٨٠ - ٣٨٣ - ٣٩٥
(س)
- سرطه (شرطة)
٧١ - ١٢١
- ابن سعيد الخزرجي
(أبو القاسم عبد الرحمن)
١٥١ - ١٥٣
- ابن السرور
١٥٠
- ابن سعيد السجزي
١٥٠
- السقطي
١٤٣
- ابن سكرة (أبو علي)
١٤٩
- السلاجقة
٤٣
- ابن سلام
١٤١
- بنو سليم (عزب)
٤٣
- سمسطه
٧١ - ١٢١
- السونينك (شعب)
٦٤ - ٧٦ - ١١٧ - ١١٨ - ٢٦٩
- السيد
(ش)
- سير بن أبي بكر اللمتوني
٢٧٣ - ٢٨٠ - ٣١٧ - ٣١٨
- شجر الدر
١٢٦
- ابن شداد (عبد العزيز الزيري)
١٦٧ - ١٧٠ - ١٩٦ - ٢١٣
٢٢٦
- ابن شرف
(الشاعر : أبو عبد الله محمد القيرواني)
١٥٥ - ١٦٤
- شرف الدولة بن المعتمد
٣٤٩
- الشنتجالي (الأموي)
١٤٣ - ١٤٤
- الشنياطي
٣٥٩
- الشيعة
١٣٦ - ١٤٠ - ١٥٠ - ٢١٥
٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٧٠
- شمين (أرملة السيد)
٣٦٢
(ص)
- ابن صالح (أبو حفص عمر)

- ٤٤٢ -

١٦٣	- طليطلة (أهل)
- صديقة	٢٩٢ - ٣٥٥ - ٣٨٨
٢٥٦	- الطوارق
- الصقالبة (البيض)	٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٥٩ - ٦١ -
٢٦٠ - ٢٧٢	٦٢ - ٧١ - ٧٧ - ٧٨ - ٨٩ -
- صنهاجة	٩٥ - ١٠٩ - ١١٦ - ١٢٢ -
٢٦ - ٢٨ - ٣٢ - ٤٣ - ٤٤	(حاليا هـ ٥٢) - ١٢٣ - ١٢٤ -
٤٥ - ٤٦ - ٦٣ - ٦٨ - ٦٩ -	١٢٨ - ١٣٠ - (المعاصرون) -
٧٠ - ٧١ - ٧٣ - ٧٦ - ٧٨ -	١٣٢ - ١٣٤ - ١٧٤
١٠١ - ١٠٢ - ١٠٣ - ١٠٤ -	(ع)
١٠٦ - ١٠٧ - ١٠٩ - ١١١ -	- ابن عائشة (محمد)
١١٢ - ١١٥ - ١١٦ - ١١٧ -	٣٤١ - ٣٥٤ - ٣٥٦ - ٣٥٧ -
١١٨ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٢١ -	٣٨٦ - ٣٩٤
١٢٦ - ١٣٥ - ١٦٥ - ١٦٦ -	- العامريون (بنو عامر المنصور)
١٧٢ - ١٨١ - ١٨٩ - ١٩٥ -	٣٥٤
١٩٦ - ٢١٠ - ٢٣١ - ٢٥٦ -	- العباديون (أصحاب اشبيلية)
٣٢٦	٣٧ - ٣٤٠ - ٣٤١
- ابن الصقل	- أبو العباس (الأقلشئ)
(أبو القاسم عبد الرحمن البكرى)	١٤٧ - ١٤٨
١٥٠	- العباس بن يحيى
- الصوفية (اخوان الطرق)	٢٧٧ - ٢٧٨
١٦٠	- العباس بن عمر بن الأفطس
- ابن الصيرفي	٤١
١٤٤ - ١٤٩ - ١٥٥	- ابن عبد البر (أبو عمر)
- الصينيون	١٥٨ - ١٦٧
١٤٤	- عبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس
(ط)	٣٤٨
- طارق بن زياد	- عبد الحميد العبادي
٧١	٣٣٤
- أبو الطاهر السلفي	- عبد الرحمن بن رشيق
٤٠٨	(صاحب مرسية)
- ابن الطرابلسي (أبو حاتم)	٣٢١ - ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٢٧ -
١٦٨	٣٣٦ - ٣٥٠ - ٣٥٣ - ٣٥٤ -

٤٤٣ -

- عبد العزيز بن شداد	- العبيد (السود)
٢٦ - ٢٩ - ٣٢	٢٦٠ - ٢٧٢
- عبد الله بن ادريس	- العجيفي (أبو الطاهر)
١١٣	١٤٢
- عبد الله بن بلقين	- ابن عدبس
(الأمير -الصنهاجي - ابن حبوس)	٣٥٨
٣٥ - ٣٦ - ٣٢١ - ٣٢٣ - ٣٢٦	- ابن عذارى
٣٢٧ - ٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٣٢	٣٠ - ٢٣٦ - ٢٣٥ - ٢٤٠
٣٣٤ - ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٣٨	٢٦٩ - ٢٧٣ - ٢٧٨ - ٣٦١
٣٤٣ - ٣٤٧	٣٧٤ - ٤٠٣
- عبد الله بن مزدلي	- العجم
٣٩٨	٢٦
- عبد الله بن ياسين	- العرب
١٦٥ - ١٦٦ - ١٧٤ - ١٧٥	٢٦ - ٣٥ - ٣٩ - ٤٨ - ٧٥
١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩	١٠١ - ١٠٣ - ١٠٤ - ١٠٦
١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٦	١٠٧ - ١٠٨ - ١١٩ - ١٢٣
١٨٧ - ١٨٨ - ١٨٩ - ١٩٠	١٢٨ - ١٣٠ - ٢٩٥
١٩١ - ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤	- ابن عزرة
١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧ - ١٩٩	١٥٠
٢٠٠ - ٢٠٤ - ٢٠٨ - ٢٠٩	- ابن عقاب (أبو بكر)
٢١٠ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢١٤	٣١٧
٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٨ - ٢٢٠	- ابن أبي عقبة التميمي
٢٢١ - ٢٢٦ - ٢٢٧ - ٢٢٨	(هبة الله بن محمد أبو بكر)
٢٣٤ - ٢٣٨ - ٣٧٠	١٥٠
- عبد الملك بن أحمد بن هود	- عقبة بن نافع
(عماد الدولة)	٢١٧
٣٦٥ - ٣٩٢	- العلاف (أبو القاسم)
- عبد الواحد المراكشي	١٤٩
٣٥ - ٤٠ - ٣٧ - ٣٧٧ - ٣٩٨	- أبو علي الصدفي
- بنو عبد الوارث	٤٠٧
٦٢ - ١١٣ - ١٢٠ - ١٢١	- علي بن كنفاط اللمتوني
- ابن عبدون	٣٩٤
٤١	- (أبو الحسن) علي بن محمد البرجي

- ٤٤٤ -

- | | |
|---------------------------------------|-----------------------------------|
| ٤١٦ | ٤١٩ |
| - غفجومة (قبيلة) | - علي بن مجاهد |
| ١٥٨ - ١٥٧ | ٤١ |
| - ابن غلبون (الأب والابن) | - علي بن يوسف بن تاشفين |
| ١٥١ - ١٤٧ - ١٤٦ | ٣١ - ٣٢ - ٣٥ - ٤١ - ٣٦٤ |
| - ابن غلبون الخولاني (أبو عبدالله) | ٣٦٥ - ٣٧٣ - ٣٧٤ - ٣٧٥ |
| ١٦٩ | ٣٧٧ - ٣٧٨ |
| (ف) | - عمر بن الأفطس (المتوكل) |
| - الفارابي (الفيلسوف) | ٣٤ - ٤١ |
| ٣٦ | - عمر بن الخطاب |
| - ابن فاطمة (عبد الله) | ١٨١ - ٣٧٤ |
| ١٢٦ - ٣٦٣ - ٣٦٦ - ٣٨٦ | - عمر بن عبد العزيز |
| ٣٩٢ - ٣٩٦ | ٣٧٤ |
| - الفاطميون | - عمر بن سليمان المسوفي |
| ٤٣ - ١١٤ - ١١٥ - ١٣٥ | ٢٧٣ - ٢٨٠ |
| ١٣٩ - ١٤٠ - ١٧٢ - ٢١٥ | - أبو عمران الفاسي |
| - ابن قانو | ١١٩ - ١٥٠ - ١٥٧ - ١٥٨ |
| ١٢٦ | ١٥٩ - ١٦٠ - ١٦١ - ١٦٢ |
| - ابن الفرضي (أبو الوليد - الفرطبي) | ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٥ - ١٦٦ |
| ١٤٣ - ١٤٤ - ١٥١ - ١٥٣ | ١٦٧ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠ |
| - فرناندو | ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ - ١٧٥ |
| (ملك غاليسيا وليون وقشتالة) | ٢٠٨ |
| ٢٨٩ | - عنان (محمد عبد الله) |
| - الفضل بن عمر بن الأفطس | ٣٥ - ٣٣٤ |
| ٤١ | - عيسى بن أبي الأنصار (أبو منصور) |
| - الفلسطينيون | ٢١٩ |
| ٨٠ | (غ) |
| - الفينيقيون | - ابن غانية |
| ١٣٢ | ١٢٦ |
| (ق) | - غرسيه بن الرند |
| - القابسي (أبو الحسن) | ٣٩٧ - ٣٩٨ |
| ١٥٠ - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤ | - الغزالي |
| ١٥٥ - ١٥٧ - ١٦٠ - ١٦٣ | ٣٠ - ٣٢ - ١٦٠ - ١٩٥ - ٤١٥ |

(ج)

- الفادر بن ذى النون
٣٠ - ٢٨٧ - ٢٩٢ - ٣٥٥ -
٣٥٦ - ٣٦٠
- نبي بن وارجابي (وازجاي)
٢١١
- أبو القاسم العجيبى (الاشبيلي)
١٤٧ - ١٤٨ - ١٥٣
- ابن اللبانة (أبو بكر محمد)
١٤٨
- ابن الفبطرنة
٣٥
- لقوط البرغواطى (لكوت ، لجوت ،
سكوت)
- ابن قزمان (الطلمنكى)
١٤٢ - ١٤٨ - ١٥١ - ١٥٤
- ٢٢ - ٢٣ - ٢١٦ - ٢١٧ - ٢٨٠
٢٨١
- قرور (أمين السر)
٣٣٠
- ابن القصيرة (أبو بكر)
٣٦٥
- ابن القطان
٢٩ - ٣٢
- ابن القايعى (شيخ غرناطة)
٣٢٣ - ٣٢٧
- قدر الرومية (أم حسن)
٣٨١
- القناعزى (القرطبى)
١٤١ - ١٤٦ - ١٤٩ - ١٥٢
- ٢٨ - ٢٩ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ -
٩٢ - ١٠٦ - ١٠٧ - ١٠٨ -
١٢١ - ١٢٩ - ١٧٨ - ١٧٩ -
١٨١ - ١٨٦ - ١٨٧ - ١٨٨ -
١٨٩ - ١٩٥ - ٢٠٣ - ٢١٢ -
٢٣٥ - ٢٤٠ - ٢٤٣ - ٢٤٩ -
٢٥٠ - ٢٥٤ - ٢٦٧ - ٢٧٠ -
٢٧١ - ٢٧٣ - ٣٢٦ - ٣٣١ -
٣٨٠
- لطة
- ٢٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧٤ - ٩٢ -
١١٣ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٣٧ -
١٦٥ - ١٧٨

(ك)

- الكتاميون
٤٣
- الكنانى (حمزة بن اسحق الحافظ)
١٤٦ - ١٤٩ - ١٦٣
- المأمون بن المعتمد
٣٤٢ - ٣٤٣
- الماندنج
١١٧
- كوار (أهل)
١٢٣
- الماوردى (قاضى قضاة بغداد)
٣٦
- كولان
٣٠
- ماخوخ الزناتى
٤٠١
- كولى
٢٨
- ابن ماهان

(م)

- ٤٤٦ -

٣٣	١٤٨ - ١٤٦
- محمد بن مزدل	- المتوكل بن الأنطس (عمر)
٤٠٣ - ٤٠٢ - ٣٩٨	٢٩٢ - ٣٠٣ - ٣٣٢ - ٣٤٩
- بنو (آل) مدرار	٣٥٠
١٣٥ - ١١٥	- أبو محمد بن اسباط
- مدرك التلكتاني	٣٨١
٢٧٤	- محمد بن اسماعيل بن عباد
- المرابطون	(القاضي)
٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩	٣٥٦
٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤	- (أبو عبد الله) محمد بن تاشفين
٣٥ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣	٣٥٩ - ٣٦٠
٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٦٩ - ٨٤	- محمد بن امبارك اللمتوني
١٠١ - ١٠٧ - ١١٧ - ١١٨	٦٩
١١٩ - ١٢٠ - ١٤٠ - ١٥٠	- محمد بن تميم الجدالي
١٧٤ - ١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٩	٢٧٣
١٩٠ - ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧	- (أبو عبد الله) محمد بن أبي بكر
٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٣ - ٢٠٤	اللمتوني
٢٠٧ - ٢٠٩ - ٢١٠ - ٢١٢	١٨٤
٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٧ - ٢٢٠	- محمد بن تومرت (المهدي)
٢٢٢ - ٢٢٦ - ٢٢٩ - ٢٣٠	٣٠ - ٣٢ - ١٦٠ - ٢١٣ - ٢٦١
٢٣١ - ٢٣٤ - ٢٤١ - ٢٤٦	٣٣٨ - ٤٠٠
٢٥٢ - ٢٥٨ - ٢٨١ - ٢٨٣	- محمد حاج صادق
٢٩١ - ٢٩٤ - ٢٩٦ - ٣٠٢	٢٨
٣٠٨ - ٣١٢ - ٣١٣ - ٣١٥	- محمد بن الحلف
٣١٨ - ٣٢٠ - ٣٣٢ - ٣٣٥	(صاحب البيان الواضح)
٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤١	٣٣ - ٣٧٣
٣٤٣ - ٣٤٤ - ٣٤٥ - ٣٥٠	- محمد بن صمادح
٣٥٢ - ٣٥٤ - ٣٥٩ - ٣٦٠	١٤١
٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٦ - ٣٦٨	- محمد (انظر ابن عائشة)
٣٧٥ - ٣٨١ - ٣٨٤ - ٣٩٢	- محمد بن عبد الرحمن
٣٩٦ - ٤٠٥	ابن أبي العافية (أبو القاسم)
- المرينيون (بنو مرين)	٢٧٨
٤٣ - ١٦٦	- محمد بن عبد العزيز بن الامام

- ٤٤٧ -

- مزدلى بن سولنكان
٢٦٦ - ٢٧٧ - ٢٧٨ - ٣٦١
٣٦٢ - ٣٦٣ - ٣٨٠ - ٣٩٥
٣٩٦ - ٣٩٧ - ٣٩٨
- المستعين أحمد بن هود
٣٩١ - ٣٩٢
- المستنصر (الأموى)
١١٢ - ٢١٩
- مسعود بن وانودين
٢٠٦ - ٢٠٧
- المسلمون
٢٥ - ٢٦ - ٤٤ - ١١٧ - ٣٠٢
٣١٤ - ٣٢٠ - ٣٢٥ - ٣٥١
٣٦٠ - ٣٦١ - ٣٦٢ - ٣٩٢
- مسلمة السودان
٢٠٩ - ٢١١ - ٢٧٠
- مسوفة
٣٢ - ٧٠ - ٧١ - ١٢١ - ١٧٨
١٩٥ - ٢٠٣ - ٢٧١
- المسيحيون (الخلفاء)
٣٧ - ٣٥١ - ٣٦٢ - ٣٨٥
٣٩٢ - ٣٩٥
- المشاركة
٢٩
- المصامدة (مصمودة)
١١٣ - ١٧٣ - ٢١٨ - ٢٣١
٢٥٦ - ٢٧٩ - ٢٨٠ - ٣٩٤
- مصطفى أبو ضيف
٢٩
- المعتضد بن عباد
٢٨٩
- المعتمد بن عباد
٣٣ - ٣٤ - ٤٠ - ٤١ - ٢٨٠
- المعز لدين الله الفاطمى
٣٧٩
- المعز بن يوسف بن تاشفين
٢٩٧
- مغراوة
٣٢ - ٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢١٠
٢١٤ - ٢١٧ - ٢٥٢
- المغول
٢٦ - ٨١
- مغيرة
٢٧٦
- المقرئ (أبو عمرو)
١٦٧
- مكى (محمود)
٢٩ - ٣٥
- المثلثون
٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٣٢ - ٣٣
٤٣ - ٤٥ - ٤٦ - ٦٨ - ٧٣
٧٧ - ٨٠ - ٨٤ - ١٠١ - ١٠٤
١٠٧ - ١٠٨ - ١٠٩ - ١١٠
١١٥ - ١١٧ - ١٢٠ - ١٢١
١٢٤ - ١٢٦ - ١٢٩ - ١٣٠
١٣٤ - ١٤٠ - ١٥٦ - ١٥٧
١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٧٠
١٧٢ - ١٧٤ - ٢٠٩ - ٢١٢
٢٣٥ - ٢٨٠ - ٢٩٤ - ٣٧٥

- ٤٤٩ -

ابن أبي عتبة التميمي	- الوندال
١٥٠	١٠٣ - ١٠٤ - ١٢٣
- الهروي (أبو الفضل أحمد)	- ويثي ميراندا
١٤٤	٣٠
- الهروي (أبو ذر عبد)	(ي)
١٥٩ - ١٤٤	
- هزيمة	- يتلوتان
٢٤١ - ٢٤٠	٣٢
- هشام المؤيد	- بنو يفرن
٣٧	٢٢
- الهلالية (العرب)	- يحيى بن ابراهيم الجدالي
٢٩ - ٤٣ - ٤٤ - ٦٩ - ٢٠٨ -	١١٢ - ١١٣ - ١٣٧ - ١٦٥ -
١٦٤ - ٢٩٤	١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ - ١٦٩ -
- الهنيهين	١٧٠ - ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ -
١٠٥	١٧٧ - ١٧٨ - ١٨٠ - ١٨٤ -
- ابن هود (بنو)	١٨٥ - ٣٧٠ - ٣٧١
٢٨٩ - ٣١٩ - ٣٣٧ - ٣٥٨ -	- يحيى بن أبي بكر
٣٦٣ - ٣٦٥ - ٣٧٩ - ٣٩٠ -	٢٨٠
٣٩١	- يحيى بن بكير
- الهوسا	١٤١
٧٣ - ٨٤ - ٩٥	- يحيى بن ذى النون
(و)	٢٨٩ - ٢٩٠ - ٢٩١
- وارجابي (ورجاي - ورجاي)	- يحيى بن عمر (بن تلاجابن)
١١٩	١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٩ - ٢٠٩ -
- وجاج بن زللو	٢١٠ - ٢١١ - ٢١٢
١٦٥ - ١٧٢ - ١٧٣ - ١٧٤ -	- (ضياء الدولة) يحيى بن لكوت
١٨٨	٢٨١
- بنو وانودين	- يحيى بن هذيل (بن خلف)
٢٠٤ - ٢٠٦ - ٢١٥	٣٦٥
- بنو ورتنطق	- أبو يحيى بن محمد بن الحاج
٧٠	٣٩٣
- الولوف	- يحيى بن مزدلي
٦٥	٢٧٨
	- يحيى بن واسينوا اللمتوني

- ٤٥٠ -

٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٤٥ - ٢٤٦ -	٢٧٦
٢٤٧ - ٢٤٩ - ٢٥٠ - ٢٥١ -	- يحيى بن يحيى
٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥ -	١٤١
٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٨ - ٢٥٩ -	- أبو يحيى بن اليسع
٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٤ -	٣٣
٢٦٥ - ٢٦٦ - ٢٦٧ - ٢٦٩ -	- اليعقوبى
٢٧٢ - ٢٧٣ - ٢٧٤ - ٢٧٥ -	١٣٨
٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٧٩ - ٢٨٠ -	- أبو يعلى الزناتى
٢٨١ - ٢٨٣ - ٢٩٤ - ٢٩٧ -	٢٧٨
٣٠٠ - ٣٠٢ - ٣٠٣ - ٣٠٥ -	- يعلى بن يوسف
٣٠٦ - ٣٠٧ - ٣٠٨ - ٣١٢ -	٢٥٩
٣١٣ - ٣١٤ - ٣١٥ - ٣١٦ -	- سنو يفرن
٣١٧ - ٣١٨ - ٣٢٢ - ٣٢٥ -	٢١٦ - ٢١٩ - ٢٢٧ - ٢٣٣ -
٣٢٦ - ٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٣١ -	٢٥٨ - ٢٥٢
٣٣٢ - ٣٣٤ - ٣٣٥ - ٣٣٦ -	- يلتان (يروتان)
٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٦ - ٣٥٢ -	١١١ - ١١٨
٣٥٣ - ٣٥٥ - ٣٥٧ - ٣٥٩ -	- ينتيان بن عمر ينتيان
٣٦٠ - ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٦ -	٣٨١
٣٦٧ - ٣٦٨ - ٣٧٠ - ٣٧١ -	- اليهود
٣٧٤ - ٣٧٥ - ٣٧٦ - ٣٧٧ -	٣٦٦
٣٨١ - ٣٨٣ - ٣٨٨ - ٣٩٤ -	- يوسف بن تاشفين (أمير الملمين)
٣٩٩	٢٥ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ -
- يوسف بلكين بن زيرى	٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٤٠ - ٤١ -
١٢٠	٩٩ - ١٢٦ - ٢١٥ - ٢٣٣ -
- اليونان والرومان	٢٣٤ - ٢٣٥ - ٢٣٦ - ٢٣٧ -
١٢٩	٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٤٣ -

اسماء المدن والجبال والأنهار والأماكن والمواضع

٣٥١	(أ)
- أضفاغ (كيدال)	- أدرار (أفوراس)
٥٩	٤٥ - ٥٠ - ٥٤ - ٦١ - ٩٧ -
- اطار	١٠٤ - ١٠٦
٤٥	- أرض الروم
- الأطنطى (محيط)	٤٣
٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٤ -	- أزواغ
٢٢٧ - ٦٨	٥٩
- أعمدة هرقل	- الأخدود
٤٨	٥٢
- أغادير	- أرتنى (مدينة)
٥٠	١٨٩ - ١٨٨ - ١٨٤ - ١٨١
- أغاديس (أجاديس)	- أزقى (قوقدم)
٧١ - ٥٠ - ٤٥	٢٠٩ - ١٢٩ - ٧٠
- أغرغار (وادى)	- إسبانيا
٦٢ - ٦١ (إيفار غار)	٣٦٠ - ٤٣ - ٢٥
- أغمات	- آسيا
١١٥ - ١١٣ - ٩٧ - ٣٦ - ٣٢	١٠٨ - ٤٣ - ٣٩ - ٢٦
- ٢١٧ - ٢١٥ - ٢١٤ - ١٢٦	- اشبيلية
- ٢٣٨ - ٢٣٥ - ٢٣١ - ٢٢٧	٣٠٢ - ٢٨٦ - ٢٨٠ - ٤٠ - ٣٨
- ٢٦٦ - ٢٥١ - ٢٤٥ - ٢٤٠	- ٣١٨ - ٣١١ - ٣٠٤ - ٣٠٣
٣٤٨ - ٣٤٧ - ٢٨٠ - ٢٦٧	- ٣٣٦ - ٣٣٥ - ٣٣٢ - ٣٣٠
- الأغوار (جنوب الجزائر)	- ٣٤٠ - ٣٣٩ - ٣٣٨ - ٣٣٧
٤٨	- ٣٤٦ - ٣٤٥ - ٣٤٤ - ٣٤٢
- أفريقيا	- ٣٦٦ - ٣٥٢ - ٣٤٩ - ٣٤٧
- ٤٣ - ٣٨ - ٢٩ - ٢٨ - ٢٧	- ٣٨٣ - ٣٨٠ - ٣٦٩ - ٣٦٨
- ٨٤ - ٦١ (الوسطى) - ٨٤	٣٩٥
١٢٠ - ١١٧ - ١٠٣ - ٩٥ - ٩٠	- أشتوريش

- ٤٥٢ -

٣٨٥ - ٣٨٣ - ٣٨٢ - ٣٨١	٣٣٨ - ٣٤٥ - ١٣٨
٣٨٩ - ٣٨٨ - ٣٨٧ - ٣٨٦	أفريقيا الغربية (السودان)
٣٩٥	٤٨ - ٥٦ - ٥٩ - ٦١ - ٦٦
أودغست (أودغشت)	٦٧ - ٨٤
٤٥ - ٦٢ - ٦٣ - ٧٤ - ٧٦	أفييدو
٩٠ - ٩٧ - ١١٢ - ١١٤ - ١١٥	٣٥١
١١٦ - ١١٧ - ١١٨ - ١١٩	أقليش
١٢٠ - ١٢١ - ١٣٠ - ١٣٧	٣٠ - ٣٥ - ٣٨٥ - ٣٨٦ - ٣٩٣
١٣٨ - ٢٠٧	٤٠٣
الأوراس (جبال)	اليسانة
٦٢	٣٢٩
أوروبا	المرية
٥٦ - ٩٥ - ١٢٣	٣٢٠
أوغام (مقاطعة)	أقرتندى
١١٨	٨٩
أوليل	أمريكا
٤٥ - ٥٠ - ٧٠ - ٩٧	٥٦
أوكار (منطقة)	الأندلس
١١٧ - ١١٨	٢٥ - ٢٦ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١
ايجلي	٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٨
٧٠ - ٨٦ - ٨٨ - ٩٧	٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٣ - ٤٤
أيونى (جزيرة)	٦٩ - ١٠٨ - ١١٢ - ١٢٠
٩٤ - ٩٧ - ٩٨ - ١٨٧	٢٣٠ - ٢٣٥ - ٢٤٥ - ٢٨٠
آير (هضبة)	٢٨١ - ٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٨٦
٤٥ - ٤٦ - ٥٤ - ٥٩ - ٦١	٢٩٣ - ٢٩٦ - ٣٠٠ - ٣٠٢
٧١ - ١٢٢ (آهير) - ١٢٣	٣٠٣ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣١٢
(ب)	٣١٦ - ٣١٧ - ٣١٨ - ٣١٩
بامبوك	٣٢١ - ٣٢٥ - ٣٣٢ - ٣٣٣
٦٦ - ٧٦ - ١١٩ - ٢٧٠	٣٣٤ - ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٣٨
بانكلاين (مدينة)	٣٣٩ - ٣٤٤ - ٣٤٧ - ٣٥١
١١٣ - ١٢٠	٣٥٢ - ٣٥٣ - ٣٥٦ - ٣٥٧
بجاية	٣٥٩ - ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٥
٤٤ - ٦٩ - ١٤٢	٣٦٦ - ٣٦٨ - ٣٧١ - ٣٧٩

- ٤٥٣ -

- ٣٥٥ - ٣٣٩ - ٣٢٨ - ٣٢٤	- بحر الغزال
- ٣٦٠ - ٣٥٩ - ٣٥٧ - ٣٥٦	٦٢
- ٣٦٧ - ٣٦٣ - ٣٦٢ - ٣٦١	- البحر المتوسط
٣٩٢	٤٨ - ٥٦ - ٥٨ - ١٠١ - ١٢٢
- بنبلونة	١٣٤ - ٢٠٤ - ٣٥١
٣٠٤	- البحر المحيط (الأطلنطي)
- بوغرات (مدينة)	٣٨ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٨ - ٦٣
١٣٥	٦٥ - ٧٠ - ٩٤ - ٩٧ - ٩٨
- بورجرج (أبو الرقراق)	١٠٤ - ١١٤ - ١٦٦ - ١٧٦
٢٢٧ - ٢١٨	١٨٢ - ١٨٧ - ١٨٨ - ٢٠٤
- بولاق	٣٥١
٣٢	- البرتغال
(ت)	٣٩٧
- ناننال	- برشلونة
٩٧	٣٢٠
- ناجة (وادي)	- برقة
٣٣٥ - ٣٠٤	٤٤ - ١٠٤ - ١١٥ - ٤٠٢
- تادلا	- بسطة
- ٢٢٨ - ٢٢٧ - ٢٢٠ - ٢١٦	٣٥٣ - ٣٢٠
٢٣١ - ٢٢٩	- بسكرة
- تادمكة	٦٢
- ٩٧ - ٧٨ - ٧٤ - ٤٦ - ٤٥	- البصرة
- ١٢٩ - ١٢٢ - ١٢٠ - ١١٥	١١٤
٢٦٩ - ١٣٨	- بطليوس
- تارودانت	٣٠٣ - ٣٣٢ - ٣٣٦ - ٣٤٩
٢١٥ - ١٣٥ - ٨٩ - ٥٩ - ٥٠	٣٥٠ - ٣٥٢ - ٣٦٨ - ٣٩٦
٢٣٣ - ٢١	- البطن
- تاركا : طارقه ، تارغه ، ترغه	٥٢
- ٨٨ - ٧٣ - ٧١ - ٦٩ - ٣٢	- بغداد
١٣٤ - ١٢١ - ١٠٩ - ١٠٥	٣٩ - ٤٠ - ٤٣ - ١٣٩ - ١٥٩
- تازا	١٦١ - ١٦٢ - ٣١٥ - ٤٠٣
٢٧٩ (أحواز)	- بلنسية
- تافساسيت (أودية)	٣٠ - ٣٣ - ٣٥ - ٣٠٤ - ٣١٩

- ٤٥٤ -

٦١	- تمنغست
- تاليوين (قرية)	٨٩ - ٥٦
٢١١	- تندوف (نول)
- تامدلت (تمادلت)	٥٤ - ٥٦
٦٢ - ٩٧ - ١١٣ - ١٣٤ - ٢١٠	- تنسيفت (وادي)
- تامسنا	٢٤٠
٢١٦ - ٢١٨ - ٢١٩ - ٢٢٠	- نوات (عين صالح)
- تامنرست	٤٥ - ٤٨ - ٦١ - ٦٢ - ٧١
٦١	١١٤
- تاهرت	- تومبوكتو
١٠٥ - ١١٥ - ١٣٥	٤٥ - ٥٠ - ٦٥ - ٨٣ (جنيوة)
- تاوديني (حوض)	١٠١ - ١٠٣ - ٢٧١
٥٤	- تونس
- تبفريلي (موقعة)	٦٨ - ١١٥
٢١٠ - ٢١٢	- تيبستي
- التركستان	٤٥ - ٥٤ - ٦١ - ٦٢ - ١٠٤
٤٣	١٢٣
- تساليت	- تيدال
٤٥	٥٨
- تطيلة	- تيويوين
٣٦٨ - ٣٩٣	١٣٥
- تشاد	(ث)
٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٨ - ٥٩	- الشجر الأعلى
٦٠ - ٦٢ - ١٠٤ - ١١٤ - ١١٥	٣٥ - ٣٧ - ٢٨٨ - ٢٣٧ - ٣٤٤
١٢٣	٣٥١ - ٣٥٩ - ٣٦٣ - ٣٦٥
- تغازة	٣٦٨ - ٣٩١
٤٦	- الشجر الأدنى
- تلمسان	٣٥١
٣٢ - ٥٠ - ١١٤ - ١١٥ - ٢٣٨	- ثغور الأندلس
٢٧٧ - ٢٧٨ - ٢٨٠ - ٣٩٥	٤٤ - ١٥٠ - ٣٣٩ - ٣٦٦
٤٠١	٣٦٧
- تمامانوت (قرية)	(ج)
١٧٤	- جامبيا (نهر)

— ٤٥٥ —

الجزيرة الخضراء	٦٠ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٨٨ -
٢٨٦ - ٢٩٩ - ٣٢٠ - ٣٣٥ -	٨٩ - ٩٤ - ١٣٠
٣٦٧ - ٣٤٠	جامع القرويين
الجزيرة (الأندلس)	٣١ - ١٣٩٠
٤٣ - ٣٧	جامع القيروان
جنى (جنة)	١٣٩ - ١٧٠
١٠٣ - ٨٣	جامع ابن لهيعة
جيان	١٤٩
٣٨٥ - ٣٤٢ - ٣٢٠	جامع سبتة
جيد مكة	٣٣٣
٦٠	جامع الكتبية
	٢٤٤ - ٢٤٥

(ح)

الحجار (الهقار)	جبل كزولة (جزوالة)
١٠٤ - ٦٢ - ٦١ - ٥٩ - ٥٤	٢٩ - ٧٠ - ٧٧ - ٨٦
١٢٣	جبل لتونة
الحجاز	٢١٠ - ٢١١ - ٢١٣
١٤٠ - ١٣٩	جبل المصامدة
الحمادة	٢١٦ - ٢٣٨
٦٥ - ٥٢	جبل علودان
الحوض	٢٧٩
٦٠	جبل غيابة

(خ)

الخارجة (واحة)	جبال المغرب الأقصى
٥٠	٢٢٤
خراسان	جرسيف
١٣٠	٢٨١
خليج غينيا	الجريد (بلاد)
٦٥ - ٤٨	٥٩ - ٦١ - ٦٢ - ٧١ - ٨٦

(د)

	الجزائر الشرقية (ميورقة)
دارفور	٣٥٤ - ٣٥١
٥٠	الجزائر
داكار	٤٥ - ٦٢ - ٦٨ - ٧١ - ١١٤ -
٦٥ - ٥٤	١٦٥

- ٤٥٦ -

٣٣٥ - ٣٣٧ - ٣٤٠ - ٣٤٣	- دانية
٤١ - ٣٣٨ - ٣٥٤ - ٣٥٥ - ريغ (وادي)	
٣٥٨ - ٦١ - ٦٢	
٣٥ - ريه	- درعة
٥٠ - ٦٢ - ٦٣ - ٦٥ - ٧١	
٧٣ - ٨٦ - ٨٨ - ٩٠ - ٩٨	
(ن)	
١٠٥ - ١١٣ - ١٢١ - ١٦٥ - الزاب (بلاد)	
١٨٥ - ٢٠٤ - ٢١٣ - ٢٢٨	
٢٨٠ - ٦٢ - ٦٩	
- الزلاقة	
٤٣ - ٣٠٢ - ٣٠٤ - ٣١٠	- درن (جبل الأطلس)
٣١١ - ٣١٢ - ٣١٣ - ٣١٤	٤٦ - ٥٤ - ٥٩ - ٦١ - ٦٢
٣١٦ - ٣١٧ - ٣١٨ - ٣١٩	٦٨ - ٧٦ - ٩٧ - ١٠٢ - ١٣٦
٣٢٠ - ٣٢٤ - ٣٢٥ - ٣٢٨	٢٠٤ - ٢١٤ - ٢٣١ - ٢٤١
٣٣٥ - ٣٣٩ - ٣٤٦ - ٣٥٢	٣٧٩
٣٥٦	- الدمدم (بلاد)
- زويلة	٩٩
٤٥ - ١٢٣	(د)
(س)	- الرأس الأخضر
- الساحل (اقليم)	٥٨ - ٥٤
٥٨ - ٥٩ - ٦١ - ٦٤ - ٧٣	- الرباط
٨٤ - ٨٦ - ٨٩ - ١١٥ - ١٢٤	٢٩ - ٣١ - ٣٤ (١٧٥ رباط)
٢٧١	وجاج (١٧٥ - ١٧٦ - ١٨١)
- السالون (نهر السنغال)	١٨٢ (وجاج) - ١٨٣ (رباط بن)
٦٥	ياسين (١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧)
- سان لوى (بالسنغال)	١٨٨ - ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩١
٦٥ - ٦٦	١٩٢ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦
- الساوره (نهر)	١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٢
٥٩ - ٦٢	٢٠٩ - ٢١٢ - ٢١٣
- السنجة	- الرباط (مدينة رباط الفتاح)
٦٥	١٨٤ - ٢٢٨ - ٢٢٩
- سبتة	- رباط قوز (جوز)
٣٢ - ٢١٦ - ٢٨٠ - ٢٨٢	٢٢٧
٢٩٦ - ٢٩٧ - ٣٠٣ - ٣٢٦	- رندة

- ٤٥٧ -

- ١١١ - ١٠٩ - ١٠٨ - ١٠٦	- ٣٣٧ - ٣٣٦ - ٣٣٣ - ٣٢٨
- ١٢٢ - ١٢٠ - ١١٨ - ١١٦	- ٣٥٩ - ٣٤٧ - ٣٤٠ - ٣٣٩
- ١٢٨ - ١٢٦ (صفائهم) ١٢٣	٣٨٤
- ١٣٧ - ١٣٤ - ١٣٠ - ١٢٩	- سيجلماسة (تافلتت)
- ١٧٤ - ١٦٥ - ١٥٠ - ١٣٨	- ٧١ - ٦٣ - ٦٢ - ٤٦ - ٢٨
- ١٨٨ - ١٨٦ - ١٧٧ - ١٧٥	- ٩٤ - ٩٠ - ٨٨ - ٨٦ - ٧٤
- ٢٠٩ - ٢٠٧ - ٢٠٤ - ٢٠١	- ١١٤ - ١١٣ - ١٠٩ - ٩٧
- ٢٤٩ - ٢١٣ - ٢١١ (مسلحة)	- ١١٥ - ١١٦ - ١١٣ - ١٣٥
- ٣٠١ - ٢٧٠ - ٢٦٦ - ٢٥١	- ١٢٧ - ١٦٥ - ١٣٨ - ١٧٥
٤٠٤ - ٣٨١ - ٣٠٩	- ١٨٥ - ٢٠٦ - ٢٠٤ - ٢٠٧
- السورو (نهر)	- ٢٠٨ - ٢١٠ - ٢٠٩ - ٢١٣
٦٥	- ٢١٤ - ٢٢٧ - ٢١٥ - ٢٢٨
- السوس الأدنى	٢٦٦
- ٢٣٦ - ٢٣٥ - ٢٣٤ - ٢٣٣	- سجو (نهر)
٢٧٤ - ٢٧٣ - ٢٦٨	٦٠
- السوس الأقصى	- سرقسطة
- ٧٠ - ٦٨ - ٥٩ - ٤٦ - ٤٥	- ٣٢٨ - ٢٨٨ - ٢٨٧ - ٣٥
١١٣ - ٩٤ - ٨٩ - ٨٦ - ٧٦	- ٣٩٠ - ٣٦٥ - ٣٦٣ - ٣٣٧
- ٢٠١ - ١٦٤ - ١٣٦ - ١٣٥	٣٩٣ - ٣٩١
- ٢١٦ - ٢١٤ - ٢٠٦ - ٢٠٤	- السعودية
- ٢٢٨ - ٢٢٧ - ٢١٨ - ٢١٧	٢٨
- ٢٣٩ - ٢٣٦ - ٢٣٤ - ٢٣١	- سلا
٣٨٠ - ٣٢٥ - ٢٦٨ - ٢٤٥	٢٧٣ - ٢١٨
- سوسة (باط)	- السنغال
١٨٣	- ٤٦ - ٥٢ - ٦٠ - ٦٤ - ٦٥
- سوف (جنوب شرق الجزائر)	١٨٨ - ٩٤ - ٩٠ - ٦٨ - ٦٦
٩٢ - ٨٦ - ٨٣ - ٤٨	- وانظر نهر
- سيراف	- السودان
١١٤	- ٢٥ - ٣٣ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٥
- السين (نهر السنغال)	- ٤٨ - ٥٠ - ٥٤ - ٥٨ - ٥٩
٦٥ - ٦٠	- ٧٣ - ٧٠ - ٦٩ - ٦٣ - ٦٢
(ش)	- ٧٦ - ٨١ - ٨٣ - ٨٤ - ٩٥
- شارى (نهر)	- ٩٦ - ١٠١ - ١٠٣ - ١٠٥

- ٤٥٨ -

١٧٦ - ١٧٥ - ١٧٤ - ١٧٢	٦٢ - ٤٥
١٨٥ - ١٨١ - ١٨٠ - ١٧٧	شاطبة -
١٩٢ - ١٩٠ - ١٨٨ - ١٨٦	٣٥٧ - ٣٥٤ - ٣٣٨
٢٠٨ - ٢٠٤ - ٢٠١ - ١٩٣	الشام -
٢٤٩ - ٢٣٧ - ٢٣٦ - ٢٠٩	١٣٩ - ١٠٥ - ٣٨
٢٧١ - ٢٦٤ - ٢٥٦ - ٢٥٢	الشرق (من البلاد الأندلسية) -
٣٩٩ - ٣٧٩ - ٣٢٦ - ٢٧٢	٣٥٤ - ٣٥٢ - ٣٥١ - ٣٨ - ٣٠
صقلية -	٣٥٩ - ٣٦٣ - ٣٦٧ - ٣٦٩
٤٤ - ٣٥١	شقورة -
صنغانية (صونفاى) -	٢٣٨ - ٢٢٠
٧١ - ٦٤ - ٦٣	شقندة -
(ط)	٣٥٣
طبرستان -	شنتبرية -
١٣٠	٣٥١ - ٣٥٩ - ٣٦٥ - ٣٨٥
طرابلس -	شنت ياقب -
١١٥ - ١١٤ - ٩٥ - ٦٨ - ٤٥	٣٥١
طرطوشة -	شيشاوة (مدينة) -
٣٥٤ - ٣٣٨ - ٣٠٤	٢١٧
طريفة -	(ص)
٣٥١	الصحراء (صحراء المغرب) -
طريق الحرير -	٢٥ - ٢٧ - ٢٨ - ٣٠ - ٤٣
١٨٤	٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٠
طليعة -	٥٢ - ٥٤ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٩
٣١٩ - ٣٨٨ - ٣٠	٦٠ - ٦١ (وهران) - ٦٢
طليطة -	٦٤ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٤ - ٧٨
٢٨٧ - ٢٨٦ - ٢٨١ - ٤١ - ٣٥	٨١ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ٩٠
٢٩٣ - ٢٩٢ - ٢٩٠ - ٢٨٩	٩٢ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٧ - ٩٨
٣٣٠ - ٣٢٤ - ٣١٩ - ٣٠٣	٩٩ - ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٤
٢٦٠ - ٣٥٥ - ٣٥٢ - ٣٣١	١٠٥ - ١٠٦ - ١١٠ - ١١١
٣٩٠ - ٣٨٩ - ٣٨٥ - ٣٦٦	١١٣ - ١١٦ - ١١٩ - ١٢٠
طنجة -	١٢٣ - ١٢٤ - ١٢٦ - ١٣١
٢٨٣ - ٢٨١ - ٢٨٠ - ٢١٦	١٣٤ - ١٣٥ - ١٣٦ - ١٣٧
٢٨٥	١٤٩ - ١٥٠ - ١٥٥ - ١٧٠

- ٤٥٩ -

- ٣٦٨ - ٣٦٦ - ٣٦٤ - ٣٦٣	(ع)
- ٣٨٦ - ٣٨٥ - ٣٨٠ - ٣٦٩	العدوة -
٣٩٨ - ٣٩٠ - ٣٨٩	٤١ - ٣١٧ - ٣٣٧ - ٣٧٥
(كئبان الرمل) -	٤٠١
٥٠	العراق -
غمارة -	٣٨ - ٥٤ - ١٣٠
٢٨٣ - ٢٧٩ - ٢٥٧ - ٢١٧	العرق -
(ف)	٥٢ - ٦٠ - ٦٥
فارس -	عين صالح (توات) -
١٣٠	٤٥
فاس -	(غ)
- ١٠٤ - ٦٢ - ٥٠ - ٣٢ - ٣١	غاليسيا -
- ١٥٧ - ١٣٩ - ١٣٨ - ١١٥	٣٥١ - ٣٠٤
- ٢٣٦ - ٢٣٥ - ١٦٠ - ١٥٨	غانة -
- ٢٦٨ - ٢٥٨ - ٢٥٧ - ٢٥٣	٢٥ - ٦٠ - ٦٤ - ٧١ - ١٠٣
- ٢٨٠ - ٢٧٧ - ٢٧٦ - ٢٧٥	١٠٥ - ١١٢ - ١١٣ - ١١٤
٣٨٢ - ٣٨٠ - ٢٨٣	١١٦ - ١١٧ - ١١٨ - ١١٩
الفجارات -	١٢٩ - ١٧٤ - ١٨٨ - ٢٠٤
٦٢	٢٦٩ - ٢٧١
فحص البرنس -	غدامس -
٢٦٤	٤٦ - ٦٨ - ٨٦ - ٨٩ - ٩٧
الفرلو (اشرقى) -	١٣٨
٦٥ - ٦٠	الغرب (غرب الأندلس) -
الفرنچ (بلاد) -	٣٨ - ٣٥١ - ٣٥٢ - ٣٥٩
٣٥٣	٣٦٦ - ٣٦٨ - ٣٦٩
فزان -	غرب أفريقيا -
- ١١٥ - ٧٤ - ٥٩ - ٤٨ - ٤٥	٢٥
١١٦	غرب أوروبا -
فولتا (نهر) -	٢٥
٦٥	غرناطة -
(ق)	٤٤ - ٣٢٠ - ٣٢٣ - ٣٢٦
القاهرة -	٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٣٠ - ٣٣١
١٤٠ - ٥٠ - ٤٣ - ٣٥ - ٢٩	٣٣٢ - ٣٣٦ - ٣٣٨ - ٣٣٩
	٣٥٢ - ٣٥٥ - ٣٥٩ - ٣٦٠

- ٤٦٠ -

- قلعة مهدى	- قبيرة
٢٥٣	٣٥٤ - ٣٥٣
- قلييرة	- قرطبة
٣٦٢	٢٧ - ٢٩ - ٣٤ - ٣٦ - ٣٧
- قنقارة (جنجارة)	٢٨ - ٣٩ - ٤١ - ١٤٢ - ١٥٧
١٢٠ - ١١٣	١٥٨ - ٢٩٥ - ٣٠٣ - ٣٣٥
- القيروان	٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٣٩ - ٣٤٢
٢٩ - ٤٣ - ١٠٩ - ١١٣	٣٤٣ - ٣٥٣ - ٣٦٦ - ٣٦٧
١١٥ - ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٠	٣٧٩ - ٣٨٢ - ٣٨٣ - ٣٨٥
١٤٩ - ١٥٠ - ١٥٧ - ١٥٩	٣٨٩ - ٣٩٦ - ٣٩٨ - ٤٠٢
١٦٠ - ١٦١ - ١٦٣ - ١٦٤	٤٠٣ - ٤٠٤
١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٩ - ١٧١	- قرمونة
١٧٢ - ١٧٥ - ١٧٦	٣٠٣ - ٣٣٥ - ٣٤٠ - ٣٤٣
(ك)	٣٤٧
- كاكدم (قاقدم أو قوقدل)	- قسطبية
أنظر أزقي	٨٨
٣٢ - ٧٠ - ١٠٦ - ١٢٩ (قوقدم)	- قسنطينة
- الكاناري (جزر)	٦٩
١٣١	- قشتالة (والقشتاليون)
- الكانم	٤٣ - ٢٨٠ - ٣٠٤
٥٠ - ١١٤ - ١١٥	- قصر الحجر (دار)
- كاييس (منطقة)	٢٤٤
١١٩	- القطب
- كربلاء	٥٧
٩٧ - ١٠٦	- قفصة
- كتندة	٧١
٤٠٧	- القلعة (بالاندلس)
- كريفلة (موقعة)	٣٥
٢٢٨	- قلعة رباح
- كوغة (مدينة)	٣٣٥ - ٣٤٥ - ٣٥١
١١٧	- القلعة (قلعة بنى حماد)
- كومبى صالح (كومبى بيشار)	٤٤
٦٤	- قلعة بهت

- ٤٦١ -

(ل)

- مرسية -
٤١٩ - ٣٢١ - ٣٢٣ - ٣٥٣ -
٣٥٤ - ٣٥٨ - ٣٥٦ - ٣٦١ -
٣٩٤
مراكش (بلاد) -
٢٥ - ٩٥ - ١٣٠ - ١٥٥ - ١٧٥ -
٣٣٦
مراكش (المدينة) -
٣٥ - ٤٠ - ٤٥ - ٢١٤ - ٢٣٦ -
٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٢ -
٢٤٥ - ٢٤٦ - ٢٥٤ - ٢٦٠ -
٢٦١ - ٢٦٧ - ٢٦٨ - ٣١١ -
٣١٦ - ٣٣٣ - ٣٥٨ - ٣٦٤ -
٣٦٦ - ٣٦٩ - ٣٨١ - ٣٨٢ -
٣٨٥ - ٣٨٩ - ٣٩٤ - ٣٩٨ -
المرية -
٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٤١ -
المشرق (الايراني) -
٨٦ - ١٣٢ (الايراني) - ١٣٩ -
١٤٠ - ١٤٢ - ١٥٦ - ١٦٠ -
١٦١ - ١٦٢ -
المشرق -
٢٧ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ -
مصر -
٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ١١٥ - ١٣٢ -
١٤٥ - ١٤٩ - ١٥٦ - ١٥٨ -
المضيق (جبل طارق) -
٢٥ - ٢٦ -
المغرب -
٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٩ - ٣٠ -
٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٤٠ -
٤٣ - ٤٤ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٦ -
٧٧ - ٨٣ - ٨٦ - ٩٠ - ١٠٢ -
- لبدة -
٤٨
لشبونة (اشبونة) -
٣٥١ - ٣٩٦ -
لوانة (بلاد) -
٢٣٣ - ٢٣٦ -
لورقة -
٣٥٣
ليبيا -
٤٥ - ٤٦ - ٥٠ - ٥٩ -
ليون -
٣٥١
لييط (حصن) -
٣١٨ - ٣٢٠ - ٣٢١ - ٣٢٤ -
٣٢٥ - ٣٢٧ - ٣٣٩ - ٣٥٢ -
٣٥٣ - ٣٦٢ -
- (م)
ماسيت « ماسة السوس » -
١٧٥ - ١٨٢ - ١٨٤ (رباط) -
١٨٧ - ٢٧٥ -
مالطة -
٣٢٠ - ٣٢٦ - ٣٢٧ - ٣٣٦ -
مالى -
٤٥ - ٤٦ - ٦٠ -
مدريد -
٣٥
المدينة الاسلامية -
١٨١
المدينة المنورة -
١٤٥
مدينة سالم -
٢٩٠

- ٤٦٢ -

١٠٣ - ١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ -	٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٠ -
١٠٨ - ١١٣ - ١١٤ - ١١٥ -	٥٢ - ٥٤ - ٩٢ - ١٠٣ - ٢٧٠ -
١٢٠ - ١٣٠ - ١٣٤ - ١٣٨ -	المهدية -
١٣٩ - ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٥ -	٤٤ - ٣٤٨ -
١٤٩ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٩ -	ملوية (بلاد) -
١٦١ - ١٦٦ - ١٧٤ - ١٨٣ -	٢٣٦ - ٢٥٦ - ٢٧٤ -
٢٠١ - ٢١٢ - ٢٢٦ - ٢٣٣ -	ميورقة -
٢٣٦ - ٢٤٥ - ٢٤٩ - ٢٥٠ -	٣٥ - ٤١ - ٤٠١ -
٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥ -	(ن) -
٢٥٦ - ٢٦٤ - ٢٦٨ - ٢٧٢ -	
٢٧٣ - ٣٣١ - ٣٣٥ - ٣٦٥ -	النخل -
٣٧٠ - ٣٧٩ - ٣٨١ - ٣٩٥ -	٥٩ - ٨٨ - ٨٩ - ١٠٢ - ١١٥ -
المغرب الأقصى -	نهر السنغال -
٤٤ - ٢١٣ - ٢١٥ - ٢١٨ -	٤٥ - ٥٩ - ٦٤ - ٦٥ - ١٠٣ -
٣١٧ -	١١٩ - ١٨٧ - ١٨٩ - ١٩٤ -
المغرب الأوسط -	٢٦٩ -
٣٢ - ٢٣٥ -	نجامينا -
مكناس (مكناسة) -	٤٥ -
٢٥٧ - ٢٧٤ - ٢٨٠ - ٢٣١ -	نفوسة (بلد) -
٣٨٠ - ٣٤٧ -	٥٠ -
مكة -	نفيس (وادي ، بلاد) -
١٤٠ - ١٤١ - ١٥٨ -	١٧٢ - ١٧٥ - ٢١٧ - ٢٤٠ -
ملازكرد -	نواكشوط -
٤٣ -	٤٥ -
ملكوس -	نول (لمطة) : (تندوف) -
١٧٣ - ١٧٥ -	٢٨ - ٤٥ - ٥٠ - ٧٠ - ١١٤ -
مليلة -	١٣١ - ٢٠٤ -
٢٨١ -	نيامي -
٤٥ -	
ممالك الشمال (المسيحية) -	النيجر (جمهورية) -
٣٧ - ٤٣ -	٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٠ - ٥٢ -
المنستير (رباط) -	٥٨ - ١١٤ -
١٨٣ -	النيجر (نهر) -
موريتانيا -	٦٢ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ - ٧٦ -

- ٤٦٣ -

(و)	٩٠ - ١٠٣ - ١٨٦ - ٢٦٩
- واحات مصر	- نيجيريا
١١٥ - ٨٩ - ٥٩ - ٥٠	٤٥ - ٦٠ - ٦٦ - ٦٧
- وادى آش	- نيسابور
٣٦٠	١٦١
- وادى تنسيفت	- النيل (السودانى)
١٧٥	٦٣ - ٦٤ - ٩٥ - ١٨ - ١٨٨
- وادى نون	- نيمى (مدينة)
٥٤	- نيورو
- وارجلان	٦٠
٨٦ - ٦١ - ٥٩ - ٤٦ - ٤٥	
٨٨	(ه)
- الوالى (سهل)	- هرمز
٦٥	١١٤
- وهران	- الهند
١١٤	١١٤
(ى)	- هيلانة
- اليسانة	٢٤٠ - ٢٤١
٣٦٦	

✽ مع الشكر للطبيبة/فاطمة سعد زغلول ، على مساعدتها الذكية فى
عمل الفهارس .

رقم الايداع ١٩٩٥/٤٩٩٩

I. S. B. N

977 — 03 — 0194 — 9

مطبعة أطلس

١١ ، ١٣ شارع سوق التوفيقية

تليفون : ٥٧٨٣٧٩٧ - القاهرة

